

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القري
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية

بِإِذْنِ الشَّافِعِيِّ الْعَرِشِ الْمَغُولِيِّ

٦١٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٩ م

رسالة مقدمة
لشئيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي



إعداد المحاضر
علي محمد علي عوده الغامدي

إشراف الأستاذ الدكتور

صابر محمد باب

١٤٠٥ / ١٤٠٦ هـ

١٩٨٥ / ١٩٨٦ م



قَالَ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَلِنَعْلَمَ مَا أَذُنٌ حَرِيصَةٌ

سورة الحاقة آية " ١٢ "

مختار من الرسائل

محتويات الرسالة

<u>الموضوع</u>	<u>رقم الصفحة</u>
المقدمة : دراسة نقدية لأهم مصادر البحث	٢ - ٢٦
<u>الفصل الأول</u>	٢٧ - ١١٥
<u>الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين</u>	
٥٨٩ - ٦١٥ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٨ م	
١ - انقسام بلاد الشام وحرب الوراثة الايوبية وأثرها على	
اوضاع بلاد الشام	٢٨ - ٤٧
٢ - العادل ابوبكر بن أيوب وسيطرته على مقاليد الامور	
في بلاد الشام	٤٨ - ٦٣
٣ - الممالك الايوبية في بلاد الشام	٦٤ - ١١٥
أ (مملكة حلب	٦٤ - ٩١
ب (مملكة حماه	٩٢ - ١٠١
ج (مملكة حمص	١٠١ - ١٠٩
د (مملكة دمشق	١٠٩ - ١١٢
هـ (بقية الامارات الايوبية في بلاد الشام	١١٢ - ١١٥
<u>الفصل الثاني</u>	١١٦ - ٢٢١
<u>العلاقات الداخلية بين ملوك بني ايوب ونتائجها</u>	
<u>على النفوذ الايوبي في بلاد الشام ٦١٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٩ م</u>	
١ - وفاة السلطان العادل ابوبكر بن ايوب سنة ٦١٥ هـ /	
١٢١٨ م ونتائجها على احوال بلاد الشام السياسية	١١٧ - ١٢١

الموضوع	رقم الصفحة
٢ - العلاقات بين ابناء السلطان العادل وأثرها في بلاد الشام ٦١٥-٦٢٥هـ/١٢١٨-١٢٢٧م	١٥٦ - ١٢٢
٣ - الحرب الاهلية في بلاد الشام ونتائجها ٦٣٥-٦٤٢هـ	١٨٩ - ١٥٧
٤ - الصالح أيوب واعادة توحيد الدولة الأيوبية ٦٤٣-٦٤٧هـ	٢٠١ - ١٩٠
٥ - بلاد الشام في مفرق الطرق (انهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك ٦٤٧-٦٥٧هـ/١٢٤٩-١٢٥٩م)	٢٢١ - ٢٠٢
الفصل الثالث	٢٣٠ - ٢٢٢

موقف ملوك بنو أيوب من الصليبيين في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٥٦هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٨ م

١ - الموقف في بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين	٢٤٨ - ٢٢٣
٢ - اثر الحملة الصليبية الخامسة في تاريخ بلاد الشام	٢٨١ - ٢٤٩
٣ - خلفاء السلطان العادل وموقفهم من الصليبيين	٣١٠ - ٢٨٢
٤ - الصالح أيوب واسترداد بيت المقدس ومعركة غزة	٣١٩ - ٣١١
٥ - الموقف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام	٣٣٠ - ٣٢٠

٤٣٣ - ٣٣٢

الفصل الرابعالعلاقات الخارجية لملوك بني أيوب وأثرها في تاريخبلاد الشام

٣٨٩ - ٣٣٣

أولا - مع القوى الإسلامية :

٣٥٠ - ٣٣٣

* مع الخلافة العباسية

٣٧٣ - ٣٥٠

* مع سلاجقة الروم

٣٨٩ - ٣٧٤

* ظهور خطر الخوارزمية

٤٣٣ - ٣٩٠

ثانيا - مع القوى غير الإسلامية :

٤٠٥ - ٣٩٠

* مع مملكة أرمينية الصفري

٤١٤ - ٤٠٥

* مع الامبراطورية الغربية المقدسة

٤٣٣ - ٤١٥

* ظهور خطر التتار

٥٣٢ - ٤٣٤

الفصل الخامسأهم مظاهر التطور الحضاري في بلاد الشام

٥١٠ - ٤٣٥

الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي

- دور ملوك بني أيوب في ازدهار الحركة الفكرية ٤٥٥ - ٤٣٥

- أهم المدارس في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ٤٦٤ - ٤٥٦

- علوم الشريعة ٤٧٧ - ٤٦٥

- علوم العربية (النحو واللغة والشعر والأدب) ٤٩٤ - ٤٧٧

- الفلسفة ٥٠٠ - ٤٩٥

- الدراسات الطبيعية (الطب والصيدلة ،

٥١٠ - ٥٠١

والرياضيات والفلك)

<u>الموضوع</u>	<u>رقم الصفحة</u>
أهم ملامح الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي : (الزراعة ، الصناعة ، التجارة)	٥١١ - ٥٢٦
- أهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة	٥٢٧ - ٥٣٢
* الخاتمة	٥٣٤ - ٥٤٤
* الملاحق	٥٤٥ - ٥٦٧
* المصادر والمراجع	٥٦٩ - ٥٩٣
* الخرائط	٥٩٤ - ٦٠٣

الحق، سَمَاء

وَرَسْمًا قَدِيمًا لِلْفِي مَصَاوِرِ الْجَنَّةِ

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، والصلاة
والسلام على سيدنا محمد نبي الهدى ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار
على نهجهم الى يوم الدين .

وبعد :

فمن المعروف أن ما ساعد على نجاح المغول في غزواتهم للعالم
الاسلامي أنهم وجدوا أمامهم أمة اسلامية مفككة ، فقدت قوتها ووحدتها
منذ زمن طويل ولم يقتصر الأمر على الانقسام فحسب ، وانما انغمس
المسلمون في نزاع لا ينتهي بين بعضهم البعض وفي ذلك دليل على
أنه قبيل الحوادث الكبرى في التاريخ تتلاحم وتتشابك وتتداخل الأوضاع
السياسية وتضطرب ، وكأن هناك نوعاً من النذر والارهاصات بما تخبئه
الأيام من مجيئ غزوات جديدة من الشرق هي غزوات المغول . ان
شهدت بلاد الشام قبيل الغزو المغولي فترة بالغة الاضطراب ، اشتد
فيها الصراع والتطاحن بين الأيوبيين ما كان له أسوأ الأثر على الجبهة
الاسلامية ، بحيث تحول ميزان القوى في بلاد الشام لصالح الصليبيين
وتحول المسلمون من موقف القوة والهجوم لاسترداد البلاد المغتصبة
الى موقف الدفاع عما بقي بحوزتهم من البلاد ، فضلاً عن تحول تيار
الحركة الصليبية نحو مصر بقصد الاستيلاء عليها باعتبارها مركز القوة
الاسلامية . ودخل عناصر جديدة في الحياة السياسية في بلاد الشام
مثل الخوارزمية والمماليك ، وما ترتب على ذلك من زيادة الاضطراب والتناقض
الذى تمخض في النهاية عن سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك . كل
ذلك دفعني لمعالجة هذا الموضوع وأرجو أن أكون قد وفقت فيه .

وقد اعتمد البحث على مصادر كثيرة ومتنوعة ، من أهمها كتاب

(الكامل في التاريخ) لابن الأثير . وهو أحد ثلاثة أخوة عرفوا جميعاً

بالعلم والفضل . اشتهر الأكبر مجد الدين ابو السعادات بدراسة
علوم القرآن والحديث والنحو ، بينما اشتهر الاصغر ضياء الدين بالبحث
في علوم الادب والبلاغة - وهو الذي تولى وزارة الافضل بن صلاح الدين-،
أما الأخ الأوسط فهو المؤرخ المشهور عز الدين ابو الحسن علي بن أبي
الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ / ١١٦٠ - ١٢٣٣ م) (١).

ألف ابن الأثير العديد من الكتب التاريخية ، أفاد البحث من
أهمها وهو كتاب (الكامل في التاريخ) . وابن الأثير مؤرخ أصيل ،
وصاحب فكر ناقد ، ورواية دقيقة فاحصة ، ينظر للحوادث العظيمة
نظرة عميقة ويربط بين جزئياتها وما يتصل بها من حوادث ، فهو مثلاً
حين تحدث عن الحملة الصليبية الخامسة وتهديدها بلاد الشام
ومصر ، ربط بين خطر الصليبيين هذا القادم من جهة الغرب وبين
بدء الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر من جهة الشرق كخطريين
جسيمين هددوا العالم الاسلامي في وقت واحد (٢) .

وتظهر حساسة ابن الأثير التاريخية عندما تحدث عن غزوات المغول ،
فعلى الرغم من انه توفي سنة ٦٣٠ هـ فإن ما عاصره من غزوات المغول
الأولى جعله يتنبأ بالمصير الرهيب الذي ينتظر العالم الاسلامي على
أيدي المغول ، فقال عندما تحدث عن بدء غزوات المغول - حوادث سنة
٦١٧ هـ - : ((لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة

(١) سعيد عاشور : دراسة حول كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ،

في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٣ ،
وانظر أيضاً ، العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٤ .

(٢) انظر ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٧ .

استعظاما لها ،كارها لذكرها ،فأنا أقدم اليه رجلا وأوخر أخرى ،
فمن الذي يسهل عليه نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه
ذكر ذلك ؟ فياليت امي لم تلدني ،ويا ليتني مت قبل حدودها
وكنت نسيا منسيا .)) ثم يسرد غزوات المغول . كحادثة لا نظير
لها في التاريخ (١) .

وكتاب الكامل لابن الاثير هو تاريخ عام ،ركز فيه مؤلفه على تاريخ
العالم الاسلامي ،وحاول فيه التوازن بين الاقاليم ،فلم يدع أخبار
اقلية تطفئ على حوادث اقليم آخر ،واعتمد في ذلك على المصادر
الخاصة بكل قطر (٢) . وعلى الرغم من أن ابن الاثير يسير في كتابه
على طريقة الحوليات فانه كان يدرك عيوب هذه الطريقة ولهذا كثيرا
ما تحاشى تلك العيوب ،اذا رأى ان الحادثة الواحدة اذا قسمت
على السنين سوف تختل ،عندئذ يأتي بها متتابعة ،والامثلة على ذلك
كثيرة ، فهو - مثلا - حين تحدث عن الحملة الصليبية الخامسة
٦١٤ - ٦١٨ هـ أوردها كلها في حوادث سنة ٦١٤ هـ وقال : ((وسقناها
سياقة متتابعة ليتلوا بعضها بعضا)) (٣) .

وترجع أهمية كتاب الكامل لابن الاثير لموضوع البحث الى أن
مؤلفه كان معاصرا لجزء كبير من الحقبة موضع الدراسة حتى سنة ٦٢٨ هـ
حيث ينتهي تاريخه ،وقد أفاد البحث من الكامل في دراسة الموقف فني

(١) انظر ،ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٥٨ وما بعدها .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١ المقدمة ص ٢ - ٥ ؛ العريني : مؤرخو

الحروب الصليبية ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٠ .

بلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ ان تحدث بالتفصيل عن النزاع الذي دار بين ابنا صلاح الدين ودور عمهم العادل في ذلك الصراع ، غير انه يجب التنبيه الى عدم الاعتماد كلياً على ابن الاثير في هذه النقطة نظراً لأنه لم يشر اطلاقاً الى الدور الذي لعبه اخوه ضياء الدين ابن الاثير خلال وزارته للافضل حيث كان سبباً في ازدياد شقة الخلاف بين الافضل واخوته (١) . كما افاد البحث من كتاب ابن الاثير عند دراسة موضوعات : السلطان العادل وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد الشام ، والعلاقات بين ابنا السلطان العادل بعد موته ، والموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل ، والحملات الصليبية الخامسة واثرها في تاريخ بلاد الشام . اضافة الى العلاقات بين سلاجقة الروم والأيوبيين ، وعلاقة بلاد الشام بمملكة ارمينية الصغرى واثار غزوات المغول الاولى على الجزيرة وبلاد الشام (٢) .

ومن المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث كتاب (التاريخ المنصوري) لمؤلفه محمد بن علي بن نظيف الحموي المتوفى بعد سنة ٦٣١ هـ . وقد كان ابن نظيف الحموي كاتباً للملك الحافظ ارسلان شاه بن العادل صاحب قلعة جعبر ، ثم عمل بعد ذلك في خدمة المنصور بن الملك المجاهد صاحب حمص ، وصنف له كتاب (التاريخ المنصوري) وقدمه اليه . وهذا الكتاب عبارة عن ملخص لكتاب آخر كبير ألفه ابن نظيف يسمى (الكشف والبيان في حوادث الزمان) غير أنه

(١) انظر مايلي ص : ٣٥ - ٣٦ .

(٢) انظر مايلي الصفحات : ٥٠ - ٦٠ - ١٢٢ - ٢٥٢ - ٢٨٠ .

٣٥٠ - ٣٦٢ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ - ٤٢١ .

مفقود مع الأسف^(١) . والتاريخ المنصوري كتاب موجز لا نجد في قسمه الأول حتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ أى جديد لأنه ينقل باختصار شديد عن مصادر متوفرة^(٢) . إلا أن أهميته تظهر منذ سنة ٥٨٩ هـ بعد وفاة صلاح الدين ، حيث أصبح ابن نظيف شاهد عيان على ما ذكره ، فأورد معلومات جديدة انفرد بها عن بقية المصادر . وقد افاد البحث من تلك المعلومات وبخاصة اثناء الحديث عن العلاقات بين ابنا صلاح الدين ، والعلاقات بين الايوبيين في بلاد الشام وسلاجقة الروم حين تحالف الجانبان لصد خطر جلال الدين الخوارزمي ، وغارات الأتراك على الجزيرة واشركل ذلك على الجبهة الاسلامية ازاء المغول . كما انفرد ابن نظيف بمعلومات جديدة عن غارات المغول الأولى على الجزيرة ، ووصول رسلهم الى المجاهد صاحب حمص . وانفرد ايضا بالقاء اضاء جديدة على علاقة الايوبيين بالامبراطورية الغربية المقدسة ، اضافة الى الحملة الصليبية الخامسة وموقف الخلافة العباسية منها ، كما احتوى التاريخ المنصوري على معلومات هامة افادت البحث عند دراسة مملكة حمص وولايتها بالممالك الايوبية الاخرى في بلاد الشام^(٣) .

- (١) شاکر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢ ص ٢٥٥ ؛
وانظر أيضا ، التاريخ المنصوري مقدمة المحقق = وقد قام ابو
العيد دودو بتحقيق ونشر الجزء الاخير من التاريخ المنصوري .
٥٨٩ - ٦٣٠ هـ ، ط . دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢ حاشية رقم (١) .
(٣) انظر مايلى الصفحات : ٣٥٧ - ٣٦٣ ، ٤١٠ - ٤١١ ، ٤٢٠ ،
٤٢٢ .

ومن أهم المصادر لموضوع البحث كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) ومؤلفه أبو المظفر يوسف بن قزاوغي الملقب بسبط ابن الجوزي ، المتوفي بدمشق سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م . وقد ولد سبط ابن الجوزي سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م في بغداد ، ونشأ في كنف جده لأنه المؤرخ أبي الفرج بن الجوزي مؤلف كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأئمة) . ولما توفي أبو الفرج سنة ٥٩٢هـ / ١٢٠١م رحل حفيده أبو المظفر إلى الموصل في طلب العلم ، ثم غادرها إلى دمشق وهو ابن نيف وعشرين سنة . وظل يجد في طلب العلم حتى أصبح (إماماً عالماً ، فقيهاً واعظاً ، وحيداً في الوعظ ، علامة في التاريخ والسير) (١) .

وكتاب مرآة الزمان من أشهر مؤلفات سبط ابن الجوزي قال عنه أبو المحاسن ابن تغري بردي ، إنه ((في غاية التحرير والنقل عن الثقات ومن أَرخ بعده فقد تطفل عليه واغترف من بحرهِ واحتاج ، ولا سيما الذهبي والصفدي فان معولهما في تاريخيهما على تاريخه) (٢) . وقد أشار ابن تغري بردي إلى أن مرآة الزمان كان مصدره الأساسي لكتابه (النجوم الزاهرة) فقال : ((ونقلت منه في هذا الكتاب معظم حوادثه) (٣) .

اتبع سبط ابن الجوزي في كتابه طريقة الحوليات . وتتفاوت قيمته التاريخية من عصر إلى عصر تبعاً لموارده ، ففي أقسامه الأولى حتى

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ٨ ورقة ٤٤٢ أ .

(٢) المصدر نفسه والجزء والورقة .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٩ .

القرن الرابع الهجري تقل أهمية كتاب مرآة الزمان نظراً لأن سبط ابن الجوزي نقل عن مصادر معروفة ، ثم يعود الكتاب ويكتسي أهمية بالغة فريدة في نوعها ، في بعض أخبار القرن الرابع ومعظم القرن الخامس ، لكونه نقل عن مصادر مفقودة ومعاصرة لهذين القرنين . وفي حوادث القرن السادس تبدأ قيمة الكتاب في التضاؤل ، لتوفر المصادر التي نقل عنها ويعود للكتاب أهميته القيمة في أخبار النصف الأول من القرن السابع الهجري ، وهي الفترة التي عاصرها سبط ابن الجوزي كشاهد عيان (١) .

وترجع أهمية كتاب مرآة الزمان لموضوع الرسالة نظراً لأن سبط ابن الجوزي كان شاهد عيان لهذه الحقبة - موضع الدراسة - بل وشارك أحياناً في صنع التاريخ مثل الحملة الشعبية التي قادها من دمشق ضد الصليبيين سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م (٢) . كما كانت صلاته قوية مع ملوك دمشق مثل المعظم والأشرف والصالح أيوب وغيرهم (٣) ، لذلك فإن ما أورده من أخبار عن هذه الحقبة ، تعتبر جديدة ومفيدة وعنه نقل كثير من المؤرخين الذين اتوا بعده .

وقد أُنَادَ البحث من مرآة الزمان عند دراسة الموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل ، والحملة الصليبية الخامسة

(١) علي عودة الفامدي : بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ص ١٤ ؛

شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢ ص ٢٦١ .

(٢) انظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٣) انظر علي سبيل المثال سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨

الصفحات ٥٩٧ ، ٦٠٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ - ٦٥٤ ، ٧٢٨ .

وأثرها على أحوال بلاد الشام والدور الذي لعبه المعظم في التجسس على الصليبيين لمعرفة تحركاتهم، إضافة إلى العلاقات بين أبناء السلطان العادل، والحرب الأهلية، وكذلك عن حملة الإمبراطور فردريك الثاني ودخوله إلى بيت المقدس وموقفه من المسلمين، كما أورد سبط ابن الجوزي معلومات جديدة وقيمة عن معركة غزة ضد الصليبيين سنة ٦٤٢هـ (١).

وأفاد البحث من مرآة الزمان في دراسة الحياة العلمية في بلاد الشام ودور ملوك بني أيوب في تشجيع الحركة الفكرية حيث ترجم السبط لمشاهير العلماء في مختلف فروع العلم والمعرفة (٢).

ومن المصادر المهمة لموضوع البحث والتي لا تقل في أهميتها
عن كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، ما كتبه المؤرخ كمال الدين
عمر بن أحمد بن هبة الله ، من بني جرادة العقيلي والمعروف بابن العديم
وقد ولد سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م وتوفي سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م وهو من أسرة
عريقة في حلب ، اشتغلت بالعلم والفقه والقضاء والأدب والشعر على
مدى قرنين من الزمان ، وقد نشأ ابن العديم في حلب وتعلم فـي
مدارسها على يد العديد من العلماء ورافق أباه في بعض رحلاته إلى
دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز ، وجالس العلماء وأخذ عنهم .
(٣)

كتب ابن العديم العديد من الكتب في التاريخ والأدب، أشهرها
في التاريخ كتاب (بغية الطلب في تاريخ حلب) وكتــــــــــــاب

(١) انظر مالي الصفحات : ٢٥٦-٢٥٧، ٢٦٣-٢٦٩، ٢٨٢-٢٨٩، ٣١٦-٣١٧.

(۲) انظر مايلي ص: ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٦٦، ٤٦٨ - ٤٧٤.

(۳) یاقوت الحموی : معجم الادباء ج ۱۶ ص ۵-۶۷ ؛ ابن کثیر:

البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٦ ؛ ابن تفرى برى : النجوم

الزاهرة ج ٧ ص ٢٠٨-٢٠٩؛ شاكر مصطفى : التاريخ العربي

والموء رخون ج ۲ ص ۲۶۳ .

(زبدة الحلب من تاريخ حلب) وكلاهما من أهم المصادر لتاريخ بلاد الشام حتى النصف الاول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . وقد ألف ابن العديم بغية الطلب على طريقة التراجم ، وترجم فيه لأعيان حلب ، ولكل من دخلها واتصل بها من الأعيان والساسة والقادة والعلماء والفقهاء ، والقضاة وغيرهم . وكان في نحو أربعين مجلدا ، غير أن مما يؤسف له أن هذه الموسوعة الضخمة فقدت ولم يبق منها سوى عشر مجلدات فقط ^(١) . ولم يقد البحث الا قليلا من الاجزاء الباقية نظرا لأن أسماء رجال حلب وطوائفها خلال الفترة موضع الدراسة وقعت اكثرها في المجلدات المفقودة .

على أن الفائدة لموضوع البحث كانت من كتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) وهو الذي استله ابن العديم من كتابه الكبير وجعله خاصا بالحوادث السياسية لحلب على طريقة الحوليات حتى سنة ٦٤١هـ . ^(٢) وتعود أهمية الكتاب الى أن ابن العديم كان معاصرا للحوادث موضوع الدراسة وقام بالعديد من السفارات بين مملكة حلب وغيرها من الممالك الأخرى ^(٣) . وقد أفاد البحث كثيرا من زبدة الحلب ولا سيما عند دراسة الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين ، ودراسة

- (١) وصل إلينا من بغية الطلب عشر مجلدات بخط ابن العديم نفسه محفوظة في مكتبات استامبول ، منها ثماني مجلدات في مكتبة احمد الثالث برقم ٢٩٢٥ ، ومجلد واحد في مكتبة اياصوفيا برقم ٣٠٣٦ ، ومجلد آخر في مكتبة فيض الله برقم ١٤٠٤ .
- (٢) قام سامي الدهان بتحقيق زبدة الحلب ونشره في دمشق سنة

١٣٢٧هـ / ١٩٥١م .

- (٣) انظر على سبيل المثال ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٣٣ -

ملكة حلب وعلاقتها بمملكة ارمينية الصفري وسلاجقة الروم . وقد انفرد ابن العديم بالقاء اضاءاً جديدة على الموقف بين المسلمين والصليبيين في شمال الشام وبخاصة بين مملكة حلب وفرسان الداوية ، وكذلك خلال الحديث عن خطر الخوارزمية ودخولهم لأول مرة الى بلاد الشام واثار غاراتهم على الاحوال الاقتصادية لشمال الشام ونتائج ذلك على بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (١) .

ومن أهم المصادر لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ الكبير ابن واصل ، وهو جمال الدين ابو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله ابن واصل المازني التميمي الحموي الشافعي ، ويعتبر من كبار مؤرخي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . ولد بعد مولد هذا القرن وتوفي قبيل نهايته بقليل (٦٠٤ - ٦٩٧ هـ / ١٢٠٨ - ١٢٩٨ م) ، وقد نشأ بحماه وتلقى بها علومه الاولى ثم رحل في طلب العلم الى دمشق وحلب وبيت المقدس والكرك والقاهرة وبغداد ومكة والمدينة ، ونبغ وصنف في علوم كثيرة ، وأقام بمصر مدة طويلة ، وعاصر الحملات الصليبية المتأخرة وسقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك وغزوات التتار ، وسقوط الخلافة العباسية ، ثم اتصل بالظاهر بيبرس وأرسله سفيرا الى منفرد بن فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (٢) .

ومن مؤلفات ابن واصل التي أفاد منها البحث كتاب (التاريخ الصالح) وهو تاريخ عام على طريقة الحوليات منذ بدء الخليقة حتى

(١) انظر مايلي الصفحات : ٣٠٣-٣٠١ ، ٣٥٢-٣٥٦ ، ٣٧٧-٣٨٨ ،

(٢) ابن الوردي : تنمة المختصر ج٢ ص ٣٤٩ ؛ السيوطي : بغية

الوعاء ج١ ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج١

مقدمة المحقق ص ٤ ، ج ٤ ص ٢٤٨ .

سنة ٦٣٧ هـ ،كتبه ابن واصل في مجلد واحد وقدمه للسلطان الصالح ايوب بعد أن سماه باسمه ^(١) . واعتمد البحث عليه في دراسة الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م واسباب النزاع الذي اندلع بين ابنائه ، إذ ألقى التاريخ الصالحى اُضواءً جديدة على هذا الموضوع ، وكذلك عند دراسة السلطان العادل وسيطرته على مقاليد الأمور في بلاد الشام ، والحملة الصليبية الخامسة ، والعلاقات بين ابنائه السلطان العادل ، كما ألقى التاريخ الصالحى اُضواءً جديدة على الحرب الأهلية التي اندلعت في بلاد الشام عقب موت الملك الأشرف بن العادل سنة ٦٣٥ هـ ^(٢) .

اما كتاب (مفرج الكروب في اخبار بني ايوب) لابن واصل فهو أهم مصادر البحث على الإطلاق ، لأنه غطى فترة البحث بكاملها . ويعتبر هذا الكتاب المصدر الأول لدراسة تاريخ بني ايوب لما فيه من تفاصيل عنهم قلما توجد كاملة في كتاب آخر ، وقد اعتمد عليه كل الذين اُرخوا للدولة الأيوبية بعده ^(٣) . وخلال الفترة منذ وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ وحتى سنة ٦١٥ هـ اعتمد ابن واصل على مصادر مفقودة مثل تاريخ ابن القادسي ، وهو مؤرخ عراقي عاش في اواخر القرن السادس الهجري وأدرك القرن السابع ، وقد ذيل به على المنتظم لعبد الرحمن بن الجوزي ، ومعلوماته هامة جدا ولا سيما فيما يتعلق بتاريخ الخلافة العباسية ، كما اعتمد ابن واصل خلال هذه الفترة

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢ أب .

(٢) انظر مايلي الصفحات : ٣٥-٤٦ ٥٦٤-٥٩ ١٥٢٠-١٥٢١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ مقدمة المحقق ص ٦ .

التي اعتبت وفاة صلاح الدين على العماد الاصفهاني ، حيث أن الأخير
للسنوات السبع التي عاشها بعد صلاح الدين حتى سنة ٩٧ هـ ، في
ثلاث رسائل هي " العتبي والعتبي " و " نحلة الرحلة " و " خطفة
البارق وعطفة الشارق " . كما اعتمد ابن واصل على رسائل أخرى لضياع
الدين ابن الاثير وزير الملك الافضل بن صلاح الدين (١) . وقد نقل ابن
واصل عن هذه الرسائل جميعها ، بحيث افادت البحث في علاج العلاقات
بين ابنا السلطان صلاح الدين ودور عمهم العادل فيه . وبعد وفاة
العماد الاصفهاني سنة ٩٧ هـ اعتمد ابن واصل كثيرا على ابن الاثير
وابن العديم . غير انه منذ سنة ٦٢٦ هـ بدأ يكتب كشاهد عيان ، ان
هيات له صلاته بملوك حماة ، وصداقته للناصر داود ابن المعظم وبعض
رجال الدولة الايوبية ، أن يطلع على الكثير من خبايا السياسة واسباب
الصراع الذي اندلع بين الايوبيين ، وقد افاد البحث كثيرا من مفرج
الكروب في معظم فصوله نظراً للمعلومات القيمة والجديدة التي أوردها
ابن واصل (٢) .

كما يعتبر كتاب (الاطلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة)
من مصادر البحث المهمة ، ومؤلفه هو المؤرخ عز الدين ابو عبد الله
محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد الانصاري الحلبي (٣) (٦١٣ - ٦٨٤ هـ) .

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص و - ز .
- (٢) انظر مايلي الصفحات : ١٤٤ ، ١٧٣ ، ٣١٣ .
- (٣) هو غير بهاة الدين ابن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ) مؤلف كتاب
سيرة صلاح الدين المعروف باسم (النوادر السلطانية
والمحاسن اليوسفية) انظر ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ،
تحقيق سامي الدهان ، مقدمة المحقق ج٢ ص ١٣-١٤ .

الذى كان من خواص الناصر يوسف صاحب حلب ، وكان سفيره الى المغول .
وبعد سقوط بلاد الشام بايدى المغول رحل الى مصر واستوطنها ، وصار
له مكانة لدى الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون ، وكان فاضلا أدبيا له
العديد من المؤلفات التاريخية أهمها كتاب الاغلاق الخطيرة ^(١) .

جمع ابن شداد في كتابه بين التاريخ والجغرافية ، وجعله ثلاثة
اقسام : أحدها خاص بمسقط رأسه حلب ، وخصص القسم الثاني لدمشق
والاردن وفلسطين ولبنان ، والثالث جعله لمنطقة الجزيرة ، وتحدث
عما فيها من معالم وآثار ومدارس ومساجد وخوانق وغيرها ، ثم ألحق بكل
قسم تاريخا لتلك البلاد منذ بدء الفتح الاسلامي حتى عصره ^(٢) .

وقد أفاد البحث من كتاب الاغلاق الخطيرة عند دراسة ملكة
حلب واثار الاقطاع الحربي الأيوبي على زيادة حدة الانقسام والتمزق
السياسي في بلاد الشام ، كما أورد ابن شداد معلومات فريدة في نوعها
فيما يتعلق بالمالح اسماعيل وتحالفه مع الصليبيين ورفض اتباع الانصاع
له بتسليم بعض الحصون للفرنج . وقد امدنا ابن شداد بمعلومات بالغة
الاهمية عن مدارس دمشق وحلب إضافة الى الحالة الاقتصادية لحلب قبيل
الغزو المغولي ^(٣) .

ومن مصادر البحث القيمة كتابات المؤرخ شهاب الدين عبد
الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي ، المعروف بابي شامة

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج٦ ورقة ٢١٠ أ ب .

(٢) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج٢ مقدمة المحقق ص ٢٦ .

(٣) انظر مايلى ص : ٦٩ - ٧٣ ، ٣٠٦ - ٣٠٧ ، ٤٥٦ - ٤٦٤ ،

(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ / ١٢٠٣ - ١٢٦٧ م) وهو من كبار الفقهاء والمحدثين ، و كان متفوقا في علوم النحو والعربية اضافة الى مؤلفاته التاريخية القيمة (١) .

وقد افاد البحث من كتاب ابي شامة المسمى (الروضتين في اخبار الدولتين) وبخاصة المجلد الاخير منه ، لانه اعتمد فيه على بعض رسائل العماد الاصفهاني المفقودة ، وقد ذيل ابو شامة على كتاب الروضتين بكتاب آخر هو (ذيل الروضتين) ان تحدث فيه منذ سنة ٥٩٠ هـ وحتى وفاته سنة ٦٦٥ واكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الذين عاشوا في بلاد الشام خلال تلك الحقبة ، وقد افاد البحث كثيرا من ذيل الروضتين ولا سيما في دراسة الصراع الذي دار بين الايوبيين حول السيطرة على دمشق عاصمة بلاد الشام ، كما امدنا بمعلومات قيمة عند دراسة الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٢) .

ومن المصادر المعاصرة لموضوع البحث كتاب (البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان) (٣) وهو تاريخ موجز منسوب الى العماد الاصفهاني ، ان جاء في اخر حوادث سنة ٥٩٣ هـ القول : ((الى هنا انتهى ما ساقه الشيخ الامام العالم عماد الدين محمد بن محمد بن أحمد الاصفهاني المعروف بالكاتب من التاريخ التسمي بالبستان ...)) (٤) .

-
- (١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ١٦٥ - ١٦٧ ؛ شاکر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢ ص ٢٦٦ .
- (٢) انظر مايلي ص : ١٤٢ ، ١٩١ ، ٤٣٧ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ .
- (٣) وهو مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول برقم ٢٩٥٩ .
- (٤) البستان الجامع ورقة ١٤١ أ .

على أن ما يهمننا منه ، هو ما بعد سنة ٥٩٣ هـ ، حيث ذيل عليه فـ في
المخطوطة نفسها أحد الامراء ويدعى علم الدين سنجر المسروري الصالحي
الى سنة ٦٣٥ هـ (١) . ومن الواضح انه كان معاصرا لهذه الفترة ، ونقل
احيانا عن شهود عيان ، اذ يقول - مثلا - في حوادث سنة ٦٣٥ هـ :
() ونشر في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الاشرف معتمدين
في ذلك على ما نقلناه من رسالة الفها الفقيه الفاضل العالم غيف الدين
عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلبي الحنفي ، فاني لم أكن حاضرا بدمشق
يومئذ (٠٠) ثم يسرد الحوادث نقلا عن تلك الرسالة (٢) .

وقد افاد البحث من البستان الجامع في دراسة العلاقات بين
ابناء السلطان العادل ، وبداية الحرب الاهلية في بلاد الشام عقب
موت الاشرف ، والموقف بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل (٣)
ومن مصادر البحث المعاصرة للفترة موضع الدراسة (التاريخ المظفرى)
(٤) ومؤلفه القاضي شهاب الدين ابراهيم بن عبدالله بن عبد المنعم الحموي
المعروف بابن أبي الدم (٥٨٣ - ٦٤٢ هـ / ١١٨٧ - ١٢٤٤ م) وهو
مؤرخ حموي له العديد من المؤلفات التاريخية ، منها التاريخ
المظفرى الذى ألفه وسار فيه حتى حوادث سنة ٦٢٨ هـ ، وأهداه لصاحب
حماء الملك المظفر وجعله باسمه (٥) . وقد افاد البحث من التاريخ المظفرى

- (١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤١ أ ب .
- (٢) المصدر نفسه ورقة ٢٠٤ أ ب .
- (٣) انظر مايلي ص : ١٥٧ - ١٦١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ .
- (٤) وهو مخطوط اعتمد البحث على نسخة مكتبة خدابخش بتنه بالهند
رقم ٣٨٦٩ .
- (٥) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ١١٥ - ١١٦ ؛ ابو الفدا : المختصر
ج ٣ ص ١٧٣ ؛ شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢
ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

عند دراسة ملوك حماه ، وحملة فردريك الثاني الصليبية ، وتسلمه بيت المقدس من السلطان الكامل (١) .

ومن المصادر المهمة المعاصرة لموضوع البحث (جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء الاسلامية) (٢) ومؤلفه حسن بن ابراهيم ابن محمد اليافعي ، وقد كان حيا سنة ٦٧٩ هـ حيث اشار في آخره الى انه كتبه للناصر قلاوون في تلك السنة (٣) . وكان معاصرا للفترة موضع الدراسة ان جاء في حوادث سنة ٦٣١ هـ خلال حديثه عن حملة السلطان الكامل على بلاد سلاجقة الروم قوله : ((قال صاحب هذا التاريخ : كت معهم في هذه السفرة . . .)) ثم يواصل حديثه عن الحملة (٤) .

وقد افاد البحث من جامع التواريخ المصرية عند دراسة العلاقات بين ابناء السلطان العادل واثرها على أوضاع بلاد الشام والحرب الاهلية بين الايوبيين ونتائجها ، وموضوع الصالح ايوب واعادة الوحدة بين مصر والشام ، وانهايار الايوبيين وقيام دولة المماليك ، وموقف ملوك بني ايوب من الصليبيين ، اضافة الى العلاقات بين الايوبيين وسلاجقة الروم وظهور خطر الخوارزمية (٥) .

ومن كتب التراجم المعاصرة التي افاد منها البحث كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ومؤلفه ابو العباس شمس الدين احمد ابن محمد بن ابي بكر بن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ / ١٢١١ - ١٢٨٢ م) ،

-
- (١) انظر مايلي ص: ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ٢٩٥ .
(٢) مخطوط المكتبة الاهلية بباريس رقم ١٥٤٣ .
(٣) انظر اليافعي ، جامع التواريخ المصرية آخر ورقة بالمخطوطة حوادث ٦٧٩ هـ .
(٤) المصدر نفسه ورقة ٥٥ أ .
(٥) انظر مايلي ص: ١٢٦ - ٢١٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٦٤ - ٣٦٥ .

وقد ترجم ابن خلكان للكثير من ملوك بني أيوب الذين لعبوا دورا هاما في الحياة السياسية والعلمية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، اضافة الى ترجمته للعديد من العلماء والادباء الذين اسهموا في ازدهار الحياة الفكرية في بلاد الشام ، وقد افاد البحث كثيرا من تلك التراجم (١) .

وافاد البحث أيضا من كتاب (عيون الانباء في طبقات الأطباء) لمؤلفه موفق الدين احمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الشهير بابن ابي اصيبعة (٦٠٠-٦٦٨هـ / ١٢٠٤-١٢٢٠م) حيث ترجم للكثير من الأطباء الذين عاصروا الفترة موضع الدراسة ، وقد افاد البحث من تلك التراجم ولا سيما في دراسة الطب والصيدلة وعلوم الرياضيات والفلك (٢) .

كما افاد البحث كثيرا من مؤلفات شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٣٩م ولا سيما كتابه (معجم البلدان) حيث كان المصدر الاول للتعريف بالبلدان والقلاع والقرى والحصون التي تناولها البحث ، اضافة الى أن ياقوت ضمن كتابه بعض المعلومات الهامة افادت البحث في دراسة الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٣) .

وافاد البحث من كتاب ياقوت الاخر (معجم الادباء) وبخاصة في دراسة الحياة العلمية لأن ياقوت ترجم لبعض العلماء المشهورين الذين لعبوا دورا هاما في ازدهار الحياة العلمية في بلاد الشام خلال الفترة موضع الدراسة (٤) .

(١) انظر مايلي ص : ٤٤٦-٤٥٠ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ .

(٢) انظر مايلي ص : ٥٠١-٥٠٩ .

(٣) انظر مايلي ص : ٥١٢-٥١٣ .

(٤) انظر مايلي ص : ٤٥٢-٤٥٥ .

ومن أهم المصادر المتأخرة لموضوع البحث كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) ومؤلفه المؤرخ القدير أحمد بن علي المقرئ . وقد ولد المقرئ سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م بحارة بروجوان بمدينة القاهرة ، وتوفي سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م وهو بعلبكي الأصل ، مصري المولد والمنشأ ، وعرف باسم المقرئ نسبة الى حارة المقارزة في مدينة بعلبك ، وعكف على دراسة القرآن وعلوم الدين والتاريخ وغير ذلك . وتقلد المقرئ العديد من الوظائف ، كان آخرها وظيفة الحسبة بالقاهرة . ويعتبر من فحول المؤرخين المسلمين وله مؤلفات تاريخية كثيرة ، وتميزت كتابات المقرئ بالدقة في إيراد الحقائق ، والتخصص المتنوع ، والاعتماد على مصادر ووثائق لا تزال أصولها مفقودة (١) .

وقد أمدنا المقرئ بمعلومات مهمة وقيمة في كثير من الموضوعات السياسية التي تناولتها فصول الرسالة (٢) .

ومن المصادر المتأخرة والمهمة جدا لموضوع البحث تاريخ ابن الفرات ومؤلفه ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ، الشهير بابن الفرات والمتوفي سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م ، وكان مفرما بالتاريخ وألف فيه كتابه هذا في عشرين مجلدا حتى عصره (٣) . وترجع أهمية تاريخ ابن الفرات الى أنه نقل عن مصادر معاصرة للفترة موضع الدراسة

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص ٢١ ؛ انظر ايضا ، دراسات عن المقرئ ، مجموعة أبحاث اشترك في اعدادها مصطفى زيادة وآخرون ص ٧-٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال مايلي ص : ١٣٢ - ١٣٦ ، ٣٢٩ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج٧ ص ٧٢ .

وبعضها مفقودة مثل كتاب الكشف والبيان لا بن نظيف الحموى
وقد أفاد البحث كثيرا من تاريخ ابن الفرات في اكثر موضوعات
الرسالة (١) .

كما أفاد البحث كثيرا من كتابات الملك المؤيد اسماعيل بن
الملك الافضل صاحب حماه المتوفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ، فقد
((كانت عنده كتب نفيسة حوتها خزائنه)) (٢) . وقد وفرت لـه
تلك المكتبة مصادر قيمة بحيث ألف الكثير من الكتب يأتي في مقدمتها كتابه
القيم (المختصر في اخبار البشر) وقد أفاد البحث كثيرا من هذا الكتاب
في أغلب الموضوعات السياسية التي تناولتها الدراسة (٣) . كما أفاد
البحث أيضا من كتابه الاخر (تقويم البلدان) في التعريف ببعض البلدان
وتحديد اماكنها . كما أخذ البحث بعض المعلومات عن كتاب ثالث
موجز في التاريخ ومنسوب الى ابي الفدا واسمه (التبر المسبوك
في تواريخ الملوك) (٤) .

وفضلا عن هذه المصادر التي ورد ذكرها فقد افاد البحث
من مصادر اخرى كثيرة مخطوطة ومطبوعة ، وكذلك مراجع حديثة ،
وجميعها مثبتة في حواشي الرسالة .

- (١) انظر على سبيل المثال مايلي ص: ٢٨٩ - ٣٠٥ .
- (٢) الصفدى : اعيان العصر وأعوان النصر ورقة ١١٨ أ ب .
- (٣) انظر على سبيل المثال مايلي ص: ٩٢ - ١٠٢ .
- (٤) التبر المسبوك مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٦ تاريخ .

وتحتوى الرسالة على مقدمة ، وخمسة فصول . اقتصرت المقدمة على دراسة نقدية لا هم مصادر البحث . وناقش الفصل الأول الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين ، وبين سبب انقسام بلاد الشام بعد موته ، وبرهن الفصل على ان صلاح الدين لم يكن مسئولا عن النزاع الذى اندلع بين الايوبيين عقب موته ، وبين اسباب ذلك النزاع ونتائجه ، والقى الفصل اضواء جديدة على دهاء الملك العادل ، والذى استطاع في نهاية المطاف بسط نفوذه على الدولة الايوبية في مصر والشام . كما تحدث الفصل الاول عن ملكة حلب ، وبين اهمية موقعها وعلاقاتها مع القوى المجاورة لها ، وسياسة ملكها الظاهر غازي ، وكيف استطاع حماية مملكته رغم الاخطار التي أحاطت بها ، والقى الفصل الأول اضواء جديدة على اثر الاقطاع الحربي الايوبي في زيادة حدة الانقسام والتمزق في بلاد الشام ، حين حاول القادة المقطعون تأكيد استقلالهم في اقطاعاتهم .

وتناول الفصل الاول ايضا ملكة حماة ، والمنافسة بين الناصر قلج وبين اخيه المظفر على عرش المملكة . كما تحدث الفصل عن ملكة حمص وسياسة ملكها المجاهد شيركوه واصلاحاته داخل حدود مملكته . وتحدث الفصل كذلك عن ملكة دمشق زمن الملك المعظم وسياسته في توطيد الأمن والنظام داخل حدود مملكته . وتعرض الفصل اخيرا لبقية الامارات الايوبية الصغيرة كإمارة بعلبك وغيرها .

أما الفصل الثاني وعنوانه (العلاقات الداخلية بين ملوك بني ايوب ونتائجها على النفوذ الايوبي في بلاد الشام) فقد تحدث في البداية عن وفاة السلطان العادل سنة ٦١٥ هـ والتي نتج عنها مؤامرة

حاك خيوطها عماد الدين بن المشطوب بغية عزل السلطان الجديد الكامل بن العادل والسيطرة على مصر واشرك كل ذلك على بلاد الشام .

وناقش الفصل الثاني العلاقات بين ابناء السلطان العادل واثرها في بلاد الشام ، اذ أنهم اتفقوا بعد وفاة والدهم الاُم الذي نتج عنه فشل الحملة الصليبية الخامسة ، ثم ما لبثوا ان اختلفوا وتنازعوا حينما حاول المعظم السيطرة على بلاد الشام ، فتحالف اخواه الكامل والاشرف ضده ، فعمد المعظم الى التحالف مع جلال الدين الخوارزمي ، وما ترتب على كل ذلك من نتائج سيئة على الدولة الايوبية . والقى الفصل اضرارا جديدة على اسباب الخلاف الذي نشب اخيرا بين الكامل واخيه الاُسرف .

ثم اندلاع الحرب الاهلية بين الايوبيين في بلاد الشام عقب وفاة الاُسرف ، تلك الحرب التي استمرت بضع سنوات حتى انتهت اخيرا بانتصار الصالح اُيوب واعادة الوحدة بين مصر والشام .

واخيرا شرح الفصل التطورات التي نتج عنها سقوط الدولة الايوبية في مصروقيام دولة المماليك ، وموقف ملوك الشام من ذلك ، حيث قرروا مهاجمة مصر في محاولة لاستعادتها ، ووضح الفصل فشل تلك المحاولة واسبابه ، وناقش الفصل دور طائفة المماليك البحرية الذين هربوا الى بلاد الشام واسهموا في زيادة الاضطراب والتمزق فيها عشية الغزو المغولي .

أما الفصل الثالث من الرسالة وعنوانه (موقف ملوك بني اُيوب من الصليبيين في بلاد الشام) فقد درس اولا اثر حرب الوراثة الايوبية على الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين ، وتناول الفصل الحملة الالمانية على بلاد الشام . وأبرز الفصل الحملة الشعبية التي قام بها سكان دمشق

بقيادة المؤرخ سبط ابن الجوزي لجهاد الصليبيين . ثم تناول
الفصل بالشرح والتحليل اثر الحملة الصليبية الخامسة على بلاد
الشام ، اذ ان طلائع تلك الحملة نشرت الخراب والدمار في البلاد
التي هاجمتها مثل نابلس وبيسان وغيرها ، وبرهن الفصل على وقوع
الملك المعظم في الكثير من الاخطاء العسكرية مثل تدمير اسوار
بيت المقدس وما ترتب على ذلك من نتائج ، ثم شرح الفصل كيف فشلت
الحملة الصليبية الخامسة .

والقى الفصل الثالث اضاء جديدة على طرق ووسائل الملك
المعظم للتجسس على الصليبيين ورصد تحركاتهم . ثم تعرض الفصل
الثالث لمجيء حملة فردريك الثاني الى الشام ، وتسلمه بيت المقدس من
السلطان الكامل ، وما تركه ذلك من اثر في نفوس المسلمين . وشرح الفصل
الموقف في شمال الشام بين مملكة حلب وفرسان الداوية . وتناول ايضا
اثر الحرب الاهلية الذي جعل بعض حكام بني ايوب ينحدر الى مستوى
الخيانة مع الصليبيين كالصالح اسماعيل ، ثم دخول الخوارزمية الى الشام
وهزيمتهم للصليبيين وحليفهم الصالح اسماعيل في معركة غزة سنة ٦٤٢هـ /
١٢٤٤م وتعرض الفصل اخيرا للموقف بين المسلمين والصليبيين عشية الغزو
المغولي وذلك منذ بدء حملة لويس التاسع ملك فرنسا وحتى رحيله من
بلاد الشام .

اما الفصل الرابع فقد تناول (العلاقات الخارجية لملوك بني ايوب
واثرها في تاريخ بلاد الشام) فتناول أولا : العلاقات مع القوى
الاسلامية ، بدءا بالخلافة العباسية التي حرص ملوك بني ايوب على خطب
ودها والتوصل منها على التقليد والخلق لاضفاء صبغة شرعية على حكمهم ،
والدور الذي مارسه الخلافة العباسية في محاولة حل النزاعات الداخلية

في بلاد الشام . كما شرح الفصل العلاقات الايوبية مع سلطنة الروم والتي تراوحت بين العداوة حيناً والود والصداقة احياناً حسب ما تطلبه مصالح كلا الدولتين .

وشرح الفصل ظهور خطر الخوارزمية الذين انتشروا في الجزيرة عقب مقتل ملكهم جلال الدين الخوارزمي سنة ٦٢٨ هـ ، وما جره ذلك من الفوضى والاضطراب على بلاد الشام ، وغاراتهم على بلاد الشام ، وانفماسهم في النزاع بين الايوبيين .

وتناول الفصل الرابع ثانياً ، العلاقات الخارجية مع القوى غير الاسلامية مثل ملكة ارمينية الصفري التي لعبت دوراً صليبياً خطيراً ضد المسلمين في بلاد الشام وحاولت اخيراً اقامة حلف صليبي مغولي ضد المسلمين . وتناول الفصل الرابع ايضاً العلاقات الودية بين الدولة الايوبية والامبراطورية الغربية المقدسة زمن الامبراطور فردريك الثاني .

وناقش الفصل الرابع خطر التتار ، وغاراتهم الاولى على الجزيرة واستقرار بعض فرقهم في جنوب أذربيجان لشن الغارات على العراق والجزيرة واسيا الصفري لاختبار قدرات القوى الاسلامية في هذه المناطق ، ثم شرح الفصل استيلاء المغول على اسيا الصفري واثار ذلك على بلاد الشام ، ثم اشار الفصل الى استيلاء هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وموقف بلاد الشام من الزحف المغولي .

اما الفصل الخامس وعنوانه (اهم مظاهر التطور الحضاري في بلاد الشام) فقد درس الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، وشرح الدور الذي قام به ملوك بني ايوب في ازدهار الحركة الفكرية مثل الملك المعظم وابنه الناصر داود والامجد صاحب بعلبك وغيرهم ، كما شرح

جهود كل من القاضي بهاء الدين بن شداد والوزير ابن القفطي ودورهما في تطور الحياة الفكرية في بلاد الشام . وتعرض الفصل لاهم المدارس في بلاد الشام كمظهر من مظاهر التطور العلمي ، ثم تناول الفصل علوم الشريعة وشرح الدور الذي قام به كبار العلماء في هذا المجال مثل ابن قدامة والعز بن عبد السلام وغيرهما ، ثم تحدث الفصل عن علوم العربية كالنحو واللغة والشعر والادب ، وشرح الدور الذي اسهم به كبار العلماء مثل الكندي وابن الحاجب وغيرهما وتم القاء الضوء على ازدهار الادب في هذا العصر ولا سيما الشعر حيث ظهر الكثير من الشعراء مثل الناصر داود ، والامجد بهرام شاه ، وابن عنين ، وغيرهم .

كما ناقش الفصل الفلسفة في هذا العصر وموقف الحكام منها ، وترجم الفصل لاشهر فلاسفة هذا العصر وهو سيف الدين الامدي ودوره في مجال الفلسفة .

اما في مجال الدراسات الطبيعية ، فقد تناول الفصل الطب ، والصيدلة ، لما شهداه من تطور وازدهار حيث ظهر الكثير من اطباء والصيادلة وتنوع اساليب العلاج معتمدة على اصول علمية متفوقة . كما تناولت الدراسات الطبيعية الرياضيات والفلك حيث تطورت وازدهرت في هذا العصر .

واخيرا ناقش الفصل الحالة الاقتصادية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، حيث القى الفصل بعض الاضواء على موارد مملكة حلب ثم استعرض بصورة مجلطة الزراعة ، والصناعة ، والتجارة في بلاد الشام وأشار الفصل في نهايته الى اهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة مثل شبكة مياه حلب واصلاحات المعظم في جنوب بلاد الشام .

واحتوت الرسالة على خاتمة ، توضح اهم النتائج التي توصل اليها
البحث ، ومجموعة من الملاحق التي تفسر بعض الحوادث الواردة في فصول
الرسالة .

*

وفي الختام لا يسعني الا أن اتقدم بخالص شكرى وتقديرى ،
وعظيم امتنانى ، الى المشرف على هذه الرسالة استاذى الجليل الدكتور
صابر محمد دياب لما أبداه من ارشادات طمية ، ولما اسداه لي من
توجيهات صائبة ، فجزاه الله عني وعن طلابه خير الجزاء .

والله أسأل العون والسداد انه نعم المولى ونعم النصير .

علي محمد علي عوده الغامدى

الفصل الأول

الموقف في بلاد السامرة بعد وفاة صدر الدين

٥٨٩ - ٦١٥ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٨ م

الفصل الأول

الموقف في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين

- ١ - انقسام بلاد الشام وحرب الوراثة الأيوبية وأثرها على أوضاع بلاد الشام.
- ٢ - العادل أبوبكر بن أيوب وسيطرته على مقاليد الأُمُور في بلاد الشام.
- ٣ - الممالك الأيوبية في بلاد الشام :
 - أ - مملكة حلب .
 - ب - مملكة حماه .
 - ج - مملكة حمص .
 - د - مملكة دمشق .
 - هـ - بقية الإمارات الأيوبية في بلاد الشام .

((انقسام بلاد الشام وحرب الوراثة))

((الايوبية ونتائجها))

من الحقائق المسلم بها في تاريخ العصور الوسطى ، أن الدولة الايوبية ورثت العديد من النظم الادارية عن الدولة الزنكية ، التي ورثتها بدورها عن الدولة السلجوقية الام .

فمن المعروف أن الدولة السلجوقية امتدت في عهد السلطان ملكشاه من بلاد ما وراء النهر شرقا الى البحر المتوسط غربا . وقد جرت العادة في هذه الدولة على تقسيم المملكة بين امراء البيت الحاكم بعد وفاة السلطان . ففي اعقاب موت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ظهر العديد من البيوت السلجوقية الحاكمة ، مثل سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وسلاجقة الشام ، وسلاجقة العراق وفارس وغيرها . ثم ظهرت الاتابيكات التي أخذت تحل محل السلاجقة مثلما حدث في دمشق على يد الاتابك ^(١) طغتكين ، والموصل

(١) اتابك لقب يتكون من لفظتين ، أتا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، وكانت نظرية السلاجقة في الحكم تركز على أن يتولس أفراد من الأسرة السلجوقية حكم الأقاليم ، وارتبط بكل فرد من هؤلاء الأمراء السلاجقة قائد تركي يحمل لقب اتابك . أي الأمير الوالد ، الذي يعتبر مسؤولا عن تربية ابن الأمير وتلقينه أصول الحكم والإدارة . وقد درج أمراء السلاجقة على تزويج الاتابك من إحدى مطلقاتهم ، أو قيام الاتابك نفسه بالزواج من والدته الأمير الصغير بعد وفاة والده ، ويتزوج الأمير بدوره من ابنة الاتابك ، وبالتالي أصبحت العلاقة بينهما شبه أبوية وأضحى للاتابك الكثير من النفوذ والسلطان ،

وحلب على يد عماد الدين زنكي الذي قسمت مملكته بعد موته (١٥٤١هـ/ ١١٤٦م بين ولديه سيف الدين غازي في الموصل ونور الدين محمود في حلب^(١) .

وبعد أن أقام صلاح الدين الأيوبي دولة مترامية الأطراف ، ضمت بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن والجزيرة الفراتية اعتمد في تأسيسها على اخوته واقاربه واسند اليهم المناصب الكبرى . عاد في سنة ٨٣٥هـ/ ١١٨٢م وعهد لابنائه بأهم أقاليم الدولة : فأعطى الأفضل دمشق ، وأخذ حلب من أخيه العادل وأعطاه لابنه الظاهر غازي ، ومنح ابنه العزيز عثمان مصر ، أما العادل فقد اقطعه الرها وحران وميفارفين اضافة الى الكرك^(٢) . غير أن صلاح الدين لم يضع لمملكته من النظم ما يكفل لها القوة والوحدة بعد موته .

=== وأول من تلقب بهذا اللقب الوزير السلجوقي نظام الملك حين فوض اليه ملكشاه تدبير شؤونه دولته . وفي العصر الزنكي أصبح لفظ اتابك يدل على الحاكم ، أما في العصرين الأيوبي والملوكي فأصبح مدلوله يعني أيضا قائد العسكر .

انظر : ابن خلكان ج١ ص ٣٦٥ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص ١٨ ؛ حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية

ص ١٢٢-١٢٣ ، Dozy , Supplement Dictionnaires , Vol, 1 P.8 ; Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades , pp 24-25.

- (١) الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٢-١٩٢ ؛ ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ١٥ .
- (٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٠٣ أ - ب ؛ ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٥٢٣ - ٥٢٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ص ٨٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٣٥٥-٣٥٦ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ج١ ص ٢٥٠ .

وأصبح ذلك مرتبطاً بالظروف ، وبالتالي استمر النظام الذى جرى الأخذ به منذ زمن السلاجقة وهو تقسيم المملكة بين امراء البيت الحاكم .

وهنا يتبادر الى الذهن سوء ال هو : هل يمكن اتهام صلاح الدين بالتقصير في هذه النقطة الهامة ؟ او بعبارة أخرى ، هل يعتبر صلاح الدين مسوئلاً عن الانقسام والتفكك الذى حدث بعد موته ، لانه لم يضع لدولته من النظم والضوابط ما يكفل لها استمرار الوحدة التى أجهد نفسه في بناءها ! ؟ . وقبل الاجابة على هذا التساؤل لا بد من الاشارة الى ان بعض الباحثين المحدثين حمل صلاح الدين المسؤولية في تداعي دولته بعد موته ، فذكر أنه على الرغم من بُعد نظره ، الا أنه لم يترك لابنائه عهداً يبين لكل واحد منهم حقه وواجباته ازاء ذلك الكيان العظيم الذى بناه ووطد دعائمه بل ترك الامر للاقدار تعيث به كيفما تشاء (١) .

غير أنه لا يمكن التسليم بهذا الرأي بسهولة ، ان نرى ان السلطان صلاح الدين برى من تهمة الاهمال أو التقصير في ضوء المعطيات التالية :

أولاً - أن صلاح الدين استنفد كل جهده وطاقته ، في سبيل توحيد كلمة المسلمين والدفاع عن حقوقهم ، ومواصلة النضال ضد الصليبيين . حتى أن الجهاد سيطر على كل جوانحه بحيث صار لا يفكر الا فيه وفي الاستعداد له . وأمضى السنوات الطوال في ساحات القتال وميادين البطولة بصورة لا تعرف الكلال أو الملل فقد ذكر ابن شداد أن حب صلاح الدين للجهاد والشفق به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له

حديث الا فيه ولا نظرا لا في آلاته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ،
ولا ميل الا الى من يذكره ، ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة
الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده^(١) .
فلعل انشغاله التام بالجهاد ، صرفه عن وضع نظام واضح للوراثة
لمواجهة الفراغ الذي سينجم عن وفاته . وهو بحق - أي الجهاد -
أمر جدير بأن ينشغل به .

ثانيا - من المؤكد أنه بعد توقيع صلح الرملة مع الفرنج سنة
٥٨٨هـ / ١١٩٢م اراد صلاح الدين استغلال فترة الهدنة مع الفرنج ،
لاستكمال توحيد العالم الاسلامي بكامله ، مثلما كانت عليه الدولة
الاسلامية في صدر الاسلام . فقد ذكر ابن الاثير انه قبيل مرضه
الاخير استدعى ابنه الا فضل وأخاه العادل ، وأبدى لهما عزمه
على ضم بلاد آسيا الصغرى الخاضعة لسلاجقة الروم ، لأنها المعبر
البرى الذي اعتاد الصليبيون على استخدامه في حملاتهم على بلاد
الشام ، ولأن الاستيلاء عليها سيقطع عليهم ممر ابريا هاما ، الأمر
الذي يسهل على المسلمين مواجهتهم في ميدان واحد هو البحر ،
كما أبدى صلاح الدين رغبته في الاستيلاء على خلاط^(٢) ثم المسير
منها الى أذربيجان جنوبي بحر قزوين ، والمضي منها الى بلاد
العجم وضمها الى الدولة الاسلامية^(٣) . غير أن المرض داهمه
فتوفي قبل تحقيق هدفه .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢١ .

(٢) خلاط : مدينة كبيرة مشهورة ذات خيرات واسعة وموارد
كبيرة وهي قصبة بلاد أرمينية : انظر القزويني : اثار البلاد

واخبار العباد ص ٥٢٤ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٩٥ - ٩٦ .

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين انتوى السعى الى تحقيق هدف سياسي هام وخطير ، وهو استكمال توحيد العالم الاسلامي مستغلا فترة الهدنة مع الصليبيين (ثلاث سنين وثلاثة أشهر) ليتسنى له بعد ذلك التفرغ لاقتلاع جذور الوجود الصليبي من بلاد الشام نهائيا . ثم الالتفات لتنظيم الدولة ، ووضع نظام ثابت لولاية العهد بعد ازالة الخطر الذي يهددها والمتعل في الصليبيين . ومما يؤكّد هذا الاتجاه لدى صلاح الدين أن عمره لم يكن - وقتذاك - يتجاوز اربعاً وخمسين سنة ، وهو سن صغير بكل المقاييس . ولا شك أن هذه السن لشخص مثل صلاح الدين تجعله يفكر في الكثير من الخطط ، وتجيش نفسه بالآمال التي كان يسعى الى تحقيقها .

ثالثاً : هناك اشارة وردت في بعض المصادر التاريخية ، حدد فيها صلاح الدين الوقت الذي سيعمد فيه الى وضع نظام للوراثة . فقد ذكر بعض المؤرخين أنه قال يوماً لجلسائه : " متى يسر الله فتح الساحل قسّمت البلاد وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره ، أتبعهم حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت " (١) . وفي هذا ما يشير بوضوح الى أن صلاح الدين كان يعتزم القضاء نهائيا على الوجود الصليبي ، ثم النظر في أمور الوراثة بعد ذلك . غير أن القدر لم يمهله لتحقيق أمله .

كما أن من الاجحاف - بل والظلم - اعتبار صلاح الدين مسؤولاً عن التداعي الذي حدث بعد موته . فالرجل استنفد كل طاقته وجهده في توحيد الجبهة الاسلامية ، ومواجهة أوروبا بأكملها ،

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج

ولا يكلف الله نفساً الا وسعها . وبالتالي فليس من المعقول ، ولا من العدل ان نطلب من شخص من الاشخاص او قائد من القواد أن يظل يقاتل الى ما لا نهاية ، وصلاح الدين تحمل الكبير والكثير من المسئوليات في الحروب الصليبية ، حتى استحق بجدارة لقب المجاهد العظيم دون منازع ، ثم لقي ربه وراية النصر على الفرنج مرفوعة ، والدولة موحدة متماسكة . مما يجعل التفكك والانقسام الذي حدث بعد موته ليس من مسوئليته ، بل تقع فيه المسوولية كاملة على عاتق الجيل الذي خلفه .

وكيفما كان الأمر فعندما اشتد مرض صلاح الدين ، قام ابنه الأكبر نور الدين علي الملقب بالافضل ، بتحليف امراء والده له بالسلطنة من بعده . واقتصر في اخذ العهد له من الامراء أصحاب الاقطاعات ببلاد الشام فقط^(١) . ذلك أن الافضل لم يكن بمقدوره ضبط الأمور - بعد موت والده - بمعزل عن القيادات العسكرية التي لعبت دوراً هاماً في الجهاد ضد الصليبيين ، وأخلصت للسلطان صلاح الدين ، ونالت مقابل ذلك الكثير من الاقطاعات في بلاد الشام وغيرها . وسنرى الكثير من الأمثلة على دور القادة العسكريين في حوادث بلاد الشام خلال الفترة التالية لوفاة صلاح الدين ودورهم في تغيير موازين القوى اثناء النزاع بين الأيوبيين . وقد واجه الافضل بعض الصعوبات ، في تحليف امراء الشام ، فمنهم من اشترط أموراً ، كأن يُبقى بيده الحصن الذي تولاه أو البلد الذي في حوزته ، أو ينال اقطاعاً يُرضيه ، أو يقوم الافضل ببذل الوعود له . ومنهم من اشترط الا يُشهر الافضل

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ محمد كرد

علي : خطط الشام ج ٢ ص ٦٩ .

سلاحاً في وجه اخوته ، ومنهم من حلف دون قيد او شرط ، ولم يحضر
احد من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم وانما حلف امراء الشام (١)

ولقد كانت وفاة السلطان صلاح الدين في شهر صفر سنة ٥٨٩هـ /
مارس ١١٩٣ م ، فحدث بموته فراغا ضغط ، لم يستطع أحد من
أبنائه واخوته أن يملأه . وأصبح توزيع الميراث في المملكة
كالتالي :

نال الابن الأكبر نور الدين علي - الملقب بالافضل - دمشق
والبلاد التابعة لها : وهي بيت المقدس وبصرى وصرخد والساحل
وعلبك ، وبانياس ، وهونين وتبنين وجميع الضياع الممتدة جنوبا الى
الداروم (٢) عند حدود مصر .

أما الابن الثاني العزيز عثمان فكان من نصيبه مصر واستقر
ملكه بها . بينما أخذ الابن الثالث الظاهر غازي حلب وما يتبعها
من بلاد ، مثل حارم وتل باشرواعزاز وبرزية ، ودرساك وغيرها .
أما الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن ايوب فكان بيده الكرك
والشويك ، اضافة الى البلاد الشرقية الواقعة باقليم الجزيرة وهي الرها ،
وحران والرقعة وسميساط وقلعة جعبر وميافارقين ودياربكر . ونال
المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه حمص وما يتصل بها
مثل الرحبة وتدمر . وكانت حماة والمعرة وسلمية وقلعة نجم ومنبج
من نصيب محمود بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٥ ؛ الباز العريني :

الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ١٠٢٦-١٠٢٧ .

(٢) الداروم : قلعة عند غزة تقع على الطريق الذي يربط بلاد

الشام بمصر + انظر :

Les trange Palestine under the Moslems. p.437.

في الوقت الذي خضعت فيه بعليك وأعمالها للملك الأوحدي بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب . أما الابن الرابع - وهو خضر بن صلاح الدين - فكانت بيده بصرى وصرخد يتولاها من قبل أخيه الأفضل صاحب دمشق (١) .

كما كان بيد بعض القادة العسكريين الكثير من الحصون والضياع ، مثل سابق الدين عثمان بن الداية الذي كان يسيطر على شيزر وأبي قبيس ، وأخذ ناصر الدين منكوس بن خمارتكين صهيون وحصن برزية . أما بدر الدين دلدرد بن بهاء الدين ياروق فكان بيده تل باشر من أعمال حلب بينما أخذ القائد عز الدين أسامة كوكب وعجلون في جنوب الشام ، وسيطر عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم على بعرين وكفرطاب (٢) .

وبعد وفاة صلاح الدين ، قدم أخوه الملك العادل من الكرك الى دمشق وأقام سنة العزاء ، ثم رحل شرقا عندما علم أن أتابكة الموصل وسنجار والأرتقة في كيفا وآمد وخرتبرت ، أخذوا يتحفزون جميعا - بعد موت صلاح الدين - للانقضاض على ممتلكات الأيوبيين

- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٠٩ أ - ب ؛ الصفى : تحفة ذوى الالباب ، ورقة ١٤٩ - ب - ١٥٠ أ ؛ بدر الدين الحلبي : جبهة الاخبار ، ورقة ٣٧ ب - ٣٨ أ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١١ ب ؛ الخطيب العمري : الدر المكون ورقة ١٠٦ أ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٩٧-٩٨ ؛ الاصفهاني : الفتح القدسي ص ٦٢٨ - ٦٣٦ ؛ العصامي : سطر النجوم العوالي ج ٤ ص ٩٠ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٤ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدر ج ٧ ص ١٢٠ .

في الجزيرة وبلاد الشام . وقد تمكن العادل - بمساعدة النجدات التي ارسلها اليه العزيز عثمان صاحب مصر ، والافضل صاحب دمشق ، والظاهر صاحب حلب وغيرهم من ملوك الشام - من الوقوف في وجه الابطابكة والارائقة ، ومنعهم من تحقيق أية مكاسب على حساب الابطابين (١) .

وعلى الرغم من أن الافضل نور الدين علي بن صلاح الدين ، كان هو المعهود اليه بالسلطنة - باعتباره الابن الاكبر - فإن اكثر العساكر - من الصلاحية والاسدية والاكرا - كانوا في مصر الى جوار أخيه العزيز "وهو أمكن من الملك الافضل لعظم الديار المصرية وكثرة مغلالتها" (٢) .

وكان من الطبيعي ان ينقاد بقية ملوك بني أيوب للملك الافضل ، باعتباره السلطان الشرعي الذي يجب الخضوع له ، ولا سيما وأن الموقف في بلاد الشام ، آنذاك ، كان يحتم الوحدة والتماسك ، لمواجهة النوجود الصليبي في عكا وصور وغيرهما من سواحل الشام . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، لافتقار الافضل الى الحنكة السياسية والمقدرة الادارية وقوة الشخصية ،بالاضافة الى شغفه باللهو والعبث . (٣)

-
- (١) ابن واصل : التاريخ الصالح ، ورقة ٢٠٩ ب - ٢١٠ أ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٩٨-١٠١ ؛ العماد الاصفهاني : الفتح القدسي ص ٦٣٧ - ٦٤٠ ؛ ابوشامة : الروضتين في اخبار الدولتين ج ٢ ص ٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ٢٠٢-٢٠٣ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٤-٥ والصلاحية هم اتباع صلاح الدين الايوبي ، والاسدية اتباع عمه اسد الدين شيركوه .
- (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٠ ؛ سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الابطابين والمماليك ص ٦٣ .

فأسند منصب الوزارة في دولته الى ضياء الدين بن الاثير مشقيق الموضع المشهور ، وكان ضياء الدين في هذا الوقت شابا مفرورا لا يفقه في امور السياسة وادارة شئون الدولة شيئا ، فاقنع السلطان الا فضل بابعد كبار امراء والده وأخلص اصحابه ومستشاريه " وأخبره أن امراء أبيه يشتون عليه ولا يرضون منه الا بالكثير ، وأعمال دمشق لا تسعهم ، وانما تسعهم أعمال مصر . وأن الغرباء والمستجدين من ممالكهم يرضون منه بالقليل . . . فاعتر الملك الا فضل بقوله ، وكان ذلك من الخطأ البين والتدبير الفاحش السيء ، فأبعد امراء أبيه والعظماء من أتباعه ، حتى أبعد القاضي الفاضل مع جلالة قدره ووزارة فضله ، والعماد الكاتب مع فصاحته وبراعته . واستخدم امراء مجهولين وماليين خاملين (١) .

وهكذا استجاب الا فضل لمشورة وزيره ضياء الدين بن الاثير فأبعد كبار امراء الدولة عن بلاطه ، مما اضطرهم الى الهجرة الى مصر وعلى رأسهم فخر الدين جهار كس ، وفارس الدين ميمون القصري ، وسنقر الكبير وغيرهم . وعندما وفدوا على أخيه العزيز ، رحب بهم واحترمهم وزاد في اقطاعاتهم ، واعتمد عليهم في ادارة شئون دولته ، واتفقوا جميعا على مناصرة العزيز ، وشرعوا في التخطيط لمساعدته على تولي شئون السلطنة ، ونقلها من الا فضل اليه وهنا بدأ النفور يستحكم بين الاخوين (٢) .

- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ، ورقة ٢١٠ ب .
- (٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ، ورقة ٢١٠ ب - ٢١١ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١١ - ١٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ٨٢ - ٨٩ ؛ المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٣٥ ؛ يوسف الدبى : تاريخ سورية ج ٦ ص ١٣٤ .

ومما زاد في تدهور العلاقات بينهما مشورة الوزير ضياء الدين ابن الاثير الذي اقترح على الأُفُضل اخلاء بيت المقدس وتسليمه لآخيه العزيز ، باعتبار أن المحافظة على بيت المقدس تحتاج الى مؤنسة عظيمة ، ونفقات كثيرة ، واستعدادات دائمة ، نظرا لتطلع الفرنج المستمر للسيطرة عليه . واستجاب الأُفُضل لمشورة وزيره فراسل أخاه العزيز طالبا منه تسلم بيت المقدس . وقد سُرَّ العزيز كثيرا بهذا العرض السخي ، وارسل الى النائب على القدس عشرة الاف دينار ، لينفقها في عساكر بيت المقدس ، وخطب له به ، ثم لم يلبث الأُفُضل أن تراجع عن إعطاء بيت المقدس لآخيه العزيز ، مما كان له أسوأ الأثر في نفسه واستحكام الوحشة بين الأخوين (١) .

أخذ كبار الأمراء والقادة يحثون العزيز عثمان صاحب مصر على الخروج الى الشام ، وانتزاع السلطنة من الأُفُضل وإعادة الوحدة من جديد بين مصر والشام ، وبخاصة حينما سمعوا أن الصليبيين استولوا على شفر جيبيل (٢) من نائيه الذي باعه لهم ، وخرج الأُفُضل لاستعادته وفشل في ذلك . وكان هذا الشفر من جملة فتوح السلطان صلاح الدين ، فقال الأمراء للعزيز : " إن انت توانيت تطرقت البلاد واستولى عليها الفرنج " عندئذ صمم على الحركة وشرع يستعد لقصد الشام (٣) .

- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ، ورقة ٢١٠ ب ؛ العليني : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١١١ ب ؛ الاصفهاني : الفتح القدسي ص ٦٣٠ - ٦٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤-١٥ ؛ ابوشامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٢٨ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ١١٥ .
- (٢) شفر جيبيل : هو احد ثغور بلاد الشام الساحلية ويقع شمال بيروت ويبعد عنها مسافة ١٨ ميلا انظر : Lestraing. Op.cit p. 464.
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٦ ، وانظر ايضا المقرئى : السلوك ج ١ ص ١١٦ .

وحيثما علم الأفضل بعزم أخيه الخروج إلى الشام بأمره بإرسال

الرسالة إلى أخيه الظاهر غازي صاحب حلب، وشيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، وناصر الدين محمود بن تقي الدين صاحب حماه، طالباً منهم النجدة، فتحالفوا جميعاً معه للتصدي للعزیز. ولا شك أن انضمامهم إلى الأفضل ليس حياً فيه بقدر ما هو خوفاً من العزیز. إذ إن استيلاءه على دمشق وضمها إلى مصر يعني تعاضد قوته، وازدياد نفوذه وبالتالي تهديد ممالكهم. كما أرسل الأفضل إلى عمه العادل طالباً قدومه لنجدة (٢).

خرج العزیز من مصر قاصداً بلاد الشام، ووصل إلى القصير - قرب غور الأردن -، حيث كان يربط الأفضل، الذي ما إن علم بوصول عساكر مصر حتى عاد راجعاً إلى دمشق، وسار العزیز في أثره وحاصر دمشق في جمادى الأولى ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م. وشرع الأفضل في الدفاع عن دمشق ريثما يصل عمه العادل وبقيّة ملوك بلاد الشام الذين تحالفوا معه (٢).

-
- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحی ورقة ٢١١ أ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٨ - ٢٩ ؛ الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٥ .
- (٢) التاريخ الصالحی ، ورقة ٢١١ أ ب ، الداوادي : درر التيجان و غرر توارخ الزمان ، مخطوط ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١٠٦ أ ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ١٨٦ ؛ ابن الشحنة : تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٢ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٩ - ٣٠ ؛ المقریزی : السلوك ج ١ ص ١١٦ - ١١٧ ؛ ابن تفری بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢١ - ١٢٢ .

وعندما وصل الملك العادل وبقية ملوك الشام الى دمشق ، آثر العادل السعي في الصلح بين الافضل واخيه ، فراسل العزيز وطلب الاجتماع به ، فأذن عن الاخير لطلب عمه . وتم عقد تسوية بين الجانبين تنازل بموجبها الافضل عن بيت المقدس وأعمال فلسطين لاختيه العزيز عثمان صاحب مصر ، على ان تبقى دمشق وطبرية واعمالها وغور الاردن للافضل ، وان يتنازل الافضل عن جبلة واللاذقية بالساحل الشامي لاختيه الظاهر غازي ملك حلب ، وان يحتفظ الملك العادل باملاكه واقطاعاته في مصر ^(١) . كما تضمن الصلح أيضا ان يكون الاُمجد صاحب بعلبك تابعا للملك الافضل وموآزرا له بينما يكون المنصور صاحب حماه مع الملك الظاهر غازي ملك حلب وتابعا له ^(٢) . وتم الصلح بين الجانبين ، وتزوج العزيز من ابنة عمه العادل ، وعاد الملوك الى بلادهم ^(٣) .

لم تلبث أحوال بلاد الشام أن ساءت من جديد ، ذلك أن الافضل اعاد سيرته الاولى في اللهو والعبث والمجاهرة بالمعاصي ، وجعل أمور الدولة جميعها معذوقة بوزيره ضياء الدين بن الاثير

- (١) الاصفهاني : البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ، ورقة ١٣٥ أ ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ١٨٦-١٨٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٨٤-٣٨٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٠ .
- (٢) ابن واصل : التاريخ الصالح ، ورقة ٢١١ ب ؛ ابن ابي الدم الحموي : التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٤-٥٣٦ ؛ ابن واصل : مفج الكروب ج ٣ ص ٣١-٣٢ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ١١٢ .
- (٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٣٦ ؛ ابن واصل : مفج الكروب ج ٣ ص ٣٤-٣٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٢ .

الذى أساء السيرة ، وعمل جاهداً على تقويض دعائم الدولة ، مما دفع
الامير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب - وهو من كبار الامراء
الصلاحية - للهجرة الى مصر ، وقابل الملك العزيز ، وأخذ في تحريضه
على الملك الأفضل ، وحثه على اخذ دمشق منه ، وخوفه من ضياع
الدولة التي بناها صلاح الدين ، اذا لم يتحرك بسرعة ، وأوضح له
أن الوزير ابن الاثير الجزرى غدا هو المتحكم في أمور دولة الأفضل .
كما هاجر الى مصر ايضا ابراهيم ابن السلار ، وهو من كبار امراء الدولة
وجمال الدين بن الحصين ، والقاضي محي الدين بن ابي عصرون
وهما من كبار أعيان دمشق ، وأوضحوا جميعا للعزيز مدى التدهور
الذى اصاب دولة الأفضل ، وسوء سياسة وزيره ابن الاثير ، وحثوه على
الاسراع بالخروج الى الشام لتدارك الامر قبل فوات الأوان (١) .

وفي أوائل سنة ٩١ هـ / او اخر ١١٩٤ م وصلت الى دمشق
انباء تفيد بعزم العزيز عثمان صاحب مصر على قصد دمشق ، ومطالبته
بالسلطنة ، فشاور الأفضل أصحابه ، فأشار عليه بعض العقلاء بمراسلة
اخيه ، وملاطفته ، واقامة الخطبة والسكة له ، وكاد الأفضل أن يوافق على
هذا الرأي . ولكن ما أن انفرد به وزيره ضياء الدين بن الاثير ،
حتى أشار عليه برفض الانعان لاخيه العزيز ، وحثه على مقاومته ، وأشار
عليه بالذهاب الى عمه العادل بالرقّة ، وطلب مساعدته لانه لا قدر على
كبح جماح العزيز (٢) .

(١) ابن واصل : التاريخ الصالح ورقه ٢١١ ب - ٢١٢ أ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج ٣ ص ٣٨ - ٤٠ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ١١٨ - ١١٩

؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالح ورقه ٢١٢ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج ٣ ص ٤١ - ٤٢ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٢٣ ؛ تاريخ ابن الفرات :

ج ٤ قسم ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ = والرقّة مدينة تقع على شط الفرات بمنطقة

الجزيرة : انظر ياقوت : معجم البلدان .

خرج الافضل من دمشق في جمادى الاولى ٩١ هـ / ابريل ١١٩٥ م

والتقى بعمه العادل بصفين عند الرقة وتوسل اليه طالبا المسير معه الى دمشق لحمايتها من العزيز . فاستجاب له عمه وسار قاصدا دمشق .
(١)
اما الافضل فعرج اثناء عودته على حلب لتأكيد التحالف بينه وبين أخيه الظاهر ، الذي اكد له التزامه بمناصرته . غير ان ذلك التحالف سرعان ما انهار بسبب عصيان كل من : المنصور صاحب حماه ، وابن المقدم صاحب بعرين ، ولد لدرم صاحب تل باشر ، على الملك الظاهر غازي ، وعلان تبعيةهم للملك العادل . وعندئذ تخلى الظاهر عن مساعدة الافضل ، وسارع بمراسلة أخيه العزيز طالبا منه الاسراع بالخروج الى الشام ووعد بهمد يد المساعدة على انتزاع دمشق من الافضل (٢) .

شرع العزيز عثمان في رمضان ٩١ هـ / ١١٩٥ م يتجهز للمسير فلما انقضى عيد الفطر سار قاصدا بلاد الشام للاستيلاء عليها من أخيه الافضل . وكان جيش العزيز يتكون من الاسدية والصلاحية ، وهما أشبه ما تكونان بحزبين عسكريين متنافسين داخل الدولة الأيوبية ، وكانت الاسدية تكره الصلاحية أشد الكراهية ، ولا سيما أن الملك العزيز عثمان كان يقدّم زعماء الصلاحية ويعتمد عليهم أكثر من زعماء الاسدية . وكان الملك العادل يعلم تماماً طبيعة العلاقات بين

(١) التاريخ الصالحى ورقة ٢١٢ أ ب ؛ تاريخ ابن الجزرى : مخطوط

لوحة ٣٠٧ ؛ ابوشامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٢٩ ؛ ابن تغرى

بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٣ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢١٣ أ ب ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج ٣ ص ٤٤-٤٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب

ج ٣ ص ١٣٢-١٣٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٤ قسم ٢ ص

الطائفتين ، فأرسل سرا الى زعماء الاسديّة يحذرهم من الملك العزيز ويدعوهم الى تركه والانضمام الى الافضل . وفي الوقت نفسه أرسل الى العزيز يحذره من الاسديّة ويشير عليه بابعادهم . وقد نجح العادل في زرع بذور الشك والريبة بين العزيز والاسديّة الذين تشاوروا فيما بينهم ، واتفقوا على مفارقة العزيز ، والانضمام الى العادل والافضل . كما تمكنوا من استمالة زعيم الاكراد أبا الهيجاء السمين ، وانسحبوا ليلا من معسكر العزيز الذي أدرك حينئذ استحالة الاستيلاء على دمشق بمن بقي معه من الصلاحية ، وقرر العودة الى مصر (١) .

وصل زعماء الاسديّة الى دمشق ، وحثوا الملك العادل والافضل على مطاردة العزيز الى مصر ، وتعهدوا بالمسير فورا الى مصر لمنع العزيز من دخول القاهرة . ويبدو أن العادل اتفق مع الافضل على الاستيلاء على مصر لتصبح ملكا للافضل ، ويتنازل الاخير بدوره عن دمشق لعمه مع احتفاظ العادل باقطاعات واسعة في مصر (٢) .

وثناء سير العادل والافضل انتزعا بيت المقدس من نائب العزيز ومنحاه اقطاعاتا لزعيم الاكراد ابي الهيجاء السمين (٣) .

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ، ورقة ٢١٢ ب - ٢١٣ أ ؛
الاصفهانى : البستان الجامع ورقة ١٣٧ أ ب ؛ العيني :
عقد الجمان ج ١٣ لوحة ١٩٩ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ٢
ص ١١٨ - ١١٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٤٦ - ٤٨ ؛
تاريخ ابن الفرات ج ٤ قسم ٢ ص ١١٢ - ١١٤ ؛ تاريخ ابن خلدون
ج ٥ ص ٣٨٥ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢١٣ ب ؛ ابن الاثير : الكامل
ج ١٢ ص ١١٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٨٥ ؛ المقرئى : السلوك
ج ١ ص ٢٥ ، الروضتين ج ٢ ص ٢٣٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣
ص ١١١ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٥٢ ؛ ابو شامة : الروضتين : ج ٢ ص
٢٣٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٤ قسم ٢ ص ١١٩ .

تمكن العزيز من دخول القاهرة قبيل وصول الاسدية وأخذ في تحصين مصر ، وباعداد العدة للدفاع عن مملكته ، وحينما وصل العادل والافضل الى بلبيس ، توقفا عن التقدم بسبب زيادة النيل ، وتعذر حصولهما على المؤن والاعلاف . وقد ندمت الاسدية على موقفها ، اضافة الى خوف العادل من عدم وفاء الافضل بما وعد به . فأرسل العادل الى العزيز يطلب اليه ان يبعث بالقاضي الفاضل ، ليسعى في حسم الخلاف بين الجانبين . فاستجاب القاضي الفاضل لالحاح العزيز ، وخرج وقابل العادل والافضل ، وسعى في عقد الصلح بين الجانبين ، وتم بموجبه السماح للاسدية بالعودة الى خدمة العزيز مع احتفاظهم باقطاعاتهم في مصر ، وأن تقام الخطبة للعزيز بدمشق ، وأن يحتفظ كل ملك بما تحت يده ويعود الى بلاده ، وأقام العادل بمصر مع العزيز لتنظيم شئون دولته ^(١) . ولقد كان هذا الصلح هشاً بل هو أشبه بـ " هدنة على قذا ، و صلح على دخن " على حد قول ابن كثير ^(٢) .

رجع الافضل الى دمشق في المحرم ٥٩٢ هـ / ديسمبر ١١٩٥ م وكان يجب ان يستفيد من اخطائه السابقة ، الا أنه لم يفعل سوى لزومه

- (١) التاريخ الصالحى : ورقة ٢١٤ أ ب ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ١٩٩-٢٠٠ ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣٠٧ ، الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٣٨ أ ؛ ابن قاضي شهبه : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، مخطوط ، حوادث سنة ٥٩١ هـ ؛ الخطيب العمري : الدر المكون ، ورقة ١٠٦ ب ؛ اليافعي : مرآة الجنان ج ٣ ص ٤٧٣ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ج ٢ ص ١٦٦-١٦٧ ؛ الذهبي : العبر في خبر من غير ج ٤ ص ٢٧٦ .
- (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٠ .

الزهد والقناعة والانقطاع للعبادة^(١) . أما امور الدولة جميعها فجعلها بيد وزيره ابن الجزري ، الذي اساء السيرة وازداد من "الافعال القبيحة وأذى الاكابر من الدولة"^(٢) . وتمادى في حماقته وغروره دون أدنى معرفة بأمر الدولة وقواعد السياسة وضجت الرعية بسوء ادارته "وكثر شاكوه وقل شاكروه ، واختلت الامور بذلك غاية الاختلال"^(٣) . وعندما وصلت الامور الى درجة من السوء لا تحتمل ، كتب أعيان دمشق الى العادل يشكون اليه الوزير ابن الاثير الجزري فارسل العادل الى الافضل يامره بصرف ابن الاثير ، فلم يلق هذا الطلب أذنا صاغية^(٤) ، واستقر رأى الملك العادل وابن اخيه العزيز على المسير الى الشام ، لضبط امورها واصلاح ما أفسده وزيرها ابن الاثير . وتبعاً لمشورة ابن الاثير رفض الافضل الاستجابة لنصحاء الذين أشاروا عليه بمراسلة اخيه وعنه واستعطافهما . وقرر المقاومة والاستعداد للمواجهة معهما . فلما وصل العادل والعزيز بجيوشهما الى دمشق حاصراها في رجب ٩٢ هـ / يونيه ١١٩٦ م . فعمد بعض أعيان دمشق الى مراسلة العادل والعزيز وعطوا على مساعدتهما على اقتحام دمشق وذلك في السادس والعشرين من رجب ٩٢ هـ / يونيه ١١٩٦ م . وعلى الرغم من المقاومة التي ابداهها الظافر خضر شقيق الافضل الا أنه هُزم واستولت جيوش العادل والعزيز على دمشق .

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٥٥٥ .
- (٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٤١-٤٤٣ .
- (٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢١٤ ب .
- (٤) سبط ابن الجوزي : المصدر السابق ج ٨ ص ٤٤١ .

أما الوزير ابن الأشير فقد هرب إلى الموصل حاملاً معه أموالاً طائلة ،
جمعها من دولة الأفضل ، خلال عمله بالوزارة على مدى ثلاث سنوات ،
كما جنى الأفضل نتيجة تصرفاته فاجبره أخوه العزيز على الخروج من
دمشق إلى قلعة صرخد - من أعمال حوران الواقعة جنوب دمشق -
حيث أقام بها مع أهله وحاشيته ، بعدما فقد دولته وسلطنته . (١)

وحينما استقر العزيز بدمشق ، كشف المظالم وأبطل المكوس
حتى اعتقد سكان دمشق أنه سيقوم بها . ولكنه قرر العودة إلى مصر
مكتفياً بأقامة الخطبة والسكة بدمشق وما يتبعها ، وسلمها لعمه " فملكها
العادل وأحسن القيام فيها وكان أحق بها وأهلها لما كان مختصاً به
من حسن السياسة وصواب التدبير " (٢) . أما العزيز فلم يلبث أن رحل
من دمشق ، عائداً إلى بلاده ، وقد مر ببیت المقدس واسترده من زعيم
الأكراد أبي الهيجاء السمين ، وسلمه إلى أحد أتباعه وعاد إلى مصر . (٣)
أما الظاهر غازي صاحب حلب فقد راسل أخاه العزيز عثمان ، وعقد معه
الصلح ، وأقام له الخطبة والسكة بمملكة حلب وأعمالها وكان ذلك في
سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٢ م . (٤)

- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحی ، ورقة ٢١٥ أ ب ؛ العيني :
عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٢٠٤-٢٠٧ ؛ أبو الفدا : التبر
المسبوك في تواريخ الملوك . حوادث سنة ٥٩٢ هـ مخطوط ؛
الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٠٣ ؛ القلقشندي : مآثر
الانافة ج ٢ ص ٦٢-٦٣ ؛ العليمي : الأنس الجليل بتاريخ
القدس والخليل ، ج ١ ص ٣٩٨ ؛ الحريري : الاعلام والتبيين
ص ٨٨ ؛ الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦ .
(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحی ورقة ٢١٦ أ .
(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب ج ٣ ص ٧٠ .
(٤) المقریزی : السلوك ج ١ ص ١٤٠ .

وهكذا ترتب على حرب الوراثة نتيجة هامة هي : انه لم يكن بمقدور أحد من ابناء صلاح الدين أن يفرض نفوذه على جميع أجزاء الدولة وتوحيدها من جديد ، لا فتقارهم جميعا الى صفات القيادة العسكرية الفذة والحنكة السياسية النافذة التي اتصف بها والدهم ، الأمر الذي مهد الطريق لعمهم العادل لكي يبسط نفوذه على الدولة الايوبية . وهذا ما ستوضحه النقطة التالية .

((العادل أبوبكر وسيطرته على مقاليد الأمور))

((في بلاد الشام ٤٩٥ - ٦١٥ هـ))

لم تكن المكانة التي بلغها العادل حتى سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م هي كل ما يطمح اليه . لأنها لا تتناسب مطلقاً مع الدور الذي لعبه خلال حياة أخيه صلاح الدين ، الذي كان يكرمه ويحترمه ، ويعول على مشورته ورأيه ، لما عرف عنه من خبرة عسكرية وحكمة سياسية ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات مع الفرنج والمفاوضات معهم . ولعل أبلغ دليل على عبقرية العادل الحربية ودهائه السياسي ما شهد به أخوه صلاح الدين ، عندما قَدَّمَ اليه أحد المؤلفين كتاباً في مكائد الحروب وقدمه للسلطان أثناء حصار عكا ، فقال صلاح الدين " لا نحتاج لهذا مع وجود الملك العادل " (١) ويظهر أن ما زاد في طموحات العادل ما دب من نزاع بين أولاد صلاح الدين بعد وفاته ، وشعوره بالحاجة الى إعادة الوحدة بين مصر والشام من جديد ، وهو الأمر الذي يكفل الوقوف في وجه الصليبيين ويكبح جماح اطماعهم ازاء المسلمين .

شرع العادل يخطط لبسط نفوذه على الدولة الايوبية . وكانت الخطوة الأولى سعيه الى الاستيلاء على دمشق . فيوء كد ابن واصل ، أن الافضل عندما استعان بعمه العادل لمواجهة هجوم اخيه العزيز على دمشق سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ، رأى العادل من سوء سيرة الافضل وضعفه وعدم درايته بشئون الحكم ما أطمعه في دمشق ، ومن أجل ذلك عمد الى تفريق الاسدية عن العزيز ، ثم أقنغ الافضل بمطاردة العزيز الى مصر ، وهو الذي عمل على كبح جماح الافضل ومنعه من الاستيلاء

(١) ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٦ .

على مصر ، ليظهر امام العزيز كالمُنقذ له من سطوة أخيه ، واخيرا أقنع
العزيز بالزحف على دمشق وانتزاعها من الافضل وتسليمها اليه ^(١) . وحينما
اصبحت دمشق واواسط بلاد الشام خاضعة له ، اقام الخطبة والسكة
للملك العزيز باعتباره نائبا عنه ، وجعل ابنه المعظم عيسى حاكما على
الكرك وجنوب الشام ^(٢) .

وقد شغل العادل خلال عامي ٥٩٣ - ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ - ١١٩٨ م
بالحروب مع الصليبيين في بلاد الشام ، ثم توجه بعد توقيع الهدنة
معهم ^(٣) الى البلاد الشرقية بقصد الاستيلاء على ماردين ^(٤) . وقد
حاول العادل تدبير مؤامرة للفتك بالعزيز صاحب مصر وذلك سنة
٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م اثنا مرابطة الاخير بفلسطين لقتال الصليبيين ، ولكن
العزيز اكتشف المؤامرة وانسحب عائداً الى مصر ^(٥) .

غير ان توالي الحوادث خدّم في نهاية المطاف الملك العادل ،
ففي المحرم سنة ٥٩٥ هـ / نوفمبر ١١٩٨ م - اثنا حصاره لماردين -
توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين سلطان مصر وهو في السابعة

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٥٦ - ٥٧ .
- (٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٤٣ ؛ ابو شامة : ذيل
الروضتين ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
- (٣) انظر مايلي الفصل الثالث ص ٢٤٤ - ٢٣١ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٨٠ وماردين : قلعة حصينة
بالجزيرة قرب نصيبين ودارا وقدامها ريف عظيم به أسواق
وخانات وربط انظر القزويني : اثار البلاد واخبار العباد
ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .
- (٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٩ .

والعشرين من عمره ، وَجَّعَ اهل مصر بموته لما عرف عنه من عدل وسماحة وكرم (١) . وعقب موته اتفق امراء الدولة في مصر على تولية ابنه محمد ولقبوه بالمنصور ، ثم اجتمع زعيم الصلاحية فخر الدين جهار كسى بزعيم الاسدية سيف الدين يازكج وقررا اقامة اتابك يقوم برعاية شئون الدولة ورعاية الملك الصغير حتى يكبر . وكان عمره عشر سنوات . وبعد مداوات بين الزعيمين اتفقا على استدعاء الافضل بن صلاح الدين من صرخد ليقوم بوظيفة الاتابكية ، ثم اجتمعا بالقاضي الفاضل الذى زكى هذا الاختيار . (٢)

وقدم الافضل من صرخد الى مصر وتولى الوظيفة الجديدة ، وسيطر على مقاليد الأمور في مصر ، الا انه لم يحافظ على سياسة التوازن بين الاسدية والصلاحية ، فمال الى الاسدية وبدأ في الاعتماد عليهم ، الأمر الذى اغضب زعماء الصلاحية ، فقرروا الهجرة الى الشام ، واستولوا على بيت المقدس بزعماء فخر الدين جهار كسى ، وراسلوا العادل وطالبوه بالقدوم ووعدوه بالمساعدة على انتزاع مصر من الافضل . (٣)

وكيفما كان الأمر ، فقد كان بإمكان الافضل الاستمرار في اتابكيته بمصر واقامة علاقة جيدة مع عمه العادل . غير أنه لم يفعل ذلك ، فأغضب

-
- (١) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٢٢ ورقة ٦٦ أ ب ؛ ابن ابي الدم الحموى : التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٥ ؛ الديري : الجدول الصفي ورقة ٢١٧ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٨٢-٨٣ ، ابن الساعي : الجامع المختصر ج ٩ ص ٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٧٠ .
- (٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٣ أ ب ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣١٠-٣١١ ؛ ابن قاضي شهبه : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام حوات سنة ٥٩٥ هـ ؛ تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٢ ب ، ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٤٠-١٤١ ؛ مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٨٩-٩٠ ؛ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ١٩٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ١٨٨-١٨٩ .

- (٣) ابن ابي الدم ، التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٥-٥٣٦ ؛ ابن الاثير : الكامل

الصلاحية ، وارتكب حماقة اخرى عندما استجاب لدعوة اخيه الظاهر غازي صاحب حلب ، وابن عمه اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ، اللذين اشارا عليه بانتهاز فرصة غياب العادل عن دمشق والانقضاض عليها واستعادتها ، ووعداه بمساعدته على ذلك الامر ، ويبدو أن زعماء الاسدية حرضوه ايضا على الاستجابة لهذه الدعوة ، فقرر المسير بعساكر مصر الى دمشق (١) .

سار الافضل من مصر في رجب ٩٥ هـ / ١١٩٩ م قاصدا دمشق ، بعد ان أناب عنه بمصر سيف الدين يازكج زعيم الاسدية . وحينما بلغ العادل عزم الافضل على مهاجمة دمشق - وكان يحاصر ماردین منذ عشرة أشهر - أقام ابنه محمداً الكامل على حصار ماردین وسار على رأس كتيبة صغيرة من الفرسان ، وتمكن من دخول دمشق قبيل قدوم الافضل الذي وصل اليها في ١٣ شعبان ٩٥ هـ / يونيه ١١٩٩ م ونازل دمشق وتمكن بعض اصحابه من التسلل الى داخل المدينة غير ان العادل تمكن من صدhem وإخراجهم من البلد . ثم استطاع بدهاء وحنكة تشييطهم بعض قادة الافضل ، الذين أشاروا عليه بالتوقف عن الهجوم ، ريثما يصل اليه الظاهر غازي صاحب حلب بعساكره (٢) .

- === ج ١٢ ص ١٤٢ ؛ مفرج الكروب ج ٣ ص ٩١-٩٣ ؛ المقریزی : السلوك ج ١ ص ١٤٧-١٤٨ ؛ ابن ايبك الداوداري ، الدر المطلوب ص ١٣٨ .
- (١) ابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٩٤ ؛ المقریزی ، السلوك ص ١٤٨ ؛ امرأة الزمان ج ٨ ص ٤٦٢ ؛ مفرج الكروب ج ٣ ص ٩٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٨-١٩ ؛ الحصري ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٦٦ .
- (٢) ابن ابي الدم ، التاريخ المظفر لوحه ٥٣٦-٥٣٧ ؛ العيني ، عقد الجمان ج ١٣ لوحه ٢٢٧-٢٢٨ ؛ ابن قاضي شهبه : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام حوادث ٥٩٥ هـ ، تاريخ ابن الجزري لوحه ٣١ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٤٣-١٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٩٥-٩٧ ؛ المقریزی : السلوك ج ١ ص ١٤٨-١٤٩ .

وأخيراً وصل الظاهر في آخر شعبان ٥٩٥هـ / يونيه ١١٩٩ م وفرض الاخوان الحصار الشديد على دمشق ، حتى عدت بها الاقوات واشتد الغلاء ، واضطر العادل الى الاقتراض من تجار دمشق ، ودام الحصار زهاء ستة أشهر حتى أوشك العادل على تسليم دمشق ^(١) . وكان لهذه الحوادث أسوأ الأثر في نفوس بعض المؤرخين المسلمين حتى أن السيوطي علق عليها متهمكاً بقوله : " وبدل المسلمون بحرب الفرنج حرب بعضهم بعضاً " ^(٢) .

ولم ينته الحصار رغم شدته - بسقوط دمشق بسبب العوامل التالية :
أولاً : قيام الصلاحية في بيت المقدس بإرسال النجيدات الى الملك العادل داخل دمشق ، إضافة الى قطعهم لخطوط التموين المرسلة الى الافضل والقادمة من مصر ، مما أدى الى تضرر عسكر الافضل " غاية الضرر " ^(٣) .
ثانياً : قدوم محمد الكامل بن العادل من الشرق نجدة لوالده ان تمكن من تجنيد جيش كبير من التركمان ، كما مر على قلعة جعبر وحمل منها أموالاً ضخمة حيث كان والده يحتفظ فيها بمعظم أمواله ، وقد أدى وصول الكامل الى دمشق ، الى ازدياد قوة والده ، وتحطيم معنويات الظاهر والا فضل وتقاوسهما ^(٤) .

-
- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٠٠-١٠١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٩-٢١ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ١٤٩ .
(٢) السيوطي : اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقص ، ورقة ١٢٣ أ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٠٠ .
(٤) العيني : عقد الجمان ج١٣ لوحة ٢٤١-٢٤٢ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٤٤-١٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٠٤-١٠٥ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ١٤٩-١٥٠ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٢ ص ١٤٠ .

ثالثا : لجوء العادل الى مناورة سياسية أوقعت الشك والريبة

بين الاخوين ، الظاهر والافضل وذلك عندما ارسل الى الظاهر سـرا يعرض عليه تسليم دمشق له على أن يكون الظاهر هو السلطان بدلا من الافضل ، مما اطمع الظاهر فطلب من اخيه التنازل عن دمشق ، فرفض الافضل محتجا بأن دمشق هي اقطاعه من قبل والده (١) .

رابعا : حلول فصل الشتاء وهطول الثلوج والامطار وشدة البرد ،

بحيث اصبح من المتعذر على الجيوش المحاصرة لدمشق الاستمرار في حصارها فقرر الافضل العودة الى مصر بينما عاد الظاهر غازي وصاحب حمص الى بلادهما (٢) .

والحق ، لقد كان العادل واثقا كل الثقة من أن الصراع سيحسم لصالحه . ان يشير عدد من المؤرخين الى ان العادل - اثنا حصره بدمشق ، وخلال فترات الشدة والضيقة من الحصار - كان يهيئ المؤن ويملا القرب بالمال مفصحا عن عزمه الاكيد على مطاردة الافضل الى مصر ، مما يشير الى انه قد استمال بعض قادة الافضل (٣) . أما الافضل فعندما وصل الى مصر تفرقت عساكره الى اقطاعاتها للعناية بها ولاخراج دوابهم الى الربيع ، ودلف الافضل الى القاهرة في جمع قـطـمـيـل

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٤٦٣ ؛ ابن نصر الله :

شفاة القلوب في مناقب بني أيوب ص ٢٠٥-٢٠٧ ؛ ابن تغري بردي

: النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٤٨-١٤٩ .

(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين ورقة ٤٣ أ ؛

السيوطي ، اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ورقة ١٢٣ أ ؛

مفج الكروب ج٣ ص ١٠٧ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ١٧١-

١٧٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢١٠ .

(٣) ابن نظيف : التاريخ المتصورى ص ١١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب

ج٣ ص ١٤٦ ؛ ابن واصل : مفج الكروب ج٣ ص ١٠٨ ؛ تاريخ

ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ١٧٢-١٧٣ .

من جنوده (١) .

وكان العادل قد سار الى مصر في اثر الافضل والتقى به عند بلبس وأنزل به الهزيمة ، ففر الى القاهرة . وأخيرا راسل عمه العادل وطلب اعطاء دمشق عوضا عن مصر فرفض فعاد وطلب حرا ن والرها ، فامتنع العادل من اجابة طلبه هذا ، وذلك بسبب الاهمية الكبيرة لمدينتي الرها وحران ، اللتين تقعان على ملتقى طرق المواصلات بمنطقة الجزيرة ومن يسيطر عليهما ، يستطيع بسط نفوذه على الجزيرة والشام وآسيا الصغرى . وأخيرا طلب منه حاني وجبل جور وميا فارقين وسميساط بمنطقة الجزيرة ، فاجابه الى طلبه ، ودخل العادل الى القاهرة في ربيع الاخر ٩٦هـ / فبراير ١٢٠٠م وتقلد امور مصر على انه اتابك للمنصور بين العزيز (٢) .

لم يلبث العادل في منصب الاتابكية غير فترة قصيرة حتى أفصح عن طموحاته الحقيقية . فاجتمع بالفقهاء واستفتاهم في خلع ابن العزيز فأجازوا له ذلك وأيد الاسدية قرار خلع المنصور تقربا الى العادل بعد موقفهم السابق المعادى له والمناصر للا فضل . وبعد ان حصل العادل على المبرر الشرعي مثلا في فتوى الفقهاء ، وكذلك التأييد السياسي في موقف الاسدية ، اقدم على خلع المنصورين العزيز في شوال سنة ٩٦هـ

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٠٧-١٠٨ ؛ تاريخ ابن الفرات

ج٤ قسم ٢ ص ١٧١-١٧٢ .

(٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٦ ب - ١٤٧ أ ؛ العيني :

عقد الجمان ج١٣ لوحة ٢٤٣-٢٤٤ ؛ الجنابي : البحر الزاخر ج٢

ورقة ١٧ ب ؛ الناشري : روضة الناظر ورقة ٨٢ ب - ٨٣ أ ؛ ابن

الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص ٢٢ ؛ مفرج الكروب ج٣ ص ١٠٩-

١١٠ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ٩٨ .

(أغسطس ١٢٠٠ م) وأعلن نفسه سلطانا على الدولة الايوبية واقام الخطبة لنفسه وضرب السكة باسمه (١) .

استدعى العادل ابنه الكامل محمد الى مصر وجعله نائبا عنه ووليا لعهد ، واخرج المنصور واخوته من مصر . ثم التقى العادل رسل ابن اخيه الظاهر غازي صاحب حلب ، والمنصور تقي الدين محمود صاحب حماه ، يعتذران عن مساعدتهما للافضل ، ويعلنان دخولهما في طاعته ، واقامة الخطبة والسكة ببلاهما له . فقبل العادل عذرهما ، وألزم الظاهر بتقديم خمسمائة فارس من عسكر حلب يكونون جاهزين عند طلبه لاداء الخدمة العسكرية (٢) . ويعلق المؤرخ أبو شامة على خلع العادل للمنصور قائلا " واستبد بملك مصر آمناً من الشركة " (٣) .

وعلى الرغم من انشغال العادل بمواجهة الازمة الاقتصادية الخانقة ، التي وقعت فيها مصر حينذاك بسبب انخفاض النيل وانتشار المجاعة (٤) ،

- (١) الجنابي : البحر الزاخر ج٢ ورقة ١٧ ب ؛ تاريخ ابن الجوزي لوحة ٣١٢ ؛ الديري : الجدول الصفي من البحر الوفي ورقة ٢١٧ ب - ٢١٨ أ ؛ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ١٧٧ ؛ القرمانى : اخبار الدول واثار الاول ص ١٩٥ ؛ ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص ٢٢-٢٣ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١١٢-١١٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ١٧٨-١٨٠ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ١٥٢-١٥٣ ؛ العلّيمي : الا^نس الجليل ج١ ص ٣٩٩-٤٠٠ ؛ الفزى : نهـر الذهب في تاريخ حلب ج٣ ص ١٠٨ .
- (٣) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٣٧ .
- (٤) عن هذه الازمة الاقتصادية انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٧٣-١٧٤ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج١ ص ٢٥٤-٢٥٥ .

فإن المنازعات السياسية بين الأيوبيين سرعان ما أطلت برأسها من جديد .
ذلك ان الأفضل - وحسب اتفاقه مع عمه - بعث بنوابه ليتسلموا البلاد التي
منحه اياها عمه عوضا عن مصروهي ميفارقين وحاني وجبل جور وسميساط ،
لكن الملك الأوحده بن العادل رفض تسليم ميفارقين وسلم ما عداها ،
وشكى الأفضل لعمه موقف ابنه فتظاهر العادل بأن ابنه عصاه ، لكن الأفضل
فهم أن موقف الأوحده كان بايعاز من والده ، فاشتد سخطه وقرر العمل
ضد عمه من جديد (١) .

وفضلا عن ذلك فان زعماء الصلاحية حينما قدّموا المساعدة للعادل
في صراعه مع الأفضل وانتزاع مصر منه ، فانما فعلوا ذلك بشرط ان يبقى
العادل على الملك المنصور بن العزيز ، وأن يقوم بوظيفة الاتابكية
حتى يكبر الملك الصغير ، ويسلم الامرا اليه (٢) . ولما خلع العادل
المنصور غضب زعماء الصلاحية لهذا الاجراء ، وشرعوا في مشاوره بعضهم
البعض ، وتراسلوا مع الأفضل والظاهر ، وقرروا جميعا شن الحرب على الملك
العادل . واتفق الأفضل مع الظاهر على انه اذا تم الاستيلاء على دمشق
يتسلمها الأفضل ، ثم يمضيان الى مصر . واذا استوليا عليها تكون للأفضل
بينما تصبح بلاد الشام بما فيها دمشق للظاهر . وحاول الظاهر استمالة
المنصور صاحب حماه الى هذا الحلف لكنه رفض ، وأعلن انحيازه للسلطان
العادل ، فقام بمحاصرته في حماه واجبره على دفع اتاوة حربية مقدارها
ثلاثون الف دينار صورية (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١١٦ ، تاريخ ابن الفرات

ج٤ قسم ٢ ص ١٩٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١١٠ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢١٩ أ ب ؛ الاصفهاني :

البستان الجامع ورقة ١٤٨ ب ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة ٣١٣ ؛

ابن قاضي شهابية : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام حوادث ٩٧ هـ

ومن ناحية اخرى ، فان الظاهرغا زى اتفق مع ارسلان شاه صاحب
الموصل ، وصاحب ماردین على ان يكونوا جميعا يدا واحدة اذا ما هاجم
العادل بلادهم . وحينما تحرك الظاهر والافضل صوب دمشق أرسلوا
الى نور الدين صاحب الموصل يطلبان اليه مهاجمة بلاد العادل الجزرية
فاجابهما الى ذلك (١) .

تقدم كل من الظاهر والافضل حيث ضربا الحصار حول دمشق في
ذی القعدة ٥٩٧ هـ / سبتمبر ١٢٠١ م فسار العادل مسرعا الى بلاد
الشام ، وأقام بنابلس لتقديم المساعدات لابنه المعظم بدمشق ، وقد استمر
حصار دمشق زهاء شهرين (٢) . ثم تمكن السلطان العادل من تحقيق
النصر الحاسم على ابني اخيه ، اذ قام ابنه الفائز - وكان نائباً عن والده
بحران - فاغار على مملكة حلب من الشمال الشرقي ، وهاجم منبج واعزاز ،
وأوقع الرعب والفزع في نفوس سكان القرى التابعة لحلب ، فهرب
الكثير من الفلاحين ولجأوا الى مدينة حلب ، مما كان له أبلغ الأثر في
ازعاج الظاهر واشغال خاطره عن حصار دمشق (٣) . كما تمكن العادل

==== ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٤-١٥ ، تاريخ ابن الفرات

ج٤ قسم ٢ ص ٢٠٠-٢٠٢ .

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٦٧-١٦٨ ، ابن كثير : البداية

والنهاية ج١٣ ص ٢٧ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج١٣ لوحة ٢٥٤-٢٥٥ ؛ الخطيب

العمري : الدر المكون ورقة ١٠٨ ب ؛ ابن ايبك : درر التيجان

حوادث ٥٩٧ هـ ؛ تاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٣٩١-٣٩٢ ؛ ابن

سعيد : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٠٠ ؛ الطباخ

الحلبى : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج٢ ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٠-١٥١ .

من جديد من زرع بذور الخلاف بين الافضل وأخيه الظاهر، واستمال بعض زعماء الصلاحية اليه مثل فخر الدين جها ركس، وزين الدين قراجا وغيرهما، فسارعوا بالانضمام اليه، وبالتالي عاد الظاهر ادراجة الى حلب، وتوجه الافضل الى حمص، ورفع الحصار عن دمشق في اول محرم ٩٨٥هـ/ اول اكتوبر ١٢٠١م وتقدم العادل الى دمشق واقام بها حيث وفد عليه الافضل، ودخل في خدمته، واجتمع به، ثم غادر دمشق الى البلاد التي منحه اياها عنه العادل (١).

سار العادل من دمشق شمالا بقصد تهديد الظاهر غازي صاحب حلب، وإشغاره بقوته، فوصل الى حماة، ونزل على تل صفرون. فاستقبله المنصور صاحب حماة، وقدم له فروض الطاعة والولاء، وقام بجميع وظائفه وكلفه. وعندما بلغ الظاهر وصول عمه وعزمه على محاصرته بحلب فزع واستعد للحصار، وراسل عمه ولاطفه وأهدى اليه، وأخيرا تم توقيع الصلح بين الجانبين سنة ٩٨٥هـ/ ١٢٠١م وكان من بنوده:

١ - ان يكون للملك العادل دمشق، والسواحل وأعمال بيت المقدس، والكرك ومصر اضافة الى ما بيده ويد أولاده، من بلاد الشرق الواقعة شرق الفرات.

٢ - ان يظل الظاهر محتفظا بحلب وما يتصل بها.

٣ - ويعطى للمنصور محمود بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب حماة والمعرة وسلمية وبعرين.

٤ - ويأخذ الملك اسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه حمص والرحبة وتدمر.

(١) ابن واصل: التاريخ الصالحى، ورقة ٢١٩ ب، ابن واصل: مفرج الكروب ج ٣ ص ١٣٢-١٣٣؛ تاريخ ابن الفرات ج ٤ قسم ٢ ص ٢٢١.

٥ - أن يتنازل الظاهر لآخيه الأفضل عن قلعة نجم .

وبعد توقيع الصلح بين الجانبين وانتظام ممالك الشام في طاعة السلطان العادل ، ذهب إلى حمص ومنها إلى دمشق ، وهكذا أتم توحيد الدولة الأيوبية من جديد ، وأصبحت دولته تمتد من بلاد الجزيرة شرقاً مروراً بالشام ومصر ، وخطب له على منابرها ، وضربت السكة فيها باسمه (١) .

كذلك سعى العادل جاهداً إلى توطيد نفوذه في منطقة الجزيرة . ففي سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م عهد إلى ابنه الأشرف موسى بحصار الأراتقة في ماردين وتمكن الأشرف فعلاً من إجبار صاحب ماردين على دفع أتاوة سنوية والاذعان لأقامة الخطبة وضرب السكة للسلطان العادل بماردين والتعهد بتقديم الخدمة العسكرية عند طلبها (٢) . وفي العام التالي (٦٠٠هـ / ١٢٠٣م) التفت العادل للزنكيين ، فاستمال قطب الدين محمد صاحب سنجار ، الذي دخل في طاعته مما أغضب ابن عمه نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل ، وتحرك لمواجهة ابن عمه ومعاقبته على الخضوع للسلطان العادل . ولكن الأشرف ابن العادل تصدى له

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٢٠ أ ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١٠٩ أ ؛ ابن أبي الدم : التاريخ المظفرى لوحة ٥٣٩ ؛ العليني : المعتبر في أنباء من غير ، ورقة ٧٤ ب ؛ مفرج الكروب ج ٣ ص ١٠١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٤ قسم ٢ ص ٢٢٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢١٣ ؛ الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٣٨ - ٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٣٩ - ١٤٠ ؛ ابن الفرات ج ٤ قسم ٢ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

وأُنزل به الهزيمة ما جعله يذعن للصالح مع الاشرف سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م^(١).

وفي سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م استولى العادل على الخابور ونصيبين

بمنطقة الجزيرة ، وحاصر سنجار بقصد الاستيلاء عليها الا انه تراجع

واستجاب لوساطة الخليفة وتركها على حالها^(٢) . وامتد نفوذ العادل

الى خلاط عاصمة ارمينية حينما تمكن ابنه الاوحد من الاستيلاء عليها سنة

٦٠٣هـ / ١٢٠٦م^(٣) .

اما بالنسبة لعلاقة العادل بابنائه اخيه صلاح الدين في هذه

الفترة ، فقد اكتشف سنة ٥٩٩هـ // ١٢٠٣م مراسلات سرية من الافضل لبعض

القادة العسكريين بقصد محالفتهم ضد عمه العادل . فاصدر الاخير أوامره

الى ابنه الاشرف بالاستيلاء على رأس عين وسروج . وأمر الظاهر غازي

صاحب حلب بانتزاع قلعة نجم من الافضل . وقد نجح في ذلك ، ولم

يبقى بيد الافضل سوى سميساط الاُمر الذي دفعه الى الانحياز الى

سلطان سلاجقة الروم والدخول في طاعته نكاية في عمه العادل^(٤) .

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٩٢ - ١٩٤ ؛ ابن الساعي :

الجامع المختصر ج٩ ص ١٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج٣ ص ١٥٥ - ١٥٩ ؛ تاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٧ ؛ ابن نصر الله :

شفاة القلوب ص ٢١٩ - ٢٢٠ ؛ ابوالفدا : المختصر في اخبار

البشر ج٣ ص ١١٢ - ١١٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٣ ص ١٧٥ - ١٧٧ .

(٤) العيني : عقد الجمان ج١٣ لوحة ٢٧٨ ؛ الخطيب العمري :

الدر المكون ورقة ١١٠ أ ؛ ابن نصر الله : شفاة القلوب ص ٢١٤ .

أما عن علاقة العادل بابن أخيه الظاهر غازي صاحب حلب ،
فمما لا شك فيه أن الظاهر كان ينظر لعمه بعين الشك والريبة ، ويعتبره
مغتصبا لملك أبناؤه صلاح الدين ، ولا دراكه بعجزه عن مواجهة العادل
في ميدان مكشوف فانه ظل يعمل سرا ضد عمه . ففي سنة ٦٠٣ هـ /
١٢٠٦ م كاتب الظاهر بعض الامراء واستمالهم اليه . وفي هذا الوقت
راجت الشائعات بان العادل مصمم على أخذ حلب ، مما دفع الظاهر
للاسراع بتحسين حلب ، وتزويدها بالمؤن والاقوات ، لمواجهة الحصار
المحتمل . وأخيرا تراسل الاثنان ، وتم تجديد المواثيق والعهود بينهما .
(١)
لكن الشك لم يتبدد بين الظاهر وعمه ، فعاد الظاهر في سنة ٦٠٥ هـ /
١٢٠٨ م الى مكتبة بعض الامراء سرا . مما جعل العادل يقرر في سنة
٦٠٧ هـ معاقبة الظاهر باظهار عزمه على مهاجمة حلب والاستيلاء
عليها ، الامر الذي جعل الظاهر يلتصق بالحلفاء في اتابكة الموصل ،
فراسلهم واتفق معهم على ان يهاجموا املك العادل في الجزيرة ، اذا
هو هاجم حلب ، لذلك ، فحين علم العادل بهذا التحالف أعرض عن
قصد حلب وقفل عائدا الى دمشق . (٢)

وفي نفس عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م اكتشف العادل مراسلات سرية
جرت بين الظاهر وبين الامير عز الدين اسامة - وهو من كبار الامراء
الصلاحية وله اقطاعات واسعة بجنوب الشام من ضمنها كوكب وعجلون -

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج ٣ ص ١٧٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٥ قسم ١ ص ٤٨-٤٩ ؟

المقريزي : السلوك ج ١ قسم ١٦٦ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٦١-٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج ٣ ص ٢٠١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٥ قسم ١ ص ١٠٤ .

فاستدعى العادل اسامة الى القاهرة للتحقيق معه . لكن اسامة لما
أيقن بافتضاح أمره ، غادر مصر عائدا الى الشام ، بغية الاعتصام بقلعه .
فبعث العادل ابنه المعظم عيسى خلفه ، حيث تمكن من اللحاق به
في فلسطين ، وقبض عليه وسجنه بالكرك ، وصادر أمواله ، واستولى على
اقطاعاته ، بما فيها كوكب وعجلون . وبالقضاء على اسامة انتهت دور طائفة
الصلاحية واختفى نفوذهم من الحياة السياسية ببلاد الشام (١) .

وأخيرا تحسنت العلاقات بين السلطان العادل والظاهر غازي
ملك حلب ، الذي ارسل القاضي بهاة الدين بن شداد الى عمه العادل ،
ليخطب له ابنته ضيفة خاتون . وقد وافق العادل على وساطة القاضي
ابن شداد فأجاب طلب الظاهر ، حيث زوجه بها ووفدت عليه الى
حلب سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م (٢)

وهكذا أصبح العادل هو سلطان مصر والشام وبعض مناطق الجزيرة
الفراتية ، وخلاط ، وميافارقين وغيرها ، وحصل على التقليد من الخليفة العباسي
(الناصر لدين الله ٥٧٥ هـ - ٦٢٢ هـ) حيث اكتسب الصيغة الشرعية بارتدائه
خلع الخليفة ، وتسلم تقليده سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م (٣) .

(١) النويري : نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١١٦ أ ب - ١١٧ أ ؛ ابن واصل :
التاريخ الصالح ورقه ٢٢٢ أ ؛ الخطيب العمري : الدر المكون
ورقة ١١٣ أ ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٦٦ أ ب ؛
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٥٧ - ٥٥٨ ؛ ابن
تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) سبط ابن العجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب ، مخطوط لوحة ١١٠ ؛
تاريخ ابن الشحنة ورقة ٩٥ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣
ص ١٦٣ - ١٦٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢١٢ - ٢١٥ ؛ ابن
ايبك : الدر المطلوب ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

وبعد ذلك قام العادل بتقسيم مملكته بين اولاده فأعطى ابنه
الاكبر الكامل محمد مصر ، ومنح ابنه المعظم عيسى : أجزاء واسعة من
بلاد الشام ، امتدت من حدود حمص الى العريش جنوبا ، بما فيها
بلاد الساحل التي في حوزة المسلمين ، والغور وبيت المقدس ، والكرك والشوبك
وصرخد ، وعاصمتها جميعا دمشق . واعطى ابنه الاشرف مظفر الدين
موسى : البلاد الشرقية وهي الرها وحران وما يتصل بهما ، أما ابنه
الواحد : فقد منحه خلاط ، وميافارقين . واصبح العادل بعد ذلك
يتنقل بين مملكته الواسعة حيث يقضي فصل الصيف في بلاد الشام
ويشتى بمصر (١) .

(١) الأهدل : غريال الزمان ورقة ١٤٥ ب ؛ الصقدي : الوافي
بالوفيات ج ٢ ص ٢٣٦ ؛ ابن القرات ج ١ ص ٦٧-٦٨ ؛
المقريزي : السلوك ج ١ ص ١٦٨-١٦٩ .

((الممالك الأيوبية في بلاد الشام))

أ - مملكة حلب :

تعتبر مملكة حلب من أطول الممالك الأيوبية عمرا وأبعدها اثرا في تاريخ بلاد الشام قبيل الغزو المغولي . وقد نشأت هذه المملكة عندما منح صلاح الدين ابنه الظاهر غازي حلب وما يتبعها سنة (١) ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م .

ولموقع حلب أهمية كبيرة في تاريخ بلاد الشام وخاصة هذه الفترة التي أتعرض لدراستها . فهي - حلب - تقع في شمال بلاد الشام وتجاورها من جهة الغرب إمارة انطاكية الصليبية ، ومن الشمال الغربي مملكة أرمينية الصغرى ، ومن الشمال دولة سلاجقة الروم ففي آسيا الصغرى (٢) . وتمتد مملكة حلب الى الجزيرة الفراتية وتتبعها معظم الشغور الشامية والجزيرة .

وقد سبق الحديث عن الدور الذي لعبه الظاهر غازي ، خلال حرب الوراثة التي أعقبت وفاة والده صلاح الدين . وإذا كان العادل قد تمكن بدهائه من التغلب على ممالك أبناء أخيه في دمشق ومصر وساعدته الظروف على تحقيق طموحاته ، فان حصانة حلب وحنكة صاحبها الظاهر ، وحسن سياسته حالت دون سقوطها بيد عمه العادل .

وقد بنى الظاهر غازي سياسته الداخلية على أساس تدعيم تفوقه داخل حدود مملكته ، فجعل دولته معمورة بالعلماء والفضلاء ، - وأحسن

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ص ٨٩ .

(٢) عن علاقة حلب بهذه القوى ، انظر الفصل الرابع .

الى رعيته ، كما اكرم الوافدين اليه ، وفتح صدره الى اللاجئين اليه من
أهل بيته ، واعتمد في ادارة شئون دولته على القاضي بهاء الدين بن
شدار . وضم اليه معظم الامراء الصلاحية الذين فقدوا ممتلكاتهم لحساب
عمه العادل . كما وطد علاقته مع الاسر العريقة ذات النفوذ داخل
حلب كاسر قنبي الخشاب وغيرهم (١) .

كما بنى الظاهر سياسته الخارجية مع القوى المحيطة بحلب على
أساس مراعاة حسن الجوار ومداهنة الحكام الآخرين ، واطهار نفسه كعامل
توازن بينهم وبين عمه العادل ، وفي ذلك يقول النعمي عن الظاهر:
انه صاحب " غدر ودهاء " واعظم دليل على دهائه مفاوضاته لعمه العادل ،
وكان لا يخلو يوما من شغل قلبه وخوفه ، وكان يصادق ملوك الاطراف ،
ويباطنهم ويلطفهم ويوهمهم انه لولاه لكان العادل يقصدهم ويوهمهم
عمه انه لولاه لم يطعمه احد من الملوك ولكشفوه بالشقاق ، فكان بهذا
التدبير يستولي على الجهتين ويستبعد الفريقين ويشغل بعضهم ببعض .
يفخر الملوك بالتحف والشعراء والقصاص بالصلوات " (٢) .

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٧٩ ؛ ابن العميد :
اخبار الايوبيين ص ١٣٠ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ٩٤ ؛ وبنو
الخشاب اسرة كردية عريقة دخلت في خدمة امارة بني مرداس
بحلب خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ،
ويبدو ان هذه الاسرة استمرت في مكانتها وعراقتها حتى القرن
السابع الهجري : انظر :

Zakkar, The Emirate of Aleppo p.238.

(٢) النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ؛
وانظر ايضا ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ٥٥٥ .

وهكذا استطاع الظاهر - بهذا النهج - المحافظة على مملكة حلب وشمال الشام ، لا سيما وأن هذه المملكة تحيطها قوى مختلفة ودول متباينة . ففي المشرق - ببلاد الجزيرة - يوجد الاتابكة في الموصل وسنجار ، والاراتقة في ماردين وحصن كيفا ، وفي آسيا الصغرى - شمال حلب - دولة سلاجقة الروم ، وفي الشمال الغربي مملكة أرمينية الصغرى ، وفي غرب حلب إمارة أنطاكية الصليبية وفي الجنوب مملكة حمص وحماه إضافة إلى سلطنة الملك العادل .

والواقع أن الحديث عن مملكة حلب وغيرها من الممالك الأيوبية في بلاد الشام لا يتم دون الإشارة إلى ما كان للاقطاع الحربي الأيوبي من نتائج سيئة على الحياة السياسية في بلاد الشام وبخاصة على مملكة حلب .

فمن المعروف أن نظام الاقطاع الحربي في الشرق الإسلامي نشأ في عهد الدولة السلجوقية ، التي تميزت بالصفة الحربية العامة ، بحيث انتقل فيها نظام الرواتب والاعطيات النقدية ، إلى نظام التعامل على قاعدة اقطاعية . إذ قام الوزير نظام الملك بالغاء نظام جباية الأموال من البلاد وصرفها على الجيش ، وأحل محلها اقطاع البلاد لكبار القادة العسكريين لكي ينصرفوا إلى الاهتمام بشئونهم وعمارتهم ^(١) . وعندما جاء صلاح الدين طبق نظام الاقطاع الحربي فمنح قادة جيشه الاقطاعات مقابل تقديم الخدمات الحربية عند الحاجة إلى ذلك . وجعل صلاح الدين

(١) نظير حسان سعداوى : جيش مصر في أيام صلاح الدين ص ٢- ٣ ؛
حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٢٦ .

نظام الاقطاع الحربي غير وراثي، مخالفا في ذلك الاقطاع الزمني ،حتى لا تؤول الاقطاعات الى اطفال صفار الاموال الذئد ينجم عنه نوع من الفوضى (١) . وأصبح بذلك للمقطع الحق في أن يجمع من الضرائب ما يكفيه ويكفي جنوده لمعيشتهم ،مقابل تقديم الخدمات الحربية لسيد السلطان (٢) . وقد أعفى هذا النظام السلطان من مهام نفقات الجيوش ، اذ اصبح المقطع هو المسؤول عن نفقات عساكره وما تحتاجه من اسلحة وموئ ن وأقوات اثناء تأدية الخدمات الحربية للدولة (٣) .

وعلى الرغم من ان هذا النظام قد افاد الدولة من الناحية الاقتصادية ،عندما ترك للامراء حرية تنظيم اقطاعاتهم ، وبالتالي اعفى الحكومة المركزية من أية مصاريف اضافية ، الا انه من ناحية اخرى كانت له اثاره السيئة ذلك أن القادة المقطعين كانوا يعودون بعساكرهم الى اقطاعاتهم في مواسم الحصاد ، للاشراف على جمع المحاصيل وتخزينها ، مما يسبب حرجا شديدا للسلطان . من ذلك ما حدث مع صلاح الدين في بلاد الشام سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٥ م عندما سمح للجيوش بالعودة لجمع المحصول فكانت أن تلحق به الهزيمة (٤) .

(١) Cahen. Article Ayyubids in Encyclopaedia of Islam, New Edition, Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, pp 28-30.

(٢) Hassanein Rabie : The Financial System of Egypt p. 57.

(٣) Rabie : Ibid. p. 32.

(٤) Rabie : Ibid. pp 69-70.

كما لا يغيب عنا ما نجم عن نظام الاقطاع الحربي من آثار سياسية سيئة في تاريخ بلاد الشام خاصة والدولة الايوبية بصفة عامة . واذا كانت هذه الآثار لم تظهر بصورة واضحة زمن السلطان صلاح الدين ، فان مرد ذلك الى قوة شخصيته وغبية تيار الجهاد على ما سواه من التيارات في عصره . أما الآثار السياسية السيئة لهذا النظام فقد ظهرت جلية واضحة بعد وفاته . ذلك ان القادة والامراء المقطعين احتفظوا بجيوش خاصة بهم ، الامر الذي اغراهم بالنزوع الى الاستبداد ومحاولة نيل استقلالهم عن سيدهم الملك الأيوبي ، اضافة الى محاولة كل مقطع توسيع اقطاعاته ، وعمل القادة الذين ليس لهم اقطاعات على الحصول على اقطاعات لهم . وكل ذلك أوجد حالة من عدم الاستقرار ، كما تقلب الامراء في ولائهم بين ملوك بني أيوب ، تبعاً لمن يمنحهم اقطاعات اكبر واكثر ايراداً . وما نتج عن ذلك كله من آثار سيئة تمثلت في زيادة حدة الخلافات ، وتعميق الانقسامات السياسية بين الايوبيين وهو ما سيتضح بجملة فيما بعد في دراسة الأحوال السياسية لبلاد الشام خلال الفترة موضع الدراسة .

فقد كانت تل باشر^(١) اقطاعاً لبدر الدين دلدرد بن بهاء الدين ياروق فقام دلدرد بتحسين تل باشر واخذ يشعر في قرارة نفسه بالتعاضد على الملك الظاهر غازي ، صاحب حلب ، وكان اتباع دلدرد يعظمونه ايضاً ويعاملونه معاملتهم للسلطان . وكان لاتباع دلدرد ، من الياروقية اقطاعات واسعة في جبل السماق^(٢) . فلما شعر الظاهر غازي

(١) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب مسيرة يومين سيرا على الاقدام وأهلها نصارى أرمن ، ولها ريفي وأسواق وهي عامرة أهلة انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) جبل السماق : جبل عظيم من اعمال حلب الغربية يشتمل على مدن وقرى عامتها للاسماعيلية انظر ياقوت : معجم البلدان .

بخطورة بدر الدين دلدرد ، وكشف اتصالاته السرية مع عمه العادل ،
استدرجه الى حلب واعتقله بقلعتها سنة ٥٩٠هـ / ١٠٩٤م وأخرج اتباعه
من حلب وانتزع اقطاعاتهم ، وطالب زعيمهم دلدرد بتسليم تل باشـر
فرفض ، فلما علم الملك العادل بالقبحي على دلدرد سار من حران الى حلب
فاستقبله الظاهر وشفع في دلدرد فاجابه الظاهر الى طلبه . وظلت تل
باشـر بيد دلدرد حتى وفاته سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م .^(١)

اما الامير عز الدين ابراهيم بن المقدم ، فكان اقطاعه يشمل بارين ، وأفامية
وكفرطاب وما يتبعها من قرى وكلها تابعة لحلب ، فعصى على الظاهر
غازي سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م وانضم الى عمه العادل^(٢) ، فلم يجزوه
الظاهر على التعرض له بعد ان دخل في حماية عمه العادل . وفي
سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م تمكن المنصور صاحب حماه - وكان محالفا للظاهر-
من انتزاع بارين من نواب ابراهيم بن المقدم^(٣) ، الا ان المنصور سرعان
ما اضطر - تحت ضغط الملك العادل - الى تعويض ابن المقدم عن بارين
فأعطاه منبج وقلعة نجم ، بالإضافة الى ما كان بيده سابقا مثل كفرطاب
وخمس وعشرين ضيعة من اعمال المعرة^(٤) .

(١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٥٤ ب (نسخة
الفاثيكان) ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٣٥ أ ب ؛
ابن العديم : زبدة حلب ج٢ ص ١٢٩-١٣٠ .
(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢١٣ أ ب ؛ ابن العديم :
زبدة حلب ج٢ ص ١٣٢-١٣٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٣ ص ٤٥ = وأفامية؛ مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور
حمص ، وبارين؛ مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب ،
وكفرطاب بلدة بين المعرة ومدينة حلب ، انظر ياقوت بمعجم
البلدان .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٠١ .

(٤) المصدر السابق ج٢ ص ١١٤ .

ولما توفي ابراهيم بن المقدم سنة ٩٧ هـ / ١٢٠١ م آلت
اقطاعه الى اخيه عبدالملك بن المقدم ، وهو ما يخالف القاعده التي
وضعها صلاح الدين في عدم توريث الاقطاع . لذلك سار الظاهر غازي
قاصدا منبج ، فاعتصم عبدالملك بن المقدم بقلعتها ، لكن الظاهر
تمكن - بعد حصارها سبعة ايام - من الاستيلاء عليها ، واعتقال ابن
المقدم وارساله الى قلعة حلب . ثم سار الظاهر الى قلعة نجم على
نهر الفرات ، ونازلها وتسلمها من نائب ابن المقدم ^(١) . وفي السنة
التالية ٩٨ هـ / ١٢٠٢ م أرسل الظاهر غازي الى نائب ابن المقدم
بأفامية ويدعى قراقوش طالبا منه تسليمها اليه فرفض ، فسار الظاهر
واستولى على كفرطاب ، وضرب الحصار حول أفامية دون جدوى ، وأحضر
عبدالملك بن المقدم امام اسوار أفامية وأمر بضربه بالسياط ضربا
مبرحا كيما يرغم نائبه قراقوش على التسليم ، فأمر الاخير بضرب الطبول
على اسوار القلعة حتى لا يسمع اهل البلد صراخ سيدهم ، وبعد قتال
شديد اصيب فيه الظاهر بجروح عجز عن اخذ أفامية عنوة ، فترك
جيشا يحاصرها ورحل عنها ^(٢) .

واخيرا وافق قراقوش على تسليم أفامية على ان يعرض سيده ابن
المقدم ، فاجابه الظاهر الى ذلك وأقطع الراوندان وكفرطاب ومفردة المعرة ،

(١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج١ لوحة ٣٦٢ (نسخة ايضاصوفيا)

بالعيني : عقد الجمان ج٣ لوحة ٢٥٣ ؛ ابن العديم : زبدة

الحلب ج٣ ص ١٤٨-١٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣

ص ١٢٠-١٢١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ١٩٨ ؛ ابو الفدا :

المختصر ج٣ ص ٩٩ ؛ الغزي : نهر الذهب ج٣ ص ١٠٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٢٢ ؛ ابن العديم : زبدة

الحلب ج٣ ص ١٤٩ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ٩٩ .

بشرط أن يقيم بمدينة حلب حتى لا يعود الى العصيان مرة أخرى ،
وتسلم الظاهر اقامية ، ولكن ابن المقدم تمكن من الفرار من حلب ، ولجأ
الى قلعة الراوندان (١) حيث اعلن العصيان بها من جديد على الظاهر
مما أجبر الاخير على محاصرة الراوندان ، حتى استولى عليها ، وصادر جميع
اقطاعات وأموال عبد الملك بن المقدم ، وحاول الاخير الاستشفاع بصاحب
تل باشر بدر الدين دلدرد الى الظاهر فلم تُجِدْ شفاعة شيئا ، فلجأ
ابن المقدم الى السلطان العادل فمنحه السلطان اقطاعا حسنا ، واحسن
اليه . اما الراوندان فقد احتفظ بها الظاهر في حوزته ولم يقطعها
لاحد نظرا لحصانتها وحساسية موقعها (٢) .

ويبدو ان الظاهر غازي خشي من انتزاع عمه العادل لمنبج منه ،
واعادتها لصاحب حماه ، نظرا لانها كانت خاضعة لنفوذه ، ولذلك عمد
الظاهر سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م الى تخريب قلعة منبج ، ونقل ذخائرها
الى حلب ، وأقطع البلدة لعماد الدين احمد بن علي بن المشطوب ،
ثم عاد الظاهر وانتزعها منه في السنة نفسها ، وطرده منها فسار ابن المشطوب
الى الشرق (٣) .

(١) الراوندان : قلعة صغيرة على رأس جبل عال متفرد في مكانه لا
يحكم عليها منجنيق ولا يصل اليها نبل ولها ريف صغير في لحف
جبلها وهي من اقوى القلاع واحسن البقاع ويحف بالقلعة من
جهة الغرب والشمال واد كالخندق وفيه نهر جار ، ابن شداد :
الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٥١ ب نسخة الفا تيكان .

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج١ لوحة ٢١٧-٢١٨ نسخة اياصوفيا ؛
ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٣١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢
ص ٢٢٥ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٠١ ؛ الفزى : نهر الذهب
ج٣ ص ١٠٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٣ ص ١٣١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ٢٢٢ ؛ ابو الفدا :
المختصر ج٣ ص ١٠١ .

اما عزاز^(١) وهي ايضا من جملة الثغور الشامية التابعة لمملكة حلب ، فكانت اقطاعاً لآحد الامراء ويدعى سيف الدين بن علم الدين على بن سليمان بن حيدر ، وكان مريضاً بحلب فخرج الظاهر الى بلد رعبان^(٢) وانشاءً مروره بعزاز هطلت الامطار والثلوج فأراد الصعود الى قلعة عزاز للاحتماؤها بها ، فرفض اتباع سيف الدين السماح له بالصعود الا باذن سيدهم سيف الدين ، فسار الظاهر الى دريساك^(٣) وكان بها ابن عم سيف الدين فقبض عليه ، وعاد الى حلب غاضباً ، واعتقل سيف الدين وهو مريض ووضعه في محفة وسيره معتقلاً الى عزاز وتسلمها من اتباعه^(٤) . وهذه الحادثة تشير بوضوح الى ان ولاء الجنود لسيدهم صاحب الاقطاع ، كان يفوق كثيراً ولاءهم للملك الايوبي الذي منح الاقطاع أصلاً لسيدهم ، أو بالاحرى لا يعترفون الا بقائدهم سيداً وحيداً لهم . ومن الطبيعي أن يغرى ، هذا الولاة شبه المطلق ، الامراء المقطعين بالنزوع الى الاستقلال كلما سنحت لهم الفرصة بذلك .

وكانت حارم^(٥) وهي من اعمال حلب ايضاً اقطاعاً لآحد ماليك السلطان صلاح الدين ويدعى سربك ، فلما ولي الظاهر حكم حلب ، أرسل اليه خلعة خاصة ، فأهداها سربك لآحد ماليكه . مما أغضب

-
- (١) عزاز : بليدة لها قلعة ورستاق شمالي حلب على مسيرة يوم ،
ياقوت معجم البلدان .
- (٢) رعبان : مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات انظر
ياقوت : معجم البلدان .
- (٣) دريساك : من اعمال حلب وهي قلعة مرتفعة لها بساتين وشرقها
مروج واسعة يجرى فيها الفهر الاسود ، انظر : ابو الفدا : تقويم
البلدان ص ٢٦٠-٢٦١ .
- (٤) الاطلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٤٩ أ نسخة الفاتيكان ؛ زبدة
الحلب ج٣ ص ١٣٨ .
- (٥) حارم : حصن حصين وكوره جلييلة من اعمال حلب تقع جهة انطاكية .
انظر ياقوت : معجم البلدان .

الظاهر غازي واعتبره اهانة له ، وأرسل اليه يستدعيه الى حلب . لكن سربك رفض تنفيذ هذا الأمر وامتنع بحصن حارم . فسار الظاهر الى حارم ونازلها ، واخيرا استجاب لتدخل بعض الامراء الذين سمعوا في الصلح ، فعفى عن سربك ، وتسلم منه حارم وعوضه عنها برعيان سنة ٩٣ هـ^(١) / ١١٩٧ م . ولكن سربك سرعان ما عصى على الظاهر برعيان في السنة نفسها مما دفع الاخير الى منازلة رعيان في رمضان ٩٣ هـ . وحينما شعر سربك بحرج موقفه فتح باب القلعة والتمس من الظاهر العفو فعفا عنه ورد رعيان اليه وعاد الى حلب^(٢) .

وكان الامير غرس الدين قلعج من الامراء اصحاب الاقطاعيات بمملكة حلب ، ويده عدد من القلاع الحصينة وهي دركوش^(٣) والشفر وبكاس^(٤) ، وشقيف الروج^(٥) . فلما توفي غرس الدين قلعج سنة ٩٥ هـ / ١١٩٩ م عصى أولاده بهذه القلاع على الظاهر غازي وامتنعوا من تسليمها اليه ، فخرج بجيشه من حلب وحاصر هذه القلاع الواحدة تلو الاخرى حتى استولى عليها جميعا وقبض على ابنا غرس الدين قلعج ، ثم عاد وعفى عنهم وأجرى لهم الرواتب واختص منهم سيف الدين علي بن قلعج الذي اضحى من اخلص مستشاريه وأعز أصحابه^(٦) .

-
- (١) الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٤٤ نسخة الفاتيكان .
- (٢) زبدة الحلب ج٣ ص ١٣٩-١٤٠
- (٣) دركوش : قلعة من اعمال حارم لها جامع وريفي تقع على نهر العاصي انظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٤٥ ب نسخة الفاتيكان .
- (٤) الشفر وبكاس : قلعتان قويتان من النواحي الغربية لحلب ، والشفر قلعة صغيرة قريبة من بكاس يعبر الى احدهما من الاخرى بجسر وهما على جانبي نهر الأرنت ، وبكاس نهر يخرج من تحتها ، وهما في غاية المنعة والقوة انظر : ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٦٢ ب - ١٦٣ أ نسخة الفاتيكان ؛ وانظر ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٠-٢٦١ .
- (٥) الروج : كور من كور حلب غربيها بينها وبين المعرة ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج١ ورقة ٣١ ب (نسخة الفاتيكان) .

(١) اما بالس فقد اقطعها الظاهر لاحد امراءه ويدعى اثير الملك ،
غير ان الظاهر سرعان ما اكتشف غدرة وعدم اخلاصه ، بمراسلته للعزیز عثمان
صاحب مصر . فأرسل الظاهر اليه من اعتقاله وشنقه وتسلم بالس . ثم تنازل
الظاهر عن بالس لعمه العادل بعد توقيع الصلح معه سنة ٩٨ هـ / ١٢٠٢ م
وقام العادل باقطاعها لابنه الحافظ مضافة الى قلعة جعبر (٢) .

لم يقتصر الاضطراب السياسي على القادة العسكريين اصحاب
الاقطاعات ، وما سببوه من قلق لملك حلب الظاهر غازي ، بل ان بعض
الشخصيات الذين ليس لهم اقطاعات بدأوا يتطلعون الى تأسيس امارات
خاصة بهم ، لا سيما وان الظاهر كان منغمسا في حرب الوراثة الايوبية ،
من ذلك محاولة العلم بن ماهان ، الذي كان عند الملك الظاهر في
محل الوزارة لمكانته الخاصة في نفس الظاهر . ففي سنة ٩٢ هـ / ١١٩٦ م
وصل الى الملك الظاهر الامير علم الدين قيصر الناصري - وهو من كبار
الامراء الصلاحية - فأقطعه الظاهر اللاذقية ونزعها من يد صاحبها ابن
السلار . وأرسل الظاهر صديقه العلم بن ماهان ليحصى ما في قلعتها
من أموال وذخائر ويسلم القلعة ذاتها لعم الدين قيصر ، وأن يبقى
الجنود فيها على حالهم ، على ان ياخذ منهم الايمان والمواثيق بالاخلاص
للظاهر غازي . (٣)

فلما وصل العلم بن ماهان الى اللاذقية طمع في الاستيلاء عليها

(١) بالس : بلدة بين حلب والرقّة على الضفة الغربية لنهر الفرات ،

انظر ياقوت معجم البلدان

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٤١ = وقلعة جعبر على نهر

الفرات بين بالس والرقّة على الطرف الشمالي للنهر ، وتقع القلعة

على هضبة صخرية صعبة المنال . انظر ياقوت : معجم البلدان ؛

ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٣٦ .

والاستقلال بها " وحدثته نفسه بالعصيان ، واستحلف الاجناد لنفسه ، وخالفه بعضهم ، وامتنعوا وكتبوا الى الملك الظاهر ، وقبضوا على ابن ماهان " . فصار الظاهر بنفسه الى اللاذقية واعتقل ابن ماهان ، وقطع يده ونكل به ^(١) . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى خطورة التدهور السياسى الذى اصاب بلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين ، مما شجع بعض الشخصيات على استغلال الوضع السائد ، ومحاولة انشاء امارات خاصة بهم ما زاد في تدهور بلاد الشام .

وكيفما كان الامر ، فان الظاهر غازى احدى مقتنعا - بعد النتائج التى تمخضت عنها حرب الوراثة الايوبية - أنه لم يعد بمقدوره العمل على مناوئة عمه العادل ، بعد ان بسط نفوذه على مصر وبلاد الشام والجزيرة . واستعان باولاده في ادارة هذه البلاد ، كما أيقن بأن أى محاولة لاعادة السلطنة الى ابناء صلاح الدين ، ستكون مجازفة قد يدفع ثمنها مملكته في حلب وشمال الشام . ولذلك آثر الظاهر العمل على تغيير سياسته وتحسين علاقته مع عمه العادل وأبنائه . وليس أدل على ذلك من قيام الظاهر باستقبال ابن عمه الا شرف موسى استقبالا حافلا ، عند مروره بحلب سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م ، حيث انزله في داره بقلعة حلب ، وقدم له من الهدايا والتحف والسلاح والخيول والذهب والجواهر والماليك ، والاقمشة والخلع ما قدرت قيمته بخمسين الف دينار ^(٢) .

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ج٣ ص ١٣٦-١٣٧ .

(٢) الخطيب العمري : الدرالمكون ورقة ١١٢ أ ؛ ابن العديم :

زبدة الحلب ، ج٣ ص ١٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣

ص ١٨٣ - ١٨٥ ؛ الغزى : نهر الذهب ج٣ ص ١١٠-١١١ ؛

الطباخ الحلبى : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج٢ ص ٢٠٧ .

ونظرا لما كان لعلاقات الزواج والمصاهرة من اثر على توجيه الحياة السياسية في العصور الوسطى - سواء في الشرق والغرب - فقد قرر الظاهر تحسين علاقته بعمه السلطان العادل عن طريق تجديد علاقة المصاهرة بينهما^(١) ، فأرسل في سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١ م القاضي بهاء الدين بـن شداد برسالة الى عمه العادل بمصر تضمنت استعطافه واسترضاءه ، وان يجدد له اليمين على مملكة حلب . كما خطب ابنته " ضيفة خاتون " شقيقة محمد الكامل ولي عهد العادل ، وكانت احب ابناؤه اليه ، فوافق العادل على طلب ابن اخيه الظاهر غازي . وتم عقد النكاح في سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢ م وقدمت ضيفة خاتون الى حلب في ابهة عظيمة ، واستقبلها الظاهر استقبالا حافلا^(٢) . وقد نتج عن هذا الزواج تحسن في العلاقات بين الظاهر وعمه العادل " وزال ما كان بينهما من الاحن " على حد تعبير ابي الفدا^(٣) .

ولكن ابن واصل يعود فيذكر في سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣ م أنه " حصل عند الملك الظاهر استشفار من عمه الملك العادل لشيء بلغه عنه وأخذ في الاستخدام والاستعداد " لكن ابن واصل لم يوضح سبب ذلك ، كما ان الأمور لم تبلغ حدا كبيرا من التدهور . فبعث الظاهر الى عمه العادل ،

- (١) كان صلاح الدين قد زوج ابنته الظاهر غازي من ابنة اخيه العادل غازية خاتون سنة ٥٨٢هـ الا انها توفيت قبيل موت صلاح الدين . انظر ابن العجمي : كنوز الذهب لوحة ١١٠ .
- (٢) ابن العجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب ١١٠-١١١ ؛ تاريخ ابن الشحنة ورقة ٥٩ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢١٢-٢١٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٦٣-١٦٤ ؛ ابن ايبك : الدر المطلوب ص ١٢٨-١٢٩ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١١٤ ؛ الغزى : نهر الذهب ج ٣ ص ١١١ .
- (٣) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١١٤ .

بنائب القاضي ابن شداد لاصلاح الحال بينهما . كما ورد من جهة
السلطان العادل " ما طاب به قلب الظاهر وزال استشعاره ، فبعث الملك
الظاهر الى عمه هدية سنوية من جملتها خمسون رأساً من الخيل " (١)

وفي أواخر سنة ٦١٠هـ / ١٢١٤م ولد للظاهر من ابنة عمه ضيفة
خاتون ولد أسماه العزيز غياث الدين محمد ، وأقام الظاهر لمولده احتفالا
مشهودا . حيث اقيمت مظاهر الفرح والابتهاج بمدينة حلب ومدحه
الشعراء بهذه المناسبة (٢) . ولعل ابتهاج الظاهر الشديد بمولده
ابنه هذا راجع الى انه رأى فيه ضمانا لاستمرار الحكم في سلالة بحلب ،
وذلك لأن المولود الجديد يعد حفيداً للسلطان العادل وأبناء العادل
هم احواله وهم أصحاب الحكم في مصر والشام والجزيرة . فقرر الظاهر غازي
ان يعهد اليه بولاية العهد ، وعدل عن ابنه الأكبر - وهو من زوجة أخرى -
حتى لا ينافسه العادل أو أبنائه (٣) . ويبدو أيضا ان الظاهر رأى ان
تولية ابنه العزيز غياث الدين بعده ، سوف يحميه من منافسة إخوة الظاهر
من أبناء صلاح الدين وغيرهم من الأمراء . لأنهم لن يستطيعوا معارضته
خوفا من العادل وأبنائه .

وفي سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م أرسل الظاهر القاضي بهاء الدين
ابن شداد الى عمه العادل طالبا منه ثلاثة أشياء ، اولها : الموافقة على أن
يكون العزيز محمد ولي عهد أبيه وقائما بمملكة حلب بعده ، وثانيها مخطبة
ابنة الكامل محمد بن العادل للعزيز بن الظاهر ، وثالثها : أن يكون صلح

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢١٩-٢٢٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٣ ص ٢٢٠-٢٢٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣١٣ ؛ محمد كرد علي : خطط

الشام ج٢ ص ٧٨ .

الظاهر و صلح العادل مع الفرنج واحدا ونكشها واحدا ايضا ، وتنسيق
خططهما ازاء الفرنج . وقد وافق السلطان العادل وابنه الكامل على
مطالب الظاهر الثلاثة وأعطيا عهدهما للقاضي ابن شداد على ذلك (١) .

وفي جمادى الاولى ٦١٣هـ / ١٢١٦م واثنا سفارة القاضي ابن
شداد الى مصر مرضي الظاهر غازي ، فاحضر نائب القاضي ابن شداد ،
وكتب وصيته التي تضمنت : أن يكون الملك بعده ابنه العزيز محمد ، وي بعده
ابنه الآخر صلاح الدين احمد بن الظاهر ، وي بعدهما لابن عمهما المنصور محمد
ابن العزيز عثمان ، وان يكون الامير شهاب الدين طغريل الخادم مسوؤلا
عن قلعة حلب وأموال المملكة ، والامير سيف الدين علي بن سليمان بن حيدر
اتابك العسكر . وجرى أخذ اليمين من الامراء والقادة واعيان حلب بتنفيذ
الوصية وأن يبعث منها نسخة الى السلطان العادل ، وأحضر الظاهر
طغريل الخادم وسلمه مفاتيح الخزائن ، وجعل له السلطة المطلقة في
جميع القلاع وتصريف شئون الدولة ، وخشي الظاهر من اخيه الظافر خضر
ابن صلاح الدين فاقطعه كفرسون من اعمال حلب وأخرجه من المدينة ،
فسار الظافر خضر قاصدا كفرسون فسبقه اليها اخوه الزاهر بن صلاح الدين
صاحب البيرة فاستولى عليها وعلى بعض القرى المجاورة لها ، فقصد الظافر
منبج بقصد الاستيلاء عليها ، فارسل الاتابك طغريل في اثره فرقة عسكرية
رحلته عنها فذهب الى اخيه الافضل صاحب سميساط واقام عنده . وفي
أواخر جمادى الآخرة ٦١٣هـ / اكتوبر ١٢١٦م توفي الظاهر غازي صاحب

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٣٦-٢٣٧ ، تاريخ ابن الفرات
ج٥ قسم ١ ص ١٩٣-١٩٤ ؛ الفزى : نهر الذهب في تاريخ
حلب ج٣ ص ١١ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء
ج٢ ص ٢١٥ .

حلب وعم الحزن والفرح أرجاء مملكة حلب ، لما عرف عنه من عدل وحسن سياسة وشفقة ورحمة بالرعية (١) .

ولما وصل القاضي بهاء الدين بن شداد اجتمع بشهاب الدين طغريل وغيره من الأمراء ، وقرروا اسناد منصب اتابك العسكر للمنصور بن العزيز وان يكون امر الاقطاع بيده ، اما المناصب الدينية فتكون بيد شهاب الدين طغريل ، غير أن جعل اتابكية العسكر - اي قيادتها - بيد المنصور لم ترض اخوة الملك الظاهر . فظهر رأى يشير بان يكون الافضل بن صلاح الدين صاحب سميساط اتابك لعسكر حلب لأنه عم الملك العزيز . وأيد هذا الرأى جماعة من الأمراء المصريين من الصلاحية ، الذين استقروا بحلب بعد توقيع الصلح بين الظاهر وعمه العادل . وأشاروا الى ان الافضل أولى الناس بتربية العزيز وحفظ دولته ، وأنه اذا رجع اليه الامر سيكون قادرا على الثأر من عمه العادل واسترداد السلطنة منه . غير ان القاضي ابن شداد والامير سيف الدين بن قلج وغيرهما رفضوا هذا الرأى ، وبينوا الاخطار التي ستنبج عن الاخذ بهذه المشورة نظرا لقوة العادل وضخامة مملكته ، ولأن المجاهرة بمعاداته سيؤدي الى القضاء على مملكة حلب . كما ان اسناد قيادة العسكر للافضل قد يهدد العزيز في حلب ذاتها . فمن المحتمل ان يستولى الافضل على مملكته مثلما فعل العادل مع المنصور بن العزيز في مصر . واخيرا تم الاتفاق على اسناد جميع امور المملكة الى شهاب الدين طغريل ، وعملت نسخة يمين على ذلك وأقسم بموجبها جميع الأمراء واستقرت الأمور بحلب (٢) .

(١) العليني : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب والسواحل ورقة ١٢ ١١ ؛

ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٣ ص ١٦٩-١٧١ ؛ ابن واصل ، مفرج

الكروب ج ٣ ص ٢٣٧ - ٢٤٣ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٣ ص ١٧٥-١٧٧ ؛ ابن واصل ، مفرج

الكروب ج ٣ ص ٢٤٩-٢٥١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٥ قسم ٢ ص ٢٠٧-٢١٠ .

أجمع الموء رخون على حسن سيرة الاتابك شهاب الدين طغريل ،
لما اشتهر به من الزهد والتقوى ، فانعكس ذلك على اخلاصه في اداء
الامانة التي أوكلت اليه ^(١) . فقام بتنظيم مملكة حلب وقلاعها ، وتنظيم
الاقطاع وتوزيعه على المخلصين في الخدمة ، واستعان في ذلك برأى
القاضي بهاء الدين بن شداد ، والامير سيف الدين بن قلع ، فاقطع علم
الدين قيصر دريساك ، وأقطع أحد زعماء التركمان اللانقية ، ويعث
علم الدين قيصر الى الزاهر صاحب البيرة يعاتبه على هجومه على
البلاد اثنا مرض الظاهر وموته . وبعد تردد أعلن الزاهر طاعته للاتابك
طغريل ، بشرط أن تبقى البلاد التي استولى عليها في يده ، فأجابه
الى طلبه ^(٢) .

وعلى الرغم مما شهدته مملكة حلب زمن الاتابك طغريل من
استقرار داخلي ، فان ذلك لا يعني انعدام المشكلات بالنسبة لها .
ان لم تلبث اطماع القادة العسكريين وبعض الامراء المقطعين أن ظهرت
من جديد ، ذلك ان جماعة من الممالك الظاهرية كرهوا قيام الاتابك بمفرده
بإدارة شؤون مملكة حلب ، وعلى رأس هؤلاء المتذمرين ايبك الجمدار
الظاهري . فراسل والى حارم سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م ، واتفق معه على

(١) العيني : عقد الجمان ج١٣ لوحة ٣٥٧ ؛ العليبي : المعتمد
في انباء من غير ، ورقة ٧٤ ب ؛ ابن القوطي : الحوادث الجامعة
ص ٩٦ - ٩٧ ؛ ابن القوطي : تلخيص مجمع الاداب في معجم
اللقاب ج٤ قسم ١ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٢
ص ٣١٤ ؛ تاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٤٩٧ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٧٨ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب ج٣ ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

أن يسير بمن معه الى حارم ، ويقومون بالعمل معا ضد الاتاك طفريل .
غير ان حامية حارم اعتقلت الوالي ومنعت ايبيك الجمدار من الصعود للقلعة
مما أجبره على الذهاب الى دريساك طامعا في الاستيلاء عليها ، فلم
ينجح فسار الى سلطان سلاجقة الروم وانضم اليه . كما اعلن صاحب
قلعة بهسنا^(١) عصيانه وانضم الى سلطان الروم ، ثم سكنت الفتنة
وانتظم الامر في اواخر سنة ٦١٣هـ^(٢) .

وفي سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م سار السلطان العادل الى بلاد الشام ،
وارسل الى الاتاك شهاب الدين طفريل يوء كد دعمه لمملكة حلب ،
كما ارسل في الوقت نفسه خلعة وسنجقا " وحلف له على ما اوجب السكون
والثقة " ^(٣) .

ثم تعرضت مملكة حلب لخطر محقق سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م من قبل
سلطان سلاجقة الروم ، الذي قرر المسير الى حلب للاستيلاء عليها . غير أن
الاشرف بن العادل سار مسرعا لنجدة حلب وتمكن من صد سلطان سلاجقة
الروم وبالتالي حماية حلب من السقوط ^(٤) .

(١) قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط من اعمال حلب : ياقوت : معجم
البلدان .

(٢) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج١ لوحة ٢٢٨ (نسخة اياصوفيا)

بما ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٣) زبدة الحلب ج٣ ص ١٢٩ = والسنجق لفظ تركي كان يطلق اصلا

على الرمح ثم اطلق على الراية التي تربط به وكانت السناجق تحمل

في مواكب السلطان ، انظر القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٨ ،

ج٥ ص ٤٥٦ ؛ مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥ حاشية رقم (١) .

(٤) انظر تفصيل هذه الحادثة في الفصل الرابع ص : ٣٥٢ - ٣٥٦ .

انصرف الاشرف اثناء اقامته في حلب - بعد صده سلطان الروم - الى ترتيب امورها ، مما جعل الامراء الصلاحية يضررون له الغدر ، فقرر التخلص منهم ، وسيرهم الى مصر لنجدة اخيه الكامل الذي كان يواجهه الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، وبينما كان الاشرف مقيما في حلب بلغه نبأ وفاة والده السلطان العادل ، فاستقر رأيه ورأى الاتابك طغريل على اقامة الخطبة بحلب للسلطان الكامل محمد بن العادل وبعده للاشرف ثم للملك العزيز بن الظاهر ، وضرب اسم السلطان الكامل والملك العزيز على السكة (١) .

وأراد الاتابك طغريل مكافأة الاشرف على نجده لمملكة حلب ، وحمايتها من خطر سلاجقة الروم ، فأقطعه عددا من القرى الزراعية الغنية في ريف حلب ، ويبلغ ايرادها السنوي مليوني درهم ولكن الاشرف ابدى حسن نيته ازاء ملكة حلب فأرسل في سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م يعلن تنازله عن تلك القرى وأمر نوابه بتسليمها للاتابك طغريل ومفادرتها ، وكان لهذا التصرف احسن الاثر في نفوس الحلبيين (٢) .

وقد أثمرت سياسة الود والصداقة التي انتهجها الاتابك طغريل تجاه أبناء العادل . ففي سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م غادر الاشرف مصر متوجها الى بلاده بالشرق وحمل معه من اخيه السلطان الكامل ، الخلع السلطانية

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٨٦ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٣ ص ٢٦٩ .

(٢) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج١ ورقة ١٦٢ أ ب نسخة

الفاتيكان ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٩١ ؛

ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٠٦-١٠٧ .

وتقليد السلطنة بمملكة حلب والسناجق للملك العزيز محمد بن الظاهر ،
ودخل بها الى حلب في شوال سنة ٦٢٠هـ / نوفمبر ١٢٢٣ م . وقد جرى
له استقبال حافل بمدينة حلب ولبس العزيز - وكان عمره يومئذ عشرين
سنوات - خلع خاله السلطان الكامل ، وأقام الاشرف بحلب عشرة أيام ثم
غادرها الى بلاده (١) .

ظل الاتابك طغريل مخلصاً في خدمة ابن سيده الملك العزيز ،
ولم يظهر منه خلال فترة حكمه اية اطماع ، كما لم يسع لتحقيق أية مكاسب
شخصية . بل انه عمد الى تدريب العزيز على شئون الحكم وتلقينه أصول
الادارة ، ومن امثلة ذلك عندما اجلسه سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨ م في منصب
أبيه ، ورفعت اليه الشكاوى ، وامرو نهى ، وكان عمره يومئذ خمس عشرة سنة ،
وأحضر الفقهاء والعلماء بين يديه ودارت بينهم المناقشات والمناظرات
العلمية (٢) .

وفي سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨ م سار القاضي بهاء الدين بن شداد ،
وبصحبه اكابر حلب ووجهائها لمقابلة السلطان الكامل الذي كان يحاصر
دمشق ، وذلك لعقد قران الملك العزيز على ابنة السلطان التي سبق
وخطبها له والده قبيل موته . وتم عقد النكاح على صداق مقداره خمسون
الف دينار ، وخلع الكامل على القاضي بهاء الدين بن شداد واصحابه
وعادوا الى حلب مسرورين بتوطيد العلاقات بين العزيز وخاله السلطان الكامل (٣) .

-
- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٩٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٣ ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٩٦ - ٩٧ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ مخطوط لوحة ٥ - ٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٤ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٠٥ .
- (٣) ابن الفرات : ج٦ مخطوط لوحة ٥٣ - ٥٤ ؛ ابن العديم : زبدة
الحلب ج٣ ص ٢٠٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

غير أن زفاف العزيز من ابنة الكامل لم يتم الا سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م عندما قام القاضي ابن شداد بالسفر الى مصر ، واحضرها في أبهة عظيمة ، واستقبلتها حلب في احتفال كبير (١) .

ومهما يكن من شيء فمئذ هلت سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م انفرد الملك العزيز بحكم حلب ، عندما بلغ عمره ثماني عشرة سنة وسلم اليه أتابك شهاب الدين طغريل قلعة حلب بما فيها من اموال وذخائر . فقام العزيز بتعيين الولاة من قبله ، واستحلف العساكر والقادة والاعيان لنفسه ، كما خرج من حلب وزار القلاع والحصون ، ورتب شئونها . أما الatabik طغريل فقد خرج من قلعة حلب بعد ان ظل مقيما بها طوال فترة اتابكيته وسكن بداره في مدينة حلب . وقد شهد له المؤرخون بحسن السيرة ، وانه لم ينصح احد غيره في خدمة بيت استاذه وقيامه بامر تربية ابنه حتى يكبر مثلما فعل هو (٢) .

وفي السنة التالية ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م خرج العزيز من حلب قاصدا تل باشر ، التي كانت بيد الatabik طغريل وبها امواله الخاصة . ويبدو أن بعض اصحاب العزيز هم الذين أوعزوا له بالاستيلاء على القلعة . واقترحوا عليه ترك قراها الزراعية بيد الatabik ، وكانوا يعتقدون ان الatabik يحتفظ

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢١١ - ٢١٢ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج٥ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) تاريخ ابن الفرات : ج٦ مخطوط لوحة ١٦٢ - ١٦٣ ؛

ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٠٩ - ٣١١ ؛ ابن الاثير :

الكامل ج١٢ ص ٣١٤ ؛ الفزى : نهر الذهب ج٣ ص ١١٤ ؛

الطباخ : اعلام النبلاء ج٢ ص ٢٣٩ .

داخل القلعة باموال طائلة ، وما ان علم الاتاك بهذه الحركة حتى أمر واليه عليها بتسليمها الى العزيز دون معارضة ، ولما استولى عليها الاخير اخذ خزانة الاتاك ولم يجد بها سوى القليل من الاموال فاعادها اليه فامتنع من اخذها قائلا " ما ادخرت المال الا لك " وهذا ما يؤكده نزاهته وأمانته (١) .

واخذ العزيز يتطلع لبسط نفوذه المباشر على شيزر (٢) لعالها من أهمية عسكرية ، وكانت اقطاءا للامير يوسف بن مسعود بن سابق الدين بن الداية . وفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م خرج العزيز الى بعض القرى التابعة لحلب والقريبة من شيزر ، فلم يحتفل به صاحب شيزر ، ولم ينزل اليه وارسل له اقامة وعلوفات قليلة فاتخذ العزيز ذلك ذريعة للاستيلاء على شيزر ، فعاد الى حلب ، وأرسل سيف الدين علي بن قلج الظاهري الى السلطان الكامل ، يستأذنه في حصار شيزر والاستيلاء عليها ، باعتبارها تابعة لمملكة حلب . وقد قام العزيز بهذا الاجراء خوفا من قيام صاحبها ابن الداية بالاستشفاع بالسلطان الكامل ، فلا يتحقق

- (١) ابن الفرات : ج٦ لوحة ١٩٨ - ١٩٩ ؛ ابن العديم : زبدة حلب ج٣ ص ٢١٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٩ - ١٠ .
- (٢) تقع شيزر الى الشمال من حماة على هضبة صخرية منتصبة على ضفة نهر العاصي الغربية يكللها حصن لم يزل قائما الى اليوم ومعروف باسم (سيجر) تحريف (شيزر) والهضبة مرتفعة ويحيط بها النهر من جهاتها الثلاث بحيث اصبحت شبه جزيرة وقد اكمل الانسان حصانتها بحفر خندق يمر في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر ، وبني على الخندق جسر من الخشب للوصول الى القلعة ، مما زاد في حصانتها ومناعتها . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ ابن منقذ الاعتبار ، مقدمة المحقق ص ت ج .

غرضه بالاستيلاء عليها . وسار العزيز نحو شيزر واستولى على محاصيلها
ثم نصب المنجنيقات^(١) جهة الجبل ، وترك المنجنيق الغربي قبالة
بابها . وبعث الى صاحبها محذرا بقوله : " والله لئن قتل واحد من
أصحابي لأشنقنك بدله " فأصيب ابن الداية بالذعر وأمر أصحابه بعدم
القتال ، وراسل العزيز وعرض عليه تسليم شيزر وحصن ابو قبيس المقابل
لشيزر ، على ان يبقى على امواله التي بها ويعيد اليه املاكه التي بحلب
فاجابه العزيز الى ذلك وتسلمها وعاد الى حلب^(٢) .

وفي سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م امتد نفوذ العزيز الى البيرة الواقعة
على الضفة الشرقية لنهر الفرات التي كانت خاضعة للملك الزاهر داود
ابن صلاح الدين ، الذي ما ان اشتد به المرض حتى أوصى بالبيرة وأعمالها
لابن أخيه العزيز ، فقام الاخير بعد موت عمه بتنظيم احوالها وعين بها

- (١) المنجنيقات : جمع منجنيق وهي اصناف مختلفة وذات تراكيب
متباينة ، فمنها العربي والفارسي والافرنجي ، فمثلا المنجنيق العربي
يصنع من الخشب الجيد ويتكون من مثلث متساوي الساقين قاعدته
اصغر من الساق بمقدار التسع ويركب في اعلا المثلث خنزيرة من
خشب السنديان ويكتنفها من اسفل بطانة ، ويوجد تحت الخنزيرة
سقف لمنع وصول الاذى الى الرجال الذين تحته . وتستخدم
المنجنيقات لرمي السهام الى مسافات بعيدة ولرمي الحصون
بالحجارة الضخمة كما تستخدم لقذف قدور النفط والكرات المشتعلة
وغير ذلك . انظر الطرسوسي : تبصرة ارباب الالباب ، تشركا هن
ص ١٦-١٧ ، عبد الرحمن زكي : السلاح في الاسلام ص ٥٨-٥٩ .
- (٢) ابن العديم : بغية الطلب (اياصوفيا) لوحة ٢٢٢ ، تاريخ ابن الفرات
ج ٦ لوحة ٢٢٨ - ٢٣٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢١٤ -
٢١٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٦٣-٦٥ .

واليا من قبله وعاد الى حلب (١) .

أما عن سياسة العزيز داخل حلب ، فقد اتسمت باللين وحسن
الادارة والتقرب الى الرعية والاحسان اليهم ، ونشر العدل داخل مملكته
ورفع الظلم عن الناس ، وعدم الاجحاف بهم ، ومما يدل على ذلك تصرفه
ازاء أحد أثرياء حلب ويدعى كمال الدين بن العجمي الذي طلب منه أن
يوليّه قضاء حلب ، بعد وفاة القاضي بهاء الدين بن شداد . وعرض مقابل
ذلك مبلغا كبيرا من المال وشيئا مقررًا كل سنة من الاوقاف وغيرها . لكن
العزيز رفض هذا العرض لأنه رأى فيه مدعاة الى الجور في الاحكام
والخروج عن القوانين الشرعية . هذا فضلا عن ان طالب القضاء بهذه
الصورة لا يكون مأمونا على اموال الناس وأعراضهم . وقد رفض العزيز بدافع
من سجيته الكريمة ، ودينه الوافر ، وحرصه الشديد على نشر العدل بين
رعيته . فأسند منصب القضاء الى نائب القاضي بهاء الدين بن شداد ،
ويدعى زين الدين بن الاستاذ ، لما عرف عنه من علم وافر ونزاهة وتقوى ،
اضافة الى ثقة القاضي ابن شداد به قبيل موته . كما سار العزيز
على سياسة والده في توريث المناصب للابناء اذا اشتهروا بالكفاءة والاخلاص
(٢)
مثل آبائهم .

وكيفما كان الامر فان عهد العزيز لم يدم طويلا بحلب ان مرض

سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م ، فقرر تولية ابنه الناصر يوسف وارسل المؤرخ
كمال الدين بن العديم الى اخيه احمد بن الظاهر صاحب عينتاب طالبا

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢١٨-٢١٩ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج٥ ص ٨٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص

٢٥٧-٢٥٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٥٧-٣٥٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج٥ ص ١١٦-١١٧ .

منه التنازل عن ولاية العهد لابنه ، واستحلفه على ذلك . وكانت وفاته في ربيع الاول ٦٣٤هـ / ديسمبر ١٢٣٦ م عن ثلاث وعشرين سنة ^(١) من العمر .

لما توفي العزيز ، تقرر اقامة ابنه الناصر يوسف صلاح الدين مكانه وهو بعد ما يزال صغيرا ، فمولده سنة ٦٢٧هـ . ومن أجل ذلك تألف مجلس وصاية مكونا من الامير شمس الدين لؤلؤ ، لوئ الايني ، وعزالدين عربين محلي ، والوزير جمال الدين القفطي . على ان يحضر المجلس جمال الدين اقبال الخاتوني ، ويقوم بمهمة حلقة الاتصال بينهم وبين جدة الملك الصغير ضيفة خاتون ابنة العادل وشقيقة السلطان الكامل . وأن تكون العلامات على التواقع والمكاتبات اليها ، واصبحت ضيفة خاتون تدير مملكة حلب بصورة غير مباشرة . وحينما تقرر ت هذه القواعد ، بعث الحلبيون بالقاضي زين الدين بن الاستاذ ، ويدر الدين بن الهيجا رسولين الى السلطان الكامل لأخذ موافقته على هذه الاجراءات ، ووافق الكامل على ذلك .

واقترح اقامة الصالح بن الظاهر صاحب عينتاب ^(٢) أتابكا للعسكر ، وأن يقوم بتربية ابن أخيه الناصر يوسف . وعندما عاد الرسولان الى حلب وأخبرا ضيفة خاتون أخت الكامل بهذا الاقتراح ، رفضته وأيدها في ذلك أعضاء مجلس الوصاية . وبعد فترة وجيزة أرسل السلطان الكامل خلعة للملك الناصر يوسف ، وخلعة اخرى لعمه الصالح صاحب عينتاب ، الا مر الذي أوقع الشك والريبة في نفوس أهل حلب ، ومنعوا الخلع من الوصول الى الصالح ، فتدهورت العلاقات بعد ذلك بين مملكة حلب

(١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوح ٣٥٥-٣٥٦ ، العليمي في تاريخ من

ملك مصر وعكا والشام والساحل ، ورقة ١١٤ أ ؛ ابن العديم :

زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١١٦ ؛

ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٨ .

(٢) وعينتاب قلعة حصينة من اعمال حلب تقع بين انطاكية وحلب .

انظر ياقوت : معجم البلدان .

والسلطان الكامل (١) .

ولقد جرت مؤامرة داخلية للاطاحة بمملكة حلب ، حاك خيوطها يوسف بن مسعود بن سابق الدين بن الداية ، الذي كان بيده شيزر ، وكمال الدين بن العجمي ، وأرسلا سرا الى الملك الا شرف موسى صاحب حلب ، يعرضان عليه الاستيلاء على حلب ويعدانه بالمساعدة من الداخل . غير ان الاشرف رفض عرضهما ، ثم اكتشفت صاحبة ضيفة خاتون واصوانها سر المؤامرة . وجرى القبض على ابن الداية وابن العجمي واعتقلا بقلعة حلب سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٥م (٢) .

ومن الاخطار التي تعرضت لها مملكة حلب سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٥م خطر التركمان ، ان قام احد زعمائهم ويدعى قنغر ، وجمع اعدادا كبيرة من التركمان ، وعاث في اطراف حلب ونهب عدة قرى ، وكان يشن الغارات ويلجأ الى اسيا الصغرى ، ولما خرج اليه عسكر حلب أنزل بهم الهزيمة . فظن أمراء حلب ان تلك الغارات التركمانية بأمر سلطان سلاجقة الروم ، فارسلوا يشكون اليه قنغر ، فأمره برد ما نهب من اعمال حلب " وانكف عن العبث والفساد " (٣) .

- (١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٨ ورقة ٤٢٤ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١١٨ - ١٢١ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ص ٨٨ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٦٨ - ٣٦٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٢٨ - ١٣٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٠٩ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٦٧ - ٣٦٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٣٠ - ١٣١ .

وفي السنة التالية (٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م) شهدت مملكة حلب أحداثا خطيرة ، اذ اندلعت نيران الحرب الاهلية في بلاد الشام ، تلك الحرب التي سيكون لها نتائج سيئة على احوال بلاد الشام قبيل الفزو المغولي . وكان من الطبيعي ان تطال هذه الحرب مملكة حلب ، شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشام . فاستدعت صاحبة خاتون المعظم بن صلاح الدين واخوته واقاربته وجميع امراء حلب ، واخذت منهم العهود والمواثيق على الاخلاص للملك الناصر ، واستحلفت أيضا وجهاء حلب وسائر جنودها وشرعت في الاستعداد لظروف الحرب بتخزين المؤن والأقوات والسلاح والذخائر ، وجندت جماعة من الخوارزمية ، كما وصل الى حلب قنفر التركماني فاستخدمته وأتباعه من التركمان ، وكل هذه الاستعدادات كانت ضمن تحالف ملوك الشام ضد السلطان الكامل (١) .

وقد تمكنت صاحبة ضيفة خاتون من المحافظة على مملكة حلب ، رغم تتابع الحوادث التي شهدتها بلاد الشام زمن الحرب الاهلية بين الأيوبيين . بل انها أضافت الى مملكة حلب قلعة جعبر ، بمنطقة الجزيرة الفراتية . وكانت هذه القلعة خاضعة للملك الحافظ أرسلان شاه بن المعادل . وفي سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م أصيب الحافظ بالشلل ، واشتد خوفه من الخوارزمية ، فراسل أخته ضيفة خاتون وطلب منها ان تتسلم قلعة جعبر وبالس وان تعوضه عن ذلك ببعض القرى القريبة من حلب ، فأعطته عزاز وبعثت الى قلعة جعبر وتسلمتها (٢) . اما الحافظ فتوفي في السنة التالية

- (١) مفرج الكروب ، ج ٥ ص ١٨٠ . وعن الحرب الاهلية واسبابها ودور حلب فيها انظر الفصل الثاني ص : ١٥١ - ١٥٢ ، ١٦٧ - ١٦٨ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٦٦ - ٥٦٧ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣٣ ؛ مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ؛ الفزى : نهر الذهب ج ٣ ص ١١٦ ؛ الطباخ : اعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٦٠ .

٦٣٩هـ/ ١٢٤١م وعادت عزاز مرة اخرى الى نواب الملك الناصر يوسف (١) .

لقد اتسمت سياسة ضيفة خاتون بالعدل في الرعية ، والا حسان اليهم ، وأزالت المكوس من جميع بلاد حلب ، وكانت تؤثر الفقراء والعلماء وتحمل اليهم الصلات الكثيرة . وتوفيت سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م بعد ان قامت بتدبير ملكة حلب زهاء ست سنين ، وحينما توفيت اخذ الناصر يوسف يمارس سلطاته بالتدريج ويساعده في ذلك جمال الدولة اقبال الخاتوني ، والوزير جمال الدين القفطي (٢) . وشرع الناصر يوسف بعد انتهاء الحرب الاهلية في توطيد نفوذه فاستولى على حمص سنة (٣) ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م . وفي السنة التالية انزل بصاحب الموصل الهزيمة واستولى على نصيبين ودارا وقرقيسياً بمنطقة الجزيرة (٤) . وقد توطد نفوذ الناصر يوسف بالجزيرة ، فيذكر المؤرخ المعاصر عز الدين بن شداد أنه كان بيده من بلاد الجزيرة ، حران ، والرها ، وسروج ، والرقعة وقلعة جعبر والبيرة ، وجملين ، والموزر ، ومن ديار ربيعة نصيبين ، ورأس عين ودارا والخابور وقرقيسياً (٥) .

أما الفترة منذ سنة ٦٤٧هـ وحتى سنة ٦٥٧هـ ، فقد شهدت تطورات ضخمة ، تمثلت في سقوط الدولة الايوبية في مصر ، وقيام دولة المماليك واستيلاء الناصر يوسف على دمشق وغيرها ومحاولة استعادة مصر ، وأثر كل ذلك على احوال بلاد الشام قبيل الغزو المغولي (٦) .

-
- (١) زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٣ ؛ مفرج الكروب ج٥ ص ٣٠٨ .
- (٢) زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٥ - ٢٦٧ ؛ ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٧١ ؛ الصقدي : الوافي بالوفيات ج١٦ ص ٣٢٨ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١١ .
- (٣) ابن القوطي : الحوادث الجامعة ص ٢١٩ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٥٩ ؛ ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٧٧ .
- (٤) ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٢ ؛ ابو الفدا : نفس المصدر ج٣ ص ١٨١ .
- (٥) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج٣ ص ٢٤٥ .
- (٦) انظر تفصيل هذه الحوادث في الفصل الثاني الصفحات : ٢٠٢ - ٢٢١ .

ب - ملكة حماة :

إذا كانت ملكة حلب قد لعبت دورا هاما في تاريخ بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، فان الدور الذي لعبته ملكة حماه لا يمكن اغفاله خلال نفس الفترة . والجدير بالذكر أن ملكة حماه هي الملكة الايوبية الوحيدة في بلاد الشام التي نجت من السقوط أمام جحافل المغول بسبب سياسة المسالمة التي انتهجها أهل حماه ازاء المغول .

وتنسب هذه الملكة الى المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن ايوب ، الذي كان صلاح الدين قد أقطع حماه ومنبج والمعرة وكفرطاب سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م ^(١) . فلما توفي المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٨٢هـ / ١١٩١م آلت ممتلكاته الى ابنه المنصور محمد ، وأقره صلاح الدين على ما بيده ^(٢) . فلما اندلعت حرب الوراثة بين ابناء صلاح الدين ، لم يشأ المنصور محمد الانغماس فيها ، الا بالقدر الذي يضمن مصالحه ويحفظ مملكته من السقوط .

لما انتهت حرب الوراثة الايوبية ، واصبح العادل هو السلطان الذي لا ينازعه منازع ، قرر المنصور محمد بين تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أنيوب توطيد علاقته معه ، فخطب ابنته ملكة خاتون سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م وتم زواجه بها سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م ^(٣) . وفي سنة ٦٠١هـ سار المنصور الى مصر ، فآكرمه العادل واحسن اليه والى اصحابه ، وعاد الى حماه مسرورا برضى السلطان عنه ^(٤) . ومما يجدر ذكره ان المنصور لعب دورا هاما

(١) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ج٣ ص ٨٠-٨١ .

(٣) ابن ابي الدم : التاريخ المظفرى لوحة ٥٤٠ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٣ ص ١١٤ ، ١٣٤ .

(٤) مفرج الكروب ج٣ ص ١٦٤ ؛ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٢٤ ؛ ابو الفدا :

المختصر ج٣ ص ١٠٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٤٥-٤٦ .

في جهاد الصليبيين ، سوف نتعرض له بالشرح والتفصيل خلال الحديث
عن العلاقات بين المسلمين والفرنج (١) .

والحق لقد اجمع المؤرخون على حسن سيرة الملك المنصور، ورحمته
برعيته، واهتمامه بعمارة مملكته . فحَصَّن حماه وعمَّق خندقها، وجعل له
دائرا حول المدينة، وبنى عليه الجسور، وشهدت حماه في عهده نهضة
علمية وعمرانية عظيمة (٢) .

ظل الملك المنصور يحكم فترة طويلة ، وفي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م طلب
من اهل حماه الموافقة على ان يكون ابنه المظفر تقي الدين محمود ولي عهده ،
وكان عمره سبع عشرة سنة ، فأجابوه الى ذلك ، وأمر القاضي سالم بن واصل
- والد المؤرخ المعروف - بكتابة العهد على ذلك ، واخذ يمين الامراء
والاعيان عليه . وجهاز ابنه المظفر على رأس فرقة عسكرية وأمره بالرحيل الى
مصر لنجدة خاله السلطان الكامل ، الذي كان يقوم حينذاك بالتصدي
للحملة الصليبية الخامسة (٣) . ثم توفي الملك المنصور في السنة التالية
(٤) ٦١٧هـ / ١٢٢٠م .

وكان من المفترض حسب وصية الملك المنصور ، ان يتولى ابنه المظفر
الحكم . غير ان ذلك لم يحدث ، ان كان المظفر في مصر عند السلطان

(١) انظر مايلي ص: ٢٣٢ - ٢٣٥ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٩٠ - ٩١ ؛ ابن واصل :

مفج الكروب ج٤ ص ٧٧ - ٨١ وعن منشآت المنصور المعمارية

ودوره في الحياة العلمية انظر الفصل الخامس الصفحات : ٤٣٧-٤٣٨-٤٣٩

(٣) مفج الكروب ج٤ ص ٦٤ - ٦٥ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٢٤ .

(٤) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري لوحة ٥٤٤ ؛ ابن نظيف :

المصدر السابق ص ٩٠ .

الكامل في مواجهة الصليبيين ، وكان الوزير بحماه - وقتذاك - زين الدين ابن قريج ، فاتفق مع جماعة من الامراء على استدعاء الناصر قلعج أرسلان ، الابن الثاني للملك المنصور . وكان قلعج أرسلان ايضا يساعد الملك المعظم بن العادل على جهاد الصليبيين في فلسطين - وقد قام الامراء بهذا الاجراء لما عرف عن قلعج أرسلان من لين عريكة ، وخوفا من المظفر لما اشتهر به من الشدة والشهامة وقوة البأس . ويبدو ان هؤلاء الامراء قصدوا من هذا ان يبقى الناصر قلعج ألعوية في أيديهم ، ويتصرفون بالتالي في شئون مملكة حماه كما يريدون . فبعثوا الى الناصر يستدعونه على عجل ، بيد ان خاله المعظم بن العادل لم يسمح له بالرجوع الا بعد ان تعهد له بدفع مبلغ من المال اذا استولى على حماه . فعاد الناصر قلعج الى حماه ودخل الى القلعة ، ونادى الامراء بشعاره ملكا على حماه وحنثوا في ايمانهم وعهودهم لآخيه المظفر (١) .

لما علم المظفر نبأ وفاة والده ، استأذن خاله السلطان الكامل في العودة الى حماه ، معتقدا انه بمجرد وصوله اليها سوف يتسلم السلطة . لكنه عندما التقى بخاله المعظم في غور الاردن أخبره ان امراء حماه قلدوا اخاه قلعج أرسلان ، وأشار عليه بالاقامة في دمشق ، ومراسلة ارباب الدولة في بلده وتذكيرهم بعهدهم السابق له . واستجاب المظفر لمشورة خاله فأقام بدمشق ، وحينما آيس من استعادة حماه رجع الى مصر وأقام الى جوار السلطان الكامل (٢) .

(١) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري لوحة ٥٤٤-٤٤٦ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقم ٢٢٦ أ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ٩١ حاشية رقم (٢) ؛ مفرج الكروب ج ٤ ص ٨٦-٨٧ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٢٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٨٨-٨٩ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٢٦ .

ومن ناحية أخرى ، فقد تعرضت مملكة حماة لخطر محقق من قبل الملك المعظم صاحب دمشق . وذلك لأن الناصر قلق لم يقيم بدفع ماتعهده به من المال بعد استيلائه على حماه ، فقرر المعظم الاستيلاء عليها وضمها الى مملكته ، وفي الوقت نفسه ، هرب احد قادة السلطان الكامل ويدعى مجاهد الدين اقبال ، ولجأ الى حماه ، فمأرسل الكامل الى اخيه المعظم يأمره بالقبض عليه وارساله الى مصر ، فاتخذ المعظم ذلك ذريعة للهجوم على مملكة حماه . وسار اليها بجيشه اوائل سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م ، بينما كان الناصر قلق ارساله يتصيد خارج حماه . فلما علم بقدوم خاله عاد مسرعا الى بلده وتحصن بها ، واستعد للحصار . ولما أدرك المعظم صعوبة الاستيلاء على حماه نفسها ، قرر تجريدتها من مواردها الاقتصادية لاجبارها على الاستسلام ، عن طريق الاستيلاء على قراها الزراعية فسار الى سلمية^(١) واخذ جميع محاصيلها من الحبوب ، وولى فيها واليا من قبله ، ورحل الى معرة النعمان فأذغنت له . وأرسل الناصر قلق اليه بالمعرة رسولا يستعطفه لكنه رفض اجابته . وفي معرة النعمان^(٢) تلقى المعظم مبعوثا من اتابك حلب شهاب الدين طغريل مستفسرا عن سبب اقترابه من حلب ، فاعتذر للاتابك بأنه لم يقصد حماه الا للقبض على الأمير مجاهد الدين . ولكن الناصر قلق لم يحترمه ، ولم ينزل اليه ويقدم له الخدمة . ورحل الى سلمية عاقدا العزم على منازلة حماه وانتزاعها من الناصر قلق ارساله^(٣).

(١) سلمية : بلدة من اعمال حماه بينهما مسيرة يومين على الاقدام .

انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) معرة النعمان : مدينة كبيرة قديمة مشهورة تقع بين حلب وحماه .

انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٢٧ أ ؛ ابن العديم : زبدة

الحلب ج ٣ ص ١٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١١٧ -

١٢٠ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٣١ ؛ محمد كرد على :

خطط الشام ج ٢ ص ٨٣ - ٨٤ .

استمر المعظم في مضايقة حماه حتى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م فأمر
العرب بقطع الطريق الى حماه ، ومنع الميرة والموء من الوصول اليها ، وحال
دون وصول الجنود والمساعدات اليها ، كما حول طريق القوافل التجارية
الذي كان يمر بها ، فجعل محطة التجار بسلمية الخاضعة له . وهكذا
بدا وكأن حماة على وشك السقوط بيد الملك المعظم ، غير ان اخاه الاشرف
موسى صاحب البلاد الشرقية - شرق الفرات - كان مقيما بمصر ، فخاطب أخاه
السلطان الكامل وشرح له مغبة ترك المعظم يستولى على حماه . لأن ذلك
سوف يغيره بتوسيع نفوذه على حساب الايوبيين في بلاد الشام ، مع ما
في ذلك من تهديد مباشر لهما . فاتفقا على منعه من تحقيق هدفه ،
فارسل السلطان الكامل اليه يأمره بالانسحاب وترك حماه على حالها .
ولما كان الكامل هو السلطان الشرعي فلم يشأ المعظم - في هذا الوقت -
ان يجاهر اخاه بالعصيان فانسحب عائدا الى دمشق (١) .

واذا كان من رأى السلطان الكامل اعادة المظفر محمود الى مملكته
بحماه ، الا ان الملك الاشرف كان يرفض هذا رأى ، لأن الناصر قلىج
يدين بالولاء المباشر له . واخيرا استقر الرأى بين الاخوين على انتزاع
سلمية من الناصر قلىج ، واعطاءها للمظفر محمود ، مع احتفاظ قلىج ارسلان
بحماه والمعرة وبارين (٢) . فأرسل المظفر محمود نائبا عنه وتسلم سلمية
في سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م وشرع في عمارة قلعتها وتحصينها ، وكانت هذه
هي الخطوة الاولى في استعادته لحماه من أخيه الناصر قلىج (٣) .

- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ، ورقة ٢٢٧ ؛ ابن العديم :
زبدة الحلب ج ٣ ص ١٩٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٢٦ -
١٢٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٣٢ .
- (٢) بارين : مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب ، انظر ياقوت
: معجم البلدان .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ ابن نظيف : التاريخ
المصورى ص ٩٧ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٣٢ ؛ محمد كرد
علي : خطط الشام ج ٢ ص ٨٤ .

أما عن سياسة الناصر قلج داخل حماه ، فقد اتسمت بالعسف وسوء
التدبير . فعلى سبيل المثال ، كان والده قد ولي رجلا يدعى شهاب الدين
ابن القطب عملا ، فخان فيه ، فاعتقله بقلعة حماه ، وأثناء فترة اعتقاله نشأت
صداقة بينه وبين الناصر قلج . فلما أصبح الأخير ملكا على حماه أحسن إلى
شهاب الدين بن القطب واقطعه اقطاعا جليلا وولاه المعرة ، وأصبح
شهاب الدين يتصرف تصرف الملوك ، وصارت إليه أتابكية العسكر وإدارة
شئون الدولة . ولكن الناصر قلج لم يلبث أن غضب عليه سنة ٦٢٢هـ /
١٢٢٥م واعتقله وحبسه بقلعة حماه (١) .

واشتد الناصر في أسأته ، وكان من مظاهر عسفه وظلمه أنه فرض
في سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م على رعيته ضرائب عينيه كالأغنام والمواشي ،
 وخمسة آلاف مكوك من الغلال ، واشتط في سبيل الحصول على الضرائب ،
 فلجأ إلى إحراق بعض الدور ، وقطع أشجار بعض البساتين في سبيل الحصول
على ذلك (٢) .

وفي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م قرر السلطان الكامل - بعد استيلائه
على دمشق من ابن أخيه الناصر داود وتسليمها لأخيه الأشرف - التحرك
شمالا لقصد حماه ، فوصل بجيشه مروج حمص وأمر المظفر تقي الدين
محمود - شقيق الناصر قلج - أن يرحل بجزء من العسكر إلى حماه
لمحاصرتها وبعث في صحبته المجاهد شيركوه صاحب حمص ، والعزيز
والصالح اسماعيل ، ونازل المظفر حماه يحدوه الأمل في استعادتها ، بينما

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٨٧-٨٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤ - ٥ ؛ ابن نظيف : التاريخ

المنصوري ص ١٥٨ .

تأهب شقيقه الناصر قليج استعدادا لمواجهة الحصار حيث حشد في قلعة حماه من المؤن والذخائر ما يكفي مدة طويلة ، غير ان استعداده هذا ذهب هباء لما عرف عنه من خوروجين ، فحينما نصب العسكر المنجنيق على حماه أصيب بالرعب والفرع ، فقرر النزول الى السلطان الكامل دون الحصول على اى ضمان ، وارسل الى صاحب حمص يطلب اصطحابه الى السلطان ^(١) ، وحينما وصل الى الكامل اعتقله وأمره بتسليم حماه اليه . فأجاب السلطان الى ذلك وأرسل الى نواب القلعة يأمرهم بتسليمها لمندوبي السلطان . ولكن الامراء بالقلعة رفضوا التسليم ، وأعلنوا المعزبين المنصور شقيق الناصر والمظفر ملكا على حماه وهو ما يزال صغيرا ، وساند سكان حماه هذا الاجراء ، وقذفوا مبعوثي السلطان بالحجارة ، فرجعوا الى الكامل واخبروه بما جرى ، فأرسل الكامل المظفر وأمره بأن يتفق مع امراء ابيه على التسليم ، فراسلهم المظفر فوافقوه على تسليم المدينة بشرط الا يسلمها للسلطان الكامل ، ولا يسمح لجيوشه بالدخول اليها ، ووافق المظفر على طلبهم وتعهد لهم بعدم الاساءة اليهم ، وبذلك استرد حماه في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩ م وابتهج سكان حماه بدخوله اليهم ، لما اشتهر به من صرامة وشهامة ، فضلا عن زوال خوفهم من سقوط مملكة حماه بيد السلطان الكامل ^(٢) .

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ ب - ٣٠ أ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج٤ ص ٢٦٥ - ٢٦٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣

ص ١٤٣-١٤٤ .

(٢) ابن ابي الدم : التاريخ المظفرى ، لوحة ٥٥٢-٥٥٥ ؛ جامع التواريخ

المصرية ورقة ٢٩ ب - ٣١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج٦ لوحة ٦٠-٦٥ ؛

ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٦٥ - ٢٧١ ؛ ابن نظيف :

التاريخ المنصورى ص ١٨١ - ١٨٢ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص

١٤٣-١٤٤ .

لما استقر حال المظفر في ملك حماه ، اخذ منه الكامل سلميه وأعطاهما لشيركوه صاحب حمص ، جزاء وقوفه الى جانبه . ثم اطلق الكامل سراح الناصر قليج ارسلان ، وامر المظفر باعطاء بارين لشقيقه قليج ارسلان ، وأن يدفع له مبلغ اربعمائة الف درهم كان قد جمعها في قلعة حماه ، فأعطاه المظفر بارين ، لكنه ماطله في تسليم الاموال . وهكذا لم يبق بيد المظفر سوى حماه والمعرة ^(١) .

أما الكامل فقد رحل الى املاكه الواقعة شرق الفرات سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩ م ثم استدعى المظفر من حماه فسافر الى خدمته ، وعندما وصل عقد له على ابنته غازية خاتون وأعطاه تقليدا بملكة حماه ، فعاد اليها مسرورا بتوطيد العلاقات مع السلطان الكامل ^(٢) .

واذا كان الكامل قد انتزع بارين من المظفر سنة ٦٢٦هـ - كما اشرنا - وسلمها لاخيه قليج ارسلان ، فان المظفر تمكن سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م من اقناع السلطان بالسماح له باستعادة بارين حيث أوضح له اهمية موقعها المجاور لحصن الاكراد الخاضع للفرنج ، الذين كانوا يغيرون دائما عليها ويفرضون عليها الاتاوة ، اضافة الى امتلاكهم نصف الضياع التابعة لها ، وأبدى المظفر للسلطان خشيته من قيامهم بالاستيلاء عليها لعجز أخيه عن مواجهتهم . فسمح له بمحاصرتها ، فنارلها المظفر

(١) ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، لوحة ٥٥٥ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٦٣-٦٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٧٣ ، ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٤ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٦٦-٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٧٦-٢٧٣ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٥ .

واستولى عليها في السنة نفسها ، وعرض على قلع ارسلان الاقامة بحماه فرفض وأثر الذهاب الى مصر (١) .

وقد اسند المظفر - حين استولى على حماه - منصب الوزارة الى الامير سيف الدين علي بن ابي علي الهذباني لما عرف عنه من كفاية وحسن تدبير (٢) ، وسرعان ما غدا غالبا على امرسيده المظفر محمود ومتحكما في دولته والامور بكاملها راجعة اليه . وفي سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٤م أشار عليه ببناء قلعة المعرة وأوهمه ان ذلك في مصلحة حماة ، وبعد ان انفق عليها اموالا طائلة وجهودا مضية انقض عليها الحلبيون وضافوها لمملكتهم (٣) .

وظل المظفر يحكم حماه حتى سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤٢م فاصيب بحمى نجم عنها شلل نصفي واصبح لا يتكلم الا بصعوبة . وعندئذ قام بتدبير امور مملكته الامير سيف الدين طغريل مستنيرا برأى الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد الانصاري ، وبهاة الدين بن التاج ومرشد المنصوري وزوجة المظفر غازية خاتون ابنة الكامل (٤) . وظل المظفر على هذه الحالة الى ان توفي سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٥م (٥) . وخلفه ابنه المنصور ناصر الدين محمد وعمره زهاء عشرين ، وظل مجلس الوصاية قائما

-
- (١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٢٣٠-٢٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٦٧-٦٩ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ج٣ ص ١٤٥ .
- (٢) ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٤٤ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٢٦٥-٢٦٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٨٣ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ج٢ ص ٢٣٥ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٠٦-٣٠٧ .
- (٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٤٢-٣٤٣ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٣ .

بتدبير شئونه ورعاية ملكته (١) .

ولم تلبث علاقة حماه بحلب ان تحسنت بعد نهاية الحرب
الاهلية ، ففي سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م سار من حماه الشيخ احمد بن محمد
ابن نصر الله رسولا الى السلطان الناصر يوسف صاحب حلب ليخطب
شقيقته عائشة خاتون للملك ناصر الدين وتم عقد النكاح وتوطدت
العلاقات بين المملكتين (٢) .

وفي سنة ٦٤٣ هـ استعاد الحمويون سلمية من صاحب حمص ،
بعد ان فقدوها منذ سنة ٦٢٦ هـ (٣) .

ومهما يكن من شيء ، فان سياسة المهادنة والمداينة التي
انتهجها المنصور ، محمد هي التي حمت ملكته من السقوط ، امام المقلوب
والمماليك واستمرت بعد موته سنة ٦٨٣ هـ في خلفائه من بعده (٤) .

*

ج - ملكة حمص :

تنسب ملكة حمص الى محمد بن شيركوه ابن عم صلاح الدين ،
وكان الاخير قد اقطعه حمص سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م (٥) وحيثما توفي محمد

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٤٥ ؛ ابو الفدا : المختصر
ج٣ ص ١٧٣ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٧ - ١٨ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٥٧ ؛ ابو الفدا : المختصر
ج٣ ص ١٧٦ - ١٧٧ .
- (٣) ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٤ .
- (٤) انظر ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ٢٠٣ ، ج٤ ص ١٨ .
- (٥) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٤٢٣ ؛ نظير حسان سعداوى ،
التاريخ الحربي ص ٦٨ .

سنة ٥٨٢ هـ أقر صلاح الدين حمص بيد ابنه شيركوه بن محمد بن شيركوه (١) .

وقد أسهم المجاهد شيركوه بن محمد في حرب الوراثة الأيوبية شأنه في ذلك شأن ملوك بلاد الشام من الأيوبيين (٢) . وقد استطاع المحافظة على مملكته وسط القوى المختلفة . واتصف بالشجاعة والاقدام ، وكان يجاهر الحرب بنفسه ، كما ان ملوك بني أيوب كانوا يقدرونه بل ويهابونه ((لأنه كان يرى أنه أحق بالملك منهم لأن جده أسد الدين وفتح مصر)) (٣) .

وكانت حمص زمن المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه هدفا لغارات القبائل البدوية ، وعلى رأسهم عرب غزية (٤) البطينين ، ففي سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م هاجموا بلد حمص وأخذوا أغنام الأهالي ، وتبعهم عسكر حمص ، لكنه تراجع لكثرتهم (٥) . كما طمع في حمص الملك المعظم صاحب دمشق ، الذي كان يرغب في ضمها الى مملكته فأوعز الى العرب التابعين له في سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م بالاغارة عليها ففعلوا ومكثوا عدة أيام يغيرون على ريف حمص وحماه وسلمية وباريين ويعودون الى منازلهم في بادية الشام . وعندما ازداد طمعهم خرج

- (١) ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ٦٩-٧٠ .
- (٢) انظر ما سبق ص : ٣٩
- (٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٣١ .
- (٤) غزية البطينين هم فخذ من قبيلة طي سكنوا بادية الشام والعراق والحجاز ، انظر القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ص ١٣٠ ؛ القلقشندي : صبح الاعشى ج١ ص ٣٢٣ .
- (٥) ابن نطف : التاريخ المنصوري ص ١٤١-١٤٢ .

اليهم المجاهد شيركوه بنفسه وانزل بهم هزيمة ساحقة ، وقتل الكثير من رجالهم ونهبهم ، وساعده على ذلك الامير مانع بن حديثة الطائي ، وقام المهزومون بمراسلة المعظم يشكون اليه شيركوه ، فَصَبَّ عليه امرهم ، وامر بانزالهم غوطة دمشق وارسل يعاتب شيركوه على ذلك ، فرد عليه ردا حازما ، وبلغت الغنائم التي حازها اسد الدين شيركوه من هذه الحرب خمسة الاف جمل ، واعداداً ضخمة من الاغنام والخيول ، وكميات كبيرة من الاقمشة والاثاث (١) .

أما الاشرف موسى بن العادل - الذي أضحى ملكا على دمشق منذ سنة ٦٢٦هـ - فقد آثر تحسين علاقاته مع المجاهد أسد الدين شيركوه ، فبعث اليه سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م يدعوه الى دمشق ، فأجابه المجاهد الى طلبه ، وقدم الى دمشق وتبادل الملكان الهدايا وخرجا الى الصيد وفي تلك الاثناء هاجمت العرب من خفاجة (٢) وغزية أعمال تدمر ، فاتفق المجاهد والاشرف وبعض امراء العرب الموالين لهما على الخروج لصد خفاجة وغزية ، وجهز المنصور بن المجاهد جيشا من حمص وتمكن الجميع من رد المغيرين ، واستعادة ما نهبوه من جمال وغيرها (٣) .

- (١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٤٢-١٤٥ .
- (٢) خفاجة : هم بنو خفاجة بن عمرو من قبيلة عقيل العدنانية وقد سكنوا العراق والجزيرة وشمال الشام ، انظر : القلقشندي : قلائد الجمان ص ١٢٢-١٢٣ ؛ القلقشندي : صبح الاُشش ص ٣٤٣ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٣٣-٢٣٤ ؛ ابن نظيف : المصدر السابق ص ٢٥٤ .

اما عن اصلاحات المجاهد داخل مملكة حمص ، فقد اهتم بعمارة
بلاطه غاية الاهتمام ، ولم يدخر في ذلك جهدا ، ففي سنة ٦٢٧هـ /
١٢٣٠م بنى قلعة بمنطقة سلمية التي سبق واخذها الكامل من
صاحب حماه وسلمها له ، واختار موضع القلعة مكانا عسكريا هاما على
رأس جبل يعرف باسم شميميش ، وقد ساء ذلك المظفر صاحب حماه ،
وحاول إثناء المجاهد عن عزمه ، الا انه اخفق ، فجمع المجاهد
عظماء واصحابه وبعض عساكره والعربان التابعين له ، وأحضر الالات
اللازمة للبناء ، وأتمها وسورها ، واصبحت في غاية المنعة والحصانة ،
وشحنها بالحرص والذخائر والمؤن ، واصبح يعتزبها ويفتخر ،
وسماها ماردين الشام تشبيها بقلعة ماردين الحصينة في منطقة
الجزيرة . وبنى فيها عددا من الصهاريج وملاها بالماء . كما أنشأ
بالرحبة الواقعة على نهر الفرات قلعة حصينة - وأقام بتدمير قلعة
على جبل حصين عال لحماية رعاياه داخل تدمير من غارات البدو .
اما في داخل حمص ، فزاد في عمارة قلعة حمص ، ورفعها عما كانت
عليه وحصنها وعمق خندقها . وأنشأ بحمص قنوات متقنة أجرى اليها
الماء من خارج حمص الى داخل المدينة ، وأنشأ بها البساتين
والحدائق . وجعل المنطقة الغربية من حمص غاية في الخصوبة ، وزرع
فيها شجر الأرز عن طريق سحب المياه من نهر العاصي . وجدد بحمص
بیمارستانا عظيما ، ورتب فيه ما يحتاج اليه من مؤن وادوية ، وأوقف
عليه أوقافا تقوم على نفقاته وإدارته ، كما عمر بحمص مدرسة جميلة (١) .

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ١٤٠-١٤١ ؛ ابن نظيف : التاريخ

كما بنى الأبراج على نهر العاصي ، وجعل فيها الرجال والحمام
الزاجل ، لمراقبة تحركات الفرنج ، وللحيلولة دون مباغتتهم مملكة حمص ،
وقد ساعد بناء هذه الأبراج على إفشال جميع غارات الفرنج على حمص
وريفها ، إذ ما يكادون يشرعون في الحركة حتى يصل الخبر للملك
المجاهد فيتصدى لهم ويفسد حركتهم (١) .

ويذكر المؤرخون أن بلاد المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد
ابن شيركوه كانت طاهرة من الخمر والخواطيء والمكوس ، فكانت تمر
جميع القوافل التجارية ببلاده فلا يتعرض لها أحد بسوء ، كما نشر العدل
والأمن في جميع أرجاء مملكته (٢) .

وبلغ من تشدده في توطيد الأمن في بلاده ، أنه حصى الطريق
بين دمشق وحمص من غارات الأعراب والفرنج ، وكانت له معهم وقائع
كثيرة . ويورد ابن واصل واقعة طريفة مع الفرنج ، إذ أغارت جماعة منهم
على وادي الربيعة التابع لحمص ، واستاقوا قافلة معهم وساروا قاصدين
حصن الأكراد التابع لهم ، فادركهم المجاهد واسترد القافلة وأسرههم
جميعا ، وكان ضمن القافلة رجل صوفي ، فشكى للمجاهد أن رجلا من
أولئك الفرنج ما زال يصفعه إلى أن وصل الملك وانقذهم فقال المجاهد
للسوفي : " افعل أنت به كما فعل بك " فتسلمه وظل يصفعه حتى وصولهم
إلى مدينة حمص (٣) .

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣١ .
- (٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣١ ؛ ابن كثير : البداية
والنهاية ج ٣ ص ١٥٤ ؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٥١ .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٥٥ .

غير ان ابن واصل يذكر ان المجاهد كان كثير الظلم والعسف لرعيته ومتشددا في استخلاص الاموال منهم ، وكان اذا حبس احدا نسيه في سجنه مدة طويلة ، وبلغ من تشدده ان منع النساء بحمص من الخروج خارج المدينة خوفا ان ياخذ اهل البلد عائلاتهم ويهربوا . (١)

اما سبط ابن الجوزي المؤرخ المعاصر ، فقد ذكر أنه كان فعلا ينسى سجنائه ومنع النساء من الخروج من باب حمص (٢) ، دون ان يذكر سبب منعهن . ولعل ذلك بدافع الغيرة خوفا من وقوعهن بايدي الفرنج او الاعراب ، اما وصف ابن واصل له بالجور والظلم ، فيمكن التشكك فيه ولا سيما وأن ابن واصل ينتمي الى مدينة حماه ويدين بالولاء لملوكها ، والمعروف ان المجاهد شيركوه كان شديد العداء للحمويين ، وكثيرا ما شن الغارات ضدهم ، حتى انه في سنة ٦٣٥ هـ وبعد موت السلطان الكامل عمد الى قطع الماء الذي يجري في قناة من سلمية الى حماه مما ادى الى خراب الكثير من بساتين حماه ، كما حاول المجاهد قطع نهر العاصي كلية عن حماه الا انه اخفق بسبب عجزه عن السيطرة على النهر (٣) . لهذا فمن الطبيعي ان نشكك في الاحكام التي يصدرها ابن واصل ضد المجاهد ، بسبب العداوة والمنافسة بين حمص وحماه .

ويبدو أن المجاهد صاحب حمص لعب دورا هاما في افساد العلاقات الودية بين الاشرف واخيه السلطان الكامل ، وما ترتب على ذلك من تحالف ملوك الشام ضد الكامل (٤) وما يذكى هذا الرأي أن المؤرخ

(١) المصدر السابق ج٥ ص ٢٥٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٢٣٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٧٧-١٧٨ .

(٤) انظر مايلي ص : ١٥١ .

المعاصر للاحداث سبط ابن الجوزي ، ذكرانه في سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م وبعد وفاة الاشرف واستيلاء الكامل على دمشق ذكر له الكامل قائلا :
" قال لي - اي السلطان الكامل - ما افسد احوالنا الا صاحب حمص والله لا محون اثاره فقلت قريب وهو خير من غريب " عندئذ قرر الكامل الزام المجاهد بدفع اُتاوة حربية ضخمة فأرسل المجاهد نساءه الى دمشق يتشفعن ويطلبين اعفاءه من دفع الاموال التي طلبها الكامل ، فرفض الاخير ، وبينما المجاهد يزن الاموال لكي يقدمها للسلطان ان ورد عليه نبأ وفاة الكامل على جناح طائر . ففرح فرحا شديدا وأعاد الاموال الى خزائنها وسارقاصدا دمشق (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد لعب المجاهد دورا هاما في الحرب الاهلية ، وفي تأييد الصالح اسماعيل (٢) . وفي سنة ٦٣٧هـ / ١٢٤٤م توفي المجاهد بقلعة حمص بعد ان حكم نحو ست وخمسين سنة (٣) .

وخلفه ابنه المنصور ابراهيم واستولى على مملكته التي تضم حمص والرحبة وتدمر وسلمية وقلعتها المسماة شميميش ، وسار المنصور على سياسة والده في تأييد الصالح اسماعيل ومعاودة المظفر صاحب حماه (٤) . ولعب المنصور ايضا دورا هاما في درء خطر الخوارزمية عن بلاد الشام (٥) .

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣١-٧٣٢ .
- (٢) انظر الفصل الثاني ص ١٥٧-١٦٢ ، ١٧٥-١٧٧ .
- (٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٥٤ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٦ ص ٢١٦-٢١٧ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٥٦-٢٥٧ .
- (٥) انظر الفصل الرابع ص ٣٨١-٣٨٨ .

وبعد ان تمكن الصالح ايوب من توحيد الدولة الايوبية سنة ٦٤٣هـ/

١٢٤٥ م وخضعت له دمشق مع مصر ، رأى المنصور ابراهيم مصلحته في التقرب الى الصالح أيوب والوقوف الى جانبه ، فساعده ضد الخوارزمية وأنزل بهم الهزيمة فرضي عنه الصالح ايوب واستدعاه الى دمشق ، وأرضاه ما جعله يعلن اخلاصه للصالح نجم الدين ايوب (١) .

اما عن سياسة المنصور داخل حمص فقد اتسمت باللين والاحسان الى الرعية فعمرت حمص في أيامه وازدهرت (٢) . وتوفي المنصور سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦ م فقام مكانه ابنه الاشرف مظفر الدين موسى وكان ما يزال صغيرا ، فعهد الى تدبير دولته أحد اعيان حماة ويدعى ابراهيم ابن اسماعيل بن قرناص وهو الذي اشار عليه بالانحياز الى جانب الصالح ايوب والدخول في طاعته (٣) .

ولم تدم ملكة حمص زمن الاشرف موسى سوى عامين ، ففي سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨ م سلم الاشرف صاحب حمص قلعة شميميش الى الصالح أيوب فاغضب ذلك ملكة حلب فجرد الحلبيون حملة كبيرة وحاصرت حمص ، فاذعن الأشرف الى تسليم حمص مقابل تعويضه تل باشر وان تبقى بيده تدمير والرحبة ، وسلم حمص للناصر صاحب حلب ، وحاول الصالح ايوب انجاد حمص الا انه لم يتمكن بسبب مرضه ووصول الاخبار بنزول الفرنج الى دمياط (الحملة الصليبية السابعة) فاضطر الى الاستجابة لوساطة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٦٩-٣٧٠ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٧١ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٦٤ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج ٥ ص ٣٧١-٣٧٢ ؛ ابن ابيك : كنز الدرر ج ٢

ص ٣٦٢ .

مبعوث الخليفة وترك حمص بأيدي الحلبيين (١) .

*

د - ملكة دمشق (*)

سبق الحديث عن الدور الذي لعبه الافضل بن صلاح الدين في تاريخ
ملكة دمشق وما نجم عن سياسته من حوادث تمخضت اخيرا عن انتزاع دمشق
منه سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٦م وأصبحت دمشق تابعة لعمه السلطان العادل (٢)
وقد ذكر ابن تغري بردي انه في اخر ليلة أقام فيها العزيز بدمشق بعد
انتزاعها من الافضل امر العادل ابنه المعظم بالدخول الى العزيز وقال له :
" فَعَبِلَ يده واطْلَبَ منه دمشق . . . فدخل الى ابن عمه العزيز وقبل يده
وطلب منه دمشق فدفعها اليه " (٣)

وكيفما كان الأمر ، فان العادل بعد ان اصبح يملك دمشق قرر
أن يجعلها لابنه المعظم وما يتبعها من بلاد الشام ، ولكنه في البداية
لم يترك له حرية التصرف التام فيها لافتقاره الى الخبرة اضافة الى صغر سنه (٤) .

(١) ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم
الزاهرة ج ٦ ص ٣٥٩ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٥١ ؛
الغزى : نهر الذهب ج ٣ ص ١٥٥ ؛ الطباخ : اعلام النبلاء ج ٢
ص ٢٦٨-٢٦٩ .

(٢) نتحدث هنا باختصار شديد عن ملكة دمشق نظرا لان دمشق كانت
محور الحوادث والعلاقات بين ملوك بني ايوب وما كان لذلك من
نتائج بعيدة على احوال بلاد الشام ، وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل
في الفصل الثاني ان شاء الله .

(٣) انظر ما سبق ص ٤٤ - ٤٦ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٦ .

(٤) المصدر السابق ج ٦ ص ١٢٦ .

ومن اعمال العادل الطيبة بعد استيلائه على دمشق ، قيامه بتطهير بلاد الشام من الخمور والخواطي ، والقمار والمكوس والمظالم * وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة الف دينار ، فايطل الجميع لله تعالى * ولم يكتف العادل بهذا ، بل أقام رجالا بمرتبات على جبل قاسيون المشرف على دمشق وعلى مداخل المدينة ليقوموا بعمليات التفتيش ويمنعون كل من يحمل منكرا من الدخول الى دمشق (١) .

وحينما أطلق العادل لابنه المعظم حرية التصرف في مملكة دمشق سنة ٦٠٤ هـ (٢٢) اهتم المعظم بمملكته غاية الاهتمام ولا سيما وان مملكة دمشق اصبحت تتمتع باهمية خاصة نظرا لانها نقطة الوصل بين مصر وبقية الممالك الايوبية في بلاد الشام والجزيرة ، اضافة الى مجاورتها للصليبيين في ساحل الشام مثل صور وطرابلس وعكا وغيرها . فعمل المعظم على توطيد الأمن والنظام داخل حدود مملكته في وقت ازداد فيه نشاط اللصوص ، وقطاع الطرق ، وقد باشر المعظم بنفسه تحقيق الأمن والطمأنينة لمملكة دمشق ، وتوفير الحماية الكاملة للمسافرين عبر المناطق التابعة لمملكته وتشدد المعظم في معاقبة اللصوص وقطاع الطرق ، ومن ذلك ما فعله على سبيل المثال ، مع جماعة يدعون بني رحمان ، وكانوا يقطنون قرب البلقاء في الاردن ، وكانوا يمارسون اعمال السلب والنهب ضد المسافرين والقوافل التجارية ، وحدث أن أغاروا على قافلة كان فيها بعض جوارى الملك المعظم وسيوهم ،

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٩٤ - ٥٩٥ ؛ ابن تغري
بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٦٩ - ١٧٠ ؛ الصفي : الوافي
بالوفيات ج ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٥ قسم ١ ص ٦٧ - ٦٨ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٥ قسم ١ ص ٦٧ - ٦٨ .

وعندما بلغه الخبر اشتد غضبه وجرّد حملة عسكرية قادها بنفسه ، وهاجم بني رحمان وقتل الكثير منهم ، وعلى اثر ذلك بنى قلعة الصلت ، وجعل بها حامية عسكرية لمراقبة الطرق التجارية وحمايتها (١) .

وكان يوجد في منطقة الاغوار احد اللصوص الخطرين ويدعى قنديل ، وكان يقود عصابة مؤلفة من مائة لص ، وكانوا يغيرون باستمرار على القوافل والقرى الواقعة في منطقة الاغوار ، وكان من عادة الملك المعظم القيام بالدوريات العسكرية بنفسه لمراقبة تحركات الفرنج ، فكان يسير من دمشق الى القدس مروراً بجميع القرى والحصون المحاذية للفرنج ، وقد بلغه في احدى المرات خبر نشاط قنديل ، فقرر التخلص منه ، والتقى به قرب بيسان في فلسطين ، وقبض عليه وأخذه معه الى بيت المقدس ، واحضره بين يديه وهو يرسف في الاغلال ، فأمر بقتله ، وعندئذ توسل قنديل الى المعظم قائلاً : " عوض ما تشنقني فاستبقيني احمي بلادك واجاهد الكفار " فرق له قلب المعظم واستتابه ، واستحلفه على الاخلاص في الخدمة واطلقه ، ومنذ ذلك الحين اضحى قنديل حارساً مخلصاً فامنت الطرق والاموال بفضل حراسته للطرق والاموال وحمايته للمسافرين . وحينما جاءت جحافل الصليبيين سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م الى الطور تصدى لهم قنديل وقتلهم بشجاعة فائقة حتى استشهد (٢) .

(١) ابن شداد ، الاغلاق الخطيرة ، قسم الاردن ولبنان وفلسطين

ص ٨٤ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٥١ - ٦٥٢ وعن دور

المعظم في الحياة العلمية ومنشأته العمرانية انظر الفصل

الخامس ص : ٤٣٨ - ٤٤٣ - ٥٣٠ - ٥٣١

وظل المعظم يحكم دمشق حتى وفاته سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م
وخلفه ابنه الناصر داود ، لكنه لم يلبث الا قليلا في حكم دمشق حيث انتزعها
منه عمه السلطان الكامل وأعطاه الكرك والشوبك ، وتسلم دمشق واعطاها
لاخيه الاشرف الذي ظل يحكمها حتى وفاته سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ،
ويموت دخلت بلاد الشام مرحلة الحرب الأهلية التي كان لها أسوأ
الأثر على أحوال بلاد الشام (١) .

*

بقية الامارات الأيوبية في بلاد الشام

بعلبك :

تنسب امانة بعلبك الى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب
الذي اقطعه صلاح الدين بعلبك سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م (٢) وحينما توفي
فرخشاه سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م آلت بعلبك الى ابنه الامجد بهرام شاه وأقره
صلاح الدين عليها (٣) .

وقد أحب الأمجد بعلبك لطيب هوائها وكثرة خيراتها التي تضاهاى
دمشق فابتنى بقلعتها برجين في الركنين الجنوبي الغربي والشمالي الغربي
وبعض الاستحكامات الاخرى وأنشأ بها جيشا قويا لرد غارات الأعداء الصليبيين (٤) .

(١) انظر تفصيل هذه الحوادث في الفصل الثاني ص : ١٣٥ - ١٨٩ .

(٢) ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٦٢ ؛ ديوان الملك الامجد بهرام شاه
الايوبي ص ٢١ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤٩١ ؛ ديوان الامجد ص ٢٨ ؛ ابو الفدا

: المختصر ج ٣ ص ٦٥ .

(٤) ديوان الأمجد ص ٢٨ .

اعتمد الأُمجد في بداية حكمه على رجال اشتهروا بمكانتهم العلمية والأدبية ومنهم طبيبُه الخاص مَهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري، وأضحى الأُمجد يستشيرُه في سائر أموره ويعتمد على آرائه. وعلت منزلة مَهذب الدين لدى الأُمجد، مما أغرى أهل وأقارب مَهذب الدين على القدوم إلى بعلبك والإقامة في كنف الأُمجد، وتقلدوا الوظائف في دولته، وسرعان ما عمد هوءلاء إلى استغلال نفوذ مَهذب الدين في بسط هيمنتهم على بعلبك وسكانها، فكثرت منهم الجور وظلم الأهالي، فضج السكان بهم، وأصبح الأُمجد عرضة للنقد بسببهم حتى لأمه ملوك بني أيوب على ذلك، وعندئذ قبض الأُمجد على طبيبِه مَهذب الدين وأقربائه وصادر أموالهم (١). واستوزر الأُمجد بعد ذلك أمين الدولة أبا الحسن بن غزال بن أبي سعيد وفوض إليه أمور دولته كلها، وظل يلي منصبه طوال حكم الأُمجد بعلبك (٢). وقد شارك الأُمجد في حوادث حرب الوراثة وساند الأفضل وتقرر أن يكون الأُمجد مؤازرا للأفضل وتابعاً له (٣). وقد ساءت العلاقات بين مملكة بعلبك ومملكة حمص لأن الأُمجد كان مع الملك المعظم عندما هاجم الأخير حمص سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦ م، وقد اهتبل الأُمجد تلك الفرصة وضم بعض المناطق التابعة لحمص إليه (٤)، ويبدو أن العلاقات بين بعلبك وحمص تحسنت سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨ م (٥).

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٧٢٢؛ ديوان

الملك الأُمجد ص ٢٩.

(٢) عيون الأنباء، ص ٧٢٣، ديوان الأُمجد ص ٣٠.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب ج ٣ ص ٣٠-٣١.

(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥.

(٥) ابن نظيف، التاريخ المنصوري ص ١٦٠.

ومهما يكن من أمر ، فقد ذكر ابن الفرات في حوادث سنة ٦٢٥هـ
أن الـمـجـد ظلم أهل بعلبك وجار عليهم وفرض عليهم ضرائب مرهقة ، ويبدو
أن ذلك كان بتأثير وزيره مهذب الدين السامري ، مما دفع طائفة من جنـد
بعلبك الى تدمير مؤامرة للاطاحة بالامجد وتسليم بعلبك الى فخر الدين
العزیز عثمان بن العادل صاحب بانياس ، وتم الاتصال بينهم وبين فخر الدين ،
وسار الاخير الى بعلبك ، وما ان وصل حتى اكتشف الـمـجـد سر المؤامرة
فقبض على مدبريها ، ونازل عثمان بعلبك عازما على اخذها بالقوة غير أن
الناصر داود بن المعظم صاحب دمشق انتزع من حصار بعلبك ولا سيما وان
الامجد كان مخلصا لوالده المعظم ، فبعث الناصر داود الى عثمان يأمره
بترك بعلبك على حالها ، فغضب عثمان ورحل الى مصر وانضم الى السلطان
الكامل الذي وعده بالاستيلاء على بعلبك وتسليمها اليه (١) .

وفي سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م استولى الاشرف بن العادل على بعلبك
وأقطع الـمـجـد بعض قرى دمشق ولكن الـمـجـد لقي مصرعه في السنة التالية
على يد بعض مماليكه ، اما الاشرف فقد ضم بعلبك الى دمشق ورفع
تسليمها لـاخيـه عثمان بن العادل (٢) .

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٧ ؛ وانظر ايضا ابن واصل : مفرج الكروب

ج٤ ص ٢٢٧ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٥٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ١١٠-١١١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ،

ج٤ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦

ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص ٤٥٣ .

بصري :

ومن الامارات الصفري في بلاد الشام زمن السلطان العادل
امارة بصرى وكانت لابنه الصالح اسماعيل (١) . غير أنه كان تابعا لـ اخيه
المعظم صاحب دمشق ، ولمع نجم اسماعيل بعد وفاة اخيه الا شرف عندما
استخلفه على دمشق وبعلبك ولعب دورا خطيرا في حوادث الحرب
الاهلية ، وهو ما سنتحدث عنه مفصلا في الفصل الثاني (٢) ان شاء الله .

(١) ابن واصل : مغز الكروب ج٣ ص ٢٢٥ .

(٢) انظر الفصل الثاني ص : ١٥٧ - ١٩٧

الفصل الثاني

العقوبات التي تليها
على التقوى في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٩ م

الفصل الثاني

العلاقات الداخلية بين ملوك بني ايوب ونتائجها على النفوذ الايوبي

في بلاد الشام ٦١٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٩ م

*

١ - وفاة السلطان العادل ابوبكر بن ايوب سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م

ون نتائجها على احوال بلاد الشام السياسية .

٢ - العلاقات بين ابناء السلطان العادل واثرها في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ٢١٨ - ١٢٣٧ م .

٣ - الحرب الاهلية في بلاد الشام ونتائجها ٦٣٥ - ٦٤٢ هـ /

١٢٣٧ - ١٢٤٤ م .

٤ - الصالح ايوب واعادة توحيد الدولة الايوبية ٦٤٣ - ٦٤٧ هـ /

١٢٤٥ - ١٢٤٩ م .

٥ - بلاد الشام في مفرق الطرق

انهيار الايوبيين وقيام دولة المماليك ٦٤٧ - ٦٥٧ هـ / ١٢٤٩ -

١٢٥٩ م

*

وفاة السلطان العادل ونتائجها على أحوال

بلاد الشام السياسية

تمكن العادل ابوبكر بن أيوب - كما رأينا - من توحيد الدولة الأيوبية من جديد ، بعد أن كادت تعصف بها الخلافات والمنازعات التي ظهرت عقب وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م . وفي سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م جاءت الحملة الصليبية الخامسة التي كان هدفها الاستيلاء على مصر^(١) . فخرج العادل الى فلسطين لمراقبة تحركات الفرنج وارسلال النجدات لابنه الكامل المرابط قبالتهم على شغردمياط ، ثم عاد العادل الى مرج الصفر وعسكر به حيث ورد عليه الخبر بسقوط برج السلسلة بدمياط في ايدي الصليبيين ، فتأثر بذلك النبأ غاية التأثر " ودق بيده على صدره أسفا وحزنا ومرضا من ساعته "^(٢) ورحل من مرج الصفر واشتد به المرض وتوفي في السابع من جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ / ٣١ أغسطس ١٢١٨م وحينما توفي لم يعلم بموته سوى صديقه كريم الدين الخلاطي ، فكنم موته وأرسل على عجل الى ابنه المعظم بنابلس ، فنجأه الأخير مسرعا واجتمع بكريم الدين واتفق معه على استمرار كتمان خبر موته مؤقتا ، واخذ المعظم في محفة وعاد الى دمشق وأوعز الى الأطباء بملازمة جثمان والده لايهام الناس بأنه ما زال حيا ، وحينما استقر المعظم بدمشق دفن والده سرا ، ثم احضر كبار رجال الدولة واستحلفهم على ملكة دمشق ، واستولس على جميع أموال والده التي كان يحتفظ بها في دمشق والكرك ، واعطن

(١) انظر مايلي : الفصل الثالث ص : ٢٤٩ - ٢٨١ .

(٢) المقرئى ، السلوك ج١ ص ١٩٠ .

موت والده وكتب الى سائر ملوك بني ايوب يخبرهم بوفاته (١) .

والحق لقد جاءت وفاة العادل خسارة كبرى منيت بها الجبهة الاسلامية ، في وقت كانت فيه هذه الجبهة في أشد الحاجة لوجود شخصية مثله ، لخبرته الطويلة في جهاد الصليبيين ومعرفته التامة بطبيعة الحركة الصليبية واهدافها ، ونقاط الضعف والقوة فيها . فعلى الرغم مما اشتهر به ابناء العادل الثلاثة ، الكامل ، والمعظم ، والا شرف ، من شهامة وشجاعة وسداد رأى فانه لم يكن بمقدورهم ملء الفراغ المفاجئ الذى احدثه غياب والدهم عن الساحة ، ولا سيما في وقت كانت فيه أوربا قد اقلت بكل ثقلها في حملة جديدة هي الحملة الخامسة ، بغية السيطرة على مصر باعتبارها القاعدة الرئيسة لحركة الجهاد ومن ثمه الانقضاء على بقية بلاد الشام والاستيلاء عليها .

وأول النتائج الخطيرة التي نجمت عن وفاة العادل طمع بعض القادة العسكريين في السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة الأيوبية ، وكان على رأس هؤلاء القادة عماد الدين احمد بن علي بن المشطوب زعيم طائفة الاكراد الهكارية (٢) ، الذي ما ان علم بوفاة العادل

-
- (١) الجنابي ، البحر الزاخر في علم الاوائل والاواخر ، ج٢ ورقة ١٨ ب ؛ الديسماوى ، الزهر الزاهر ، ورقة ١١٩ ب - ١٢٠ أ ؛ الزبيدي : ترويح القلوب ورقة ٣ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٩٦ هـ - ٩٧ هـ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ ابن نصرالله : شفاء القلوب ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ج٤ ص ٢٩ - ٣٠ .
- (٢) الهكارية : احدى قبائل الاكراد التي كانت تقطن شمال الموصل في اعالي الجزيرة ، وقد حاول عماد الدين زنكي إخضاعهم واستولى على كثير من قلاعهم ، انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ حاشية رقم ٤ .

حتى دبرموه امرة للاطاحة بالسلطان الجديد الكامل محمد واتفق مع
انصاره على جعل ملك مصر في يد الفائز ابراهيم بن العادل ، ليفدو
العوبة في ايديهم ، ولما علم الكامل بهذه المؤامرة اشتد به الفزع وانسحب
من منزلته المعروفة بالعدالية ، حيث كان يربط بازا* الفرنج ، ويقال انه
فكر في الفرار الى اليمن حيث كان يحكمها ابنه المسعود ، وترتب على
انسحابه اضطراب العسكر الاسلامي بكامله واستيلاء الصليبيين على دمياط. (١)

غير ان الملك المعظم صاحب دمشق سرعان ما قدم من الشام لنجدة
اخيه الكامل على الصليبيين ، فاخبره الاخير بموه امرة ابن المشطوب ، فعمد
المعظم الى استدراجه حتى انفرد به وقبض عليه ونفاه الى الشام سنة ٦١٥هـ/
١٢١٨م كما اخرج الكامل اخاه الفائز ابراهيم من مصر الى الشام بحجة
احضار النجدات لجهاد الفرنج ، ومضى الى شرق الفرات وتوفي مسموما في
السنة نفسها (٢) .

على أن خطر ابن المشطوب لم يقتصر على مصر ، بل امتد الى بلاد
الشام ، فبعد ان نفاه المعظم وصل الى حماه وأقام بها في ضيافة الملك
المنصور ، وانضم اليه بحماه الكثير من الاكراد الهكارية وقرر على اثر ذلك
العمل على اتشاء امارة خاصة به ، فغادر حماه سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م ومعه

(١) الخطيب العمري : الدر المكون ورقة ١١٥ ب؛ الاصفهاني :
البستان الجامع ورقة ١٧٢ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب
ج٣ ص ١٨٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٥ ص ٧٩ ؛ ابن واصل :
مفرج الكروب ج٤ ص ١٦-١٧ .

(٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٧٢ أ ب ؛ المقريزي : المقفى
ورقة ٢٤ أ ؛ ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٠٢ ؛ ابن واصل :
مفرج الكروب ج٤ ص ١٧-١٨ ؛ ابن ابيك : كنز الدرر وجامع الغرر
ج٧ ص ١٩٨ .

بضع مئات من اتباعه ، وكان الاشرف بن العادل في هذه الاثناء مقيماً بحلب فراسل ابن المشطوب لتطويعه ، وعرض عليه ان يقطعه بعض البلاد ، فرفض هذا العرض واستقر رأيه على استغلال العداء بين سلاجقة الروم والملك الاشرف ، والذهاب الى تخوم بلاد سلاجقة الروم للاتفاق معهم ومع الافضل ابن صلاح الدين صاحب سميساط ضد ابناء العادل ودخل ابن المشطوب بجموعه الى مملكة حلب وخاض ريفها بفرسانه واستاق في طريقه كل ما وجده من الخيل والماشية ، وحينما علم الاشرف بذلك ارسل جيشه على عجل ولحق به على نهر الساجور وانقض عليه وهزمه واسره ، ثم عفا عنه واقطعه مدينة رأس عين بالجزيرة (١) .

غير أن اطماع ابن المشطوب لم تلبث ان ظهرت من جديد في منطقة الجزيرة ولا سيما وان هذه المنطقة هي الموطن الاصلي للاكراد ، فخرج على الملك الاشرف سنة ٦١٢هـ / ١٢٢٠م غير ان الاخير تمكن من تجريده من حلفائه وبعد مطاردته فترة تمكن من القبض عليه واعتقله بسنجار (٢) .

ومهما يكن من شيء فالسوء ال الذي يطرح نفسه هنا ، هو ، ما الدافع الذي دفع ابن المشطوب الى تدبير مؤامره ؟ في الوقت الذي لم تكن الظروف مهيأة لنجاح تلك المؤامرة ذلك ان استيلاء مصر باسم الفاتح ابراهيم سيجلب عليه عداء الاشرف والمعظم ابني العادل ،

-
- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٨٧-١٨٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٩-٣٠ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ١٩٨-٢٠١ ونهر الساجور : نهر بجهات منبج من اعمال حلب تقع عليه عينتاب وتل باشر . انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ مفرج الكروب ج٤ ص ٣٠ حاشية رقم (٢) .
- (٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٨٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٧١-٧٢ .

وسيحرمه بالتالي من مساعدتهما ولن يتمكن بمفرده من الصمود امام الحملة الصليبية الخامسة التي لا هدف لها الا الاستيلاء على مصر. وبعد هذا: ألم يقدر ابن المشطوب خطورة وضع المسلمين في هذه الفترة ووجوب توحيد القوى بعد موت العادل لصد الصليبيين ؟ أغلب الظن ان ابن المشطوب فقد القدرة على الروية الصحيحة لمجريات الحوادث ،وبالتالي لم يعد يهمه مصير قضية الجهاد ضد الصليبيين في وقت اصبح فيه الجهاد فرض عين على كل مسلم قادر ،بعد أن هاجم الصليبيون المسلمين في عقر دارهم . وهكذا أعى التطلع الى السلطة بصيرته عن فهم طبيعة الظروف الدقيقة التي كان يمر بها المسلمون في تلك الحقبة . وهذا إن دل على شيء فانما يدل على ان اطماع القادة العسكريين ظهرت حين انتاب الدولة الايوبية الضعف ،وان كبح جماح تلك الاطماع يتوقف على وجود شخصية قوية ومحركة من افراد البيت الايوبي ،تستطيع فرض نفوذها على بقية الامراء ،مثل شخصية السلطان العادل ومن قبله صلاح الدين .

العلاقات بين أبناء العادل وأثرها في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٧ م

يصف المؤرخ ابن الأثير علاقة أبناء العادل في أعقاب موت والدهم مباشرة بأنها كانت على أحسن حال فثبت كل واحد منهم في المملكة التي أعطاها أبوه " واتفقوا اتفاقاً حسناً ، لم يجرب بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجربين أولاد الملوك بعد آبائهم ، بل كانوا كالنفس الواحدة ، كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه (١) .

ولكن هذه العلاقات الطيبة بين أبناء العادل ، لم يكتب لها الدوام والاستمرار : حقيقة أنهم اتفقوا بعد وفاة والدهم مباشرة ، وكان لذلك أحسن الأثر في صد الصليبيين ، لا دراهمهم بخطر المرحلة التي يمر بها المسلمون ، ووجوب توحيد الجهود لصد الحملة الصليبية الخامسة . إلا أن طبيعة تكوين الدولة الأيوبية حتمت وقوع الخلاف بينهم بعد ذلك . فالدولة الأيوبية كما سبق ومر شرحه (٢) ، اتبعت النظام الذي جرى الأخذ به زمن السلاجقة ، وهو تقسيم المملكة بين أبناء السلطان بعد موته ، وأصبح لكل ابن منطقته أو مدينته هو الملك عليها ، إضافة إلى وجود الكثير من الاقطاعيات داخل المملكة الواحدة لكبار القادة العسكريين . فالعادل حينما توفي خلف سبعة عشر ولداً (٣) ، كان معظمهم يحكمون في بلاد الشام والجزيرة ومصر . (٤)

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص ٣٥٢ ؛ وانظر أيضاً القرمانى : اخبار الدول ص ١٩٥ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الاول ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣) الزيدى : ترويح القلوب ورقة ٣ ب ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٣

؛ العصامي : سطر النجوم الموالي ج ٤ ص ١٣ .

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٢ .

وكان لا بد لدولة هذه طبيعة تكوينها ونظامها أن تحدث داخلها المنافسات والمنازعات بين ملوكها ، ولا سيما وأن رقعة الدولة جميعها محدودة ، بالإضافة الى أن حدود كل مملكة غير محددة تفصيلا . كما ان بعض أبناء العادل الصفار كانوا تابعين عمليا لبعض اخوتهم الكبار ، ومن المؤكد انهم سيتطلعون الى البحث عن ممتلكان خاصة مستقلة حينما يكبرون .

وقد نال أبناء العادل الثلاثة الكبار النصيب الاكبر من الدولة الأيوبية ، فالكامل محمد كان يملك مصر وهو السلطان ، بينما انفراد المعظم عيسى بدمشق والكرك والقدس حتى حدود مصر ، في الوقت الذي نال فيه الاشرف موسى البلاد الجزرية الواقعة شرق الفرات . وفي سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م عاد المعظم الى الشام وأقام الاشرف بمصر عند اخيه الكامل . وهنا يبدو أن الاشرف تحالف سراً مع الكامل ضد اخيهما المعظم حيث يقول سبط ابن الجوزي " فغير الله القلوب وصارا متصادقين على المعظم " (١)

وكان المعظم يتطلع الى بسط نفوذه على بلاد الشام جميعها وضم بقية الممالك الشامية الى مملكته ولا سيما حمص وحماه ، ولما كان يعلم بالاتفاق الذي تم بين اخويه ضده فقد اخذ يلتمس الحلفاء للوقوف الى جانبه ، فارسل محتسب دمشق الى جلال الدين خوارزم شاه طالباً منه محالفة ضد اخويه الاشرف والكامل ، فاجابه جلال الدين الى طلبه وبخاصة وان جلال الدين كان في مقدوره الضغط على الاشرف الذي تقع ممتلكاته في شرق الفرات قريبا من الدولة الخوارزمية (٢) .

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢١ - ٦٢٢ ؛ ابوشامة :

ذيل الروضتين ص ١٣٠ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢٣ ؛ ابن كثير : البداية

والنهاية ج ١٣ ص ٩٨ .

وفي سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م أزع المعظم على ضم مملكة حماه التي ملكته ، فسار اليها بجيوشه وضايقها حتى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م بغية الاستيلاء عليها ^(١) . الا ان جهوده سرعان ما اخفقت ، فاتفق الاشراف مع الكامل على تهديده وتخويفه ومنعه من الاستيلاء على حماة ، حتى لا يذكي ذلك اطماعه بالتوسع في بقية بلدان الشام ومن ثم تهديدهما معا ، فارسلا اليه مبعوثين يطلبان اليه ترك حماه على حالها ، فانسحب على مضى بعد ان صالح ملك حماه وعاد الى دمشق ، " وكان ذلك ابتداء الوحشة بينه وبينهما ، وكانت اطماعه قد تعلقت بالاستيلاء على حماه وبلادها و اضافتها الى مملكته " ^(٢) .

لما علم المعظم بأن اخويه الاشراف والكامل على وفاق تام ، توقع منهما العمل سويا على اقتسام مملكته " فاستوحش لذلك " ^(٣) . ولعل مما عزز مخاوفه وزاد في غضبه ، هو قدوم الملك المسعود اقسيس بن الكامل من اليمن الى ابيه بمصر ومعه هدايا قيمة لوالده سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م خاصة وقد اتضح انه ما قدم من اليمن الى مصر " الا طمعاً في اخذ دمشق والشام " كما يقول سبط ابن الجوزي ^(٤) .

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ، ورقة ٢٢٧ أ ب ؛ وانظر ما سبق

الفصل الاول ص : ٩٥ - ٩٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٢٧ - ١٢٨ ؛ وانظر ايضا ابن

واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٢٧ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب

ج٣ ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٣٧ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٣٣ .

ولذلك قرر المعظم إشغال أخيه الأشرف عن مساندة الكامل وابنه في أطماعهما في بلاد الشام بالعمل ضده داخل مملكته بمنطقة الجزيرة . وكان الأشرف عندما غادر بلاده إلى مصر جعل أخاه غازي بن العادل نائباً عنه بخلاط وأعمالها ومياقارقين وغيرها . وجعله ولي عهده . فأرسل المعظم إلى مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك صاحب أربل يدعوه إلى محالفة والاتفاق معه ، وأغراه بمهاجمة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، الذي كان محالفاً للأشرف ، فوجد عرض المعظم هوياً في نفس مظفر الدين كوكبوري ، لكراهيته الشديدة لبدر الدين لؤلؤ بسبب قضاء الأخير على البيت الاتابكي ، وسيطرته على ابني الملك القاهر آخر ملوك الاتابكة ، وشرع كوكبوري في حشد قواته لقصد الموصل ، ويبدو أنه لم يكن يمنعه من مهاجمة الموصل قبل ذلك سوى خوفه من الأشرف نظراً لتحالف بدر الدين لؤلؤ معه ودخوله في طاعته . أما وقد وجد له الآن حليفاً قوياً ، لذلك قرر العمل ضد صاحب الموصل كما أرسل المعظم في الوقت نفسه إلى أخيه غازي نائب الأشرف وحسن له الخروج على الأشرف ومحاربه ، وتعهده المعظم لأخيه غازي ولصاحب أربل بالخروج من دمشق إليهما لمساعدتهما ، وعندئذ طمع غازي فأعلن عصيانه على أخيه الأشرف بخلاط ، وخرج المعظم في عساكره من دمشق مفصلاً عن نيته في قصد بلاد الشرق في سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م .^(١)

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٢٧ أ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ص ٤٢١-٤٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٢٧-١٢٨ ؛ وانظر أيضاً سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢٥ .

وحيثما علم الأشرف بهذه الحوادث خرج من مصر على عجل قاصدا حران لمواجهة تمرد اخيه غازي^(١). ولما كان الأشرف يخشى أن يقوم المعظم بمهاجمته من الخلف، أرسل الى اخيه الكامل يخبره بخطورة موقفه، وعندئذ بعث الكامل الى اخيه المعظم قائلا له: "ان تحركت من بلدك سرت اليه وأخذته منك" وقد أخذ المعظم هذا التهديد مأخذ الجد، ولا سيما وأن ممالك حلب وحمص وحماء تولى يد الكامل والأشرف، فرجع المعظم الى دمشق^(٢).

وسار مظفر الدين كوكبورى صاحب اربل الى الموصل لحصارها في ربيع الاول ٦٢١هـ/ابريل ١٢٢٤م وذلك لكي يمنع الأشرف من مهاجمة خلاط، ولكن الموصل صمدت امام الحصار، ووصل الى الأشرف نجدة من حلب كما أنجده بعض امراء الجزيرة فمضى الى خلاط وحاصرها وتمكن من الاستيلاء عليها بسبب مساعدة الأهالي له لما عرفوه عنه من سيرة طيبة ولسوء سيرة اخيه غازي، ودخل الى خلاط في جمادى الآخرة ٦٢١هـ/يونيه ١٢٢٤م ونزل اليه غازي مستسلما فعفى عنه وابقى ميا فارقين بيده. اما مظفر الدين كوكبورى فقد انسحب عن الموصل حينما علم باستعادة الأشرف لمدينة خلاط^(٣). وهكذا لم يستطع المعظم تقديم مساعدة فعالة الى حلفائه

- (١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٥٥ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٣٨ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢١٥ .
- (٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ، ورقة ٢٢٧ أ ب ؛ اليافعى : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٣ أ ب ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٢١ - ٤٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٣٨ - ١٤١ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٠٤ - ١٠٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٣٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٠٤ .

بالجزيرة لأنه لم يعد بمقدوره مغادرة بلاد الشام خوفاً عليها من الملك الكامل ، وكل ما فعله لم يتعد قيامه بغارة سريعة في أعمال حمص عاد على اثرها الى دمشق (١) .

ولم يستسلم المعظم لاول إخفاق واجهه ، فعاد وارسل في اواخر سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ابنه الناصر داود الى اربل ليبقى رهينةً بها لتأكيد التحالف من جديد مع صاحبها مظفر الدين كوكبوري (٢) . كما أرسل مبعوثاً الى جلال الدين خوارزم شاه وتحالف معه من جديد (٣) ، ان لم يتمكن جلال الدين من تقديم المساعدة للمعظم أثناء عصيان غازي بخلط بسبب انشغال جلال الدين باضطراب احوال الدولة الخوارزمية . وخلال سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م - ١٢٢٦م تمكن جلال الدين من الاستيلاء على أنزليجان ووصل الى خوزستان وحدود العراق وهدد الخلافة العباسية في بغداد ، وزادت قوته واصبحت ممتلكاته تجاور فعلا املاك الاشرف باقليم الجزيرة (٤) . وترددت الرسل بين المعظم وحليفه جلال الدين ، وصاحب اربل للتنسيق ، وتم الاتفاق بين الحلفاء الثلاثة على القيام بهجوم عام لتحقيق اهدافهم ، فيهاجم المعظم حمص وحماه ، بينما يهاجم جلال الدين خلط عاصمة الملك الاشرف ، ويشن صاحب اربل الحرب على الموصل المحالفة للاشرف (٥) .

- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٩٥ .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٣ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٤٢ .
- (٣) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ١١ ب ؛ السبط : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٣٢ - ٦٣٣ ؛ الذهبي : العبر ج ٥ ص ٨١ .
- (٤) انظر تفاصيل ذلك في ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٢٥ - ٤٢٧ ، ٤٣٢ - ٤٣٥ .
- (٥) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٧٥ - ١٧٦ ؛ المقرئ : المسلك ج ١ ص ٢٢٠ .

وتمكن المعظم بدهائه من تحميد اخيه الكامل صاحب مصر ، ان أوهمه بأن معظم امراء جيش مصر يميلون اليه ويساندونه " وأنه اذا خرج من مصر أخذ بهمسكه ، فلم يجسر على الحركة " (١) وما زاد في تثبيط همة السلطان الكامل وعدم خروجه الى الشام هو وصول ابن اخيه الجواد يونس بن مودود بن العادل الى عمه المعظم بدمشق هاربا من مصر عن طريق البحر " وتخيل الكامل من امراء دولته وميلهم الى اخيه المعظم " فقبض منهم جماعة وزاد في حذره وترقبه (٢) .

واستقر رأى المعظم على قصد حمص وحماه في سنة ٦٢٣هـ / ١٦٢٦م ورأى ان يبدأ بحمص اولا ، فأرسل جماعة من عرب دمشق ، فأغاروا على قرى حمص ونهبوها ، وأرسل الاشرف بدوره الأمير مانع بن حديشه ال فضل امير طي في جموع كثيرة من قبيلته نجدة لصاحب حمص شيركوه ، غير أنهم هاجموا في طريقهم قرى المعرة ونهبوا محاصيلها ، واخيرا خرج المعظم من دمشق ووصل الى حمص ، فانسحب عرب مانع وحلب والجزيرة الى قنسرين (٣) ، وتركوا اظعانهم بمرج دابق (٣) ، وساروا منجدين لحمص ، وحدثت عدة معارك بين عرب مانع وعرب دمشق ، كما ارسل الاتابك طغريل فرقة من حلب لمساعدة حمص ، والتقت هذه الفرقة بعسكر المعظم واقتتلوا ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٧٧ ، وانظرايضا : اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١ ب .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١١٣ .

(٣) قنسرين : مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ، كانت قاعدة أجناد الشام ، انظر ياقوت : معجم البلدان : ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٦٦-٢٦٧ = ودابق : قرية قرب حلب تبعد عنها اربعة فراسخ وعندها مرج معشب نزه ، انظر ، ياقوت : معجم البلدان .

ثم دخلوا حمص ، وتراسل المعظم مع صاحب حمص وعرض عليه الاتفاق معه ضد الأشرف فرفض شيركوه ، فقام المعظم بشن الغارات على قرى حمص ونهب عسكره الغلال والمواشي ، وقاموا بقطع اشجار البساتين وتخریب الطواحين وفعلوا كل ما في وسعهم ، ومع ذلك فقد ظلت حمص صامدة لأن صاحبها أحسن الدفاع عن مدينته وشحنها بالرجال والمؤن (١) .

وفي تلك الأثناء ترددت الرسل بين المعظم وأخيه الأشرف ، واتفقا على الاجتماع معالبحث الخلافات بينهما على ان يرحل كل واحد منهم ومن حلفائهم عن المكان الذي يحاصره ، وفي الوقت نفسه انتشر الرواء في معسكر المعظم ونفقت معظم دوابه ، فأثر الاجتماع بأخيه الأشرف وبخاصة وأن الأخير أخبره بعزمه على المسير اليه مما يمنحه فرصة عظيمة للضغط عليه وتحقيق طموحاته في بلاد الشام . وقدِمَ الأشرف الى الشام والتقاء المعظم قرب حمص وسارا الى دمشق في اول رمضان ٦٢٣هـ / سبتمبر ١٢٢٦م (٢) .

ويبدو أن ما أجبر الأشرف على القدوم الى أخيه المعظم هو ازدياد شقة الخلاف بينهما واتساع نطاق التحالفات مع القوى المحيطة بهما ، ففي الوقت الذي حاصره فيه صاحب اربل الموصل (٣) ، ظهر خطر جديد هدد نفوذ الأشرف في منطقة الجزيرة ، فقد كان صاحب آمد المسعود الأرتقي محالفا للمعظم وصاحب اربل ، فتحالف سلطان سلاجقة الروم كيقيان

- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٩٧-١٩٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٢٥-١٢٦ ؛ التاريخ المنصوري ص ١٢٥ حاشية رقم (٥) نقلا عن تاريخ ابن الفرات .
- (٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٢٦-١٢٧ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٣٦ .
- (٣) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٨٨ .

مع الأشرف لخوفه من جلال الدين الخوارزمي ، وأرسل اليه الأشرف يطلب منه مهاجمة صاحب آمد ، فسار كيقبان الى ملطيه وأرسل منها العساكر الى آمد ففتحوا حصن منصور وغيره ، فأرسل صاحب آمد الى الأشرف ودخل في طاعته من جديد ، فأرسل الأشرف الى كيقبان يطلب منه ترك آمد وإعادة ما اخذه من بلادها ، فامتنع من ذلك قائلا : " ما كنت نائبا للأشرف يأمرني مرة وينهاني اخرى " فأرسل الأشرف نجدة لصاحب آمد فهزمها كيقبان (١) . وهذا يعني تدهور علاقة الأشرف ولومو قتا مع سلاجقة الروم الذين يتاخمون مناطق نفوذه في الجزيرة وبلاد الشام .

وكيفما كان الأمر فإن الأشرف وصل الى اخيه المعظم الذي تظاهر بالسرور لقدمه وأمر بضرب البشائر بدمشق ، وزين البلد ابتهاجا بتلك المناسبة وذلك سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦ م " وحاله في الباطن بخلاف ما ظهر ، والرسل مع ذلك مترددة بين المعظم وبين جلال الدين خوارزم شاه " (٢) .

وعند المعظم الى الضغط على أخيه الأشرف عن طريق إظهار المودة والاتفاق بينه وبين جلال الدين الخوارزمي حتى يوافقه الأشرف على جميع طلباته ، فقد ذكر بعض المؤرخين أن جلال الدين بعث بخلعة سنوية الى المعظم فلبسها وصار يركب بها مع أخيه الأشرف كما تظاهر بالمودة بينه وبين جلال الدين وأخذ يُقسِمُ برأسه في مجالسه (٣) . وأزعج المعظم على تزويج

(١) اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢ ب ؛ الجنابي : البحر الزاخر

ج ٢ ورقة ١٩ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣) تاريخ ابن الجزري مخطوط لوحة ٣٢٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٢

ص ١٨١ ؛ الذهبي : العبر ج ٥ ص ٩٣ ؛ اليافعي : مرآة الجنان

ج ٤ ص ٥٣ .

أحدى بناته ، من جلال الدين لتوطيد العلاقات معه وجرت بينهما مراسلات في ذلك ، " وصار بينهما اتحاد كلي " كما يقول ابن واصل ^(١) . ولا شك أن هدف المعظم من كل تلك المناورات هو الحصول على موافقة أخيه الأشرف على إطلاق يده في بلاد الشام وضم حمص وحماه إلى مملكته . وحاول الأشرف الذهاب إلى مصر غير أن المعظم لم يمكنه من ذلك ^(٢) . وأصبح الأشرف خاضعا لسيطرته بحيث لا يستطيع أن ينفرد عنه بأمر ولا يجروء على مخالفته على الإطلاق لأنه أصبح في يد أخيه كالأسير ^(٣) .

وفي تلك الأثناء وردت الأخبار إلى دمشق بنزول جلال الدين الخوارزمي محاصراً خلاط عاصمة الأشرف للاستيلاء عليها ، فطلب الأشرف من أخيه المعظم أن يرسل إلى حليفه جلال الدين الخوارزمي يأمره بالرحيل عن خلاط ^(٤) . واهتبل المعظم تلك الفرصة وألزم أخاه الأشرف بالسماح له بضم حمص وحماه إلى مملكته ، وندم الأشرف على قدومه إلى دمشق ولم يسعه إلا الموافقة على طلبات أخيه المعظم ^(٥) . أما جلال الدين فرغم حصاره الشديد لخلاط سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م فقد أخفق في الاستيلاء عليها بسبب بسالة أهلها في الدفاع عنها ، وشدة البرد وهطول الثلج ، فضلا عن غارات التركمان على بلاده ، فاضطر إلى الانسحاب عن خلاط في ذي الحجة سنة ٦٢٣هـ / ديسمبر ١٢٢٦م ^(٦) .

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٧٩-١٨٠ .
- (٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٢٩ .
- (٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٩٨-١٩٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٨٠ .
- (٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٩٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٨٠ والذهبي : العبر ج٥ ص ٩٣ ؛ ابن أبيك كثر الدرر ج٧ ص ٢٨١ .
- (٥) الياقعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٩٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٨٠-١٨١ .
- (٦) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص ٤٦٠-٤٦١ .

ظل الأشرف مقيماً بدمشق زهاء عشرة أشهر كالأسير لدى أخيه المعظم ، ورأى بنفسه مدى تطور العلاقات الودية بين المعظم وجلال الدين الخوارزمي حتى أن المعظم زوجه إحدى بناته ، ووجد الأشرف أنه لا مناص من موافقة أخيه المعظم على كل ما يريد ، فحلف له على محالفته ضد السلطان الكامل ، والمجاهد صاحب حمص ، والناصر صاحب حماه . وطلب المعظم من الأشرف اقتناع أتاك حلب بالانضمام إليه ضد الكامل ، غير أن الأتاك رفض بحزم . وأخيراً سمح المعظم للأشرف بمغادرة دمشق والعودة إلى بلاده في جمادى الأولى ٦٢٤هـ / مايو ١٢٢٧م . وحينما وصل الأشرف إلى بلاده تراجع عن كل ما تقرربه وبين أخيه المعظم ، وتأول في إيمانه التي أقسمها بأنه كان مكرهاً عليها فندم المعظم على إطلاق سراحه وأرسل أعراب دمشق للاغارة على قرى حمص وحماه (١) .

وهكذا وصلت العلاقات بين الأخوة الثلاثة إلى نقطة خطيرة جداً ، فالمعظم بتحالفه مع جلال الدين الخوارزمي لعب دوراً هاماً - دون أن يدري - في حفز الخوارزمية على الطمع في بلاد الشام والجزيرة . ووقع الكامل في ما يشبه العزلة السياسية بعد أن أضحى عاجزاً عن مساعدة الأشرف ضد الخوارزمي بسبب منع المعظم للمساعدات القادمة من مصر . فأصبحت أطماع كل أخ في أملاك الآخر مدعاة للقلق والاضطراب في وقت كان يجب فيه على الأخوة الثلاثة توحيد القوى ، وحشد الطاقات لمواجهة بقايا الصليبيين في بلاد الشام ، إضافة إلى وجوب

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤١ ؛ ابن العديم :

زبد القلوب ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج ٤ ص ٢٠٤ - ٢٠٦ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر

ج ٣ ص ١٣٧ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٢١ .

الاستعداد المبكر وبناء جبهة اسلامية متحدة ، لا سيما وأن النذر بخطر التآري بدأت تظهر للعيان . بل ان خلافت الاخوة الثلاثة جلبت حملة صليبية جديدة - كما سنرى - هي الحملة السادسة ، وما نجم عنها من نتائج لا تساوى إطلاق يد المعظم في بلاد الشام . وهكذا ساهم الاخوة الثلاثة - دون وعي منهم - في دق المسامير في نعش الدولة الأيوبية .

وعلى أية حال ، فبعد ان شعر الكامل بالعزلة وبخطورة تحالف اخيه المعظم مع خوارزم شاه لم يجد حوله من حكام المسلمين حليف قوى يشد من ازره ويقف الى جانبه ، فقرر الاتصال بالامبراطور فردريك الثاني (١٢١٢-١٢٥٠ م) ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة طالبا منه المجيء الى عكا لمساعدته ضد اخيه المعظم ووعد به بأن يعطيه بيت المقدس وكل ما بيد المسلمين من ساحل فلسطين (١) .

وما ان علم المعظم باستدعاء الكامل لفردريك حتى بعث على عجل الى جلال الدين الخوارزمي يطلب منه النجدة على اخيه الكامل ، ووعد به بأن يقيم الخطبة له بمملكته ويضرب السكة باسمه وقطع خطبة الكامل من دمشق ، وعندئذ خرج الأخير من القاهرة الى بلبس في رمضان ٦٢٤هـ / اغسطس ١٢٢٧م عازما على الخروج الى بلاد الشام (٢) . ولما كان المعظم لا يأمل في معونة فورية من جلال الدين لبعد المسافة بين بلاد الشام وبين أراضى الدولة الخوارزمية في ايران ، ولقرب المسافة بين الشام ومصر اضافة الى انشغال الخوارزمي بأمر دولته وخطر التتار .

Lanepool, A History of Egypt p. 226. (١)

وانظر مايلى ، الفصل الثالث ص : ٢٨٥ -

(٢) المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٢٢ .

فقد لجأ المعظم الى مناورة سياسية بارعة لتثبيط همة الكامل وتخويله ، فبعث اليه رسالة سرية يتهدده فيها قائلا : " اني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدى أتصدق بالفدينار ، فان جميع عسكرك معي وكتبهم عندي ، وأنا أخذك بعسكرك " وكتب له رسالة اخرى عنية أمر باظهارها أمام قادة الكامل جاء فيها " باني ملوكك وما خرجت عن محبتك وطاعتك وحاشاك ان تخرج وتقابلني وأنا اول من أنجسك وحضر الى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق " ولا شك ان المعظم أراد من الرسالة الثانية ان يحفظ ماء وجه اخيه الكامل امام اصحابه حتى يترك له فرصة للتراجع ، فاعلن الكامل الرسالة بين الامراء ورجع من العباسة الى قلعة الجبل (١) .

ومن الواضح ان الكامل كان لا يثق في عساكره ، ولا سيما بعبد مؤامرة ابن المشطوب ويقدم ابن واصل تعليلا منطقيا لعدم الشقة بهم ، فيذكر أنه على الرغم من ان عسكر المعظم لا يتجاوز ثلاثة الاف فارس مقارنة بعسكر الكامل الذي يناهز اثني عشر الفا فان عسكر المعظم افضل من عسكر الكامل في تجهلهم وحسن زيهم واسلحتهم ، وكان الكامل يتوهم ميل عسكر مصر الى اخيه المعظم ومحبتهم له لما يعرفونه عنه من عناية فائقة بأمر الجند ورعاية لشئونهم ورفع مكانتهم ، وكان الكامل لا يجسر على الخروج الى الشام خوفا من انحياز عسكره الى المعظم ، ويؤكد ابن واصل تعليله ذلك بقوله : " وكان والله الامر كذلك " (٢) .

(١) المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٠٩ .

وحينما وصلت الأنباء بعزم الامبراطور فردريك القدوم الى الشام طمع صاحباً حمص وحماءه في الملك المعظم وأرسلا اليه يطالبانه بتعويضات عما لحقه بهما من خسائر ، وادرك المعظم عندئذ - ويعد قواته الآن - ما يعنيه قدوم حملة صليبية جديدة ، في وقت استحكمت فيه العداوة بين ملوك الدولة الأيوبية ، فأرسل الى اخيه الأشرف يلاطفه ، فعنفه الأشرف " على أفعاله التي عامله بها وقرعه على ما اعتمد في حقه وحق أهله " (١) .

وداهم المرض المعظم فتوفى في ذى القعدة ٦٢٤هـ / نوفمبر ١٢٢٧ م وخلفه في مملكته بعده ابنه الناصر صلاح الدين داود ، وقام بتدبير امور دولته ملوك والده عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد (٢) . وظل في خدمته عمه العزيز عثمان صاحب بانياس وعمار الدين اسماعيل صاحب بصرى والسواد ، وابن عمه المغيث محمود بن عمر بن العادل . وارسل الناصر الى عمه الكامل والأشرف معزيا بأبيه فارسل الكامل اليه رسولا ومعه الخلع وسنجد السلطنة ، وطيب قلبه ، وأقره على مملكة والده ، فلبس الناصر خلعة عمه " وركب بالسندجق الواصل اليه " (٣) .

- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٠١ .
(٢) العليبي : تاريخ من ملك مصر وكما والشام وحلب والسواحل ورقة ١١٣ أ ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١٢١ ب ؛ ابوالفدا : التبر المسبوك مخطوط حوادث ٦٢٤ ؛ القلقشندي : مآثر الانافة ج٢ ص ٨١ - ٨٢ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥٣ ؛ ابوالفدا : المختصر ج٣ ص ١٣٨ .
(٣) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٢٠ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٢٤ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٢٤ .

وفي الحقيقة فان المشاعر الطيبة التي ابداهها الكامل تجاه ابن اخيه الناصر داود ليست صادقة ، فهو لم يخف سروره بموت اخيه المعظم ^(١) . وورث الناصر داود جميع المشكلات وسوء العلاقات التي كانت قائمة بين أبيه وعميه الا شرف والكامل ، فما لبث الكامل ان التمس ذريعة لمهاجمة ملكة الناصر داود ، فأرسل اليه طالبا منه التنازل عن قلعة الشوبك ليجعلها خزانة له ، فرفض الناصر طلبه ، فقرر الكامل الخروج الى الشام لانتزاع دمشق منه ^(٢) . وعهد الكامل الى ابنه الصالح أيوب بولاية العهد وجعله نائبه بمصر وخرج الى الشام في رمضان ٦٢٥هـ / أغسطس ١٢٢٨ م ، وفي صحبته عدد من امراء البيت الأيوبي ، منهم ابن اخيه الجواد يونس بن مودود ، وكان قد فر الى المعظم سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥ م فعاد الكامل واسترضاه ورجع الى مصر ، والمظفر محمود بن المنصور صاحب حماه . وحينما وصل الكامل الى غزة خيم بتل العجول وبعث بولاته الى نابلس والقدس والخليل . فانزعج الناصر داود واستبد به الخوف والفرع ^(٣) .

وانضم الى الكامل اخوه العزيز عثمان بن العادل الذي تطلع الى انتزاع بعلبك من الامجد بهرام شاه الا ان الناصر داود منعه من ذلك فغضب وانضم الى الكامل فوعده بتسليم بعلبك اليه ^(٤) .

- (١) المقریزی : السلوك ج١ ص ٢٢٤ .
- (٢) البيهقي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٠ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ مخطوط لوحة ٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ، ص ٢٢٥ ؛ المقریزی : السلوك ج١ ص ٢٢٤ ؛ العلیمي : الانس الجليل ج١ ص ٤٠٥ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٨٠٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٢٥-٢٢٨ ؛ المقریزی : السلوك ج١ ص ٢٢٦ .
- (٤) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ١٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٢٧ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٦٢-١٦٣ ؛ ابو شامة : الروضتين ص ١٥٣ .

ويذكر بعض المؤرخين ان العزيز عثمان عندما سافر الى الكامل
سار الامجد صاحب بعلبك ونهب بلاد العزيز وهي بانياس وأعمالها ،
وحينما بلغ ذلك السلطان الكامل ، امر عساكره بنهب بلاد الناصر داود
جزءاً ما فعله صاحب بعلبك ^(١) . وهذا يوضح حقيقة هامة تسترعي
الانتباه وهي ان معظم الفلاحين والسكان في بلاد الشام والبعيدين كل
البعد عن الاشتغال بالسياسة تضرروا كثيرا من المنازعات السياسية بين
الأيوبيين ، ودفعت بلاد الشام اثاماً باهظة حينما تشن العساكر
المتناحرة الغارات ضد بلاد بعضهم البعض الأمر الذي يعود بأفدح الضرر على
الاهالي في وقت ليس فيه لصغار المزارعين والسكان ناقة ولا جمل في
المنازعات السياسية .

ومهما يكن من أمر فحينما تأكد الناصر داود من خروج عمه الكامل
للاستيلاء على مملكته أرسل الرسل تباعا الى عمه الاشرف يستنجد به ضد
عمه الكامل ، وكان الاشرف مقيماً بسنجار ، فقدم الى دمشق ، فاستقبله الناصر
استقبالا حافلا . ويقول ابن واصل : " وكنت حينئذ بدمشق . . وفرح الناصر
به غاية الفرح ، وطاب قلبه ، وأقام الاشرف مدة يشتره في بساتينها . . وكان
الوقت صيفا وساتينها في غاية النظارة والحسن وكثرة الفواكه ، وفي قلب
الاشرف من محبة دمشق والميل الى تملكها ما فيه ، فهو يعمل على ذلك
باطناً " ^(٢) وهكذا غدا حال الناصر في استجارته بعمه الاشرف ضد الكامل
كالمستجير من الرمضاء بالنار .

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ ، لوحة ١٢ ؛ ابن نطف : التاريخ المنصوري

ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ وانظر ايضا

تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ١٢ .

وسلم الناصر داود مقاليد دولته الى عمه الاشرف ووضع فيه كامل ثقته ، و قدم الى دمشق ايضا المجاهد شيركوه صاحب حمص لانه كان متحالفا مع الاشرف (١) .

وأرسل الاشرف الى الكامل رسولا ليشفع في الناصر داود ويطلب منه ابقاء دمشق عليه فرفض الكامل وساطة الاشرف لعلمه انه لم يكن مخلصا فيها وخاطب رسوله " بما فيه اطماع الاشرف بملك دمشق " (٢) . وعندئذ أشار الاشرف على الناصر داود بالمضي معه الى نابلس ليقيم بها ثم يسير هو لمفاوضة السلطان الكامل بتل العجول قرب غزة ، فسارا ومعهما المجاهد صاحب حمص ، وأقام الناصر بنابلس بينما سار الاشرف والمجاهد الى الكامل . وهنا غدر الاشرف بابن اخيه الناصر وأماط اللثام عن مطامعه ، وتم عقد صفقة سياسية بينه وبين اخيه الكامل اقتسما بموجبها ملكة الناصر داود ، وجرى الاتفاق على أخذ دمشق من الناصر وتسليمها للاشرف مع ما يتصل بها من البلاد الى عقبه قيق ، ويكون للسلطان الكامل المناطق الواقعة بين عقبه قيق وغزة ، وأن يعوض الناصر داود ببعض بلدان الجزيرة التابعة للاشرف وهي حران والرقه والرها وسروج ورأس عين وجملين والموز ، وأن تنتزع بعلبك من الامجد بهرام شاه وتُعطى للعزيز عثمان بن العادل ، وتنتزع حماه والمعرة وبعرين من قليج ارسلان وتعطى لـ أخيه المظفر ، على أن تسلم سلمية للمجاهد

- (١) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٢٤ أ ؛ تاريخ ابن الجوزي
لوحة ٣٣٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٢٩ ؛ المقرئ :
السلوك ج١ ص ٢٢٦-٢٢٧ ؛ ابو الفدا ، ج٣ ص ١٤٠ .
(٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ١٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

صاحب حمص (١) .

وحيثما سمع الناصر داود نبأ الاتفاق رحل من نابلس قاصدا دمشق ،
غير انه بدلا من ان يحاول استمالة كبار الامراء والقادة الى جانبه ، ارتكب
حماقة كبيرة عندما اختلف مع الامير عز الدين ايدمر المعظمي صاحب
جينين ، فاحضره وأمر بضربه واهنته ، وكان ايدمر من كبار قادة المعظم ،
فهرب باتباعه وانضم الى السلطان الكامل الذي احسن اليه فضعفت قوات
الناصر بذلك (٢) . ويذكر ابن الفرات ان ايدمر المعظمي عندما وصل
الى السلطان الكامل أنعم عليه بعشرين الف دينار عينا وكتب له توقيعا
على الاعمال القوصية بعشرين الف اردب غلة كما اعطاه جميع املاك وزير
والده صفى الدين بن شكر (٣) . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على
مدى القوة التي تمتع بها هذا الأمير وقدرته على تغيير موازين القوى في
الصراع الدائر ، وهذا يلقي الضوء على دور القادة العسكريين من اصحاب
الاقطاعات في النزاع بين الايوبيين .

وحيثما رحل الناصر داود عائدا الى دمشق لحق به عمه الأشرف
تحت عقبة فيق بالفور واجتمع به واخبره بالاتفاق الذي جرى مع السلطان

(١) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٢٤ أ ب - ٢٥ أ ؛ الاصفهاني : البستان

الجامع ورقة ١٩٤ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٠ أ ب

؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ١٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤

ص ٢٣٠ - ٢٣١ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢٧ ؛ ابو الفدا :

المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٤٠ .

وعقبة فيق : ويقال افيق مدينة بالشام بين دمشق وطبرية ، وعقبة

فيق تنحدر الى غور الاردن وهي تشرف على طبرية وبحيرتها ، انظر

ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٣٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة

الزمان ج ٨ ص ٦٥٥ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥١ .

الكامل ، وانه لا مناص من مخالفته وطلب منه التنازل عن دمشق والرضى بما تقرره من البلاد الشرقية ، وحضر الاجتماع الصالح اسماعيل بن العادل والمغيث بن عمر بن العادل وكانا مع الناصر داود ، والامير عز الدين ايبك صاحب صرخد وكبير قادة الناصر ، ورفض عز الدين ايبك تسليم دمشق وأمر الناصر بالرحيل معه فورا الى دمشق للاعتصام بها والدفاع عنها ، وعندئذ انضم الصالح اسماعيل والمغيث ، وكريم الدين الخلاطي - وكانوا جميعا من أخلص اصحاب المعظم - الى الملك الاشرف ^(١) كما تلقى الاشرف نجدة من حلب بعث بها الاتاك طفريل فوصلت الى الفور في محرم ٦٢٦ هـ / نوفمبر ١٢٢٨ م ^(٢) .

وصل الناصر داود الى دمشق وشرع في الاستعداد للحصار ، وقام سكان دمشق بنصرته احسن قيام ، وسار الاشرف على رأس كتيبة حلب وصاحب حمص ومن انضم اليه من اصحاب الناصر لأن معظم عساكره كانوا بالمشرق بازا^١ الخوارزمي ، ولما وصل الاشرف دمشق نازلها في ربيع الثاني ٦٢٦ هـ / مارس ١٢٢٨ م وقطع عنها فروع نهر بردى ، فخرج الدمشقيون وقاتلوا اصحاب الاشرف حتى أعادوا الماء الى دمشق ، وجرت بين الجانبين معارك عديدة ، وهدمت الكثير من الابنية والخانات خارج دمشق ، واشتدت عطيات النهب والحريق في ضواحي دمشق ، وتسلم الاشرف حصن عزتا خارج دمشق بما فيه من سلاح وغيره ^(٣) .

-
- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٠ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٨-٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٧-٢٣٨ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٤٨٤ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٢٩ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٦ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٩ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥٤ .

وأرسل الناصر مبعوثا الى جلال الدين الخوارزمي يخبره ان أعمامه قصدوه بسبب دخول والده المعظم في طاعته ، ويحثه على الهجوم على خلاط عاصمة الأشراف ليشغله عن دمشق ^(١) . واستغل الناصر تنازلا الكامل عن بيت المقدس لفردريك الثاني وأخذ يشنع على عمه ويشهر به لتنازله عن اولى القبلتين بدون قتال ، وذلك كيما ينفر الناس عنه ويحث سكان دمشق على الصمود ^(٢) .

اما الملك الكامل فقد سُفِّلَ لفترة بالمفاوضات مع فردريك الثاني ، وبعد عقد الصلح معه ^(٣) ، ارسل اليه الأشراف يحثه على سرعة القدوم الى دمشق للاستيلاء عليها ، فبعث الكامل اليه يطلب منه الموافقة على تعديل الاتفاق الذي تم بينهما بحيث يأخذ الكامل البلاد الشرقية التي عينت للناصر داود بسبب صعوبة الاستيلاء على الكرك والشوبك والصلت لحصانتهما ، وتبقى دمشق وبلادها الى عقبه فيق للاشرف ، ويحتفظ الناصر بعد فتح دمشق ببعض الحصون الواقعة بين عقبه فيق وغزة ، فوافق الاشرف على ذلك ، ورحل الكامل قاصدا دمشق ووصل اليها في جمادى الاولى ٦٢٦هـ / ابريل ١٢٢٨م ^(٤) .

- (١) البيهقي : جامع التواريخ ورقة ٢٨ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٩ - ٤٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٩ - ٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٣١٢ ؛ العليني : الأئمن الجليل ج١ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .
- (٣) انظر مايلي الفصل الثالث ص : ٢٩١ - ٢٩٤ .
- (٤) ابن واصل : التاريخ الصالح ورقة ٢٣٠ ب - ٢٣١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٥٢ .

وأمر الكامل بأجراء بعض فروع نهر بردى لري الاراضي الزراعية ،
وارسل اليه الناصر بعض أعيان دمشق لمفاوضته على الصلح ولكن الكامل
اصر على تسليم دمشق وفشلت المفاوضات ^(١) . فاشتد الحصار على دمشق ،
وعاد المحاصرون الى قطع فروع بردى وقنواته الداخلة الى دمشق حتى جاف
البلد بسبب ذلك ، واقتصر شرب اهل دمشق على الابار ، ووقعت بين
الجانبين معركة قبالة باب الحديد - احد ابواب دمشق - انتصر فيها
الدمشقيون ، فرد المحاصرون باضرار النيران حول باب توما ، واحتترقت
العديد من الطواحين ، وجرى تدمير معظم قرى غوطة دمشق ، ومنعت
القوافل التجارية من دخول دمشق حتى انقطعت المؤن والفواكه عن
دمشق واشتدت الضائقة على اهل دمشق وبلغت القلوب الحناجر ^(٢) ويحكي
ابوشامة عن بعض المعاصرين قائلا " وسمعت والدى وجماعة من المشايخ
الذين شاهدوا الحصار المتقدم في دولة أولاد صلاح الدين يحكون
أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار " ^(٣) .

وكان من أشد الأمور التي اضعفت الناصر داود ، ان الأموال
لديه قليلة لأن معظم أمواله كانت بالكرك ، ولثقتة في عمه الأشرف لم يحضر منها
شيئا ، فلجأ الى بيع حلى نساءه وملابسهن ، وشرع في ضرب ما عنده من
الأواني والتحف الفضية والذهبية دراهم ودنانير ، وانفقها في عسكره

(١) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ ب - ٢٩ أ ؛ الاصفهاني

: البستان الجامع ورقة ١٩٥ أ ب ؛ الخطيب العمري : الدر

المكون ورقة ١٢٢ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٠ - ٥٢ ؛

العليني : المعتبر في انباء من غير ورقة ١٧٥ أ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج ٤ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥٥ ؛

ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٣) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥٥ .

وبعد ان نفقت امواله بدمشق غادرها بعض عساكره وانضموا الى عميه
الكامل والا^١ شرف (١) .

وبعد ان طالّت مدة الحصار ادرك الناصر انه لم يعد بمقدوره
الصمود والمقاومة ، فاستقر رأيه على الخروج الى عمه الكامل ، ليرى فيه
رأيه ، وخرج ليلا من قلعة دمشق في اواخر رجب ٦٢٦هـ / يونيه ١٢٢٩ م
في نفر قليل من اصحابه وحينما علم السلطان الكامل بمجيئه استقبله بحفاوة
وأكرمه وطيب قلبه بعد ان عاتبه ، ثم امره بالعودة الى قلعة دمشق .
وبعد يومين بعث الكامل بأحد اصحابه الى دمشق وخرج بصحبة
الناصر علنا ، وجرى الاتفاق على ابقاء صرخد بيد عز الدين ايبك المعظمي ،
وترك للناصر داود الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونابلس وضواحي
القدس وبيت جبريل ، ثم تنازل الناصر عن الشوبك لعمه الكامل الذي نال
ايضا من مملكة الناصر الخليل وغزة وطبرية وعسقلان والرملة واللد وجميع
مدن الساحل التي في حوزة المسلمين ، وأقر السلطان الكامل اخويه
العزیز عثمان والصالح اسماعيل وابن اخيه المغيث على ما بأيديهم
من اقطاعات (٢) .

- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات
ج ٦ لوحة ٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٥٣ ؛ ابن الاثير
المكامل ج ١٢ ص ٤٨٤ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٣٤ .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٩ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات
ج ٦ لوحة ٥٤-٥٦ ؛ ابن ابي الدم الحموي : التاريخ المظفرى لوحة
٥٥١-٥٥٢ ؛ ابو الفدا : التبر المسبوك مخطوط حوادث ٦٢٦هـ ؛
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٤ ورقة ٣٢١ أ ؛ تاريخ ابن
الشحنة ورقة ٩٨ أ ؛ العلّيمي : تاريخ من ملك مصر والشام وحلب
والسواحل ورقة ١١٣ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٥٦-
٢٥٧ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٨٥ ؛ المقرئ : السلوك
ج ١ ص ٢٣٤-٢٣٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢٤ .

وفتحت أبواب دمشق في أول شعبان ٦٢٦هـ / يونية ١٢٢٩م ودخل
الكامل الى المدينة وتسلمها ، وكان لسقوطها أسوأ الاثر في نفوس أهلها
فعمهم الحزن والاسى رغم انفراج الأزمة الاقتصادية في دمشق عقب
الصلح ، ويصور المؤرخ المعاصر لهذه الحوادث ابن واصل ذلك بقوله :
" وفتحت ابواب البلد مستهل شعبان ، وكان ذلك في اول إقبال المشمش
والفواكه وأهل دمشق قد يبست أكبادهم لعدم الخضروات والفواكه
والثلج وانقطاع الماء ، فانفج عنهم الضيق ، لكن حصل في قلوب الدمشقيين
من الأسف والحزن ما لا مزيد عليه ، ولقد كنت عند باب القلعة ذلك
اليوم ، وقد دخل العسكر المصرى من جميع الأبواب ، وامتلات المدينة
منهم ، وكان الى جانبي انسان من أهل دمشق ، فلما رأى ذلك بكى بكاء
عاليا وأعلن بالعويل ، وما رأيت يومئذ أحدا من الدمشقيين الا في صورة
من فجع بموت ولد أو أب " (١) وهذا النص يدل دلالة واضحة على روح
الزعامة والقيادة في نفوس الدمشقيين وتطلعهم الدائم الى ان تكون مدينتهم
مستقلة بل وزعيمة للجهاد ضد الصليبيين ، ورفضهم للتبعية لأى قوة
اسلامية خارج مدينتهم .

وحينما تسلم الكامل دمشق سلمها الى اخيه الاشرف ، وبعث الكامل
بنوابه الى البلاد الشرقية التي تقرر تسليمها له وهي حران والرقه والرها
وسروج ورأس عين وجملين والموزر (٢) . واحتفظ الكامل بقلعة دمشق
مؤقتا حتى تسلم نوابه البلاد الشرقية من نواب الاشرف ، فسلم القلعة
اليه (٣) . وهو أمر له دلالة بالنسبة للعلاقات بين الأخوين ، ان يشير

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٥٧ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣١ أ ، تاريخ ابن الفرات

ج٦ لوحة ٥٦-٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٥٧-٢٥٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٤٨٤ .

بوضوح الى وجود الشك والريبة وعدم الثقة بينهما رغم تحالفهما في هذه المرحلة .

وظل بيد الأشرف من البلاد الشرقية نصيبين وسنجار والخابور وبلاد خلاط ، وكانت ميفارقين بيد اخيه غازي ، بينما احتفظ اخوه الآخر ارسلان شاه بقلعة جعبر (١) .

ونذهب الناصر داود الى الكرك واستقر بها ، وكان الكامل قد بعث قبيل الاستيلاء على دمشق بفرقة عسكرية للاستيلاء على الكرك الا أن حامية الناصر داود بالكرك تمكنت من انزال الهزيمة بفرقة الكامل وأسرت قائدها (٢) .

اما السلطان الكامل فسار الى جهة حماة لمساعدة المظفر على استعادتها من اخيه قليج أرسلان (٣) ثم سار شرقا وعبر الفرات ، وممر بقلعة جعبر وسار الى الرقة وعيد بها عيد الفطر سنة ٦٢٦هـ / أغسطس ١٢٢٩م وخافه حكام الشرق وهم اصحاب ماردين وآمد ، والموصل ، واربيل وأنغروا لطاعته (٤) . وبعد أن قرر أمر الشرق رجع الى مصر بعساكره ، وكان قد ورد عليه رسالة من ام ولده العادل الثاني تشكو من ابنه الصالح ايوب وتتهمه بالتخطيط لانتزاع الملك منه وأنه استكثر من المعاليك الترك وحذرت من مغبة تأخره عن العودة الى مصر ، فعاد بعساكره على

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٥٦-٥٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج٤ ص ٢٥٧-٢٥٨ .

(٢) تاريخ ابن الفرات لوحة ٥٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٥٨ .

(٣) انظر ما سبق ، الفصل الاول ص : ٩٧ - ٩٨ .

(٤) اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات

ج٦ لوحة ٦٧-٦٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٨٢-١٨٣

١٨٨ ، المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣٦ .

عجل ، وتغير على ابنه الصالح أيوب وقبض على جماعة من أصحابه ، وصرف عنه ولاية العهد ، وجعلها لابنه الصغير العادل الثاني وأبعد الصالح أيوب عن مصر وجعله نائبه بالبلاد الشرقية (١) .

أما عن نفوذ الأشرف في بلاد الشام ، فبعد ان سيطر على دمشق رفض طلب أخيه الكامل باعطاء بعليك لأخييهما العزيز ، وقرر ضمها الى مملكة دمشق ، فبعث اليها جيشا بقيادة اخيه الصالح اسماعيل ، ونصب عليها المنجنقات في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨ م وظل الحصار مضروبا عليها زهاء عشرة أشهر الى ان اذعن صاحبها الامجد بهرام شاه في سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩ م وسلمها الى ابن عمه الأشرف الذي أقطعه عوضا عنها بعض القرى التابعة لدمشق ولم يلبث الامجد أن أغتيل على يد أحد مماليكه سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩ م (٢) .

وفي سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠ م غادر الأشرف دمشق الى مصر للنزهة والاستجمام (٣) . ثم استقر رأي الأخوين الكامل والأشرف على المضي بجيوشهما الى الجزيرة لانتزاع آمد من يد صاحبها المسعود بن الصالح الأرتقي ، وذلك لما بلغهما عنه من سوء السيرة وانتهاك الحرمات بحيث كثرت الشكاوى منه الى السلطان الكامل اضافة الى تحالفه مع الخوارزمي ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٧٧-٢٧٨ ؛ المقريزي :

السلوك ج١ ص ٢٣٨ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ ب ؛ ٣٨ ب ، العليبي :

المعتبر في انباء من غير ، ورقة ٧٥ ب ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٣١

؛ السيوطي : اتحاف الاخصا ، ورقة ١٢٣ ب ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٤ ص ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ؛ الذهبي : دول الاسلام

ج٢ ص ٣٤ ؛ ابن ايبيك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٠١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣١٤ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري

ص ٢٢٥ ؛ المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٤١ ؛ ابو الفدا : المختصر

في اخبار البشر ج٣ ص ١٤٧ .

وفي سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١ م خرجا من مصر ، وتوجه الاشرف على رأس العساكر
اليونية نحو دمشق بينما سار السلطان الكامل الى الشوبك للنظر فسي
مصالحه ثم توجه الى الكرك ^(١) .

وحيثما علم الناصر داود صاحب الكرك بقدوم عمه الكامل ، أمر
باقامة الاحتفالات والمهرجانات ابتهاجا بمقدمه ، واستقبله استقبالا رائعا ،
وقام الكامل بتوطيد علاقته بالناصر ، فعقد له على ابنته عاشورا خاتون
شقيقة ولي عهده العادل الثاني ^(٢) . ويعلق ابن واصل على هذه المودة
الجديدة بين الناصر داود وعمه الكامل بقوله : " ولو كان الناصر التجأ
الى عمه في اول الأمر لم تخرج بلاد أبيه من يده " ^(٣) ولكننا نفترض
عدم صحة هذا الرأي ، فاطماع الكامل لم تكن تقف عند حد ، فقد ظل
أمل توحيد مصر والشام تحت لوائه يداعب خياله ، وقد اثبتت الحوادث
بعد ذلك صحة هذا الافتراض وسنرى ذلك واضحا في الصفحات التالية .

ورحل السلطان الكامل من الكرك في اواخر شعبان ٦٢٩هـ / يونيه
١٢٣١ م وصحبته ابن اخيه الناصر داود كما وصل اليه المظفر صاحب
حماء ، وتوجهوا نحو دمشق ، ووفدت بقية ملوك الشام الى دمشق ، وساروا
جميعا تحت قيادة السلطان الكامل شرقا ^(٤) ، ووصل الى آمد وحاصرها

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٤٥ ب ؛ تاريخ ابن الفرات
ج٦ لوحة ١٩٩-٢٠١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٢-١٣
ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢٣٣ ؛ ابو الفدا : المختصر
ج٢ ص ٢٣٢ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٢٠١-٢٠٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٥ ص ١٦ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ١٥٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٢٠٣-٢٠٤ ؛ اليافعي جامع التواريخ
المصرية ورقة ٤٥ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٦-١٧ ؛
ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ٢٣٢ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري
ص ٢٣٤-٢٣٥ .

ونصب عليها المنجنقات ، ورغم مناعة آمد وحصانة اسوارها فانها لم تصمد في وجه الكامل بسبب كراهية سكانها لحاكمهم المسعود الارتقي ، الذي ما أن شعر بتخلي السكان عنه حتى اذعن الى التسليم وطلب الأمان لنفسه فاجابه الكامل الى طلبه وتسلم آمد وبلادها وجميع ما يتبعها من حصون منيعة اشهرها حصن كيفا ^(١) . وعوض صاحبها المسعود بعض الاقطاعات بمصر وجعل ابنه الصالح ايوب نائبا عنه باملاكه الشرقية وعهد الى الامير شمس الدين صواب العادلي بمهمة تدبير شئون ابنه الصالح ايوب وتقديم المشورة اليه لأن الكامل كان يثق في الامير صواب لما عرف عنه من اخلاص في خدمة الكامل ووالده العادل من قبل ^(٢) .

وبعد الاستيلاء على آمد شرع الكامل في تفقد احوال مملكته بالمشرق ، فقدم اليه قاضي الرقة وشكى اليه سيرته ابن اخيه الجواد يونس بن مودود وأنه اجحف بسكان المدينة حتى جلا معظم سكانها ولم يبق بها سوى أقل من خمسمائة نسمة ، فعزل الكامل الجواد عنها وسلمها للقاضي وطلب منه اعادة سكانها اليها ، ثم قصد الرها وحران ، والسويداء ورتب امورها ^(٣) . ثم رجع الى مصر وعاد ملوك الشام من بني أيوب الى بلادهم وذلك سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م ^(٤) .

- (١) حصن كيفا ، بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر : انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٤٥ ب - ٤٦ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالح ورقة ٢٣٣ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٠٤ - ٢٠٩ ؛ الديبسياني : الزهر الزاهر ورقة ١٢٠ أ ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١٢٤ أ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢٣٦ - ٢٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٦ - ٢٩ ، ٣٤ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٤٢ ؛ الديار بكري : تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس ج ٢ ص ٣٧١ .
- (٣) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٤ - ٣٥ .

وإذا كانت مرافقة ملوك بني ايوب للسلطان الكامل في حملته على آمد ، تدل على اعترافهم بسلطانه وخضوعهم لنفوذه ، فان العلاقات بين الجانبين كان يمكن أن تستمر طيبة لو أن الكامل لم يتطلع لبسط سيطرته المباشرة على بلاد الشام على حسابهم وجعلها ولاية تابعة لمملكته بمصر . غير ان شيئاً من ذلك لم يحدث فقد ظهرت لهم مطامع واضحة جلية ، عندما رافقوه مرة اخرى في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣ م في حملته الضخمة ضد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وتبين لهم ان هدفه الاستيلاء على آسيا الصغرى ، وتوزيعها عليهم وانتزاع بلاد الشام منهم وضمها مع بلاد الجزيرة الى مصر ، فتخلوا عن مساعدته وأسهموا في فشل حملته على آسيا الصغرى ، وبدأت العلاقات بين ملوك الشام والسلطان الكامل تسير من سوء الى أسوأ (١) .

وكان أول مظهر من مظاهر سوء العلاقات حدث بين الكامل وابن اخيه الناصر داود ، بسبب امتعاض الكامل من الناصر لانضمامه الى بقية ملوك الشام والجزيرة في العمل على إفشال حملته على اسيا الصغرى ، فاعرض عن الناصر ، واجبره على ان يطلق ابنته عاشورا خاتون ولم تكن قد زفت اليه بعد ، وذلك في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣ م (٢) .

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٧٤ - ٧٧ ، وعن تفاصيل حملة الكامل على بلاد سلاجقة الروم انظر : الفصل الرابع ص : ٣٦٥ - ٣٦٦ .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٩ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٢٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٨٢ - ٨٣ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ١٥٥ ؛ ابن ابيك كنز الدرر ج٧ ص ٣١٢ .

وقد أورد المؤرخون اسبابا عديدة لتدهور العلاقات بين الأشرف وأخيه الكامل ، حيث توالى من الكامل افعال كثيرة ضاق بها الأشرف ذرعا منها : انه اخذ منه بلاده الشرقية حين اعطاه دمشق بعد انتزاعها من الناصر داود ، كما استأثر بمناطق هامة كانت تابعة أصلا لدمشق ، وحين استولى سلطان سلاجقة الروم على بلاد خلاط - وهي مناطق شاسعة وذات خيرات كثيرة - لم ينصره الكامل على سلطان الروم لاستعادتها ، ولم يعد بيد الأشرف سوى دمشق ، واخيرا حين استولى الكامل على آمد وبلادها بمساعدة الأشرف لم يعطه شيئا منها ، واعتاد الكامل ايضا على الخروج الى بلاده الشرقية وكان في كل مرة يمر بدمشق وقيم بها مع عسكره مما يكلف الأشرف اموالا طائلة ينفقها في ضيافته وضيافة أصحابه . اما الكامل فقد استاء من الأشرف عندما عمل الأخير على اجهاض حملته على بلاد الروم فضلا عن غضبه بسبب تجنيد الأشرف للخوارزمية بعد مقتل ملكهم جلال الدين منكبرتي (١) .

ويضيف المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي وغيره من المؤرخين اسبابا اخرى الى هذه الاسباب حيث أرسل الأشرف الى أخيه الكامل يطلب منه الرقة ، فرفض الكامل ، زاعما ان دمشق تكفيه لانها ملكة بني أمية فبعث الأشرف اليه محتجا بأنه اخذ منه بلاده الشرقية واعطاها لابنه الصالح ايوب ، وضحى ملكه قاصرا على دمشق التي لم يعد ايرادها المالي يكفيه ، فبعث الكامل له بعشرة الاف دينار ، فردها الأشرف قائلا :

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ أ ، تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٦٠-٣٦٢ ، الجنابي : البحر الزاخر ج ٢ ورقة ١٢٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢٦-٢٢٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٥ ص ١٢١-١٢٣ ، ابن ايبك ، كنز الدرر وجامع الفهر ج ٧ ص ٣١٧ .

"أنا اعطي هذه لا مير عندي" ، فغضب الكامل وقال : " ايش يعمل بالملك ، يكفيه عشرة المغاني وتعلمه لصناعتهم " فلما بلغ هذا القول الأشرف حنق وقال : " والله لأعرفنَّ قدره " (١) .

وتدهورت العلاقات بين الأخوين ، وكان المجاهد صاحب حمص من أشد المناصرين للأشرف لا دراكه لنوايا الكامل في السيطرة على بلاد الشام ، وكان أحد المحرضين على افشال حملته على اسيا الصغرى ان خاطب الأشرف قائلا : " متى أخذ بلاد الروم تعبنا به وبقينا بين يديه يقلبنا كيف يشاء " فاتفقا عليه (٢) .

ولم يجد الأشرف والمجاهد صعوبة في ضم مملكة حلب الى تحالفهما ضد السلطان الكامل ، ان كان لدى أهل حلب من الاسباب ما جعلهم ينضمون الى التحالف الجديد ، حيث سبق وأن اشار الكامل عليهم بجعل الصالح بن الظاهر قائدا لعسكر حلب وذلك بعد موت العزيز وقيام ابنه الصغير الناصر يوسف في الملك بعده ، الامر الذي أغضب ضيفة خاتون ابنة العادل ، جدة الملك الصغير والوصية عليه فوقعت الوحشة بين الحلبيين والسلطان الكامل (٣) . فأرسل الأشرف الى اخته ضيفة خاتون وامراء حلب يحثهم على توحيد موقفهم معه ضد السلطان الكامل لمنعه من القدوم الى بلاد الشام وأن يقتصر على الديار المصرية وذلك حتى لا يتركوا له اية فرصة للاستيلاء على اى جزء من بلاد الشام ، وهكذا

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٩٩-٧٠٠ ؛ ابن ايبك :

كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٧-٣١٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣

ص ١٤٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٩٧ .

(٢) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٨ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥

ص ١٢١ ؛ وانظر ما سبق ، الفصل الاول ص : ٨٨ .

انضمت حلب بدورها الى الاشرف والمجاهد في تحالفهم ضد السلطان الكامل (١) .

ولما كان المظفر صاحب حماه مؤيدا لخاله الكامل لا نه الذي استرد له حماه من اخيه قليج ارسلان وزوجه بابنته ، فقد عمد الاشرف الى استمالته الى جانبه وتهديده بالحرب ان لم ينضم الى التحالف الجديد ، وتوسط المجاهد صاحب حمص بين المظفر وخاله الاشرف ، فوافق المظفر مكرها ، وتحالف معهم خوفا على مملكته منهم اذا لم يجب طلبهم ، وظل المظفر سرا على ولائه للكامل ، والزم المجاهد المظفر بالمضي معه الى دمشق حيث اجتمع بخاله الاشرف وأقسم له اليمين على تأييده ضد الكامل . وأرسل ملوك الشام في الوقت نفسه وفدا الى سلطان سلاجقة الروم كيقباز يطلبون منه مناصرتهم ضد الكامل ، غير ان كيقباز توفي قبل وصول الوفد سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م وخلفه ابنه كيخسرو الذي اجابهم الى طلبهم وتعهد بمساعدتهم (٢) .

وأدرك الاشرف أهمية ابن اخيه الناصر داود صاحب الكرك وما جاورها ، ان تتمتع بلاده بموقع عسكري هام ، لوقوعها على الطريق الذي يربط بين بلاد الشام ومصر ، اضافة الى امكانية مراقبة تحركات الكامل واخذ الحيلة قبيل توغل جيوشه في بلاد الشام ، كما أن حصانة الكرك وصعوبة الاستيلاء عليها ستجعل منها في حالة انضمام صاحبها الى تحالف ملوك الشام شوكة مؤلمة في جنب الكامل اذا ما حاول غزو بلاد الشام .

(١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٦١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج ٥ ص ١٢١-١٢٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ أب ؛ الاصفهاني :

البستان الجامع ورقة ٢٠٢ ب - ٢٠٣ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦

لوحة ٣٦١-٣٦٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢٧ ؛ ابن

واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٢٣-١٢٤ ؛ ابو الفدا : ج ٣ ص ١٥٩ .

ولهذا كله ارسل الأشرف الى ابن اخيه الناصر داود يطلب منه الانضمام الى تحالف ملوك الشام ضد السلطان الكامل ، وقدم له عرضا سخيا بأن يصبح ولي عهده على مملكته وان يزوجه بأبنته الوحيدة (١) .
وكاد الناصر يوافق على هذا العرض غير أنه ورد اليه في الوقت نفسه ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م مبعوث من السلطان الكامل يدعوه الى موافقته ضد الأشرف ، وذكره بغدر الأخير به بعد موت والده ، وطلب منه القدوم الى مصر ، ووعدته بالمسير معه بعساكره وانتزاع دمشق من الأشرف واعادتها اليه .
وعندئذ احتار الناصر داود في أمره واستشار والدته في أي العرضين يقبل ، فأشارت عليه بالانضمام الى عمه الكامل ، فاقنع برأيها وتوجه الى مصر (٢) .

ومن الواضح ان الناصر داود ارتكب خطأ باجابه السلطان الكامل ، فلم يستفد من الدروس التي تلقاها منه ، فهو الذي أطمع الأشرف في دمشق اول مرة ، ويبعدوا ان الأشرف كان صادقا في عرضه سيما وأنه ليس له غير ابنة واحدة ولبن يجد وليا لعهد افضل من ابن اخيه الناصر داود ، ويعزو ابو الفدا سبب ميل الناصر لعمه الكامل ورفض عرض الأشرف "لسوء حظه" (٣) ولكن الحظ ليس له دخل في اتخاذ قراره ، فقد كان حرا في اختياره ، وانما يعود سوء الاختيار الى افتقاره للحنكة السياسية والروية

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ أ ب ؛ تاريخ ابن

الفرات ج ٦ لوحة ٣٦٤ ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة

٢٠٢ ب - ٢٠٣ أ ؛ ابن واصل : منج الكروب ج ٥ ص ١٢٥ ؛ ابو

الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٩ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٣ ب - ٦٤ أ ؛ تاريخ ابن

الفرات ج ٦ لوحة ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٣) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٥٩ .

الصحيحة لطبيعة تكوين الدولة الايوبية ، وعدم المامه باطماع عمه الكامل وتطلعه الى توحيد مصر والشام تحت حكمه المباشر في الوقت الذي اتضحت فيه تلك المطامع لملوك الشام الآخرين ، كما رفض الناصر نصيحة ملوك والده المخلص عز الدين ايبك صاحب صرخد الذي اشار عليه بالانضمام لعمه الأشرف وحينما رفض نصيحته تخلى ايبك عنه وانضم الى الأشرف^(١)

وكيفما كان الأمر ، فان السلطان الكامل ما أن علم بقدوم الناصر داود اليه حتى أمر باقامة الاحتفالات لمقدمه ، واستقبله استقبالا حافلا وخلع عليه خلع السلطنة واركبه بالسناجق السلطانية وأمر بتجديد عقده على مطلقة عاشوراء خاتون^(٢) . وقد خُذع الناصر بكل مظاهر الحفاوة التي استقبله بها عمه الكامل حتى انه بعث الى نائبه بالكرك برسالة يخبره بهذا الاستقبال وتمثل في الرسالة ببيت من شعرابي الطيب المتنبي وهو :

سيعلم قوم خالفوني وشرقوا وغربت أني قد اصبت وخابوا^(٣)
ويبدو انه يشير بذلك الى ملوك والده عز الدين ايبك صاحب صرخد الذي انضم الى تحالف ملوك الشام ضد الكامل . وحينما بلغ الأشرف انضمام الناصر داود الى الكامل أرسل عسكريا الى نابلس فاستولى عليها واخذ ما كان فيها للناصر داود^(٤) .

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٣ أ ؛ ابن واصل :

التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٤ .

(٢) اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات :

ج ٥ لوحة ٣٦٥ - ٣٦٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥

ص ١٢٦-١٢٧ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥٤ ؛ ابن ايبك : كنز

الدرر ج ٧ ص ٣١٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٢٧ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥٤ .

وذكر ابن العديم أن ملوك الشام حينما تحالفوا ضد السلطان الكامل " وعزموا على الخروج عليه عَيْنَ كُلِّ واحد منهم شيئاً من بلاده ^(١) ويفهم من هذا النص أن البلاد التي اتفقوا على الاستيلاء عليها هي البلاد الواقعة شرق الفرات ، إذ ليس من المعقول أن يفكروا في الاستيلاء على مصر . بدليل رسالتهم إلى الكامل ، فيبعد أن تحالفوا ضده ، بعثوا وفداً ليؤدى رسالته على لسانهم يقولون فيها : " اننا قد اتفقنا كلنا ونطلب منك انك لا تعود تخرج من مصر ، ولا تنزل إلى الشام وتحلف لنا على ذلك " فقال لهم : " مبارك انتم قد اتفقتم ، فما تطلبون من يميني ؟ احلفوا أنتم أيضاً لي ان لا تقصدوا بلادى ولا تتعرضوا لشيء مما في يدي وأنا اوافقكم على ما تطلبون " ^(٢) وهو يشير بذلك فيما يبدو إلى بلاده الواقعة شرق الفرات .

وتطورت الحوادث بسرعة ، فمرض الأشرف موسى ، ولما اشتد به المرض عهد إلى أخيه الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل بمملكته من بعده ، واستحلف له المجاهد صاحب حمص وعز الدين أيبك صاحب صرخد ، وتوفي الأشرف بدمشق في المحرم ٦٣٥ هـ / سبتمبر ١٢٣٧ م وعمره ستون سنة ^(٣) .

- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢٧ .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٦٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٢٨ ؛ وانظر أيضاً : ابن واصل التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٤ ب - ٢٣٥ ؛ البستان الجامع ، ورقة ٢٠٣ أ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥٥ .
- (٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٥ أ ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٣ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٩١ ؛ ابو الفدا : التبر المسبوك ، مخطوط حوادث ٦٣٥ هـ ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٣٨ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤١٠ .

ولقد أزالته وفاة الأشرف ، عقبة كأداء كانت تقف في طريق الكامل ،
الذي لم يكن يجروء على مواجهته في مكان مكشوف . فقد ذكر المؤرخون
ان الأشرف كان محظوظا في ميادين القتال بحيث لم يهزم فـــــي
أى معركة شارك فيها بنفسه طوال حياته ، وكان أيضا كريما جدا
لا يبخل بمال^(١) . وكان اخوه الكامل يعي هذه الحقيقة جيدا ،
فحينما بلغه نبأ موته قال : " والله لو لم يمت لراحت البلاد منا ، فقيل
له : لك من باب الموصل الى اليمن ، فايش تلتفت اليه ، فقال : اسكتوا
كان كريما والكرم ما معه حديث " ^(٢) .

-
- (١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٩١ - ٣٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب ج ٥ ص ١٣٨-١٤١ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار
البشر ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠ .
(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٠٠ .

الحرب الأهلية في بلاد الشام ونتائجها

٦٣٥-٦٤٢هـ / ١٢٣٧-١٢٤٤ م

انتهت وفاة الأشرف مرحلة من العلاقات بين أبناء العادل الثلاثة الكبار - الكامل والمعظم والأشرف - تميزت بالشد والجذب ، بالاتفاق والاختلاف ، مرحلة نتج عن الاتفاق بينهم فشل الحملة الصليبية الخامسة ، ونتج عن الاختلاف فقدان بيت المقدس لحساب الصليبيين دون قتال ، فضلا عن انه فتح أعين الخوارزمية على بلاد الشام التي ستدفع ثمنها باهظا نتيجة غاراتهم القادمة . ولم يقدر لبلاد الشام والدولة الأيوبية عموما الوحدة الكاملة بسبب الخلافات بين أبناء العادل الثلاثة ، وجاءت وفاة الأشرف أيذانا ببدء فترة أخرى أشد قلقا واضطرابا ، هي فترة الحرب الأهلية ، حيث انتشرت الحروب والأحقاد على نطاق واسع بين الأيوبيين في بلاد الشام ، واستنزفت تلك الحروب الكثير من الطاقات ، والقدرات المادية والبشرية التي كان يمكن ادخالها لمواجهة الصليبيين في بلاد الشام والاستعداد لمرحلة زحف المغول .

وعلى أية حال فعينما توفي الأشرف سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧ م ، استولى أخوه الصالح عماد الدين اسماعيل على دمشق وبعليك وجميع ما يتصل بدمشق من البلاد ، وأرسل ابنه إلى الشرق ليتسلم من نواب الأشرف سنجار ونصيبين والخابور ، وبعث إلى المجاهد صاحب حمص والمظفر صاحب حماه وأهل حلب يطلب استمرار الحلف الذي أبرمه الأشرف معهم قبيل وفاته ، فوافق صاحب حمص والحلبيون على طلبه ، وامتنع المظفر صاحب حماه وأعلن انديازه لخاله السلطان الكامل ^(١) . وقد اتخذ المظفر من

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٥ ب ؛ الاصفهاني :

صاحب حمص ذريعة للانسحاب من الحلف فارسل اليه يقول : " اني لا أجيب
الا بشرط أن تعطيني سلمية وقلعة شميمش " لعلمه ان المجاهد لن
يذعن لطلبه ، وارسل المظفر الى السلطان الكامل يعلن انضمامه اليه
ويعتذر عن تحالفه السابق مع الاشرف وانه لم يفعل ذلك الا مكرها
، فقبل الكامل عذره ووعد به بانتزاع سلمية وقلعتها من المجاهد وتسليمها
اليه ، وقد ارسل الحلبيون وفدا الى حماة بزعامة المؤرخ كمال الدين
ابن العديم لمحاولة التوفيق بين المظفر والمجاهد صاحب حمص فاشتط
المظفر في مطالبه ، وفشلت جهود ابن العديم في اقناعه بالانضمام
لتحالف بلاد الشام ضد الكامل (١) .

وتواترت الانباء بعزم الكامل على المسير الى بلاد الشام للاستيلاء
عليها وشرع الصالح اسماعيل في تحصين دمشق ، والاستعداد للحصار
بتخزين المؤن والاقوات داخل المدينة ، وأمر جميع العساكر بالدخول
الى دمشق ، وقبض على بعض انصار الكامل داخل دمشق وصادر ممتلكاتهم ،
وأمر سكان الاحياء الواقعة خارج الاسوار باخلائها ، وقطع الجسور
المنصوبة على فروع بردى وقنواته . و أرسل المجاهد صاحب حمص
ابنه ابراهيم نجدة للصالح اسماعيل ، وارسل الصالح اسماعيل يطلب النجدة
من سلاجقة الروم ، كما وصلت نجدة كبيرة من حلب ، وانضم اليه عز الدين ايبك

== البستان الجامع ورقة ٢٠٤ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٠٣ ؛
ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٤٨ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٥٦ .
(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٣٣-٢٣٥ ؛ وانظر ايضا تاريخ
ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٠٣-٤٠٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٥ ص ١٤٨-١٥٠ .

صاحب صرخد برجاله (١) .

سار السلطان الكامل نحو دمشق ومعه ابن اخيه الناصر داود
الذي اعتقد بأن عمه سوف يسلم له دمشق ، وبعث الناصر داود الى
نائب الاشرف بقلعة عجلون يطلب تسليمها اليه فاجابه الى ذلك مشروطا
مبلغا من المال ، وتسلمها الناصر ولم يعارضه عمه الكامل حتى لا يثير الشك
في نفسه قبل الاستيلاء على دمشق ، ووصلا الى دمشق وضربا الحصار
حولها في ٢٠ ربيع الاول ٦٣٥هـ / ١٠ ديسمبر ١٢٣٧م (٢) .

وقد اتبع الصالح اسماعيل سياسة الارض المحروقة خارج دمشق
حتى لا يستفيد منها الكامل وجيوشه ، فأمر بحرق الخانات والطواحين
خارج دمشق ، وترتب على ذلك ، لجوء اعداد كبيرة من سكان الاحياء
الخارجية الى داخل المدينة حيث اكتظت بهم الازقة والطرقات ، حتى
اضحى فرسان الصالح وحلفاؤه يدوسون على امعة اللاجئين في الطرق
وليمن في وسع اصحابها منعهم ، وانتشر التخريب خارج دمشق ، فدمرت
البساتين والدور والاسواق حتى غدت قاعا صفصفا (٣) . وعت الفوضى

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٥ ب - ٢٣٦ أ ؛ الاصفهاني :

البستان الجامع ورقة ٢٠٤ - ٢٠٥ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة

٤٠٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٥١ ؛ سبط ابن الجوزي :

مرآة الزمان ج٨ ص ٧١٦ - ٧١٧ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٠٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج٥ ص ١٥١ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٦ أ ب ؛ الاصفهاني : البستان

الجامع ورقة ٢٠٥ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٠٥ - ٤٠٦ ؛

ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٥١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة

الزمان ج٨ ص ٧١٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٢٤ -

٣٢٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج٣ ص ١٤٨ .

الشاملة دمشق وضواحيها " وصار كل من له غرض مع احد وهو غائب خرج الى داره ، فاخربها وربما أحرقها " (١) .

وفي تلك الاثناء بعث صاحب حمص بنجدة الى دمشق ، فقبض عسكر الكامل على نحو خمسين رجلا من افرادها ، فامر الكامل بشنقهم بين البساتين نكابة في صاحب حمص (٢) . واستمر القتال عدة أيام ثم خرج الدمشقيون الى خارج الاسوار ونشبت معركة مع بعض عساكر الكامل انتصر فيها الدمشقيون واسروا بعض الجنود وعادوا الى دمشق (٣) .

وظل القتال سجالا بين الفريقين رغم حلول فصل الشتاء ، وفي اليوم الاول من جمادى الاولى ١٨/٥٦٣٥ هـ / ١٨ يناير ١٢٣٨ م شن الناصر داود هجوما على دمشق من جهة باب توما - احد ابواب دمشق - وتقدم بقواته حتى اقترب من الباب ، ووصلت سهام انصاره الى داخل دمشق حتى اوشك على اقتحام المدينة ، غير ان عمه الكامل اصدر امره اليه بوقف القتال والانسحاب الى الخلف (٤) . وهذا يدل على ان الكامل لم يكن صادقا في وعده للناصر بتسليمه دمشق ، فمنعه من اقتحامها حتى لا يصبح له الحق في دمشق باعتباره الفاتح لها .

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٦ ب ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٥ ب .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٦ ب ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٥ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لائحة

٤٠٦ - ٤٠٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٥١ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٦ ب ؛ البستان الجامع ورقة ٢٠٦ أ .

(٤) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٧ أ ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٦ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لائحة ٤٠٦ ؛ ابن

واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٥١ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٠٧ .

وفي اليوم التالي لمحاولة الناصر داود خرج الصالح اسماعيل مع بعض اعوانه ، واضرموا النيران في بقية الاحياء الواقعة خارج دمشق ، واحترقت بعض الدور بمن فيها ، وعم الذعر مدينة دمشق وارتفعت الاسعار داخل المدينة ، ومن الغريب ان غرارة القمح كانت تُباع بخمسة وعشرين درهما وتُطحن بثلاثين درهما بسبب احراق الطواحين ^(١) .

وحينما اشتدت الضائقة بدمشق وأوشكت على السقوط ، ارسل الصالح اسماعيل الى اخيه الكامل يقول : " متى فتحتها عنوة وقهرًا رميت النار في اربع جوانبها فاحرقتها جميعا ولا لي ولا لك " ^(٢) وكان الكامل يدرك جدية تهديد اخيه الصالح اسماعيل لما يعرفه عنه من الطيش وشدة التهور ، فاذعن لوساطة مبعوث الخليفة العباسي الذي كان قد حضر الى دمشق ، وسلم الصالح اسماعيل دمشق الى اخيه الكامل في ١٠ جمادى الاولى ٦٣٥هـ / ٢٧ يناير ١٢٣٨ م وعوضه عنها بعليك والبقاع فسار اسماعيل اليها وتسلمها ^(٣) .

ولم ينص الكامل موقف المجاهد صاحب حمص فأرسل اثناء حصار دمشق الى المظفر توقيعا باستعادة سلمية من المجاهد ، فتسلمها ^(٤) ،

-
- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٧ أ ب ؛ الاصفهاني :
البيستان الجامع ورقة ٢٠٦ ب - ٢٠٧ أ .
- (٢) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٢٥ .
- (٣) ابن ايبك : درر التيجان مخطوط حوادث ٦٣٥هـ ؛ العليني :
المعتبر في انباء من غمير ورقة ٧٥ أ ب ؛ تاريخ ابن الجزرى لوحة
٣٣٨ ؛ الأهدل : غربال الزمان ورقة ١٥٠ ب ؛ جرجيس ابن
العميد : أخبار الايوبيين ص ١٦٣ ؛ الصفدى : امراء دمشق في
الاسلام ص ٩ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهريّة القسم الاول
ص ٩٥ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٥٢ .

ولم يكتف الكامل بذلك بل قرر القضاء على مملكة حمص ، بسبب الدور الذي لعبه المجاهد في تأليب بلاد الشام ضده ، فأمر عسكره بالزحف على حمص كما أمر المظفر صاحب حماه بالمسير قبله اليها ، فسار الأخير بعسكر حماه نحوها وعسكر على الرستن ^(١) منظرًا وصول الكامل بنفسه ^(٢) .

لكن القدر لم يمهل السلطان الكامل في إكمال وحدة مصر والشام إذ أصيب بالزكام بعد استيلائه على دمشق واشتد به المرض ولم يليق أن توفي في رجب ٦٣٥هـ مارس ١٢٣٨م ودفن بدمشق وعمره نحو اثنتي عشرة سنة ^(٣) .

وحيثما توفي السلطان الكامل ، اجتمع امرأوه وقادة عسكره بدمشق وعلى رأسهم أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ^(٤) . وتشاوروا فيما بينهم ، واستقر رأيهم أخيرا على أخذ القسَم من الجنود للسلطان الجديد ، العادل بن الكامل . الذي استنابه والده بمصر واتفقوا على اختيار الجواد

(١) الرستن ، بلدة قديمة تقع على نهر العاصي في منتصف الطريق بين

حمص وحماه ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٧ ب ؛ الاصفهاني : البستان

الجامع ورقة ٢٠٧ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٤ لوحة ٤٠٩ ؛ ابن واصل

: مفرج الكروب ج ٥ ص ١٥٢-١٥٣ .

(٣) ابن واصل ؛ مفرج الكروب ج ٥ ص ١٥٣-١٥٤ ؛ سبط ابن الجوزي :

مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٠٧ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١ ص ١٩٤ ؛

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٩ ؛ ابن الفوطي : الحوادث

الجامعة ص ١٠٧-١٠٨ .

(٤) ينتمي أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه الى أسرة

فارسية متصوفة ، وكانوا فقهاء شافعية وهاجر فرع من هذه الاسرة الى مصر وتمتعوا بنفوذ كبير لدى السلطان الكامل وأولاده - وكانوا أربعة أخوة

يونس بن مودود بن العادل نائبا عن ابن عمه بدمشق ، وصرفوا النظر
عن الناصر داود الذى وعده الكامل قبل موته باعادة دمشق اليه ، وذلك
خوفا من استبداده بالملك ، وتهديد ابن سيدهم السلطان العادل الثاني (١)
ويبدو أنهم كانوا قد لمسوا عزم الكامل - اثناء حصار دمشق - على عدم تنفيذ
وعده له . ويذكر المؤرخون ان الناصر داود لم ينفق الاموال لاستمالة
الامراء وقادة العساكر في الوقت الذى انفق فيه الجواد يونس ستمائة الف
دينار وخمسة الاف خلعة على كبار الامراء والقادة لاستمالتهم الى جانبه (٢)
وبعد اختيار الجواد نائبا بدمشق ، أرسل كبار القادة الى الناصر داود يأمرونه
بمغادرة دمشق ، لكن العامة التفت حوله حين خروجه من دمشق وهتفوا باسمه ،
وأعطوا رفضهم لخروجه فجاء أحد الامراء بانصاره ، وفرقوا المتظاهرين وضربوهم
بالدبابيس ، وأقام الناصر باحدى ضواحي دمشق عدة أيام ، وحينما عزم امرا

== وهم ، فخر الدين ، وعاد الدين ، ومعين الدين ، وكمال الدين ،
انظر المقرئى ، الخطط ج٢ ص ٣٣-٣٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٤ ص ٩١ حاشية رقم (٣) .

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٨ ب ؛ الاصفهاني : البستان
الجامع ورقة ٢٠٩ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٧١ ب ؛ تاريخ
ابن الفرات ج٦ لوحة ٤١٨ ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وهكا
والشام ورقة ١١٤ ب ؛ الديري : الجدول الصفي من البحر السوفي
ورقة ٢١٩ أ ب ، ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٦١ ، المقرئى :
السلوك ج١ ص ٢٦١ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٨ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة
الزمان ج٨ ص ٧٠٧ - ٧٠٨ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٢٨ -
٣٢٩ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٧٢-٢٧٣ ؛ ابن كثير : البداية
والنهاية ج١٣ ص ١٥٠ .

دمشق على القبض عليه رحل نحو عجلون وتحصن بها (١) .

وأقام الجواد يونس بدمشق وتظاهر بأنه نائب عن ابن عمه العادل ، وتوجهت غالبية عساكر الكامل فائدة الى مصر ، وبقي لدى الجواد بعض العسكر بقيادة عماد الدين بن شيخ الشيخ لحماية دمشق من الناصر داود ، إضافة الى المماليك الاشرفية - اتباع الملك الأشرف بن العادل - وكانوا يعتبرون شوكة قوية بزعامة الامير عز الدين ايبك الأسمر الأشرفي (٢) .

أما الناصر داود ، فقد سار من عجلون واستولى على غزة وبعض الساحل الذي كان بيد السلطان الكامل ، وجند اعدادا كبيرة من العرب وغيرهم ، وأقام بغزة ، وارسل الى ابن عمه العادل بن الكامل بمصر طالبا اليه تسليم دمشق ليصبح نائبه بها بدلا من الجواد ، وترددت الرسل بينهما ، ولم يستجب العادل لمطالب الناصر داود (٣) .

وخرج الجواد من دمشق لمواجهة الناصر داود ، وتمكن من خداعه حينما طلب من المماليك الاشرفية استدراجه بعيدا عن عساكره وقال لهم : " كَاتَبُوا النَّاصِرَ وَأَطِيعُوهُ ، فَكَاتَبُوهُ ، وَأَطَاعُوهُ وَاغْتَرِبَهُمْ ، وَسَاقَ مِنْ غَزَّةِ فِي سَبْعِمِائَةِ فَارَسٍ إِلَى نَابِلُسَ بِأَثْقَالِهِ وَخَزَائِنِهِ وَأَمْوَالِهِ وَكَانَتْ عَلَى سَبْعِمِائَةِ جَمَلٍ . . . وَتَرَكَ الْعَسَاكِرَ مَقْطُوعَةً خَلْفَهُ " (٤) والتقى الجواد بالناصر في المنطقة بين

- (١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٧١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٠٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠٤ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ١١٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٧٣ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ١٧٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٧٥ .
- (٤) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٣٧ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٠٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٢٩ .

نابلس وجنين في ذى الحجة ٦٣٥هـ / يولييه ١٢٣٨م ، حيث دارت المعركة وهزم الناصر هزيمة شنيعة ، وغمم الجواد وجيشه جميع اموال الناصر داود وخزائنه التي كانت معه ، وكانت هزيمة الناصر هذه ساحقة حقاً ، اذ بات - بعد أن فقد امواله الضخمة التي ورثها عن ابيه - عاجزاً عن تجنيد عساكر جديدة لأن ذلك يتطلب الكثير من الأموال اللازمة لاستمالة قادة وعساكر الدولة الأيوبية ، في الوقت الذي ازدادت فيه قوة الجواد واصحابه بطرازه من غنائم وفيه ، واستولى الجواد على نابلس وهرب الناصر الى الكرك ، وغادر عماد الدين بن شيخ الشيوخ ببقية عساكر مصر الى القاهرة بعد سحق قوات الناصر وزوال خطره عن دمشق (١) .

وحينما بلغ السلطان العادل بن الكامل نبأ هزيمة الناصر داود ، خشي أن يغري ذلك الجواد بالاستيلاء على بلاد الشام فأرسل اليه يأمره بالرجوع الى دمشق ورد بلاد الناصر التي استولى عليها بعد المعركة اليه ، فنفذ الجواد أمر العادل على مضى وعاد الى دمشق وأخذ يتطلع الى الاستقلال بها (٢) .

اما عن الموقف في شمال بلاد الشام بعد وفاة السلطان الكامل مباشرة ، فقد كان اشد ملوك الشام خوفاً وجزعاً من السلطان الكامل هو المجاهد صاحب حمص الذي أيقن بزوال ملكته بعد سقوط دمشق بيد السلطان ، وفجأة

-
- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٨ ب - ٢٣٩ أ ، الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١٠ أ ، تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٢٣٧ ؛ ابن واصل : مغز الكروب ج٥ ص ١٩١-١٩٣ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٠٨-٧٠٩ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٦٢-١٦٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٢٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٠٥ ؛ الكتبي : قوات الوفيات ج١ ص ٤٢٣ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٣٨-٤٣٩ ؛ ابن واصل : مغز الكروب ج٥ ص ١٩٣ .

وصل اليه نبأ وفاة الكامل على جناح طائر ، فانقلب خوفه الى سرور بالغ ،
ونزل الى الميدان ، وعمره يناهز السبعين عاما ، ولعب الكرة مع اولاده ابتهاجا
بموت عدوه وشرع في شن الغارات على حماه وبلادها ، حيث كان صاحبها
المظفر قد عسكر على الرستن منتظرا وصول خاله الكامل لشن الهجوم المشترك
على حمص ، فانقلبت خطته رأسا على عقب وعاد الى حماه خائفا يترقب .^(١)

وبعث المجاهد بنوابه الى سلمية واستعادها من المظفر بعد أن
فقدها لحسابه اثناء حصار الكامل لدمشق . وقد حاول الاستيلاء على حماه
فقطع القناة التي يصل منها الماء الى بساتينها وخربت بسبب ذلك بساتين
كثيرة . وعهد المجاهد الى محاولة طموحه للاستيلاء على حماه عن طريق
سد مجرى نهر العاصي حين خروجه من بحيرة حمص ، وكان هدفه من
ذلك أن يجف الوادي الذي تسلكه مياه النهر ، وبالتالي يستطيع الاستيلاء على
حماه نظرا لأنه لا يوجد للمدينة سور على الضفة النهر الذي تحمي مياهه
جانب حماه المطل عليه ، غير أن محاولة المجاهد فشلت ، فبعد يومين
فقط من سد مخرج مياه النهر ، تراكت المياه خلف السد وجرفته وعادت
المياه الى المجرى ، وعندئذ عمد المجاهد الى الاغارة على ريف حماه ونهب
قراها وكان ذلك في سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م .^(٢)

(١) تاريخ ابن الفرات : ج ٦ لوحة ٤٤٣ - ٤٢٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج ٥ ص ١٧٦ - ١٧٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٣٠ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالح و رقة ٢٣٩ أ ب ؛ الاصفهاني : البستان

الجامع و رقة ٢١٠ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٢٣ - ٤٢٥ ؛

الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٥ و رقة ٢٩ ب ؛ الخطيب العمري : الدر

المكون و رقة ١٢٧ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

اما اهل حلب فلم يغفروا للمظفر انحيازه الى السلطان الكامل ، فبعد وفاته ، امرت صاحبة ضيفة خاتون - الوصية على ابن ابنها الناصر يوسف - عسكر حلب بشن الهجوم على مملكة حماه ، و امرتهم بالبدء أولاً بالاستيلاء على قلعة المعرة وقراها ثم الزحف على حماه وحصارها ، وسار العسكر الحلبى الى المعرة واستولى على حواصلها ثم حاصر قلعتها التي بناها المظفر ، وأرسل الاخير مبعوثا الى حلب ليستعطف خالته ضيفة خاتون ، فلم يؤذنه له بمقابلتها ، ونصب الحلبيون المنجنيقات على قلعة المعرة وقذفوها بالعجارة حتى استسلمت في اواخر شعبان ٦٣٥هـ /ابريل ١٢٣٨م^(١) .

واثناء حصار الحلبيين للمعرة ، تمكن المظفر من انزال الهريمة بفرقة من عسكر حلب عند شبيث ، وأسر منهم جماعة^(٢) ، ثم تقدم الحلبيون بعد الاستيلاء على المعرة الى شيزر ثم شنوا الغارات على قرى حماة ومزارعها واحرقوا اعنابها واشجارها ، واستمرت تلك الغارات طوال شهر رمضان ٦٣٥هـ / مايو ١٢٣٨م^(٣) . وفي شوال تقدم العسكر الحلبى الى حماه نفسها وحاصرها ، واستمرت الحرب سجالا بين الحلبيين وحماه حتى اوائل سنة ٦٣٦هـ / اغسطس ١٢٣٨م ، حين ضجر الحلبيون من طول الحصار ، لأن صاحبة خاتون امرتهم بعدم نصب المنجنيقات على حماه لانها لم تكن تهدف من حصار حماة الى ازالة حكم ابن اختها المظفر ، وانما كان هدفها فقط معاقبته على تأييده للسلطان الكامل واجباره على عدم المطالبة بالمعرة مرة أخرى ، وانسحب

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٩ ب ؛ الاصفهاني : البستان

الجامع ورقة ٢١٠ ب - ٢١١ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٢٦ ؛

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٩ ب ؛ الاصفهاني : البستان

الجامع ورقة ٢١١ أ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٩ ب ؛ الاصفهاني : البستان

الجامع ورقة ٢١١ أ ب .

الجيش الحلبى عائدا الى بلاده في اوائل سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م^(١). وهكذا
فقد المظفر سلمية لحساب المجاهد صاحب حمص وفقد المعرفة لحساب حلب ،
ولم يبق بيده خارج حماه سوى بارين التي خشي ان يصيبها المصير
نفسه فأمر بهدمها^(٢).

وحينما تحقق السلطان العادل الثاني صاحب مصر في سنة ٦٣٦هـ /
١٢٣٨م من تصميم ابن عمه الجواد^{عليه السلام} الاستقلال بدمشق والانفراد بحكمها
، احضر ابنا^١ شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه الاربعة وهم فخر الدين
وعاد الدين ، ومعين الدين ، وكمال الدين وقال لهم : " انتم ضيعتم على
ملك دمشق فان ابي الكامل فتحها وتوفي وهو مالکها ، فسلتم دمشق وخزائن
ابي الى الجواد ، فتغلب على دمشق وضيع الخزائن ، وما أعراف عود دمشق
الي وانتزاعها من يد الجواد الا منكم "^(٣) . ولم يكن بمقدور عماد الدين
ابن الشيخ الا الاستجابة لطلب العادل ولا سيما وانه المسئول الاول عن اختيار
الجواد نائبا بدمشق بعد موت الكامل ، فتعهد بالمضي الى الشام لاعادة

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٩ ب ؛ الاصفهاني : البستان
الجامع ورقة ٢١١ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٢٧ ؛ ابن العديم :
زبدة الحلب ج٣ ص ٢٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٨٢
ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ١٦٣ ؛ ابن نصر الله
: شفاء القلوب ص ٢٠٩ - ٢١٠ ؛ الغزى : نهر الذهب ج٣ ص ١١٦ ؛
الطباخ : اعلام النبلاء ج٢ ص ٢٥٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٩٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص
١٦٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص
١٩٨-١٩٩ ، انظر ايضا : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان : ج٨
ص ٦٢١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣١٣ .

دمشق الى حكم العادل المباشر^(١).

وحينما وصل عماد الدين بن الشيخ الى دمشق استقبله الجواد ،
وانزله في القلعة فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق الى العادل وحذره من
مغبة العصيان لأن ذلك سيؤدى الى قيام عساكر مصر بالمسير اليه وانتزاعها
منه واعتقاله ، وعرض عليه اقطاعات واسعة بمصر عوضا عن دمشق ، فلم يعط
الجواد ردا واضحا واخذ في التسويف والمماطلة^(٢) . وعندئذ استدعى
عماد الدين بن الشيخ كبار موظفي دمشق وولاتها وقال لهم : " قد عزل
السلطان الملك العادل الجواد عن نيابة دمشق فلا تدفعوا اليه مالا ولا
تقبلوا له قولا " ^(٣).

ولما أيقن الجواد بتصميم العادل الثاني على انتزاع دمشق منه ،
وتأكد له استحالة الوقوف في وجهه ، أرسل مبعوثا الى الصالح أيوب بالبلاد
الشرقية يطلب منه ان يأخذ دمشق على أن يعوضه عنها بسنجار^(٤) والرقعة^(٥)
وعانة^(٦) ، وقد قبل الصالح أيوب عرض الجواد الذي قطع الخطبة

- (١) تاريخ ابن الفرات : ج ٦ لوحة ٤٥٩ - ٤٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب ج ٥ ص ١٩٩ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢١
؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٧٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم
الزاهرة ج ٦ ص ٣١٣ .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٥ ب ؛ تاريخ ابن الفرات
ج ٦ لوحة ٤٦٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٩٩ ؛
المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٧٦ .
- (٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٧٦ .
- (٤) سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة تبعد عن الموصل مسيرة
ثلاثة ايام ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٥) الرقعة : مدينة في الجزيرة تقع على الضفة الشرقية للفرات بينها وبين
حران ثلاثة ايام ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٦) عانة : بلد بالجزيرة على الفرات تقع بين الرقة وهيت : انظر ياقوت
معجم البلدان .

للعادل الثاني بدمشق وخطب للصالح ايوب وضرب السكة باسمه . وسار
الصالح ايوب قاصدا دمشق ، ولما كان الجواد يعرف مدى ثقة الصالح
ايوب في عماد الدين بن الشيخ ، شأنه في ذلك شأن والده الكامل ، وأنه
- أي عماد الدين - ربما يفسد ما بين الجواد والصالح ايوب من صلات ،
لذلك دبر مؤامرة راح ضحيتها عماد الدين بن الشيخ في جمادى الأولى
٦٣٦هـ / يناير ١٢٣٩م (١) .

اما الصالح ايوب فقد عهد الى ابنه تورانشاه بحكم بلاد الشرق ،
وسار هو قاصدا دمشق ، كما ارسل الى المظفر صاحب حماه يدعو الى لقاءه .
وقد سُر المظفر بتلك الدعوة لرغبته الشديدة في الانتقام من المجاهد صاحب
حمص ، فسار مع وزيره سيف الدين علي بن الهذباتي ، ولحقا بالصالح
ايوب وهو في طريقه الى دمشق . ودخل الصالح ايوب دمشق واستقر بقلعتها
في جمادى الآخرة ٦٣٦هـ / فبراير ١٢٣٩م ، لكن الجواد ندم على تنازله
عن دمشق وخشي أن لا يفي له ابن عمه بما وعده به من البلاد الشرقية
فأخذ يعمل سرا على استمالة الجنود الى جانبه ، ولا سيما وأن الصالح ايوب
قدم الى دمشق في قلة من العساكر ، وكادت تقع الفتنة داخلها لولا وساطة
المظفر صاحب حماه الذي أقتنع الجواد بحسن نية الصالح ايوب ، وضمن له
الوفاء بما شرطه له ، وعندئذ غادر الجواد دمشق الى الشرق ، وتسلم

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٦٠ - ٤٦٣ ؛ الجنابي : البحر الزاخر
ج٢ ورقة ٢٠ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٩٩ - ٢٠٢ ؛
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٢١ - ٦٢٣ ؛ المقرئ :
السلوك ج١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ؛ المقرئ : الخطط ج٢ ص ٣٤ ؛
ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٦٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم
الزاهرة ج٦ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

سجنار وغيرها من البلاد التي أعطيت له عوضا عن دمشق (١) .

وبعد ان انفرد الصالح أيوب بحكم دمشق استقر رأيهُ على توطيد علاقته بطوك الشام الأقوياء لكي يضمن مساعدتهم على انتزاع مصر من يد اخيه العادل ، فبعث الى عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك يطلب منه الاتفاق معه ، فقدم الأخير الى دمشق وظهر لنجم الدين أيوب الود والصفاء ، وحلف له على مناصرته وعاد الى بعلبك (٢) . وبعث الصالح أيوب الى عمته ضيفة خاتون - الوصية على ملكة حلب - بأذلا طاعته لها والموافقة على كل ما تريده ، وطلب منها مساعدته على أخذ مصر من أخيه العادل ، فاجابته بعدم التدخل بينه وبين اخيه " وانكما ولدا أخي " ولم تجبه الى ما اقترح (٣) .

أما الناصر داود فحينما بلغه استيلاء الصالح أيوب على دمشق بعث اليه يعرض مساعدته له على اخيه العادل والوقوف الى جانبه لاخذ مصر منه ، وطلب مقابل ذلك تسليم دمشق وما يتبعها من البلاد التي كانت بيد والده المعظم ، فوعده الصالح أيوب بذلك بعد الاستيلاء على مصر ،

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٤١ أ ب ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢١٣ أ ب ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٥ ورقة ٧ أ ب ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٦ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٦٣ - ٤٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ؛ الصفدى : الوافي بالوفيات ج ١٠ ص ٥٥ - ٥٦ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٣ ؛ المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٣٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٠٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٢٠ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٤٥ .

فأصر الناصر على تسليم دمشق مقدما فرفض الصالح أيوب مطالبه (١) .

لذلك قرر الناصر السفر الى مصر للافادة من الخلاف الناشب بين العادل واخيه الصالح ، فاستقبله العادل وانزله بدار الوزارة ، ووعد ان يسترد له دمشق وما يتبعها ، وتم الاتفاق بينهما على محاربة الصالح أيوب (٢) .

وكان العادل الثاني قد أساء السيرة في مصر ، وشغل عن مصالح الدولة باللهو والعبث فاتفق اكثر الامراء بمصر على مراسلة الصالح ايوب ، نظرا لانه الابن الاكبر ، ولما اشتهر به من حسن السيرة ولجدارته بحكم الدولة الأيوبية ، فبعثوا اليه يستدعونه الى مصر ، واخبروه انه بمجرد دخوله ارض مصر سينحاز اليه اكثر عسكرها ، فانزعج العادل ووالدته من ذلك وخافوا من الصالح ايوب خوفا شديدا بسبب ولاء عساكر مصر له (٣) .

وتواترت الرسل من المظفر صاحب حماء الى الصالح ايوب بدمشق يطلب منه القدوم الى حمص للاستيلاء عليها ، وفي الوقت نفسه ظلت الرسل تصله تباعا من مصر تحثه على القدوم اليها ، مما جعله يتحير في اتخاذ قراره هل يقصد مصر أو حمص . واخيرا استقر رأيه على المسير الى مصر لانه اذا ملكها بكل امكاناتها البشرية والمادية سهل عليه بعد ذلك ماسواها (٤) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن دقماق ، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ورقة ٤٤ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢١٤ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٣٤ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧٧ أ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٤٤ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٣ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٠٨ - ٢١٠ ؛ المقرئ : السلوك

أرسل الصالح أيوب قطعة من عسكره بقيادة الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني إلى جينين قبالة الساحل ، فسار الأخير وبصحبه الموءخ المعاصر جمال الدين بن واصل ، وعسكر بفرقة عند بحيرة طبرية حيث بلغه أن جماعة من أمراء مصر انفصلوا عن العادل الثاني وغادروا القاهرة صوب بلاد الشام للانضمام إلى الصالح أيوب . وقد خرج الصالح أيوب من دمشق في رمضان ٦٣٦هـ / مايو ١٢٣٩م بقوة من نحو خمسة آلاف مقاتل وبعض أمراء بني أيوب ، وتقدم إلى نابلس واستولى عليها وعلى الأغوار وأعمال القدس والخليل وبعض الساحل - وجميعها تابعة للناصر داود - ، وولى عليها من قبله وأقام بنابلس ، وذلك حتى يتأكد من صدق نوايا أمراء مصر ، وظلت الرسل والجواسيس تصل إليه تباعا من مصر ، تخبره بميل جندها إليه كما استقبل جميع الأمراء الذين انفصلوا عن أخيه العادل وأمر بعضهم بالمشير مع جزء من عسكره إلى غزة ، ثم أصدر أوامره إلى بقية اتباعه وعساكره بتهيئة العدة والمؤن والمياه استعدادا للرحيل إلى مصر (١) .

وأرسل الصالح أيوب إلى عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك يطلب منه القدوم إليه ليمضي معه إلى مصر ، فتعلل اسماعيل واعتذر وأرسل ابنه المنصور محمود نائبا عنه في الخدمة ، ووعد الصالح أيوب بالقدوم إليه في أقرب فرصة ممكنة ، وكان اسماعيل في حقيقة الأمر يعمل سرا لانتزاع دمشق منه (٢) .

- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧٧ ب ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٨ ورقة ٨ أ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧١٩ - ٧٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢١٠ - ٢١٤ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٨١ - ٢٨٣ ؛ أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٣ - ١٦٤ ؛ الصفدي : أمراء دمشق في الاسلام ص ١٥٠ .
- (٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٨ ورقة ٨ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢١٦ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٢٠ ؛ البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٢ ؛ ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب في معجم الألقاب ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩٢ .

الواقع أنه في الوقت الذي صارت فيه الامور مهياة تماما لاستيلاء الصالح أيوب على مصر، كانت الموءامرات تحاك ضده في دمشق، ولا سيما وأن من أعدائه واكثرهم حنكة ودهاء المجاهد اسد بن شيركوه صاحب حمص وهو ما لم يدرك الصالح ايوب خطورته فقد ذكر سبط ابن الجوزي، انه بينما كان الصالح ايوب مقيما بنابلس في انتظار عمه اسماعيل، كان معه ناصر الدين بن يغمور الذي ارسله اسماعيل صحبة ابنه المنصور محمود وكان ابن يغمور، يجتمع بالامراء سرا لتأليبهم ضد الصالح ايوب "والدسائس تعمل في دمشق" (١).

وظل الصالح أيوب مقيما بنابلس بقية سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م فسي انتظار عمه الصالح اسماعيل وفي تلك الاثناء وصل مبعوث الخليفة العباسي لمحاولة الاصلاح بين الصالح أيوب واخيه العادل وكاد الصلح يتم بين الاخوين، لولا أن الحوادث تطورت بسرعة لصالح عماد الدين اسماعيل والمجاهد صاحب حمص (٢).

فخلال اقامة الصالح ايوب في نابلس، أرسل الى عمه اسماعيل أحد اطباء المخلصين ويدعى "الحكيم سعد الدين الدمشقي" ليستعجله في القدوم للمضي معه الى مصر، وأعطى لسعد الدين قفص حمام من نابلس ليوافيه بتقارير عن خطط اسماعيل، وحينما وصل الحكيم السبعيلك استقبله اسماعيل وأكرمه وأوعز الى أحد اتباعه بتغيير الحمام بحمام من قلعة بعليك دون علم سعد الدين الدمشقي. وشرع الصالح اسماعيل

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٢٠.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢١٨-٢١٩.

في العمل للاستيلاء على دمشق بالتعاون مع صاحب حمص وأخذ يحشد الرجال والمؤمن لذلك ، وحينما تحقق سعد الدين من خطط اسماعيل اخذ في كتابة التقارير بذلك الى الصالح ايوب ، وحينما يضع البطاقة تحت اجنحة الحمام ويطلقها ، يهبط الحمام في ابراجه بقلعة بعلبك ، فيأخذها البراج ويسلمها لاسماعيل ، فيقوم بدوره بتزوير رسالة على لسان سعد الدين الحكيم الى الصالح ايوب يخبره فيها باستمرار اسماعيل على السوء والاخلاص في الطاعة ، وانه في سبيله للقدوم اليه بنابلس ، ويرسل الرسائل مع الحمام الذي قدم به الحكيم حينما وصل الى بعلبك ، وكان اسماعيل يرسل - في الوقت نفسه - الى العادل صاحب مصر يخبره بعزمه الاستيلاء على دمشق ، وأنه سيكون نائبه بها . ونجح الصالح اسماعيل في تضليل الصالح ايوب الذي لم يعد يتلقى من الرسائل سوى ما يبعثها اليه عمه على لسان طبيبته سعد الدين الدمشقي ، واخيرا بعث اسماعيل الى الصالح ايوب يطلب منه ارسال ابنه المنصور بن اسماعيل ليجعله نائبا عنه ببعلبك ويسير هو الى نابلس فخـدع الصالح ايوب وأجابه الى طلبه ، كما ارسل ابنه المفيث عمر بن الصالح ايوب الى دمشق نائبا عنه بها ، فوصل اليها واستقر بقلعتها (١) .

ولم يكن مخلصا في ولائه من ملوك الشام للصالح أيوب غير المظفر صاحب حماه . ولكنه تعرض - بسبب اخلاصه ذلك - لكارثة شنيعة على يد صاحب حمص ، ففي اوائل سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م اتضح للمظفر - بما لا يدع مجالا للشك - اتفاق الصالح اسماعيل والمجاهد على الاستيلاء

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢١٩-٢٢٢ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٢٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٢٦ ؛ ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٦٤ ؛ المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٨٥ .

على دمشق . ولما كان المظفر يعلم انه لا يوجد بدمشق حامية تدافع عنها ، لذلك قرر القيام بالمهمة ، واستقر رأيه ورأى وزيره سيف الدين ابن ابي علي الهذلي - شقيق حسام الدين قائد الصالح أيوب - على ارسال عسكري حماة لحماية دمشق ، ولما كان المظفر يعلم ان طريق عسكري حماة سيكون بالقرب من حمص ، فقد عمد هو وسيف الدين الهذلي الى انتهاج حيلة ساذجة لخداع المجاهد صاحب حمص ، لكي يسمح لعسكري حماة بالمرور عبر اراضيهم الى دمشق ، فاتفقا على ان يوهم سيف الدين اهل حماة ، بأن المظفر قرر تسليم المدينة الى الفرنج ، وان يتظاهر سيف الدين ومعه عسكري حماة بالهجرة منها احتجاجا على هذا الاجراء ، وعندما حدث ذلك خرج اكثر سكان حماة وعلمائها واعيانها وانضموا الى سيف الدين خوفا من الفرنج . وغادر سيف الدين بعسكري حماة ومن تبعه من اهلها ومربحمص وعسكري قرب بحيرتها ، فخرج اليه المجاهد واستقبله وسأله عن سبب خروجه ، فتظاهر سيف الدين بالغضب على المظفر الذي قرر تسليم حماة للفرنج ، وحينئذ ادرك صاحب حمص مغزى الحيلة ، فتظاهر امام سيف الدين بالتعاطف معه وطلب منه الدخول الى حمص بمن معه ليقوم بواجب الضيافة ازاءهم ، ودخل سيف الدين بعسكري حماة وبعض اعيانها الى حمص ، فقبض المجاهد عليهم جميعا وزج بهم في غياهب السجون واستولى على كل ما معهم ، وأخذ من اغنياء حماة اموالا طائلة كفدية لاطلاق سراحهم . ولقد قضت هذه الضريبة الساحقة على قوة المظفر صاحب حماة ولم يعد في وسعه تقديم أى عون للصالح أيوب (١) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٢٢-٢٢٧ ، المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٨٥ - ٢٨٧ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٦٥ .

واغتنم الصالح اسماعيل والمجاهد هذه الفرصة واتفقا على اقتسام البلاد ،وتقدما الى دمشق ووصلا اليها في صفر ٦٣٧هـ/سبتمبر ١٢٣٩م وتسلق جماعة من اتباعهما باب الفراديس - احد ابواب دمشق - بمساعدة جماعة من المتعاونين معهم داخل دمشق ،وكسروا قفل الباب ،ودخلت جيوشهما الى دمشق ،وأمر الصالح اسماعيل باقامة الخطبة للعادل بن الكامل وأعلن أنهنائيه بدمشق ،وقد حاول المغيث عمر بن الصالح ايوب الاعتصام بقلعة دمشق ولكنه عاد وسلم القلعة في اليوم التالي وصعد اسماعيل الى القلعة واعتقل المغيث في احد ابراجها (١) .

اما عن موقف الصالح ايوب بعد سقوط دمشق بيد اعدائه ،فكان قد علم بعد فوات الاوان أن عمه اسماعيل وصاحب حمص قررا المسير الى دمشق ، فامر قائده حسام الدين بن الهذباني بالمضي فورا الى دمشق للدفاع عنها قبل ان يصلها اسماعيل والمجاهد ، فسار حسام الدين مسرعا وصحبه صديقه المؤرخ ابن واصل (٢) . فلما اقترب من دمشق اتاه الخبر بسقوطها ،وادرك حينئذ انه فات الوقت لانقاذها ،ورجع الى الصالح ايوب تاركا خزائن سيده في حراسة جماعة من اصحابه قرب دمشق ،فجاءت فرقة من اتباع الصالح اسماعيل واستولت على اموال الصالح ايوب وعادت الى دمشق ،وحيثما اجتمع حسام الدين بالصالح ايوب عند نهر الأردن جاءتهم الاخبار بسقوط قلعة دمشق ،وعندئذ انفصل عن

-
- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ أب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٩٧ - ٤٩٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٨٨ - ٢٣٠ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٢٤ - ٧٢٦ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٦٩ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٨٧ ؛ الذهبي : المعبر في خبر من غير ج٥ ص ١٥٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

الصالح ايوب جميع من كان معه من امراء بني ايوب كما انفصل عنه معظم
العساكر لأن أهلهم واولادهم في دمشق ، ولا دراكرهم انه لم يعد بمقدور
الصالح ايوب تحقيق النصر في محيط كبير من الاعداء وانضمت معظم تلك
العساكر الى الصالح اسماعيل فازداد بهم قوة ، وضعفت قوة ونفوذ الصالح
أيوب الى حد جعل بعض ممالিকে ينهبون بقية امتعته ويرحلون الى
دمشق ولم يبق معه سوى جماعة قليلة من ممالিকে المخلصين وسار
متجها الى نابلس ، وقد تعرض اثناء مسيره لطمع قطاع الطرق ، حتى
انه لم يصل الى نابلس الا بعد مشقة بالغة (١) .

وأثناء ذلك قدم الناصر داود من مصر ، بعد ان تدهورت العلاقات
بينه وبين ابن عمه العادل ، وحينما وصل الى الكرك بلغه نبأ استيلاء
اسماعيل على دمشق وتفرق عساكر ايوب عنه ، فأرسل اليه يطيب قلبه
ثم قدم بنفسه الى نابلس ، وامر فرقة عسكرية باصطحاب الصالح ايوب الى الكرك
وليس معه سوى ملوكه بيبرس (٢) وجاريتيه شجر الدر ، اما بقية ممالিকে
فقد اعتصموا بقلعة الصلت ، وأذن لقائده حسام الدين الهذباني في

-
- (١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٠٤ - ٥١٠ ، تاريخ الاسلام ج ٥
ورقة ١٠ أ ب ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٣١ - ٢٣٦ ؛
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٢٦ ، المقريزي : السلوك
ج ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٥ ، ابن ايبك
كنز الدرر ج ٧ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية
ج ١٣ ص ١٥٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠٧ .
- (٢) هو غير السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري ، ولا يتفق
الرجلان سوى في الاسم والشهرة وبيبرس هذا من ممالك أيوب
وكان قد خان سيده وانضم الى الخوارزمية فاستدرجه الصالح ايوب
حتى عاد اليه سنة ٦٤٤ هـ واعتقله بقلعة الجبل وكان آخر العهد
به ، انظر مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٤٠ حاشية رقم (١٠) .

العودة إلى دمشق فاعتقله الصالح اسماعيل بقلعتها . وحينما وصل الصالح
ايوب إلى الكرك ، انزله الناصر بقلعتها وبعث إليه يخبره انه فعل ذلك
حفاظا على سلامته من اخيه العادل وعمه اسماعيل ، وظل الصالح
ايوب مقيما بقلعة الكرك كالأسير لدى ابن عمه الناصر داود زهاء سبعة
أشهر من سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ - ١٢٤٠م (١) .

وحينما بلغ العادل الثاني نبأ استيلاء عمه اسماعيل على دمشق
واعتقال اخيه ايوب بالكرك اشتد به الفرح و أمر باقامة الاحتفالات الكبيرة
بهذه المناسبة وأرسل إلى الناصر داود يطلب تسليم اخيه مقابل مبلغ
كبير من المال ، ووعدده بدمشق ، فرفض الناصر إجابة طلبه الا بشرط تسليم
دمشق أولا ، فبعث إليه العادل يتهدد بالخروج لمحاربتة ، فلم يحفل
الناصر بوعده ، كما رفض طلبا آخر للصالح اسماعيل والمجاهد صاحب
حمص بتسليم الصالح ايوب إليهما (٢) .

ومن الواضح ان الناصر داود اراد استخدام الصالح ايوب كورقة
ضغط على العادل الثاني في سبيل تحقيق مآربه المتعلقة باستعادة
مملكة دمشق ، لا سيما وأنه حين ذهب إلى مصر للانضمام إلى العادل ،

- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ ب ؛ الذهبي : تاريخ
الاسلام ج ١٠ ب - ١١ أ ؛ الجنابي : البحر الزاخر
ورقة ٢١ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٣٩ - ٢٤٣ ؛
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٢٦ - ٧٢٧ ؛ ابن
ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ ؛ المقرئ : السلوك
ج ١ ص ٢٨٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٨٩ .
(٢) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٨٠ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص
٧٢٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٠ .

وقت استيلاء ايوب على دمشق ، رأى بعينه مدى تعلق عساكر مصر بالصالح ايوب ونفورهم من اخيه العادل ، لذلك اخذ الناصر يخطط لاستغلال ايوب لتحقيق طموحاته ، التي لا ترضى بأقل من إعادة ملكة والده اليه بدليل فشل مبعوث الخليفة في محاولته الصلح بين اسماعيل والعادل الثاني وبين الناصر داود " الذي كان لا يرضيه الا أن ترد دمشق اليه " (١) .

واتفق المظفر صاحب حماء مع جمال الدين بن مطروح احد انصار ايوب على ان يمضى الى الشرق لاستدعاء الخوارزمية لنصرة ايوب كما حمل ابن مطروح معه رسالة من الناصر داود الى زعيم الخوارزمية تفيد بعزم الناصر على اطلاق سراح ايوب حين وصول الخوارزمية الى الشام ليمك البلاد (٢) .

وغدت مدينة حماء ملجأً لانصار الصالح ايوب ، بسبب ولاء صاحبها المظفر له بحيث كان يقيم الخطبة له بحماه رغم اعتقاله بالكرك ، وظل المظفر يوالي ارسال الرسل الى الخوارزمية لحثهم على نجدة ، والى الناصر داود يطالب باطلاق سراحه ، لكنه - أى المظفر - اضطر اخيرا الى قطع خطبة الصالح ايوب وان ظل على ولائه له ولم يقم الخطبة لاختيه العادل الثاني (٣) .

أما الناصر داود فبعد ان فشلت جهوده في استعادة دمشق من

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٤٨ ؛ وانظر ايضا المقرئى :

السلوك ج١ ص ٢٩٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٧٩ ب ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٥ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٩٢ -

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ؛ المقرئى : السلوك

ج١ ص ٢٩٢ .

الصالح اسماعيل والعاذل الثاني عن طريق المفاوضات ^(١) ، عمد الى استخدام آخر ورقة في يده وهي اطلاق سراح الصالح ايوب مقابل صفقة يعقدها معه ، فاطلق سراحه في اواخر رمضان سنة ٦٣٧هـ / ابريل ١٢٤٠م واستدعاه الى نابلس واجتمع به ، وامر الخطيب بالدعاء له فسي خطبة عيد الفطر ، وأركبه بشعار السلطنة . فلما انتشر خبر اطلاق سراحه انضم اليه ماليك واصحابه الذين تفرقوا بعد دخوله الكرك وقصدوه من كل ناحية ، ثم سار الناصر داود والصالح أيوب الى القدس حيث اجتمعا عند الصخرة المقدسة وتحالفا ، وأقسما اليمين على ان تكون مصر للصالح ايوب وبلاد الشام والمشرق للناصر داود ، وأن يعطي السلطان الصالح ايوب لابن عمه الناصر مائتي الف دينار بعد استعادة مصر . ويعد تأكيد الايمان بينهما سارا الى الكرك وعسكرا بها ^(٢) .

واستشعر العادل الثاني والصالح اسماعيل الخطر الكامن وراء اطلاق سراح نجم الدين ايوب "ورموا الناصر عن قوس واحدة" ^(٣) وتأهب العادل الثاني وخرج من مصر الى بلبس في نى القعدة ٦٣٧هـ / يونية ١٢٤٠م وأرسل الى عمه اسماعيل يأمره بالخروج بعساكر دمشق ويقصد اخاه الصالح ايوب وابن عمه الناصر ، ويتقدم هو بجيش مصر من الجنوب ليطبقا عليهما ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٥٢-٢٥٣ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٩٣ .

(٢) الياقعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٨١ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات

ج٦ لوحة ٥٢١ - ٥٢٢ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ورقة ١١ ب ؛

النويرى : نهاية الارب ج٢٧ ورقة ٦٨ أ ب ؛ الخطيب العمري :

الدر المكون ورقة ١٢٨ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٥٧ -

٢٦٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٢٨ ؛ ابن ايبك :

كنز الدرر ج٧ ص ٣٣٨-٣٣٩ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٩٣ -

٢٩٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٦٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم

الزاهرة ج٦ ص ٣١٠ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٢٨ .

كفكي كماشه ، وينتزعان بلاد الناصر داود . ورحل اسماعيل من دمشق ومعه المنصور ابراهيم صاحب حمص - الذي خلف اياه المجاهد بعد موته - فلما علم الناصر داود والصالح ايوب بقصد عساكر الشام ومصر لهما استبد بهما الخوف والفرح لان الصالح ايوب منذ اطلاق سراحه لم يتلق اية رسائل من قادة مصر فرجعا الى نابلس ، وازمع الناصر داود على العودة الى الكرك ليتحصن بها ، ويعمل على مداراة اسماعيل وابن عمه العادل ريثما تتضح له الامور من جديد (١) .

غير أن الامور تطورت بسرعة لصالح نجم الدين ايوب ، ذلك أن سياسة العادل الثاني الخرقاء أدت الى نفور قادة عساكر مصر ، وتوغرت صدورهم تجاهه ، فاتفق مقدم المماليك الاشرفية عز الدين ايبك الاسمر مع جماعة من كبار ممالك الكامل على خلع العادل والقبض عليه ، فقاموا في احدى ليالي شهر ربيع القعدة ٦٣٢ هـ / يونيو ١٢٤٠ م بالقبض عليه في بلبيس ، وكان المماليك الاشرفية يميلون الى الصالح اسماعيل في الوقت الذي تميل فيه الكاملة الى الصالح ايوب ، ولما كانت الكاملة هي الاكثرية الساحقة بين عساكر مصر فقد طغت كلمتهم ، واتفق الجميع على استدعاء الصالح ايوب لتعيينه سلطانا على مصر ، ووصلت الدعوة الى الصالح ايوب والناصر داود عند جبل الطور في سيناء ، فسارا على عجل الى مصر ، واستقبلتهما عساكر مصر عند بلبيس ، فقبض الصالح على اخيه العادل ،

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٥٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٦٠ - ٢٦١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٢٢٧ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٦٦ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٣٩ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٩٤ ؛ العليني : الانس الجليل ج٢ ص ٥٥ .

وسار في عساكره نحو القاهرة ، وصعد الى قلعة الجبل في اواخر شهر
ذى القعدة سنة ٦٣٧هـ / يونيه ١٢٤٠م وبسط نفوذه على مصر .^(١)

لكن التحالف الذى أبرم بين الصالح ايوب وابن عمه الناصر
داود سرعان ما انفطر عقده بعد فترة قصيرة من استيلاء ايوب على مصر
فقد ذكر المؤرخون ان سبب ذلك يعود الى قيام الناصر بعقد
الاجتماعات السرية مع بعض امراء مصر ، ورفض الصالح ايوب اعطاء قلعة
الشوبك وارسال العساكر معه لاسترداد دمشق فاستوحش من الصالح ايوب
وعاد الى الكرك ولا سيما وانه علم ان الصالح اسماعيل أوعز الى الفرنج بمهاجمة
نابلس . وحينما وصل الناصر الى نابلس ارسل الى الصالح ايوب يطلب المال
الذى وعده به ، فبعثه اليه ، وأخذ الصالح ايوب يتأول في يمينه التسي
أقسمها عند الصخرة المقدسة للناصر داود بأن يسترد له دمشق وغيرها ،
وذكر انه لم يفعل ذلك الا مكرها وهو تحت رحمة الناصر داود^(٢) . وقد
ذكر المؤرخ المعاصر ابن الجوزى ان الصالح ايوب اخبره بالسبب في
عدم وفائه للناصر حيث قال : " حلفني علي شئ ما تقدر ملوك الارض عليه ،
وهو أن اخذ له دمشق وحمص وحماء وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر
وغیرها ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيول
والثياب ، فحلفت من تحت القهر والسيف "^(٣) .

(١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٢٣ - ٥٢٩ ؛ اليافعي : جامع التواريخ
المصرية ورقة ٨١ أ ب - ٨٢ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة
٤٤ ب - ٤٥ أ ؛ تاريخ ابن الجوزى لوحة ٣٤٠ ؛ العليمي : المعتبر
في انباء من غير ورقة ٧٦ أ ؛ ابن واصل : مفج الكروب ج ٥ ص ٢٦٢ -
٢٧٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٤ ؛ المقريزى :
السلوك ج ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة
ج ٦ ص ٣١١ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٢٩ ؛ النويرى : نهاية الارب ج ٢٧ ورقة
٦٩ أ ب ؛ ابن واصل : مفج الكروب ج ٥ ص ٢٧٠ - ٢٧١ ؛ المقريزى :
السلوك ج ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .
(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢٨ .

اما الصالح أيوب فبعد استقراره بالقاهرة ، عمد الى توطيد نفوذه فيها ، وتخلص نهائيا من الممالك الاشرافية . بعد أن لمس عدم اخلاصهم له وميلهم الى عمه الصالح اسماعيل ، وشرع في شراء الممالك الترك ، وبنى لهم قلعة الروضة ، فسموا لذلك بالبحرية ، وازداد بهم قوة وتمكن نفوذه في مصر (١) .

وكان الصالح اسماعيل يدرك تمام الادراك أن ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب لن يغفر له الطعنة التي وجهها اليه في الظهر حينما أوهمه ، أنه يتجهز للمسير اليه لمساعدته في الوقت الذي كان يعمل فيه ضده ، وانقضى على دمشق واستولى عليها ، وكاد يقضي عليه نهائيا . لذلك قرر الصالح اسماعيل المبادرة بالهجوم على مصر قبل ان يتمكن نجم الدين ايوب من توطيد نفوذه فيها ، وأخذ الصالح اسماعيل يلتمس الحلفاء ، فلم يجد غضاضة في الاستعانة بالصليبيين ، فاعطاهم قلعة صفد (٢) وبلادها وقلعة الشقيف (٣) وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها ، وجبل عامله وسائر بلاد الساحل ، مقابل مشاركتهم له في هجومه على مصر ، وبادر بالزحف قاصدا مصر في سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م وأرسل في الوقت نفسه يستعين بحمص وحلب ، فلما وصلتة نجداتهم ، تقدم الى نهر العوجاء في فلسطين ، فعلم أن الناصر داود يعسكر بالبلقاء ، ولما كان الصالح

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٥٦٢ - ٥٦٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب

جده ص ٢٧٤ - ٢٧٧ .

(٢) صفد : اوصفت بلدة متوسطة لها قلعة حصينة تشرف على بحيرة

طبرية في فلسطين ، انظر ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٤٢ -

٢٤٣ .

(٣) الشقيف : قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب يانياس من

ارض دمشق بينها وبين الساحل ، انظر ياقوت معجم البلدان .

اسماعيل يدرك تطلع الناصر الدائم نحو دمشق ، فقد خشي ان يعقبه ويستولي عليها ، لذلك قرر اسماعيل المبادرة بالهجوم على قواته ، ونجح في انزال الهزيمة به ، وانسحب الناصر الى الكرك . وعاد الصالح اسماعيل الى العوجاء وبعث الى الصليبيين يطلب منهم النجدة على ان يعطيهم جميع ما استرده صلاح الدين يوسف منهم ، وحينما بلغ الصالح ايوب حشود عمه والصليبيين ، أرسل العساكر المصرية الى لقائهم ، وحينما التقى الفريقان سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م اظهرت عساكر الشام اصالة معدنها وتمسكها بعقيدتها وشرفها فانحازت طائفة الى عساكر مصر ومالوا جميعا على الصليبيين وسحقوهم وأسروا منهم اعدادا كبيرة ، وبهوء لا بأسرى بنى الصالح ايوب قلعة الروضة والمدارس الصالحة بالقاهرة (١) .

وفي سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م دخل الناصر داود في تحالف الصالح اسماعيل وحمص وحلب ضد الصالح أيوب ، ورد الاخير بارسال قوة عسكرية بقيادة كمال الدين بن شيخ الشيخ لقتال الناصر داود ، الذي استعد لمواجهة ابن الشيخ والتقى به قرب جبل القدس وانزل به الهزيمة وأسره فوبخه واطلقه مع اصحابه ، فعادوا الى القاهرة (٢) . وفي السنة التالية ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م عاود الصالح ايوب محاولة غزو بلاد الشام ، فاراد الخروج

- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٨٥ أ ؛ النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ورقة ٧٢ أ ب ؛ العليمي : تاريخ من ملك مصر وعكا والشام ورقة ١١٥ أ ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١٢٩ أ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٩ ص ٢١٥ ؛ العليمي : الانس الجليل ج ٢ ص ٦٠ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٠٠ - ٣٠١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣٦ - ٧٣٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٤٧ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٠٩ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٤٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٧ .

بنفسه الا انه تراجع عن الخروج على رأس جيشه وعهد مرة أخرى الى كمال الدين بن الشيخ بقيادة حملته على الشام ولكن الحملة فشلت بسبب وفاة كمال الدين بن الشيخ عند وصوله الى غزة (١) .

أدرك الصالح أيوب انه ليس من السهل غزو بلاد الشام بعد تلك الاخفاقات التي تعرض لها ، وبخاصة وأن ملوك الشام جميعا تحالفوا ضده ، ولم يعد معه سوى المظفر صاحب حماه الذي أصيب بالفالج واشتد به المرض (٢) . ويبدو أن الصالح أيوب لم يكن يريد لعلاقته مع عمه الصالح اسماعيل أن تصل الى طريق مسدود ، لأن ابنه المفيث عمر ما زال معتقلا لديه بقلعة دمشق ، ومن الطبيعي ان يخشى على حياته ، لذلك قرر العمل على اطلاق سراحه عن طريق المفاوضات . ففي سنة ١٢٤١هـ / ١٢٤٣م ترددت الرسل بينه وبين عمه اسماعيل ، واستقر الرأي بينهم على ان تكون مملكة دمشق للصالح اسماعيل ، وأن تقام الخطبة والسكّة في بلاد الشام للصالح أيوب ، وأن يطلق اسماعيل سراح المفيث عمر وحسام الدين بن ابي علي الهذباني من الاعتقال ، وجرى الاتفاق أيضا على انتزاع بلاد الناصر داود من يده بحيث يكون بعضها للصالح أيوب والجزء الآخر لعمه اسماعيل (٣) .

- (١) الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١٤٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٤٥ .
- (٢) ابن واصل مفرج الكروب ج٥ ص ٣٢٣ .
- (٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩١ ب ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ص ١٢ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٤١ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٥٢ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٢ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ ؛ المليمي : الانس الجليل ج٢ ص ٦ .

وشرع الصالح اسماعيل في تنفيذ الاتفاق فارسل المنصور طاحب حمص على رأس عسكر دمشق للاستيلاء على عجلون ، وهي من املك الناصر داود ، غير أنه اخفق في الاستيلاء عليها وتكبد امامها خسائر فادحة وأقيمت الخطبة بدمشق وحمص للصالح ايوب ، وأطلق الصالح اسماعيل سراح حسام الدين بن ابي علي الهذلي وبعض اصحابه ، كما اطلق المغيـث عمر بن الصالح ايوب ولكنه استبقاه الى جانبه ريثما يتم توقيع الصلح رسميا وأخذ اليمين من والده نجم الدين ايوب . (١)

واثناء تردد الرسل بين الجانبين ، وقع بيد الصالح اسماعيل رسالة سرية ارسلها ابن أخيه الصالح ايوب الى الخوارزمية يطلب منهم التحرك ضد اعدائه في بلاد الشام ، واخبرهم انه باق على عداوته للصالح اسماعيل ، وان هدفه من المفاوضات إطلاق سراح ابنه المغيـث عمر ، وبعدها سوف يقصد دمشق ويستولى عليها (٢) . وبادر الصالح اسماعيل بقطع المفاوضات ، وأعاد المغيـث الى الاعتقال ، والغي الخطبة للصالح ايوب وسحب قواته من امام عجلون ، وراسل الناصر داود ، وصالحه واتفق معه على قتال الصالح ايوب ، وانضم اليهما صاحب حمص وحلب ، وصارت كلمة ملوك بلاد الشام موحدة ضد الصالح ايوب (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٢٨ - ٣٣٠ ؛ الذهبي :

دول الاسلام ج ٢ ص ١٤٧ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣١٤ ؛

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢١ .

(٢) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ١٢ ب ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج ٥ ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

وحينما ادرك ملوك الشام ان الخوارزمية لا بد وأن يهاجموا بلاد الشام، وأنهم لا يستطيعون مواجهتهم اذا انضموا للصالح ايوب، اتفقوا سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م على مراسلة الصليبيين والتحالف معهم ضد الصالح ايوب وانصاره من الخوارزمية، وسلم الصالح اسماعيل وحلفائه للصليبيين بيت المقدس وطبرية وعسقلان، وكوكب، وضمفوا لهم نصيبا من مصر اذا ملكوها. وكان لا بد ان يفرى هذا التفريط في حقوق المسلمين، الصليبيين فحشدوا قواتهم لمناصرة اسماعيل وبقيّة ملوك الشام، وأرسل الصالح اسماعيل جزءا من عسكره الى غزة فعسكروا بها، وبعث بالمنصور بن المجاهد الى عكا واتفق مع الصليبيين على المضي الى مصر لقتال الصالح أيوب^(١).

وبعث الصالح ايوب الى انصاره الخوارزمية الذين كانوا يقيمون شرق الفرات طالبا منهم القدوم الى الشام لنصرته على عمه الصالح اسماعيل وحلفائه، فاستجاب الخوارزمية لطلبه وعبروا الفرات في اوائل سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ونهبوا كل البلاد التي مروا بها، وهاجموا القدس، واستعادوه من الصليبيين ثم ساروا الى غزة ونزلوا بها، وبعثوا الى الصالح ايوب يخبرونه بقدومهم، ويطلبون منه ارسال عساكر مصر للانضمام اليهم ومقاتلة اعدائه جميعا، فخلع الصالح ايوب على رسلهم وبعث الخلع والتحف لزعمائهم وبعث العساكر اليهم^(٢).

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٢ أ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ورقة ١٣ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٣٢-٣٣٣ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١٥ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٢ ؛ رنسيان : الحرب الصليبية ج٣ ص ٣٩٠ ؛

Campball, G.R. The Crusades p.415.

(٢) ابن واصل ؛ مفرج الكروب ج٥ ص ٣٣٦-٣٣٧ ؛ ابن اييك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٥٣ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١٦-٣١٧ .

وخرجت عساكر الشام من دمشق بقيادة المنصور صاحب حمص وبعث
الناصر داود بقواته واجتمع الجميع بيافا ومعهم الصليبيون بكل قواتهم ،
وساروا الى غزة . وفي جمادى الاولى سنة ٦٤٢هـ / اكتوبر ١٢٤٤ م
التقت الخوارزمية وعساكر مصر مع المنصور صاحب حمص قائد جيوش
ملوك الشام وحلفائهم الصليبيين ، ودارت معركة رهيبة انتصر فيها
الخوارزمية وعساكر مصر انتصارا ساحقا وسحقت قوات الصليبيين ومن معهم
من عساكر دمشق وحمص وغيرها ونهب الخوارزمية اثقالهم واسلحتهم .^(١)

(١) الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ورقة ١٣ ب - ١٤ أ ؛ الخطيب
العمري : الدرالمكتون ورقة ١٣١ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٥ ص ٣٣٦ - ٣٣٩ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص
٧٤٥ - ٧٤٧ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ؛
ابوالفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ج٥
ص ٤١٤ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١٦ - ٣١٧ ؛ ابن
كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٤ - ١٦٥ ؛ الذهبي : دول
الاسلام ج٢ ص ١٤٨ .
وانظر تفصيل معركة غزة في الفصل الثالث ص : ٣١١ - ٣١٧ .

الصالح أيوب وإعادة توحيد الدولة الأيوبية

٦٤٣-٦٤٧هـ / ١٢٤٥-١٢٤٩م

كان من الطبيعي ان يتطلع الصالح أيوب بعد انتصار قواته في معركة غزة الى استثمار ذلك النصر والانتقام من عمه الصالح اسماعيل جزاء خيانه واعتزاده بالصلبيين ، وذلك بالاستيلاء على دمشق وإعادة توحيد الدولة ، فارسل نوابه واستولوا على غزة والسواحل والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار ، وكانت هذه البلاد جميعها في حوزة الناصر داود ، ولم يبق بيده سوى الكرك والبلقاء والصلوات وعجلون ^(١) . وبلغ الصالح أيوب نبأ موت ابنه المغيث في سجنه بقلعة دمشق سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م فاشتد غضبه وحقدته على عمه اسماعيل واتهمه بقتله وصمم على حربه ^(٢) .

وجهز الصالح أيوب قواته وأسند قيادتها الى وزيره معين الدين ابن شيخ الشيخ ، وأمره بالمسير الى الشام ومنحه سلطة مطلقة على قواته وأمواله ، فرحل معين الدين نحو بلاد الشام ، وكتب الصالح أيوب الى الخوارزمية لينضموا الى قواته الزاحفة على دمشق ، فانضموا اليها عند غزة ، وسار معين الدين الى دمشق التي تحصن بها الصالح اسماعيل والمنصور صاحب حمص ، وحاصرت قوات الصالح أيوب دمشق في اواخر سنة ٦٤٢هـ / اوائل سنة ١٢٤٥م ^(٣) .

-
- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٤٠ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١٨ .
- (٢) العليني : المعتبر في انباء من غير ورقة ٧٦ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٤٦ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٥٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٥ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١٨ .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٤١ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٥٤ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣١٩ .

وظل حصار دمشق مستمرا " وعاشت الخوارزمية في اعمال دمشق " (١)
 وقطعوا الطرق المؤدية اليها (٢) . وفي تاسع المحرم ٦٤٣هـ / ٦ يونية
 ١٢٤٥م أمر معين الدين بن الشيخ الجنود بالزحف على دمشق . فتقدموا
 الى اسوارها من جميع الجهات ، وضربوها بالمنجنيات ورموا بالنيران
 في احياء قصر حجاج والشاغور وغيرها داخل دمشق ، فرد الصالح اسماعيل
 باحراق الاحياء الواقعة خارج الاسوار مثل رقاق الرمان والعقيبة ، وقطعت
 قنوات المياه الداخلة الى دمشق ، فاشتدت الضائقة الاقتصادية على أهل
 دمشق وارتفعت الأسعار ، كما انعدم الأمن داخلها وانتشرت بها أعمال
 النهب والسلب وهتك الاعراض ، وجرى بها أعمال في غاية البشاعة والسوء (٣)
 ودام حصار دمشق بضعة أشهر (٤) ، حتى شعر المحصورون داخل
 دمشق بعجزهم عن مواجهة عساكر مصر والخوارزمية لكثرتها ، وقلة عدد
 العساكر المدافعة عن المدينة ، ونفاد ما بقلعة دمشق من المؤن والذخائر
 فضلا عن تخلى الحلبيين عن مساعدتهم (٥) . وقرروا طلب الصلح ، وفي

- (١) المقرئى : السلوك ج١ ص ٣١٩ .
- (٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٥٢ .
- (٣) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٦٢ أب ، ابوشامة : ذيل
 الروضتين ص ١٧٥ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ٣٢٠ ، وقد أورد
 سبط ابن الجوزى مثلا على الفظائع التي جرت ، فذكر ان رجلا كان
 يقطن في أحد الاحياء التي اضرمت فيها النيران وكان له عشر
 بنات ابكار فقال لهن " اخرجن فقلن لا والله ، الحريق ولا
 الفضيحة فاحترقت الدار واحترقن ولم يخرجن " انظر مرآة الزمان
 ج٨ ص ٧٥٢ .
- (٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٦ .
- (٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٤٨ .

ربيع الآخر خرج المنصور صاحب حمص من دمشق واجتمع ببركة خان زعيم الخوارزمية ، واستبشر الناس خيرا بهذا الاجتماع وعاد المنصور الى دمشق (١) . ويبدو أنه اقتنع الصالح اسماعيل بعدم جدوى المقاومة . وعهد اسماعيل الى وزيره امين الدولة السامري بترتيب الصلح مع ابن الشيخ ، فخرج الوزير من دمشق وقابل معين الدين بن الشيخ وتحادث معه ، وتقرر تسليم دمشق ، وان يخرج منها الصالح اسماعيل وصاحب حمص مع اتباعهم دون التعرض لاموالهم ، وأن يعوض الصالح اسماعيل ببلعبك وبصرى واعمالها وجميع بلاد السواد الواقعة نواحي البلقاء ، وان يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة ، وأعطى معين الدين بن الشيخ يمينه على ذلك ، وسار المنصور الى بلاده ، وغادر اسماعيل دمشق الى بلعبك ، ودخل ابن الشيخ بقوات الصالح ايوب الى دمشق في جمادى الاولى ٦٤٣هـ / اكتوبر ١٢٤٥م (٢)

وبعد فترة وجيزة من الاستيلاء على دمشق ، وصل اليها امر الصالح ايوب بعدم اعطاء الأمان لعمه اسماعيل ، وأمر بالقبض عليه وارساله الى مصر ، ولكن بعد فوات الأوان ، وقد انكر الصالح أيوب على قائده معين الدين بن الشيخ اطلاق سراح عمه الصالح اسماعيل "فانه كان لا يرى الا اعداءه حنقا عليه بسبب اتهامه بقتل ولده ولما بدا منه في حقه" (٣).

- (١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٥٣ .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٧ أ ب ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٥ ورقة ١٤ أ ؛ النويري : نهاية الأرب : ج ٢٧ ورقة ٨٩ أ ب ، الخطيب العمري : الدر المكون ورقة ١٣١ ب ؛ الذبيسي : الزهر الزاهر ، ورقة ١٢٠ أ ب ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٥٥ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٥٣ ؛ المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٣٢٠ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٢٠١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٦ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٩ ص ٢١٥-٢١٦ .
- (٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٤٩ .

اما معين الدين فانه قام بعد دخوله دمشق بتنظيم شئونها فاسند الوظائف المهمة الى رجال يثق بهم ^(١) . ولكن ابن الشيخ لم يلبث ان توفي في رمضان ٦٤٣هـ / فبراير ١٢٤٦ م فجعل الصالح ايوب نيابة دمشق الى قائده حسام الدين بن ابي علي الهذباني ، كما أسند ولاية قلعة دمشق الى الطواشي شهاب الدين الكبير ، وتعاون الرجلان في ادارة شئون دمشق حيث " يجتمعان كل يوم ويتفكان على مصالح الدولة " ^(٢) .

وسرعان ما تعرض نفوذ الصالح ايوب في بلاد الشام للخطر من قبل حلفائه بالأمس ، وهم طائفة الخوارزمية ، اذ كانوا يتوقعون الحصول على ثمن كبير من الصالح أيوب جزاء خدماتهم له ، وأن يقطعهم الاقطاعات الواسعة بمصر ، ويقاسمهم بلاد الشام وهو ما لم يحدث كما أن ابن الشيخ حينئذ استولى على دمشق لم يعطهم من الاقطاعات ما يرضيهم ^(٣) . بل انه - كما يذكر المقرئ - منعهم من دخول دمشق ، خوفا من تعرضهم للسكان بالنهب . وأقطعهم ساحل الشام " بمنشير كتبها لهم " ^(٤) . ويبدو أن اقطاعهم الساحل لم يكن يشكل أى اغراء لهم ، وذلك بسبب خضوع اهم مدن ساحل الشام للصليبيين ، وهذا سيدخلهم في نزاع معهم . ولذلك قرر الخوارزمية الانفصال عن الصالح أيوب والعمل ضده ، فنهبوا داريا - وهي احدى قرى غوطة دمشق - وانسحبوا شرقا ^(٥) .

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٥٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٦ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٤٩-٣٥٠ ؛ وانظر ايضا المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٢١-٣٢٢ .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٤٩-٣٥٠ .
- (٤) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٢١ .
- (٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٥٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٦ .

وأخذ الخوارزمية يبحثون عن الحلفاء للعمل ضد الصالح أيوب ،
وكان يلي غزة من قبله ملوكه ركن الدين بيبرس الصالحي ، فراسلوه وعرضوا
عليه ان يميل الى جانبهم، ويكونوا يدا واحده وأن يزوجه امرأة منهم ، ويبدو
انه تعاطف معهم ، غير ان سيده الصالح ايوب استدرجه واستدعاه الى القاهرة
" فاعتله بقلعة الجبل وكان آخر العهد به " (١) . كما راسل الخوارزمية
ايضا الناصر داود صاحب الكرك ، فوجد في محالفتهم فرصة لاستعادة
ما فقده من بلاده لحساب الصالح ايوب ، فاجتمع بهم وتزوج منهم
وتمكن بمساعدتهم من استعادة نابلس والقدس وبيت جبريل والاغوار (٢) .
ولم يكتف الخوارزمية بذلك بل بعثوا الى الصالح اسماعيل العدو اللدود
للسلطان نجم الدين ايوب واستمالوه الى جانبهم " وحلفوا له فقدم عليهم ،
وصاروا معه ، واتفقت كلمة الجميع على محاربة السلطان الملك الصالح نجم
الدين " (٣) كما يقول ابن واصل .

وجه الجميع هجومهم ضد دمشق عاصمة بلاد الشام وفرضوا عليها
الحصار الشديد في ذى القعدة ٦٤٣هـ / ابريل ١٢٤٦م ويظهر أن الموءن
والا قوات كانت قليلة قبل الحصار، ونفذت اثناء الحصار ، وعانت دمشق
من غلاء شديد لم تشهد له مثيلاً طوال عصر الحروب الصليبية ، بحيث
بلغ سعر غرارة القمح الف وستمئة درهم ، وسعر قنطار الدقيق ستمائة درهم ،

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، وانظر ايضا :
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٤ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٥٠ ؛ ابن شداد : الاطلاق
الخطيرة : قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٤٧ ؛ ابن تغرى
بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٥ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٥١ .

وعدمت الأُقوات وانتشرت المجاعة داخل دمشق حتى اكل الناس الميتات
والدم والقُطط والكلاب ، ومات الكثير من الناس على الطرق ، وانتشرت
الروائح الكريهة داخل دمشق بسبب تعمق جثث البشر وضجر من بقي من
السكان على قيد الحياة من غسل وتكفين الموتى ودفنهم ، فأخذوا يحفرون
الآبار ويرمون الجثث فيها ^(١) . ومع ذلك فقد ظلت دمشق صامدة بسبب
صلابة واليها حسام الدين بن أبي علي الهذلي رغم قلة العساكر التي
كانت تحت قيادته ^(٢) .

على أن الصالح أيوب تمكن خلال حصار الخوارزمية لدمشق من
استمالة المنصور إبراهيم صاحب حمص إلى جانبه ، وأوعز إليه بقتالهم .
فشرع المنصور في حشد الجيوش من العرب والتركمان والحلبيين وغيرهم
فلما علم الخوارزمية بحشوده عند حمص ، فكوا حصار دمشق وساروا إلى
حمص لقتاله ومعهم الصالح إسماعيل ، وعسكر الناصر داود ، وخرجت
حامية دمشق في إثرهم وانضمت إلى المنصور ، والتقى الجمعان في
أول سنة ٦٤٤هـ / مايو ١٢٤٦م عند بحيرة حمص حيث دارت معركة
حاسمة ، انتصرت فيها قوات الصالح أيوب وحلفائه على الخوارزمية وحلفائهم ،
وقُتل الكثير منهم كما قُتل زعيمهم بركة خان ، وتفرقوا أيدي سباً ، فمنهم

- (١) الصفدي : تحفة زوى الالباب ورقة ١٦٢ أ ب ؛ الذهبي : تاريخ
الاسلام ج٥ ورقة ١٤ ب - ١٥ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب
ج٥ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص
٧٥٣ - ٧٥٤ ؛ أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر ج٣ ص ١٧٤ ؛
ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٦ - ١٦٧ ؛ ابن تغري بردي
: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٢٥ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٥٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم
الزاهرة ج٦ ص ٣٢٥ .

من ذهب الى المغول وانضموا اليهم ، وطائفة ذهبوا الى مصر ، وقلول أخرى
تفرقوا في بلاد الشام لخدمة ملوكها^(١) وقد ترتب على هزيمة الخوارزمية أن توطدت
العلاقات بين الصالح ايوب وبين المنصور ابراهيم بن المجاهد صاحب حمص ،
كما تحسنت علاقات الصالح ايوب مع أهل حلب " واتفقت كلمة الجميع^(٢) .

ولجأ الصالح اسماعيل - بعد هزيمته مع حلفائه الخوارزمية عند
حمص - الى حلب واستجار بملكها الناصر يوسف بن العزيز ، وبعث الصالح
ايوب الى الناصر يوسف يطلب تسليم عمه اسماعيل فاعتذر ملك حلب عن
تسليمه وجاء في اعتذاره لمبعوث السلطان قوله : " وليس من المروءة اذا
استجار انسان بانسان أن يخفر ذمته ويسلمه الى عدوه " فقبل الصالح
ايوب عذر الناصر يوسف على مضمض وسكت عن طلبه^(٣) .

ولكن الصالح أيوب قرر تجريد عمه اسماعيل من امارته في بلاد
الشام فاوغز الى واليه على دمشق حسام الدين بن ابي علي الهذباني
بذلك ، فسار الاخير بعسكر دمشق وحاصر بعلبك ، فسلم المنصور محمود
ابن اسماعيل بعلبك وبلادها لحسام الدين الذي ولّى عليها ورتب امورها ،
وقيض على المنصور وأخوته وانصارهم وصادر اموالهم وبعث بالجميع الى
القاهرة حيث جرى اعتقالهم بقلعتها^(٤) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٥٤ ، ٣٥٨ - ٣٥٩ ؛ سبط ابن
الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٦٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية
ج ١٣ ص ١٦٧ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٥ ؛ ابن تغري
بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٣) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٦٠ ؛ وانظر ايضا : اليونيني : ذيل مرآة
الزمان ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ؛ المقرئ : السلوك
ج ١ ص ٣٢٤ ؛ ابن ابيك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٥٩ ؛ ابو الفدا : المختصر
ج ٣ ص ١٧٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٧ ؛ ابن تغري
بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٦ .

وبعد أن فرغ الصالح أيوب من عمه اسماعيل التفت الى ابن عمه الناصر داود فارسى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على رأس حملة كبيرة الى الشام لقتال الناصر داود الذى استخدم بعض فلول الخوارزمية ، ووصل الجيش المصرى الى غزة وأوقع بالناصر داود وفلول الخوارزمية في ربيع الاخر ٦٤٤هـ / سبتمبر ١٢٤٦م وارتد الناصر الى الكرك واستولى ابن الشيخ على ما كان بيده من البلاد ، وهي القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء ، وولي فيها من قبله ثم توجه الى الكرك ، ودمر ضياعها ، وحاصرها حصارا شديدا ، حتى قل ما بيد الناصر داود من الاموال والذخائر ، فارسى يطلب الأمان ، فاشترط عليه ابن الشيخ اخراج الخوارزمية الذين استخدمهم ، فبعث بهم اليه ، فجندهم ابن الشيخ في جيشه ، وترك الكرك على حالها ^(١) . ثم سار الى بصرى وهي اخر املاك الصالح اسماعيل في بلاد الشام فحاصرها واستولى عليها ^(٢) .

أما الصالح ايوب فبعد تقليم اظافر خصومه في بلاد الشام ، قرر المسير اليها لتفقد احوالها بنفسه ، فوصل الى دمشق في ذى القعدة ٦٤٤هـ / مارس ١٢٤٧م وزينت المدينة لقدمه وانفق أربعين الف درهم على المدارس والأربطة ، والمصالح العامة ، كما تصدق على الفقراء ، وأحسن الى أهل دمشق وخلق على اعيانها ، ثم ذهب الى بعلبك ورتب امورها وعاد الى دمشق ^(٣) .

(١) ابن واصل : مغز الكروب ج ٥ ص ٣٦٣ - ٣٦٥ ؛ ابو الفدا : المختصر

ج ٣ ص ١٧٥ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ؛ النجوم الزاهرة

ج ٦ ص ٣٢٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٢٥ .

(٣) الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٧٠ ب ؛ سبط ابن الجوزى

مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٦٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٩ ؛

ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٦٠ - ٣٦١ ؛ ابن كثير : البداية

والنهاية ج ١٣ ص ١٦٨ .

وخلال اقامته في بلاد الشام أخضع بعض الحصون الهامة فتسلم حصن
عجلون بعد وفاة صاحبه سيف الدين بن قليج ^(١) . وارسل بعض اعوانه
الى عز الدين ايبك صاحب صرخد يطلب تسليمه اليه ، ولم يسع عز الدين
الا الموافقة فتحنى عن صرخد للصالح ايوب ^(٢) . واخيرا تسلم حصن
الصبيبة ^(٣) من ابن عمه السعيد بن العزيز بن العادل وعوضه عنه
اقطاعا بمصر ^(٤) . ووصل اليه بدمشق الاشرف موسى بن المنصور ، صاحب
حمص ، والمنصور صاحب حماه فاکرمهما وقربهما ^(٥) .

وغادر الصالح ايوب دمشق في اوائل سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م عائدا
الى مصر ومراثيا رجوعه بيت المقدس وأمر بعمارة اسواره ، وأوصى بصرف
كل خراج ولاية القدس على عمارته واذا أعوزته شئ حُمل اليه من مصر ،
وتصدق فيه بالفي دينار وغادره عائدا الى القاهرة ^(٦) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جده ص ٣٦٣ ؛ ابو الفدا : المختصر

ج ٣ ص ١٧٥ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٢٦ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٦٣ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب جده ص ٣٦٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٩ ؛ ابن

كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧١ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٢٦ .

(٣) الصبيبة : اسم لقلعة بانياس وهي من الحصول المنيرة ، وبانياس

بلدة صغيرة تشتهر باشجار الحمضيات وهي على مسافة مرحلة ونصف

من دمشق من جهة الغرب . انظر ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٤٨

- ٢٤٩ ، Lestrangle, Palestine under the Moslems
p.419.

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٦٦ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين

ص ١٧٩ ؛ الذهبي : العبر جده ص ١٨٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم

الزاهرة ج ٦ ص ٣٥٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جده ص ٣٧٣ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٦ .

(٦) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٦٣-٧٦٤ ؛ ابن ايبك : كنز

الدرر ج ٧ ص ٣٦١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧١ ؛

الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٥٠ ؛ الذهبي : العبر جده ص ١٨٢ .

وبعد وصوله الى القاهرة ارسل مبعوثا الى دمشق ومعه قائمة باسماء بعض زعماء واعيان دمشق ، ثبت له ولاءهم لعمه اسماعيل فخشي أن يقوموا بالتآمر لتسليمها اليه مثلما حدث في المرة السابقة ، فاعتقلهم واليه على دمشق وارسلهم اليه ، وفرض عليهم الإقامة الجبرية في مصر ، ولم يعودوا الى الشام الا بعد وفاته (١) .

واضطر السلطان الصالح ايوب للعودة مرة اخرى الى بلاد الشام بسبب تطور الحوادث بين حمص وحلب ، ففي سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م ، جرت مراسلات بين الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص وبين الصالح ايوب وتنازل الأشرف للصالح ايوب عن قلعة شميمش ، وحينما بلغ ذلك اهل حلب ، خشوا أن يطمع ذلك نجم الدين في حلب ، فقرروا مهاجمة حمص والاستيلاء عليها ، فامر الصالح ايوب فخر الدين يوسف بن الشيخ بالسير الى الشام على رأس فرقة من فرسانه ريثما يلحقه هو ببقية الجيش الى دمشق (٢) .

وبينما كانت عساكر الصالح ايوب تزحف على الشام تمكن الحلبيون من الاستيلاء على حمص من الأشرف موسى ، ووصل الصالح ايوب الى دمشق في سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م رغم شدة مرضه ، فاقام بدمشق وبعث بالامير فخر الدين بن الشيخ لاسترداد حمص فنصب عليها المنجنقات ، وضمنها منجنيق ضخمة زنة حجره مئة واربعمائة رطلا ، وكادت حمص تسقط في يد جيش الصالح ايوب ، غير أنه بلغه من الانباء ما يفيد باحتشاد الصليبيين

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥ ؛ ابن شاکر الكتبي : عيون

التواريخ ج ١٥ ورقة ١٠ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص

٧٦٦-٧٦٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٣ ؛ ابن تغري

بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٥٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٧٧-٣٧٨ ؛ المقرئ : السلوك

ج ١ ص ٣٣٠ .

في قبرص ووصول طلائع الحملة الصليبية السابعة الى دمياط ، فاضطر السلطان الصالح ايوب للاستجابة لوساطة مبعوث الخليفة وترك حمص بايــدى الحلبيين وامرجيشه بالعودة الى مصر للدفاع عنها ، وعاد هو محمولا في محفة بسبب ازدياد مرضه (١) .

أما الكرك ، فيبدو ان صاحبها الناصر داود ، توقع أن يشن الصالح ايوب عليه هجوما كبيرا وينتزعها منه بعد فراغه من حمص ، فبعث اليه بدمشق يعرض التنازل عن الكرك ، على أن يعوضه بقلعة الشوبك واقطاعا بمصر ، فوافق الصالح أيوب على هذا العرض وأوفد احد اعوانه لاستلام الكرك غير ان الناصر داود مال بث - حينما بلغه عودة الصالح ايوب الى مصر اضافة الى سماعه بقدوم الحملة الصليبية السابعة - أن تراجع عن عرضه ورفض التنازل عن قلعته المنيعة (٢) .

ولكن تراجع الناصر داود لم يطل في عمر مملكته الصغيرة ، ففي سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ذهب الى حلب ليعقد فيما يبدو تحالفا جديدا ضد

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥ أ ب ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٥ ورقة ١٦ ب ؛ ابن شاکر : عيون التواريخ ج ٥ لوحة ١٠ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٧٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٦ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٧ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٣٠ - ٣٣٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٤ ؛ الذهبي : العبر ج ٥ ص ١٨٨ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ، القسم الاول ص ٨٩ .

(٢) ابن واصل : تاريخ الواصلين ورقة ٣٥٥ أ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٣٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٩ .

الصالح أيوب مع مملكة حلب ، ولا سيما بعد تدهور علاقاتها مع الصالح
أيوب بسبب حمص - وكان قبيل مغادرته الكرك - قد اناب ابنه الأصغر
المعظم شرف الدين عيسى على القلعة ، وترك ابنه الآخرين ، الظاهر
شادي ، والأُمجد حسن ، وهما أكبر سناً ، فاشتد غضبهما وقبضا على
أخييهما المعظم ، واتفقا على تسليم الكرك للسلطان الصالح أيوب ، فسافر
الأُمجد حسن اليه بالمنصوره وعرض عليه استلام الكرك ، فآكرمه السلطان
واعطاه مبلغا كبيرا من المال . وارسل معه خادمه بدر الدين الصوابي
نائباً على الكرك والشوبك ، وغادرا بنا الناصر داود الى القاهرة
فاقطعهما الصالح أيوب اقطاعات كبيرة بمصر ، وقد سر الصالح أيوب سرورا
عظيما بالاستيلاء على الكرك واستكمال وحدة مصر والشام ، وجعل الكرك
مخزنا لأمواله واسلحته وذخائره (١) .

- (١) الصفدى : تحفة زوى الألباب ورقة ١٥٨ أ ؛ الذهبي : تاريخ
الاسلام ج٥ ورقة ١٩ أ ؛ ابن شاکر الكتبي : عيون التواريخ
ج٥ لوحة ١٦ - ١٧ ؛ العليبي : تاريخ من ملك مصر
وعكا والشام والسواحل ورقة ١١٥ ب ؛ العليبي : المعبر في
انباء من غير ورقة ٧٦ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان
ج٨ ص ٧٧٣ ؛ ابوالفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٩ ؛ المقرئى :
السلوك ج١ ص ٣٣٧ - ٣٣٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم
الزاهرة ج٦ ص ٣٦٢ .

بلاد الشام في مفترق الطرق

انهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك ٦٤٧ - ٦٥٧ هـ / ١٢٤٩ - ١٢٥٩ م

عاد السلطان الصالح أيوب من بلاد الشام مريضاً محمولا في محفة لشدة مرضه ، ومع ذلك فقد قام بتنظيم شئون الدفاع عن مصر ازا* حملة لويس التاسع ، غير أن القدر لم يمهلـه فتوفي بالمنصورة في ١٥ شعبان ٦٤٧ هـ / نوفمبر ١٢٤٩ م بعد ان عهد لابنه المعظم تورانشاه بولاية العهد اثنا* مرضه (١) . ونظرا لأن تورانشاه لم يكن موجودا بمصر ، فقد استقر رأى شجر الدر - أرملة الصالح أيوب - وفخر الدين بن الشيخ (قائد الجيش) على كتمان خبر وفاة السلطان ريثما يتم استدعاء السلطان الجديد من حصن كيفا وديار بكر بالجزيرة وشرعت شجر الدر في تقليد توقيـع السلطان على الأوامر والمراسيم مثلما كان يفعلـه قبل موته ، لتوهم عسكره بأنه ما زال حيا ، حتى لا يفت خبر موته في عـضـد المسلمين في وقت يواجهون فيه عدوا عنيدا هو الملك لويـس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية السابعة (٢) .

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٤٥ أ ب ؛ ابن شاکر الکتبی :

عيون التواريخ ج٥ ١٥٦ لوحة ١٧ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان

ج٨ ص ٧٧٥ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٨٣ ؛ المقرئ :

السلوك ج١ ص ٣٣٩ ؛ العيني : السيف المهند ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٤٥ ب ؛ ابن شاکر : عيون

التواريخ ج٥ لوحة ١٧ - ١٨ ؛ ابن ايـبـك : كنز الدرر ج٧ ص ٣٧٠ -

٣٧٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٦٤ ؛ ابوشامة

: ذيل الروضتين ص ١٨٣ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٩ -

١٨٠ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ ابن العبري

تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

وكان الصالح أيوب قد جعل ابنه تورانشاه نائبا عنه بحصن
كيفا على البلاد التابعة له شرق الفرات ، وبعد موت الصالح أيوب بعث
فخر الدين بن الشيخ بالفارس اقطاعي زعيم المماليك البحرية الى الشرق
لاحضار تورانشاه ، وأمر ابن الشيخ في الوقت نفسه باقامة الخطبة على منابر
مصر لتورانشاه ونقش اسمه على السكة بعد ابيه (١) .

غادر تورانشاه حصنه ومعه خمسون فارسا ، وسار متخفيا خوفا من
اعداء والده ، وعلى رأسهم اهل حلب ، الذين ما أن علموا بمسيره حتى
جهزوا كتيبة للقبض عليه ، ولكنه سلك طريق الصحراء ، حتى كاد يموت
مع اصحابه عطشا ، وتمكن بعد مشقة بالغة من الوصول الى دمشق في اواخر
رمضان ٦٤٧هـ / ديسمبر ١٢٤٩م (٢) . وقد استقبله نائب والده
بدمشق الامير جمال الدين بن يغمور ، واخذ له العهد من امراء دمشق
وقادتها وأعلنه سلطانا على مصر والشام ، فقام تورانشاه بصرف اموال قلعة
دمشق على قادة وعساكر دمشق كما امر باحضار اموال اخرى من الكرك
وانفقها في دمشق ، وبعد أن اقام في بلاد الشام بضعة عشرين يوما أقر
ابن يغمور على نيابة دمشق ثم غادرها الى مصر (٣) .

وصل تورانشاه الى مصر في ذي القعدة ٦٤٧هـ / يناير ١٢٥٠م ،
وتسلم مقاليد الحكم من ارملة والده شجر الدر ، وبعد وصوله تمكن المسلمون

(١) المقرئ : المقفى ورقة ٢٨٩ أ .

(٢) المقرئ : المقفى ورقة ٢٨٩ أ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ج ٨
ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٧هـ ؛ المقرئ :
المقفى ورقة ٢٨٩ أ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨
ص ٧٧٥ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٥١ - ٣٥٢ ؛ السبكي :
طبقات الشافعية ج ٨ ص ١٣٥ .

من انزال الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة ، ووقع لويس التاسع في
الأسرع كثير من فرسان الحملة ^(١) . غير ان تورانشاه لم يستغل هذا
النصر في توطيد نفوذه تدريجيا على مصر ، فقد كان عابثا ومفتقرا الى
الحنكة السياسية وعدم المعرفة بطبيعة الدولة الايوبية في مصر ، تلك الدولة
التي وطد الصالح ايوب نفوذه عليها بواسطة ماليكه الذين اطلق عليهم
اسم البحرية . وكان من المهم أن يقوم تورانشاه بمداواة تلك الطائفة
الجديدة ريثما يقوم بتوطيد نفوذه . الا انه لم يفعل فاماط اللثام عن
تهوره ، معلنا عزمه على القضاء على الممالك البحرية ، كما أساء الى
أرملة والده شجر الدر . وهي التي لعبت دورا حاسما في وصوله الى سدة
الحكم ، فضلا عن مكانتها لدى طائفة البحرية ، فاعزت اليهم بالتخلص منه ،
وفعلوا قتلوه في محرم ٦٤٨هـ / مايو ١٢٥٠م ^(٢) .

وبمقتل تورانشاه انتهت الدولة الايوبية من مصر ، واستند الممالك
منصب السلطنة الى شجر الدر ، أرملة الصالح ايوب التي اشتهرت بحسن
سيرتها وقوة شخصيتها ^(٣) . غير ان قيام امرأة في حكم المسلمين قد

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٤٧ - ٥٠ ؛
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥١ - ٣٥٦ ؛ سعيد عاشور : مصر
والشام ص ١١٣ - ١١٤ ؛ علي ابراهيم حسن : تاريخ الممالك
البحرية ص ٣٧ .

(٢) بيبيرس : التحفة الملوكية في الدولة التركية ورقة ١ أب - ٢ أ ؛ ابن
دقماق : الجواهر الثمين ورقة ٤٦ أب ؛ الديري : الجدول الصفي
من البحر الوفي ورقة ٢٢٠ ب - ٢٢١ أ ؛ ابن عبد الظاهر :
الروض الزاهر ص ٤٧ - ٥٠ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ١٣٥ -
١٣٦ ؛ المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ ؛ ابن الفوطي :
تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ج ٤ قسم ١ ص ٣٧ - ٣٨ ؛
ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ؛ سعيد عاشور :
مصر والشام ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٣٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة
===

أخرجها كثيرا ، فزوجت من الأ^{مير} عز الدين إيبك أتابك العسكر وتنازلت له عن الحكم ليصبح أول سلاطين المماليك^(١) .

ولن نتعرض هنا لشرح الحوادث التي صاحبت سقوط الأ^{يوبيين} وقيام دولة المماليك في مصر وإنما الذي يهمنا موقف بلاد الشام من هذه التطورات الجديدة والأ^{ثر} الذي تركته على بلاد الشام عشية الغزو المغولي .

فبعد مقتل المعظم تورانشاه أوفدت القاهرة مبعوثا إلى دمشق لأخذ يمين الولا^ء من نائب السلطنة بالشام جمال الدين بن يغمور والأمراء القيمرية^(٢) للسلطنة الجديدة شجر الدر ، ولكنهم رفضوا طلبه . كما سار الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل إلى غزة واستولى على أموالها ثم سار إلى قلعة الصبابة واستولى عليها ، وحينما علم المماليك بذلك أحاطوا بداره في القاهرة وأخذوا ما كان له بها^(٣) .

ولم يقتصر رد الفعل في بلاد الشام على قيام دولة المماليك على ذلك بل إن بلاد الشام الخاضعة للأيوبيين لم تتقبل الوضع الجديد في مصر ، ذلك أن نائب الكرك بدر الدين الصوابي حين سمع نبأ مقتل تورانشاه ، اتفق مع نواب الشوك على إطلاق سراح المغيث عمر بن العادل بن الكامل الذي كان معتقلا بالشوك ، وأحضره بدر الدين الصوابي إلى الكرك

=====

== ج ٦ ص ٣٧٢-٣٧٤ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ١١ .

(١) بيبرس : التحفة المملوكية ورقة ٢ أ ب ؛ المقرئ : الخط ج ٢ ص ٢٣٧ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٢-١٥ .

(٢) القيمرية : نسبة إلى قلعة قير التي تقع فيما بين الموصل و خلاط ، وهم أكراد ، انظر ياقوت : معجم البلدان ، سعيد عاشور : مصر والشام حاشية رقم (١) .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ .

وسلمه ما كان بها من اموال الصالح أيوب واعلنه ملكا عليها وعلى الشوك وما يتبعها من بلاد في ١٣ ربيع الاول ٦٤٨ هـ / ١٦ يونيه ١٢٥٠ م ، واصبح بدر الدين الصوابي مديرا ووزيرا لدولة المغيـث الجديدة (١) .

كما ارسل الامراء القيمرية من دمشق مبعوثا الى الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب حلب يخبرونه برفضهم مبايعة شجر الدر ويحثونه على القدوم الى دمشق ليطبقها . فخرج الناصر يوسف من حلب في مستهل ربيع الاخر ٦٤٨ هـ / ٣ يوليه ١٢٥٠ م ووصل الى دمشق وفتح له الامراء القيمرية ابوابها ودخلها في ٨ ربيع الاخر ٦٤٨ هـ / ١٠ يوليه ١٢٥٠ م ، بدون قتال ، وخلع على الامراء القيمرية ووهبهم الاموال ، وملك قلعة دمشق وشرع في توطيد نفوذه على بلاد الشام (٢) .

ويجب ان نشير هنا الى ان خضوع دمشق لحلب أمر له دلالة خلال الحقبة موضع الدراسة فطوال العصر الايوبي ظلت حلب تكافح في سبيل استقلالها عن دمشق واحتفاظها بشخصيتها المتميزة وهنا انعكس الوضع ، وانقادت دمشق لسيطرة حلب ، والسبب في هذا واضح تماما وهو سقوط الايوبيين في مصر وشعور زعماء بلاد الشام من الايوبيين وانصارهم

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ورقة ١٠٤ أ ب ؛ ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ، قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٧٥ - ٧٦ ؛ ابن ايبك كنز الدرر ج ٧ ص ٦٤٨ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ ؛ القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٧٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٢) ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ لوحة ٤٤٣ - ٤٤٤ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٥ أ ؛ الصفدي : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٧٢ أ ب ؛ الجنابي : البحر الزاخر ج ٢ ورقة ٢٣ أ ب ؛ ابن شاكر : عيون التواريخ ج ٥ لوحة ٢٥ - ٢٦ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٧٩ - ٧٨٠ ؛ أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٨٣ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٢ - ٤١٣ .

بالحاجة الماسة لتوحيد قواهم وجهودهم لمواجهة التطور الخطير الذي حدث في مصر على حساب الايوبيين حتى ولو اقتضى الأمر تخلي دمشق عن الزعامة لمنافستها الرئيسة حلب .

أخذ الناصر يوسف بن العزيز يعمل على توسيع دائرة نفوذه في بلاد الشام بعد استيلائه على دمشق ، فأرسل إلى بعلبك في جمادى الآخرة ٦٤٨هـ / سبتمبر ١٢٥٠ م وطلب من نائبها ويدعى شرف الدين عيسى بن أبي القاسم تسليمها فأبى قائلاً : " في غنقي يمين للملك الأوحى ابن المعظم - تورانشاه - لا يمكنني التسليم إذا لم يعوضه عنها " فعوضه الناصر يوسف عنها قرى زراعية في إقليم الجزيرة يبلغ دخلها السنوى مئة ألف درهم ، وتسلمها وضمها إلى مملكته ^(١) . كما ضم الناصر يوسف القدس وفلسطين إليه ^(٢) . وخضعت له عجلون والسلط وبصرى وصرخدا وأعمالها وتقدمت عساكره صوب غزة ^(٣) .

وحاول الناصر يوسف الاستيلاء على الكرك والشوبك ، فأرسل رسولا إلى بدر الدين الصوابي في جمادى الأولى ٦٤٨هـ / أغسطس يطلب تسليمها إليه ، فظاهر الصوابي بأنه لا يملك من أمرهما شيئا وأحضر المغيث عمادام مبعوث الناصر يوسف وأخبره أن المغيث هو ملك الكرك والشوبك فلما خاطبه الرسول في تسليم الكرك والشوبك أجابه المغيث قائلاً : " اني كنت في الحبس وقد منّ الله باطلاقي وليس لي ولا من

(١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ، قسم لبنان والاردن وفلسطين

ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٦ .

بقي من أهلي موضع ينضوون اليه . . . والسلطان أعز الله نصره ان أخذ هذا الحصن لا بد له من نائب ، والملوك نائبه فيه ، لا أصدر ولا أُرِد الا عن رأيه ومراسمه " وهكذا استطاع المغيث بهذا الاستعطاف اقناع الناصر يوسف بصرف النظر عن الكرك و الشوبك وأقره عليهما (١) .

وقد أُلقت هذه التطورات الجديدة في بلاد الشام المماليك البحرية وأدركوا أنه لا يوجد مبرر شرعي لحكمهم مصر ، فقرروا اقامة صبي من بني أيوب لجعله سلطانا اسما عليها ، وليكون الحكم الحقيقي لهم ، فانتخبوا الاشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل - وكان عمره دون العاشرة - واعلنوه سلطانا على مصر في جمادى الاولى ٦٤٨ هـ / اغسطس ١٢٥٠ م وخطبوا له ، وجعلوا المعزايك اتايكا له (٢) . ويبدو أن المماليك البحرية أرادوا - بهذا الاجراء - الحيلولة دون قيام بني أيوب - في بلاد الشام - بمحاولة استعادة مصر ، وفي الوقت نفسه ارسل المعزايك فرقة عسكرية بقيادة الامير ركن الدين خاص ترك الكبير الى غزة ، لمراقبة الموقف في بلاد الشام عن كثب . غير ان الامير ركن الدين خاص ترك تراجع الى الصالحية (٣)

(١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ، قسم لبنان والاردن وفلسطين

ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٣ أ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان

ج ١ ص ٥٥ - ٥٦ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٨٣ ؛ ابن تغرى

بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥ - ٦ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل

الصافي ج ١ ص ٦ - ٧ ؛ سعيد عاشور ، مصر والشام ص ١٦١ .

(٣) الصالحية : بلدة بناها الصالح ايوب سنة ٦٤٤ هـ في اول الرمل

بين مصر والشام وأنشأ بها سوقا وجامعا لتكون قاعدة لجيوشه

اذا خرجت الى الشام . انظر المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٨٤ .

عندما وجد عسكر الناصر يوسف عند غزة ، وتشاور مع اصحابه ، فاتفقوا على مراسلة المفتي عمر صاحب الكرك ، وطلبوا منه القدوم الى مصر لخلع المعز وتعيينه سلطانا عليها ، وخطبوا له بالصالحية في جمادى الآخرة (١) ٦٤٨ هـ / سبتمبر ١٢٥٠ م .

ومن الواضح ان المفتي عمر خشي من المخاطرة بالمسير الى مصر كي لا يتعرض للمصير الذي انتهى اليه تورانشاه على ايدي المماليك ، اضافة الى خشيته من الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق الذي لن يرضى بالسلطنة لاحد غيره ، اما المعزاييك فقد خشي من هذه الحركة التي تزعمها الامير ركن الدين خاص ترك ، وأعلن في القاهرة بأن البلاد للخليفة العباسي المستعصم بالله ، واخيرا تمكن بعض المماليك من القبض على ركن الدين خاص ترك وسلموه الى المعزاييك ، وبذلك فشلت أول محاولة للقضاء على دولة المماليك الناشئة (٢) .

وفي أعقاب تلك المحاولة ارسل المعزاييك فرقة عسكرية مكونة من ألفي فارس من المماليك البحرية بزعامة فارس الدين أقطاي الجمدار الى غزة لمواجهة جيش الناصر يوسف المعسكر بها ، وتمكن اقطاي من انزال الهزيمة بعسكر الناصر في رجب ٦٤٨ هـ / اكتوبر ١٢٥٠ م وفروا الى دمشق وعاد اقطاي بفرسانه الى القاهرة (٣) .

(١) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨ هـ ؛ بيبرس :

التحفة الملوكية ورقة ٣ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٥٦ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٨٣ ؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج١ ص ٨ - ٩ .

(٢) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨ هـ ؛ بيبرس :

التحفة الملوكية ورقة ٣ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٥٦ ،

Lanepool, A History of Egypt p.257.

(٣) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٤ أ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣٧٠

ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

وعلى الرغم من هزيمة عسكر الناصر عند غزة ، فان ذلك لم يشن عزمه
عن غزو مصر ، فقد استقر رأيه ورأى امراء بني ايوب في بلاد الشام على
استعادة مصر من المماليك ، غير أن الناصر يوسف خشي من الناصر داود على
نفوذه في بلاد الشام اذا ما تركه بها طليقا وسار نحو مصر ، لذلك اعتقله
وسجنه بقلعة حمص في شعبان ٦٤٨هـ / نوفمبر ١٢٥٠ م (١) .

وكان أشد امراء الناصر يوسف تحريضا على غزو مصر هو مدير دولته
الامير شمس الدين لو' لو' الا' ميني ، الذي كان يعبر عن قدرته على
استعادة مصر " بمائتي قناع " على حد زعمه (٢) . ويبدو أنه أقنع
الناصر يوسف بسهولة القضاء على قوة المماليك . وتصور الناصر يوسف أنه
سيقدو سلطانا على مصر والشام " ولم يعلم أن أيام تلك الدولة - الايوبية -
قد انقضت ، وبروق هذه - المماليكية - قد أومضت وشتان بين الاقبال
والادبار " على حد تعبير بيبرس الداودادار (٣) .

خرج الناصر يوسف بعساكر دمشق في منتصف شهر رمضان
٦٤٨هـ / ديسمبر ١٢٥٠ م وصحبته جماعة من ملوك اهل بيته وعلى
رأسهم الصالح اسماعيل والاشرف موسى بن ابراهيم بن شيركوه ، وتوران شاه
واخيه نصر الدين ابنا السلطان صلاح الدين ، والظاهر شادي بن الناصر

-
- (١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٤٤ أ ؛ ابن شاکر : عيون التواريخ
ج ١٥ لوحة ٢٦ ؛ النويري : نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ٩٧ أ ب ؛
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٨٠ ؛ ابو الفدا :
المختصر ج ٣ ص ١٨٤ .
- (٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦ . ويقصد بمائتي
قناع اى مائتي امرأة - انظر النجوم الزاهرة ج ٧ حاشية رقم (٤) .
- (٣) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٣ أ .



داود واخوه حسن ، والامجد عباس بن العادل وغيرهم (١) . وحين وصول الخبر بمسيرهم نحو مصر ، اضطربت دولة المماليك الناشئة ، وتم القبض على جماعة من المماليك اتُّهِمُوا بالميل الى الناصر يوسف ، وشرع المعز ايبك في اعداد المماليك لمواجهة الخطر الداهم ، وصدرت الاوامر ايضا بالاستعانة بعرب الصعيد (٢) .

ويفهم ما ذكره ابن ايبك ان الناصر يوسف مرض ثم عوفي (٣) ، الأمر الذي ابطأ في حركته الى مصر ، واثاح فرصة للمماليك للاستعداد له . وقد حاول المعز ايبك إفشال حملة الناصر يوسف ومن معه من ملوك الشام ببعض الاجراءات ، فعهد الى اطلاق سراح المنصور محمد وأخيه عبدالملك ابني الصالح اسماعيل - وكانا معتقلين بالقاهرة منذ زمن الصالح أيوب - وخلع عليهما ، وذلك كي يزرع بذور الشك والريبة في نفس الناصر يوسف ازاء والدهما اسماعيل (٤) . كما اعلن المعز ايبك في القاهرة بانتظام الصلح بينه وبين المغيث عمر صاحب الكرك ، حتى يوهم الناصر يوسف ويجعله يخشى على املاكه ببلاد الشام من المغيث ، فيحجم عن غزو مصر (٥) .

(١) ابن خطيب الناصرية : الدر المنخب في تكملة تاريخ حلب ج٢ لوحة ٤٤٥ ؛ ابن حبيب درة الاسلاك في دولة الاتراك ورقة ٢ ب ؛ ابن شاکر: عيون التواريخ ج٥ ١ لوحة ٢٦ ؛ المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٧٢ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٨٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٣ .

(٢) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٣) ابن ايبك : كنز الدرر ج٨ ص ١٦ .

(٤) المقريزي : السلوك ج١ ص ٣٧٣ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٨٤ ؛

ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٣ .

(٥) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٤٨ هـ ؛ المقريزي :

السلوك ج١ ص ٣٧٣ .

غير أن كل تلك المحاولات لم تنجح في النيل من عزم الناصر ، إذ يبدو أنه أدرك المغزى من تلك الاجراءات التي اتخذها المعزاييك فقرر المضي قدما في حملته على مصر . وفي يوم الخميس ١٠ ذى القعدة ٦٤٨هـ / ٢ فبراير ١٢٥١ م التقى الناصر يوسف بقوات المماليك بالقرب من العباسية^(١) ، وتمكنت قوات الناصر يوسف من انزال الهزيمة بالمماليك ، الذين فراكثرهم نحو الصعيد ، وتبعتهم القوات الشامية تطاردهم وتجمع الفنائم ، في الوقت الذي بقي فيه الناصر يوسف ثابتا في مكانه في جماعة من مماليكه منتظرا نتيجة المعركة غير ان بعض مماليكه الاتراك استجابوا لنداء رابطة الدم ، اضافة الى كراهيتهم لمدير دولته شمس الدين لو* لو* ، فانضموا الى المعزاييك الذي تمكن بمساعدتهم ومن بقي معه من اتباعه من انزال الهزيمة بالناصر يوسف الذي فر هاربا الى الشام وقُتِلَ مدير دولته لو* لو* الاميني ، ووقع في الاسر الكثير من بني ايوب ومنهم الصالح اسماعيل وابني صلاح الدين الكبير والاشرف موسى بن ابراهيم ابن شيركوه وغيرهم^(٢) .

ومن العجيب أن عساكر الناصر يوسف الذين كانوا قد انتصروا في

- (١) العباسية : بليدة تقع على طريق القاصد مصر من الشام وبينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخا عمرها السلطان الكامل وجعلها احدى منتزهاته ، انظر ياقوت معجم البلدان .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٦ أ ب ؛ ابن حبيب : درة الاسلاك في دولة الاتراك ورقة ٢ ب - ٣ أ ؛ ابن خطيب الناصرية الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ج ٢ لوحة ٤٤٥ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٥ ورقة ٣٥ ب - ٣٦ أ ؛ ابن شاعر : عيون التواريخ ج ١٥ لوحة ٢٦-٢٧ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٨٠-٧٨١ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٥٦-٥٧ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٧٤-٣٧٥ ؛ ابو الفدا : ج ٣ ص ١٨٤-١٨٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦-٧ .

بداية الأمر ، وصلوا الى القاهرة واستبشر الناس بوصولهم ، وخطب للناصر يوسف يوم الجمعة ١١ ذى القعدة ٦٤٨ هـ ببعض مساجد مصر ، وهم لا يدرون أن الدائرة دارت على الناصر وجنده مما يدل على أن سكان مصر لم يقبلوا سيطرة المماليك باعتبارهم أرقاء ، ثم وصل الخبر الى القاهرة بانتصار المعز ايبك وفرار الناصر يوسف الى الشام ، فقررت عساكره الانسحاب الى الشام . وعاد المعز ايبك الى القاهرة منصورا وقد توطدت دعائم سلطته الجديدة ^(١) . وبعد فترة وجيزة من وصول المعز ايبك ، قام المماليك باعدام الصالح اسماعيل وبعض انصار الايوبيين الذين وقعوا في الأسر ^(٢) .

وبعد المعركة توجه فارس الدين اقطاي الجمدار قائد المماليك البحرية على رأس ثلاثة الاف فارس ، ووصل الى غزة ، واستولى على الساحل ونابلس الى نهر الاردن وذلك في مستهل سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م . فسارع الناصر يوسف فارسل عسكره الى غزة واستعادها وخيم بها . وحينما علم المعز ايبك بذلك خرج من القاهرة بجيشه وعسكر قرب العباسية ، غير انه لم تقع مواجهة حاسمة بين الطرفين وجمد الموقف بينهما مدة سنة وترددت بينهم الرسل للبحث عن حل للنزاع بين الطرفين ^(٣) .

(١) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٨ ص ١٧-١٨ ؛ ابو الفدا : المختصر

ج ٣ ص ١٨٥ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٧٦-٣٧٧ ؛ ابن تغرى

بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢-١٠ ؛ ابن نصر الله : شفاء

القلوب ص ٤١٤ .

(٢) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٨ ص ١٨ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٧٨ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١١٨ ب ؛ ابن حبيب : درة

الاسلاك في دولة الاتراك ، ورقة ٤ أ ؛ بيبرس : التحفة الملوكية

ورقة ٥ ه ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٨٥ ؛ ابن

ايبك : كنز الدرر ج ٨ ص ١٩ ؛ ابن كثير : البداية ج ١٣

ص ١٨١ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٨١ ؛ ابن نصر الله :

شفاء القلوب ص ٤١٤ .

ولم تكن الخلافة العباسية - رغم ظروفها الصعبة - غائبة عن مسح

هذه الحوادث ، إذ بذلت جهدها لاصلاح ذات البين ففي سنة

١٢٥٢ هـ / ١٢٥٢ م قدم مبعوث الخليفة العباسي محاولا عقد الصلح بين الطرفين ولكنه اخفق في البداية بسبب اشتراط الناصر يوسف بأن تكون الخطبة والسكة بمصر له ، فرفض المعز ايبيك ذلك الشرط وقال للماليك البحرية : " نحن خلصنا مصر والشام بسيوفنا من الفرنج ولا صلح بيننا الا أن يكون لنا من غزة الى العقبة " ورفض الناصر يوسف شروط البحرية فدارت المناوشات بين الجانبين طيلة سنة ١٢٥٢ هـ / ١٢٥٢ م (١)

وفي سنة ١٢٥١ هـ / ١٢٥٣ م تمكن الماليك من استمالة نائب المغيث

عمر على قلعة الشويك وتسلموها منه وبذلك لم يبق بيد المغيث سوى الكرك والبلقاء وبعض مناطق الغور (٢) . ويبدو أن سيطرة الماليك على

قلعة الشويك الحصينة وذات الموقع الهام ، جعل الناصر يوسف يتنازل عن تشدده ، وقدم تنازلات هامة ووافق على الصلح الذي تضمن ، ان يكون للماليك مصر وغزة والقدس ونابلس والساحل ، وللناصر يوسف بقية بلاد الشام وأن يطلق المعز ايبيك بقية الاسرى من اصحاب الناصر يوسف وتم توقيع الصلح بين الجانبين سنة ١٢٥١ هـ / ١٢٥٣ م وهكذا اعترف الناصر يوسف بقيام دولة الماليك بل وأقر سيطرتها على اجزاء هامة من بلاد الشام (٣) .

(١) ابن ايبيك : كنز الدرر ج ٨ ص ٢٢ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٢١ ب ؛ ابن ايبيك : كنز

الدرر ج ٨ ص ٢٣ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٨٦ .

(٣) ابن حبيب : درة الاسلاك ورقة ١٦ أ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة

الزمان ج ٨ ص ٧٨٩ ؛ أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٨٦ ؛ ابن

ايبيك : كنز الدرر ج ٨ ص ٢٢-٢٣ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص

٣٨٥-٣٨٦ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٩

على أن السلام لم يدم طويلا بين الناصر يوسف والمعزاييك ،
ففي مصر ازداد نفوذ فارس الدين اقطاي الجمدار قائد المماليك البحرية ،
وشعر المعزاييك بخطورته على نفوذه داخل مصر ، فدبر المعز مؤامرة
راح ضحيتها اقطاي الجمدار في شعبان ٦٥٢هـ / اكتوبر ١٢٥٤م ، ونجم
عن مقتله تفرق انصاره من المماليك البحرية ، فذهبت طائفة منهم الى الشام
بزعامة بيبرس البندقداري ، وراسلوا الناصر يوسف وطلبوا منه قبولهم
في خدمته ، فاجاب طلبهم وقدم لهم الاعطيات ، وأقطع بيبرس جنيين
وزرعين (١) .

حاول بيبرس البندقداري واصحابه من البحرية ، حمل الناصر يوسف
على غزو مصر ، فسار معهم الى الغور ، وارسل الى غزة فرقة عسكرية ، وتأهب
المعزاييك لمواجهة فخرج وعسكر بالعباسة في سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م (٢)
ومن الواضح ان الناصر يوسف لم يكن يهدف من ايواء البحرية ، وقبولهم
في خدمته الى غزو مصر من جديد ، بعد أن تلقى درسا قاسيا في حملته
السابقة ، وانما كان هدفه الضغط على المعزاييك ، لانتزاع بعض
التنازلات منه . وما يبرهن على صحة هذا القول ، أن الناصر يوسف قبل

- (١) بيبرس ؛ التحفة الملوكية ورقة ٦ أ ب ؛ النويري : نهاية الأرب
ج ٢٧ ورقة ١١٦ أ ؛ ابن ايبك كثر الدرر ج ٨ ص ٢٥ ؛ ابو الفدا :
المختصر ج ٣ ص ١٩٠ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٢٧٢ ؛
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٩١-٣٩٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥
ص ٤٣٢-٤٣٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠-١٢ ؛
ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٩١-٢٩٢ = وزرعين : قرية تقع
قرب مدينة الناصرة بفلسطين انظر :

Lestrangé: Palestine under the Moslems p.441

- (٢) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٦ ب ؛ ابن ايبك ، كثر الدرر ج ٨ ص ٢٨-
٢٩ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٠ ؛ المقريزي : السلوك ج ١
ص ٣٩٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٣٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء
القلوب ص ٤١٥ .

وساطة مبعوث الخليفة العباسي وتم توقيع الصلح بينه وبين المعزاييك في سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م وحصل بموجب الصلح الجديد على تنازل المعزاييك عن كل ما اعطته الاتفاقية السابقة من بلاد الشام ان تضمن الصلح : ان يستبعد الناصر يوسف البحرية من خدمته ، وان يكون الشام جميعه له ، ويكون الحد بين مملكته وبين دولة المماليك في مصر بئر القاضي الواقعة فيما بين الوراده والعريش (١) .

وحاول المماليك البحرية بعد هذا الصلح الانتقام من الناصر يوسف واغتياله والاستيلاء على مملكته غير انه حينما شعر بخطرهم طردهم من دمشق ، فخرجوا غاضبين وساروا الى القدس ، واستولوا عليه سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ، ثم استولوا على غزة فارسل الناصر يوسف في إثرهم جيشا ولكنهم انتصروا عليه ، فعاد وأرسل قوات كبيرة لمحاربتهم واستطاعت انزال الهزيمة بهم عند البلقاء ، فانسحبوا الى ناحية الكرك حيث دخلوا في خدمة المغيث عمر صاحب الكرك (٢) .

وشرع البحرية في تحريض المغيث عمر على غزو مصر ، واستعادة ملك آباءه بها ، زاعمين له ان امراء الجند بمصر كاتبوهم ، ووعدوهم بمد يد المساعدة لهم . وقد اقتنع المغيث باقوالهم وطمع في الاستيلاء

-
- (١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ أ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٩٠-١٩١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٢-١٣ = والورادة : منزل في طريق مصر من الشام في وسط الرمل والماء والملح فيها سوق ومنازل ومسجد ، ويرج للحمام الزاجل حيث ينقل الى مصر تقارير بالوارد والصادر . انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٢) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٤٩-٥١ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٩٢-١٩٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٤٤-٤٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٦ .

(١) على مصر . ويبدو أن ما شجعه على قبول رأيهم ما وقع من الاضطراب في مصر بسبب مقتل المعزاييك وشجر الدر (٢) . فقد ظن المفيث أن بمقدوره استغلال تلك الظروف واسترداد سلطان الأيوبيين على مصر ، ولذلك استجاب لاغراءات البحرية ، وانفق فيهم الاموال ، وبعث اليهم بفرقة من عسكره بقيادة مدبر دولته بدر الدين الصوابي ، وسار الجميع الى مصر . غير أن الامير سيف الدين قطز اتاك الملك المنصور بن اييك استطاع انزال الهزيمة بهم في معركة دارت قرب الصالحية في ذى القعدة ٦٥٥هـ / نوفمبر ١٢٥٧ م كما وقع العديد من زعماء البحرية في الأسر وعلى رأسهم سيف الدين قلاوون الالفى وبلبان الرشيدى ، أما زعيمهم بيبرس البندقدارى وبدر الدين الصوابي فقد هربا الى الكرك (٣) .

- (١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ ب ؛ النويرى : نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١١٦ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٥١ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٢٠-٤٢١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٦ .
- (٢) في ربيع الاول سنة ٦٥٥هـ / ابريل ١٢٥٧ م ازدادت الوحشة بين شجر الدر وزوجها المعزاييك بعد ان عزم اييك على الزواج من ابنة صاحب الموصل ، فدبرت شجر الدر مؤامرة راح ضحيتها المعزاييك ، ولكن ماله انتقموا له فقتلوه بعد ذلك مباشرة ، وأقاموا ابن المعزاييك ويدعى نور الدين علي سلطانا ولقبوه بالملك المنصور ، وعينوا سيف الدين قطز اتايكا للملك الصغير . انظر ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٩٦ ؛ ابن اييك : كنز الدرر ج ٨ ص ٣٠-٣١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ ، ٣٧٦ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ١١-١٤ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

- (٣) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٧ ب - ٨ أ ؛ النويرى : نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١١٦ أ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٥١-٥٢ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٦ .

ولكن هذه الهزيمة لم تفت في عضد ركن الدين بيبرس الذي يبدو انه كان يريد السيطرة على مصر بصورة غير مباشرة عن طريق المغيث عمر ، واستغلال اسمه ونسبه في الفوز بعرش دولة المماليك الناشئة . فقد استغل بيبرس مراسلة بعض امراء العساكر المصرية في تحريض المغيث عمر على معاودة الهجوم مرة اخرى على مصر . كما انضم الى المغيث وبيبرس بعض عساكر الناصر يوسف صاحب الشام ، وشعر المغيث بازدياد قوته وطمع في الاستيلاء على مصر ، وسار بنفسه في صحبة الظاهر بيبرس ، وتقدما بالعساكر الى غزة في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م بقصد المضي الى مصر (١) .

وخرج عسكر مصر بزعامة سيف الدين قطز لصد الحملة الجديدة وهرب الى بيبرس والمغيث العديد من امراء المماليك الذين كاتبوهما ، مما شجعهما على المضي قدما في حملتهما على مصر ، فتقدما الى الصالحية والتقى الفريقان في ١٤ ربيع الاخر ٦٥٦ هـ / ٢٠ مايو ١٢٥٨ م حيث دارت معركة حامية ، كاد يتحقق فيها النصر للمغيث وبيبرس ، لولا استبسال قطز وحماسته التي حالت دون تحقيق ذلك ، وانتصر المماليك بزعامة قطز ، وحلت الهزيمة الساحقة بالمغيث ووقعت امواله وذخائره غنية في أيدي المماليك وأسرق قطز الكثير من اتباع بيبرس فأمر بقتلهم . وهكذا فشلت آخر محاولة قام بها الايوبيون لاسترداد مصر من أيدي المماليك (٢) .

-
- (١) بيبرس : التحفة الملوكية ورقة ٨ أ ب ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٨٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٩٨ .
- (٢) النويرى : نهاية الارب ج٢٧ ورقة ١١٦ أ ؛ بيبرس : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج٩ تحقيق زبيدة محمد عطا "رسالة دكتوراه لم تطبع" ص ١٣ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٩٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٩٨ - ٩٩ .

ظل بيبرس واتباعه من البحرية يهددون النفوذ الايوبي في بلاد الشام ويستنزفون قواهم وقوى الايوبيين في معارك جانبية لا طائل من ورائها . فبعد فشل حملتهم الاخيرة على مصر ، قصدوا غور الاردن حيث التقوا بطائفة من الاكراد يسمون الشهرزورية ^(١) ، هربوا من بلادهم امام زحف المغول ، وساروا الى الشام ، والتقى بهم بيبرس وتزوج منهم ، ودخلوا معه في طاعة المغيـث عمر صاحب الكرك ^(٢) . وخشي الناصر يوسف من ازدياد نفوذ البحرية بزعامة بيبرس وخطورتهم على نفوذه في بلاد الشام ، وخصوصا بعد انضمام الشهرزورية اليهم ، فأرسل فرقة لمحاربتهم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ولكنهم انزلوا الهزيمة بفرقته عند غور الاردن ، فعاد وأرسل اليهم جيشا كبيرا بقيادة اثنين من كبار امرائه بيد أن البحرية تمكنوا مرة اخرى من الايقاع بعسكر الناصر يوسف وانتصروا عليه قرب غزة وأسرؤا قائديه ^(٣) .

(١) الشهرزورية ، نسبة الى شهرزور ، وهي كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمدان ، واهلها اكراد اشتهروا بالبطش وشدة البأس ، انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ القلقشندي صبح الاعشى ج٤ ص ٣٦٦ .

(٢) النويري : نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١١٦ أ ب ؛ بيبرس ، زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٣ .

(٣) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث ٦٥٦ هـ ؛ بيبرس ؛ زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٣ - ١٤ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٩١ - ٩٢ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٣٢ .

وبعد هذين الانتصارين أقنع البحرية المغيث عريبحارية الناصر يوسف ، وأغروه بسهولة الاستيلاء على دمشق وتوحيد بلاد الشام تحت لوائه . وقد استجاب المغيث الى ذلك وصمم على انتزاع دمشق من الناصريوسف ، وبخاصة بعد هزيمة جيشه مرتين على أيدي البحرية . ولم يجد الناصريوسف بدا من مواجهة خطر المغيث والبحرية ، فخرج بجيوشه من دمشق والتقى بالمغيث وحلفائه من البحرية والشهرزورية وانزل بهم الهزيمة قرب اريحا في غور الاردن وهرب المغيث الى الكرك واعتصم بها ، وسار الناصريوسف نحو القدس ونظر في احواله ، وعاد الى دمشق في سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . (١)

وعلى الرغم من انتصار الناصر يوسف على المغيث وحلفائه من البحرية ، فان غارات البحرية تواصلت على اعمال دمشق نفسها الامر الذي جعل الناصر يوسف يقرر ملاحقتهم واستئصال شأفتهم ، واستعان في ذلك بالمنصور صاحب حماه ، وخرج من دمشق في أوائل سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وطارد المماليك البحرية بزعامة بيبرس حتى لجأوا الى الكرك ، وسار الناصر يوسف في اثرهم الى قرب الكرك ، وعسكر امامها قرابة ستة اشهر ، وظهر تصميمه على القضاء على البحرية ، ودارت المفاوضات بينه وبين المغيث صاحب الكرك ، وطالب الناصر يوسف المغيث بتسليم البحرية اليه ، وهدده ان لم يجب طلبه (٢) ، وحين شمر

(١) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث سنة ٦٥٦ هـ ،

بيبرس زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤ ؛ المقریزی : السلوك ج ١ ص ٤١١ - ٤١٤ .

(٢) ابن واصل : تاريخ الواصلين مخطوط حوادث سنة ٦٥٧ هـ ؛ بيبرس

التحفة الطوكية ورقة ١ ب ؛ النويری : نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١١٧ أ ب ؛

ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٨ .

ركن الدين بيبرس بتخاذل المغيث ،بادر بمراسلة الناصر يوسف ،وطلب الأمان له ولعشرين من اصحابه وان يقطعه نابلس وجنين وزرعين ، فاجابه الناصر الى طلبه ،ولم يقطعه الا نابلس فقط ، ونزل بيبرس من الكرك وانضم الى الناصر يوسف في رجب ٦٥٧هـ / يولييه ١٢٥٩م ، اما بقية الممالك البحرية فقد ارسلهم المغيث مكبلين الى الناصر يوسف الذى سجنهم في قلعة حلب ، اما الشهرزورية فقد غادروا بلاد الشام الى مصر^(١) . واخذ بيبرس من جديد في تحريض الناصر يوسف على غزو مصر مرة اخرى ، ولكن الناصر يوسف رفض تحريضه ، فطلب بيبرس ان يولييه على اربعة الاف فارس ليتوجه بها الى شط الفرات ليمنع المغول من العبور الى بلاد الشام ، فلم يجب الناصر طلبه ،وعندئذ راسل بيبرس الملك سيف الدين قطز واستحلفه لنفسه وغادر بلاد الشام الى مصر.^(٢)

وقد جرت كل هذه الحوادث في الوقت الذى اجتاحت فيه المغول بغداد ،وشرعوا في زحفهم على الجزيرة وبلاد الشام . ولا شك أن هذه الحروب التى دارت رحاها بين الايوبيين انفسهم ،ثم بينهم وبين دولة المماليك في مصر ،ودخول البحرية في علاقات متشابكة مع الناصر يوسف ،والمغيث عمر . كل هذه الحوادث صرفت انتباه هذه القوى الاسلامية عن مجابهة بقايا الصليبيين في بلاد الشام . كما استنزفت الكثير من الطاقات المادية والبشرية التى كان يمكن ادخالها لمواجهة زحف المغول على بلاد الشام .

هـ . ١

- (١) ابن واصل : المصدر السابق مخطوط حوادث ٦٥٧هـ ؛بيبرس : زبدة الفكرة ج٩ ص ١٤ ؛اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٣٤٢-٣٤٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٣٢-٤٣٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢١٨ ؛ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٩٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٥٣-٥٤ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٠٠-١٠١ .

الفصل الثالث

موقف ملوك بني الروم من الصليبيين
في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٥٦ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٨ م

الفصل الثالث

موقف ملوك بني أيوب من الصليبيين في بلاد الشام

٦١٥ - ٦٥٦ هـ / ١٢١٨ - ١٢٥٨ م

- ١ - الموقف في بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل ٥٨٩ - ٦١٤ هـ.
- ٢ - اثر الحملة الصليبية الخامسة في تاريخ بلاد الشام ٦١٤-٦١٨ هـ.
- ٣ - خلفاء السلطان العادل موقفهم من الصليبيين ٦١٨ - ٦٤٠ هـ.
- ٤ - الصالح أيوب واسترداد بيت المقدس ومعركة غزة ونتائجها ٦٤١ - ٦٤٦ هـ.
- ٥ - الموقف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام عشية الغزو المغولي ٦٤٦ - ٦٥٦ هـ.

الموقف في بلاد الشام

بين المسلمين والصليبيين زمن السلطان العادل

قام السلطان صلاح الدين كما هو معروف بجهد كبير في جهاد الصليبيين ، واستعاد منهم بالقوة اجزاء واسعة من بلاد الشام ، كانوا قد اغتصبوها منذ بداية الحروب الصليبية . وكان يهدف في نهاية المطاف الى اقتلاع جذور الوجود الصليبي بكامله . ولم يقدر للعمل العظيم الذي بدأه صلاح الدين وقطع فيه شوطا بعيدا أن يستمر بعد وفاته . ولم يحرز الا يوبيون بعده من النجاح ما يمكن مقارنته بما فعله صلاح الدين ، مع أن الدولة الايوبية دامت بعده أكثر من نصف قرن الا انها لم تستطع الارتقاء بفريضة الجهاد الى المستوى الذي وصلت اليه زمن صلاح الدين . بمعنى أن الدولة الايوبية تحولت من موقف الهجوم واسترداد البلاد المفتصة الى موقف الدفاع عما بقي في حوزتها من ممتلكات ازاء الصليبيين كما سنرى في هذا الفصل . وكان ذلك في الواقع هو السبب الرئيس الذي ادى الى سقوطها حيث فقدت مبرر وجودها الشرعي بعد أن اخفقت في حمل راية الجهاد مثلما كانت عليه زمن صلاح الدين .

غير أن ذلك لا يعني أن جهاد المسلمين ضد الصليبيين توقف نهائيا بعد صلاح الدين كما لا يعني أيضا توقف الاعمال العدائية والحملات المتكررة التي قام بها الصليبيون ضد بلاد المسلمين في بلاد الشام وغيرها .

فالامر الذي لا شك فيه أن حرب الوراثة التي اندلعت بين الايوبيين بعد وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ / ١١٩٣م أضعفت موقف المسلمين

ازاء الصليبيين حتى أن العزيز عثمان صاحب مصر جدد الصلح معهم سنة ٩١ هـ / ١١٩٥ م^(١) ، كما فقد اخوه الافضل لحساب الصليبيين حصنا هاما في السنة نفسها وهو حصن جبيل ، ان قامت حاميته الكردية ببيعته للصليبيين بستة الاف دينار وغادرته ، وفشل الافضل في محاولة استرداده منهم^(٢) .

والحقيقة ان وفاة صلاح الدين وحدوث الانقسام والمنازعات بعده بين افراد الأسرة الأيوبية شجع القوى الصليبية في أوروبا على القيام بحملة صليبية جديدة تزعم الدعوة اليها هنري السادس امبراطور المانيا (١١٩٠-١١٩٧ م / ٥٨٦-٥٩٣ هـ) الذي كان يتطلع الى اخضاع الدولة البيزنطية والاراضي المقدسة في بلاد الشام لنفوذه . وبدأت جموع الصليبيين الالمان تتوافد على بلاد الشام للاستيلاء على بيت المقدس وغيره من الاماكن المقدسة^(٣) .

ويبدو أن قدوم تلك الفواج الجديدة من الصليبيين الالمان جعلت عز الدين اسامة والي مدينة بيروت يحاول عرقلة وصولهم الى عكا قاعدة الصليبيين الرئيسة ، فشرع في ارسال السفن الحربية المحملة بالمجاهدين المسلمين للاغارة على سفن الصليبيين وقطع الطريق عليهم وذلك سنة ٩٢ هـ / ١١٩٦ م ، وقد كان لهذه الغارات اثرها على الصليبيين فشكوا الى العادل والعزيز أعمال أسامة التي اعتبروها خرقا للهدنة القائمة بين الجانبين . فلم يمنعا اسامة من ذلك لأنه كان يقوم بعمل

(١) المقرئى : السلوك ج١ ص ١٢٩ .

(٢) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ، قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٩٦ - ٩٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٦ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ٦ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٠٣ .
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٧٩ - ٨٨٠ ؛ رنسيان : الحروب الصليبية ج٣ ص ١٦٩ .

مشروع وهو الحيلولة دون ازدياد قوة الصليبيين في عكا ومن ثمة مهاجمة بلاد المسلمين (١).

ارسل الصليبيون بالشام الى اوربا يطلبون النجدة لحرب المسلمين ، وَيُخَوِّفُونَ النصارى في اوربا من استيلاء المسلمين على ما تبقى بأيديهم من بلاد الشام فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكان اكثرهم ملك الألمان (٢) ان بادر هنرى السادس ملك المانيا الى إرسال حملة عاجلة الى بلاد الشام . ووصلت تلك القوات الى عكا وشرعت في شن الفارات على بلاد المسلمين (٣) ، وبلغت الجرأة بالصليبيين الجدد الى حد الاغارة على اطراف بلاد القدس وهاجموا المسلمين فيه " فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة ، ورجعوا بغنائم كثيرة " (٤).

ولم يجد العادل مفرا من التصدى للعدوان الجديد فبعث الى ملوك بني أيوب بالجزيرة وبلاد الشام ومصر يحثهم على إرسال الجيوش لجهاد الفرنج ، فقدمت اليه العساكر واجتمعت الجيوش الاسلامية في عين جالوت وتقدموا الى مروج عكا حيث أوقعوا بالصليبيين الألمان ومن معهم من اتباع هنرى رى شامبني ملك الصليبيين بالشام (١١٩٢-١١٩٧م/ ٥٨٨ - ٥٩٤ هـ) . وانتصر المسلمون وأسروا جماعة من الصليبيين وعادوا بغنائم وفيرة (٥).

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٦ ؛ فايد عاشور : الجهاد

الاسلامي ضد الصليبيين في العصر الايوبي ص ٢٦٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٧ .

(٣) رنسيان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ١٦٩-١٧١ .

(٤) ابن واصل : مفتح الكروب ، ج ٣ ص ٧٤ .

(٥) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٠ أ ب ؛ ابن واصل :

مفتح الكروب ج ٣ ص ٧٤ ؛ ابوشامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٣٣ ؛

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٨٢ .

وقد نتج عن تلك الهزيمة التي مني بها الصليبيون ، أن أرسل هنرى دى شامبني الى هنرى السادس يحثه على القدوم الى الشام ، ويحرضه على الانتقام من المسلمين ، ولا سيما وان والده فردريك ببروسا دفن في صور اثناء قيامه بحملته على بلاد الشام . وفي ذلك يذكر أبو شامة نقلا عن العماد الكاتب أن الفرنج قالوا في رسالتهم لهنرى السادس : ان عظام ابيه الى الان في صور في تابوت مكلل بالديباج وكأنه في الاسر منتظرا الافراج ، فانه لا يقبرا الا بالبيت المقدس اذا استخلص والان ما كان غلا ثمنه استرخص فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض ولهو عن كل سنة وفرض^(١) .

أما بالنسبة للجانب الاسلامي فقد تقدم العادل بقواته الى يافا واستولى عليها وعلى قلعتها في شوال ٥٩٣ هـ / سبتمبر ١١٩٢ م وأخذ المسلمون من يافا الاف الاسرى من الصليبيين وغنموا كميات كبيرة من الأموال والمؤمن والعدة^(٢) . وحاول العزيز عثمان صاحب مصر من جانبه عرقلة الامدادات الصليبية القادمة الى الشام فارسل من اسطول مصر اربعة غرابان^(٣) ، وقصدوا الطريق البحري المؤدى الى

(١) ابو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٣٣ .

(٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٠ ب ، ابن الاثير : الكامل

ج١٢ ص ١٢٢ ، المقرئ : السلوك ج١ ص ١٤٠ .

(٣) الغرابان : مفردا غراب ، وهي نوع من المراكب أخذها العرب

عن القرطاجنيين والرومان وغيرهم من امم البحر المتوسط ، وقد سمي بهذا الاسم لأن مقدمته تشبه رأس الغراب ، ومن خصائصه انه كان مزودا بجسر من الخشب يهبط على سفن العدو فيقتحمها الرجال ويقاتلون عدوهم بالاسلحة البرية ، انظر : سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

عكا حيث تمكنت غريبان المسلمين من أخذ عدة بطس^(١) صليبية برجالها وموءنها ، وأحرقوا أخرى ففرقت وبها خمسون صندوقا من الذهب والفضة كان قد جمعها الفرنج من اوربا لدعم حملتهم الصليبية ، وعاد رجال البحرية الاسلامية بغنائمهم الى مصر " وكان لوصولهم يوم عظيم وفتح جسيم " (٢) .

ولم يتمكن الصليبيون في عكا من تقديم المساعدة ليافا ، بسبب موت الملك هنري دى شامبني المفاجيء ، مما جعل عرش مملكة الصليبيين بالشام شاغرا . وبحث الصليبيون عن زعيم ليتزوج بايزابيل أرملة هنري دى شامبني ، لكي يقوم بالدفاع عن كيانهم الدخيل ضد المسلمين ، ووقع اختيارهم على عموري لوزجنان ملك قبرس^(٣) (٥٩٤ - ٦٠٢ هـ / ١١٩٧ - ١٢٠٥ م) " وكان رجلا عاقلا يحب السلامة والعافية " على حد قول ابن الاثير^(٤) .

ولكن على الرغم من ميل عموري لوزجنان للسلامة الا أنه أراد - فيما يبدو - أن يبرهن على جدارته بحكم الصليبيين في بلاد الشام ، ففكر في الهجوم على بيروت لتعويضهم عن سقوط يافا بيد المسلمين . وكانت

- (١) البطس : مفرد لها بطسة ، وهي نوع من مراكب البحر الكبيرة ، وقد يصل عدد الشرع في البطسة الواحدة الى اربعين شراعا . وقد لعب هذا النوع دورا هاما في الحروب الصليبية . ان كانت البطس أشهر سفن الصليبيين ، فشحنوها بالمجانيق والمقاتلة ، والاسلحة ، والذخيرة ، وسائر آلات الحرب والحصار . كما شحنوها بالاقوات والميرة ، وتصل حمولة البطسة الى بضع مئات من الرجال باسلحتهم . ولها طبقات متعددة : انظر سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية ٣٣١-٣٣٢ .
- (٢) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٤٠ ب - ١٤١ أ .
- (٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٢٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٨٣ .
- (٤) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٢٨ .

بيروت قاعدة عسكرية هامة طالما شن منها المجاهدون المسلمون الغارات على مراكب الصليبيين في البحر ، ولم يكن احتمال مهاجمة الصليبيين بيروت بعيدا عن ذهن العادل ، ولذلك امر بتخريب ريفها حتى لا يفيد منه الصليبيون ، ولما اراد تدمير المدينة رفض عز الدين أسامة صاحبها وتعهد بالدفاع عنها ، وتقدم الصليبيون شمالا وجرت بينهم وبين المسلمين مناوشة قرب صيدا ثم تقدموا نحو بيروت ، فادرك صاحبها عز الدين أسامة عجزه عن المقاومة . فانسحب منها ، واستولى الصليبيون عليها دون قتال في ذي الحجة ٥٩٣ هـ / اكتوبر ١١٩٧ م^(١) ، ولم يسع الرعايا المسلمين حول بيروت سوى الازعان للفرنج وتقديم الاتاة لهم أما عز الدين أسامة فبقي بيده الاقليم الجبلي التابع لبيروت^(٢) .

وأغرى سقوط بيروت الصليبيين بتوسيع عدوانهم على بعض الموانئ التابعة للمسلمين فقرروا المضي الى جبلة واللاذقية للاستيلاء عليهما ، غير أن العادل ارسل الى ابن اخيه الظاهر صاحب حلب اواخر سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م يحذره فاستعد الظاهر وحشد جيشا من التركمان وهدم حصني جبلة واللاذقية وأجلى سكانهما ، واحتشد العسكر الاسلامي في جبلة واللاذقية منتظرا قدوم الصليبيين وجاء البرنس بوهيمند الثالث أمير انطاكية (٥٦٠ - ٥٩٩ هـ / ١١٦٣ - ١٢٠١ م) الى ساحل اللاذقية ، وأرسل الى قائد الظاهر واجتمع بهما وأشار عليهما بعدم تدمير اللاذقية

- (١) العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٢١١ ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٠٨ ؛ السيوطي : اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى ورقة ١٢٢ ب ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٧ ؛ صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢١ - ٢٢ ؛ الحريري : الاعلام والتبيين ص ٨٨ .
- (٢) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢ .

وعندئذ سار الظاهر الى اللاذقية في اوائل سنة ٩٤ هـ / او اواخر
١١٩٢ م وأمر بعمارة ما تهدم من تحصينات المدينة وعاد الى حلب ^(١) .
ويبدو أن بوهيند الثالث لم يشأ الاعتداء على اللاذقية ، وذلك لأنه
أدرك عدم قدرته على مجاهرة ملكة حلب بالعداء ولا سيما وأنها تجاور
أمارته في انطاكية ، الأمر الذي سيهدد امارته بالخطر اذا ما اخفقت
الحملة الالمانية على فلسطين وجنوب الشام .

أما الملك العادل فقد رد على استيلاء الصليبيين على بيروت فأرسل
بعض العساكر للاغارة على صور الخاضعة للصليبيين ، فقطعوا اشجارها
ودمروا قراها وابراجها . وحينما علم الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت
الى صور للدفاع عنها ضد المسلمين ^(٢) .

ولما كان العادل يعتقد أن الصليبيين سيكتفون ببيروت عوضا
عن يافا ، وأنهم لن يتقدموا الى غيرها ، فقد سمح للعساكر الشرقية -
التي قدمت اليه من اقليم الجزيرة - بالعودة الى بلادهم ^(٣) . ولكنه
كان مخطئا في حدسه ان سرعان ما تقدم الصليبيون في منتصف المحرم
٩٤ هـ / نوفمبر ١١٩٢ م الى حصن تبنين ^(٤) وضربوا الحصار حوله ،

(١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢١٦ ب ؛ ابن العديم :

زبدة الحلب ج ٣ ص ١٤٠-١٤١ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥

ص ٣٨٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٨ .

(٤) يقع حصن تبنين في جبل بني عامر بين صور ودمشق . انظر :

ياقوت : معجم البلدان .

فأرسل العادل على عجل الى العزيز عثمان يحثه على الخروج بعساكر مصر ولا سيما وأن العادل أضحى في قلة من العساكر بعد رحيل عساكر الشرق ، فخرج العزيز من مصر مسرعا الى الشام ، بينما رابط العادل قريبا من تبنين . وقد صمدت حامية تبنين في وجه الحصار حتى وصل العزيز في ربيع الأول ٥٩٤ هـ / يناير ١١٩٨ م وحينما شاهد الصليبيون اجتماع عساكر مصر والشام خافوا ، ووصل في الوقت نفسه عموري لوزجنان من قبرس فأثر السلامة وبخاصة وقد حل فصل الشتاء فاشتد البرد وهطلت الثلوج والامطار اضافة الى وفاة ملك الالمان هنري السادس في الغرب ، فانسحب الصليبيون الى صور وتعقبهم المسلمون يلتقطون من ظفروا به منهم ، وغنموا شيئا كثيرا من عسكرهم . وأمر العزيز بنقل المؤن والذخائر الى تبنين واصلاح ما تهدم من أسوارها ، وأبقى معظم عساكر مصر عند عمه العادل ، وعاد هو الى مصر تاركا لعمه تقدير امر الحرب أو الصلح مع الصليبيين (١) .

- (١) ابن قاضي شهبه : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام مخطوط حوادث سنة ٥٩٤ هـ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٢٨-١٢٩ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٤٥٥ - ٤٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥ - ٢٦ ؛ ابوشامة : الروضتين ج٢ ص ٢٣٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ١٣٥-١٣٧ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ج٢ ص ١٦٩ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١٠٤ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٠٤-٢٠٥ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٨٤ - ٨٨٥ .

وقد واصل العادل شن الغارات على الصليبيين مرة بعد أخرى حتى أجبرهم على طلب الصلح ، كما يتفرغ لحل المشكلات داخل الدولة الأيوبية . وفعلًا تم عقد الصلح بين الجانبين في شعبان ٩٤ هـ / يولييه ١١٩٨ م وتضمن الصلح احتفاظ العادل بيافا مقابل أن يحتفظ الصليبيون ببيروت ، على أن تصبح صيدا مناصفة بين الطرفين ومدة الصلح ثلاث سنوات (١) .

وبعد مضي زهاء خمس سنوات على توقيع الهدنة استأنف الصليبيون الأعمال العدائية ضد المسلمين ، فقد ذكر ابن العديم أن جموعًا من الفرنج خرجت من البحر واجتازوا باللاذقية عن طريق البر ، وكان هدفهم البحث عن أي نقطة ضعف في تحصينات اللاذقية — للانقضاض عليها ، ولكن خططهم فشلت عندما خرج اليهم سيف الدين ابن علم الدين والي اللاذقية واشتبك معهم وهزمهم وقتل منهم عددًا كبيرًا

(١) ابن قاضي شهاب : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام حوادث ٩٤ هـ ، العيني : عقد الجمان ج٣ ص ٢١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٧٨ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ١٣٩ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ٩٣ - ٩٤ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ١٤١ = وقد ذكر الدكتور سعيد عاشور ان بعض المراجع الصليبية حددت مدة الهدنة بخمس سنوات وثلاث أشهر ، انظر الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٨٦ حاشية رقم (١) غير أننا وجدنا بعض المصادر العربية حددتها بأكثر من خمس سنوات ووافقت بذلك المراجع التي اشار اليها الاستاذ عاشور ، فابو شامة ذكر ان مدتها خمس سنوات وثمانية اشهر . انظر ذيل الروضتين ص ١٣ ، بينما ذكر الحريري ان مدة الهدنة خمس سنين ونصف . انظر الحريري : الاعلام والتبيين ص ٨٨ ، ٨٩ ونحن نرجح رأى الحريري وابي شامة وسعيد عاشور بتقدير الهدنة بأكثر من خمس سنوات بدليل انه لم تقع اشتباكات بين المسلمين والصليبيين الا بعد مضي أكثر من خمس سنوات .

وأُسِرَ آخَرِينَ وَضَمْنَهُمْ بَعْضُ زَعَمَائِهِمْ وَأُرْسِلَ الْآسَرَى وَالْفَنَائِمُ إِلَى حَلَبٍ (١) .

وترامت إلى مسامع المسلمين أيضا أنباء تفيد بوصول بعض جموع الفرنج إلى عكا واجتماعهم بها وأن حشودا أخرى بدأت تتجمع في جزيرة صقلية لقصد مصر ، وإزاء ذلك أرسل الظاهر صاحب حلب إلى عمه العادل خمسمائة فارس ومائة راجل من الحلبيين ليرسلهم إلى مصر للمساعدة في صد العدوان المتوقع (٢) . غير أن سوء الأحوال الاقتصادية بعكا وانتشار الفلأء بها وندرة المؤن والأقوات أجبرت القادمين الجدد من الصليبيين على العودة إلى أوربا (٣) .

وعلى الرغم من اخفاق تلك التحركات التي قام بها الصليبيون ، فإن المنصور صاحب حماء بادربالخرج إلى بارين لمراقبة تحركاتهم ، وأرسل إلى العادل يطلب المدد ، فأمر الأخير الأُمجد صاحب بعلبك والمجاهد شيركوه صاحب حمص بتقديم العون للمنصور وحينما اكتملت النجدات لديه تقدم لقتال الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا من حصن الاكراد (٤) وطرابلس والحصون التي حولها والتقى بهم في ثالث رمضان ٩٩ هـ / يونيو ١٢٠٣ م وهزمهم وأسر من قادتهم وفرسانهم جماعة

-
- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٣-١٥٤ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٣٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ٢٤٥-٢٤٦ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ١٦٠ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٤٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ٢٤٨ ، المقرئ : السلوك ج١ ص ١٦٠ .
(٤) حصن الاكراد : حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب وهوبين حمص وبعلبك ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

" وبعث بهم الى حماة فدخلوها راكبين خيولهم ، لا بسين عددهم
وبأيديهم رماحهم وكان يوما مشهودا " (١) .

وأرسل الداوية (٢) بعد المعركة مباشرة الى المنصور صاحب حماة
رسولا ليخبره بوصول الفرنج الى عكا في ستين الف فارس وانهم سوف
يقصدون جبلة واللاذقية وأن مقدم الاسبتارية (٣) ومقدم الداوية والملك
عموري لوزجنان سوف يمضون الى ملك الأرمن ليصلحوا بينه وبين

(١) العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٢٧٨ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب ج ٣ ص ١٤٣-١٤٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٤ قسم ٢
ص ٢٥٢-٢٥٥ .

(٢) الداوية : وهي طائفة فرسان المعبد (Temples) وتختلف
عن الاسبتارية في كونها نشأت أصلا على اساس حربي منذ
سنة ٥١٢هـ / ١١١٨ م ، واتخذت هذه المنظمة العسكرية من
ساحة المسجد الأقصى مقرا لها ، وتعهد أتباعها بحماية الطريق
بين يافا وبيت المقدس ، ثم اسهم فرسان الداوية في جميع الاعمال
العدائية التي قام بها الصليبيون في بلاد الشام واضحت
الداوية تابعة للبابوية مباشرة شأنها في ذلك شأن الاسبتارية
وشكلت مع الاسبتارية أقوى دعامتين للوجود الصليبي في بلاد
الشام = انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٤٨٧-
٤٨٩ ، رنسيان : الحروب الصليبية ج ٢ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ،
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٧ حاشية رقم (٥) ،
البازالعريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٣٥٩ .

(٣) الاسبتارية (Hospitallers) طائفة من الفرسان الصليبيين
نشأت منذ فجر الحروب الصليبية وبدأت أول الأمر على هيئة
جمعية هدفها العناية بمرضى الصليبيين واياء الحجاج
ورعايتهم ، وطبقت مبادئ الديرة البندكتية في فلسطين
ولم تلبث ان تخلت عن تبعيتها للبندكتية وانتمت للبابوية مباشرة ،

صاحب انطاكية ثم يتحد الجميع على قتال المسلمين . ولم تكن هذه الانبياء التي حملها مندوب الداوية سوى محاولة لتخويف الملك المنصور لا جباره على توقيع الصلح مع الاسبتارية ، بعد أن انزل بهم الهزيمة السابقة فسي شالت رمضان ٥٩٩ هـ / يونيه ١٢٠٣ م ، فقد طلب الاسبتارية من الداوية التوسط لدى المنصور . وهكذا حاول الداوية تخويف المنصور بحمل هذه الانبياء الكاذبة غير ان المنصور أبدى شجاعة ورباطة جأش في جوابه لمبعوث الداوية وقال له : " بأننا لا نجزع بما تقول ولا نكثر ولو انهم اضعاف ذلك لنا جرتهم . . . ولا سبيل الى مصالحة الاسبتارية بوجه " وعندما أدرك مبعوث الداوية اصرار المنصور على عدم مصالحة الاسبتارية تضرع اليه معذرا عن قوله الأول وتوسل اليه إبقاء الصلح بينه وبين الداوية فأجابه المنصور الى طلبه " فسر الرسول بذلك وقام وكشف رأسه وقبل يده " (١) .

=== ثم تطورت واكتسبت صفة حربية فاصبح اعضاءها يرتدون زى الرهبان ويقاتلون من على ظهور الخيل كالفرسان تماما ، وندروا انفسهم لقتال المسلمين واشترك افرادها في العدوان على المسلمين منذ سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م وكانت مع طائفة الداوية من الدعائم الأساسية التي اسهمت في حماية كيان الصليبيين طوال اكثر من قرن من الزمان ، وقد سيطر الاسبتارية على العديد من القلاع الحصينة في بلاد الشام مثل حصن الاكراد ، وقلعة المرقب وغيرها = انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٤٨٦ - ٤٨٧ ب ; البار العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٢٥٧ - ٣٥٨ ؛ رنسيان : الحروب الصليبية ج ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٩ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٣ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤٥ - ١٤٧ ؛ تاريخ ابن

الفرات ج ٤ قسم ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

وحينما علم الاسبتارية برفض المنصور مصالحتهم بادروا بالعدوان فاجتمعوا من حصن الاكراد والمرقب ومن وصل اليهم من الغرب ، واغاروا على بارين ، فتقدم اليهم المنصور وانزل بهم هزيمة ساحقة " وقتل منهم مقتلة عظيمة " وأسر منهم جماعة وذلك في أواخر رمضان ٩٩٥ هـ / يونيه ١٢٠٣ م وعاد المنصور الى حلب ومدحه الشعراء بهذه المناسبة (١) .

وبعد انتصار المنصور على الاسبتارية أرسل الى السلطان العادل يخبره برغبتهم في الصلح ، ويطلب أوامره في ذلك الأمر فرد عليه العادل برسالة اوضح له فيها انه لديه من التقارير ما يؤكّد ضعف موقف الصليبيين جميعا في بلاد الشام . وترك العادل للمنصور الحرية في عقد الصلح مع الاسبتارية اذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين (٢) . ودارت المراسلات بين المنصور والاسبتارية وتم عقد هدنة بين الجانبين في أوائل سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م (٣) .

ويجب أن نشير هنا الى الحملة الصليبية الرابعة التي دعي اليها البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) وكان هدفها الاتجاه الى مصر غير انها انحرفت عن هدفها واستولت على القسطنطينية عاصمة

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ؛ وانظر أيضا : العيني : عقد الجمان ج٣ مخطوط لوحة ٢٧٨ - ٢٧٩ ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١٠٩ ب ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٠٣ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ٢٦٠ .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٥٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ١ ص ١ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٠٥ .

الدولة البيزنطية في سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م واقام بها الصليبيون امبراطورية لاتينية ظلت قائمة حتى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م .^(١)

ومن المعروف أن الدولة البيزنطية رأيت منذ فجر الحركة الصليبية على وضع العراقيل امام الصليبيين بسبب النفور المستحكم بين الكنيستين الشرقية والغربية^(٢) ، غير ان استيلاء الصليبيين على القسطنطينية واقامة امبراطورية لاتينية بها منح جموع الصليبيين القادمين من أوروبا ميزة فريدة حيث وفر لهم قاعدة متقدمة يستطيعون الحصول على مساعدتها ودعمها في حملاتهم على بلاد الشام ، ونتج عن ذلك تغيير ميزان القوى لصالح الصليبيين . وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ ابن الاثير فذكر انه في سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م " خرج جمع كثير من الفرنج في البحر الى الشام وسهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية وأرسوا بعكا وعزموا على قصد بيت المقدس " .^(٣)

وبعد أن اخذوا قسطنطينية من الراحة بعكا خرجوا الى نواحي الاردن وأغاروا على بلاد المسلمين وفتكوا بهم ، وكان السلطان العادل بدمشق فأرسل على عجل يستدعي المعسكر من بلاد الشام ومصر ، وسار بنفسه الى الطور لمنع الصليبيين من المضي قدما في غاراتهم على بلاد الشام ،

(١) عن الحملة الصليبية الرابعة والاستيلاء على القسطنطينية واقامة

امبراطورية لاتينية بها انظر تفصيل هذا الموضوع في :
The Cambridge Medieval History Vol. IV
(The Byzantine- Empire) pp. 275-330.

وانظر ايضا كتاب : اسمت غنيم ، الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٩٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ١٩٤ .

ولكنهم أغاروا على كفرننا بمرج عكا وأخذوا كل من كان بها من المسلمين ونهبوا أموالهم . وحث أمراء الجيش السلطان العادل على مهاجمة الأراضى الخاضعة لهم الا أنه تردد في اجابة رغبة قاداته ، وأخيرا جرت المراسلة بينه وبين الفرنج وعقد الصلح بين الجانبين فسي سنة ١٢٠٥م / ٦٠١هـ وتنازل لهم العادل عن جميع المناصبات التي كانت للمسلمين في صيدا والرملة وصفد كما أعطاهم الناصرة وغيرها وسار عائدا نحو الديار المصرية (١) .

وهنا يتبادر الى الذهن تساؤل هو ، لماذا تلكا العادل في الانتقام من الصليبيين رغم الحاج قاداته بالاغارة عليهم ؟ ولماذا قدّم لهم تلك التنازلات في الصلح الذى عقده معهم ؟ من الواضح ان السلطان العادل كان على علم تام باستيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية وأدرك أن ذلك منح الصليبيين ميزة عسكرية هامة وأعطاهم قاعدة متقدمة يستطيعون بمساعدتها الاستمرار في حملاتهم على بلاد الشام ، ويبدو أن العادل توقع قدوم حملة جديدة كبيرة ، لذلك آثر عدم استنفاد قواه في معارك صغيرة مع الصليبيين في بلاد الشام اضافة الى اثاره عدم استئثار البابوية والصليبيين في الغرب الأوربي ، لأنه تعلم من التجارب السابقة مع الصليبيين ان كل هزيمة يوقعها المسلمون بالصليبيين يترتب عليها ردة فعل عنيفة لدى الغرب الأوربي ويتمثل رد الفعل

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٥٣ ب؛ الجنابي : البحر الزاخر ج ٢ ورقة ١٨ أ ب ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٥٩ ، ١٦٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٥ قسم ١ ص ١٣ ، ٢٠ - ٢١ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٩٤ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٦٣ - ١٦٤ .

ذلك في تجريد حملة جديدة الى بلاد الشام . ويبدو أن كل هذه
الاعتبارات هي التي حملت السلطان العادل على عدم مهاجمة الصليبيين
بالشام بل وتقديم التنازلات لهم لتوقيع الصلح معهم .^(١)

ومن الواضح ان الصلح الذي عقده العادل مع الصليبيين كان
قاصرا على ملكة بيت المقدس الصليبية ، ولم يلتزم فرسان الاسبتارية في
حصن الاكراد وغيره بالهدنة التي عقدها العادل مع الصليبيين . وما
يبرهن على صحة هذا القول ان الاسبتارية أغاروا في سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٥م
على حماه لأن الهدنة التي كانت بينهم وبين ملكة حماة انتهت ، وانضم
الى الاسبتارية في هذه الغارة بعض الصليبيين الآخرين ، ووصلوا الى
قرب مدينة حماة نفسها وقتلوا أعدادا من المسلمين العزل وسبوا النساء
الفسلات من على ضفة نهر العاصي وعادوا الى حصونهم محملين بالغنائم ،
ولم يستطع المنصور صاحب حماة عمل شيء ازاء هذه الغارة سوى طلب التجارة
من المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق الذي أرسل اليه عسكرا
لمساعدته ولكنه لم يشتبك مع الصليبيين بعد أن دارت المفاوضات بين
المنصور والفرنج وعقد الجانبان هدنة بينهما لمدة معينة .^(٢)

ولكن الصليبيين نظروا الى هذه الهدنة على انها بينهم وبين
ملكة حماة فقط ولذلك أغاروا في السنة نفسها على أراضي حمص وقتلوا

-
- (١) انظر أيضا سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٠٤ .
(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصور ص ٤٤ - ٤٥ وحاشية رقم (١) ؛
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٦٣ - ١٦٤ ؛ تاريخ ابن الفرات
ج ١ ص ٢٢ - ٢٤ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٥١ ؛
أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٠٦ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر
ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

وأُسروا من اهل حمص جماعة ، فتصدى لهم المجاهد صاحب حمص وردهم على أعقابهم^(١) . ولم يكتف المجاهد بذلك بل شن الغارة على أعمال حصن الاكراد التابع للاستتارية وغنم اعدادا هائلة من الاغنام والماشية.^(٢)

ولم تتوقف المناوشات بين المسلمين والصليبيين طيلة سنة ١٢٠١هـ / ١٢٠٥م ، فقد نشبت معركة بين والي جبلة التابعة لمملكة حلب وبين الاستتارية في حصن المرقب واستطاع والي جبلة انزال الهزيمة بهم غير أنهم اسروا ابنه فارتفعت معنوياتهم وطمعوا في المسلمين^(٣) . فأرسل الظاهر صاحب حلب عسكره الى حصن المرقب فهدموا احد ابوابه وعادوا الى حلب وأيديهم ملانة بالغنائم^(٤) . ورد الصليبيون في طرابلس على ذلك بالاغارة على جبلة واللاذقية في ذى القعدة ١٢٠٥هـ / ١٢٠٥م ، وتمكنوا من استدراج المسلمين والايقاع بهم ان نصبوا معظم معسكرهم كميناً للمسلمين وامروا فرقه صغيرة من الصليبيين بالتقدم الى جبله وحينما شاهدت حامية جبلة فرقة الفرنج طمعت فيها لقله عددها ، فطاردها فخرج عليهم كمين الفرنج وقتلوا من المسلمين جماعة كثيرة وعادوا الى طرابلس بالغنائم والسبي^(٥) .

(١) ابن نطف : التاريخ المنصور ص ٤٦١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج ٣ ص ١٦٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٤-٢٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٦٨ .

(٣) ابن نطف : التاريخ المنصور ص ٤٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٦٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٩ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٦٦-١٦٧ ؛ تاريخ ابن الفرات

ج ١ ص ٣٠-٣١ .

وتواصلت اعتداءات الصليبيين في بلاد الشام على بلاد المسلمين فأغاروا من حصن الاكراد وطرابلس على حمص ولا سيما في سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٧م ، ويبدو أنهم طمعوا في الاستيلاء على حمص ولم يستطع المجاهد صاحب حمص دفعهم عن مملكته فاستنجد بالظاهر صاحب حلب وغيره من ملوك الشام ، ولم ينجده الا الظاهر حيث أرسل له عسكريا لمساعدته على صد الصليبيين (١) .

وازاء ذلك العدوان الصليبي المتكرر لم يجد العادل بدا من القيام بمسؤولياته تجاه المسلمين باعتباره سلطان الدولة الأيوبية ، فخرج من مصر بجيشه الى بلاد الشام في سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٧م وفي طريقه نازل عكا وطالب حنادي بريين الوصي على مملكة بيت المقدس بأن يكف عدوان قراصنة الصليبيين في قبرس الذين هاجموا مصر في العام السابق وتعرضوا لبعض سفن الاسطول المصري في عرض البحر ، فأجاب صاحب عكا بأنه ليس في وسعه إعطاء الاوامر للصليبيين قبرس لأنه لا سلطة له عليهم ، وتم توقيع الصلح بين العادل وصاحب عكا الذي اطلق بموجب الصلح سراح الأسرى المسلمين واصبح في مقدور العادل ان يتفرغ للاسبتيارية وانصارهم في حصن الاكراد وطرابلس وغيرها (٢) .

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٧٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٧٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج٣ ص ١٧٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ج١ ص ٤٧-٤٨ ؛

تاريخ ابن خلدون ج١ ص ٣٩٥ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب

ص ٢١٥ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٠٨ .

ورحل العادل عن عكا وسار الى دمشق ثم خرج منها عازما على
الجهاد ، وأرسل يستدعي ملوك بني أيوب لشد أزره والوقوف الى جانبه
في مواجهة الصليبيين ، فجاءته المعسكر من الجزيرة وبلاد الشام واجتمع
عنده زهاء عشرة الاف فارس وعسكروا معه عند بحيرة حمص ، وبعد أن قضى
شهر رمضان ٦٠٣هـ / ابريل ١٢٠٧م أشاع انه يريد قصد طرابلس ليباغت
الاستراتيجية في حصن الاكراد ثم سار اليه وقاتله قتالا شديدا وفتح
برجا قريبا منه يسمى أعناز وأخذ منه خمسمائة أسير وأموالا وسلاحا كثيرا^(١).

ثم توجه العادل بجيوشه الى جهة امارة طرابلس الصليبية ، وحاصر
إحدى القلاع القريبة منها ونصب عليها المنجنيقات وضربها حتى فتحها
واستولى على ما كان فيها من اموال وذخائر ، ورحل عنها الى طرابلس ونازلها
وقذفها بالمنجنيقات وضيق على الفرنج بها اشد تضيق ، وهاجمت عساكر
المسلمين قرى طرابلس وبساتينها وقطعوا عيون الماء المؤدية الى طرابلس
واستمر القتال حتى شهر ذي الحجة سنة ٦٠٣هـ / يولييه ١٢٠٧م^(٢) ولقد
كان في مقدور العادل في هذه الحملة بما توافر له من امكانات مادية كبيرة
فتح طرابلس والقضاء على إحدى الامارات الصليبية الهامة في بلاد الشام ،
ففرسانه بلغوا هذه المرة عشرة الاف فارس إضافة الى مجموعة قيمة من
المنجنيقات والالات الحصار ، غير أن العادل حسب ما ذكره المؤرخون

(١) العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٢٩١ - ٢٩٢ ؛ الخطيب العمري :

الدر المكنون ورقة ١١١ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٢ -

١٧٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٥ قسم ١ ص ٤٩ - ٥٠ ؛ المقرئ :

السلوك ج ١ ص ١٦٦ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٠٧ - ١٠٨ ؛

ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٦٠ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٢٩٢ ؛ الخطيب العمري : الدر

المكنون ورقة ١١١ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٣ ؛

تاريخ ابن الفرات ج ٥ قسم ١ ص ٥١ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ١٦٦ ؛

ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٠٨ .

المسلمون لاحظ في اصحابه "فشلا وضجرا" ^(١) ولم يوضح المؤرخون سبب ذلك الضجر والفشل ، على أن السبب لا يمكن أن يخفى عنا ، فنقطة الضعف التي عانت منها العسكرية الاسلامية زمن الحروب الصليبية تكمن في طبيعة الاقطاع الحربي الذي ساد تلك الحقبة ، فالجنود الذين احترفوا الجندية كانوا كما سبق أن اوضحنا ^(٢) يمتلكون اقطاعات زراعية وليس لهم رواتب مقررة ، وكانوا يحتاجون الى العودة الدورية الى اقطاعاتهم للعناية بمحصولاتهم والاشراف على تخزينها وبيعها ، ويتضح هذا من أن العادل ادرك الضجر من عساكره في ذى الحجة ٦٠٣هـ / الموافق لشهر يولييه ١٢٠٧م وشهر يولييه كما هو معروف من اشهر الصيف حيث تنضج فيه معظم الفواكه ، ويبدأ فيه حصاد القمح في بلاد الشام والجزيرة ، ولهذا فمن الطبيعي أن يتقاعس فرسان الأيوبيين بغية الاذن لهم بالعودة لجنى محصولاتهم والاشراف على فلاحيتهم . ولذلك عاد السلطان العادل الى حمص وتبادل المراسلات مع صاحب طرابلس الذي بعث اليه بمال وهدايا وثلاثمائة اسير من المسلمين وتم توقيع الصلح بين الجانبين في آخر شهر ذى الحجة سنة ٦٠٣هـ / يولييه ١٢٠٧م ^(٣)

- (١) العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٢٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٥ ص ٥١ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٦٦ .
- (٢) انظر ما سبق الفصل الاول ص : ٦٦ - ٦٧ .
- (٣) العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٢٩٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٥ ص ٥١ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٦٦ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٦٠ .

ولكن فرسان الداوية والاسبتارية دأبوا دائما على خرق الهدنة مع المسلمين ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنهم شنوا الغارة سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ - ١٢٠٩ م على حمص ووصلوا الى باب تدمر - أحد أبواب حمص - بعد أن مدوا جسرا من الخشب على نهر العاصي وعبروا عليه الى الضفة الشرقية للنهر ، ولكن المسلمين في حمص تصدوا لهم وردوهم على أعقابهم وحازوا أخشابهم وما تركوه من اثقالهم (١) .

ولم تتوقف جموع الصليبيين المتعصبين عن التدفق على بلاد الشام ، ففي سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م تحركوا جهة ساحل الشام واحتشدت بعكا اعداد كبيرة منهم ، وشرعوا في شن الغارات على بلاد المسلمين في فلسطين ، فخرج المعظم بن العادل صاحب دمشق للتصدي لهم (٢) .

ولقد اثارت غارات الصليبيين المتكررة حفيظة جمهور المسلمين في عاصمة بلاد الشام دمشق ان أدت كما يذكر المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي الى قيام حركة جهاد شعبية ، انطلقت من دمشق للتأثر من الصليبيين ، فاجتمع عشرات الألوف من سكان دمشق في الجامع الأموي للاستماع الى موعظة المؤرخ سبط ابن الجوزي التي القاها عن فضائل الجهاد ، وبلغت الحماسة بالمسلمين حدا جعل الكثير من نساءهم يقدمن على قص شعورهن لجعلها شكالات لخيول المجاهدين ، ويقول سبط ابن الجوزي

(١) العيني : عقد الجمان ، ج٣ ، لوحة ٣١٤ ؛ ابو شامة : ذيل

الروضتين ص ٦٧ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج٣ ، لوحة ٣٢٧ ؛ الجنابي : البحر الزاخر

ج٢ ورقة ١٨ أ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٥٧ ؛

تاريخ ابن الفرات ج١ ص ١٠٧ .

عن تلك الشعور: " ولما صعدت المنبر أمرت باحضارها فحملت على أعناق الرجال وكانت ثلاثمائة شكال ، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها وقامت القيامة ". وخرج سبط ابن الجوزي من دمشق واحتشد المطوعون من سكان دمشق في إثره ووصلت الحماسة بين صفوف سكان دمشق ذروتها حتى أن قرية واحدة من قراها تسمى زملكا انخرط جميع سكانها في صفوف الخارجين للجهاد وذكر ابن الجوزي ان عدد من خرج منها " ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح " وخرجت تلك الجموع من دمشق احتسابا للجهاد في سبيل الله ، ووصلوا الى عقبة فيسق والطير لا يقدر ان يطير خوف الفرنج " وساروا حتى وصلوا الى نابلس فاستقبلهم المعظم عيسى بن العادل ، واجتمع بهم في جامع نابلس ، وأحضروا الشعور بين يديه " فأخذها وجعلها على صدره ووجهه وجعل يبكي وكان يوما عظيما ". وعندما وصلت اخبار تلك الجموع الى الصليبيين في عكا وغيرها من المعاقل تحصنوا داخل اسوارهم وقلاعهم ولم يتجاسروا على الخروج ، فأغار المسلمون على بلادهم وقطعوا أشجارهم ، وقتلوا وأسروا من ظفروا به منهم . ثم سار المسلمون في صحبة المعظم الى الطور حيث استقر رأيه على بناء قلعة على الطور . ولقد نجم عن هذه الحركة الشعبية أن اشتد الخوف بالصليبيين فراسلوا السلطان العادل يطلبون الصلح فأجابهم اليه .^(١)

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤٤ - ٥٤٥ ؛ وانظر أيضا العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ٦٩ - ٧٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ص ٥٧ - ٥٨ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ١٨ .

ويمكن أن نستنتج من هذه الحادثة التي أوردها سبط ابن الجوزي الحقائق التالية :

أولاً : شعور عامة المسلمين في بلاد الشام بوجوب إقامة فريضة الجهاد التي تصبح فرض عين على كل مسلم قادر وبخاصة وأن العدوان مستمر على بلاد المسلمين من جانب الصليبيين .

ثانياً : رفض المسلمين في بلاد الشام لحالة الجمود التي خيمت على سياسة الحكام المسلمين بعد وفاة صلاح الدين ، حيث توقف زخم حركة الجهاد لتحرير البلاد المغتصبة من أيدي الصليبيين وهي السياسة التي بدأها صلاح الدين وقطع فيها شوطاً بعيداً .

ثالثاً : استعداد جميع المسلمين في بلاد الشام لتقديم التضحيات وحشد الطاقات وتقديم الغالي والنفيس في سبيل استرداد الحقوق وتصفية الوجود الصليبي الدخيل من بلاد الشام .

رابعاً : أظهر المسلمون في دمشق - بهذه الحركة - رفضهم لسياسة المهادنة التي يلجأ إليها ملوك الشام بعد كل اشتباك مع الصليبيين .

وقد استمر الملك المعظم عيسى بن العادل في بناء قلعة الطور على جبل الطور المشرف على طبرية طوال سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١-١٢١٢م وأنفق في سبيل ذلك أموالاً كثيرة حتى غدت قلعة الطور في غاية الحصانة والمنعة . وقد شعر الصليبيون في عكا ويافا وغيرها من مدن ساحل فلسطين ، بخطورة بناء تلك القلعة لأنها تشرف على قلاعهم وحصونهم المقابلة للمسلمين في بلاد الشام ، فسارعوا بطلب الصلح من السلطان العادل وأرسلوا في الوقت نفسه إلى الغرب الأوربي يشرحون للصليبيين وللبابا انوسنت الثالث خطورة بناء قلعة الطور ذات الموقع الهام وتهديدها

المباشر للممتلكات الصليبية في بلاد الشام ، ويحثونهم على القيام بحملة صليبية للاستيلاء على هذه القلعة الجديدة ، وهكذا كان بناء قلعة الطور من الأسباب الرئيسية التي أدت الى قدوم الحملة الصليبية الخامسة .^(١)

وفي سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م قتل الباطنية^(٢) في بلاد الشام ريموند بن بوهيمند الرابع امير انطاكية وطرابلس (١٢٠١-١٢١٦م) بينما كان في كنيسة انطربوس ، ويبدو أن ذلك كان بايعاز من طائفة الاسبتارية أعداء بوهيمند الرابع ، فاشتد حزنه وغضبه وشن الحرب على بلاد الباطنية

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤٥ ، ابن نطف :

التاريخ المنصور ص ٦٤ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٧٠ ،

تاريخ ابن الفرات ج ٤ قسم ١ ص ١٠٧ ؛ ياقوت الحموي : معجم

البلدان (مادة طور) ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية

الخامسة ص ١٤٦ .

(٢) الباطنية؛ فرقة من الاسماعيلية الذين يشبتون الامة في اسماعيل بن

جعفر الصادق ، والباطنية لقب من القابهم لقولهم : " ان لكل

ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا " وقد أسس حركة الباطنية

الحشيشية الحسن بن محمد الصباح الذي سافر من ايران وقابل

ال خليفة الفاطمي المستنصر ، وتلقى منه أصول الدعوة وعاد الى فارس

واستولى سنة ٤٧٣هـ / على قلعة الموت التي عرفت باسم عش

العقاب لمناعتها وحصانتها . ووضع الحسن الصباح لاتباعه تنظيما

دقيقا وقسمهم الى خمس مراتب . وألف كتابا من أربعة فصول

ضمنه أهم مبادئ دعوته . وجند فئة من أتباعه عرفت

باسم الفدائيين او الحشيشية - لتعاطيهم الحشيش أثناء تنفيذ

عملياتهم - وتميزت طائفة الحشيشية بقوة ابدانها وطاعتها

العمياء لزعمائها فهم لا يتخرجون عن اغتيال خصومهم بالخناجر

مهما كانت النتائج حتى اتخذوا من الاغتيال فنا . وقد ظهر

.....

=== نفوذهم في بلاد الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، واستطاع الباطنية خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، السيطرة على العديد من القلاع الحصينة في بلاد الشام مثل مصياف قرب طرابلس والخوابي وغيرها . وبدأوا نشاطهم بعد وصول الصليبيين ، ولعبوا دورا هاما في بذور روح الكراهية بين السكان تجاه الحكام الترك والامراء المحليين الآخرين . واغتالوا بعض زعماء المسلمين والصليبيين في بلاد الشام على حد سواء ، الأمر الذي جعل زعماء الجانبين يقدمون لهم العطايا والأموال إتقاء لشهرهم . بل وبلغت الجرأة بالباطنية في بلاد الشام أن حاولوا اغتيال صلاح الدين مرتين الا انهم اخفقوا في ذلك مما جعل صلاح الدين يهاجم قلاعهم سنة ٥٧٢ هـ ، ثم قبل اعتذارهم له وتركهم ليتفرغ لجهاد الصليبيين . انظر : الشهرستاني : الملل والنحل ص ١٩٨-٢٠٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤٦-١٤٧ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١-١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩٠ ، ٢٢١-٢٢٥ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٢ ، ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤١٩ ، ٤٣٠ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٤٥-٢٤٦ ، ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ج ١ ص ٦١-٦٢ ، برنارد لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ص ٦٣ ، Cahen, La Syrie du Nord , p.191 , Gibb. The Damascus Chronicle of the Crusades, pp.29-30.

في بلاد الشام ، ونازل قلعة الخوابي (١) التي كانوا يتحصنون بها ، وقتل منهم وسبى ، فأرسلوا الى الظاهر صاحب حلب ، يستجدونه ، فأرسل لهم فرقة عسكرية للدخول الى حصنهم لمساعدتهم في الدفاع عنه ، كما أرسل فرقة من الفرسان الى جهة اللاذقية للضغط على صاحب انطاكية ، ولكن الصليبيين تغلبوا على تلك النجدة التي أرسلها الظاهر ، وقتلوا بعض رجاله وأسروا آخرين . ولما سمع المعظم عيسى صاحب دمشق بتلك الأنباء ، سار في عسكره مغيراً على اعمال طرابلس ، فنهب قراها واستاق اغنامها ومواشيها ، واسر الكثير من الصليبيين الذين وجدهم في طريقه . وعند ذلك اضطر الصليبيون الى الانسحاب عن حصن الخوابي ، واطلقوا اسرى الظاهر صاحب حلب وأرسلوا اليه يتلفونه ويعتذرون عما بدر منهم اذاً ، وهكذا فشلت حملتهم على بلاد الباطنية بفضل الفارة العنيفة التي شنّها المعظم عيسى على بلاد امارة طرابلس الصليبية . (٢)

(١) تقع قلعة الخوابي في الاقليم الجبلي على بعد خمسة عشر ميلاً الى الشرق من مدينة أنطراطوس التي تقع على ساحل بلاد الشام شمال مدينة طرابلس انظر :

Lestrangce, Palestine under the Moslems p.485.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٦٦ - ١٦٧ ؛ رنسيان : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٤٧ .

أثر الحملة الصليبية الخامسة في تاريخ بلاد الشام

٦١٤ - ٦١٨ هـ / ١٢١٧ - ١٢٢١ م

ظل الصليبيون في الغرب الأوربي يتطلعون دائماً إلى الاستيلاء على بيت المقدس منذ استعادته على يد صلاح الدين ، حتى أن البابا انوسنت الثالث أرسل رسالة إلى السلطان العادل يطلب منه التنازل عن بيت المقدس ، ويحذره من مغبة الاحتفاظ به ، وظل البابا انوسنت الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، ورغم وفاته سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م فإن خليفته هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) سار على نهجه في الدعوة للقيام بالحملة ، فأرسل إلى ملك هنغاريا اندريه الثاني (١٢٠٥ - ١٢٣٥ م) يدعو إلى القيام بحملته الصليبية التي سبق أن وعد بها ، فوافق على طلبه فبعث البابا إلى " حنادى بريين " ملك مملكة بيت المقدس يخبره أن الحملة الجديدة على وشك القدوم إليه . (١)

والواقع أن تفكير الصليبيين منذ بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، اتجه نحو الدعوة إلى السيطرة على مصر . إذ آمن الصليبيون بالشام وانصارهم في الغرب الأوربي ، بأن مصري مركز المقاومة الحقيقي في العالم الإسلامي ضد الحركة الصليبية ، وأنه منذ أن نجح نور الدين محمود في توحيد مصر والشام في إطار جبهة إسلامية واحدة والصليبيون مطوقون بالمسلمين . هذا فضلاً عما اثبتته التجارب من أن صلاح الدين اعتمد على مصر ، بمواردها البشرية والمادية الضخمة في

(١) رنسيان : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٥٧ - ٢٦٠ ، وانظر أيضاً :

الحصول على أدوات الجهاد ، فاستمد منها كل ما احتاجه من قوة ومن رباط الخيل حتى أنزل بالصلبيين الهزيمة الساحقة في حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م واسترد منهم بيت المقدس ، ولم يعد بيد الصليبيين في اواخر عهده سوى بعض مدن الشريط الساحلي من بلاد الشام . لذلك أدرك الصليبيون ان الاستيلاء على بيت المقدس لن يدوم طويلا طالما بقيت مصر الاسلامية بعيدة عن سيطرتهم . بل وستكيل لهم ضربات حتى تستعيد بيت المقدس مرة أخرى ، ولذلك استقر رأيهم على الاستيلاء على مصر لضمان السيطرة الدائمة على بيت المقدس (١) .

ومن هنا يمكن لنا القول : إن الصليبيين أدركوا قوة مصر التي انبثقت أولا من عظمة موضعها حيث الامكانات المادية الضخمة والموارد البشرية الهائلة وقدرتها على مد المجاهدين بما يحتاجونه من أدوات الجهاد ، وانبثقت تلك القوة ثانيا من تفرد موقعها بين القارات الثلاث حيث منحها ذلك الموقع مكانة فريدة وجعل منها قوة رائدة للدفاع عن محيطها الاسلامي . كما جعل منها ذلك الموقع في الوقت نفسه مطمعا لكل القوى المتربصة بالاسلام والمسلمين باعتبارها محور المقاومة الاساسي ، لذلك لا نعجب اذا اتجه تفكير الصليبيين للسيطرة على مصر كيما يدوم استعمارهم للاراضي المقدسة في بلاد الشام .

وانا كان الصليبيون قد ادركوا حقيقة ان مصر اصبحت قاعدة ومركزا للقوة الاسلامية شرق البحر المتوسط (٢) . فان المؤرخين المسلمين

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٢٠ - ٩٢١ ؛

Campbell , The Crusades pp.382-383,

The Cambridge History of Islam p.207. (٢)

ادركوا هذا الاتجاه الذي طرأ على تفكير الصليبيين ، ان يقول المؤرخ ابن واصل ؛ " ولما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدأون بقصده ، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا ، وقالوا : " ان صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر ، وتقويته برجالها ، فالمصلحة ان نقصد أولا مصر ونملكها وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن القدس وغيره من البلاد " (١) وبدأت طلائع الحملة الصليبية الخامسة في الوصول الى عكا سنة ٦١٤هـ / ١٢١٢م بقيادة اندريه الثاني ملك هنغاريا الذي كان يقود خمسة عشر الف مقاتل كما شارك في الحملة ليوبولد السادس دوق النمسا وهيو الأول ملك قبرس (١٢٠٥ - ١٢١٨ م) . واجتمع الصليبيون في عكا واستقر رأيهم على الاستيلاء على قلعة الطور للاهمية العسكرية التي تمتاز بها وسيطرتها على اقليم الجليل ، ثم التقدم بعد ذلك لاحتلال بقية فلسطين وجميع ما استرده صلاح الدين من الصليبيين قبيل موته (٢) .

وحين سمع السلطان العادل بوصول طلائع الحملة الصليبية الى عكا (الحملة الهنغارية) خرج مسرعا من مصر لصد هذه الجموع الصليبية الجديدة . ونظراً لأنه كان في قلة من العساكر ، فانه حينما وصل الى الشام تحاشى الاصطدام بالصليبيين ، لأن هزيمته امامهم وهو السلطان سيكون لها آثار سيئة على الموقف الاسلامي برمته ، ولذلك

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٨ ؛ وانظرا ايضا : تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
- (٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٥٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٢١٩ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩١٦ - ٢١٧ .

فعندما وصل الى بيسان تراجع حتى لا يواجه الصليبيين فسأله ابنه المعظم عيسى قاعلاً : الى اين ؟ فشمته بالعجمية وقال بمن أقاتل ؟ أقطعت الشام ماليك وتركت اولاد الناس الذين يرجعون الى الاصول ، وذكر كلاماً كثيراً في هذا المعنى ^(١) ، كما يذكر ابن الاثير ان العادل لم يشأ ان يلقي الصليبيين فيمن معه "خوفاً من هزيمة تكون عليه وكان حازماً كثير الحذر ، ففارق بيسان نحو دمشق ليقوم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر" ^(٢) ، ويستنتج بعض الباحثين المحدثين من عبارة ابن الاثير هذه ، ان السلطان العادل لم يكن مستعداً للحرب ^(٣) . غير أن الامر لم يكن كذلك ، وانما طبيعة تكوين الدولة الايوبية كانت هي السبب لانها تعتمد في عسكريتها على نظام الاقطاع الحربي ، فبلاد الدولة الايوبية كما هو معروف مقسمة الى اقطاعات بين امراء البيت الايوبي وغيرهم من القادة العسكريين الذين كان عليهم مقابل تلك الاقطاعات تقديم الخدمة العسكرية للسلطان وقت الحرب ، بمعنى أن الدولة الايوبية لم تكن ذات جيش كبير دائم التواجد مع السلطان والى جانبه وانما يوجد وقت الحرب فقط ، حتى اذا ما انتهى القتال تعود هذه العساكر الى اقطاعاتها . يضاف الى ذلك أن السلطان العادل فوجيء بوصول الصليبيين الى عكا واندفاعهم الى بيسان بحيث لم يتوفر له الوقت اللازم لاستدعاء العساكر قبيل وصول الصليبيين الى بيسان ، وهو الامر

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٨٣ ؛ ابو شامة : ذيل

الروستين ص ١٠٢ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢١ ؛ وانظر ايضا : ابن واصل

مفرج الكروب ج ٣ ص ٣٥٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٢٠ ؛

تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٩٨ .

(٣) انظر محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ١٨٣ حاشية

الذى تحقق في نهاية المطاف وأسهم في فشل الحملة الصليبية الخامسة برمتها .

وعلى أية حال فقد اطمأن اهل بيسان وما حولها بقرب السلطان العادل منهم ^(١) . غير أنه سرعان ما انسحب مندفعاً امام الصليبيين وعبر نهر الاردن قاصدا الصعود نحو دمشق في اواخر شعبان سنة ٦١٤هـ / نوفمبر ١٢١٧م ^(٢) . ولقد جاء انسحاب العادل كارثة على اهل بيسان ان تقدم ملك هنغاريا على رأس قواته اليها " وبها الاسواق والفلال والمواشي شيء لا يعلمه الا الله تعالى فأخذ الجميع " ^(٣) . ويفهم من هذه العبارة : أنه كان يوجد في بيسان سوق دورى لسكان المنطقة ، تباع وتشتري فيه الموءن والمواشي والذخائر وغيرها . ومما يركي هذا الرأى ان ابن الاثير يقول : " فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة ، وغنموا شيئا كثيرا " ^(٤) . ويمكن لنا أن نتصور حجم الكارثة التي لحقت بأهل بيسان اذا ما عرفنا ان غارة الصليبيين كانت في أواخر شعبان ، والمعروف أن الاسواق الدورية في البلاد الاسلامية تبلغ ذروة نشاطها خلال المواسم الدينية ولا سيما قبيل شهر رمضان والعيدين .

-
- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٥ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٢٢١ .
- (٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٥٨٣ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٥ .
- (٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٥٨٣ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢ .
- (٤) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢١ .

ولم يقتصر عدوان الصليبيين على بيسان واسواقها بل نهبوا كل المناطق الواقعة ما بين بيسان وبانياس فنشروا سراياهم العسكرية في جميع قرى المنطقة ووصلت غاراتهم الى قرب بلاد السواد الواقعة شرقي طبرية . وحاصروا نابلس ثلاثة أيام ثم عادوا الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي ما يفوق الوصف ، اضافة الى ما فعلوه باهل تلك المناطق من القتل والحرق والخراب ، وبعد ان اخذوا قسطا من الراحة بمرج عكا ، أغاروا مرة ثانية على مناطق صيدا والشقيف ، ولم يسلم احد من سكان هذه المناطق الاسلامية الا من تمكن من الفرار والنجاة بنفسه (١) .

وانتشرت موجات عارمة من الخوف والقلق بين صفوف المسلمين داخل مدينة دمشق وما جاورها (٢) . وتوقع العادل ان يشن الصليبيون الهجوم على دمشق ، فأرسل الى والي دمشق يأمره بالاستعداد وتجنيد الرجال وتدريب سكان دمشق وقراها على أعمال المقاومة ، وأمر بنقل غلة داريا - أشهر قرى غوطة دمشق - الى داخل القلعة ، وغمر اراضي

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٧٠ أ ب ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٣٦٨ ؛ الجنابي : البحر الزاخر ج ٢ ورقة ١٨ ب ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢١ - ٣٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧ - ١٨ ؛ ابن الفرات ج ٥ قسم ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٩٨ - ٣٩٩ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) يورد ابن الاثير قصة في ذلك فيقول : " لما سار العادل الى مرج الصفر رأى في طريقه رجلا يحمل شيئا وهو يمشى تارة وتارة يقعد ليستريح فعدل العادل اليه وحده فقال يا شيخ لاتعجل وارفق بنفسك ، فعرفه الرجل فقال : يا سلطان المسلمين انت لا تعجل فإننا ان رأيناك سرت الى بلادك وتركنا مع الاعداء كيف لا نعجل ؟ " ويلتصم ابن الاثير العذر للسلطان العادل في انسحابه قائلا : " وبالجملة فالذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخطر باللقاء على حال تفرق العساكر ، انظر الكامل ج ١ ص ٣٢٢ .

الغوطة بالمياه لمنع الصليبيين من التقدم خلالها . ولقد أدت هذه الاجراءات الى اضطراب دمشق ولجوء سكان قري الغوطة الى داخل المدينة " وغلّت الاسعار وعزم الناس على التزوج عن البلد متى تحققوا طلوع الفرنج من الغور ، وكان للناس ضجيج بالجامع في اوقات الصلاة وبكاء ودعاء^(١) .

وأرسل العادل ابنه المعظم على رأس فرقة عسكرية الى نابلس للدفاع عن بيت المقدس^(٢) . كما أرسل الى ملوك الشرق مستحثا لعساكرهم^(٣) . وكان اول ملوك بني ايوب وصولا الى دمشق المجاهد شيركوه صاحب حمص . الذى ما ان وصلها حتى خرج الدمشقيون لاستقباله واطمانوا بقدومه وزال خوفهم . وبعد ان اقام بدمشق يوما واحدا غادرها الى مرج الصفر حيث يقيم العادل منتظرا وصول كافة العساكر الاسلامية اليه^(٤) .

وتجاوز الصليبيون في غاراتهم غورا الى اردن الى الجولان ، وقرروا أخيرا مهاجمة قلعة الطور ، وقد ساعدتهم ظروف الطقس على مباغطة حامية الطور ان تقدموا في يوم كان " كثير الضباب ، فما أحس بهم اهل الطور الا وهم عند الباب وقد الصقوا رماحهم بالسور " وكان ذلك في ثاني أيام رمضان ١١٤هـ / ١٣ ديسمبر ١٢١٢ م . ولكن المسلمين خرجوا من داخل القلعة

- (١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠١-١٠٢ ؛ وانظر ايضا العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٣٦٨ - ٣٦٩ ؛ تاريخ ابن الجزري ، لوحة ٣٢٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٩١-١٩٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧٦ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١١٦ .
- (٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ١ قسم ١ ص ٢٢٢ .
- (٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢ .
- (٤) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٩٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧٦ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٨٧ .

وقاتلوهم حتى أبعدوهم الى اسفل جبل الطور ، وعادوا في رابع رمضان وطلعوا جميعا الى الجبل "ومعهم سُلَمٌ عظيم . . . وألصقوا السلم بالسور" (١) فقاتلهم المسلمون في جرأة وبسالة وتمكنوا من احراق السلم ، ورغم كثافة الصليبيين وقلة عدد المدافعين عن الطور فقد ابدى المسلمون شجاعة فائقة في الدفاع عن الحصن ، واتفقوا على الاستماتة في الجهاد ، لأنهم علموا أن تسليم انفسهم للصليبيين يعني الانتحار لما عرف عن الصليبيين الجدد من روح التعصب والحقد الاعى ضد الاسلام والمسلمين . وتمكن المدافعون من الحاق أفذح الخسائر في صفوف الصليبيين ، وقتلوا العديد من زعمائهم واستشهد بعض ابطال المسلمين . ولقد ترتب على صمود المدافعين عن الحصن ، انسحاب الصليبيين سادس رمضان ٦١٤ هـ / ٧ ديسمبر ١٢١٧ م قاصدين عكا ، فجاء المعظم بن العادل وصعد الى قلعة الطور ، وخلق على المدافعين وكافأهم على حسن جهادهم . وبذلك فشل الصليبيون في الاستيلاء على حصن الطور الذي كان بناؤه من اسباب المباشرة للحملة الخامسة . (٢)

وبعد انسحاب الصليبيين قام بطريق بيت المقدس واسقف عكا بتعميد الاطفال الاُسرى المسلمين ، وهو أمر يكشف ارتباط التبشير بالفكرة الصليبية بحيث لا يمكن فصلهما عن بعض (٣) كما يكشف ذلك التعميد

-
- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٨٤ ؛ وانظرا أيضا :
ابوشامة ذيل الروضتين ص ١٠٢ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٩١ - ١٩٢ .
- (٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٨٥ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٩٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧٧ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ١٨٨ .
- (٣) محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ١٨٨ .

ايضا روح التزمت والتعصب الديني لدى الصليبيين وحقدهم العميق تجاه الاسلام والمسلمين .

وبعد أن فشل الصليبيون امام الطور أراد ديونيس ابن اخت ملك هنغاريا أن يستأنف غاراته من جديد ، ولا سيما بعد الفنائم التي حازها الصليبيون في غاراتهم على بيسان وغيرها . وقرر ديونيس مهاجمة المناطق الجبلية الواقعة شرق صيدا ، وقد نصحه صاحب صيدا الصليبي من مغبة الاشتباك مع سكان الجبال ، موضحا له ان هؤلاء السكان رعاة وبلادهم وعرة فرفض ديونيس الاصفاء لنصيحته . فسار ومعه خمسمائة من فرسان الفرنج الى منطقة جزين الجبلية شرقي صيدا ، فاخلى السكان بلدة جزين وكنوا للفرنج الذين ما ان ترجلوا عن خيولهم حتى فاجأهم السكان وقتلوا اكثرهم " وأسروا ابن اخت الهنكري " وهرب الباقون يريدون صيدا ، وكان معهم أحد اسرى المسلمين ويدعى الجاموس ، فقال لهم : " أنا اعرف الى صيدا طريقا سهلا أوصلكم اليها ، فقالوا : ان فعلت أغنياك " فاستدرجهم الى أودية وعرة ومسالك شديدة والمسلمون خلفهم يطاردونهم ويقتلون منهم ويأسرون ، فشعروا ان الجاموس خدعهم وغرر بهم للقضاء عليهم فقتلوه ، ومع ذلك فقد أبيد معظمهم وأسرا الكثير ولم يصل منهم الى صيدا سوى ثلاثة أشخاص فقط ، وسيق الاسرى الى دمشق " وكان يوما عظيما " (١) .

وفي أواخر سنة ٦١٤هـ / ١٢٢١م سار اندريه الثاني ملك بلغاريا عائدا الى بلاده عن طريق البره وكانت حملته على بلاد الشام

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٨٥ - ٥٨٦ ؛

ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٠٣ .

بلا ثمرات بالنسبة للصليبيين سوى ما قامت به قواته من اعمال تخريبية ،
كما توفي هيو الاول ملك قبرس . ثم تشاور حنا دى بريين ملك الصليبيين
بالشام ودوق النمسا وغيرهما من زعماء الصليبيين واستقر رأيهم على تحصين
مدينة قيسارية ^(١) ، وبناء قلعة كبيرة في عثليت ^(٢) جنوبي جبل الكرمل ^(٣) ،
وهي القلعة التي عرفت باسم " قلعة الحجاج " وبعد اتمام تلك
التحصينات عاد الصليبيون الى عكا في انتظار القوات الرئيسية للحملة
الصليبية الخامسة ^(٤) .

غير انه تجددت الاشارة هنا الى أن رحيل ملك هنغاريا ووفاة ملك
قبرس لا يعني نهاية الحملة ، لأن حملتهما كانت مجرد مقدمة أو طليعة
للحملة الخامسة فقط ، ان أخذت بعد ذلك جموع الصليبيين تصل تباعا
الى بلاد الشام ، ففي اوائل سنة ٦١٥هـ / مايو ١٢١٨ م وصل الى عكا
ثلاثون الف رجل من الهنغاريين اتباع الملك اندريه الثاني ويبدو أنها
كانت قواته الرئيسية ، وانما سار هو طليعة لها ، وهذا يعني ان الحملة
الهنغارية لم تنته برحيله ، كما وصلت الى عكا جموع اخرى من النمساويين
والاسكندنافيين وغيرهم ^(٥) .

(١) قيسارية : بلد على ساحل الشام تعد في اعمال فلسطين بينها
وبين طبرية ثلاثة أيام سيرا على الاقدام . انظر ياقوت : معجم
البلدان .

(٢) عثليت : حصن بسواحل الشام يعرف بالحصن الاحمر ، فتحه

صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) جبل الكرمل : هو الجبل المشرف على حيفا بساحل فلسطين ،

انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٤) رنسيان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٦٥-٢٦٦ ؛ محمود عمران :

الحملة الصليبية الخامسة ص ١٩١ - ١٩٣ .

(٥) Lamb.H. The Crusades the Flame of Islam p.242 .

وانظر ايضا : رنسيان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٦٧ ؛ سعيد

عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٢٤ .

وقد اتصل الصليبيون - المحتشدون في عكا بزعامة حنا دى
بريين - بنجاشي الحبشة النصراني وقصدوا من وراء ذلك ان يتعاون
معهم في ضرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة^(١).
وعلى الرغم ان محاولة الصليبيين مع ملك الحبشة لم تنجح في تحقيق
هدفها الدنيء ، فانها تكشف بجلاء عن الحقد الأعمى المتأصل في نفوس
الصليبيين ضد الاسلام والمسلمين ، وتدل أيضا على جهلهم التام
بعباءة الدين الاسلامي الحنيف ، الذي لم يتعرض لكنايس النصارى
ومعابدهم بأى سوء منذ ظهور الاسلام . ان عاش النصارى في أمن
وسلام في داخل حدود الدولة الاسلامية طيلة عصورها التاريخية
المتتابعة ، ولم يواجهوا أى اضطهاد أو سوء ، لأن المسلمين عاملوهم
معاملة حسنة شعارها التسامح والرأفة ، فتركوا لهم الحرية الدينية ،
وممارسة شعائهم بالطريقة التي يرونها ، بل وحتى بعد انتصار صلاح
الدين على الصليبيين في حطين واسترداد بيت المقدس منهم لم يشأ
أن يأخذ بثأر المسلمين منهم جزاء تلك المذبحة المريعة التي ارتكبوها
عند دخولهم بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ / ١١٩٩ م بل لقي أسرى الصليبيين
المتعصبين منه كل رحمة وتسامح فسمح لهم بمغادرة القدس إلى صور ،
ولم يتعرض لكنايس النصارى أو أديرتهم حتى أشاد به المؤرخون الصليبيون
أنفسهم^(٢) . واطافة الى هذا فان تلك المحاولة التي قام بها الصليبيون

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٢٤ .

(٢) عن تسامح صلاح الدين مع أسرى الصليبيين وحسن معاملته لهم

انظر تفاصيل ذلك في رسالة الماجستير للزميل عبدالله سعيد

الفامدى : استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين ص ٢٣٨ -

٢٤٣ (رسالة ماجستير من جامعة أم القرى ، كلية الشريعة ، قسم

التاريخ سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) .

مع ملك الحبشة تشير بما لا يدع مجالا للشك الى انحراف الصليبيين عن مبادئ العقيدة المسيحية الاصلية التي أرسل بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام والتي تدعو الى التسامح والسلام مع سائر البشر. وأن ما يعتقده الصليبيون من إلتناء للديانة المسيحية لا يمت للمسيحية الحقيقية بصلة .

وعلى أية حال فقد ألق الصليبيون بجموعهم الكثيفة من عكا بقيادة حنا دى بر بين قاصدين مصر ، وابتحروا حتى وصلوا قرب دمياط حيث يصب احد فروع نهر النيل في البحر المتوسط ، وتقع مدينة دمياط على الضفة الشرقية لذلك الفرع ، فنزل الصليبيون اواخر ربيع الأول ٦١٥هـ/ مايو ١٢١٨ م ونزلوا ببر الجيزة على الضفة الغربية لفرع النيل بحيث صار يفصلهم عن مدينة دمياط فرع نهر النيل . (١)

وكان المسلمون في مصر قد بنوا في مجرى النيل المحاذي لدمياط برجاً بالغ التحصين وجعلوا فيه سلاسل حديدية ضخمة لمنع المراكب المعادية من الصعود في نهر النيل الى ديار مصر " ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها (٢) .

وبعد أن استقر الصليبيون ببر الجيزة المقابل لدمياط ، بنوا حول معسكرهم سورا ، وحفروا خندقا وشرعوا في قتال اهل دمياط ، واتخذوا

(١) الخطيب العمري : الدر المنكون ورقة ١١٥ أ ؛ تاريخ ابن الجزري مخطوط لوحة ٣٢٥ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٣ ، ابن واصل :

مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٨ ؛ تاريخ ابن الفرات : ه قسم ١ ص

The Cambridge History of Islam
p. 207. ؛ ٠٢٢٨-٢٢٢٧

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٣ .

الات ومرمات^(١) وابراجا يزحفون بها في المراكب نحو برج السلسلة في محاولات جادة للاستيلاء عليه لكي تدخل سفنهم في مياه النيل ، وكان برج السلسلة مشحونا بالمدافعين المسلمين الذين ما انفكوا يدافعون عنه في شجاعة فائقة . وحينما نزل الصليبيون ببر الجيزة تقدم الملك الكامل الى قرب دمياط على الضفة الشرقية في مكان يسمى " العادلية"^(٢) .

وتقدمت عساكره على الضفة النهر الشرقية لمنع العدو من العبور اليها . وظل الصليبيون يقاتلون برج السلسلة زهاء ثلاثة أشهر دون أن يظفروا بشيء بل وكسرت مرماتهم وآلاتهم . بينما ظل السلطان العادل يواصل ارسال النجيدات تباعا من بلاد الشام الى ابنه الكامل بشفر دمياط حتى لم يبق معه في بلاد الشام سوى القليل من العساكر وذلك خوفا على مصر من الصليبيين الذين عقدوا العزم على الاستيلاء عليها^(٣) .

ولجأ السلطان العادل الى الضغط على البلاد الخاضعة للصليبيين في بلاد الشام ، فأمر ابنه الأشرف موسى ان يهاجم بلاد الفرنج ، فسار بعسكره الى حمص سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م ودخلوا منها الى صافين^(٤)

-
- (١) المرمة : نوع من السفن الكبيرة في العصور الوسطى ، يظهرانها من أصل ايطالي ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٦٠ حاشية رقم (١) ؛ سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٦٨ .
- (٢) العادلية : قرية قرب شفر دمياط أسسها السلطان العادل سنة ٦١٤هـ / انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٦٠ ، حاشية رقم (٢) .
- (٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٩ - ٢٦١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ؛ محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ٢١٣ .
- (٤) صافينا : من اشهر حصون الداوية في بلاد الشام وبه برج يسميه الصليبيون القصر الأبيض ويقع الى الجنوب الشرقي من أرواد وتقع كل تلك المناطق على الجبال التي تسمى حاليا بجبال العلويين المشرفة على ساحل الشام الممتد فيما بين اللاذقية وطرطوس .
- انظر جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٥ حاشية رقم (١) وانظر خريطة بلاد الشام في آخر الرسالة ص : ٥٩٤

" فخربوا ريبضا (١) ، ونهبوا رستاقها (٢) ، وهدموا ما حولها من الحصون (٣) "

ثم تقدموا الى ريبض حصن الاكراد فنهبوا ما حوله وحاصروا الحصن حتى أوشك على السقوط بأيدي المسلمين ، غير أن جهد الاشرف ضد الصليبيين سرعان ما تلاشى ، واستنزف في حرب داخلية بين المسلمين ، فبينما كان الاشرف يتقدم في ممتلكات الصليبيين ببلاد الشام ويهدد معقل الاستتارية في حصن الاكراد إن داهم مملكة حلب خطر من الشمال من قبل سلطان سلاجقة الروم كيكاوس بن كيخسرو (٦٠٢-٦١٦هـ / ١٢١٠-١٢١٩م) ، الذى هاجم مملكة حلب طامعا في الاستيلاء عليها وعلى مملكة الاشرف في منطقة الجزيرة ، الامر الذى هدد النفوذ الايوبي في بلاد الشام والجزيرة على حد سواء ، وجعل أتابك حلب يستنجد بالاشرف الذى لم يجد بدا من الذهاب الى حلب لصد سلطان سلاجقة الروم واستعادة البلاد التي استولى عليها في شمال الشام وبذلك زال الضغط الذى هدد معقل الداوية والاستتارية في بلاد الشام (٤) .

اما السلطان العادل فقد استدعى ابنه المعظم وأوضح له أن بناء قلعة الطور ، كان سببا في قدوم الحملة الصليبية الخامسة وتهديد بلاد

-
- (١) الريبض : وجمعه أرباض ، وهو ما حول المدينة او البلدة ، انظر ابن منظور : لسان العرب ج٧ ص ١٥٢ .
- (٢) الرستاق : كلمة فارسية معربة جمعها رساتيق ، وهي السواد من النخل والشجر والبساتين . انظر لسان العرب ج٣ ص ٢٢٤ ، ج١٠ ص ١١٦ .
- (٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٨٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٣٦٥ ؛ وانظر ايضا ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٣٩ .
- (٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٨٠-١٨١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٦٣-٢٦٨ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٠٩ ، وعن تفاصيل حملة سلطان سلاجقة الروم على مملكة حلب وشمال الشام ، انظر الفصل الرابع ص : ٣٥٢ - ٣٥٦ .

الشام كلها ، وأشار عليه بهدمها وارسال حاميتها الى دمياط لمساعدة المسلمين ، ونقل أسلحة القلعة وذخائرها الى القدس والكرك وعجلون ودمشق ، وقد تلقاَ المعظم بادية الأمر في إجابة طلب والده ، لأن قلعة الطورتابعة لمملكة دمشق التي منحها له ولكن العادل استرضاه بالمال ووعد به باقطاعات اخرى في مصرفاستجاب المعظم لطلب والده وهدم قلعة الطور (١) .

وظل الصليبيون من جانبهم يشنون الهجمات المتتالية على برج

السلسلة حتى تمكنوا اخيرا من الاستيلاء عليه في ٢٩ جماد الاولى ٦١٥هـ /

٢٤ اغسطس ١٢١٨ م ، وقاموا بقطع السلاسل التي كانت تحول دون دخول سفنهم في نهر النيل (٢) . ولقد جاء سقوط برج السلسلة خسارة فادحة

للمسلمين حتى أن العادل عندما بلغه الخبر ببلاد الشام ، لم يحتمل الصدمة " فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت " وتوفي في سابع جمادى الثانية / آخر اغسطس من السنة نفسها (٣) . وهو ما يوضح مدى الأهمية

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٩٣ ؛ ابوشامة : ذيل

الروستين ص ١٠٩ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٧٥ ؛

ابن نصر الله : شفاء القلوب ، ص ٢٢٦ ؛ ابن تغرى بردى :

النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٣٧٣ ؛ ابن الاثير : الكامل

ج ١٢ ص ٣٢٤ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٩٣ ؛

ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٩٦ ؛ سعيد عاشور : الحركة

الصليبية ج ٢ ص ٩٢٥ - ٩٢٦ ؛ محمود عمران : الحملة الصليبية

الخامسة ص ٢٢٦ ؛ محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع

على مصر وهزيمته في المنصورة ص ٤٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٩٣ ؛ ابوشامة :

ذيل الروستين ص ١١٢ ؛ زيادة : حملة لويس التاسع ص ٤٦ .

(١) العسكرية لبرج السلسلة الذى اعتبره المعاصرون قفل الديار المصرية .
وقد أدرك السلطان الجديد الكامل بن العادل الخطر الكامن وراء سقوط برج السلسلة ، لذلك أمر بإقامة جسر يعرض مجرى النيل لمنع سفن الصليبيين من الدخول الى مصر ، غير ان الصليبيين تمكنوا من قطع الجسر ، فامر الكامل باحضار عدة مراكب وأغرقها في المجرى وتمت إعاقة السفن الصليبية ، ولكن الصليبيون تمكنوا مرة اخرى من تجاوز تلك العقبة ، فعمدوا الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجرى

(١) يقول المؤرخ أبو شامة في ذلك : " وأذكر وانا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة ومنهم شيخنا ابو الحسن السخاوى رحمه الله ورأيت يضرب يدا على يد ويعظم امر ذلك ، وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه فقال هو قفل الديار المصرية . وصدق . . فاني لما رأيته سنة ثمان وعشرين وستمئة - ٦٢٨ هـ - بات لي صحة ما أشار الشيخ اليه . وذاك انه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذاءه على حافة النيل من غربه وفي ناحيته سلسلتان تمتد احدهما على النيل الى دمياط ، والاخرى على النيل الى الجيزة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها اذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، وإذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور اليها ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت الى القاهرة ومصر والى قوص واسوان . "

ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٠٩ .

فيه قديما ، فحفروه حفرا عميقا وأجروا فيه الماء الى البحر المتوسط وتمكنت سفنهم من دخول النيل إلى قرب العادلية وبذلك أصبح في امكان الصليبيين مهاجمة المعسكر الاسلامي عن طريق البحر. (١)

ولقد شجعت تلك الانتصارات التي أحرزها الصليبيون عند دمياط حامية عكا الصليبية ، فخرجت للاغارة على بلاد فلسطين الا ان معظم تمكن من الايقاع بها عند القيون (٢) في جمادى الثانية ٦١٥هـ/ سبتمبر ١٢١٨ م وقتل المسلمون معظم افراد الحامية وأسروا من افرادها مئة فارس وأخضروا الى بيت المقدس " منكسة أعلامهم " (٣)

ولكي يصرف معظم الصليبيين عن مصر رأى ان يلحق نصره السابق بمهاجمة قيسارية فخرج لهدم قلعتها الجديدة ومعه عدد ضخم من الات الحصار ، وتمكن المسلمون من دخول قيسارية ، ود مروها ثم اتجه معظم لمهاجمة قلعة عثليت ولكن الداوية تحصنوا وراء أسوارها ، ولم يتمكن معظم من الاستيلاء عليها فتركها على حالها . (٤) على أن معظم سرعان ما تراجع عن الضغط على الصليبيين في بلاد الشام ، وعمد بدلا من ذلك الى هدم قلعتي بانياس وتبنين وكانتا في حوزة المسلمين

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٩٢٦ ؛ المقريزي : السلوك ج١ ص

١٩٥ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٩٢٦ .

(٢) القيون : حصن قرب الرملة من اعمال فلسطين انظر ياقوت :

معجم البلدان .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٥٩٣ ؛ ابوشامة : ذيل

الروضتين ص ١٠٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ١٩٨ ؛ سعيد

عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٢٧ .

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٠٤ ؛ ابوشامة : ذيل

الروضتين ص ١١٧ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٩٢٧-٩٢٨ .

وأعلن أنه خربهما خوفاً من استيلاء الصليبيين عليهما الأمر الذي يمنحهم - إذا استولوا عليهما - قاعدتين هامتين يمكنهم عن طريقهما التقدم بسهولة إلى بقية بلاد الشام^(١). ويبدو أنه فعل ذلك بعد أن تلقى استغاثة أخيه الكامل طالبا النجدة ، فقرر الذهاب إلى مصر وخشي من سقوطهما بأيدي الصليبيين الأمر الذي سيجعل من مهمة استعادتهما أمرا بالغ الصعوبة لما عرف عنهما من حصانة حيث كانتا " قفلا للشام " كما يقول الذهبي^(٢).

ورحل بعض الصليبيين إلى أوروبا بعد الاستيلاء على برج السلسلة بعد أن رأوا أنهم وفّوا بقسمهم الصليبي ، ولكن ذلك لا يعني ضعف موقف الصليبيين أمام دياط ، فقد وصلت إلى الصليبيين المرابطين قبالة دياط ، في جمادى الآخرة ٥٦١٥هـ / سبتمبر ١٢١٨م إمدادات ضخمة من أوروبا ، بقيادة مندوب البابا ، الكاردينال بلاجيوس ، الذي أصبح منافسا خطيرا للملك حنا دى بريين على قيادة الصليبيين وهو الأمر الذي ساعد في نهاية المطاف على فشل الحملة الصليبية برمتها^(٣).

وفجأة تطور الموقف لصالح الصليبيين بسبب المؤامرة التي حاك خيوطها القائد الكردي عماد الدين أحمد بن المشطوب ، لعزل السلطان الكامل وإحلال أخيه الصغير الفائز بن العادل محله في حكم مصر ومن ثم سيطرة ابن المشطوب على مقاليد الأمور فيها^(٤) واشتد القلق

-
- (١) الخطيب العمري : الدر المكون ورقة ١١٥ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٩٧ - ٥٩٨ ؛ أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٣ .
- (٢) الذهبي : العبر ج ٥ ص ٥٥٣ .
- (٣) رنسيان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٢٦ - ٩٢٧ ،
- Campbell: The Crusades pp.383- 384.
- (٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ ؛
- Stevenson, The Crusaders in the East.p.304.

بالسلطان الكامل حينما علم بالموء امرة ، ولم يستطع مواجهة التآمرين لان ابن المشطوب يسيطر على قطاع كبير من العساكر الاكراد ، وانسحب الكامل ليلا من العادلية وسار الى قرية تسمى أشموم طنح^(١) فعسكر عندها ، وحينما اصبح العساكر لم يجدوا السلطان بينهم تفرقوا وتركوا اثقالهم ، فلما وصل النبا للصليبيين ، اهتملوا الفرصة وعبروا النيل الى الضفة الشرقية في ٢٠ ذى القعدة ٦١٥ هـ / ٥ فبراير ١٢١٨ وتقدموا الى العادلية حيث استولوا على كميات ضخمة من الموء ن والميرة والاسلحة والذخائر بعد أن اصبح المعسكر الاسلامي خاليا من الرجال ، وبذلك أضحى الصليبيون وجها لوجه أمام مدينة دمياط^(٢) .

وعلى الرغم من وصول المعظم الى اخيه الكامل بعد يومين من موء امرة ابن المشطوب وقبضه عليه ونفيه الى الشام ، الا انه كان لانسحاب السلطان واضطراب عساكره واستيلاء الصليبيين على معسكر العادلية ، نتيجة سيئة اخرى على الموقف الاسلامي ، وذلك حينما اجتمعت قبائل العرب الذين لم يكونوا على وعي بطبيعة الحملة الصليبية الخامسة ، فجاءوا ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط " وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالفوا في الافساد ، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج " ^(٣) . وبعد أن ساعد المعظم أخاه

(١) أشموم طنح : او اشمون طنح ، من اقدم القرى المصرية قرب دمياط سماها العرب اشمون الرمان نسبة الى اسمها القبطي ، كما سميت طنح نسبة الى طنح التي كانت معها في كورة واحدة ، وقد ازدهرت في العصر المملوكي وصارت مدينة كبيرة وقاعدة لكورة الدقهلية ، انظر ياقوت : معجم البلدان ؛ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٥ ص ٦٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٥ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ١٩٦ ؛ زيادة : حملة لويصر التاسع ص ٤٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٠ ،

Lanepool, A History of Egypt p.221.

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

الكامل وتغلب على ابن المشطوب عاد الى بلاد الشام بينما ظل الكامل يكافح الفرنج الذين ظلوا يشددون الضغط على دمياط التي ظلت صامدة بقية سنة ٦١٥هـ / ١٢١٩م^(١).

"ولما اشتدت مضايقة الفرنج لشفر دمياط وأشرفت على الأخذ خاف المعظم .. صاحب دمشق أن تصل من البرأمة عزيمة اذا سمعوا بقوة أصحابهم وتمكنوا من الديار المصرية والملك الكامل مشغول بمحاربة من بديار مصر من الفرنج فيقصدون البيت المقدس وهو عامر فيملكونه ولا يمكن بعد ذلك استنقاذه منهم"^(٢). وبناءً على هذه القناة التي توصل اليها المعظم، قررتدمير أبراج بيت المقدس وتخریب أسواره وتحصيناته فأرسل إلى أخيه العزيز عثمان بن العادل ومملوكه عز الدين ايبك بالقدس يأمرهما بتدمير الأسوار وتخریب التحصينات "فتوقفا وقالوا نحن نحفظه" فأرسل اليهما المعظم يخبرهما ان الفرنج لو أخذوه "لقتلوا كل من كان فيه وحكموا على دمشق وبلاد الاسلام"^(٣)، فشرعوا في تدمير الأسوار وتخریب التحصينات في أول المحرم سنة ٦١٦هـ / ١٩ مارس ١٢١٩م، ودمروا جميع الأبراج ما عدا برج داود غربي القدس. ولقد ترتب على هذا الاجراء انتشار موجات عارمة من الذعر والفزع والسخط بين سكان

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٩.

(٢) المصدر نفسه ج٤ ص ٣٢.

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٠١ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٥-١١٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٤٤ ؛ وانظر ايضا العيني : عقد الجمان ج١٣ لوحة ٣٩٥ - ٣٩٦ ؛ الخطيب العمري : الدر المكون ورقة ١٤٥ ب ؛ السيوطي : اتحاف الاخصا ورقة ١٢٣ أ ب ؛ الاهدل : غريال الزمان ورقة ١٤٥ ب ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٢٠٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٨٣ ؛ الحريري : الإعلام والتبيين ص ٩٣ - ٩٤.

بيت المقدس " ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة ، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيخوخ والعجائز ، والشباب والصبيان الى الصخرة والاقصى فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الاقصى من الشعور^(١) . وبعد هذا الاحتجاج الصارخ خرج سكان القدس هاربين ، وقد تركوا اموالهم وبيوتهم ظانين أن فرسان الفرنج يسيرون في إثرهم ، وتفرقوا أيدي سباً ، فبعضهم هاجر الى مصر وبعضهم نزع الى الكرك وآخرون لجأوا الى دمشق " ومات خلق كثير من الجوع ومن العطش وكانت نوبة لم يكن في الاسلام مثلها ، ونُهبت الاموال التي كانت لهم بالقدس^(٢) ولم يبق الا القليل من السكان بالقدس ، وقام المعظم بنقل ما كان فيه من المؤن والذخائر وغير ذلك الى حصونه الاخرى مثل الكرك والشويك ، وقد انتشر الحزن وعم الأسى نفوس المسلمين في بلاد الشام على تدمير اسوار القدس وتحصيناته وهجا الشعراء الملك المعظم^(٣) .

وهنا يتبادر الى الذهن سوء ال هو : هل كان تدمير أسوار القدس وتحصيناته عملاً صائباً ؟ الراجع ان ذلك العمل كان خطأً جسيماً ارتكبه المعظم ، فالصليبيون لم يستولوا على القدس خلال الحملة

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٠١ ؛ ابوشامة :
 ذيل الروضتين ص ١١٥ - ١١٦ .
- (٢) الصفدي : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٣ ب - ١٥٤ أ ؛ سبط
 ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٠١ - ٦٠٢ ؛ ابوشامة :
 ذيل الروضتين ص ١١٦ ؛ وانظر ايضاً ابن ابيك كنز الدرر ج ٢
 ص ٢٠٢ ؛ العليمي : الانس الجليل ج ١ ص ٤٠٢ ؛ ابن تغري
 بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٥ .
- (٣) الصفدي : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٤ أ ب ؛ ابن واصل :
 مفرج الكروب ج ٤ ص ٣٢ ، وانظر نماذج من ابيات الشعر التي
 قيلت في هدم القدس ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١١٦ .

الخامسة ، كما أن الموقف عند دمياط مازال جامدا بين المسلمين والصليبيين فدمياط كانت ما تزال صامدة وقت تدمير أسوار بيت المقدس . والحق ان مخاوف المعظم من قدوم حشود صليبية كبيرة بهدف الاستيلاء على بيت المقدس ليس لها ما يبررها ، ولا سيما وأن أبراج القدس وأسواره كانت قد بلغت في ذلك الوقت الغاية في العظمة والحصانة والمنعة " فانه من حين استنقذه الملك الناصر صلاح الدين - رحمه الله - من الفرنج ما زالت فيه العمارة قائمة فكان كل برج من أبراجه نظير قلعة " كما يقول ابن واصل ^(١) . وهذا يعني أن عمارة أسوار وتحصينات وأبراج بيت المقدس ظلت مستمرة زهاء ثلاثين سنة حتى أصبح في إمكان فرقة عسكرية الدفاع عنه في ظل تحصيناته القوية ، كما أن كلا من العزيز عثمان وعز الدين ايبك تكفلا بحمايته لكن المعظم رفض الاصفاء لقولهما ، وكانت النتيجة أن سفح في الرمل أموال وجهود ثلاثين سنة ظلت تنفق في بناء تلك التحصينات وعمارتها . ثم لماذا لم يستفد المعظم من الدرس السابق الذي ضربه عمه صلاح الدين عندما قدمت الى الشام الحملة الصليبية الثالثة وحاول ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا الاستيلاء على بيت المقدس فقام صلاح الدين بتخريب ما حول المدينة المقدسة مثل الرملة وعسقلان وغيرها وتحصن هو وبيت المقدس للدفاع عنها رغم انها كانت في ذلك الوقت ٨٧٥هـ / ١١٩١ م ضعيفة التحصين ^(٢) . عكس ما وصلت اليه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٢ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٨٧ ؛

سيط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٤١٠ ؛ ابن الاثير :

الكامل ج١٢ ص ٧١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٣

زمن الحملة الصليبية الخامسة ، حيث صارت من الحصانة والمنعة ، بما يجعل من عملية الاستيلاء عليها بالقوة أمرا صعبا عسيرا ، ان لم يكن مستحيلا .

أيا كان الأمر فقد استمر الصليبيون في الضغط على دمياط (١) ، بينما قدمت النجداث للكمال من بلاد الشام وعلى رأسها المنصور صاحب حماء والمجاهد صاحب حمص والامجد صاحب بعلبك وغيرهم حتى أن المقریزی يقدر عدد المسلمين بعد وصول النجداث بأربعين ألف مقاتل (٢) . وهو رقم مبالغ فيه الا ان الصليبيين ايضا تلقوا بدورهم امدادات من فرنسا (٣) . كما ظلت كتائب الفرسان والموئن والاقوات تصل اليهم تباعا من جزيرة قبرس (٤) .

ويبدو ان الكامل خشي ان سقطت دمياط بأيدي الصليبيين أن ينحهم ذلك قاعدة مهمة في مصر مما يهدد القاهرة ذاتها ، ومن أجل ذلك تقدم الى الصليبيين بعرض للصلح وتضمن العرض اعادة بيت المقدس اليهم مع غنقلان وطبرية وكافة الاراضي التي استردها صلاح الدين منهم عدا قلعتي الكرك والشوك ، وأن يعيد اليهم خشبة الصليب المقدس الذي غنمه المسلمون منهم بقيادة صلاح الدين في معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وذلك كله مقابل جلا ثهم عن مصر (٥) .

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢٦ .

(٢) المقریزی : السلوك ج١ ص ٢٠٣ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٣١ .

(٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٠ .

(٥) Lanepool, A History of Egypt p.222,
Campbell , The Crusades p.385.

وقد قِيلَ الملك حنا دى بريين عرض السلطان الكامل وأيده في ذلك الامراء الفرنسيون ، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض العرض وأيده فرسان الداوية والاستارية ، والايطاليين الذين لا هم لهم سوى مصالحهم التجارية ، لأن السيطرة على مصر يمنحهم ميزة تجارية فريدة ويعفيهم من الرسوم التي كانوا يدفعونها للأيوبيين مقابل مرور تجارتهم عبر مصر ، ولذلك تطلع بلاجيوس للسيطرة على مصر ، ويبدوانه اتخذ من الاصرار على تسليم الكرك والشوبك ذريعة للمضي في حملته على مصر ، ورفض الكامل التخلي عن قلعتي الكرك والشوبك ^(١) . والحقيقة ان رفض الكامل التنازل عن الكرك والشوبك يعود للأهمية العسكرية لهما اذ ان تسليمهما للصليبيين يعني التخلي تماما عن كل مكاسب صلاح الدين السابقة ، اضافة الى أن تسليمهما الى الصليبيين يفصل الدولة الأيوبية في مصر عن بلاد الشام فصلا تاما وبالتالي يحول دون اتصالهما بالأمر الذى يسهل على الصليبيين ضرب كل من القطرين على حدة .

أحاط الصليبيون بدمياط وقاتلوها برا وبحرا ولكي يمنعوا عساكر الكامل من مهاجمتهم أثناء تقدمهم الى دمياط ، حفروا خندقا بينهم وبين المسلمين ، وبعد صمود طويل دام تسعة أشهر ، استسلمت دمياط للصليبيين في ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ / ٥ نوفمبر ١٢١٩ م ، فدخلوها وحولوا جامعها الى كنيسة وارتكبوا فيها اعمالا قبيحة من السبي والقتل والتهتك ، وتفرق سكانها أيدي ساء ^(٢) .

(١) Campbell , The Crusades p.386 ؛ سعيد عاشور :

الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٣٢ ؛ نظير سعداوى : الحرب والسلام

زمن العدوان الصليبي ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٢٥ ب ؛ العيني : عقد

الجمان ج١٣ لوحة ٣٩٢ - ٣٩٤ ؛ الاهدل : غربال الزمان

ورقة ١٤٥ ب ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٦ ، ===

ولقد حاول المعظم عيسى بن العادل - بعد سقوط دمياط -
حمل سكان دمشق والشام على الاشتراك في الجهاد ضد الصليبيين ،
وربما جال في ذهنه تلك الحماسة الدافقة والرغبة الجامحة في جهاد
الصليبيين التي ابداهها سكان دمشق سنة ٦٠٧ هـ عندما تزعم المؤرخ
سبط ابن الجوزي الحملة الشعبية من سكان دمشق وخروجها الى نابلس
لقتال الصليبيين ^(١) . فقد ذكر سبط ابن الجوزي ان الملك المعظم
كتب اليه وهو بدمشق يقول له : " قد جرى على دمياط ما جرى وأريد
أن تحرض الناس على الجهاد فاني كشفت ضياع الشام فوجدتها الفي
قرية منها الف وستمئة أملاك أهلها ، وأربع مائة سلطانية وكم مقدار ما تقوم
به هذه الاربعمائة من العساكر ، وأريد ان يخرج الدماشقة ليزبوا عن
املاكهم . . . فجلست بجامع دمشق وقرأت كتابه عليهم . . فتقاعدوا
فكان تقاعدهم ثمناً لا خذه الثمن والخمس من أموالهم " ^(٢) ولم يبين لنا
سبط ابن الجوزي سبب ذلك التقاعد . والحق أننا لا نستطيع تفسير
هذا التقاعد المناقض لتلك الحماسة التي ابداهها سكان دمشق سنة ٦٠٧ هـ ،
الا بانتهاء الروح المعنوية بين صفوف المسلمين وبخاصة سكان بلاد الشام

== ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٢-٣٤ ؛ ابوشامة : نيل
الروستين ص ١١٦-١١٧ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١١٩-
١٢٠ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧٢٤-٧٢٥ ؛ خاشع
المعاضدي وآخرون : الوطن العربي والغزو الصليبي ص ٢٠٤-٢٠٥ ،
The Cambridge History of Islam, p.208.

(١) انظر ما سبق ص : ٢٤٣-٢٤٤ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٠٤ ؛ ابوشامة :

نيل الروستين ص ١١٧ .

في هذا الوقت ، ولا سيما بعد أن أصبح التتر يضغطون على بلاد المسلمين من الشرق بينما يهددهم الصليبيون من الغرب بل ويهددون مركز القوة الإسلامية وقلبها في مصر وبلاد الشام ، وقد عبر المؤرخ ابن الأثير عن وضع المسلمين المعنوي بعد سقوط دمياط أصدق تعبير حين قال : " وأشرف الإسلام وأهله على خطة خسف في شرق الأرض وغربها : أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا إلى نواحي الفعراق وأذربيجان وأران وغيرها ، وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط من الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء ، وأشرف سائر البلاد يحصر والشام على أن تملك ، وخافهم الناس كافة ، وصاروا يتوقعون البلاء صباحاً ومساءً " (١) .

وكيفما كان الأمر فبعد استيلاء الصليبيين على دمياط ، شرعوا في بث سراياهم في المناطق المجاورة لها " ينهبون ويقتلون " وبدأوا في عمارة دمياط وتحصينها " وبالفوا في ذلك حتى أنها بقيت لا ترام " ولم يقتصر الموقف على ذلك ، بل إن الصليبيين في الغرب عندما سمعوا بانتصار اخوانهم في دمياط " اقبلوا اليهم يهرعون من كل فج عميق ، واصبحت دار هجرتهم " (٢) .

اما السلطان الكامل فقد انسحب - عقب سقوط دمياط - جنوباً وعسكر في مكان سمي فيما بعد بالمنصورة وتقع إلى الشرق حيث يتفرع النيل هناك إلى فرعين يذهب أحدهما إلى دمياط والاخر إلى اشموم طنح ، وعسكر الكامل هناك ، حيث وفر له ذلك المكان حصانة عسكرية

(١) ابن الأثير: الكامل ج١٢ ص ٣٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ج١٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

هامة كان لها ابلغ الاثر في انزال الهزيمة بالحملة الصليبية الخامسة والسابعة بعدها (١) .

وتابع الكامل إرسال الرسائل الى اخويه المعظم صاحب دمشق ، والاشرف صاحب الجزيرة وارمينية ودياربكر يحثهما للاسراع بنجدته . والحق فلقد قدم المعظم كل ما وسعه ، كما رحل الى اخيه الاشرف بالجزيرة يحثه على مد يد المساعدة للكامل . لكن الاشرف اعتذرا لأنه كان مشغولا - وقتذاك - بتمرد زعماء الجزيرة عليه وخروجهم على طاعته ، مما لم يمكنه في هذا الوقت من تقديم المساعدة الفعالة للكامل ، فقبل المعظم عذره وعاد الى بلاد الشام (٢) .

وفي هذه الاثناء يتغير الموقف داخل المعسكر الصليبي فيتعرض للضعف ، بسبب ما حدث بين الصليبيين من انقسام عقب استيلائهم على دمياط ، مما جعل حناى برين يعود الى الشام تاركا المندوب البابوى بلاجيوس قائدا وحيدا للصليبيين في دمياط لمدة عام كامل ١٢٢٠هـ / ١٢٢٠م - دون القيام بعمل عسكري ذي أهمية ، كما كان لانغماس الفرسان - خلال فترة الركود تلك - في الفسوق والفجور وارتكاب المعاصي والاعمال القبيحة (٣) ، من الاثر ما ساعد المسلمين على تنظيم صفوفهم وتجميع قواهم

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٣ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ٣٣٨ - ٣٤٠ ،

Lanepool , A History of Egypt, P.223.

(٢) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢٧ ، وعن نزاع الاشرف مع زعماء الجزيرة انظر ، ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢٧ - ٣٤٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٧٠-٧٧ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٣٦ - ٩٣٧ ؛ محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ص ٣٤١ - ٣٥٩ .

من جديد ، فتمكن الأشرف خلال تلك المدة من توطيد نفوذه في اقليم الجزيرة ودخل زعماءها في طاعته ، وعندئذ أرسل الكامل الى اخويه الأشرف والمعظم يطلب قدومهما لنجدته . (١)

سار المعظم الى الأشرف بالجزيرة واصطحبه مع عساكره الى الشام وقررا المضي الى مصر لتقديم المساعدة لآخيهما الكامل وحسم الموقف مع الصليبيين . وحين وصولهما الى الشام استدعى الأشرف عسكر حلب ، كما انضم اليه عسكر حماه بقيادة الناصر قلج ارسلان وعسكر حمص وعسكر صاحب بعلبك وغيرهم من امراء الشام ، وتقدم الأشرف بعساكر الشام والجزيرة قاصدا مصر ، وسار اخوه المعظم في اثره ، فوصل الجميع الى مصر في جمادى الآخرة سنة ٦١٨هـ / يولييه ١٢٢١م . (٢)

وكان الصليبيون قد تلقوا نجدة بقيادة لويس دوق بافاريا في جمادى الاولى سنة ٦١٨هـ / يونيه ١٢٢١ م كما عاود اليهم من جديد حناى بريين صاحب عكا ، وقرر بلاجيوس الزحف بجموع الصليبيين الى القاهرة للاستيلاء عليها . (٣)

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٢٨ .

(٢) الصفدى : تحفة زوى الالباب ورقة ١٥٢ أ ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٤١٨ ؛ ابن دقماق ، الجوهر الثمين ، ورقة ٤٣ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦١٩ - ٦٢٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٩٤ - ٩٥ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٧ ؛ رنسيان :

الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

ولقد أدى وصول النجيدات إلى الكامل إلى رفع الروح المعنوية لدى المسلمين بحيث يمكن تشبيه هذا الحشد الاسلامي بذلك الذي توافر لصالح الدين حين قام بمحاصرة عكا^(١) . وتمخض عنه تعديل ميزان القوى لصالح المسلمين ، واستقر رأى الكامل واخيه الاشرف على الزحف إلى أحد فروع النيل ويسمى بحر المحلة وقاتلوا الصيبين وتقدمت شواني^(٢) المسلمين واشتبكت مع شواني الفرنج فغنموا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال والأموال ، وفرح المسلمون بذلك " واستبشروا وتفاؤلوا وقويت نفوسهم ، واستطالوا على عدوهم " .^(٣)

و يبدو أن السلطان الكامل بلغه نبأ تعهد الامبراطور فردريك الثاني (١٢١٢-١٢٥٠ م) ملك الامبراطورية الغربية المقدسة بالقدوم للاشتراك في الحملة ، ولا سيما وأن فردريك امر لويس دوق بافاريا ان لا يقوم بهجوم كبير الا بعد ان يصل في إثره^(٤) . ولذلك لم يفتر الكامل بالامدادات التي وصلت اليه خشية وصول فردريك الثاني ، فتقدم بعرضه

(١) Lanepool, A History of Egypt, p.223.

(٢) الشواني : مفردها شيني : من اقدم السفن ، وكانت اهم قطع الاسطول الروماني وفي العصور الوسطى كانت من اهم القطع التي يتألف منها الاسطول الاسلامي ، وكانت اكبر السفن واكثرها استعمالا لحمل المقاتلين ، وكانوا يقيمون فيها ابراجا وقلاعا للدفاع والهجوم ، وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد مئة وخمسين رجلا ويجدف بمائة مجداف . انظر سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٥٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٥ .

(٤) رنسيان : الحروب الصليبية ج٣ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ،
The Cambridge History of Islam, p. 208.

لاجراء الصلح مرة اخرى ، وبذل للصليبيين تسليمهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبله واللاذقية ، وجميع ما فتحه صلاح الدين من ساحل الشام ما عدا الكرك والشوبك . مقابل جلاء الصليبيين عن مصر وإعادة دمياط . غير ان الصليبيين بزعامه بلاجيوس رفضوا العرض وأصروا على تسليم الكرك والشوبك . ودفع ثلاثمائة الف دينار لتعمير اسوار بيت المقدس ومن الواضح ان بلاجيوس تشدد بغية الحيلولة دون قبول شروطه بعد ان توهم ان الطريق الى القاهرة اضحى سالكا أمامه ^(١) . ولا سيما بعد ان لمع مدى الحماس الطاغى الذى يعتلج في نفوس الصليبيين الجدد الذين أتوا اخيرا من أوروبا ^(٢) .

وتقدم الصليبيون وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هي بحيرة المنزلة وبحراشموم - احد فروع النيل - وفرع دمياط غربا ، وأمامهم جنوبا رأس المثلث حيث يتفرع النيل الى الفرعين السابقين ^(٣) . وكان الفرور قد بلغ بالصليبيين درجة مفطرة بحيث لم يأخذوا معهم من الميرة " ما يقوتهم عدة ايام ظنا منهم ان العساكر الاسلامية لا تقوم لهم وأن القرى والسواد جميعه يبقى بايديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة ، لا مريد الله بهم ^(٤) .

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢٩ ؛ ابن واصل : مفج الكروب ج٤ ص ٩٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٢٠٩-٢١١ ؛ Campbell, The Crusades p.398 ، ويذكر المقرئى ان المبلغ الذى طلبه الصليبيون خمسمائة الف دينار ، انظر المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٠٧ .

(٢) Stevenson , The Crusaders in The East, p.305.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٤١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٣٨ ؛ محمود سعيد عمران ! الحملة الصليبية الخامسة ، خريطة رقم ٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢٩ .

وكان السلطان الكامل قد أعد خطته ، فعبرت فرقة من عساكر المسلمين الى الارض التي عليها الصليبيون " ففجروا فجوة عظيمة في النيل ، وكان ذلك في قوة زيادته " (١) وحدد المقریزی ذلك بأول ليلة من شهر توت - رجب ٦١٨هـ / اغسطس ١٢٢١ م - وهو وقت ارتفاع الفيضان وشدة حرارة الصيف " والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل " (٢) وغمرت المياه كل الارض التي يقيم عليها الصليبيون ، ولم يبق لهم غير جهة واحدة ضيقة يسلكونها ، فنصب الكامل الجسور على النيل وعبرت العساكر واستولوا على الطريق الذي سوف يسلكه الصليبيون في عودتهم الى دمياط . وهكذا احيط بالصليبيين فوقعوا في مأزق صعب ، وضائق عليهم الأرض بما رحبت ، وطوقتهم عساكر المسلمين من كل ناحية يرمونهم بالسهم ويضيقون عليهم الخناق (٣) . ووصل في هذه الاثناء مركب عظيم يسمى مرمة ، وحولها عدة حراقات (٤) تحميها وجميعها محملة بالموءن والسلاح للصليبيين فاشتبكت معها شواني المسلمين وظفروا بالمرمة ، وما معها من الحراقات واخذوها غنمية ، الامر الذي حطم معنويات الصليبيين " ورأوا انهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها " (٥)

-
- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٦ .
 (٢) المقریزی : السلوك ج١ ص ٣٠٧ .
 (٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٣٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٦ ، ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٢٩ .
 (٤) الحراقة : جمعها حراقات وحراريق وهي سفن بها مراحي للنييران وقيل هي المراحي نفسها ، ومهصتها رمي النار على الاعداء .
 انظر سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
 (٥) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ ؛ وانظر ايضا ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٩٦ .

وبعد أن ايقن الصليبيون انه لم يعد في مقدورهم القتال في أرض موحلة ، ولا سيما بعد ان بلغت المياه التي ركبهم ، وليعن في امكانهم الانسحاب في أمان ، وانهم معرضون للهلاك ، ارسلوا الى السلطان الكامل يطلبون الصلح ، فعرضوا عليه استعدادهم للجلاء عن دمياط وكل أرض مصر ، مقابل السماح لهم بالخروج سالمين ، فأجابهم السلطان الكامل الى طلبهم ، ورفض مشورة اخويه المعظم والاشرف بالاجهاز عليهم . وطلب الكامل منهم إرسال رهائن من ملوكهم حتى تسليم دمياط ، فأرسلوا اليه عشرين من زعمائهم وعلى رأسهم حنا دى يريين صاحب عكا ، والمندوب البابوى بلاجيوس ، وبعث الكامل مقابل ذلك ابنه الصالح أيوب وبعض خواصه . وفعلا انسحب الصليبيون الى دمياط واخيرا تم جلاؤهم عنها ، وتسلمها المسلمون في ٩ رجب سنة ٦١٨ هـ / ٧ سبتمبر ١٢٢١ م .^(١)

- (١) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٢٦ أ ب ؛ الصفى : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٢ ب - ١٥٣ أ ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٤٢٠ - ٤٢٣ ؛ ابوالفدا : التبر المسبوك حوادث ٦١٨ هـ مخطوط ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١١٨ أ ب ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٣٠ - ٣٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٩٧ - ٩٩ ؛ ابن ايبك : كسر الدرر ج ٧ ص ٢١١ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ؛ الحريرى : الاعلام والتبيين ص ٩٤ - ٩٥ ؛ نظير سعداوى : الحرب والسلام ص ٧٩ ،

ورحل الصليبيون الى أوروبا بينما عاد الملك حنا دى بيريين
برجاله الى الشام بعد ان عقد مع السلطان الكامل هدنة مدتها ثمان
سنوات على ان يطلق كل من الجانبين أسرى الجانب الآخر (١). واحتفل
الكامل واخوته باسترداد دمياط، وفشلت الحملة الصليبية بفضل اتحادهم
وتعاونهم، ومدحهم الشعراء بهذه المناسبة (٢).

(١) المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٠٩ ؛

Stevenson , op.cit.p.307.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٠٠-١٠٥ ؛ الصفى : الوافى
بالوفيات ج١ ص ١٩٦-١٩٧ ؛ اليافى : مرآة الجنان ج٤
ص ٣٩٠.

خلفاء السلطان العادل وموقفهم من الصليبيين

٦١٨ - ٦٤٢ هـ

أسهم التعاون بين أبناء العادل الثلاثة في إفشال الحملة الصليبية الخامسة ، وتم شرح الدور الذي لعبه المعظم بن العادل صاحب دمشق في الضغط على الصليبيين في بلاد الشام خلال هجوم الصليبيين على مصر ، وما هو جدير بالذكر في هذا المجال ذلك الدور الذي قام به المعظم في التجسس على الصليبيين ، لما له من أهمية وطرافة في الوقت نفسه . فقد ذكر الصفدي ان المعظم تنكر في زي زيات - بائع زيت - ودخل الى عكا للاطلاع عن كثب على تحركات الصليبيين واستعداداتهم ، ورهن خاتمه عند صاحب حانوت ثم عاد الى دمشق ، وأرسل الى صاحب عكا حنا دي بريين - يخبره بذهابه الى عكا - وأمره أن يفك خاتمه ، فقامت قيامته وكاد يموت غيظاً^(١) .

أما المؤرخ المعاصر سبط ابن الجوزي فقد ذكر ان المعظم كان في أيام الحرب ضد الصليبيين "يرتب النيران على الجبال من نابلس الى عكا وعلى جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم وبين الجواسيس علامات" وكانت استخبارات المعظم حتى في عكا ذاتها ، ان جند بعض نساء الفرنج ، للعمل في خدمته ، وكانت طاقات بيوتهم - تفتح قبالة جبل الكرمل ، فاذا قرر الفرنج شن الفارة على المسلمين تفتح المرأة - التي تعمل مخبرة للمعظم - الطاقة ، واذا كان عدد فرسان الفارة مئة ، توقد المرأة شمعة واحدة واذا كانوا مئتين توقد شمعتين وهكذا^(٢) . وكان أولئك النسوة يعطين اشارات متفقاً عليهن

(١) الصفدي : تحفة نوى الالباب ورقة ١٥٣ أ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٦ .

للجهة التي سوف يقصدها الصليبيون . وكان المعظم يعطيهم جزاء خدماتهن تلك اموالا كثيرة وهدايا قيمة حتى ان صديقه المؤرخ سبط ابن الجوزي انتقد اسرافه في اعطاء الاموال بكثرة للجواسيس ، فاخبره المعظم ان تلك الاموال التي يدفعها لا تُقارن ابدا بما يمكن ان يحدث للمسلمين لو لم يتجسس على الصليبيين ويعلم تحركاتهم . وضرب المعظم مثالا على ذلك حينما قرر الامبراطور فردريك الثاني ان يقوم بحملته الصليبية زمن الحملة الخامسة ، فبعث بأحد فرسانه الى الشام ليوافيه بالاخبار ، وامره بكتمان الخبر حتى ينزل الامبراطور فجأة الى الشام ، اثناء انشغال الايوبيين بالحملة الخامسة على مصر ، الامر الذي سوف يمكنه من المسير الى عاصمة الشام دمشق . واستطاعت امرأة صليبية تعمل لحساب المعظم كشف أمر ذلك الفارس الذي ارسله الامبراطور ، واخبرت المعظم بذلك ، فارسل لها ثيابا من الحرير وغبرا وأشياء اخرى ثمينة وأوعز اليها بجمع كل اخبار ذلك الفارس ، وتمكنت تلك المرأة من استدراجه حتى وثق بها ، وصار يطلعها على رسائل الامبراطور ، فتقوم هي بدورها باخبار المعظم بذلك ، وتمكن المعظم من معرفة نوايا فردريك الثاني وخططه ، ويضيف المعظم في رده على سبط ابن الجوزي حين اتهمه بالاسراف قائلا : " فلولم أدار عن المسلمين ، فلو جاء الانبرور [الامبراطور] وساق أهل الشام ومواشيهم وأموالهم ما لا يعد ولا يحصى ، فانا أفدى المسلمين بالشيء الكثير ، واحفظ الخطير بالحقير . (١)

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٦ - ٦٤٧ ؛ وانظر

أيضا اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ أ ؛ ابن نصر

الله : شفاء القلوب ص ٢٨٠ .

ولم تقتصر جهود المعظم على استطلاع اخبار الفرنج بالشام
فحسب ، بل تعدت ذلك الى الغرب الاوربي مصدر الحملات الصليبية
المتلاحقة ضد بلاد المسلمين ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي أن والي
الشويك - ويدعى سعد الدين بن مسعود - أخبره أنه كان يوجد
بولايته راهب نصراني منصرف للعبادة في بيعة باحد الجبال قرب
الشويك ، فجاء كتاب المعظم الى الوالي يأمره بنفي ذلك الراهب ، فنفاه
فغاب مدة سنة ثم عاد الى الشويك بكتاب من المعظم يأمره بالاحسان اليه
وإعادته الى صومعته والعناية بأموره ، وبحث الوالي عن سبب نفيه وعودته
بعد سنة مكرما ، فاتضح له ان المعظم جند الراهب ، وأرسله الى جزر
البحر المتوسط ليكشف له اخبار الامبراطور فردريك الثاني " وانما نفاه
حتى لا يُتهم واطلق له أرضاً يعيش منها وأعطاه مائة دينار " (١) . ويتضح
من كل هذا دهاء المعظم الذي لم يستخدم المسلمين في أعمال الجاسوسية
بل عمد الى تجنيد العملاء من الصليبيين وبعض رجال الدين النصارى
للقيام بهذه المهام وذلك لكي لا تحوم الشكوك والشبهات حولهم الامر
الذي يتيح لهم العمل بحرية تامة ، حيث يستطيعون الوصول الى كل
المناطق الهامة والحساسة من المعاقل الصليبية التي يصعب أن يصل
اليها الجواسيس من المسلمين .

على أن جهود المعظم ضد الصليبيين لم يكتب لها الدوام
بسبب الخلاف الذي دب بينه وبين اخويه الكامل والاشرف ، واحتدم ذلك
الخلاف وتفاقم حتى وصل مرحلة بالغلة الخطورة ، فتحالف المعظم مع

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٧ ؛ وانظر ايضا اليافعي

جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ أ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ،

جلال الدين الخوارزمي أقوى ملوك المسلمين في ذلك الحين وأصبح الكامل مهددا ، ولم يجد من الحكام المسلمين من يقف الى جانبه لمواجهة تحالف أخيه المعظم مع الخوارزمي ، وخشي الكامل أن يهاجم الخوارزمي ممتلكات أخيه الأشرف في الجزيرة ثم يمتد خطره على الدولة الأيوبية في مصر والشام ^(١) . ولذلك قرر الاستعانة بالامبراطور فردريك الثاني امبراطور الامبراطورية المجرية المقدسة . كرد فعل على تحالف أخيه المعظم مع جلال الدين الخوارزمي وللضغط على المعظم لكي يتخلى عن حليفه ويعود الى طاعته من جديد باعتباره سلطان الدولة الأيوبية ، فأرسل الكامل فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى الامبراطور فردريك الثاني يطلب منه القدوم الى عكا ، ووعدته ان يعطيه بيت المقدس وبعض فتوح صلاح الدين . وجميع هذه البلاد التي عرض الكامل تسليمها كانت داخلة في ملكة المعظم صاحب دمشق ^(٢) .

والحق ان الامبراطور فردريك الثاني كان قد وعد منذ زمن مبكر ٦١٢هـ / ١٢١٥م بالقيام على رأس حملة صليبية ، ولكن تبين فيما بعد أن الامبراطور غير مستعد لظهور وعده الى حيز الوجود على الرغم من المطالبات المستمرة لثلاثة من البابوات له بتنفيذ وعده ^(٣) . وفي

(١) عن الخلاف بين المعظم وأخويه الكامل والأشرف وأسبابه وتطورات ،

انظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١٢٣ - ١٣٥ .

(٢) اليافعي ، جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ ب ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٣ ص ٢٠٦ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٢١ ؛

Conder, The Latine Kingdom of Jerusalem, p. 312, Stevenson, op.cit. p.310.

Painter, A History of the Middle Ages, p.217 (٣)

سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م تزوج فردريك الثاني من يولاند ابنة حنا دى بريين
الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس ، وبذلك اضحى لدى الامبراطور حافز
شرعي للقيام بحملته الا انه ظل - مع ذلك - متقاعسا عن بدء رحلته
الى الاراضي المقدسة ، الامر الذى جعل البابا جريجورى السابع
(١٢٢٧-١٢٤١م) يصدر ضده قرار الحرمان سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م .
على أى حال ، فقد جاء عرض الملك الكامل تسليم بيت المقدس
وبعض مدن الساحل الى فردريك الثاني في صالح الاخير الذى وجد
في ذلك العرض فرصة سانحة يجب اقتناصها لتسوية الخلاف مع البابوية
ولا بطل اية حجج تتذرع بها ضده (٢) ، فبادر بتلبية طلب الكامل

(١) Painter. Ibid. p. 217 : وجدير بالملاحظة هنا أن

الازمة الناشبة بين الامبراطور فردريك الثاني والبابوية لم يكن سببها
تقاعسه عن القيام بحملته الصليبية وانما يعود اصلا الى النزاع
الطويل الذى دار بين البابوية والامبراطورية في غرب أوروبا من
أجل السيادة العليا على العالم المسيحي . وعن ذلك النزاع
وأدواره ونتائجه - راجع : سعيد عاشور : أوروبا العصور
الوسطى ج١ ص ٣٣٨ - ٣٩٤ ; Painter, op.cit. pp276-288

(٢) يرى بعض الباحثين المحدثين ، انه ربما تكون اخبار حملة فردريك
المنتظرة قد وصلت الى اسماع الكامل الذى ادرك ان الامبراطور
بهذه الحملة سيقع في عداوة مع المعظم صاحب دمشق وبيت
المقدس ، لذلك فان الكامل رأى ضرورة الاتفاق مع فردريك
على تسليم بيت المقدس ليتفادى وقوع حرب صليبية جديدة .
انظر حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان
الحروب الصليبية (رسالة دكتوراه قدمت بجامعة القاهرة ولم
تطبع) ص ١٢٣ . لكن من الصعب التسليم بهذا رأى ، لأن

===

وأرسل له هدية قيمة تضمنت تحفا نادرة وبعض الخيول التي كان من بينها
فرس الامبراطور نفسه فضلا عن بعض الجواهر (١) .

فلما وصل مبعوثه الى مصر أمر السلطان الكامل بالاحتفاء بمقدمه
وترتيب الاقامات له في الطريق من الاسكندرية الى القاهرة ، حتى اقترب
من القاهرة ، تلقاه بنفسه ، واکرمه ، وأنزله في دار الوزير صفى الدين بن
شكر ، وبعث الكامل الى ابن اخته العزيز صاحب حلب بثلاثة افراس من هدية
الامبراطور بينها فرسه وبعض مراكب الذهب وغيرها . وأمر السلطان بالرد
على هدية الامبراطور باضعا فيها من تحف الهند واليمن والشام والعراق
وسروج الذهب ، وأمر بجعل احد السروج مرصعا بالجواهر بما قيمته
عشرة الاف دينار مصرية وبعث بها مع احد اصحابه ويدعى جمال الدين
اسماعيل بن منقذ الشيزرى (٢) .

=== استدعاء الكامل لفرديريك ، وكما اوضحنا آنفا ، كان سببه الخلاف
الذى نشب بينه وبين المعظم وتحالف الاخير مع الخوارزمي بحيث
اصبح الكامل في عزلة ويات نفوذه مهددا ولم يجد من القوى
الاسلامية المعاصرة من يستطيع الوقوف الى جانبه ومواجهة تحالف
أخيه مع الخوارزمي ، فلم يجد امامه سوى فرديريك الثاني . وليس معنى
ذلك ان الكامل كان مصيبا في توجهه للتحالف مع عدو لدود
للاسلام والمسلمين ، يستعين به على اخيه المعظم والخوارزمي
وهم مسلمون مثله ، فلا شك ان ذلك خطأ جسيم منه ، وللمزيد من
البراهين على صحة هذا التحليل ، انظر ما سبق ص ١٢٣ - ١٣٥ .

(١) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصوري ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ المقرئى :
السلوك ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ١٤٨ - ١٤٩ ، وحاشية رقم (٢)

نقلا عن ابن الفرات ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢٣ ؛ حامد
زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب
الصليبية ص ١٢٦ .

ومن الواضح ان الامبراطور فردريك الثاني كان على معرفة تامة بالقوى الاسلامية الموجودة في بلاد الشام . فقد ذكر ابن نطف الحموى في حوادث سنة ٦٢٤ هـ أن رسول الامبراطور وصل الى الاسماعيليه بالحصون الشاميه حاملا معه جواب رسالة الاسماعيليه التي كانوا قد بعثوها اليه ومع الرسول هديه لهم بما قيمته ثمانون الف دينار ، وكان هدف الامبراطور من تلك الهدية العمل على تحييد الاسماعيليه لكي لا يقتلوا ضده ويحاولون اغتياله ، فبعث زعيم الاسماعيليه بالشام بقميصه الى الامبراطور كعنوان امان له حين قدومه الى الشام ^(١) . غير ان الاستتارية لم يرضوا بتلك العلاقة الوطيدة بين الامبراطور والاسماعيليه ، ولا سيما وأن فردريك محروم من الكنيسة ، في الوقت الذي كانت فيه الاستتارية من أشد طوائف الصليبيين ولا للبابويه ، لذلك عمد فرسان الاستتارية الى محاولة إفساد العلاقة بين الامبراطور والاسماعيليه فبعثوا اليهم يطلبون الاتاة فـرد الاسماعيليه بقولهم : " ملككم يعطينا وانتم تأخذون منا ، ومنعوههم " وعند ذلك شن الاستتارية الغارة على الاسماعيليه " واخذوا من بلدهم جملة " ^(٢) .

وحاول الامبراطور فردريك الحصول على موافقة الملك المعظم على تسليم القدس وغيرها من البلاد ، فبعد ان فرغ مبعوثه من السلطان الكامل ذهب الى دمشق وقابل المعظم مطالبا بتسليم البلاد التي عرضها الكامل ، فغضب المعظم وخاطب رسول الامبراطور فردريك قائلا : " قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ماله عندي سوى السيف " ^(٣) .

-
- (١) ابن نطف : التاريخ المنصوري ص ١٥١ .
(٢) ابن نطف الحموى : التاريخ المنصوري ص ١٥١ .
(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٤ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦٤٣ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥١ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ ص ٢٨٤ .

وشرع المعظم في الاستعداد لصد الامبراطور ، فصار الى بيت المقدس و خرب اساسات قلاع صفد وكوكب وتبنين وصهاريج المياه الواقعة في الطريق الى بيت المقدس حتى لا يفيد منها الصليبيون بقيادة فردريك ان ما تقدموا نحو القدس ^(١) . كما جهز المعظم جزءا من قواته السوية جهة طرابلس لمراقبة تحركات الصليبيين . وانفق على عساكره تسعمائة الف درهم لتجهيزها للمواجهة القادمة مع قوات الامبراطور . غير أن الاجل لم يمهل الملك المعظم لحماية بيت المقدس فتوفي في ذي القعدة ٦٢٤هـ / نوفمبر ١٢٢٧م ^(٢)

اما في الجانب الصليبي فقد وصلت الى عكا ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م فرقتان صليبيتان انتظرتا الامبراطور فردريك الثاني ، ولم تقوهاباى عمل عسكري يذكر ضد المسلمين ^(٣) . غير ان المسلمين لم يعصبوا بتلك الجموع الجديدة فتقدم العزيز عثمان بن العادل ، وقاد جيشا من المسلمين وأغار على بلاد صور ، فخرج اليه قرابة مائتي فارس من الصليبيين ، فأوقع بهم بين قتيل وأسير ، وكان من جملة الأسرى ابن والي صور الصليبي ، كما استاق العزيز غنيمة كبيرة من الماشية وستة الاف رأس من الغنم ، وسار بالجميع الى دمشق ^(٤) .

(١) ابن نطف : التاريخ المنصوري ص ١٤٣ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٧ - ٦٤٨ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٦ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢

ص ٤٧٧ - ٤٧٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٣٤ .

(٤) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ وانظر ايضا تاريخ ابن

الفرات ج ٦ لوحة ٥ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨

ص ٦٥٢ ؛ ابن نطف : التاريخ المنصوري ص ١٥٨ .

والواقع أن وفاة المعظم في ذى القعدة ٦٢٤ هـ / نوفمبر ١٢٢٢ م
أتاحت الفرصة لآخيه الكامل للاستيلاء على مملكته ، فاتخذ من رفض الناصر
داود بن المعظم التنازل له عن قلعة الشوك ، ذريعة للخروج إلى
الشام في رمضان ٦٢٥ هـ / أغسطس ١٢٢٨ م ، والاستيلاء على القدس وغيرها
من مدن فلسطين التابعة للناصر داود . (١)

على أن المؤرخين لم يوردوا نصوص المراسلات التي دارت بين
الكامل وفرديريك قبيل موت المعظم ، ووصول الامبراطور إلى الشام . وإن كان
ابن الفرات أشار إلى أن الكامل - حين وصل إلى نابلس وسيطر على ممتلكات
الناصر داود في فلسطين - بلغه " أن الامبراطور وصل إلى يافا فسي
ميعاده فعاد السلطان من نابلس إلى تل العجول ونزل عليها " (٢) .
فهو يوكد أن الامبراطور وصل " في ميعاده " الأمر الذي يفهم منه أنه
قد تم خلال المراسلات الأولى بينهما قبيل موت المعظم تحديد الزمن
الذي سوف يصل فيه الامبراطور إلى بلاد الشام .

وكيفما كان الأمر ، فقد جاء وصول الامبراطور فرديريك الثاني إلى
يافا في شوال ٦٢٥ هـ / سبتمبر ١٢٢٨ م بعد أن تغيرت الظروف في بلاد
الشام لصالح الكامل ، فالمعظم توفي وأخوه الآخر الأشرف عيسى انضم
إليه واتفقا على اقتسام مملكة الناصر داود بينهما ، ولم يعد الكامل في
حاجة إلى مساعدة الامبراطور غير أنه وقع في موقف حرج معه ، فهو الذي
استدعاه ووعدته بتسليمه بيت المقدس وما يتصل بها من بلاد . وقد أشار
المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقف الذي وقع فيه الكامل فقال بعضهم
: " ولما وصل الامبراطور إلى عكا نشب به السلطان الكامل لأن أخاه المعظم

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ص: ١٣٥-١٣٦ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٨-٢٩ .

الذى كان السبب في استدعائه توفي وقد استغنى عنه ولم يمكنه دفعه
لما تقدم بينهما من الاتفاق" (١).

وحين وصول الامبراطور فردريك الى عكا اضطر الكامل الى مداراته
وملاطفته (٢). وعهد فردريك الى الحجج السياسية لاقناع الكامل بتسليم
بيت المقدس، فبعث اليه باحد امراءه ويدعى الكونت توماس وصحبه صاحب
صيدا وقال له: "الملك يقول لك ان الجيد للمسلمين والمصلحة لهم
ان يبذلوا كل شيء ولا اجي اليهم والان فقد كنتم بذلتهم لنائبى
في زمان حصار دمياط الساحل كله... ومن نائبى؟ ان هو الا اقل
غلماني، فلا اقل من اعطائي ما كنتم بذلتموه له" (٣). وشرع الصليبيون

في عمارة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين، وسورها خراب،
فاستولوا عليها وعمروها بعد أن ازالوا حكم المسلمين عنها، وقد تمكنوا
من ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها مثل هونين وتبنين زمن
الحملة الصليبية الخامسة. ويبدو أن هذا الاجراء كان محاولة من
الامبراطور فردريك الثاني لتخويف السلطان الكامل واظهار قوته له
في الوقت الذى استمرت فيه الرسل تتردد بينهما بقية سنة ١٢٢٥هـ / ١٢٢٨م (٤).

(١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٩-٣٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب

ج ٤ ص ٢٣٣.

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب ج ٤،

ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٧-٢٨؛ ابن نظيف: التاريخ

المنصوري ص ١٦٤؛ المقرئى: السلوك ج ١ ص ٢٢٨-٢٢٩،

ويقصد فردريك عروض الكامل للصليبيين بالتنازل عن بيت المقدس

وغيرها لقاء انسحابهم من مصر زمن الحملة الصليبية الخامسة.

انظر ما سبق ص: ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) اليافعي: جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٥ ب؛ تاريخ ابن الفرات،

ج ٦ لوحة ٢٧؛ ابن الاثير: الكامل ج ١٢ ص ٤٧٨؛ ابن واصل:

مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٣٥؛ ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص ١٥٦؛

ابن الوردي: تنمة المختصر ج ٢ ص ٢٢٢؛ المقرئى: الحريري، الاعلام والتبيين،

ص ٩٥.

وقد تردد الكامل في بادىء الامر في اجابة فردريك الى مطالبه وطالبت
المفاوضات بين الجانبين ^(١) . حتى أن البابا بدأ يعمل ضد الامبراطور
في أوروبا ، فأصدر ضده قرار الحرمان مرة أخرى ، وأشاع أنه قُتِلَ ،
وشرع في العدوان على ممتلكاته ، فساء موقف الامبراطور فردريك الثاني
كثيراً ، ولجأ الى سلاح الاستعطاف والتذلل للسلطان ، ويحكى انه كان
يبكي في بعض مراحل المفاوضات ، الامر الذي أثار في تفسية الكامل
الذى عرف بالتسامح والبعد عن التطرف في علاقاته مع الصليبيين . ^(٢)

على أن بعض المستشرقين يرى أن السلطان الكامل أصبح
مستعداً للاتفاق مع الامبراطور حتى لا يتحالف الأخير مع ابن اخيه الناصر
داود ^(٣) . ولكن هذا الافتراض غير صحيح ، لأنه من الصعب على الناصر
داود ، وهو في دمشق أن يُقدِّم على التحالف مع الصليبيين خشية سكان
دمشق الذين كانوا أكثر المسلمين إحساساً بالخطر الصليبي ، ولن يقبلوا
ملكهم بالانحدار الى التحالف مع العدو ، اضافة الى أن الناصر داود لم
يكن في وسعه الاتصال بفردريك بعد أن اضحت دمشق محاصرة بقوات
عمه الاشرف . ومن الواضح أن الكامل لم يشأ أن يطول جمود الموقف
بينه وبين فردريك مما قد أدى الى نشوب الحرب بين الجانبين في وقت
كانت ما تزال دمشق صامدة أمام حصار الاشرف كما أن مدينة القدس باتت
مفتوحة منذ تدمير أسوارها زمن الحملة الصليبية الخامسة ومن الصعب

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج٦ لوحة ٤٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج٤ ص ٢٤١ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٦٥ - ٩٦٦ .

(٣) Campbell: The Crusades , p.405,
Stevenson , The Crusaders in the East, p.311

الدفاع عنها ، إضافة الى أن الناصر داود بعث يستنجد بجلال الدين الخوارزمي أقوى حكام المسلمين في ذلك الوقت ، ويخبره ان عميه الكامل والاشرف لم يهاجما مملكته الا بسبب انتماء والده اليه ودخوله في طاعته ^(١) . وهكذا أضى الوقت في غير صالح الكامل ، لأن استمرار الموقف جامدا سوف يتيح الفرصة للخوارزمي لتلبية استغاثة الناصر داود .

وقد ذكر احد المؤرخين الاوربيين المحدثين ان فردريك اجتمع بالسلطان الكامل الى الجنوب من قيسارية في شتا عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ^(٢) غير انه لم يرد في المصادر العربية ما يشير الى عقد مثل هذا الاجتماع الا انه ليعين من المستبعد انعقاده وقتذاك نظرا لقصر المسافة بين تل العجول قرب غزة - حيث كان يقيم السلطان الكامل - ، وبين قيسارية على ساحل فلسطين المقابل لطبرية ، كما أن من المحتمل ان يكون ذلك الاجتماع قد تم بصورة سرية لوضع اللمسات الاخيرة على اتفاقية الصلح بين الجانبين .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان السفير المتنقل بين الكامل والامبراطور فردريك خلال مراحل المفاوضات الطويلة ، هو الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذي انعقدت بينه وبين الامبراطور صداقة متينة ^(٣) . وتوصل الجانبان الى عقد الصلح بينهما في ٢٨ ربيع الاول ٦٢٦هـ / ١٨ فبراير ١٢٢٩م لمدة عشر سنوات ، وتقرر بمقتضى الصلح ان يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة ^(٤) ، وأن يبقى سور بيت المقدس خرابا

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص: ١٤١ .

(٢) Conder , The Latine Kingdom, p. 313. (٢)

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٢ .

(٤) Campbell: op.cit. p. 406, The Cambridge History of Islam p. 208, Painter: op.cit. p. 217. (٤)

فلا يجدد ، وتكون جميع القرى التابعة للقدس بأيدي المسلمين ، ويحكمها
وال مسلم يقيم بالبيرة شمال القدس ، ويكون الحرم الشريف بما حواه من
الصخرة المقدسة والمسجد الاقصى بأيدي المسلمين ولا يدخلها الفرنج
الا للزيارة فقط^(١) . كما كفلت الاتفاقية حرية العبادة للمسلمين والمسيحيين
على حد سواء^(٢) . ومنحت الاتفاقية الصليبيين عددا من القرى الواقعة
فيما بين عكا ويافا وبين اللد وبيت المقدس وذلك لضمان سلامتهم أثناء
تنقلهم الى المدينة المقدسة^(٣) . وتعهد الامبراطور فردريك الثاني من
جانبه للسلطان الكامل بعدم الاشتراك او المساعدة في اية حملة صليبية
للهجوم على املاك السلطان ، بل وعرقلة اي جهد صليبي ضد املاكه^(٤) .
ويرى بعض الباحثين المحدثين أن فردريك الثاني استطاع مع
ضعف امكانياته ان يحقق من المكاسب ما عجزت عنه جهود ريتشارد قلب
الاسد بامكانياته الضخمة ، مع ملاحظة ان فردريك حصل على بيت المقدس
دون ان يدخل معركة او يخسر رجلا واحدا^(٥) . الا أنه ليس من السهل
القبول بهذه المقارنة غير المتكافئة فرتشارد قلب الاسد واجه صلاح الدين

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٢٢ ب - ٢٨ أ ؛ تاريخ ابن

الفرات ج٦ لوحة ٤٢-٤٣ ؛ السيوطي : اتحاف الاخصا ورقة ١٢٤ أ

؛ ابن ايسبك : درر التيجان مخطوط حوادث ٦٢٦ هـ ؛ ابن واصل

مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤١ ؛ المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٣٠ .

Painter; op.cit. p.217. (٢)

(٣) تاريخ ابن الفران ج٦ لوحة ٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص

٢٤١-٢٤٢ ؛ ابوالفدا : المختصر ج٣ ص ١٤١ ؛ المقريزي :

السلوك ج١ ص ٢٣٠ ؛ Campbell: op.cit. p.406;

Painter:op.cit. p217; The Cambridge History
of Islam, p.208.

(٤) Campbell : op.cit. p. 406, Painter:op.cit.p.217

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٩٦٧ .

ذلك المجاهد العظيم الذى نذر نفسه وعمره لجهاد الصليبيين ، واسترداد ما اغتصبوه من بلاد المسلمين في غفلة منهم ، ولا يمكن لقائد كصلاح الدين آمن بالجهاد ايمانا عميقا ، باعتباره اعظم فرائض الاسلام وافضلها ، وصرف اكثر عمره في جهاد الصليبيين حتى هزمهم في حطين واستعاد منهم بيت المقدس وغيرها . وقدم في سبيل ذلك الاف الشهداء ، لا يمكن لرجل هذه صفاته وسجاياه أن يسمح لريتشارد قلب الأسد بتحقيق أية مكاسب على حساب الاسلام والمسلمين . كما أنه من الظلم مقارنة الناصر صلاح الدين ، بالملك الكامل ، الذى تنازل للصليبيين عن اجزاء هامة من بلاد الشام في سبيل تحقيق أطماعه بضم دمشق الى مملكته .

ويبرر بعض المؤرخين المسلمين هذا التصرف من السلطان الكامل بقولهم : " ورأى الكامل أنه إن شاقق الامبراطور ولم يف لـه بالكلية أن يفتح له باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق ويفوت عليه كل ما خرج بسببه فرأى أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا ويهادنهم ، وهو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء " (١) . ولكن هذا التصرف حينما ينظر اليه من المنظور الاسلامي لا يمكن اعتباره الا جرما ارتكبه الكامل في حق الاسلام والمسلمين بتنازله عن اراض اسلامية للأعداء ، مقابل التفرغ

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٢ = وقد بلغ التزلف ببعض المؤرخين المعاصرين الى حد إصدار فتوى بإباحة فعلة السلطان الكامل ، فابن أبي الدم الحوى أفاض كثيرا في مدح السلطان الكامل والإشادة بصلحه مع فردريك الثاني وتسليمه بيت المقدس ومما قاله عنه انه : " صالحهم صلحا تاما رأى فيه صلاحا للمسلمين وغبطة . . . وعقد معهم الهدنة الشرعية " انظر ابن ابي الدم الحوى : التاريخ المظفرى لوحة ٩٤ - ٥٥١ ،

بالكلية لانتزاع مملكة ابن اخيه المسلم ، مع العلم ان ابن اخيه لم يعلن العصيان ضده ، بل كان في إمكان الكامل بعد موت اخيه المعظم حشد كل قوى ملوك بني أيوب خلفه لجهاد الصليبيين وتحرير الاراضي المفتصة من قبضتهم .

=== غير اننا نلتصق العذر لابن ابي الدم الحموي لأنه ألف تاريخه زمن السلطان الكامل وكان يعيش في كنف ابن اخت السلطان وزوج ابنته المظفر صاحب حماه ، ولكن يجدر التحذير بعدم أخذ رواياته عن بتي ايوب على علاقتها حتى لا تضلل الدارس . كما أصدر ابن واصل هو الآخر فتوى في كتابه التاريخ الصالحى أجاز فيها للسلطان الكامل اعطاء بيت المقدس للامبراطور فردريك ، وصرر فتواه تلك بقوله : " فان الامام يجوز له تسليم بلد من البلاد الاسلامية الى الكفار ، اذا رأى في ترك التسليم لهم ضررا ظاهرا لا يمكن تلافيه " . انظر ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٠ = وهنا نعذر ابن واصل في فتواه هذه لأنه ألف تاريخه هذا للصالح أيوب بن الكامل ولم يجروا على نقد الملك الكامل في كتاب سيقدمه هدية لابنه السلطان الصالح ايوب . بينما نجده في كتابه مفرج الكروب الذى صنفه بعد سقوط الدولة الأيوبية يكتب عن تسليم بيت المقدس بموضوعية بعيدة عن التزلف والمؤثرات ونجده يُبَيِّرُ السخط العام الذى عم صفوف المسلمين بعد تسليم بيت المقدس شأنه في ذلك شأن بقية المؤرخين المسلمين كما سنرى في الصفحات التالية .

ولم يغفر المسلمون المعاصرون للسلطان الكامل هذه الفعلية الشنيعة ، حتى أن أحد قادة جيشه ويدعى سيف الدين بن ابي زكري حذره من مغبة تسليم بيت المقدس والتفريط في حقوق المسلمين ونصحه قائلا : " ابقى دمشق على ابن اخيك الناصر واطلبه واطلب أخاك الملك الاشرف وعسكر حلب ، ونقاتل هذا العدو فاما لنا واما علينا ، ولا يقال عن السلطان أنه أعطى الفرنج القدس " . ولم يجد ابن ابي زكري من الكامل أننا صاغية بل غضب عليه واعتقله " وسيره الى مصر فحبسه بها " (١) .

وحيثما بعث الكامل ينادى في القدس بخروج السكان المسلمين وتسليمه الى الصليبيين " وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء وعظم ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من ايديهم وأنكروا على الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه ، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الناصر صلاح الدين " (٢) . وعبر الأئمة والمؤمنون الذين في المسجد الأقصى والصخرة وبقية مساجد القدس عن سخطهم وسخط جميع المسلمين بصورة مدوية وموءلة ، فأخذوا ستائر المسجد وقناديله الفضية وآلاته وحضروا الى باب خيمة السلطان الكامل " وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان " فأمر بسلب ما معهم وزجرهم أعوانه وطردهم الى خارج معسكره . (٣)

(١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ، قسم لبنان والاردن وفلسطين

ص ٢٢٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٤ - ٤٥ ؛ المقرئ : السلوك ج١

ص ٢٣١ .

وقد حاول الكامل تبرير تفريطه في مقدسات الاسلام وحقوق المسلمين بقوله : "إنا لم نسمح لهم الا بكنايس وأدر خراب ، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله ، وشعائر الاسلام قائم على ما كان عليه ووالي المسلمين متحكم على رسائيقه وأعماله" (١) غير أن هذا التبرير لم يخفف من الغضب والسخط العام الذي عم بلاد المسلمين بسبب تسليم بيت المقدس للصليبيين " فقامت القيامة في جميع بلاد الاسلام واشتدت العظام وأقيمت المآتم" (٢) ففي دمشق اتخذ الناصر داود من تسليم القدس وسيلة دعائية للتشهير بعلمه الكامل وتغيير قلوب الناس عنه ، فأوعز الى المؤرخ سبط ابن الجوزي بالجلوس في جامع دمشق والحديث عن التفريط في بيت المقدس ، فوجد ابن الجوزي أن " من الحمية للاسلام موافقته" (٣) فجلس بالجامع الأموي ، وحضر اليه الناصر داود بنفسه وجميع سكان دمشق ، وخطب في الجماهير المحتشدة ذاكرًا فضائل بيت المقدس وما جرى عليه ووما تحدث به قوله : " انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين . كم كان لهم في تلك الاماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك المساجد من دعة ، تالله لو صارت عيونهم عيوننا لما وفقت ، ولو تقطعت قلوبهم اسفلما شفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين "

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤

ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مآلة الزمان ج٨ ص ٦٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ج٨ ص ٦٥٤ .

كما القى قصيدة تائية عن بيت المقدس حتى ابكى سكان دمشق جميعا
في ذلك اليوم .^(١)

وحينما اشتد البلاء على المسلمين بسبب تسليم القدس " والانكار
على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الاقطار " ^(٢) أرسل من
لده احد اعوانه ويدعى جمال الدين الكاتب الا شرفي الى البلاد الشرقية
والى الخليفة في بغداد في محاولة لتسكين غضب المسلمين وتهدئة
خوابهم وازالة انزعاجهم من استلام الصليبيين لبيت المقدس .^(٣)

اما الامبراطور فردريك الثاني فبعد توقيع الصلح طلب من الكامل
تبني واعمالها فانعم بها عليه " ودخلت في نسخة المهادنة وتسلم
الامبراطور ما وقع عليه الاتفاق " ^(٤) ثم قام بزيارة بيت المقدس وغادرها
بعد ذلك الى عكا ثم ابهر عائدا الى بلاده في جمادى الثانية ٦٢٦هـ /
مايو ١٢٢٩ م ولا سيما بعد ان سمع بأن حميه حنا دى بريين سار
بقوات البابا وهاجم بعض ممتلكاته في ايطاليا .^(٥)

- (١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وانظر
ايضا : ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٩ - ٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب ج ٤ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٣ ؛
ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ ابن ابيك
: كنز الدرر ج ٧ ص ٢٩٥ = وما جاء في قصيدته التائية
قوله :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
على قبة المعراج والصخرة التى تفاخر ما في الارض من صخرات

- (٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣١ .
(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ ص ٤٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى :
ص ١٧٩ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٢ .
(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٥ .

ولم يشمل صلح يافا بين الكامل والامبراطور فردريك ، فرسان الداوية والاسبتارية الذين دأبوا على شن العدوان على بلاد المسلمين في شمال الشام ، فقد كانت علاقاتهم بممالك حلب وحمص وحماء تتوقف على مدى قوة تلك الممالك وقدرتها على الدفاع عن رعاياها المسلمين . ففي سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧ م وقبل مجيء فردريك الثاني ، ظفر التركمان بفارس مشهور من الداوية بأطراف حلب فقتلوه ، وحينما علم الداوية بذلك ساروا من انطاكية ، وباغثوا التركمان المسلمين ، وقتلوا منهم جماعة وأسروا آخرين وغنموا اموالهم وحریمهم ، وحينما علم الاتابك طغريل صاحب حلب بذلك أرسل إلى الداوية يتهددهم ، وتمكن عسكر حلب من مطاردة فارسين من الداوية وقتلها ، وحينئذ أذن الداوية للصلح " وردوا إلى التركمان كثيرا من اموالهم وحریمهم وأسراهم " (١)

ولم تتوقف غارات الصليبيين على شمال بلاد الشام بعد رحيل الامبراطور فردريك الثاني ، ففي ذى الحجة ٦٢٦هـ / ديسمبر ١٢٢٩ م هاجموا بلدة بارين ونهبوا قرية تابعة لها ، وفي طريقهم وجدوا جماعتين من التركمان والاكراد فأسروهم واستولوا على جميع اموالهم وضمنها بضعة الوف من الماشية ، ولم يجد الصليبيون من يتصدى لهم ان كان المجاهد صاحب حمص في تدمر وحينما سمع بهجوم الفرنج عاد مسرعا ولكن بعد فوات الاوان وأرسل الى الكامل يخبره بما فعل الفرنج " فشق ذلك عليه " ولكنه لم يفعل شيئا ازاء ذلك (٢)

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٢) ابن الفرات ج٦ لوحة ٧٨ ؛ وانظر ايضا ابن نظيف : التاريخ

المنصوري ص ١٨٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٧٩ ؛

ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٤٨٨ ؛ المقریزی : السلوك ج١

وفي السنة التالية ، رمضان ٦٢٧هـ / أغسطس ١٢٣٠ م احتشد فرسان الاسبتارية من حصن الاكراد وغيرها ، وقرروا الاغارة على اعمال حماة ، ولكن المظفر محمود تصدى لهم بين حماه وبارين وهزمهم وقتل منهم عددا كبيرا وأسر آخرين واستعاد كل ما نهبوه من أموال رعاياه وعاد الى حماه منصورا فمدحه الشعراء بهذه المناسبة (١) .

وكرر الداوية والاسبتارية اعتداءاتهم سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١ م فهاجموا جبلة التابعة لحلب ، وأخذوا منها غنيمة وأسرى . فارسل الأتابك طغرل في اثرهم بعض القادة فقاتلهم واستعاد منهم الغنيمة والاسرى (٢) . ولكنهم تحركوا من جديد في السنة نفسها ، وشرعوا في الاحتشاد ، فخرج اليهم عسكر حلب واغاروا على قرى المرقب واستولوا على حصن بانياس ودمروه واطلقوا سراح من كان به من الاسرى ، ثم حدثت معركة اخرى لم ينعقد فيها النصر لأى من الجانبين واخيرا " استقرت الهدنة بين عسكر حلب والداوية والاسبتارية " في شعبان ٦٢٨ هـ / يولييه ١٢٣١ م (٣) .

وظل الموقف هادئا بين المسلمين والصليبيين في شمال الشام حتى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦ م حين توفي العزيز بن الظاهر صاحب حلب ، وانشغل الحلبيون بتعيين مجلس وصاية على ابنه الصغير يوسف حتى يكبر ،

- (١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ١٤٣ - ١٤٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٠٣ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٤٦-١٤٧ .
- (٢) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٥٠٤ ؛ الغزى : نهر الذهب ج٣ ص ١١٤ ؛ الطباخ : اعلام النبلاء ج٢ ص ٢٣٨-٢٣٩ .
- (٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٠٩-٢١٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣١٠-٣١١ .

ودرة الموامرات التي نجمت عن ذلك^(١) . فاستغل فرسان الداوية
-الذين كانوا يسيطرون على بغراس^(٢) - تلك الظروف التي مرت بها
حلب فاغاروا على اعمالها ، واستاقوا قطعان الماشية والاغنام العائدة
للكرمان والبدو وغيرهم . فخرج اليهم المعظم تورانشاه بن صلاح الدين
على رأس عساكر حلب ، فنازلوا بغراس مدة ونهبوا ريفها ، وشدوا عليها
الحصار ، ونقبوا عدة مواضع من سورها ، ونفذ جميع ما بها من المؤن
والذخائر ، وكادت تسقط بيد المسلمين غير ان بوهيمند الخامن امير
انطاكية (١٢٣٣-١٢٥١ م) تدخل في النزاع وتوسط لدى الحلبيين
في ترك بغراس على حالها . وقد أجابوا طلبه نظرا للعلاقات الطيبة
بين مملكة حلب وامارة انطاكية الصليبية ، وتم عقد الهدنة بين مملكة حلب
والداوية ، وترك الحلبيون بغراس بايديهم^(٣) .
ولكن الداوية سرعان ما نقضوا الهدنة بعد انسحاب عسكر حلب من
امام بغراس الى قرب دريساك التابعة لحلب ، وجمع الداوية فلولهم
واستعانوا بصاحب جبيل وغيره من الصليبيين وساروا جميعا ناحية دريساك

- (١) انظر عن هذه الحوادث ما سبق الفصل الاول ، ص ٨٨ - ٨٩ .
(٢) بغراس : هي احدى ثغور شمال بلاد الشام ، وتقع في لحف جبل
اللكام وبينها وبين انطاكية اربعة فراسخ (١٢ ميلا) وعلى
يمين القاصد انطاكية من حلب . وتقع بغراس الى الجنوب من
دريسك على مسافة قريبة ، انظر ياقوت : معجم البلدان ،
ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .
(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٦٩ - ٣٧٠ ؛ اليافعي : جامع
التواريخ المصرية ورقة ٦٤ ب ؛ الخطيب العمري : الدر المكون ورقة
١٢٧ أ ب ؛ ابن العديم زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ؛ ابن
واصل : منج الكروب ج ٥ ص ١٣١ - ١٣٢ ؛ ابو الفدا : المختصر
ج ٣ ص ١٥٩ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤٠٩ .

في محاولة لمباغطة ريشها على غرة من اهله ، ولكن حامية دريساك استعدت لهم وقاتلتهم قتالا شديدا ، وبلغ الخبير عسكر حلب ، فتقدم السـى دريساك وقد تعب الصليبيون بسبب بسالة الحامية وصمودها في قتالهم واستغل عسكر حلب حالة التعب تلك وهاجموا الداوية ومن معهم من الصليبيين وألحقوا بهم هزيمة شتية ، وقتلوا منهم عددا كبيرا ، كما أسروا اعدادا اخرى من الفرسان والمشاة ، بينما حاول الباقون الاختباء بين الاشجار والغابات المجاورة ، فتبعهم المسلمون وأبادوهم ، ولم ينج منهم الا القليل . وعاد المسلمون الى حلب بالأسرى واعتقلوهم بقلعتها .^(١)

ولقد قضت هذه الضربة المدمرة على القوة الرئيسية لفرسان الداوية ، فانحسر خطرهم عن المسلمين في شمال الشام ، بل وحتى عن امارة انطاكية الصليبية نفسها التي لم تسلم من شرهم حتى ان ابن العديم يعلق على هذه المعركة بقوله : " وفئت هذه الوقعة في أعضاء الداوية بالساحل ، ولم ينتعشوا بعدها وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج .^(٢)

أما عن الموقف في جنوب بلاد الشام ، فقد ظل هادئا بين المسلمين والصليبيين ، تنفيذا للهدنة التي أبرمها الامبراطور فردريك الثاني مع السلطان الكامل . ولما اقتربت من نهايتها دعا البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧-١٢٤١ م) الى حملة صليبية اخرى . وقد وجدت تلك الدعوة قبولا لدى ثيبت الرابع ملك نافارو أمير شامبني ، الذي وصل

- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ الخطيب العمري : الدرالمكون ورقة ١٥٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٣٢ - ١٣٣ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٥٩ ؛ الغزى : نهر الذهب ج٣ ص ١١٥ .
- (٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٣٢ .

الى فلسطين بمصاحبة صديقه القديم بطرس موكيرك دوق بريتانسي وذلك سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م^(١) وبعد مشا ورات بين الصليبيين تقرر أن يسيروا الى عسقلان للاستيلاء عليها وبناء تحصيناتها المهدمة ثم اتخاذاها قاعدة لمهاجمة دمشق ، وفي تلك الاثناء علموا ان قافلة تجارية من المسلمين تسير في غور الاردن نحو دمشق ، فباغتها الصليبيون وقتلوا رجالها وغموها^(٢).

غير ان هذه الحملة الصليبية سرعان ما واجهت مصيرها المحتوم اذ كان يرباط في غزة أحد قاعدة العسكر المصري ويدعى ركن الدين الهيجاوى ، فتقدم بقواته والتقى بالصليبيين قرب غزة وأنزل بهم هزيمة ساحقة في منتصف ربيع الاخر ٦٣٧هـ / نوفمبر ١٢٣٩م فقتل من الصليبيين الف وثمان مئة رجل وأسّر منهم ثمانين فارسا ومائتين وخمسين راجلا ، وسيق الأسرى يجرون أذيال الخيبة والندامة الى القاهرة^(٣).

عمل الناصر داود صاحب الكرك على استثمار هذه الضربة القاسية التي حلت بالصليبيين لصالحه ، فقرر استعادة بيت المقدس ، وكان الصليبيون بعد موت السلطان الكامل سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م قد عمدوا الى بناء قلعة غربي بيت المقدس وجعلوا برج داود احد ابراجها - ذلك ان برج داود قد تركه المعظم عندما خرب اسوار القدس سنة ٦١٦هـ - وشحن الصليبيون

Painter: A History of the Middle Ages p.217; (١)
Campbell : the Crusades, p. 214; Conder: The
Latine Kingdom , p.315.

Stevenson: op.cit.p.317 ؛ رنسيان : الحروب (٢)

الصليبية ج٣ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٩٢ ؛ وانظر ايضا ابن واصل : مفرج (٣)

الكروب ج٥ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٠ ؛

رنسيان ج٣ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

المقلعة الجديدة بالمؤمن والذخائر ، مخالفين بذلك نصوص معاهدة
يافا المبرمة بين الكامل والامبراطور فردريك الثاني ^(١) . فسار الناصر
داود بقواته نحو القدس ، واختار وقت الهجوم عليه ليكون اثناء انشغال
الصليبيين هناك باحد اعيادهم في جمادى الاولى ٦٣٧هـ / ديسمبر
١٢٣٩م ^(٢) . فدخل الى القدس وفاجأهم وهم منصرفون الى الاحتفالات
بعيدهم واستعادهم منهم ، ثم ضرب الحصار حول القلعة التي عمروها
وضربها بالمنجنقات حتى استولى عليها وعلى برج داود ، وسمح
للمسيحيين بمغادرة بيت المقدس بعد ان اعطاهم الامان على انفسهم ،
ومدحه الشعراء بهذه المناسبة ^(٣) . ثم ارسل الى بغداد مخابرا بستراد
بيت المقدس من الصليبيين ، وأرسل مع مبعوثه خطابا الى الخليفة العباسي
يحيطه علما باستعادة ثالث الحرمين ويستشير في امر القلعة التي

- (١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٥١٣ ؛ ابن شداد : الاطلاق الخطيرة
قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ؛ ابن واصل :
مفرج الكروب ج٥ ص ٢٤٦ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٩١ ؛
ابوالفدا : المختصر ج٣ ص ١٦٥ .
- (٢) السيوطي : اتحاف الاخصا ورقة ١٣٤ ب ؛ ابن شداد : الاطلاق
الخطيرة ج٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٢٧ .
- (٣) السيوطي : اتحاف الاخصا ورقة ١٣٤ ب - ١٣٥ أ ؛ الصفدي :
تحفة نوى الالباب ورقة ١٥٨ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة
٥١٣ - ٥١٤ ؛ الجنابي : البحر الزاخر ج٢ ورقة ٢١ أ ب ؛
الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١٢٨ ب ؛ ابن واصل :
مفرج الكروب ج٥ ص ٢٤٧ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص
١٤٤ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٩١ - ١٩٢ ؛ العليبي :
الأنس الجليل ج٢ ص ٥ ؛ القلقشندی : صبح الأعشى ج٤ ص
١٧٦ ؛ الكتبي : الوافي بالوفيات ج١ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

بناها الصليبيون هل يهدمها أم يبقى عليها لحراسة بيت المقدس. (١)
ولم تلبث الحرب الا هلية بين الايوبيين ان القت بظلالها واثارها
على ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين وجعلته يميل مؤقتا لصالح
الصليبيين . فبعد ان تمكن الصالح أيوب من الوصول الى سدة الحكم
في مصر عمل على توطيد نفوذه بها وشرع يفكر في الانتقام من عمه الصالح
اسماعيل بن العادل الذي تأمر عليه وانتزع دمشق منه (٢) . فاتجه
الصالح اسماعيل الى التحالف مع الصليبيين ضد ابن اخيه الصالح أيوب .
ومن الطبيعي ان يرفض الصليبيون تقديم خدماتهم له دون مقابل ، ولذلك
أعطاهم صفد وقلعة الشقيف ، وهونين وتبنين ، كما تنازل عن حقوق
المسلمين في مناصفات صيدا وطبرية وبعض بلاد الساحل وذلك سنة
(٣) ١٢٤٠م / ٦٣٨هـ .

ولم يجد الصالح اسماعيل حرجا حينما منح الصليبيين هذه البلاد ،
في الوقت الذي تنصل فيه بعض أتباعه من ذلك الجرم . ففي اوائل سنة
١٢٤٠م / ٦٣٨هـ أمر نائبه على شقيف أرنون ويدعى الحاج موسى
بتسليمه لفرسان الداوية ، فرفض قائلا : " والله لا جعلته في صديقتي "
فقبض الصالح اسماعيل عليه وضربه ضربا مبرحا حتى قتله وصادر كل امواله
وممتلكاته ، غير ان حامية الحصن بزعامة رجل يدعى أحمد الشقيفي ،
عنصوا بالحصن على الصالح اسماعيل ورفضوا تسليمه للصليبيين . وراسلوا
الناصر داود صاحب الكرك ودخلوا في طاعته . وعندما اتضح للصالح

-
- (١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين
ص ٢٢٦ - ٢٣٣ ؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٤٤ - ١٤٥ .
- (٢) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص : ١٧٧ - ١٨٤ .
- (٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٨٥ أ ؛ النويري : نهاية الأرب
ج ٢٧ ورقة ٧٢ أ ب ؛ ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ قسم
لبنان والاردن وفلسطين ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ١٥٢ - ١٥٣ ؛ المقرئ :
السلوك ج١ ص ٣٠٣ .

اسماعيل " حميتهم للمسلمين وانتصارهم للدين " خرج من دمشق بعسكره وحاصر الحصن حتى أخذه منهم بعد ان طلبوا منه الامان على انفسهم قائلين " انت امرتنا ان نسلمه الى نواب الداوية ، ونحن فما يحل لنا ان نسلمه للفرنج ، ونحن نسلمه اليك وأنت تفعل فيه ما تختار " فسلمه الصالح اسماعيل للداوية وظل بايديهم حتى استرده الظاهر بيبرس^(١) وتسلم الصليبيون من الصالح اسماعيل قلعة صفد - التي كانت خرابا منذ سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م حين دمرها المعظم زمن الحملة الخامسة - فقرروا إعادة بنائها ، ولما كان البناء يحتاج الى أيدي عاملة كثيرة فقد جمع الصليبيون الف اسير مسلم كانوا في سجونهم وشرعوا في تسخيرهم لبناء القلعة . وكان يحرسهم قرابة مائتي رجل من الصليبيين ، فاتفق الاسرى فيما بينهم على الانقضاض على حراسهم وتجريدهم من اسلحتهم والاستيلاء على صفد ، ولضمان نجاح خطتهم أرسلوا الى الأمير سيف الدين علي بن قلعج النوري والي قلعة عجلون من قبل الناصر داود لبيعته اليهم من يتسلم القلعة اذا تخلصوا من حراسهم ، فأرسل والي عجلون برسالة الأسرى الى سيده الناصر داود صاحب الكرك الذي أرسلها بدوره الى عمه الصالح اسماعيل . وكان في إمكان الأخير إهمال شأن الرسالة وعدم الرد عليها أو تحذير الأسرى من تنفيذ خطتهم ، ولكنه بدلا من ذلك أرسل الكتاب الى فرسان الداوية ، وحينما اطلعوا عليها قبضوا على أولئك الأسرى ودخلوا بهم عكا " فذبحوهم عن آخرهم " ثم واصل الداوية بناء اسوار قلعة صفد بمساعدة الصالح اسماعيل^(٢) .

(١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين

ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ - ١٤٨ .

الذى ارتكب بعمله هذا جرما شنيعا يتنافى وكل القيم الخلقية ،ناهيك
عن خيانة الدين والوطن والشرف .

ولكي يبرهن الصالح إسماعيل على صدق نواياه تجاه الصليبيين
سمح لهم بالدخول الى دمشق لشراء السلاح ،فتخرج بعض تجارالسلاح
من مبايعتهم فاستفتوا الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام ^(١) ، فافتى
بتحريم بيعهم السلاح قائلا : انهم يشترونه ليقاتلوا به اخوانكم المسلمين ^(٢) .
ولقد اثارت افعال الصالح اسماعيل تلك الرؤى العام الاسلامي في
بلاد الشام ، وعمد الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام خطيب جامع دمشق
الى قطع الدعاء للصالح اسماعيل ^(٣) . وندد به واكثر من التشنيع عليه ،
وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين ابو عمرو بن الحاجب المالكي ^(٤) .

(١) عبد العزيز بن عبد السلام بن ابي القاسم بن حسن بن محمد
السلمي ، من كبار علماء الشافعية وفقهائها ، كان عالما بالتفسير
صالحا عابدا لا يخشى في الله لومة لائم ، ولد سنة ٥٢٢ هـ
وصنف الكثير من الكتب في الشريعة وعلومها وتوفي سنة ٦٦٠ هـ
انظر ترجمته مفصلة في السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٨
ص ٢٠٩ - ٢٥٥ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ٢٤٣ ؛ انظرايضا : نهاية

الأرب ج ٢٧ ورقة ٧٢ ب ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٠٤ .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ٢٤٣ ؛ المقرئى : السلوك

ج ١ ص ٣٠٤ ، = وقد استبدل الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام

الدعاء للصالح اسماعيل بقوله : اللهم ابرم لهذه الامة ابرام رشد

تعز فيه اولياءك وتذل فيه اعداءك ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى

فيه عن معصيتك * والناس يبتهلون وراءه بالدعاء . انظر السبكي :

طبقات الشافعية ج ٨ ص ٢٤٣ .

(٤) ولد الشيخ جمال الدين ابو عمرو بن الحاجب باسنا في الصعيد

سنة ٥٧٠ هـ وبرع في علوم اللغة العربية والنحو وألف في النحو والفقه ،

وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ / انظر الادفوى : الطالع السعيد :

ص ٣٥٢ - ٣٥٧ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٢ ؛ ابن العماد :

شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

وكان الصالح اسماعيل في تلك الاثناء غائبا عن دمشق ، وحينما بلغه موقف الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام وصاحبه ابن الحاجب ، اصدر امره بعزل الشيخ عبد العزيز من خطابة جامع دمشق واعتقله مع صاحبه ، ثم اطلق سراحهما بعد مدة ، فغادرا بلاد الشام الى مصر .
(١)

وبعد ان تحالف الصالح اسماعيل مع الصليبيين ، سار الى فلسطين حيث انضم اليه الصليبيون بزعامة ثيبوت الرابع ملك نافارو أمير شامبني الذي كان يتوق منذ وصوله الى بلاد الشام الى تدعيم مركز الصليبيين .
(٢)
وتقدمت قوات الصليبيين والصالح اسماعيل نحو غزة في بداية طريقها الى مصر ، ولكن السلطان الصالح ايوب جرد العساكر المصرية لملاقاة عمه اسماعيل وحلفائه الصليبيين سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م " وعندما تقابل العسكران ساقطت عساكر الشام الى عساكر مصر طائفة ومالوا جميعا على

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي - مخطوط - نسخة عارف حكمت ورقة ١٤٦ أ ب ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ه ص ٣٠٢-٣٠٤ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٢٠ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٥ = ٠ وقد ذكر السبكي أن الصالح اسماعيل حاول استمالة الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام فلما أخفق امر باعتقاله مرة اخرى في خيمة بجانب خيمته قرب القدس حيث اجتمع ببعض زعماء الصليبيين ، وظل الشيخ يقرأ القرآن ، فقال لهم الصالح اسماعيل " أسمعون هذا الذي يقرأ القرآن ؟ قالوا : نعم ، قال : هذا اكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لانكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين ... وقد جددت حبسه واعتقاله لا جلکم . فقالت ملوك الفرنج : لو كان هذا قسيسنا لفسلنا رجله وشرينا مرقته " ... انظر طبقات الشافعية ج ٨ ص ٢٤٣-٢٤٤ .

(٢) انظر رنسيما : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٣٧٩ .

الفرنج وهزموهم وأسروا منهم خلقا لا يحصون^(١) وكان ضمن الاسرى بعض زعماء الداوية، واستطاع الصالح ايوب الوصول الى اتفاق مع الصليبيين اطلق بموجبه سراح بعض الاسرى وان يكون لهم الحق في اعادة بنسائهم عسقلان وتحصينها في مقابل وقوفهم على الحياد في الصراع بينه وبين عمه اسماعيل^(٢).

وفي تلك الاثناء وصل الى عكا الامير الشاب ريتشارد شقيق هنري الثالث ملك انجلترا في صحبة جيش صليبي جديد، ولكن على الرغم مما اشتهر به ريتشارد من الحكمة والكياسة فانه لم يكن بوسعه سوى التصديق على تلك الاتفاقية التي عقدت مع السلطان الصالح ايوب وبالتالي لم يحقق للصليبيين الا القليل من المكاسب^(٣).

وفي جمادى الاولى سنة ٦٤٠ هـ / ديسمبر ١٢٤٢م تقدم الفرنج من عكا وقصدوا نابلس التي كانت تابعة للناصر داود، وكان دخولهم يوم الجمعة فساروا الى المسجد وقتلوا المصلين وكسروا منبر الخطيب، واسروا الكثير من السكان ونهبوا المدينة^(٤). وذكر سبط ابن الجوزي أن الجواد يونس بن مودود بن العادل كان في صحبتهم عندما هاجموا قلنسوة - ضيعة من اعمال نابلس - وقتلوا فيها الف مسلم وهو قائم لم يتكلم كلمة واحدة " وقد خشي الصالح اسماعيل من الجواد على نفوذه ومكانته لدى الصليبيين فاستدرجه حتى قضى عليه^(٥).

(١) المقریزی : السلوك ج١ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) رنسيان : الحروب الصليبية ج٣ ص ٣٧٩ ؛

Stevenson:op.cit. o. 318; Painter:op.cit.p.218

Painter:op.cit. p.218 (٣)

(٤) المقریزی : السلوك ج١ ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٤٣ - ٧٤٤ .

الصالح أيوب واسترداد بيت المقدس ومعركة غزة ونتائجها

٦٤١ - ٦٤٦ هـ / ١٢٤٣ - ١٢٤٨ م

ظل الخلاف محتدماً بين الصالح أيوب وعمه اسماعيل الذي كان يحالفه من ملوك الشام المنصور صاحب حمص ، وانضم اليهما اخيراً الناصر داود صاحب الكرك ، وفشلت محاولة الصلح بينهم وبين الصالح أيوب ، فاضطر الاخير الى طلب مساعدة الخوارزمية الذين كانوا يقيمون بمنطقة الجزيرة^(١) .

وعندما اجتمعت كلمة هو^١ لاء الثلاثة على قتال الصالح أيوب وتأكدوا انه ارسل يستعين بالخوارزمية ، استقر رأيهم على التحالف مع الصليبيين ، واتفق الصالح اسماعيل مع ابن اخيه الناصر داود في سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م على تسليم بيت المقدس بكامله الى الصليبيين ، وكذلك المسجد الاقصى والصخرة المقدسة وما فيهما من المزارات ، واتفقا ايضاً على تسليمهم طبرية والسماح لهم بعمارته ، وشرعوا في بناء تحصيناتهم . كما اخذ فرسان الاسبتارية كوكب ، وعزموا على عمارتها ، ثم دخل الصليبيون الى بيت المقدس ، وتسلموا الصخرة المقدسة والمسجد الاقصى وجميع المزارات الاسلامية والمسيحية وغيرها وبالإضافة الى ذلك فقد تعهد الصالح اسماعيل لحلفائه الصليبيين بجزء من ديار مصر اذا فتحوها ، وبدأ الصليبيون في حشد قواتهم واعدادها لتنفيذ

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثاني ، ص ١٨٦ - ١٨٩ .

اتفاقهم مع اسماعيل والناصر داود^(١) . وهكذا تخلق الصالح اسماعيل والناصر داود عن مقدسات المسلمين في بيت المقدس وغيرها في برود تام . وليس لنا من تعليق ينطبق على اسماعيل والناصر داود سوى قوله تعالى :

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٢ أ ؛ الصفدى : تحفة ذوى الالباب ورقة ٦٣ أ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٥ ورقة ١٣ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣١٥ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٢ ؛
العليمي : الانص الجليل ج ٢ ص ٦ ؛

Selections From Tarikh Ibn al-Furat, Vol. 2
pp. 1-2.

= ويرى بعض المستشرقين أن الصالح ايوب عرض على الصليبيين العرض نفسه الذى قدمه اسماعيل والناصر داود ، مقابل تحالفهم معه ضدهما = انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٥ نقلا عن المؤرخ الفرنسى جروسىه ، وانظر أيضا : رنسيان :
الحروب الصليبية ج ٣ ، ص ٣٨٩ ؛ Stevenson: op.cit. p. 321.
: غير اننا لا نستطيع قبول هذا الرأى لاسباب هي أولا : أنه لم يرد في المصادر العربية المعاصرة للحوادث أى اشارة على الاطلاق لهذا العرض ، ولو حدث فعلا لذكر ذلك ابن واصل صديق حسام الدين الهذبانى قائد الصالح أيوب ووزيره ، ثانيا : ان الصالح ايوب ليس هو الحاكم الذى يُقَدِّم على التحالف مع الصليبيين بدليل أنه لم يفعل ذلك في أسوأ الظروف التي مرت به حين كان اخوه العادل يحكم مصر ولم يكن بيده غير دمشق ثم أنتزعت منه واعتقل بالكرك ومع ذلك لم يفكر في الاستعانة بالصليبيين فكيف يفكر في الاستعانة بهم بعد أن اصبح سلطانا على مصر بامكاناتها الضخمة ؟ وثالثا : وما ينفي هذا الرأى أن بيت المقدس وطبرية وكوكب وجميع البلاد التي اعطاها اسماعيل والناصر داود للفرنج لم تكن تحت سيطرة الصالح أيوب حتى يعرضها عليهم مقابل التحالف معه ، وهل يعقل ان يعرض عليهم بلادا لا يملكها ؟ .

* قل هل تنبئكم بالآخسرين اعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * (١) .

وقد حكى المؤرخ المعاصر ابن واصل كيف انتهك الصليبيون حرمة المقدسات الاسلامية في بيت المقدس حين مريبها في أواخر سنة ١٢٤١هـ / ١٢٤٤م وهو في طريقه الى مصر فقال : " ودخلت البيت المقدس ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة ، وعليها قناني الخمر يرسم القربان ، ودخلت الجامع الاقصى وفيه جرس معلق ، وأبطل بالحرم الاذان والاقامة وأعلن فيه بالكفر " (٢) .

ولما وصلت دعوة الصالح ايوب الى الخوارزمية بالجزيرة يحثمهم على القدوم اليه لناصرته عبروا الفرات الى بلاد الشام في زهاء عشرة الاف فارس ، وساروا حتى وصلوا بيت المقدس فدخلوه في صفر ١٢٤٢هـ / يولييه ١٢٤٤م ووضعوا سيوفهم في رقاب النصارى ، وقتلوا من وجدوه بها من الصليبيين ثم دخلوا كنيسة القيامة ونهبوها وهدموا المقبرة التي يعتقد النصارى بأنها مقبرة المسيح ، ونبشوا قبور ملوك الصليبيين بحثا عن الاموال . وطهروا الحرم وما به من المزارات من برائن الصليبيين (٣) وقد وجدوا في بيت المقدس ستة الاف من الفرنج ، فقتلوا منهم اكثر من الفين وطاردوا الباقين الى قرب يافا بحيث لم يصل اليها سوى ثلثائة شخص فقط (٤) . واستردوا بذلك بيت المقدس ، ولم يقدر لجيش نصراني

(١) سورة الكهف آية ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٣٣ ،

Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 P.2

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ ،

Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 pp.3-4

(٤) رنسيان : الحروب الصليبية ج٣ ص ٣٩٢ .

الوصول اليه حتى الحرب العالمية الأولى (١) .

وتوجه الخوارزمية الى غزة ، وراسلوا الصالح أيوب يخبرونه
بقدومهم لنصرته ، وطلبوا منه إرسال عسكر مصر اليهم لقتال اعدائه جميعا ،
فأمرهم بالبقاء في غزة ريثما تصلهم عساكره ووعدهم ان يعطيهم يلا
الشام (٢) . وجهز الصالح أيوب ملوكه ركن الدين بيبرس الى غزة
للانضمام الى الخوارزمية ، وأمر قائده حسام الدين بن محمد الهذلي
بأن يمضي بفرقة اخرى من العسكر المصري الى نابلس للمرابطة بها (٣)
وشرع الصالح اسماعيل في العمل على مجابهة الخوارزمية وعساكر
مصر فأرسل يستدعي حليفه المنصور صاحب حمص ليجعله قائدا على عساكره ،
لما اشتهر به المنصور من الشجاعة وشدة المراسم في قتال الخوارزمية ،
وتطلع اسماعيل الى ان يكون النصر على الخوارزمية على يديه ، وحين
قدم المنصور الى الصالح اسماعيل بدمشق " اقتضى رأيهما ان يقصدا
الديار المصرية و أرسلوا الى الفرنج وبذلا لهم جميع الاعمال الساحلية
من الماء ومغرب اذا ملكوا مصر ، وأشرطا عليهم ان يخرجوا ويمضوا
معهما الى مصر بجموعهم ، فارسهم وراجلهم ، فأجابوا الى ذلك
وتحالفوا عليه " (٤) ، فقاد المنصور عسكره وعساكر دمشق ووصل اليه نجدة
من حلب ، وتقرر أن يكون المنصور قائدا عاما على كل العساكر الشامية
والصليبية المتوجهة الى مصر ، وأن يقيم الصالح اسماعيل في دمشق ،

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٨ .

(٢) Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.4.

(٣) ابن واصل : مغز الكروب ج ٥ ص ٣٣٢ ؛
Selections from Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.5

(٤) Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.5

وسار المنصور بالعساكر الشامية من دمشق ثم عرج على رأس كتيبة صغيرة الى عكا فدخلها ، ونزل في دار فرسان الداوية ، واجتمع بزعماء الصليبيين وتشاور معهم ، وجرى الاتفاق على خروج الصليبيين جميعا بما فيهم الاسبتارية والداوية وكل امراء الصليبيين وفرسانهم " ولم يتأخر منهم أحد " (١) . ويبدو أن ما اغرى الصليبيين على الخروج باكلهم ان المنصور وأسماعيل وعداهم " ان يكون لهم جزء من الديار المصرية " (٢) . وساروا جميعا الى غزة ، وبعث المنصور الى الناصر داود صاحب الكرك يطلب حضوره معه لخوض المعركة . ولكن الناصر لم يحضر بنفسه واكتفى بارسال عسكره الى المنصور بقيادة اثنين من كبار امراء وهم الظهير بن سنقر الحلبي ، والوزير (٣) ، فاجتمعوا وساروا نحو الخوارزمية وعسكر مصر ، وكان الصليبيون يكونون ميمنة الجيش بينما المنصور بعساكره وعساكر دمشق وكتيبة حلب في القلب أما الميسرة فكانت من نصيب عساكر الناصر داود صاحب الكرك . وكانت اعلام الصليبيين ترفرف . فوق رؤوس المنصور واصحابه ، وفي أعلا سوارى الاعلام شارات الصليب ، ومعهم الرهبان والقسيسين يدورون على كتائب العساكر الشامية يصلبون عليهم ويباركونهم وبأيديهم كاسات الخمر يسقونهم (٤) .

(١) Ibid. pp.5-6 ؛ وانظر ايضا ابن واصل ،

مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٣٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٣٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٣٨ ،

Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.6 .

(٤) الصفي : تحفة ذوي الالباب ورقة ٦٣ أ ؛ سبط ابن الجوزي

: مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٤٦ ؛ المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣١٧ ؛

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٤ ؛

Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.6

والتقى الجمعان في مكان يسمى اربيا على بعد بضعة أميال شمال شرق غزة يوم الاثنين ١٢ جمادى الاولى ٦٤٢هـ / ٧ أكتوبر ١٢٤٤م ودارت معركة حامية الوطيس ، وانهزمت عساكر مصر الى قرب العريش ورموا اثقالهم وامتعتهم ، غير ان الخوارزمية ثبتوا في ميدان المعركة وحاقت الهزيمة الساحقة بالقوات الشامية . فأول ما حلت الهزيمة بالميسرة المكونة من قوات الكرك فهرب الوزيرى وأسر القائد الاخر الظهير سنقر الحلبي ، ثم انهزم المنصور صاحب حمص ، وعندئذ احاطت الخوارزمية بالصليبيين وحصدوهم بسيوفهم وأسروهم ، ولم ينج منهم الا القليل ^(١) . ووقع في الأسر من الصليبيين ثمان مئة أسير ^(٢) . اما عدد القتلى من الصليبيين والشاميين وغيرهم فقد ذكر المؤرخ سبط ابن الجوزى أنه شاهدهم بنفسه قائلا : " ولقد اصبحت ثاني يوم الكسرة الى غزة فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب ، فقالوا هم زيادة على ثلاثين ألفا " وقد أيدته في هذا التقدير كثير من المؤرخين ^(٣) . وغنم الخوارزمية وعسكر مصر

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٩٤ ب - ٩٥ أ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ورقة ٢٣ أ ب ؛ الصفدى : تحفة زوى الالباب ورقة ٦٣ أ ب ؛ النويرى : نهاية الارب ج٢٧ ورقة ٧٩ أ ب ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١٣١ ب ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٤٦ - ٧٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ ؛ المقرئى ج١ ص ٣١٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٤ - ١٦٥ ؛

Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2
pp.6-7.

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٧ ص ٧٤٦ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ٣١٧ ،
Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 p.7

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٧ ص ٧٤٦ ؛ وانظر ايضا اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٩٥ أ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ج٥ ورقة ١٣ ب - ١٤ أ ؛ الصفدى : تحفة زوى الالباب ورقة ٦٣ ب ؛ المقرئى : السلوك

أثقال الشاميين وأسلحتهم وموءنهم ، وأموال وخزائن المنصور صاحب حمص ، حتى انه طلب شاشا يتعمم به فلم يجده وجعل يبكي ويقول : " قد علمت أنا لما سرنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلج ^(١) .

ولقد كانت هذه المعركة من اعظم المعارك في تاريخ الحروب الصليبية حتى ان بعض المؤرخين ذكرانه لم يجر مثلها " لا في زمان نور الدين ولا صلاح الدين " ^(٢) . ويدلل بعض المؤرخين الاوربيين على فداحتها بالنسبة للصليبيين ، بأنه اشترك فيها من فرسان الداوية ثلاثمائة فارس ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة وثلاثين ، في حين اشترك مائتي فارس من الاسبتارية ولم ينج منهم الا ستة وعشرون فارسا فقط ، وأسرى اسبتارية بينما قتل زعيم الداوية ^(٣) .

واذا كان بعض المؤرخين الاوربيين يعتبرون هذه المعركة من أسوأ المعارك في تاريخ الصليبيين ^(٤) ، فاننا نعدّها بمثابة مسامير النعش الذي حملوا عليه الى هوة السقوط والاندثار على يد المماليك حين سقوط آخر معاقلهم في بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م .

وعلى الرغم من قيام الخوارزمية بعد معركة غزة بشن الغارات على القرى الخاضعة للصليبيين حتى اطراف مدينة عكا ^(٥) . فان الصالح أيوب

=== ج ١ ص ٣١٢ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٤٨ ؛ ابن كثير :

البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٥ ، Selections: op.cit. p7

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٤٦-٧٤٧ ؛ وانظر

أيضا النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ورقة ٨٠ أ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٣٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة

ج ٦ ص ٣٢٣ - ٣٢٤) Selections: op.cit. p.7 .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٤٦ .

(٣) Stevenson: op.cit. p.323

(٤) Campbell: op.cit. p.417, Stevenson: op.cit. p.323.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٩ .

لم يشأ ملاحقة الصليبيين وترك عدوه الصالح اسماعيل وغيره من ملوك الشام يدبرون المؤامرات ضده ، ولذلك وجه الصالح ايوب همه بعد معركة غزة الى الاستيلاء على دمشق وتقليم اظافر خصومه ^(١) . غير انه لم يهمل أمر الصليبيين ففي سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٦م أمركائه ركن الدين بيبرس والامير حسام الدين الهذباني بمنازلة عسقلان وانتزاعها من أيدي الصليبيين ، وكان الصليبيون قد بنوا أسوارها وحصنها عقب تسلمهم لها من الصالح اسماعيل ، وحاصرها المسلمون وضائقوها ، ولجأ الامير حسام الدين خلال الحصار ، ورغم ذلك فقد واتروا الرمي عليها بالجروح ^(٢) والزنبورك ^(٣) ، ولكنها صمدت بسبب مناعة تحصيناتها . ثم ورد أمر الصالح ايوب الى حسام الدين الهذباني بالمضي الى نابلس على أن يبقى ركن الدين بيبرس يحاصر عسقلان ^(٤) .

ومما ساعد على صمود عسقلان ما قام به هنري ملك قبرس حين أرسل ثمان شواني تحمل مئة فارس ، وانضم اليها سبع شواني أخرى وخمسين سفينة من عكا تحمل المؤن والمساعدات لحامية عسقلان . وارسل الصالح ايوب اسطولا من احدى وعشرين شانية ليحاصر عسقلان من جهة البحر ويمنع المؤن من الوصول اليها ، وقد أبحر الاسطول المصري سائرا نحو عسقلان ولكن عاصفة بحرية أعاقته عن الاشتباك مع السفن الصليبية وقذفت باكثر من عشرين سفينة الى الشاطئ بعد ان حطمتها وأبحرت السفن

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

(٢) الجروح آلات حربية تستخدم لرمي السهام والنفوط والحجارة ،

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٦٥ حاشية رقم (٨) .

(٣) الزنبورك : الجمع زنبوركات وهي نوع من القسي ترمى بها السهام

وربما تعني بعض انواع السهام ، انظر ابن واصل : مفرج الكروب

ج ٥ ص ٣٤٠ حاشية رقم (٢) .

الآخري عائدة الى مصر وتمكن الاسطول الصليبي بعد ذلك من مد حامية
عسقلان بالمؤمن ، ثم عاد الى عكا بسبب سوء الاحوال الجوية ، واستطاع
الجيش المصري المحاصر لعسقلان الافادة من حطام السفن المتناثرة على
الشاطيء عندما صنعوا منها كبشا ضخما ^(١) وشق به المقاتلون طريقهم
الى تحت الأسوار لنقيها . ^(٢)

وفي تلك الاثناء تمكن فخر الدين بن الشيخ من فتح طبرية
في صفر ٦٤٥ يونيه ١٢٤٧ م ودمر تحصيناتها وذهب الى دمشق ^(٣) .
ثم سار منجدا القوات المحاصرة لعسقلان ، وتمكن الجيش المصري أخيرا من
اقتحام عسقلان في جمادى الثاني ٦٤٥ هـ / اكتوبر ١٢٤٧ م ، وقتل معظم
المدافعين عن عسقلان من الصليبيين ، ومن نجا منهم وقع في الأسر ، ثم
أمر الصالح ايوب بتدمير عسقلان مرة أخرى حتى لا يباغتها الصليبيون عن
طريق البحر ^(٤) .

- (١) الكيش وجمعها كبوش وكباش وأكيش : وهي آلة تتصل بالدبابة
لها رأس ضخم وقرنان تدفع نحو الأسوار لهدمها ، انظر المقرئى :
اتعاظ الحفاظ ج ٣ ص ٤٨ حاشية رقم (٤) اما الدبابة التي
يركب عليها الكيش فهي عبارة عن آلة سائرة من الخشب الثخين
وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل حتى لا تؤثر فيها
النيران وتركب على عجلة مستديرة وتحرك فتنجرو وتدفع على البكرة .
انظر الطرسوسي : تبصرة ارباب الالباب ص ١٨ .
- (٢) رنسيان : الحروب الصليبية ج ٣ ص ٣٩٩-٤٠٠ .
- (٣) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٨٠ ؛ ابن تفرى بردي : النجوم
الزاهرة ج ٦ ص ٣٥٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٣ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٤٠ ، ٣٧٨ ؛ المقرئى : السلوك
ج ١ ص ٣٢٧ ؛ Selections.op.cit. pp 10-12 .
ابو الفدا : ج ٣ ص ١٧٦ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٨٠ ؛
الذهبي : المعبر ج ٥ ص ١٨٥ ؛ ابن تفرى بردي : النجوم الزاهرة ج ٦
ص ٣٥٨ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ج ٤ ص ١١٢ ؛ رنسيان : الحروب
الصليبية : ج ٣ ص ٤٠٠ .

الموقف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام

عشية الغزو المغولي ٦٤٦ - ٦٥٦ هـ

كان من الطبيعي أن تؤدى معركة غزة واسترداد بيت المقدس الوردية فعل عنيف لدى البابوية التي دأبت على الدعوة الى شن حرب صليبية عقب كل كارثة تحل بالصليبيين في بلاد الشام ، وقد استجاب لذلك الدعوة لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) الذى اشتهر بتعصبه للنصرانية وشففه بها وحرصه الشديد على مصالح الصليبيين .^(١)

تزعّم لويس التاسع آخر حملة صليبية كبيرة الى الشرق وذلك تنفيذاً لوعده الذى قطعه على نفسه ، وحشد جموعاً ضخمة للقيام بحملته وكانت خطته تقضى بقصد مصر باعتبارها مركز القوة الاسلامية الرئيس .^(٢)

وقد وصل لويس التاسع الى قبرص سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م ومكث فيها عدة أشهر ، حيث استقبل رسل القسطنطينية ومملكة أرمينية وبيعوث المغول وغيرهم ،

(١) انظر سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص

١٠٦-١٠٧

(٢) Painter:op.cit.p.218 =، جدير أن نشير هنا الى أنه قد قام العديد من الباحثين العرب المصريين بتأليف أبحاث عن حملة لويس التاسع على مصر ، ولن نتعرض هنا لشرح الحملة بالتفصيل فالذى يهمنا موقف بلاد الشام وجهود لويس التاسع بعد ذلك في توطيد نفوذ الصليبيين بها = وعن حملة لويس التاسع على مصر انظر = محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، حسن حبشي حملة القديس لويس على مصر والشام ، عبد الرحمن زكي ، معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية .

وتزودت قواته خلال تلك المدة بالموءن ثم ابجر قاصدا مصر للاستيلاء عليها^(١) . وكان الصالح أيوب في بلاد الشام حينما احتشدت الحملة في قبرص ، وحينما بلغه اعتزامها التوجه الى مصر غادر بلاد الشام متوجها الى مصر للدفاع عنها رغم مرضه الشديد .^(٢)

والحق ان قصة هذه الحملة شبيهة بسابقتها - الحملة الخامسة - التي هاجمت مصر^(٣) ، فقد أُرست في المكان الذي نزلت فيه من قبل الحملة الخامسة ، وتمكن الصليبيون بقيادة لوييس التاسع من الاستيلاء على دمياط في صفر ٦٤٧هـ / يونيه ١٢٤٩م بعد انسحاب القوات المكلفة بحمايتها .^(٤)

و جدير بالملاحظة هنا الموقف الذي وقفته بلاد الشام من سقوط دمياط ، حيث حاولت الضغط على الصليبيين المحتشدين في دمياط لاجبارهم على تشتيت قواتهم وارسال قسم منها الى مدن الشام الخاضعة لهم . فحينما وصل نبأ سقوط دمياط الى مدينة دمشق ، خرجت قوات الصالح ايوب المرابطة بها الى ساحل الشام وهاجمت صيدا واستولت عليها في ربيع الاخر ٦٤٧هـ / اغسطس ١٢٤٩م ، وحينما بلغ ذلك الخبر القاهرة ، عمت موجه من الفرح صفوف المسلمين في مصر واستبشروا به خيرا ، كما

(١) جوانفيل : القديس لوييس ص ٨١ - ٩٢ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ٦٤ - ٨٤ ؛ الباز العريني : الشرق الاوسط في العصور الوسطى " الايوبيون " ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٠٥ ب ؛ ابن شاعر : عيون التواريخ ج ١٥ ورقة ١٠ ب ، ابن طولون : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ، القسم الاول ص ٨٩ .

(٣) Painter: op.cit. p.218

(٤) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٣ ؛ الحريري : الاعلام والتبيين ص ٩٦ ؛

جوانفيل : القديس لوييس ص ٩٥ - ٩٦ ،

Selections From Tarikh Ibn al-Furat Vol.2 pp.17-18

جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر (١٠١-١٠٦) ، Painter : op.cit. p.218 .

وصل الى القاهرة في جمادى الاولى ٦٤٧هـ / سبتمبر ١٢٤٩م خمسون اميرا من الصليبيين الذين أسروا في صيدا (١) .

غير أن مما يسترعي الانتباه هنا السهولة التي تم بها اقتحام صيدا وهي المدينة التي استولى عليها الصليبيون عند قدوم الامبراطور فردريك الثاني وحصنها تحصينا جيدا (٢) وليس من تفسير لذلك سوى ما ذكره ابن الفرات من ان لوييس التاسع عندما أبحر مع جموع الصليبيين من قبرص قاصدين مصر " انضمت اليهم افرنج الساحل جميعه " (٣) وهذا يعني انه لم يبق في صيدا سوى حامية قليلة العدد بعد انضمام الصليبيين في بلاد الشام لحملة لوييس التاسع ، الا أن الذي يفسر السهولة التي سقطت بها صيدا في ايدي قوات دمشق . على أن تلك القوات لم تقم بأى عمل آخر ضد بلدان الساحل الخاضعة للصليبيين ويعود سبب ذلك الى خوف الحامية على دمشق اذا ما ذهب في غاراتها بعيدا ولا سيما وأن حلب ما زالت حتى ذلك الحين معادية للصالح ايوب (٤) . ويبدو أن قوات الصالح أيوب لم تحتفظ بصيدا فعادت وانسحبت عنها ، ان يشير ابن شداد الى انها ظلت بايدي الصليبيين حتى سنة ٦٥١هـ عندما أغار عليها الناصر يوسف (٥) .

ومهما يكن من أمر ، فبعد اقامة لوييس التاسع في دمياط زهاء خمسة أشهر تلقى خلالها الامدادات من فرنسا بقيادات اخيه كونت

(١) . Selections. op.cit.p.22

(٢) انظر ما سبق ص ٢٩١ .

(٣) . Selections: op.cit.p.15.

(٤) عن علاقة حلب بالصالح ايوب ، انظر ما سبق ، الفصل الثاني ص ١٩٩ .

(٥) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ، ج ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين

بواتييه ، قرر الزحف جنوبا صوب القاهرة^(١) . وكان السلطان الصالح ايوب قد اشتد به المرض وتوفي في ١٥ شعبان ٦٤٧ هـ / ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩ م . ورغم التكتّم الشديد الذي اتبعته ارملة شجر الدر وقائد الجيش فخر الدين بن الشيخ لإخفاء خبر موته ريثما يصل ابنه المعظم تورانشاه من اقليم الجزيرة ، فقد تسرب نبأ وفاته الى الصليبيين ، الأمر الذي جعلهم يمشون قدما في سيرهم تحاذيهم سفنهم في النيل - فرع دمياط - لمهاجمة معسكر المسلمين بالمنصورة ثم الزحف على القاهرة^(٢) .

وقد تمكن الصليبيون من العبور الى المنصورة ودخلوها في نى القعدة ٦٤٧ هـ / فبراير ١٢٥٠ م وجاء دخولهم اليها " اول ابتداء النصر على الفرنج " ^(٣) . فبالرغم من استشهاد قائد الجيش فخر الدين بن الشيخ ، فان فرسان المسلمين ومقاتليهم ثبتوا " ثم تناخوا على الفرنج فطحنوهم طحنا " ^(٤) . ولقد بلغ عدد ضحايا الصليبيين في المنصورة بضعة الاف ما جعلها بحق مقبرة الجيش الصليبي ^(٥) .

ولقد أجبرت هذه الهزيمة لويين التاسع على الاحجام عن التقدم ، وبعد وصول تورانشاه شدد المسلمون ضرباتهم للجيش الصليبي ، ونشبت

-
- (١) جوانفيل : القديس لويين ص ١٠١ - ١٠٣ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ١٣١ - ١٣٢ ؛ سعيد عاشور : مصر والشام ص ١١٠ .
- (٢) Selections : op.cit.p.23. ؛ سعيد عاشور : مصر والشام ص ١١١ .
- (٣) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٣٥١ .
- (٤) الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٥٢ .
- (٥) سعيد عاشور : مصر والشام ص ١١٢ .

معارك عديدة بين السفن الاسلامية والصليبية في نهر النيل ،وشلت حركة الصليبيين ،وانقطع المدد عنهم ،وتفتشت بينهم الامراض ،ثم شن المسلمون عليهم هجوما كبيرا عند فارسكور - قرب دمياط - في محرم ٦٤٨ هـ / ما رس ١٢٥٠ م وحلت الهزيمة الماحقة بالصليبيين ، ووقع لويس التاسع في الأسر ، كما وقع الجيش الصليبي بكامله بين قتيل وأسير ،وسيق الملك لويس التاسع الى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان (١) .

وقد حاول المسلمون خلال المفاوضات التي جرت مع اسيرهم لويس التاسع استرداد ما بأيدي الصليبيين من بلاد الشام ،ولكن لويس رفض بحجة ان لا سلطان له على الصليبيين في بلاد الشام ،واخيرا تم توقيع الصلح بين الطرفين وتضمن اعادة مدينة دمياط مقابل اطلاق سراح لويس التاسع نفسه ، مع دفع مبلغ ضخم من المال لفداء بقية الأسرى الصليبيين ، واطلاق سراح أسرى المسلمين ،وان تستمر الهدنة بين الجانبين لمدة عشر سنوات (٢) .

ابحر لويس التاسع من دمياط متوجها الى عكا في ربيع الاول ٦٤٨ هـ / مايو ١٢٥٠ م (٣) . في محاولة يبدو أنه قصد منها استعادة جزء من هيئته وكرامته التي مرغها المسلمون في الوحل على شواطئ النيل ،

(١) ابن شاكر: عيون التواريخ ج٥ ص ٢٤ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين

ص ١٨٤ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١٥٤-١٥٥ ؛ ابوالفدا :

المختصر ج٣ ص ١٨١ ؛ المقريزي : السلوك ج١ ص ١٥٦ ؛ ابن

تفري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٦٧ ؛ سعيد عاشور : مصر

والشام ص ١١٥ ، Selections: op.cit. pp.34-37 .

(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ١٥٦-١٦٣ ؛ جوزيف نسيم : العدوان

الصليبي على مصر ص ٢١٥-٢١٧ .

(٣) جوانفيل : القديس لويس ص ١٨٣-١٨٤ ؛ جوزيف نسيم : العدوان

الصليبي على بلاد الشام ص ٨٩-٩٠ .

وترميم ما أصاب الوجود الصليبي في بلاد الشام من انهيار . وكان الصليبيون في بلاد الشام قد بلغوا اقصى درجات الضعف والتدهور ، ان ان هزيمة لويس التاسع الساحقة في مصر لم تؤد الى تدمير الجيش الفرنسي فحسب بل قضت على معظم الفرسان المحاربين من الشرق الصليبي بما فيهم فرسان الداوية والاسبتارية^(١) . ولم يعد للصليبيين في بلاد الشام من الطاقة والقدرة ما يستطيعون به الدفاع عن كيانهم وأخذ مصيرهم معلقا بما سوف يؤول اليه المخاض الذي أخذ يعتور بلاد الشرق الادنى الاسلامي خلال هذه الحقبة والمتثل في انهيار الأيوبيين وقيام دولة المماليك وازدياد خطر الممفول .

وعلى الرغم من أن الظروف في فرنسا كانت تستدعي عودة لويس التاسع الى بلاده ، فانه قرر بعد مشاورة كبار اتباعه أن يبقى هو في بلاد الشام ، بينما ترك الحرية لباقي الامراء في البقاء معه أو المفادرة الى فرنسا ، وقد غادر العديد من الامراء الى بلادهم وضمنهم اخوة لويس التاسع الذي فضل البقاء في بلاد الشام حفاظا على كيان الصليبيين بها^(٢) .

وقد حاول لويس التاسع خلال وجوده في بلاد الشام الافادة من النزاع الذي نشب بين بقايا الأيوبيين في بلاد الشام ودولة المماليك الناشئة في مصر ، بغية تعويض الفشل الذي اصاب حملته على مصر^(٣) . فبعد وصوله الى عكا استقبل رسلا انفذهم اليه الناصر يوسف صاحب دمشق

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٣٤ .

(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ١٨٩-١٩٧ ؛ رنسيان : الحروب

الصليبية ج٣ ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٣) Stevenson: op.cit.p.329 .

شاكيا اليه امراء مصر الذين قتلوا ابن عمه تورانشاه ، وطلب مساعدته ضد المماليك في مصر وتعهد له بتسليم بيت المقدس له اذا ساعده في تحقيق اهدافه (١) . ويبدو ان الناصر يوسف أراد ان يبرهن للملك لويس التاسع على قوته ومقدرته على تهديد الصليبيين في بلاد الشام اذا لم يوافق على عرضه ، فحين استولى الناصر على يوسف على دمشق في ربيع الاول ٦٤٨هـ / مايو ١٢٥٠م ارسل عسكريا بقيادة رجل يدعى سعد الدين ابن نزار فنزل على حصن شقيف تيزون (٢) وانتزعه من أيدي الفرنج (٣) . ورغم ذلك فقد ذكر جوانفيل ان لويس التاسع ارسل بالجواب للناصر يوسف ، معتذرا عن اجابة طلبه بالتحالف معه ، الى ان يحصل على تعويض من المماليك الذين زعم انهم خرقوا الاتفاقية بينهم وبينه ، فاذا رفضوا نهض لمساعدته ضد المماليك في مصر (٤) .

ومن الواضح أن تردد لويس التاسع في قبول عرض الناصر يوسف يرجع الى انه ما زال في مصر اثنا عشر الف أسير صليبي ، لم يشأ لويس التضحية بهم اذا ما تحالف مع الناصر يوسف ضد المماليك (٥) .

والعجيب في تفكير الناصر يوسف هذا ، أنه لم يعتبر بالدروس القاسية التي حلت بكل حاكم مسلم حاول التحالف مع الصليبيين لتحقيق

(١) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٠٠ .

(٢) شقيف تيزون : اورده ابن شداد بالزاي ، بينما ضبطه ياقوت وابو الفدا بالراء ، وهو حصن منيع قرب صور ويقع شمال صفد على مسافة يوم سيرا على الاقدام . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٤٤-٢٤٥ ، ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ١٥٩ .

(٣) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ١٥٩ .

(٤) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٠٨ .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٤٠ .

طموحاته وأطماعه على حساب الحكام المسلمين الآخرين وكان اقرب الشواهد الماثلة أمام الناصر يوسف تلك الكارثة التي حاقت بحكام بلاد الشام فسي معركة غزة وكان ضمن القوات التي نزلت بها الهزيمة فرقة من عسكر حلب التابعة للناصر يوسف حينما تحالف ملوك الشام مع الصليبيين ضد الصالح ايوب . (١)

غير أن المماليك في مصر تمكنوا من شل مشروع الناصر يوسف الموجه ضدهم عندما أفرجوا عن بعض أسرى الصليبيين ، وأرسلوا الهدايا للملك الفرنسي ، واشترطوا عليه مقابل ذلك عدم التحالف مع الناصر يوسف ضدهم ، فاهتبل لويس التاسع تلك الفرصة وأرسل إلى المماليك ، يسطالبهم باطلاق جميع أسرى الصليبيين وأرسال رؤوس الفرنج المعلقة على اسوار القاهرة واعفاءه من بقية الفدية المستحقة عليه (٢) . ويفهم ما ذكره جوانفيل وابن كثير ان المماليك عرضوا على لويس التاسع تسليمه بيت المقدس سنة ١٢٥٠هـ / ١٢٥٢م اذا ما ساعدتهم ضد الناصر يوسف (٣) .

ولما علم الناصر يوسف نبأ الاتفاق بين لويس التاسع والمماليك أرسل أربعة الاف رجل إلى غزة للحيلولة دون اجتماع الصليبيين بالمماليك ، وخرج لويس التاسع إلى يافا في انتظار قدوم جيش المماليك ، وأقام بها عاما كاملا من صفر ٦٥٠ إلى ربيع الاول ٦٥١هـ / مايو ١٢٥٢ - يونيو ١٢٥٣م قام خلالها بتحصين يافا ، دون ان يتحقق امله في اجتماع قواته بالمماليك

(١) انظر ما سبق ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٠٨ - ٢١٠ ؛ سعيد عاشور :

الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٠ - ١٠٤١ .

(٣) جوانفيل : القديس لويس ص ٢٢٨ ، ابن كثير ج ١٣ ص ١٨٤ .

لمحاربة الناصر يوسف^(١) ، لأن المفاوضات نجحت أخيراً بمساعدة مندوب الخلافة العباسية في توقيع الصلح بين الناصر يوسف والمماليك واعترف الناصر بقيام دولة المماليك وتنازل لهم عن أجزاء هامة من بلاد الشام^(٢) . وبذلك فشلت خطط لوييس التاسع ، ولم يحقق أية مكاسب ذات شأن من النزاع الذي نشب بين الناصر يوسف ودولة المماليك في مصر . ومن الجوانب الأخرى لنشاط لوييس التاسع خلال إقامته في بلاد الشام ، قيامه بتحصينات البلدان الخاضعة للصليبيين وبخاصة عكا التي شرع في العناية بتحصينها غداة وصوله إليها في ربيع الأول ٦٤٨هـ / مايو ١٢٥٠م^(٣) . ثم عمر قلعة قيسارية وشيدها وحصنها ، كما اهتم بارسوف وحصنها^(٤) . وعمل أيضاً على تقوية يافا وتحصينها وإنشأ بها الأبراج والخنادق وانفق على ذلك أموالاً ضخمة^(٥) .

(١) جوانفيل : القديس لوييس ص ٢٢٨ - ٢٣٠ ؛ المقریزی : السلوك ج ١ ص ٣٨١ ؛ جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤١ ، Stevenson: op.cit. p.330.

(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ٢١٤ .
(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٢ .
(٤) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٥٢ - ٢٥٤ ؛ جوانفيل : القديس لوييس ص ٢١٠ - ٢١١ ؛ وارسوف : مدينة على الساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا ، استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٤ هـ انظر ياقوت : معجم البلدان .
(٥) جوانفيل : القديس لوييس ص ٢٤٦ ؛ وانظر أيضاً ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٢٥٧ .

اما عن الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين ، فقد وقعت بعض
الاشتباكات المحدودة بين الجانبين ، غير انها لم تؤد الى تغيير
الموقف لصالح اى من الطرفين ^(١) . على أن اخطر تلك الاشتباكات
واقواها مهاجمة قوات الناصر يوسف لمدينة صيدا سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م
وتمكن المسلمون خلال ذلك الهجوم من اقتحام المدينة وقتلوا بها اكثر من
الف رجل من الصليبيين واضطرت حامية المدينة الى الاحتماء بقلعة صيدا
الحصينة ^(٢) . الأمر الذى أوقع الحزن والاسى في نفس لويس التاسع وجعله
يهرع الى صيدا لتحسينها وتقويتها ^(٣) . ويذكر ابن شداد ان الناصر يوسف
صالح الصليبيين بعد هجومه على صيدا على ان تصبح المدينة مناصفة بين
المسلمين والصليبيين وظلت كذلك حتى دخول التتار الى بلاد الشام
سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م فانتهاز الفرص واستولوا عليها ^(٤) . ومن
المدن الاخرى التي عمل لويس التاسع على تحسينها وتقويتها مدينة صور
الساحلية ^(٥) .

واهتم لويس التاسع خلال اقامته بالشام برفع الروح المعنوية للصليبيين
وفضما وقع بينهم من خلافات ^(٦) . وبعد ان اقام في بلاد الشام زهاء
أربع سنوات غادرها متوجها الى بلاده سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م ^(٧) . بعد أن
تم توقيع هدنة بين الصليبيين والناصر يوسف صاحب الشام لمدة "عشر سنين
وستة أشهر وأربعين يوما . . وحلف الفريقان على ذلك" ^(٨) .

(١) عن هذه الاشتباكات انظر جوائيل : الصفحات ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،

٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) جوائيل : القديس لويس ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٣ .

(٤) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ١٠٠ .

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٤٣ .

(٦) المرجع نفسه ج٢ ص ١٠٤٤ .

(٧) جوائيل : القديس لويس ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .

(٨) المقرئى : السلوك ج١ ص ٣٩٣ .

وفي رأينا أن إقامة لويص التاسع في بلاد الشام تلك المدة الطويلة لم تؤد إلى أية مكاسب للصليبيين ، فلم يستطع الاستيلاء على بيت المقدس الذي قامت حملته أساسا على مصر من أجل ضمان الاستيلاء عليها . كما أن اجراءات لويص التاسع الدفاعية وتحصيناته للمدن والحصون الخاضعة للصليبيين ، لم تكن السبب في إطالة عمر الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وإنما السبب الحقيقي يعود إلى المنازعات التي نشبت بين الممالك وبين الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب ، ثم الاضطراب الذي نجم عن فرار الممالك البحرية بزعماء بيبرس إلى الشام ودخولهم في علاقات متشابكة مع الناصر يوسف والمغيث صاحب الكرك ، وما ترتب على ذلك من إنشغال الزعماء المسلمين في بلاد الشام ومصر بمشاكلهم ومنازعاتهم عن توحيد صفوفهم ضد بقايا الوجود الصليبي . إضافة إلى الاضطراب الذي عم بلاد الشام وغيرها من بلاد المشرق الاسلامي بسبب الزحف الكاسح لجحافل المغول على بلاد المشرق الاسلامي . فهذه هي الاسباب الحقيقية التي أمدت في عمر الوجود الصليبي بدليل انه بعد توحيد مصر والشام على يد الظاهر بيبرس وصد خطر المغول بدأت المدن الصليبية تتساقط تباعا في أيدي المسلمين .

الفصل الرابع

العدو قاتل الخار جيرة ملوك بني الروم
ولأرضه ساق تارخ بلود السام

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب وأثرها في تاريخ

بلاد الشام

أولا : مع القوى الإسلامية :

- * مع الخلافة العباسية .
- * مع سلاجقة الروم .
- * ظهور خطر الخوارزمية .

ثانيا : مع القوى غير الإسلامية :

- * مع مملكة أرمينية الصفري .
- * مع الامبراطورية الغربية المقدسة .
- * ظهور خطر التتار .

العلاقات الخارجية لملوك بني أيوب وأثرها في تاريخ بلاد الشام

لم يكن الصراع مع الصليبيين هو الحدث التاريخي المهم الوحيد الذي شهدته بلاد الشام قبيل الغزو المغولي . فقد دخلت في علاقات متشابكة مع العديد من القوى الخارجية - اسلامية وغير اسلامية - . كان لها آثار بعيدة على احوال بلاد الشام قبيل الغزو المغولي .

أولا : مع القوى الاسلامية :

مع الخلافة العباسية :

قامت العلاقات بين الدولة الايوبية والخلافة العباسية على أسس قوية منذ وقت مبكر حين أقدم صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م على اسقاط الخلافة الفاطمية في مصر ، وإعلان الخطبة للخليفة العباسي . الأمر الذي دفع الخلافة العباسية الى إرسال الخلع والتشريفات لصلاح الدين ، وأقيمت الاحتفالات في بغداد ابتهاجا بعودة الوحدة للعالم الاسلامي بعد أن انقسم زهاء قرن من الزمان منذ قيام الخلافة الفاطمية في مصر سنة (١) ٣٥٨هـ / ٩٦٩م .

وقد ازدادت العلاقات قوة ورسوخا بين صلاح الدين والخلافة العباسية بعد قيامه باستئصال جذور التشيع من مصر . وكان صلاح الدين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٦٨-٣٧١ ؛ البنداري : سنا البرق الشامي ج ١ ص ١١٥-١١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠٠ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٤٧ ؛ عبد الله الفامدي استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين ص ٤٨-٤٩ .

يحرص دوما طوال مرحلة حكمه على اضعاف صبغة الشرعية على كل الاعمال التي يقوم بها عن طريق تأكيد ولائه الدائم للخلافة العباسية واکرام رسل الخليفة العباسي (١) .

وعلى الرغم مما حدث بعد وفاة صلاح الدين من نزاع بين خلفائه من بعده ، وما نشب بينهم من حروب ، ودخولهم في تحالفات عديدة مع قوى خارج البيت الأيوبي ، فانهم حرصوا جميعا على اعلان تبعيتهم الاسمية والروحية للخلافة العباسية والتمسك بالولاء لها ، رغم أنها قد دخلت منذ زمن بعيد في طور الضعف والاضمحلال ، وذلك لكي يكسبوا حكمهم صفة الشرعية بل وتنافسوا في إظهار الولاء لها . فحين توفى السلطان صلاح الدين ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م وآلت السلطنة الى ابنه الأكبر الأفضل صاحب دمشق سارع بإرسال رسالتين من انشاء العماد الكاتب يشرح فيهما ارتباط البيت الأيوبي بالولاء للخلافة العباسية ، وقيام صلاح الدين بفريضة الجهاد باسمها . وأكد الأفضل في رسالتيه الانتماء لها معلنا فخره واعتزازه بذلك الولاء (٢) . كما أرسل من قبله مبعوثا بهدية قيمة الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ م) وتضمنت تلك الهدية صليب الصليوت الذي غنمه والده صلاح الدين في حطين وكان مصنوعا من " ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر " كما أرسل فرس والده وخوذته وسيفه وأربعة دروع كلها كانت " تركته وبها يقاتل "

(١) سعيد عاشور : ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ، في

كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٦٩ - ٧٤ .

(٢) انظر نص الرسالتين في ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٥ - ٨ .

اضافة الى تحف جميلة وهدايا قيمة من الطيب والشباب وغير ذلك^(١) .
اما الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب فقد جهّز هو الآخر
القاضي بهاء الدين بن شداد بهدايا تبلغ " اضعاف ما سيّره أخوه
الأفضل " وأرسله في أبهة جميلة وفرقة من الجند ، فسار القاضي بهدايا
الظاهر الى بغداد وبلغ رسالته للخليفة العباسي وعاد الى حلب
مكرما^(٢) .

وتوطدت العلاقات بين الخلافة العباسية وبين السلطان العادل ،
ولا سيما بعد سيطرة الأخير على مصر والشام حتى ان الخليفة الناصر لدين
الله بعث سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م بالخلع وسراويلات الفتوة^(٣) الى

-
- (١) ابو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٢٥ ؛ وانظر ايضا الاصفهاني :
الفتح القدسي ص ٦٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٨ ،
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٤٣٥ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٩ .
- (٣) الفتوة نظام اجتماعي اسلامي قديم يعود الى ما تعتمد عليه الفروسية
من آداب وصفات اهمها الشجاعة والقوة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة
وترك الكذب والرحمة باليتيم واكرام الضيف ومساعدة الضعيف والايثار ،
ومن الواضح انها تعتمد أساسا على مكارم الاخلاق التي جاء بها
الاسلام ، وللفتوة ذكر في الأحاديث النبوية ، ثم نسبت الى علي
ابن أبي طالب الذي اعتبره الفتيان منبع الفتوة وأصلها . وظلت
الفتوة قائمة في المجتمع الاسلامي خلال العصور الاسلامية تتطور
بتطورها فتقوى حيناً وتضعف احيانا الى أن عمل الخليفة الناصر
لدين الله على احياء هذا النظام . وكان للفتوة مراسم وقوانين
خاصة ، فلا يقبل طلب الشاب بالانتساب اليها الا اذا شهد له
فتيان آخرون بتمسكه باهدابها وقيمها . ثم يحتفل بانضمامه على
نسق خاص فيشد وسطه بحزام معين ثم يلي ذلك شرب كأس

العادل وأولاده فلبسوها في شهر رمضان من السنة نفسها^(١) . وحين طلب الخليفة الناصر لدين الله من الظاهر غازي صاحب حلب سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م ان يشتري لحسابه اسلحة وذخائر ليشحن بها بعض القلاع في شرقي العراق ، أرسل الظاهر الاسلحة المطلوبة للخليفة ورفض أن يتقاضى ثمنها^(٢) .

وحين وطد العادل نفوذه على بلاد الشام ومصر والجزيرة ، وبعد ان وقف بحزم في وجه الصليبيين وكبح جماحهم عن التوسع في بلاد الشام ، أرسل في اوائل سنة ٦٠٤هـ / ١٢١٠م ملوكه الدكر العادلي وقاضي عسكره نجم الدين خليل بن المصمودي رسولين الى الخليفة الناصر لدين الله طالبا التشريف والتقليد على مصر والشام والبلاد الجزرية وغلط فآكرهما الخليفة وقررا جابته الى طلبه^(٣) .

=== الفتوة المكون من الماء والملح ثم يلبس سراويل الفتوة . وللمزيد من التفاصيل انظر ، ابن عمار البغدادي : الفتوة نشر فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٩م ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٠٦ حاشية رقم (٢) ؛ كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ١٤٢-١٤٥ ؛ مريزن عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، رسالة دكتوراه لم تطبع ص ١٠٤-١١١ .

- (١) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ٣٣ .
(٢) سعيد عاشور : ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٨٠ .
(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٥٣٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٨٠ ؛ ابن نظيف التاريخ المنصوري ص ٥٦ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ٦٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٦٣ .

وارسل الشيخ شهاب الدين السهروردي حاملا الخلع والتقليد للسلطان العادل ، ومرض الشيخ السهروردي بحلب فخرج الظاهر في عساكره وأرباب دولته الى لقاءه ، ثم سار من حلب نحو دمشق وأرسل الظاهر في صحبته قاضي مملكة حلب ابن شداد وأعطاه ثلاثة الاف دينار لنشرها على السلطان العادل عندما يلبس خلع الخليفة ، كما بعث المنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص مبالغ من المال لنشرها أيضا (١) .

وعند اقتراب مبعوث الخليفة من دمشق خرج العادل وأولاده لاستقباله كما أغلقت الاسواق وخرج الناس جميعا لمشاهدة مبعوث الخليفة . وجلس العادل في قلعة دمشق وقدم له الشيخ السهروردي خلع الخلافة ، وكانت مكونة من جبة أطلس اسود بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز مذهب أيضا ، وطوقه بطوق مصنوع من الذهب المرصع بالجواهر ، وقلده بسيف محلي بالذهب ، وقدم له حصانا أشهب بسرج مطلي بالذهب ونشر على رأسه علم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة والقباه (٢) . وعندما لبس العادل خلع الخليفة نشر رسل الملوك عليه دنائير الذهب ابتهاجا بهذه المناسبة ، ثم خلع رسول الخليفة على ابني العادل الا شرف والمعظم وعلى وزيره ابن شكر . وركب العادل وولداه بالخلع والتشريفات وتجولا بها في شوارع دمشق ليراها الناس ، ثم وضع كرسي في احد الميادين

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج١ ص ٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٨١ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ٦٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج١ ص ٦٣-٦٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٠٨-١٠٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٢ ص ١٦٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٥٦ ؛ ابن نصر الله ، شفاء القلوب ص ٢١٨ .

وأعلن من عليه بالتقليد للسلطان العادل ، وخوِطِب فيه " بشاهان شاه
ملك الملوك خليل أمير الموءنين " ثم توجه الشيخ السهروردي الى مصر
لاضفاء الخلع بنفسه أيضا على الملك الكامل بن السلطان العادل ثم
عاد الى بغداد معززا مكرما . (١)

ويتضح من كل هذا مدى حرص بني أيوب في بلاد الشام على اضافة
طابع الشرعية على حكمهم كما يتضح مدى الأهمية والمكانة في نفوس عامة
المسلمين في بلاد الشام للخلافة العباسية ومدى تقديرهم للخليفة باعتباره
امام المسلمين ورمز وحدتهم ، وليس ادل على ذلك من قيام العادل مع
اولاده بالركوب بخلع الخليفة والتجول بها في شوارع دمشق ليرى الناس
مدى رضى الخليفة عن السلطان وابنائهم .

وفي سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م وصل الى بلاد الشام رسول الخليفة
العباسي الناصر لدين الله ومعه كتاب صنفه الخليفة وسماه (روح العارفين)
ويشتمل على أحاديث نبوية يرويها الخليفة بأسانيد عالية ، وقد سمع كتاب
الخليفة في كل بلاد الشام ومصر . وفي حلب جلس رسول الخليفة في الجامع
الكبير وحضر القاضي ابن شداد وكبار رجال الدولة واعيانها للاستماع الى
كتاب الخليفة (٢) . وحمل الرسول الشيخ السهروردي الى الظاهر تشریف
الخلافة وكان عبارة عن فرو سمور مغطاة بثوب اطلس أسود . وسيف محلي ،
وجلس الملك الظاهر بين يدي الشيخ وهو يقرأ كتاب روح العارفين للخليفة ،
وكان الظاهر يقف على رجله كلما ورد ذكر اسم الخليفة اثناء القراءة احتراما
واجلالا لمكانته . (٣)

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٨١-١٨٢ ؛ تاريخ ابن الفرات

جده قسم ١ ص ٦٤-٦٥ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٠٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٣٢-٢٣٣ .

على أنه تجدر الإشارة هنا ، أنه اذا كان ملوك بني أيوب في بلاد الشام ومصر يتنافسون على كسب رضا الخليفة والتمسك الدائم باظهار الولاء للخلافة و اعلان الانتماء لها فإنها لم تكن قادرة على ان تؤثّر فعلا في سير الحوادث ، بل ولم يكن للخليفة دور يتناسب ومكانته في جهاد الصليبيين في ذلك الدور ، في وقت حشدت فيه البابوية والغرب الاوروبي كل جهودهم للاستيلاء على مصر والتمثل في الحملة الصليبية الخامسة . فقد ذكر المؤرخ المعاصر ابن نظيف الحموي أنه حين كان الصليبيون يحدقون بدمياط سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨ م ، وصل الى مصر سفير الخليفة الى الملك الكامل ولما أدى مهمته تبين انه جاء يحث الملك الكامل على أن يكون الخليفة الناصر لدين الله قدوته وقبلته في نظام الفتوة ورمي البندق (١) .

(١) البندق : هو الذى يرمى به ، والواحد بندقية والجمع بنادق . وهي كرات صغيرة تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص ويبدو أنها فارسية الاصل ويسمونها " الجلاهقات جمع جلاشق " وكان الفرس يرمون البندق عن الاقواس كما يرمون السهام . واقتبس العرب هذه اللعبة منذ وقت مبكر وشكلوا فرقا من الجند يرمون بها ، وكان رماة البندق في العصر العباسي جماعة كثيرة ، وكانوا يخرجون الى سواد المدن وضواحيها يتسابقون في رمي البندق على الطير وغيره ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ، وكانوا يلبسون لذلك سراويل الفتوة ، وانتشرت هذه اللعبة في بلاد العراق والشام ومصر وفارس ثم استخدموا الانابيب حيث يضغط الهواء من مؤخرة الانبوب بما يشبه انابيب البنادق . فلما ظهر البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الانابيب ، وسما هذه الالة بندقية نسبة اليه ، وقد عني الخليفة العباسي الناصر لدين الله بالبندق حتى جعل رميه فنا لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها منه مباشرة او من أحد رسله بالوكالة . انظر ، جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ١٥٩-١٦٠ .

ويعلق ابن نظيف الحموى على هدف هذه السفارة بأسلوب لاذع ساخر قائلا : " فتعجب الناس من إمام العصر و همته " (١) .

ولما اشتدت الضائقة بالمسلمين بعد سقوط دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م بعث الخليفة الناصر لدين الله الى سائر الممالك الاسلامية في الجزيرة والشام وغيرها يحث ملوكها على نجدة السلطان الكامل بدمياط (٢) . ولم تقم الخلافة نفسها بدور ملموس في جهاد الصليبيين اثناء تلك الحملة .

وبعدما توفي الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م سار ابنه الخليفة الظاهر بأمر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ / ١٢٢٥-١٢٢٦م) على نهجه في إضفاء الخلع والتشريفات على ملوك بني أيوب ، فأرسل الشيخ محي الدين محمد بن الجوزي سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م الى الشام فوصل الى حلب وألبس خلع الخليفة الجديد للملك العزيزين الظاهر ثم سار الى المعظم صاحب دمشق وبقيّة بني أيوب بخلع ماثلة (٣) . وليس أدل على تمسك بني أيوب في بلاد الشام بالعلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية من موقف المعظم الذي وقفه ازاء حليفه جلال الدين الخوارزمي حين تحالف المعظم معه لمواجهة اخويه الكامل والاشرف ، (٤)

- (١) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصوري ص ٧٥ .
- (٢) المصدر نفسه ص ٨٠ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٠٤ .
- (٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٩٧ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ج٤ ص ١٧٥ - ١٧٦ ؛ المقرئى : السلوك ج١ ص

٢١٩-٢٢٠ .

- (٤) انظر ما سبق الفصل الثاني ص : ١٢٣ .

فهاجم الخوارزمي اطراف العراق سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م وأزمع على مهاجمة بغداد فأرسل الى حليفه المعظم متهما الخليفة بأنه الذي حرّض المغول على مهاجمة الدولة الخوارزمية ، وطالب جلال الدين المعظم بالقدوم اليه لمهاجمة خليفة بغداد ، فرفض المعظم في حزم قائلا : " انا معك على كل أحد إلا الخليفة فانه إمام المسلمين " (١)

على أن موقف المعظم هذا لا يعني أنه تخلى عن التحالف مع الخوارزمي ففي سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م طالب الشيخ محي الدين بن الجوزي المعظم بترك محالفة الخوارزمي باعتباره خارجا عن الطاعة بتهديده الخلافة العباسية في بغداد ، وأوضح له استعداد الخلافة للإصلاح بينه وبين اخوته غير أن المعظم اعتذر عن التخلي عن محالفة الخوارزمي خوفا من اطباق أخويه الكامل والأشرف على مملكته في الوقت الذي لا تستطيع فيه الخلافة تقديم المساعدة الفعالة لحمايته . (٢)

وعندما ذهب الكامل إلى اقليم الجزيرة سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م ظلت الرسل متبادلة بينه وبين الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ هـ - ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م) مما يشير الى حرص الجانبين على استمرار العلاقات الطيبة بينهما (٣) . وفي السنة التالية ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م وصل الى مصر مبعوث الخليفة بالخلع والتقليد للسلطان الكامل ولاخيه الأشرف صاحب دمشق

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٣٤ ؛ وانظر ايضا : ابن تغري بردي ؛ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٦٠-٢٦١ .
- (٢) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٤٧-١٤٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٢ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٢٨٠-٢٨١ .
- (٣) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٧-٢٠٠ .

ولابنه الصالح ايوب وغيرهم من ملوك وامراء بني ايوب^(١) . وفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م ذهب مبعوث الخليفة مرة أخرى الى مصر وعند عودته من مصر استقبله المجاهد صاحب حمص وأهل دمشق وفقهائها وأعيانها استقبالا حافلا^(٢) .

وكان ملوك بني أيوب في بلاد الشام يرون الخلافة العباسية بمثابة الملاذ الأخير الذي يتحتم اللجوء اليه وقت الأزمات ، ومما يبرهن على صحة هذا القول أن الناصر داود صاحب الكرك حين تدهورت العلاقات بينه وبين عمه الكامل سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م وبات يشعر أن عمه قد ينقض على ما تبقى لمن املاك ، ففكر في الذهاب الى بغداد ، وشرع في اعداد نفسه وحاشيته للرحيل " ثم سافر ملتجئا الى الخليفة ومستجيرا به وتمسكا بذيله "^(٣) واصطحب معه بعض كبار العلماء ، وحين وصوله الى بغداد أمر الخليفة المستنصر بالله باستقباله في احتفال مهيب وأمر باكرامه وانزاله بدار الوزارة^(٤) . وحمل الناصر داود للخليفة هدايا قيمة من الجواهر والتحف النفيسة ، غير أن الناصر داود لم يحظ في بادئ الأمر بمقابلة الخليفة شخصا ، لأن الأخير أثر عدم إغضاب السلطان الكامل وإشارة عتبه ووحشته ، لعلمه ان الناصر داود لم يصل الى بغداد الا وهو غاضب على عمه ، الأمر الذي جعل الناصر داود يتألم لموقف الخليفة ،

(١) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥١ ، ٢٥٦ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

جده ص ١٠٠ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٣٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ،

جده ص ١٠٠-١٠١ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٧٧ ؛

ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٥٧ ؛ المقرئ : السلوك ،

ج١ ص ٢٥١ .

فعمد الى انشاء قصيدة رائعة مكونة من تسعة واربعين بيتا يمدح فيها
ال خليفة ويعتب عليه رفضه مقابلته في الوقت الذي قابل فيه صاحب اربل
وهو اقل منه عراقية ومكانة^(١) . وقد أثارت القصيدة اعجاب الخليفة
المستنصر فأمر باستقباله سرا تطيبا لخاطره ، وحتى لا يَغضب في
الوقت نفسه عنه السلطان الكامل ، وتمت المقابلة ليلا بين الخليفة
والناصر داود ، ودارت بينهما المناقشات العلمية والأدبية الى آخر
الليل^(٢) .

وحضر الناصر داود اثناء اقامته في بغداد المناظرات التي كانت
تدور في المدرسة المستنصرية ، فناظر العلماء والفقهاء ، وأثار اعجاب الجميع^(٣) .

(١) ما جاء في القصيدة قوله :

فأنت إمام العدل والمعرق الذي به شرفت أنسابه ومناصبه
ويأتيك غيري من بلاد قريبة له إلا من فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنوا منك لم ألق مثله ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه
انظر نص القصيدة في تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٣٣-٣٣٦ ؛ ابن
واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٠٢ - ١٠٦ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٣٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ،
ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) ذكر المؤرخ ابن واصل أن الناصر داود حكى له أنباء تلك
الرحلة واخبره أنه حضر إلى المدرسة المستنصرية التي بناها
الخليفة المستنصر ، واجتمع بالعلماء ، وكان الخليفة يطل على
ايوان المدرسة من روشن في قصره الملاصق للمدرسة ويستمع
لمناظرات العلماء . فقام احد الفقهاء ويدعى وجيه الدين
القيرواني والقي قصيدة يمدح الخليفة فجاء فيها قوله مخاطبا
الخليفة :

لو كنت في يوم السقيفة حاضرا كنت المقدم والامام الا روعا

ثم خلع الخليفة على الناصر داود وعلى اصحابه واكرمهم ، وجهزه للسفر ،
وبعث في خدمته رسولا من كبار خواصه ليشفع له لدى عمه الكامل .
وحين بلغ الاخير قدومه مع رسول الخليفة خرج من دمشق مع اخيه الاشرف
واستقبله بحفاوة " وقبل شفاعته الخلافة فيه " (١) .

وبعد أن أقام الناصر داود اياما في دمشق غادرها الى الكرك
في صحبة صديقه المؤرخ ابن واصل الذي أقام في كنفه بقية سنة
٦٣٣ هـ (٢) . ويشير ابن واصل الى مدى اعتزاز الناصر داود بعلاقته
الوطيدة مع الخليفة العباسي فيذكر انه بعدما رجع الى دمشق من رحلته
ومعه الاعلام السود جعل رنكه (٣) كله اسود تعبيرا عن انتماؤه

=== فغضب الناصر داود لأن ذلك الفقيه الشاعر أساء الألب مع أبي بكر
وعمر بن الخطاب وغيرهما من كبار المهاجرين والانصار فجعل
الخليفة المستنصر مقدما عليهم جميعا . وقال لذلك الفقيه
بمرأى وسمع من الخليفة " أخطأت فيما قلت ، كان ذلك اليوم
جد سيدنا ومولانا الامام المستنصر بالله العباس بن عبد المطلب
عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضرا ولم يكن المقدم والامام
الأروغ الا ابا بكر الصديق " فأعجب الخليفة برد الناصر داود
وصدرا مره بنفي ذلك الفقيه من بغداد ، انظر ابن واصل :

مفرج الكروب جده ص ١٠٧-١٠٩ .

(١) المصدر نفسه جده ص ١١٠-١١١ .

(٢) المصدر نفسه جده ص ١١١ .

(٣) الرنك - جمعه رنوك - لفظ فارسي معرب معناه اللون ، وقد

استعمل بمعنى الشعار او العلامة التي يتخذها الشخص لنفسه
وينفرد بها دون غيره وينقشها على ابواب بيوته وممتلكاته كما
يضعها على سروج خيوله وسيوفه والاته وذخائره ، انظر ابن واصل :

مفرج الكروب جده ص ١١٢ . حاشية رقم (٧) .

الى الخلافة . وكان الخليفة المستنصر قد لقبه " الولي المهاجر " فلما عاد الناصر الى بلاده امر الخطباء أن يذكروا في الدعاة له اللقب الذي شرفه الخليفة به ، ولما سافر الى الكرك سافر رسول الخليفة معه ليلبسه الخلعة ويتأكد بذلك أمره وتنحسم مادة الطمع فيه " ولما وصلا الى الكرك اقيمت الاحتفالات ابتهاجا بعودة الناصر داود مع مبعوث الخلافة الذي رجع بعد فترة وجيزة الى بغداد بعد أداء مهمته " وأقام الناصر بالكرك مطمئنا آمنا لانتسابه الى الخليفة " (١)

وهكذا أصبحت الخلافة العباسية تلعب دورا مؤثرا في محاولات رأب الصدع وتسوية النزاع بين ملوك بني أيوب في وقت تفاقم فيه خطر التتار من جهة الشرق ففي سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م واثنا حصار السلطان الكامل لآخيه الصالح اسماعيل بدمشق اقتنع محي الدين بن الجوزي - مبعوث الخليفة - اسماعيل بتسليم دمشق لآخيه الكامل مقابل تعويضات مناسبة (٢) وبعد استيلاء الكامل على دمشق وصل اليه رسول آخر في السنة نفسها ومعه مئة الف دينار للسلطان الكامل وطلب منه انفاقها على العساكر لصد خطر التتار الذين شرعوا يهددون بغداد ، وحينما تسلم الكامل كتاب الخليفة وضعه على رأسه تعبيرا عن تقديره وأعلن على الفور اجابة طلب الخليفة وأمر بصرف مائتي الف دينار على اعداد العساكر وأن لا يُصرف شيء من المال الذي بعث به الخليفة وأن يعاد يكماه الى بغداد (٣)

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١١٢-١١٣ .

(٢) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٧ أ ب ؛ الاصفهاني : البستان

الجامع ، ورقة ٢٠٧ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٥٢ ،

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٨ .

(٣) ابن واصل : التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٧ ب ؛ الاصفهاني :

البستان الجامع ورقة ٢٠٧ ب ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥٧ .

وذكر المقرئى ان الكامل أمر بتجهيز عشرة الاف فارس بقيادة الناصر داود ،
غير ان العدد لم يلبث ان انخفض الى ثلاثة الاف دون سبب معروف (١) .
ومن الواضح ان وفاة الكامل في السنة نفسها واضطراب احوال الايوبيين
بعده حال دون ارسال قوات كسيرة لنجدة الخلافة .
وقد بذلت الخلافة مساعيها لتطويق النزاع الذى أخذ يتفاقم بين
الايوبيين في بلاد الشام ومصر ، ففي سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨ م واثناء إقامة
الصالح ايوب بنابلس وهو في طريقه الى مصر بقصد انتزاعها من اخيه
العادل ، وصل محي الدين بن الجوزى رسول الخليفة المستنصر في محاولة
للاصلاح بين الاخوين ، واستطاع ابن الجوزى - بمساعدة ابنه الذى أخذ
يتنقل بالرسائل بين مصر والشام - الوصول الى اتفاق بين الصالح ايوب
واخيه العادل على أن يكون للصالح ايوب دمشق وما يتبعها من البلاد
التي كانت تابعة لها زمن الاشرف ، وتعود بلاد الناصر داود اليه ، على
ان يحتفظ العادل الثاني بمصر ، غير ان تلك الجهود سرعان ما انتهت
فجأة عندما انقض الصالح اسماعيل على دمشق واستولى عليها من ابن
الصالح ايوب وما تبع ذلك من تطورات وحوادث (٢) . كما فشلت جهود
محي الدين بن الجوزى ايضا في محاولة الصلح الاخرى التي حاول اجراءها
بين الصالح اسماعيل وابن اخيه الناصر داود بسبب اصرار الاخير
على اعادة دمشق اليه (٣) .

- (١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢١٦ ، ٢١٨ - ٢١٩ ، ابو الفدا :
المختصر ج ٣ ص ١٦٤ ، وانظر ما سبق الفصل الثاني ص : ١٧٤ - ١٨٠ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٤٨ ، ٢٥٢ - ٢٥٣ .

وبعد أن نجح الصالح أيوب في الاستيلاء على مصر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م حصل فوراً على التقليد والخلع من الخلافة العباسية^(١).
واخفقت جهود الخلافة مرة أخرى في تسوية النزاع بين الصالح أيوب وعمه اسماعيل صاحب دمشق بسبب تعنت الأخير^(٢). وبعد أن حلت الهزيمة بقوات الصالح اسماعيل في معركة غزة سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م أرسل وزيره إلى بغداد طالبا شفاعة الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨م) ليتوسط في الصلح بينه وبين ابن أخيه الصالح أيوب ، غير أن وزير الصالح اسماعيل لم يلق أذنا صاغية من الخليفة فعاد إلى صاحبه " ولم يتحصل من رسالته على طائل " ^(٣) .
وبعد أن استولت قوات الصالح أيوب على دمشق سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م بعث برسول من لدنه إلى بغداد " يلتمس التقليد بالديار المصرية والشام والشرق والتشريف الامامي " فاستجاب الخليفة المستعصم لطلب الصالح أيوب وبعث له بالتشريف والتقليد ويقول في ذلك الموضع ابن واصل : " وكنت يومئذ حاضرا فقرأ التقليد على الناس ثم لبس السلطان التشريف الأسود المذهب ، والعمامة والجبّة ، والطوق الذهب وركب المركوب الذي قدم له بالحلية الذهب وكان يوما مشهودا " ^(٤) .

-
- (١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٩٨ .
(٢) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٥٢ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٤١ ؛ وانظر ايضا ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٤ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٥١ - ٣٥٢ ؛ وانظر ايضا سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٥٥ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٤٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٥٦ .

ونجحت وساطة الخلافة العباسية في سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م عندما

تمكن مبعوث الخليفة من تسوية النزاع الذي نشب بين ملكة حلب والصالح
ايوب حول حمص ، فاصدر الصالح ايوب امره لعسكره بترك حصار حمص
بعد ان كاد يستولى عليها (١) .

والحق ان الخلافة العباسية في بغداد كانت اكثر احساسا بخطر
المغول الوثنيين الذين هددوا قلب العراق وصاروا قاب قوسين أو أدنى
من بغداد ، في الوقت الذي قامت فيه دولة المماليك في مصر وبدأ النزاع
يشتد بينها وبين بقايا الايوبيين في بلاد الشام الامر الذي جعل
الخليفة المستعصم يسعى جاهدا لتوحيد صفوف المسلمين في الشرق
الادنى محاولا صد خطر المغول ، لذلك لا تعجب اذا ارسل الخليفة
المستعصم الى الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب يأمره بمصالحة المعز
ايبك التركماني زعيم المماليك في مصر وأن يتفقا على حرب التتار (٢) .

ففي سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م تفاقم النزاع بين المماليك في مصر والناصر
يوسف صاحب الشام واستطاع الشيخ نجم الدين عبدالله بن محمد البادرائي
مبعوث الخليفة التوفيق بين الجانبين قاطعا الطريق على الصليبيين في
بلاد الشام للافادة من النزاع القائم (٣) . واذا كان الخلاف قد اندلع
من جديد بين الطرفين بسبب خروج المماليك البحرية الى الشام فان الشيخ

(١) ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧٧ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣٣١ ؛

ابن نصر الله : شفا القلوب ص ٤١٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم

الزاهرة ج٧ ص ٢٥٠ .

(٢) سعيد عاشور : ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ،

بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٨١-٨٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٨٤ ؛ ابن نصر الله : شفا

القلوب ص ٤١٤-٤١٥ .

(١) البادرائي استطاع مرة أخرى تسوية الخلاف سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م.
وفي سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ارسل الناصر يوسف المؤمن خ كمال الدين بن العديم بهدايا الى الخليفة المستعصم طالبا منه الخلع ، ووصل في الوقت نفسه مبعوث المعزايك سلطان المماليك في مصر طالبا الخلعة ايضا ، فتخرج الخليفة ، أي الزعيمين يلبي طلبه ، واستقر رأيه اخيرا على إجابة طلب المعزايك ، ثم احضر الخليفة سكيناً كبيرة وقال لوزيره : " أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في أن له خلعة عندي في وقت آخر أما في هذا الوقت فلا يمكنها فاخذها كمال الدين بن العديم وعاد الى الناصر يوسف بغير خلعة (٢) وهذا الموقف ان دل على شيء فانما يدل على إحساس الخلافة بيزوغ قوتونجم دولة المماليك وأقول نجم الدولة الأيوبية ، على الرغم من أن الخليفة المستعصم أوفى بوعده وأرسل في السنة التالية ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م الخلعة والطوق والتقليد الى الناصر يوسف بدمشق ، فركب " بالخلعة الامامية وكان يوما مشهودا " (٣) .

وارسل الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م الى المغيث صاحب الكرك طالبا إنفاذ الناصر داود اليه لكي يقدمه على بعض العساكر لمواجهة التتار ، فسار الناصر داود مع رسول الخليفة من الكرك

(١) بيبرس : التحفة الطوكية ورقة ٧ أ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض

الزاهر ص ٥٥ - ٥٦ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٣٩٨ ،

ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٥ .

(٢) ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩١ ، وانظر ايضا : اليونيني : ذيل

مرآة الزمان ج ١ ص ١٢ - ١٣ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٤١٥ ؛

الغزى : نهر الذهب ج ٣ ص ١٥٧ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء ج ٢

ص ٢٧٤ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٥٢ ، وانظر ايضا : ابو الفدا :

المختصر ج ٣ ص ١٩٣ .

نحو بغداد وما أن وصلا الى دمشق حتى بلغهما سقوط بغداد
بأيدي قوات المغول. (١)

وهكذا ظلت الخلافة حتى آخر لحظة من عمرها تنهض بمسؤولياتها
وتعمل قدر طاقتها على توحيد جهود المسلمين لمواجهة الاخطار الخارجية
ولا سيما من جانب الصليبيين والمغول. (٢)

*

مع سلاجقة الروم :

تعود جذور العلاقات بين الأيوبيين في بلاد الشام وسلاجقة
الروم الى زمن صلاح الدين حيث لجأ اليه معز الدين قيصر شاه بن قلع
أرسلان صاحب ملطية بسبب طمع أخيه قطب الدين في مملكته ، فأكرمه
صلاح الدين وزوجه من ابنة اخيه الملك العادل الأمر الذي جعل اخاه
قطب الدين يحجم عن مهاجمة ممتلكاته في ملطية وما يتبعها (٣) . وفي
سنة ٥٩٢هـ / ١٢٠١م فقد معز الدين قيصر شاه ملطية لحساب أخيه
الاخر ركن الدين ، فهرب الى الشام مستنجدا بحميه السلطان العادل غير
أنه لم يقدم له مساعدة تذكر (٤) . ويبدو أن العادل لم يشأ في
تلك الفترة الانغماس في مشكلات دولة سلاجقة الروم في وقت كان يعمل
فيه جاهدا على إعادة توحيد الدولة الأيوبية وبسط نفوذه عليها .

(١) ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية ،

بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٨٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٦٠ .

(٤) المصدر نفسه ج١٢ ص ٢٠١ .

والحق أن تَجَاوَر الدولة الأيوبية مع دولة سلاجقة الروم واشتراكهما معا في حدود طويلة متداخلة في شمال الشام وأعالي الجزيرة ، أدى الى قيام علاقات متشابكة بين الدولتين . وهي علاقات تميزت بالشد والجذب حسب ما تطلبه مصالح كلا الدولتين . فسادتهما صفة الود والمصاهرة والمصالح المشتركة حيناً ، وشابتهما سمة العداء والمنافسة أحياناً . فلما استولى السلطان العادل على مملكة ابن أخيه الأفضل وجرده من أكثر ممتلكاته في أعالي الجزيرة ، ولم يبق بيده غير سميساط ، أعلن الأفضل سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٣ م : نحيازه لسلطان سلاجقة الروم ، وبذل له الطاعة وخطب له ببلاده نكايه في عمه العادل ، فأرسل سلطان سلاجقة الروم الخلع للأفضل فلبسها وضرب السكة باسمه .^(١)

وكانت أكثر الممالك الأيوبية الشامية تأثراً بمجاورة دولة سلاجقة الروم هي مملكة حلب نظراً لوقوعها في شمال الشام ومجاورتها لدولة سلاجقة الروم ، إضافة إلى تداخل الثغور الشامية والجزرية بين المملكتين ، حيث كان بعضها يتبع مملكة حلب وبعضها الآخر يتبع دولة سلاجقة الروم . وقد حرصت مملكة حلب في عهد الملك الظاهر على الاحتفاظ بعلاقات حسن الجوار مع دولة سلاجقة الروم لا يدرك الظاهر بعدم قدرته بمفرده على الدخول في مجابهة معها^(٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج٢ ص ١٨٢ - ١٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٣ ص ١٥٠ - ١٥٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية

ج١٣ ص ٤١ .

(٢) انظر ، أحمد المولوي : صحائف الأخبار ، ورقة ٥٧٦ أ .

ولكن أطماع سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكافوس بن كيخسرو

(٦٠٦-٦١٦هـ/١٢١٠-١٢١٩م) في حلب وجميع بلاد الشام لسم

تليت أن ظهرت بعد وفاة الظاهر بن صلاح الدين سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م^(١)

وكان أول اجراء اتخذه كيكافوس ان أرسل الى زعماء حلب معزيا بوفاة الظاهر،

ومقترحا في الوقت نفسه تعيين الافضل بن صلاح الدين صاحب سميساط

أتابكا للعسكر لأنه عم الملك الصغير العزيز " وهو أولى بترتيبه وحفظ

ملكه " وبدأ هدف كيكافوس من هذا الاقتراح واضحا ، ان كان يرمى الى

السيطرة على حلب عن طريق الافضل الخاضع لنفوذه . غير أن هذا

الاقتراح لم يلق قبولا لدى أغلب الحلبيين ، واستقر الرأي أخيرا على

رفضه^(٢)

وعند ذلك قرر كيكافوس غزو حلب ، فحشد جموعا ضخمة من المقاتلين

كما استعد بالمنجنقات^(٣) ، ولكي لا يواجه مقاومة فعالة لجأ الى

الاستعانة بالافضل صاحب سميساط لعله أن طائفة كبيرة من عسكر

حلب يميلون اليه ، فضلا عن تعاطف السكان معه ، فاستدعاه من سميساط ،

وحين قدومه اليه أمر باستقباله بحفاوة بالغة وقدم اليه هدايا كثيرة

من الخيل والخيام والسلاح ، واتفق معه على أن يسير في صحبته لغزو

حلب ، وتضمن الاتفاق أن جميع ما يستولون عليه من مملكة حلب ، تُسلم للملك

(١) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ أ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٧٦-١٧٧ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج٣ ص ٢٥٠-٢٥١ .

(٣) المولوى : المصدر نفسه ، ورقة ٥٧٦ أ ؛ ابن العديم : المصدر

نفسه ج٣ ص ١٨١ .

الأفضل على أن يقيم الخطبة والسكة بها للسلطان كيكافوس ، ثم يسيرون بعد ذلك الى الشرق للاستيلاء ، على أملاك الاشرف مثل الرها وحران وغيرها ^(١) . وعند كيكافوس الى مراسلة بعض امراء حلب الذين يميلون الى الملك الأفضل ووعدهم بالاقطاعات المغرية في جنوب اسيا الصغرى ، ومنهم على سبيل المثال علم الدين قيصر الذي راسله وكتب له توقيعاً بابلستين ^(٢) ، فاعطن عصيانه على الحلبيين وسار باتباعه الى السلطان كيكافوس وانضم اليه ، كما ساندته في حملته بعض حكام الجزيرة وعلى رأسهم صاحب آمد ^(٣) .

وسار كيكافوس وصحبته الأفضل في ربيع الاول سنة ٦١٥هـ / يونيه ١٢١٨ م نحو مملكة حلب ، فاستولى على قلعة رعبان وسلمها للأفضل ، مما جعل سكان مملكة حلب يرجعون بحملته لميله للملك الأفضل ^(٤) . ثم سار الى قلعة تل باشر وحاصرها حصاراً شديداً حتى استولى عليها فاخذها لنفسه وولى فيها من قبله ولم يسلمها للأفضل حسب الاتفاق ،

- (١) الصفدى : تحفة زوى الالباب ، ورقة ١٥٠ ب ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٣٨٥ ؛ الخليب العمري : الدر المكون ورقة ١١٥ أ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٤٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٨١ ؛ ابن واصل : مخزج الكروب ج ٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ ابوالفدا : المختصر ج ٣ ص ١١٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٣٤٢ - ٢٤٣ .
- (٢) ابليستين : مدينة مشهورة ببلاد الروم انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٨١ - ١٨٢ .
- (٤) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٤٨ ؛ ابن واصل : مخزج الكروب ج ٣ ص ٢٦٤ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٤٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٤٠١ .

ما كان له أسوأ الأثر في نفس الأخير واستوحش واعتبر تصرف كيكائوس أول الغدر ، وبات يشعر انه يرتكب عملا خطيرا بمساعدة كيكائوس على انتزاع ملكة ابن اخيه وإزالة الملك من بيته لحساب سلاجقة الروم ، فشرع يعمل على إفشال حملة كيكائوس ، فبعد ان كان يشير عليه عقب الاستيلاء على رعبان بمعالجة حلب قبل وصول النجدات اليها ، أصبح يشير عليه بعد الاستيلاء على تل باشر بتجريد حلب من جميع القلاع التابعة لها ، وهو يهدف بذلك الى إطالة زمن الحرب ريثما تتمكن حلب من تدبير امور الدفاع عن نفسها . كما أن الاهالي نفروا من كيكائوس حينما أخذ تل باشر لنفسه ولم يسلمها للأفضل^(١) . وسار كيكائوس الى منبج فاستولى عليها وشرع في تحصينها^(٢) .

ولم يكن بمقدور ملكة حلب الصمود في وجه سلطان سلاجقة الروم بجيوشه الكثيفة وامكاناته الضخمة ، لذلك ارسل الحلبيون يطلبون نجدة الملك الاشرف بن العادل الذي كان يهاجم ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف الضغط على دمياط حيث شرعت الحملة الصليبية الخامسة تهاجم مصر ، فسار الاشرف لتجدة حلب وارسل يستدعي بقية عساكره ، كما استدعى ايضا قبائل العرب الشامية من طي وغيرهم ونزل بحيوشه خارج حلب^(٣) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٣٨٥ ؛ المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ ب ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٦٤ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٨٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج ١ لوحة ٣٦٢ نسخة اياصوفيا ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٨٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٦٦ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١١٩ .

(٣) المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ ب ؛ العيني : عقد الجمان ج ١٣ لوحة ٣٨٥ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٤٨ .

ويذكر صاحب صحائف الاخبار أن الاشرف اجتمع باخته ضيفة خاتون والدة الملك العزيز وتشاور معها في كيفية التصدي لخطر سلاجقة الروم ، فاخبرته ان الجواسيس أفادوا بأن مع السلطان كيكاوس عساكر كثيرة ، ومن الصعب مواجهته عسكريا في ميدان مكشوف ، ولا بد من استخدام الخدعة والحيلة للتغلب عليه ، فاحضرت روميا كان له علاقات وطيدة مع بعض خواص كيكاوس وقادة عسكره ، وأغرته بالمال والهدايا مقابل أن يذهب الى معسكر سلطان الروم ليخبر أحد خواص السلطان بأنه علم ان الاشرف واخته يرسلان بعض قادة السلطان ، وقد اتفقا معهم على الغدر به عند وقوع المعركة ، وانهما ارسلتا رسائل لا "وليك الامراء" وهي في انتظارهم في مكان معين خارج حلب ، واراد كيكاوس ان يتأكد من صدق الرومي فارسل الى المكان الذي عينه مكانا للهدايا والاموال فوجدها جاهزة فعلا ، فاستوحش ممن قادتته ودبت الريبة والشك الى نفسه ، وظن أن هناك إتفاقا سرييا بين قادتته وزعماء حلب^(١) . فارسل مقدمة عسكره نحو حلب فالتقت بها العرب من طي ، وبعض عسكرا الاشرف في وادي بزاعا^(٢) في ربيع الاخر ٦١٥هـ / يولييه ١٢١٨م وأنزلوا بها الهزيمة واسروا جماعة منها وقتلوا آخرين ، وغموا أسلحتهم وخيولهم ، ووصل الاشرف الى ميدان المعركة وقد انتهت ، فارسل الأسرى الى حلب^(٣) .

(١) المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ ب .

(٢) بزاعا : بلدة من اعمال حلب بين منبج وحلب ، كان فيها عيون

ومياه جارية واسواق حسنة ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) المولوي : المصدر نفسه ورقة ٥٧٦ ب ؛ العيني : عقد الجمان

ج ١٣ لوحة ٣٨٥ - ٣٨٦ ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٢٥ - ٣٢٦ ؛

ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٤٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب

ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٦٢ ؛

ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٠٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧

وعندما بلغ النبأ كيكافوس وهو بمنج على رأس جيشه الرئيسى
أيقن بأن قادته قد غدروا به فعلا^(١) ، وملا الرعب قلبه ورحل
مسرا الى بلاده خائفا يترقب . ويعلق ابن الاثير على فراره هذا قائلا :
" وانما فعل هذا لأنه صبي غر لا معرفة له بالحرب والا فالعساكر
ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض " .^(٢) وسار لاشرف يطار
فلول عساكر كيكافوس ، واستعاد تل باشرورجان ومنج وغيرها ، وأعادها
جميعا الى ابن اخته العزيز صاحب حلب وذلك في جمادى الاولى ٦١٥هـ /
اغسطس ١٢١٨ م .^(٣)

والواقع انه على الرغم من هزيمة كيكافوس وفشل حملته على حلب فان
تصرفه هذا يدل دلالة واضحة على انه لم يكن على وعي بطبيعة
الحركة الصليبية وأهدافها . وهكذا لم يتعاون مع الأيوبيين في بلاد
الشام على جهاد الصليبيين وصد الحملة الخامسة بل كان عامل تهديد
للفنود الايوبي في شمال الشام الا أن الذي أشغل جزءا كبيرا من القوات
الأيوبية في التصدي لخطر سلاجقة الروم . فلو قدر لسلاجقة الروم خلال
هذه الفترة التعاون مع الأيوبيين وتم حشد قوات الجانبين معا ضد
الصليبيين لتمكن سحق الحملة الخامسة في وقت مبكر واحراز قدر كبير
من النجاح ضد بقية الامارات الصليبية في بلاد الشام .

(١) المولى : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ ب .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٨٣ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج ٣ ص ٢٦٨ ؛ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلى

حضرة القاهرة ؛ الفزى : نهر الذهب ج ٣ ص ١١٢ ،

وكيفما كان الأمر ، فقد توفي السلطان كيكاو من سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م وخلفه على عرش دولة سلاجقة الروم اخوه علاء الدين كيقباز بن كيخسرو (١١٦ - ٦٣٤هـ / ١٢١٩ - ١٢٣٦م) "فراسل الاشرف واتفق معه" (١) وسادت العلاقات حسن الجوار بين الايوبيين في بلاد الشام ، وبين سلاجقة الروم اكثر من عشر سنوات وتبادل الطرفان الرسائل والهدايا والمجاملات (٢) . كما زوج المعظم ملك دمشق شقيقته ابنة السلطان العادل من السلطان علاء الدين كيقباز وتوطدت العلاقات بين الجانبين (٣) ولم يعكر صفوها سوى ما حدث من التنافس بين الاشرف وسلطان الروم على بسط نفوذهما على منطقة الجزيرة وديار بكر (٤) .

ولم تلبث تلك العلاقات أن تحولت الى تحالف كامل وتنسيق شامل بين الايوبيين في بلاد الشام بزعامة الاشرف وبين سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباز بسبب الخطر المشترك الذي هدد كلا الجانبين من قبل جلال الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية الذي استولى في سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م على مدينة خلاط عاصمة الاشرف بمنطقة

- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٨٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٣٠ .
- (٢) انظر على سبيل المثال ، ابن نظيف : التاريخ المنصوري الصفحات ١١٢ ، ١٢١ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٣٤ - ٤٣٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٨٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٦ .
- (٤) انظر ايضاً ، ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، الصفحات ١٣١ ، ١٦٥ - ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٨ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ١٣٠ .

الجزيرة واصبح النفوذ الايوبي بالجزيرة مهددا لان سقوط خلاط الحصينة يعني تهاوي بقية ممتلكات الايوبيين بسهولة في يد جلال الدين (١) .
كما شمل التهديد دولة سلاجقة الروم ، ذلك ان صاحب أرزن الروم (٢)
ركن الدين جيهانشاه ، وهو ابن عم السلطان علاء الدين كيقباز ، انضم الى جلال الدين منكبرتي وساعده على حصار خلاط ، فخشي كيقباز أن يوءى التحالف بين ابن عمه والخورزمي الى تهديد دولته ، فارسل يستنجد بالسلطان الكامل واخيه الأشرف ويطلب التحالف معهما لصد خطر الخوارزمي (٣) . ويظهر من مضمون رسالة كيقباز الى الأشرف حرصه الشديد على التحالف مع بني ايوب لدرء الخطر الذي هدد الدولتين معا ، فقد جاء فيها قوله : " والان فبلادى وأموالي بحكمك فتصل ... بالعساكر الى قرشهر - مدينة في اسيا الصغرى - وتنجر وحدثك وتصل

- (١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٥٩ ؛ ابن الاثير :
الكامل ج ١٢ ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب
ج ٣ ص ٢٠٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصورى ص ١٨٣ - ١٨٦ ؛
النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٢٠ - ٣٢٧ ؛ ابن واصل
: مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٩٤ - ٢٩٧ ؛ تاريخ ابن خلدون ج ٥
ص ٤٠٨ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٣٤ ؛ السبكي :
طبقات الشافعية ج ١ ص ٣٤١ ؛ ابوالفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٦ .
(٢) ارزن الروم : مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط وغالبية أهلها
أرمن ولها ولاية واسعة كثيرة الخيرات ، انظر : القزويني : آثار
البلاد واخبار العباد ص ٤٩٤ ، ياقوت : معجم البلدان .
(٣) المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٤٥٨٠ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢
ص ٤٨٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٩٨ .

الى عندي بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك ونصل أنا وانت الى
العسكر بالعساكر ، فوالله لا قنعت لك بخلاط بل بجميع البيلار " (١) .

وذكر ابن الاثير ان علاء الدين بلغ من حرصه على الاتفاق مع الاشرف
أن أرسل اليه في يوم واحد خمسة رسل يطلب قدومه اليه ولو بعفده (٢) .

وشرع الاشرف في إعداد عساكر الشام للمضي الى سلطان

الروم للاتحاد معه ضد الخوارزمي ، فطلب الاشرف من أتابك حلب نجدة
فأجابه الى طلبه وجرّد معه عسكر حلب بقيادة عز الدين بن مجلي (٣) .

كما انضم اليه عسكر حمص بقيادة المنصور ابراهيم بن المجاهد أسد الدين
شيركوه ، ونجدة من عسكر حماة إضافة الى عساكر دمشق وغيرها . وبلغ مجموع
عساكر الشام التي سارت تحت قيادة الاشرف زهاء خمسة الاف فارس ، وكانت
من خيرة العساكر الأيوبية في ذلك الحين لخبرتها الطويلة في حروب
الصليبيين إضافة الى أن خيولهم عربية أصيلة وأسلحتهم في غاية الكثرة
والجودة (٤) .

وفي شعبان ٦٢٧هـ / يولييه ١٢٣٠م توجه الاشرف بفرقة عسكرية

لمقابلة السلطان كيقيان . وسارت في اثره العساكر الشامية ، فوصل اليه
بسيواس (٥) ، واستقبله بحفاوة كبيرة وقدم له ولعساكره الشامية الاقامات

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٨٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٠٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب

ج ٤ ص ٢٩٨ = ويقول ابن الاثير عن عز الدين هذا ان اسمه عمر بن

على وهو من الاكراد الهكارية ، ومن الشجاعة في الدرجة العليا وله

الاصناف الجميلة ، والاخلاق الكريمة ، انظر ابن الاثير : الكامل ج ١٢

ص ٤٩٠ .

(٤) ابن الاثير : المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٩٠ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج ٤ ص ٢٩٨ .

(٥) سيواس : مدينة بارض الروم مشهورة ، تتميز بحصانتها وهي كثيرة

والنفقة ، فبلغ مجموع ما قدّمه له اربعمئة ألف درهم سلطانية ، وعشرين ألف مكوك غلة وعشرة الاف رأس غنم ، وقدّم لكل واحد من اخوته مئة الف درهم وعدد امن الخيول والسروج وغيرها ، واقاموا في سيواس سبعة أيام ، فاحضر كيقبان خلالها زوجته ابنة العادل لمشاهدة اخوتها " وقدّموا لها وقدّمت لهم أشياء " (١) وكان في صحبة الاشرف من اخوته العزيز عثمان بن العادل وشهاب الدين غازي ، وابن اخيه الجواد يونس ابن مودود بن العادل وغيرهم من امراء بني أيوب (٢) .

وفي رمضان ٦٢٧هـ / اغسطس ١٢٣٠م شرع الاشرف في تنظيم عساكره ، واعدادها لملاقاة جلال الدين الخوارزمي ، وارسل كيقبان يستدعي عساكر ارزنجان (٣) لمساعدته فساروا اليه ، وفي الطريق نزلوا لأخذ قسط من الراحة في احد المروج ، فباغتهم جلال الدين على غفلة وقتل منهم زهاء ثلاثة الاف رجل ولم ينج منهم الا اعداد قليلة (٤) . ولقد فتت تلك الكارثة التي حلت بجيش ارزنجان في معنويات عساكر الروم والشام والجزيرة ، ورغم ذلك فقد تقرر خوض المعركة ، وجرى ترتيب الجيوش المتحالفة بحيث تكون عساكر الشام في المقدمة وخلفها عساكر

=====

== الخيرات والثمرات واهلها مسلمون ونصارى ، والمسلمون من التركمان وعوام طلاب الدنيا ويشتغل جزء كبير من سكانها بالتجارة ، انظر القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٥٣٢ .

(١) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ٢٠٤-٢٠٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٦٠ .

(٣) ارزنجان : من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط واكثر سكانها أرمين وفيها مسلمون هم أعيان اهلها ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٤) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٨ ص ٦٦٠ ؛ ابن نظيف :

التاريخ المنصوري ص ٢٠٥-٢٠٧ .

سلاجقة الروم ، والتقى الجانبان في يوم السبت ٢٨ رمضان ٦٢٢ هـ /
 ١٠ أغسطس ١٢٣٠ م قريبا من ارزنجان في منطقة وعرة تسمى ياسى
 جمن^(١) ، ولما شاهد جلال الدين كثرة العساكر ولا سيما " عسكر الشام ،
 فانه شاهد من تجملتهم وسلاحهم ودوابهم ما ملأ صدره رعبا ، فانشب
 عز الدين بن طي القتال ومعه عسكر حلب ، فلم يقد لهم جلال الدين
 ولا صبر ومضى منهزما هو وعسكره وتمزقوا لا يلوي الاخ على أخيه^(٢) .
 وما ساعد ايضا على انتصار عساكر الشام وسلاجقة الروم أنه حين وقوع
 المعركة " أرسل الله ضبابا فلم ير أحد كفه^(٣) " كما هبت رياح
 شديدة في وجوه عساكر الخوارزمية^(٤) . ومن الطبيعي ان يساعد ذلك
 عساكر سلطان الروم لمعرفتهم بطبيعة المنطقة وطرقها بعكس عساكر
 الخوارزمية الذين يجهلون بها تماما . وقد ظهر أثر ذلك واضحا حين
 اشتدت وطأة هجمات سلاجقة الروم وعساكر الشام وفر الخوارزمية باثقالهم ،
 وتردى أكثرهم من رؤوس الجبال ، وصادفوا في طريقهم منخفضا سحيقا
 فتهاقت فيه أكثرهم^(٥) ، بحيث بلغ عدد من قتل في ذلك المنخفض

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٦٠ ؛ ابن نطف :
 التاريخ المنصوري ص ٢٠٧-٢٠٨ ؛

The Cambridge History of Islam p.247.

= وياسى جمن : موضع بين خلاط وارزن الروم ، انظر القزويني :
 اثار البلاد ص ٥٦٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٩٠ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٦١ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٣٠٩ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج ٤ ص ٣٠٠ .

(٥) سبط ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٨ ص ٦٦١ ؛ ابن نطف :

التاريخ المنصوري ص ٢٠٩-٢١٠ ؛ النسوي : سيرة جلال الدين

ص ٢٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٩٩ ؛ ابن العديم :

زهاء الف وخمسمائة اضافة الى أموال الخوارزمي وخزائنه وامتعته التي
 غدت غنيمة سائفة لسلاجقة الروم وعساكر الشام (١) .

وبعد تحقيق النصر قدّم علاء الدين كيقباز للأشرف واخوته
 واصحابه من ملوك الشام عطايا ضخمة من الاموال والخلع والثياب والتحف
 وعاد كيقباز الى بلاده (٢) . اما الاشرف فقد سار الى خلاط فاستردها
 بعد أن اصبحت "خاوية على عروشها خالية من الاهل والسكان" (٣) .
 ثم جرت المراسلات بين جلال الدين الخوارزمي وبين الأشرف
 وكيقباز وتم الاتفاق بينهم على ان يحتفظ كل واحد بما تحت يده من
 البلاد ، مع إطلاق سراح الأسرى من الجانبين ، وعاد الاشرف الى دمشق
 سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م (٤) .

ولم تلبث العلاقات بين سلاجقة الروم والأيوبيين في بلاد الشام
 أن تدهورت سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م حين استولى الكامل على آمد وخضع
 له جميع حكام الجزيرة ودخلوا في طاعته " واستشعر منه علاء الدين
 كيقباز بن كيخسرو بن قلج أرسلان " (٥) . وانتهز سلطان الروم رجوع

=== : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٠٩ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٤٦ ،

. Tha Cambridge History of Islam p.247

(١) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢١٠ ؛ وانظر ايضا : سبط ابن

الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٦١ .

(٢) ابن نظيف الحموي : المصدر نفسه ص ٢١١ ؛ سبط ابن الجوزي ،

المصدر نفسه ص ٦٦١ ، وقد قدر سبط ابن الجوزي قيمة الهدايا

بمبلغ مليوني دينار وهو مبلغ مبالغ فيه دون شك .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٤٩٠ .

(٤) المصدر نفسه ج١٢ ص ٤٩١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان

ج ٨ ص ٦٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٤ ص ٣٠٠-٣٠١ ؛

ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٤٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٤ .

الكامل الى مصر سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م فاستولى على خلاط وبعض القلاع المحيطة بها ، وشرع في عمارتها ونقل اليها الفلاحين والفلال وزرعها ، وبدأ يتطلع الى بسط نفوذه على بقية بلدان الجزيرة ^(١) . وتطورت الامور باقليم الجزيرة الى وقوع الغارات المتبادلة والاشتباكات المسلحة بين عساكر الكامل بقيادة ابنه الصالح ايوب وبين سلاجقة الروم ^(٢) .

واستقر رأى الاخوين السلطان الكامل والملك الاشرف على المسير الى بلاد سلاجقة الروم والاستيلاء عليها . فكتب السلطان الكامل الى ملوك بني ايوب في بلاد الشام يأمرهم بتجهيز عساكرهم للمسير معه الى بلاد الروم ، وخرج من مصر على رأس عساكره في شعبان ٦٣١هـ / يونيه ١٢٣٤م ، وانضم اليه ابن اخيه الناصر داود صاحب الكرك ، ثم سار الى دمشق ومنها الى سلمية حيث انضم اليه المجاهد صاحب حمص والمظفر صاحب حماة ، فضلا عن عسكر حلب بقيادة تورانشاه بن صلاح الدين وغيرهم من ملوك بلاد الشام والجزيرة من بني ايوب حتى أن المؤرخين ذكروا انه اجتمع تحت قيادته في هذه الحملة ستة عشر ملكا من بني ايوب بعساكرهم الكثيفة ^(٣) .

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠١ أ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٥٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٥٧ ؛ تاريخ ابن الجزري لوحة ٣٣٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٣١٦ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٧٤ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص ٢٥٩ .

(٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٥٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٣ ص ٢١٦ - ٢١٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٧٤ - ٧٥ ؛ سبط ابن

والملاحظ أنه على الرغم من مشاركة عسكري حلب في هذه الحملة فانها احتفظت بعلاقات طيبة مع سلاجقة الروم ، ان يذكر المؤرخون أن كيقبان ارسل الى العزيز - ملك حلب - يخبره بعدم اعتراضه على مساعدة عسكري للسلطان الكامل شريطة أن لا يشارك العزيز بنفسه ومما جاء في رسالة سلطان الروم الى ملك حلب قوله : " انا راضى منك بأن تمده بالاجناد والاموال على ان لا تنزل اليه ابدا " وفي الوقت نفسه أعفى السلطان الكامل العزيز " من النزول اليه ورضي كل من السلطانيين بفعله " (١) .

وتقدم السلطان الكامل بعساكره من منبج جهة بلاد الروم ، فوجد السلطان كيقبان قد حفظ جميع الدروب التي تربط بين آسيا الصغرى ، وبلاد الشام بالرجال والعتاد ، وهي طرق يصعب سلوكها على الجيوش ، فنزل السلطان الكامل على النهر الأزرق (٢) جنوب اسيا الصغرى واستطاعت عساكر سلاجقة الروم منع جيوشه من التوغل في بلادها حيث كانت تقاتل من مناطق مرتفعة لم تستطع الجيوش الشامية الطلوع اليها (٣) ، إذ من

- === الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٨٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٤ - ١٥٥ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ؛ وعن اسماء الملوك الذين ساروا تحت قيادة الكامل ، انظر مفرج الكروب ج ٥ ص ٧٥ - ٧٦ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٤ - ١٥٥ .
- (١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٦٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢١٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٧٦ .
- (٢) النهر الأزرق : نهر بالشفور بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٣) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ، ورقة ٥٤ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٦٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢١٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٧٧ .

المعروف جغرافيا ان جنوب هضبة الاناضول عبارة عن مرتفعات وعرة صعبة المسالك ، وهكذا كانت الجغرافيا احد العوامل الرئيسية التي ساعدت على فشل حملة الكامل في تحقيق أهدافها .

ومن الصعوبات الاخرى التي برزت امام الحملة الايوبية النقص الخطير في المؤن والفلال لدى جيش الكامل ^(١) ، فقد رأينا انه حشد معه معظم عساكر الدولة الايوبية واذا كان الأمر بدا وكأنه يستطيع بتلك العساكر الوصول الى اهدافه فان الحقيقة أن تموين تلك الأعداد الضخمة مهمة بالغة الصعوبة ، ويبدو أن السلطان الكامل لم يعمل حسابها .

ومن أسباب فشل الحملة أيضا ، ان ملوك الشام علموا أن الكامل اخبر بعض خواصه أنه اذا نجح في الاستيلاء على ممتلكات سلاجقة الروم فسيقوم بتوزيعها على ملوك الشام والجزيرة من بني أيوب لينفرد هو بملك مصر والشام والجزيرة ^(٢) . فاجتمعوا سرا بزعامة الاشرف والمجاهد وقرروا التخاذل والعمل على إفشال حملته ، وكتبوا الى سلطان الروم كيقيان يخبرونه بموقفهم ، فعثرت عيون الكامل على الرسائل ومعهم الرسائل فاعتقلوهم وسلموها اليه فاحتفظ بها ^(٣) .

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٤ ب ؛ تاريخ ابن الفرات :

ج ٦ لوحة ٢٦٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢١٧ ؛

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٧٧ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ ورقة ٥٥ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة

٢٦٠ - ٢٦١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٧٧ ؛ سبط ابن

الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٦٤ ؛ المقرئ : السلوك ج ١

ص ٢٤٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) اليافعي : المصدر نفسه ورقة ٥٥ أ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص

وعندما أدرك الكامل صعوبة موقفه بقلّة الأُقوات وتخاذل ملوك الشام وامتناع الطرق الى بلاد الروم بالرجال والعتاد ، لم يشأ التراجع وانما قرر المضي قدما في حملته عبر مناطق أخرى ، فرحل بالعساكر الى اطراف بهسنا في اعالي الفرات " وجهاز بعض الامراء الى حصن منصور فهدموه " (١) . وجاء صاحب خرتبرت (٢) الى الكامل ودخل في طاعته وأشأ رعليه بغزو بلاد الروم من جهة خرتبرت لسهولة الطريق منها الى بلاد سلاجقة الروم (٣) ، فاقتنع الكامل بمشورته ، ورحل بالعساكر شرقا ، وعبر الفرات على جسر كان قد أقامه والده العادل ، وظلّت العساكر تتدفق عليه عدة أيام لكثرتهم ، ثم سار الى السويداء قرب آمد وعسكر بها ، وامر المظفر - صاحب حماة - بقيادة ميمنة العسكر للمضي بهم الى خرتبرت وبعث معه احد امراءه ويدعى شمس الدين صواب العادلي وقرر الكامل ان يسير في اثرهم ببقية العساكر لدخول بلاد الروم ، ولكن المظفر وصواب العادلي ومن معهما التقوا بعساكر سلاجقة الروم بقيادة كيقيان الذي كان يقود جيشه المكون من اثني عشر الف فارس ، فدارت معركة كبيرة بين عساكر الروم ومقدمة عساكر الكامل بقيادة المظفر ، فحلت به

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج٦ لوحة ٢٦١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٧٨ = وحصن منصور من أعمال ديار مضر يقع غربي الفرات قرب سميساط ، ياقوت : معجم البلدان .

(٢) خرتبرت : اسم ارمني والمقصود به حصن زياد الذي اشتهر زمن الدولة الحمدانية ويقع في اقصى ديار بكر من بلاد الروم بينه وبين ملطية مسيرة يومين على الاقدام ، وبينهما الفرات ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٢٦١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٧٨ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٦٤ ؛ ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٨٣ .

الهزيمة ولجأ المظفر الى قلعة خربت وتحصن بها مع شمس الدين صواب العادلي ، فزحف سلطان الروم على القلعة ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا وشدد عليها الحصار حتى نفذت الاقوات بها فطلب المظفر من سلطان الروم الا^١مان له ولمن معه فاجابه الى طلبه وسلمه القلعة في ذى القعدة ٦٣١هـ / اغسطس ١٢٣٤م واستقبله علاء الدين وقدم له هدايا قيمة ليحافظ على علاقته الطيبة مع ممالك الشام الصغيرة لكي لا تؤيد سياسة الكامل واطمأنه في ممتلكات سلاجقة الروم . ثم عاد المظفر الى الكامل الذي كان يعسكر بالسويداء ، وبدأت العلاقات تتدهور بينه وبين ملوك الشام الآخرين .^(١)

وهكذا أدت تلك الهزيمة التي حلت بمقدمة عساكر الكامل الى تثبيط همته إضافة الى ظروف الطقس السيئة فقد " دخل فصل الشتاء وحال بين الفريقين ، وعاد كل الى بلاده " .^(٢)

- (١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠١ أ ؛ ابن واصل : التاريخ الصالح ورقة ٢٣٣ ب - ٢٣٤ أ ؛ اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٥ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ ابن ايبك : درر التيجان ، مخطوط حوادث ٦٣١ هـ ؛ المولوي : صحائف الاخبار ورقة ٥٨١ أ ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ، ورقة ١٢٥ ب ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢١٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٧٨ - ٨٢ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٨٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٥٥ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٤٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٣ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ج ٤ ص ٧٣ .
- (٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٢٠ .

وانتهز السلطان كيقباز بن كيخسرو فرصة عودة السلطان الكامل

الى مصر وانقشاع فصل الشتاء فسار بجيوشه الى الجزيرة سنة ٦٣٢ هـ /

١٢٣٥ م ونازل مدينة الرها جادا في حصارها ، فنصب عليها المجانيق

واستولى عليها وعلى قلعتها ، ثم سار الى حران واستولى عليها ايضا ،

وولى عليها وعلى حران الولاية من قبله ، كما سقطت في يده بعض

البلدان التابعة لهما مثل سروج والرقه والسويداء وغيرها (١) . ولقد

شكل استيلاء سلطان الروم على الرها وحران تهديدا خطيرا للنفوذ

الأيوبي في بلاد الجزيرة والشام للأهمية العسكرية للرها وحران اللتين

تقعان على اطراف الفرات الشمالية حيث تلتقي طرق المواصلات التي

تربط بلاد الشام بالجزيرة والعراق واسيا الصغرى .

وانا كان السلطان الكامل سلم فعلا بفشل حملته على دولة

سلاجقة الروم فانه لم يكن في مقدوره التسليم بضياغ الرها وحران بسبب

اهميتها العسكرية . ولذلك بادر بتجهيز جيوشه من جديد وسار

بصحبة اخيه الاشرف صاحب دمشق والمجاهد صاحب حمص والمظفر

صاحب حماة ، وقطع الفرات وحاصر الرها حتى استردها في جمادى

الاولى ٦٣٣ هـ / يناير ١٢٣٦ م ثم نازل حران واستعادها أيضا وأسر

عساكر سلاجقة الروم الذين كانوا بهما وارسلهم مقيدين الى مصر ، كما

استرد عدداً من الحصون والقلاع التي اخذها كيقباز ثم عاد بجيوشه

(١) الاصفهاني : البستان الجامع ، ورقة ٢٠١ أ ب ؛ ابن واصل :

التاريخ الصالحى ورقة ٢٣٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٩٢ ؛

ابن ايبك : درر التيجان ، مخطوط ، حوادث ٦٣٢ ؛ ابن واصل

: مفرج الكروب ج ٥ ص ٩٨ - ٩٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب

ج ٣ ص ٢٢٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٩٤ ؛

ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج ٣ القسم الاول ص ٨١ - ٨٢ ، ١٠٨ ؛

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩ ؛ خطط المقرئى :

ج ٢ ص ٣٧٧ .

(١)

الى الشام ومنها الى مصر .

اما مملكة حلب فقد حرصت دائما على ان تظل علاقتها وطيدة مع دولة سلاجقة الروم ، التي رغبت بدورها أن تبقى مملكة حلب قائمة لتكون حاضرة بينها وبين الدولة الأيوبية في مصر وبقية بلاد الشام ، ويدل على ذلك ما قام به السلطان علاء الدين كيخان سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م عندما كف غارات التركمان في اعمال حلب وأرسل الى زعماء مملكة حلب يتعهد بحماية الملك الصغير الناصر يوسف ويعرض عليهم مساعدته ونصرته ، فرد الحلبيون بارسال الهدايا للسلطان السلجوقي فأكرم الأخير رسولهم اكراما كثيرا وحلف الايمان للملك الناصر يوسف ابن العزيز بمساعدته " والذب عن بلاده " ودفع من يقصدها " على حد قول ابن العديم . (٢)

وفي شوال سنة ٦٣٤هـ / يونيه ١٢٣٧م توفي السلطان كيخان وخلفه ابنه غياث الدين كيخسرو (٦٣٤-٦٤٣هـ / ١٢٣٧-١٢٤٥م) فحرص الحلبيون على استمرار العلاقات الطيبة معه ، فأرسلوا المؤرخ ابن العديم لتجديد الايمان التي قطعها والده لمملكة حلب بالمحافظة

- (١) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠١ ب - ٢٠٢ أ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٣٨ - ٣٣٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٠٩ - ١١٠ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٩٥ - ٦٩٦ ؛ ابو الفداء : المختصر ج٣ ص ١٥٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٤٤ ؛ ابن ايبك ؛ كنز الدرر ج٧ ص ٣١٥ - ٣١٦ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٥١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٩٣ ؛ خطط المقرئ ج٢ ص ٢٧٧ .
- (٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ؛ وانظر ايضا : اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ٦٤ أ ب ؛ تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٦٧ - ٣٦٨ ؛ ابن واصل ؛ مفرج الكروب ج٥ ص ١٣٠ - ١٣١ .

عليها ومناصرتها ، وفي هذا الصدر يقول ابن العديم : " فحلّفته على ذلك في ذي القعدة " (١) .

وفي سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧ م تحالف ملوك الشام بزعامة الاشرف ضد اطماع السلطان الكامل صاحب مصر في ممالكهم ، وراسلوا سلطان سلاجقة الروم واتفقوا معه على مناصرتهم (٢) . ولما حاصر السلطان الكامل دمشق سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨ م أرسل صاحبها الصالح اسماعيل يستنجد بسلطان الروم غير ان الاخير لم يقدم له اية مساعدة (٣) . وحين سقطت دمشق بيد الكامل خشي الحلبيون أن يزحف على بلادهم فتابعوا إرسال الرسل الى سلطان سلاجقة الروم طالبين مساعدته ، فأرسل لهم " نجدة من أجود عساكره وعرض عليهم أن يسير غيرها ، فاكتفوا بمن سيره " كما أرسل الى الكامل يحذره من مغبة مهاجمة حلب فتوفى الكامل في رجب ٦٣٥هـ / مارس ١٢٣٧ م وحالت وفاته دون اصطدامه بجيش سلاجقة الروم المرابط في حلب (٤) .

وازدادت العلاقات قوة ورسوخا بين مملكة حلب وبين سلاجقة الروم بعد وفاة السلطان الكامل ، ففي سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨ م قَدِمَ الى

- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٣٢ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٦٠ - ٣٦٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٢١ - ١٢٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٥٩ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ج٤ ص ٨٨ .
- (٣) الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٤ ب ؛ ابن واصل : التاريخ الصالح ورقة ٢٣٦ أ .
- (٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٣٦ ؛ وانظر ايضا ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ المقرئ : السلوك ، ج١ ص ٢٦٩ .

حلب رسول السلطان غياث الدين كيخسرو خاطبا غازية خاتون شقيقة
الناصر يوسف صاحب حلب على أن يتزوج الملك الناصر بدوره من اخت
السلطان كيخسرو ، وقد اجاب الحلبيون ذلك الطلب وتولى الموءخ
ابن العديم عقد النكاح بين كيخسرو والاميرة الحلبية على مذهب
الامام ابي حنيفة لصفر سن الزوجة ، وقبل النكاح عن السلطان كيخسرو
رسوله عز الدين قاضي دوقات^(١) على صداق قدره خمسون الف دينار .
ونثر الذهب عند الفراغ من العقد بدار السلطنة بقلعة حلب ، ثم
سافر ابن العديم الى بلاد الروم وكيلا عن الناصر يوسف ليعقد له العقد
على اخت كيخسرو ، فاجتمع به قرب قيسارية وتم عقد نكاح الناصر يوسف
على ملكة خاتون ابنة كيقيان على صداق قدره خمسون الف دينار ، ثم
عاد ابن العديم الى حلب بعد أن توطدت العلاقات بين سلاجقة
الروم وملكة حلب بهذه المصاهرة ، وضربت البشائر في البلدين ابتهاجا
بهذه المناسبة^(٢) .

- (١) دوقات او توقات : بلدة في ارض الروم بين قونية وسيواس ذات
قلعة حصينة ، وابنية مكينه بينها وبين سيواس مسيرة يومان
سيرا على الاقدام ، انظر يا قوت : معجم البلدان .
- (٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧٤ أ ؛ تاريخ ابن الفرات
ج ٦ لوحة ٤٣٤ - ٤٣٥ ؛ الخطيب العمري : الدرالمكون
ورقة ١٢٢ ب - ١٢٨ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص
٢٣٧ - ٢٤٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٨٣ - ١٨٥ ؛
ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٢ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر
ج ٧ ص ٣٣٠ - ٣٣١ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٧٢ ؛
الغزى : نهر الذهب ج ٣ ص ١١٦ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء
ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

وعلى أثر تلك المصاهرة ارسل السلطان كيخسرو الى حلب
توقيعا بإقطاع الناصر يوسف الرها وسروج ، وإقطاع المجاهد صاحب
حمص عانة والخابور ، وجميع هذه البلاد من املاك الصالح ايوب بن
الكامل ، وحين وصل مبعوث كيخسرو الى حلب ، قبلت الملكة ضيفة
خاتون - الوصية على ابن ابنها الناصر يوسف - تلك التواقيع ولكنها
أثرت عدم التعرض لتلك البلاد وتركتها بيد ابن اخيها الصالح
أيوب (١) .

وحيثما اندلعت الحرب الأهلية في بلاد الشام بين الأيوبيين
لم تجد ملكة حلب حرجا في الاستجابة لطلب السلطان كيخسرو باقامة
الخطبة له بحلب مع الناصر يوسف ، ونقش اسمه على السكة ، وفي ذلك
إشارة واضحة الى قبولها بالتبعية الاسمية لسلطنة سلاجقة الروم ، بعد
أن غدا منصب السلطنة في الدولة الأيوبية ماثرا نزاع بين الصالح أيوب
واخيه العادل ، وقد احتفل الحلبيون باقامة الخطبة للسلطان السلجوقي ،
وجرى نشر الدنانير واطهار السرور وذلك في اواخر سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م (٢)

ولقد دلل الحلبيون على اخلاصهم لسلطان سلاجقة الروم
عندما رفضوا سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤٢م دعوة الظفر غازي بن العادل
الذي طلب منهم الدفاع عنه في ميافارقين اذا ما قصده سلطان سلاجقة
الروم ، وذلك حتى لا تتأثر علاقتهم الطيبة مع السلطان

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٤١ - ٢٤٣ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج٥ ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٥ ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص

(١) غياث الدين كيخسرو .

ولقد تنافس ملوك الشام خلال الحرب الأهلية على كسب
ود سلطان سلاجقة الروم لشد أزهم في نزاعهم مع بعضهم وبعض (٢)
وفي سنة ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م أمر الصالح اسماعيل بن العادل صاحب
دمشق باقامة الخطبة لسلطان الروم على منبر دمشق ، وظلت
قائمة بضع سنوات نكايه في عدوه الصالح نجم الدين ايوب سلطان
مصر (٣) .

وعندما بسط الناصر يوسف بن العزيز نفوذه على دمشق
وكثير من بلدان الشام ، قدمت اليه بدمشق زوجته ملكة خاتون سـنـة
٦٥٢هـ / ١٢٥٤م وزفت اليه بدمشق واقيمت لها الاحتفالات الباهرة ،
واقام لها النواب والقضاة استقبالات فخمة بالهدايا والاقامات على طول
الطريق من بلاد اسيا الصغرى الى دمشق ، واستمرت العلاقات وطيدة
بين الجانبين حتى سقوط بلاد الشام بايدي المغول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م (٤)

- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٠ - ٢٦١ ؛ ابن واصل
: مفج الكروب ج٥ ص ٣٠٥ .
(٢) ابن واصل : مفج الكروب ج٥ ص ٢٥٠ ؛ المقرئ : السلوك
ج١ ص ٣٠٢ .
(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٣٠ ؛ ابن كثير : البداية
والنهاية ج١٣ ص ١٥٤ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣٠٨ .
(٤) بيبيرس : التحفة الملوكية ، ورقة ٦ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة
الزمان ج٨ ص ٧٩١ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٩٠ ؛
ابن طولون : القلائد الجوهريه في تاريخ الصالحية ج١ القسم
الاول ص ٨٨-٨٩ .

خطر الخوارزمية :

سبق شرح الدور الذي لعبه الملك المعظم حينما تحالف مع جلال الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية لمواجهة تحالف أخويه الملك الاشرف والملك الكامل ضده . وبعد موت المعظم حاصر الاشرف والكامل ابنه الناصر داود بدمشق سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢١ م فاستنجد الناصر داود بحليف والده جلال الدين^(١) . غير أنه من الواضح ان بُعد المسافة بين دمشق والدولة الخوارزمية وما يلزم رُسل الناصر من وقت طويل للوصول الى بلاط جلال الدين ، حال دون نجدة الأخير للناصر داود في الوقت المناسب ، فسقطت دمشق بيد الأشرف والكامل فـ في شعبان ٦٢٦هـ / يونيه ١٢٢٩ م ، بينما جاءت نجدة جلال الدين متأخرة ، فتقدم في شوال ٦٢٦هـ / اغسطس ١٢٢٩ م الى الجزيرة وضرب الحصار على مدينة خلاط عاصمة الاشرف بالجزيرة ، وظل جلال الدين يحاصرها مدة طويلة صمدت خلالها حاميتها التابعة للاشرف كما ابدى سكان خلاط مقاومة عنيدة للدفاع عن مدينتهم لمعرفتهم بالمصير المظلم الذي ينتظرهم اذا ما استسلموا للخوارزمي ، ورغم حلول فصل الشتاء وشدة البرد وهطول الثلج ، فقد أظهر جلال الدين الخوارزمي عزيمة منقطع النظير في حصار خلاط حتى سقطت بيده قهرا في اواخر جمادى الأولى ٦٢٧هـ / ابريل ١٢٣٠ م ، ووضع جلال الدين السيف في رقاب سكان خلاط ، وقتل كل من ظفر به منهم ، ولم ينج منهم الا اعداد قليلة ، ودمر الخوارزميون خلاط

(١) انظر ما سبق الفصل الثاني ، ص ١٤١ .

بكاظمها وسبوا النساء واسترقوا الاطفال (١).

ولقد ادى سقوط خلاط - كما سبق أن اوضحنا - الى تكوين

تحالف قوى بين الايوبيين وسلاجقة الروم وتمكنوا من انزال الهزيمة الساحقة

بالخوارزمي عند ياسي جمن وما ترتب على ذلك من مراسلات بين

جلال الدين والاشرف حتى توصل الجانبان الى عقد الصلح بينهما (٢).

والحق أن الاشرف لم يكن يسعى الى تحطيم قوة جلال الدين

وانما كان هدفه فقط ابعاد خطره عن أملاك الايوبيين ، فقد جاء في رسالة

بعث بها الاشرف لجلال الدين قوله : " فما اشتبهينا نتم أذيتك لأن

خلفك أعداء كثيرين " (٣) ، كما جاء في رسالة اخرى بعث بها الاشرف

الى وزير جلال الدين قوله " ان سلطانك سلطان الاسلام والمسلمين

وسندهم والحجاب دونهم ودون التتار وسدهم " (٤) وهذا يعنى أن الاشرف

أدرك اهمية بقاء الدولة الخوارزمية سدا منيعا امام التتار ، ولذلك

سعى لعقد الصلح مع جلال الدين . غير ان الأمر لم يتطور الى اقامة

جبهة اسلامية متحدة تقف في وجه المغول ، وترك جلال الدين وحده

ليقف أمام خطر المغول الذين قضوا على دولته قضاء مبرما وهددوا بقية

الدول الاسلامية الاخرى في بلاد الشرق الأدنى .

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٤٨٧ - ٤٨٨ ؛ النسوى : سيرة

السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٠ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٥ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ؛

The Cambridge Medieval History Vol.IVV p.748

(٢) انظر ما سبق ص : ٣٥٧ - ٣٦٢ .

(٣) ابن نظيف الحموى : التاريخ المنصورى ص ٢١٦ .

(٤) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص ٣٢٤ .

وعلى أية حال ، فقد هُزِمَ جلال الدين امام المغول ودخل الى اقليم الجزيرة حيث اغتاله أحد الاكراد قرب ميفارقين سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١ م وسقطت بموته الدولة الخوارزمية^(١) . وجاءت نهايته كارثة مزدوجة مُنيتَ بها منطقة الشرق الأدنى فمن ناحية ، خلت المنطقة من الدولة الخوارزمية التي وقفت رداً من الزمن تحت قيادة جلال الدين في وجه التتار ، ومن ناحية اخرى دخل أتباع منطقة الجزيرة واسيا الصغرى وشنوا غارات مدمرة على بلاد الشام والجزيرة ، كان لها اثار سيئة على هذه البلاد قبيل الغزو المغولي .

تمزقت عساكر جلال الدين بعد هزيمته ، ولكنهم عادوا فتجمعوا ، ودخلوا آسيا الصغرى ، فاستخدمهم السلطان علاء الدين كيقباز وكانوا يزيدون على اثني عشر الف فارس ، وكان لهم جماعة من المقدمين على رأسهم حسام الدين بركة خان ، وكشلوخان وبردى خان ، وساروخان ، وقد ظلوا في خدمة السلطان السلجوقي كيقباز الى أن توفي سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧ م وخلفه ابنه كيخسرو فقبض على زعيمهم بركة خان ، فخرجوا عن خدمته ، ونهبوا بلاده وعبروا الفرات الى الجزيرة ، فاستمالهم الصالح أيوب ، وأرسل الى أبيه الكامل يستأذنه في تجنيدهم ، وأقطعهم مواضع بالجزيرة وتوسط

(١) النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٨٢ - ٣٨٤ ؛ ابن

واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٢٠ - ٣٢٢ ؛ ابن الاثير :

الكامل ج١٢ ص ٤٩٧ - ٥٠٤ ؛ ابو الفدا : المختصر

ج ٣ ص ١٤٧ .

في اطلاق سراح زعيمهم بركة خان من أسركيخسرو .^(١)

ولم يلبث الخوارزمية أن خرجوا على الصالح أيوب حين بلغهم نبأ وفاة والده ١٢٣٨هـ / ١٢٣٨م ، فخشي منهم على نفسه وذهب الى سنجار واختفى بها " وتحكمت الخوارزمية في البلاد الجزرية " .^(٢) الأمر الذي أطمع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في سنجار ، فسار اليها وحاصرها حصارا شديدا ، وتمكن الصالح أيوب أثناء الحصار من استمالة الخوارزمية من جديد ، فقدموا اليه وأنزلوا الهزيمة بصاحب الموصل ونهبوا معسكره ، واشتد بهم عضد الصالح أيوب .^(٣) وقرر المضي في استخدامهم والتقرب اليهم فزوج زعيمهم بركة خان من اخته لأمه ، وأقطعه الرها وحران سنة ١٢٣٦هـ / ١٢٣٩م .^(٤)

ومن الملاحظ أن الخوارزمية لم يكونوا يعرفون الا خلاص في الولاة والطاعة بل كان ولاؤهم لمن يدفع لهم أكثر ، نحالما اندلعت الحرب الأهلية في بلاد الشام استدعاهم المظفر صاحب حماه وحاصر بهم حمص ، غير ان صاحبها المجاهدرا سلمهم بدوره وبذل لهم الأموال والعطايا فأخذوها منه مما أفزع المظفر وخشي أن ينقلبوا ضده فعاد الى بلاده بينما ترك

- (١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٣٧١ - ٣٧٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٣٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ج٥ ص ١٢٣-١٣٥ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٥٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج٣ ص ١٤٥ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٩٧ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٠ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٧٨-١٧٩ ؛ وانظر ايضا سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٠٤ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٦٢ ، المقرئ : السلوك ج١ ص ٢٦٩ .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٨٦-١٨٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٤٢-٢٤٣ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٠٤ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٩٧ .

الخورازمية حصار حمص وعادوا الى إقطاعاتهم بالجزيرة^(١) .
وبعدما أُعتقل الصالح أيوب بالكرك سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م^(٢) ، رحل
أحد اتباعه ويدعى جمال الدين بن مطروح الى الجزيرة واجتمع بزعيم
الخورازمية بركة خان وطلب منه النهوض لنصرة الصالح أيوب ، والاغارة على
ملكتي حلب وحمص بسبب تحالفهما مع الصالح اسماعيل ضد الصالح أيوب
ومهاجمتهما للمظفر صاحب حماه الحليف المخلص للصالح أيوب^(٣) .
فشرع الخورازمية في الضغط على الحافظ ارسلان بن العادل صاحب
قلعة جعبر ، حتى اضطر لتسليمها الى اخته ضيفة خاتون - الوصية على
ملكة حلب - وامتدت غارات الخورازمية الى بالس^(٤) ونهبوها ففر سكانها
الى منبج وحلب^(٥) .

ولما عبر الخورازمية الفرات ، ووصلوا بغاراتهم الى بلاد الشام
وهددوا ملكة حلب ، أصبح لا مناص من التصدي لخطرهم سيما وأنهم
دأبوا على محاكاة المغول في غاراتهم على البلاد ، اذ مارسوا أعمال
التخريب والقتل والنهب والتهك دون هوادة أو رحمة . فخرج اليهم
عسكر حلب بقيادة المعظم تورانشاه بن صلاح الدين في زهاء ألف وخمسمائة

-
- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٠٥-٢٠٦ ؛ ابو الفدا : المختصر
ج ٣ ص ١٦٣ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٨٠ .
(٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ص ١٧٨ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٤٨-٢٤٩ ؛ المقرئ :
السلوك ج ١ ص ٢٩٢-٢٩٣ .
(٤) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقه على ضفة الفرات الغربية
انظر ياقوت : معجم البلدان .
(٥) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٦٦ - ٥٦٧ ؛ ابن العديم : زبدة
الحلب ج ٣ ص ٢٤٨-٢٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥
ص ٢٧٩-٢٨٠ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٠٢-٣٠٣ ؛ الصفدي :
الوافي بالوفيات ج ٨ ص ٣٤٢ .

فارس فقط لأن بقية عسكر حلب كانوا موزعين على القلاع مثل شيزر، وحارم ، وقلعة جعبر وغيرها لحمايتها ، إضافة إلى إرسال نجدة من حلب إلى سلاجقة الروم لمساعدتهم في صد غارات المغول ، في الوقت الذي كان فيه عسدد الخوارزمية يزيد على اثني عشر ألف فارس ، فضلا عن انضمام الأمير علي ابن حديثة الطائي بجموعه من العرب إلى الخوارزمية نكاية في الحلبيين الذين تحالفوا مع بعض القبائل الأخرى المنافسة له (١) .

والتقى الفريقان بوادي بزاغا بين حلب ومنبج إلى الشمال الشرقي من حلب في ربيع الآخر ٦٣٨هـ / نوفمبر ١٢٤٠م وصادم عسكر حلب الخوارزمية صدمة قوية تزعزعوا لها ، إلا أن الخوارزمية تكاثروا عليهم ، كما أن العرب بقيادة علي بن حديثة خرجوا من بين البساتين ، التي كمنوا بها ، وأطبقوا جميعا على عسكر حلب ، وانزلوا بهم هزيمة شديدة وقتلوا أكثرهم وأسروا آخرين ، وكان ضمن الأسرى قائد العسكر الحلبي المعظم تورانشاه بن صلاح الدين بعد أن أصيب بجروح بالغة كما أسر أخوه نصر الدين ، وقتل ابن أخيه الصالح بن الأفضل ، وابن الملك الزاهر ، وجماعة أخرى من كبار القادة ، وحالما وقعت الهزيمة بعسكر حلب قام حلفاؤهم من العرب بنهبهم ، فكانوا أشد عليهم من أعدائهم (٢) .

(١) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٦٧ - ٥٦٨ ؛ ابن العديم : زبدة حلب ج ٣ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٨١ - ٢٨٣ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٦٨ - ٥٧٠ ؛ ابن العديم : زبدة حلب ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٨٣ - ٥٨٤ ؛ أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٧ ؛ ابن آيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٤١ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ .

وبعد المعركة مباشرة نزل الخوارزمية حول حيلان ^(١) وانتشروا على
نهرها الى قرية قافين ^(٢) ، وفرضوا اتاوة حربية على الاسرى ، وقتلوا
طائفة منهم ما دفع الباقين الى تقديم الاموال مقابل خلاصهم ، وبعد ان
أخذوا منهم الأموال اطلقوا بعضهم ، وغدروا بالباقيين فلم يطلقوا
سراحهم . ^(٣)

وترتب على المعركة انتشار الاضطراب والذعر في داخل مدينة
حلب ، فأمرت ضيفة خاتون الوصية على عرش حلب بحفظ الاسوار
والابواب ، وجفل سكان القرى الى حلب فدخلوها بأموالهم وامتععتهم ،
ولم يكن بالمدينة غير مائتي فارس قاموا بحراسة اسوارها ^(٤) . وأرسل
الخوارزمية سراياهم الى أعمال حلب لشن الغارة على قراها ، وبلغوا
عزاز وتل باشر وجبل سمعان وبرج الرصاص ^(٥) ، وبلد الحوار ، وطرف العمق ^(٦) . ^(٧)

- (١) حيلان : من قرى حلب تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء ثم
تسيل كالنهر الى حلب وتدخل اليها في قناة وتتفرق الى
الجامع والى جميع احياء مدينة حلب ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٢) قافين : قرية معروفة قرب حلب انظر ابن العديم : زبدة الحلب
ج ٣ ص ٢٥١ حاشية رقم (٤) .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٧٠ ؛ ابن العديم زبدة الحلب ج ٣
ص ٢٥١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٨٤ .
- (٤) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٧٠ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب
ج ٣ ص ٢٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .
- (٥) برج الرصاص ، قلعة لهارساتيق من أعمال حلب قرب انطاكية ،
انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٦) الحوار : كورة بين عزاز والجومة من نواحي حلب ، انظر ياقوت :
معجم البلدان .
- (٧) العمق ، كورة بنواحي حلب ، قبالة انطاكية ومنها تصدر اكثر الميرة
التي تستهلكها أنطاكية ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

وقد باغتوا سكان هذه البلاد وهم غافلون فنهبوا كل ما وجدوه من المواشي والأموال والامتنعة وسبوا الحريم والصبيان وقتلوا الأطفال ، وارتكبوا من الفواحش مع نساء المسلمين ما لم يفعله الا الكفار والمغول ، ثم رحلوا الى الباب^(١) وبزاعا فعذبوا سكانها حتى اخذوا جميع اموالهم ، ثم رحلوا الى منبج ودخلوها في ٢١ ربيع الاول ٦٣٨هـ / اكتوبر ١٢٤٠م وقتلوا اكثر اهلها ونهبوا القبور بحثا عن الاموال وسبوا النساء والاطفال ، ووصلت الوحشية بهم درجة موهنة في الهمجية والبربرية ، حتى أن طائفة من نساء منبج دخلن المسجد الجامع للامتناع به . فاقترح الخوارزمية عليهن الجامع وفعلوا ببعضهن الفاحشة داخله " وكان الواحد منهم يأخذ المرأة وعلى صدرها ولدها الرضيع فيأخذه منها ويضرب به الأرض ويأخذها ويمضي " . ثم عاد الخوارزمية الى اقطاعاتهم شرقي الفرات بعد أن دمروا وخربوا العمران حول مدينة حلب^(٢) .

ووصل خبر هزيمة الحلبيين وغارات الخوارزمية المدمرة الى حمص حيث كان المنصور ابراهيم بن المجاهد يتأهب لشن الغارة على معاقل الصليبيين ومعه زهاء ألف فارس من عساكر حمص ودمشق ، فقرر صرف النظر عن قتال الصليبيين وسار بقواته على عجل لنجدة حلب ، وعندما وصلها اتفق معه الحلبيون على توحيد الجهود وتجنيد العساكر لمواجهة

(١) الباب : بلسيدة في طرف وادي بطنان من أعمال حلب بينها وبين منبج ميلين وتبعد عن حلب عشرة أميال ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٧٠-٥٧١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ؛ انظر ايضا أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٦٢ - ١٦٨ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ .

خطر الخوارزمية " ووقع التوثق منه وله بالايمن والعهود " (١) .
وأرسل الحلبيون الموخ كمال الدين بن العديم الى دمشق
لاخذ يمين الصالح اسماعيل للملك الصغير الناصريوسف صاحب حلب
ولجده ضيفة خاتون ابنة العادل ، وطلب ابن العديم منه إرسال نجدة
أخرى الى حلب لمساعدتها على الصمود في وجه الخوارزمية فاجابه السي
طلبه ، كما اطلق الحلبيون أسرى الداوية لكي يكتفوا شرهم ويتفرغون
لمواجهة الخوارزمية (٢) .

أما الخوارزمية فحالما سمعوا باجتماع العساكر في حلب احتشدوا
في حران وقرروا العبور مرة اخرى الى حلب قبل اكتمال العساكر بها ،
وكانت السيدة ضيفة خاتون قد استمالت زعماء العرب بالعطايا والاقطاعات ،
فانفصلوا عن الخوارزمية ، وانضموا الى خدمة الحلبيين ، وسار الخوارزمية
من حران في رجب ٦٣٨هـ / فبراير ١٢٤١م وعبروا الفرات ، فبرز اليهم
المنصور ابراهيم وعسكر شرقي حلب في انتظارهم (٣) .
ووصلت الخوارزمية الى الفايا (٤) ثم الى دير حافر (٥) والى

-
- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ؛ وانظر ايضا :
تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ص ٥٧١ - ٥٧٢ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب ج٥ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٥٧٣ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب
ج٣ ص ٢٥٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٨٨ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٥٧٣ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣
ص ٢٥٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .
- (٤) فايا : كورة كبيرة بين منبج وحلب وهي تابعة لمنبج وتقع في
قبلتها عند وادي بطنان ولها قرى عامرة وبساتين وعيون جارئة
انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٥) دير حافر : قرية بين حلب وبالس ، ياقوت : معجم البلدان .

الجبول^(١) وظل المنصور معسكرا في مكانه دون الاشتباك معهم ، ثم ساروا الى تل أعرن^(٢) وحدثت بعض المناوشات بينهم وبين العرب ، وعاشت الخوارزمية في القرى التي مروا بها فاحرقوا الاقوات وأخذوا ما قدروا عليه ، وكان السكان قد فروا خلال جولاتهم السابقة عن قراهم . ثم تقدمت الخوارزمية الى سرمين^(٣) واقتحموا بها دار الدعوة التابعة للاسماعيلية ، وكان السكان قد وضعوا فيها امتعتهم وأموالهم ظانينهم ان الخوارزمية لا يجسرون على التعرض لها خوفا من الاسماعيلية ، ثم أوطوا في غاراتهم الى معرة النعمان جنوب حلب ، فساروا الى بلدة كفر طاب وأحرقوها ، وتقدموا الى شيزر ونهبوا ربضها ، وقذفهم المدافعون عن قلعة شيزر الحصينة بالجروح والحجارة وقتلوا منهم جماعة . وحين بلغ الخوارزمية استعداد عسكر حلب للقائهم وأنه سيقطع عليهم خط الرجعة الى اقطاعاتهم ، ساروا الى جهة حماة وتجاوزوها جنوبا ، ولم يتعرضوا لقرى مملكة حماة بالاذى لأن ملكها المظفر كان من أشد المناصرين للصالح أيوب ، وهم يظهرون ان كل ما يفعلونه من نهب وتخريب إنما هو خدمة له وتنكيل باعدائه . ودخل بعضهم حماة فباعوا جزءا من الفنائم التي نهبوها وتزودوا بما يحتاجونه .^(٤)

- (١) الجبول قرية كبيرة الى جانب ملاحه حلب وفي الجبول يصب نهر بطنان ويسمى نهر الذهب ثم يجمد ملحا فيتار منه كثير من بلدان الشام والجزيرة ويبلغ مقدار ما يباع منه مئة وعشرون الف درهم سنويا ، انظر يا قوت : معجم البلدان .
- (٢) تل أعرن : قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب ذات كروم وبساتين ومزارع ، يا قوت : معجم البلدان .
- (٣) سرمين : بلدة مشهورة من اعمال حلب اكثر اهلها اسماعيلية ، يا قوت معجم البلدان .
- (٤) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٧٣ - ٥٧٤ ؛ ابن العديم :

وخشيت الخوارزمية من اعتراض عسكر حلب بقيادة المنصور لهم اذا ما عادوا من الطريق التي سلكوها عبر مملكة حلب ، فساروا الى سلمية ، ثم انطلقوا شرقا عبر الصحراء طالبين الفرات لعبوره عند الرقة ، وحين سمع الحلبيون بوجهتهم الجديدة ساروا لاعتراض طريقهم واصطدمت الخوارزمية بجموع العرب المحالفين لحلب قرب الرصافة ^(١) ، وقد تعبت خيول الخوارزمية وضعفت من شدة السير وطول المسافة وقلة العلف في الصحراء ، فلم تستطع الخوارزمية مواجهة العرب ، فلقوا باثقالهم وكل ما معهم من غنائم ، فاشتغلت العرب بنهبها مما اتاح الفرصة للخوارزمية للمسير الى الفرات فوصلوه قبالة الرقة في الخامس من شعبان ٦٣٨هـ / اواخر فبراير ١٢٤١م غير ان عسكر حلب بقيادة المنصور وصل الى صفين ^(٢) بعد وصول الخوارزمية اليها بساعة واحدة ، فتحصن الخوارزمية في بعض البساتين وتمكنوا من عبور الفرات ليلا الى حران ^(٣) . وعبر المنصور بعساكره الفرات وتعقبهم الى قرب سروج والرها ، فعمدت الخوارزمية الى تجنيد عامة السكان من اهل حران لشد أزهم وتكثير عددهم ، غير أن عسكر المنصور لم يعبأ بذلك ، والتقى بالخوارزمية قرب الرها في ٢١ رمضان ٦٣٨هـ / مارس ١٢٤١م ونشبت المعركة بين الجانبين فانهمز الخوارزمية

== زبدة الحلب ج٣ ص ٢٥٥-٢٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٢٨٨-٢٩٠ ؛ وانظر ايضا ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٦٨ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٣٠٣ .

(١) الرصافة : مواضع كثيرة ، والمقصود هنا رصافة الشام وتقع غربي الرقة على البروتبعد عنها اربعة فراسخ انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) صفين : موضع مشهور على شاطئ الفرات الغربي بين الرقة وبالس ، ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٥٧٤-٥٧٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٥٦-٢٥٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٥

ونهب الحلبيون وحلفاءهم معسكرهم ، ففر الخوارزمية الى حران وأخذوا نساءهم وهربوا ، والمنصور بعساكره في اثرهم حتى لجأوا الى عانة (١) التابعة للخليفة العباسي ، فتوقف الحلبيون عن مطاردتهم . (١)

وقطف الحلبيون ، وصاحب الموصل ، وسلاجقة الروم ثمار هزيمة الخوارزمية ، فعم الفرخ مدينة حلب ، وضربت البشائر بها ، ووصلت أعلامهم وأسراهم الى حلب ، واستولى العسكر الحلبى بعد المعركة على حران وقلعتها ، واطلق سراح الأسرى الذين بها . كما جاء صاحب الموصل بدر الدين لو'لو' واستولى على نصيبين (٣) ودارا (٤) ، واطلق سراح المعظم تورانشاه بن صلاح الدين من اسره بدارا ، وأحسن اليه وقدم له الهدايا وأرسله مكرما الى عسكر حلب ، كما استولى الحلبيون ايضا

(١) عانة : بلدة مشهورة على الفرات قرب الحديثة وهيت ، تعد في

اعمال الجزيرة ، ياقوت : معجم البلدان .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٥٧٦ ؛ ابن العديم زبدة الحلب

ج ٣ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٩٢ -

٢٩٣ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣٤ ؛ ابو الفدا :

المختصر ج ٣ ص ١٦٨ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٤٤ ؛

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ ؛ ابن نصر الله ، شفاء القلوب

ص ٤١٠ - ٤١١ ؛ الغزى : نهر الذهب ج ٣ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٣) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل

الى الشام وقيل ان فيها وفي قراها قرابة اربعين الف بستان مما

يشير الي غناها ، وبينها وبين الموصل مسيرة ستة ايام ، انظر ياقوت ،

معجم البلدان .

(٤) دارا : في لحف جبل بين نصيبين وماردين من بلاد الجزيرة ،

هي ذات بساتين ومياه جارئة ، ياقوت ، معجم البلدان .

على سروج والرها ، ورأس عين (١) ، وجملين (٢) والموزر والرقعة وضموها
جميعا الى مملكتهم . اما المنصور ابراهيم ابن صاحب حمص فقد اخذ
لنفسه بلاد الخابور (٣) وقرقيسيا (٤) . بينما استولى سلاجقة الروم
على السويداء . وكان سلطان الروم قد بعث بنجدة لمساعدة المنصور
وعسكر حلب على قتال الخوارزمية ولكنها وصلت بعد انتهاء المعركة ،
فارسل الحلبيون لافرادها الخلع والنفقات ثم ساروا جميعا الى آمد
وانتزعوها من يد تورانشاه بن الصالح ايوب (٥) .

- (١) رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران
ونصيبين وديسر ، وتبعد عن كل من نصيبين وحران زهاء
خمسة عشر فرسخا وعن ديسر عشرة فراسخ وفي رأس عين عيون
كثيرة تجتمع فتصب في نهر الخابور ، انظر ياقوت ، معجم
البلدان .
- (٢) جملين والموزر : قلعتان لهما علمان متسعان من بلاد مضر
وديار بكر على مسيرة يوم من حران ، انظر ابن شداد ، الاغلاق
الخطيرة ج ٣ ص ٦٨ .
- (٣) الخابور : اسم لنهر من روافد الفرات وهو ولاية واسعة تتبعه عدة
بلدان مثل قرقيسيا وماكسين والمجدل وعرمان وغيرها ، ياقوت
معجم البلدان .
- (٤) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور عند مصبه في نهر الفرات ، انظر :
ياقوت معجم البلدان .
- (٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٥٨ - ٢٦٠ ؛ ابن واصل
مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، ابو الفدا : المختصر
ج ٣ ص ١٦٨ .

على أن تلك الهزيمة التي حلت بالخوارزمية لاتعني زوال خطرهم
فقد عاودوا الحركة في سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤٢م وخرجوا الى الموصل
ما اضطر صاحبها الى مسالمتهم واعطاهم نصيبين ثم اتفقوا مع المظفر
غازي بن العادل صاحب ميافارقين ، وقصدوا آمد ، فخرجت اليهم
قوات حلب بقيادة تورانشاه بن صلاح الدين ودفعتهم عنها ، ودارت
معارك عديدة بين الجانبين وتهادن الطرفان على تسوية محددة
واطلق الحلبيون سراح الاسرى من الخوارزمية وعادت قوات حلب الى
بلادها ، ولكن التسوية لم تستمر فشرع الخوارزمية مع حليفهم المظفر غازي
ابن العادل في الاغارة من جديد على بعض بلدان الجزيرة وامتدت
غاراتهم من الموصل الى رأس عين (١) .

واستقر الرأي في حلب على استدعاء المنصور ابراهيم صاحب حمص ،
وهو المتمرس في قتالهم ، فعبر بعسكر حلب الفرات الى حران ، فانسحب
الخوارزمية مع المظفر غازي بن العادل الى ميافارقين ، وانضم اليهم
جموع كبيرة من التركمان بزعامة امير يقال له ابن دودي ، ورغم ذلك فقد
التقت بهم قوات حلب بقيادة المنصور في صفر ٦٤٠هـ / أغسطس ١٢٤٢م
وانزلت بهم الهزيمة وولت الخوارزمية والتركمان الادبار ، فوقع عسكر حلب
على معسكرهم واستولى عليه باكمه وبه جميع نساءهم ، واستولى المنصور
على اموال المظفر غازي وخزائنه وحصل الشاميون على غنائم وفيرة من
الماشية والاغنام والامثلة ، ووصلت الاغنام المنهوبة الى مدن الشام ،

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٠ - ٢٦٢ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج٥ ص ٣٠٤ - ٣٠٦ ؛ المقرئ : السلوك ج١

وبيعت بأبخس الأثمان ، ورجع المنصور بعساكره الى حلب فوصلها في مستهل
جمادى الاولى ٦٤٠هـ / او آخر اكتوبر ١٢٤٢م^(١)

ودرج الخوارزمية على الحركة بعد كل مرة ينسحب فيها عسكر
حلب ، فما أن غادر الجزيرة الى بلاد الشام حتى عاثت الخوارزمية
والتركان في الجزيرة من جديد ، مما جعل عسكر حلب يعود مرة أخرى
لقتالهم في جمادى الاخرة ٦٤٠هـ / نوفمبر ١٢٤٢م فانضوت الخوارزمية
الى صاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين غازي ، وجرت بين
الفريقين بعض المناوشات التي تسفر عن نتيجة حاسمة لأي من الجانبين
، وفشلت محاولة قام بها سلطان سلاجقة الروم للإصلاح بينهما " وتضرر
عسكر حلب بالمقام لقلة العلوفة " فعاد الى حلب^(٢) .

ولللخوارزمية دور آخر أبعد أثراً وأكثر حسماً لعبوه في تاريخ
بلاد الشام حين قدموا اليها سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م استجابة لدعوة
الصالح ايوب فاستردوا بيت المقدس وناصروه ضد اعدائه من ملوك الشام
والصليبيين وأنزلوا بهم الهزيمة الساحقة في معركة غزة^(٣) ، والتي
ترتب عليها ، قيام جيوش الصالح ايوب بمساعدة الخوارزمية من استعادة
دمشق سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م من الصالح اسماعيل ، واعادة الوحدة

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٢- ٢٦٥ ؛ ابن واصل :

مفرج الكروب ج٥ ص ٣٠٩- ٣١١ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة

الزمان ج٨ ص ٧٣٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٧١ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٧ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج٥ ص ٣١٣- ٣١٤ .

(٣) انظر تفصيل هذه الحوادث فيما سبق الفصل الثالث ص ٣١١- ٣١٧ .

بين مصر والشام ، غير أن الخوارزمية ما لبثوا ان خرجوا على الصالح أيوب وعاثوا في اعمال دمشق وهددوا نفوذه في بلاد الشام حتى تمكنت قواته بقيادة المنصور صاحب حمص من إنزال الهزيمة الساحقة بهم عند حمص سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م وتمزقت جموعهم وتفرقوا أيدي سباً^(١).

وهكذا لعب الخوارزمية في تاريخ بلاد الشام دورا مزدوجا ومتناقضا في الوقت نفسه ، فمن ناحية نشروا الخراب والدمار في بلاد الشام والجزيرة وكانوا يعول هدم على الحياة الاقتصادية ومظاهر العمران في تلك البلاد قبيل الغزو المغولي ، ومن ناحية أخرى ساعدوا الصالح ايوب على توحيد الدولة الايوبية من جديد فاستردوا بيت المقدس نهائيا من ايدي الصليبيين وانزلوا بهم هزيمة ساحقة في معركة غزة كان لها آثار بعيدة المدى في تحطيم قوة الصليبيين وتمهيد السبيل للمالك فيما بعد لاقتلاع جذور الوجود الصليبي من اساسه في بلاد الشام.

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الثاني ، ص ١٩٠ - ١٩٦ .

ثانيا - مع القوى غير الاسلامية :

مع مملكة أرمينية الصفري :

تمخضت فتوحات السلاجقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري /
الحادي عشر الميلادي في هضبة ارمينية عن هجرة اعداد كبيرة من
الأرمن عن مواطنهم الاصلية الى الاقاليم الواقعة غربي الفرات وشماله .
وقد اشتدت هجرة الأرمن عقب انتصار السلاجقة في معركة ملازكرد سنة
٤٦٣هـ / ١٠٧١ م ، فهاجر كثير منهم الى جبال طوروس الواقعة جنوب اسيا
الصفري والمعروفة عند المؤرخين والجغرافيين العرب باسم جبال
اللكام^(١) . وقد اختار الأرمن هذه المناطق لوعورتها وحصانتهما
الطبيعية وبعدها عن الطرق الرئيسة التي سلكها السلاجقة في غزواتهم
 واصبحت هذه المناطق التي نزح اليها الأرمن تعرف باسم ارمينية
الصفري ، وأنشأ الأرمن في هذه المناطق بعض الامارات ، غير أن اقواها
لم تلبث ان سقطت بيد الاتراك السلاجقة^(٢) . ولما بدأ الضعف

(١) ذكر ياقوت ان جبل اللكام هو امتداد لسلسلة جبال لبنان فيطلق
عليها اللكام عند انطاكية والمصيصة وملطية وسميساط وقاليقلاوطرسوس
وغيرها من المناطق في جنوب اسيا الصفري المحاذية لشمال بلاد
الشام : انظر ياقوت : معجم البلدان ، مادة " لبنان " ومادة :
" اللكام " .

(٢) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصفري ، في بحوث
ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٢٨-٢٢٩ ؛ رنسيان :
الحروب الصليبية ج ١ ص ١١٢-١١٣ ؛ بروكلمان : تاريخ الشعوب
الاسلامية ص ٤٠٢ ؛ علي الفامدي : بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي
ص ٣٢٣-٣٢٥ ؛ عليه الجنزوري : امارة الرها الصليبية ص ١٢٢ ،

دائرة المعارف الاسلامية ، مادة ارمينية ،

Cahen: La Syrie du Nord. p.190 ; The Cambridge
Medieval History , Vol IV pp.628-629.

والانقسام يعتري دولة السلاجقة في الربع الاخير من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي عند الـ رمن في هذه المناطق التي نزحوا اليها الى الاستقلال عن القوى الاسلامية الاخرى^(١) . وحين قدم الصليبيون في الحملة الصليبية الاولى سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م شقوا طريقهم بسهولة كبيرة عبر هذه المناطق بسبب المساعدات التي قدمها الـ رمن للصليبيين^(٢) . كما تمكن بعض قادة الصليبيين بمساعدة الـ رمن من تأسيس أول امارة صليبية قامت في الشرق وهي امارة الرها سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م^(٣)

وقد استطاع حكام الـ رمن الحفاظ على كيانهم في هذه المناطق طوال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، رغم ما احاط بهم من صعوبات جمة ، وصراعات عميقة بين القوى الكبرى المحيطة والمتمثلة في الدولة البيزنطية وسلاجقة الروم ، والقوى الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر ، والامارات الصليبية^(٤) .

ولقد أسهم ليو الثاني حاكم أرمينية الصفري (٥٨٣ - ٦١٦ هـ / ١١٨٧ - ١٢١٩ م) في الحملة الصليبية الثالثة على بلاد الشام زمن السلطان صلاح الدين ، وقد تلقى ليو الثاني المكافأة على جهوده

The Cambridge Medieval History Vol.IV p.628
Cahen . op.cit. p.190 (١)

William of Tyre. A History of deeds done
Beyond the Sea Vol.I . p.187. (٢)

. Ibid. p.197. (٣)

(٤) انظر سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية في كتاب ،

بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

الصليبية من قبل هنري السادس امبراطور المانيا الذى بعث له بالتاج حيث توج ليو الثاني ملكا على أرمينية الصفرى سنة ٩٥هـ / ١١٩٨م في كنيسة طرسوس في حضور حشد كبير من رجال الدين الصليبيين والاُرمُن وكبار الامراء ، وقد رأى الارمن في هذا التتويج احياءاً لملكيتهم القديمة في ارمينية الكبرى وبعثا لمجدهم السالف. (١)

ولقد ترتب على ظهور مملكة ارمينية الصفرى على مسرح الحوادث في الشرق الأدنى أن قامت بنصيبها في ممارسة السياسة الصليبية ضد المسلمين ، ولا سيما وقد تلقت التاج عن طريق الغرب الاوربي الذى ما انفك يرسل الحملات الصليبية ضد المسلمين في بلاد الشام . وردا على تلك السياسة الصليبية التي انتهجتها مملكة أرمينية الصفرى ، فقد شرع المسلمون في التصدى لها اذ يذكر ابو شامة أن الاسطول المصرى قام في سنة ٩٤هـ / ١١٩٨م بغارة بحرية على شواطئ ارمينية الصفرى وعاد الى مصر معه اربع مئة وخمسون اسيرا . (٢)

ولما كانت مملكة حلب هي أقرب الممالك الايوبية في بلاد الشام الى مملكة أرمينية الصفرى ، فقد كان من الطبيعي أن تكون اكثر الممالك الشامية تأثرا بتلك السياسة الصليبية التي سارت عليها ارمينية الصفرى . ولقد بدأ الاحتكاك بين مملكة حلب ومملكة ارمينية الصفرى بسبب تطلع

(١) سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصفرى ، في بحوث

ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٣٧ .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣ .

ليو الثاني الأرمني لبسط نفوذه على انطاكية^(١) ، في الوقت الذي كانت تحرص فيه مملكة حلب بزعامة الظاهر على بقاء انطاكية بعيدة عن نفوذ أي قوة كبرى معادية ، ذلك أن مملكة حلب وإمارة انطاكية الصليبية جمعت بينهما مصالح اقتصادية مشتركة ، فقد كانت منطقة العمق الزراعية التابعة لمملكة حلب تزود انطاكية بحاجتها من القمح^(٢) .

كما أن مملكة حلب كانت بدورها تعتمد على ميناء انطاكية في التزود ببعض السلع الأخرى التي تحتاجها^(٣) . وكان سقوط انطاكية بيد ملك أرمينية الصفري يعني تهديدا مباشرا لمملكة حلب ، لذلك لا نعجب إذا مدت مملكة حلب يد المساعدة لانطاكية إزاء إطماع ملك أرمينية الصفري .

(١) تطلع ليو الثاني إلى السيطرة على انطاكية بعد موت صاحبها بوهيمند الثالث سنة ٩٧ هـ / ١٢٠١ م وكان لبوهيمند الثالث يسمى ريموندروبان . ووفقا لأحكام القانون الإقطاعي الأرمني في العصور الوسطى كان من المفروض أن يحكم ريموندروبان باعتباره ابن الوريث الشرعي ، ولكن الصليبيين في انطاكية عز عليهم أن يتولى حكمهم أميراً أرمينياً فاستدعوا بوهيمند الرابع حاكم طرابلس وعم ريموند وسلموه حكم انطاكية ، فقام ليو الثاني الأرمني يدافع عن حقوق ريموندروبان واتخذ من ذلك ذريعة لبسط نفوذه عليها : انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٤٥ ؛ رنسيان :

الحروب الصليبية ج ٣ ص ١٨١ - ١٨٤ ،
The Cambridge Medieval History Vol.IV p.631,
Stevenson: The Crusaders in The East, p.299.

وعن مشكلة الوراثة تلك وما دار من نزاع بسببها انظر المراجع السابقة فما يهمنا هنا هو ما يتصل بعلاقة الأرمن بالمسلمين في بلاد الشام . وانظر أيضاً الملحق الرابع .

(٢) ياقوت : معجم البلدان مادة العمق .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ص ١٤٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ج ٤

وبدأت غارات ليو الأرمني سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م حين قدم
ونزل قرب جسر الحديد بين حلب و انطاكية وأتلف بعض المزارع التابعة
لبوهيمند الرابع و لفرسان الصليبيين " وقطع مادة الميرة المتواصلة
من انطاكية الى حلب " (١)

وفي ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ / ديسمبر ١٢٠٣ م هاجم ليو
الثاني ملك الأرمن انطاكية " وجدّ في حصارها والتضييق عليها " فلما
عَلِمَ الظاهر صاحب حلب خرج مسرعا وعسكر عند حارم قبالة انطاكية ،
فاضطرب ملك الأرمن الى الانسحاب الى بلاده فرجع الظاهر الى حلب . (٢)
غير ان ليو الثاني عاد فجأة الى انطاكية في ربيع الآخر سنة ٦٠٠ هـ / يناير
١٢٠٤ م بعد أن " راسله أهلها وضمنوا له تسليمها فسار اليها بفرقة
ويُفهم من اشارة ابن واصل هذه أنه كان يسكن انطاكية طائفة كبيرة من
الأرمن ومن الطبيعي أن يتعاطفوا بدافع من عصبيتهم ونمرتهم مع ليو
الأرمني ، وفوجي " بوهيمند الرابع بمباغطة ملك الأرمن له ففزع ولم
يستطع الصمود أمامه فاعتصم بقلعة انطاكية " ونادى بشعار الملوك
الظاهر ووصل الخبر بذلك على جناح طائر فخرج من حلب بالعساكر
وقصد انطاكية " ولم يكن بمقدور ملك الأرمن مواجهة الظاهر من الخارج
وحامية القلعة حيث يعتصم بوهيمند الرابع فضلا عن موقف الأتراك
من البيزنطيين والصليبيين والداوية المعادي للأرمن ، والذين قاوموا

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٤٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤

قسم ٢ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ؛ وانظر ايضا : المقرئ : السلوك

ج١ ص ١٦٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٥٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤

قسم ١ ص ٢٠ .

فعلا ليو الثاني وساندوا بوهيمند الرابع فاضطر ملك الأرمن إلى الانسحاب إلى بلاده مرة أخرى ، وعاد الظاهر بدوره إلى حلب^(١) . ولم يتخل ليو الثاني عن اطاعه في انطاكية ، وسعى جاهدا لاجبار الظاهر على التخلي عن مساعدتها ولو عن طريق القوة فاغار ملك الأرمن سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٥م على بلاد العمق التابعة لحلب واستاق ماشيتها وشرع في عمارة حصن في احد الجبال القريبة من دريساك - " ليضيق به عليها " وأرسل إلى الظاهر يساومه على التخلي عن انطاكية مقابل ان يعيد جميع ما نهبه من بلاد العمق ، فأجاب الظاهر إلى طلبه لكي يستعيد اموال سكان العمق . وبعد أن ضمن ملك الأرمن عدم تدخل الظاهر بادر بحصار انطاكية وخرب بساتينها ومزارعها الواقعة خارج اسوار المدينة " ووقع فيها غلاء عظيم فكان الملك الظاهر يمد أهل انطاكية بالفلال حتى قويت "^(٢) .

ولما شعر ليو الثاني ملك أرمينية أن الظاهر قد خدعه وأنه لم يتخل عن انطاكية إلا مؤقتا لكي يستعيد اموال رعاياه ، عاود الكرة فشن الغارات على اعمال مملكة حلب ، وباغت ربحي دريساك ليلة عيد الميلاد ٦٠٢هـ / ١٢٠٥-١٢٠٦م غير أن اهل الرض صدوا في وجهه ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٥٤-١٥٥ ؛ وانظر ايضا الخطيب العمري : الدرالمكون ورقة ١١٠ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٥-١٥٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٢-٣ ؛ أبو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٠٥ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ١٦٢-١٦٣ ؛ الغزى : نهر الذهب ج٣ ص ١١٠ ؛ الطباخ : إعلام النبلاء ج٢ ص ٢٠٥-٢٠٦ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ٩٤٦ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٦ .

وفي الصباح انتشرا لاُرمَن في بلاد العمق ، ونهبوا من كان فيه — من التركمان ، ثم انسحبوا بما معهم من غنائم الى جبال اللكام الحصينة .^(١) ولم تقتصر غارة ملك الاُرمَن على بلاد العمق وانما ايضا على التركمان النازلين على النهر الاُسود^(٢) فاخذ منهم " عالما لا يُحصى واستاق نعمهم ومواشيهم ، وسار الى دريساك فحرق ريفها وعاد الى بلاده ."^(٣)

وازاء ذلك العدوان المتواصل والغارات المتكررة جمع الظاهر عساكره وأرسل الى عمه العادل وغيره من ملوك الشام طالبا المساعدة لكبح جماح ملك الاُرمَن ، وعهد الظاهر الى قائديه فارس الدين ميمون القصرى ، وسيف الدين بن علم الدين بن جندر بالمسير الى حارم لصد عدوان ليو الثاني ملك أرمينية ، وسار الظاهر بنفسه الى مرج دابق^(٤) ، فعسكر به ، غير أن ملك الاُرمَن خالف العساكر الحلبية وسلك طرقا اخرى وباغت ميمون القصرى واصحابه ، ودارت بينهم معركة حامية في شوال ٦٠٢هـ / مايو ١٢٠٦م وحلت الهزيمة بعسكر حلب ووقع اكثرهم بين قتيل وأسير وعاد الاُرمَن واعتصموا بجبالهم وحصونهم .^(٥)

-
- (١) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٧ .
- (٢) النهر الاُسود نهر بالشفور في اطراف بلاد المصيصة وطرسوس ، انظر ياقوت معجم البلدان .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٧٠ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٤١-٤٢ .
- (٤) دابق : قرية قرب حلب من اعمال عزاز بينها وبين حلب اربعة فراسخ وغدها مرج معشب نزه ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٧-١٥٨ ؛ ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٣٨-٢٣٩ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ج٣ ص ١٧٠ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٥٢٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٤٣ ؛ ابن ايبك : كز الدرر ج٧ ص ١٥٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٩٠ .

وحين بلغ الظاهر ما حل بعسكره ، رحل من مرج دابق فوصل الى مكان المعركة ، " فشهد حالة قبيحة من كثرة القتلى " فساروخيم على جسر الحديد وراسل الصليبيين بانطاكية واتفق معهم على أن يجندوا عشرة الاف راجل ، ويقصدون بلاد ليو الثاني الارمني من جهتهم ، ويسيره من جهة حلب " ويجتمعون على استئصال شأفته وقلع أثره " (١) ولكن هذا المشروع لم ينفذ ، ويبدو أن سبب ذلك صعوبة التوغل في بلاد ليو الثاني الارمني للحصانة الطبيعية التي تتمتع بها بلاده ، وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ ابن الاثير ، فقال عن بلاد ليو الارمني : " فليس اليه طريق لأن جميع بلاده لا طريق اليها الا من جبال وعرة ومضائق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول اليها ولا سيما من ناحية حلب ، فان الطريق منها متعذر جدا " (٢) ولذلك قبل الظاهر عرض ملك الارمن الصلح وترددت الرسل بين الجانبين ، واتفقا على ان يهدم ليو الثاني الحصن الذي بناه قرب دربساك وأن يعيد جميع ما أخذه في غاراته على بلاد الشام ولا سيما مملكة حلب ، وأن يطلق سراح الاسرى المسلمين وأن لا يتعرض لانطاكية وتم الصلح في اواخر سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م على أن تكون مدة الهدنة ثمان سنوات (٣) .

-
- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٧٠ - ١٧١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ١ ص ٤٣ .
- (٢) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٢٣٩ .
- (٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٧١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ١ ص ٤٣ .

ولقد كان الظاهر صاحب حلب يتوق على الدوام الى الخلاص من خطر مملكة أرمينية الصغرى ، ولذلك فحين طلب منه سلطان سلاجقة الروم كيخسرو الأول إرسال نجدة اليه للاشتراك معه في مهاجمة بلاد ملك الأرمن ليوا الثاني . أجابه الى طلبه وأرسل اليه عسكريا بقيادة سيف الدين بن علم الدين بن جندر ، وأيبيك فطيس ، فاجتمعوا بسلاجقة الروم عند مرعش^(١) سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٩م . وهاجموا بلاد الأرمن وافتتحوا عدة حصون فراسل ليوا الثاني السلطان العادل طالبا حمايته ، فارسل الاخير الى كيخسرو والى الظاهر طالبا وقف هجومهم على أرمينية الصغرى ، وفي الوقت نفسه بدأ موسم البرد وتساقط الثلوج ، فبادر كيخسرو وصالح ملك الأرمن على أن يعيد حصن بفراس الى الداوية ، وأن لا يتعرض لانطاكية وأن يطلق سراح الاسرى من المسلمين وعدم الهجوم على مملكة حلب أو مضايقتها ، وانسحب كيخسرو الى بلاده وعادت النجدة الحلبية الى بلادها^(٢) .

وظل الصراع محتدما داخل انطاكية بين ريموند رويان يؤيده ملك الأرمن ليوا الثاني وبين عمه بوهيمند الرابع ، وبعد صراع مريع تمكن ليوا الثاني ملك أرمينية الصغرى من تدبير مؤامرة سنة ٦١٢هـ / ١٢١٦م فأطاح بحكم بوهيمند الرابع ودخل انطاكية ونصب ريموند رويان أميرا على انطاكية . وحتى لا يقع ليوا الثاني في عداوة مع الظاهر اطلق سراح الاسرى

(١) مرعش : مدينة في الشفور تقع بين بلاد الشام وبلاد الروم ، انظر ياقوت معجم البلدان .

(٢) العيني : عقد الجمان ، ج٣ ، لوحة ٣١٤ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ابن واصل : مغز الكروب ج٣ ص ١٨٧ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١١١ ؛ تاريخ ابن الفرات : ج١ ص ٨٢ .

المسلمين في المدينة ، وأعاد بفراس الى الداوية ، وطلب الصلح من
الظاهر واضطرب ليو الثاني الى الانسحاب عائدا الى بلاده تاركا ريموند رويان
حاكما على انطاكية بسبب هجوم سلطان سلاجقة الروم كيكافوس على
بلاد (١) .

وضاق الظاهر ذرعا بمجاورة ليو الثاني الاُرميني له في انطاكية
عن طريق ريموند رويان وأخذ يتحين الفرص للخلاص من ذلك الخطر
الجديد ، فجاءته في المحرم سنة ٦١٣هـ / ابريل ١٢١٦م رسالة من سلطان
سلاجقة الروم كيكافوس ، يطلب منه الاجتماع به عند مرعش للهجوم على ملك
الأُرمين ليو الثاني وانتزاع انطاكية منه ، على أن يشن كيكافوس الهجوم
من جهة مرعش بينما يتقدم الظاهر بعسكره من ناحية دريساك ، في
الوقت الذي يشن فيه بوهيمند الرابع صاحب طرابلس الهجوم على بلاد
الأُرمين من جهة انطاكية ، وبعث كيكافوس برسالته الى الظاهر مع رجل
يدعى عبدالرحمن المنبجي ، فادى الرجل الرسالة بعد أن زاد فيها
شروطا تضر الظاهر وتفيد كيكافوس ولم يشأ الظاهر أن يبت فيها
فأرسلها الى عه السلطان العادل يستشير به في ذلك " فهجن عليه
العادل رأيه وأشار اليه بأن لا يجتمع اليه اصلا وعرفه ما في ذلك
من المفسد " (٢) ولم يوضح ابن واصل سبب رفض العادل لرأي ابن أخيه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٢٣٣ ؛ تاريخ ابن الفرات ،
ج١ ص ١٦٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٨٢ ؛
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٤٨ ، رنسيان : الحروب
الصليبية ج ٣ ص ٢٤٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٣٤ ؛ وانظر تاريخ ابن الفرات ج١
قسم ١ ص ١٩٠ - ١٩١ = وقد اختلط الامر على ابن العديم
في فهم الدوافع التي حملت الظاهر على الاتفاق مع سلطان سلاجقة

الظاهر في الاجتماع بسلطان سلاجقة الروم لمحاربة أرمينية الصغرى ، وما هي المفاسد التي سوف تترتب على ذلك غير أنه يبدو أن العادل رأى أن استيلاء سلطان سلاجقة الروم على مملكة أرمينية الصغرى وانطاكية سوف يؤدى الى ازدياد وتعاضم نفوذه ، الأمر الذى سوف يفريه بالطمع في ممتلكات الأيوبيين في بلاد الشام . وما يبرهن على صحة هذا رأى الحملة الفاشلة التي قام بها كيكائوس بعد موت الظاهر سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م بغية الاستيلاء على مملكة حلب ^(١) وقبل أن يحقق أى نجاح ضد مملكة أرمينية الصغرى .

وكيفما كان الأمر فقد وقع الظاهر في موقف حرج مع سلطان سلاجقة الروم بعد أن وعده بالمساعدة ، وظلت رسل كيكائوس تصل تباعا الى حلب تحت الظاهر على الحركة ، كما عمد ليو الثاني ملك أرمينية الصغرى الى إفشال مشروع كيكائوس ، فأرسل الى الظاهر بحلب رسالة تدل على دهائه وحنكته أعلن فيها أنه ملوك الظاهر " وغرس دولته " واستشار فيها نخوة الظاهر قائلا : " وقد دخلت عليه دخول العرب أطلب منه انقاذى من هذه الورطة ، وأكون ملوكه ما عشت " وذكر للظاهر في رسالته انه قدم له عدة خدمات حين حاصر دمشق زمن حرب الوراثة " وبقيت البلاد شاغرة ما شغلت قلبه ولا آذيت بلده بل ساعدته بمالي ورجالي وكذلك لما حاصر دمشق المرة الثانية ، وقد بذلت لي الأموال كلها لاشغل

=== الروم ، فظن انه فعل ذلك خوفا من عمه العادل ، انظر ابن المَعْدِم

زبدة الحلب ج ٣ ص ١٦٨ ، ورواية ابن واصل الواردة في المتن

هي الأرجح لأن العلاقات بين الظاهر وعمه كانت قد استقرت

منذ سنة ٦١٠هـ انظر ما سبق الفصل الاول ص : ٧٦ - ٧٧ .

(١) انظر ما سبق ص : ٣٥٢ - ٣٥٦ .

قلبه و يفتر عن الحصار فلم أفعل . وان كان الابرنس - بوهيموند الرابع -
قد خدم السلطان - الملك الظاهر - فخدمتي أكثر من خدمته وسوف يُبصر
السلطان خدمتي وملازمتي بابه الشريف ، وقد أوصيت ابن اختي
- ريموند رويان - الذي نصّبته بانطاكية بملازمة خدمته ^(١) . والواقع ان
هذه الرسالة التي بعث بها ليو الثاني ملك أرمينية الصفري إلى الظاهر
وابدى فيها الكثير من ضروب التذلل والتلق والخضوع للظاهر ، تشير
بوضوح الى مدى الخطر الذي شعر به اذا ما نجح كيكافوس في مشروعه
ضد ملكة أرمينية الصفري ، إذ لن يستطيع ليو الثاني التصدي في وقت
واحد لقوات السلاجقة والظاهر صاحب حلب ، والصليبيين بزعامة
بوهيموند الرابع في طرابلس ، وبالتالي لم يجد ملك الأرمن حرجا في
إعلان خضوعه للظاهر كيما يحس مملكته من السقوط ، وبعث مع
الرسالة هدية عظيمة فاخرة ، وقد نجح في مسعاه ، فمال الظاهر الى
قوله واخذ يفتش عن ذريعة لالفاء الحلف مع كيكافوس الذي بعث
اليه بقاضي عسكري يحثه على الحركة ، وبينما هو عنده ان ورد عليه
من أخبره ان بعض عسكري كيكافوس بمرعش أغاروا على اطراف مملكة
حلب وقتلوا جماعة من سكانها الأرمن وأسروا جماعة ، فاتخذ الظاهر
من ذلك ذريعة لرفض الاتفاق مع سلاجقة الروم وقال لقاضي كيكافوس
" العجب انكم تطلبون منا المعاونة وتخربون بلادنا " ولم تنفع حجج
القاضي في اقناع الظاهر بالعدول عن موقفه " فاعرض الظاهر عن
الحركة لنصرة عز الدين - كيكافوس - ورجع عن عزمه ^(٢) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٣٥-٢٣٦ ؛ تاريخ ابن الفرات
ج ٥ قسم ١ ص ١٩١-١٩٣ ؛ وانظر ايضا ابن العديم ، زبدة الحلب
ج ٣ ص ١٦٨-١٦٩ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ١٨٤ .

وحرصت مملكة حلب دائما على منع قيام وحدة بين مملكة ارمنية
الصفري وانطاكية . او بعبارة اخرى ، منع أي من القوتين من السيطرة
على الاخرى لأن ذلك يعني تطويق مملكة حلب من الشمال والغرب
وتهديدها تهديدا خطيرا . ولذلك فحين توفي ليو الثاني ملك ارمنية
الصفري سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م امتدت أطماع بوهيمند الرابع صاحب
طرابلس وانطاكية إلى السيطرة على مملكة ارمنية الصفري ، وبدأ في
حشد قواته لتحقيق اهدافه فأرسل الأرمن إلى اتابك شهاب
الدين طغرل بحلب يستجدونه ويخوفونه من سيطرة بوهيمند الرابع
على بلادهم المجاورة لمملكة حلب من الشمال ، وعندئذ أمدهم الاتابك
بالنجدات والسلاح ، وشرع في تهديد انطاكية من جهته الأمر
الذي جعل بوهيمند الرابع يحجم عن الايغال في بلاد الأرمن
خوفا على انطاكية من اتابك حلب طغرل وأدى ذلك إلى فشل
حملة سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م ولم يتحقق له أي غرض تجاه ارمنية الصفري ،
(١)
ونجحت بذلك مملكة حلب في ابعاد الخطر والحيلولة دون سيطرة
ارمنية الصفري على انطاكية او العكس .

واذا كانت مملكة ارمنية الصفري قد شغلت خلال حكم ليو
الثاني بمشكلات الوراثة على امارة انطاكية فان ذلك لا يعني تخليها
عن العداء للمسلمين او ممارسة دورها الصليبي . فحين أصبح هيثوم
الأول ملكا على أرمنية (٦٢٣-٦٦٧ هـ / ١٢٢٦-١٢٦٩ م) وضع دعائم
سياسة خارجية جديدة كانت اكثر خطرا على المسلمين في بلاد الشام

(١) ابن الاثير: الكامل ج ١٢ ص ٤٦٤-٤٦٦ ؛ رنسيان : الحروب

الصليبية ج ٣ ص ٣٠٧-٣٠٩ ؛

The Cambridge Medieval Hisotry, Vol.IV p.633

وتتمثل تلك السياسة في احلال التعاون مع المغول محل التحالف مع الغرب الاوربي . بعد فتور تيار الحركة الصليبية .^(١)

فعلى الرغم من اعتراف هيثوم بالتبعية الاسمية مؤقّتا لسلاجقة الروم درءاً لخطرهم فإنه حين اجتاحت المغول اسيا الصغرى سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م رفض هيثوم مساعدة سلاجقة الروم بل عمد بعد هزيمتهم الى التعبير عن حقده ضدّهم فنهب معسكرهم وأغار على بلادهم وقتل الكثير من رعاياهم المسلمين^(٢) . وحين لجأت زوجة سلطان سلاجقة الروم كيخسرو الثاني وابنته الى هيثوم هربا من قائد المغول بايجونويان الذى اجتاحت اسيا الصغرى كانت الشهامة/ من هيثوم تقتضى حماية امرأتين لجأتا الى بلاطه وقت الشدة، ولكنه ضرب بقواعد العرف والاخلاق عرض الحائط واختار ان يتقرب الى المغول على حساب المشل والفضائل ، فسلم زوجة الحاكم المسلم وابنته الى بايجونويان .^(٣)

وتطلع هيثوم الى الحصول على مساعدة مباشرة من المغول ضد المسلمين في بلاد الشام واسيا الصغرى ، فبعث سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م باخيه سبياد الى خان المغول الاكبر كيوك خان (٦٤٤-٦٤٧هـ/ ١٢٤٦-١٢٤٩م) بعاصمته قراقورم في جوف منغوليا ، فعاد سبياد بوعد من المغول ببقاء ملكة ارمنية الصغرى واعادة ما انتزعه السلاجقة من بلادها^(٤) . ولم يكتف هيثوم ببعث اخيه ، فعاد وخرج

- (١) سعيد عاشور : سلطنة المماليك وملكة ارمنية الصغرى ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١٤٣ أ .
- (٢) ابن شداد ، الاطلاق الخطيرة ج١ القسم الثاني مخطوط لوحة ٣٠٩ نسخة اياصوفيا ، المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٨٣ أ .
- (٣) سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٤٣ .
- (٤) ابن العمير : تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٩ - ٤٥٠ ؛ سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٤٣ ؛

بنفسه سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣ م متكراً الى بلاط الخان الجديد منكوقآن
(٦٤٨-٦٥٥هـ / ١٢٥٠-١٢٥٧ م) في قراقورم ، وحصل هيثوم على تأكيد
جديد بضمان امنه وأمن مملكته وكان هيثوم يتوخى ان يتحالف المغول
مع المسيحيين لطرد المسلمين من بلاد الشام .^(١)

غير انه من الواضح أنّ المغول لم يكونوا ينظرون الى هيثوم وغيره
من ملوك الدول المعاصرة لهم نظرة الند للند ، وانما نظرتهم الى الاتباع
الذين يجب ان يبذلوا لهم على الدوام فروض الطاعة والولاء ، وما حصل عليه
هيثوم كان يعتبره قادة المغول من مظاهر عطفهم على اتباعهم . ولكن
هيثوم حاول الافادة من ذلك الاتجاه لدى المغول ، فاتصل بالصليبيين
في بلاد الشام ودعاهم الى المشاركة في مشروعه ضد المسلمين ولكنه
لم يلق الاستجابة الا من بوهيمنند السادس حاكم انطاكية (٦٤٩-
٦٨٦هـ / ١٢٥١-١٢٨٧ م) بسبب الجمود الذي اصاب الحركة الصليبية ،
ونزول حماسة الغرب الاوربي تجاه مساعدة الامارات الصليبية في
بلاد الشام . ورغم ذلك فقد ظل هيثوم على وفائه للمغول ومتطلعاً
الى مساعدتهم ضد المسلمين ، فلما بدأ زحف المغول بقيادة هولاكو
على العراق والجزيرة والشام انخرطت اعداد كبيرة من الأرمن بقيادة هيثوم
في صفوف قوات المغول ، ولعبوا دوراً حاسماً في التنكيل بالمسلمين ،
وفاقوا المغول في وحشيتهم وهمجيتهم ضد المسلمين ، فدمروا مساجدهم

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٩ - ٤٦٠ ؛ سعيد

عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ؛

ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ،

The Cambridge History of Islam p.211.

بقيادة هيثوم وحولوها الى كنائس ،ومن ذلك جامع حلب الذي احرقه هيثوم بنفسه . وظل الاُرمين بقيامته على تحالفهم مع مغول فارس طوال فترة حكمه .^(١)

*

مع الامبراطورية الغربية المقدسة :

إذا كان الامبراطور فردريك الثاني قد نجح بحملته الصغيرة في اخذ بيت المقدس عن طريق الصلح من السلطان الكامل سنة ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ فان ذلك يرجع الى ظروف الاخير وشخصيته^(٢) . على ان علاقة فردريك الثاني امبراطور الامبراطورية الغربية المقدسة بالمسلمين اتسمت بالود والصداقة بصورة عامة ويعود ذلك الى ما اتصف به الامبراطور فردريك الثاني من الثقافة الواسعة واجادته للغات عديدة من بينها اللغة العربية اضافة الى نشأته بجزيرة صقلية حيث المؤثرات العربية الاسلامية^(٣) . وقد ادرك المؤرخون المسلمون اثر بيئته الثقافية التي نشأ بها على شخصيته و علاقته بالمسلمين فابن واصل يقول : " وكان الامبراطور من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب ماثلا الى المسلمين ،لأن مقامه في الاصل ومرباه بلاد صقلية وهو وابوه وجده كانوا ملوكها وأهل تلك الجزيرة

(١) سعيد عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى ،بحوث

ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٢٤٤-٢٤٦ ؛

The Cambridge History of Islam pp. 211-212

(٢) انظر ما سبق الفصل الثالث ص ٢٨٤ - ٢٩٩ .

(٣) سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ؛

بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١١٢ ؛ نشر :

تاريخ اوربا العصور الوسطى ج١ ص ٢٤٩-٢٥٠ .

غالبهم المسلمون^(١) اما المقریزی فيصفه بأنه كان " عالما متبحرا في علم الهندسة والحساب والرياضيات "^(٢) . وبعد وصوله الى الشام سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م بعث الى السلطان الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها الاخير على بعض علماء المسلمين البارزين في هذه العلوم فكتبوا الاجابة عليها ، فبعث بها الكامل الى الامبراطور^(٣) .

وحين تم توقيع صلح يافا بين الجانبين استأذن الامبراطور السلطان الكامل في زيارة القدس فأذن له وأمر القاضي شمس الدين قاضي نابلس " وكان جليلا في الدولة متقدما عند ملوك بني ايوب " امره ان يرافق الامبراطور فردريك الثاني في زيارته لبيت المقدس وروى القاضي قصة دخوله للموضع ابن واصل فقال : " ودخلت معه الى الحرم فرأى ما فيه من المزارات ثم دخلت معه الى المسجد الأقصى فاعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة "^(٤) وحين وصوله الى محراب المسجد الأقصى اعجبته نقوشه وزخارفه ورأى من جمال المنبر ودقة صنعه ما أثار دهشته ثم صعد فيه الى اعلاه ثم نزل واخذ بيد قاضي نابلس

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٣٤ ؛ وانظر ايضا ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٤١ ؛ العليمي : الانس الجليل ج١ ص ٤٠٥-٤٠٦ .
- (٢) المقریزی : السلوك ، ج١ ص ٢٣٢ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٧ ؛ اليافعي جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ أ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٢ ؛ المقریزی : السلوك ج١ ص ٢٣٢ .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٤ ؛ وانظر ايضا ابن الفرات : ج٦ لوحة ٤٥ ؛ المقریزی : السلوك ج١ ص ٢٣٢ . وقد ذكر سبط ابن الجوزي عن خادم الصخرة المقدسة انه اخبره عن زيارة

وخرجوا من المسجد الأقصى ، واثنا^١ خروجه رأى قسيسا ويديه الانجيل وهو يهيم^٢ بدخول المسجد فزجره فردريك وعنفه وقال : " ما الذى اتى بك الى هاهنا والله لئن عاد احد منكم يدخل الى هاهنا بغير اذني لا آخذن ما في عينيه ، نحن ممالك هذا السلطان الكامل وعبيده ، وإنما تصدق علي وطيكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه ، ولا يتعدى احد منكم طوره " فعاد القسيسين ادراجيه وهو يرتعد خوفا ، وسار الامبراطور الى الدار التي عينت له فنزل بها^(١) .

وكان السلطان الكامل قد أمر القاضي بمنع المؤنين ان يرفعوا الاذان من على المآذن ما دام الامبراطور في بيت المقدس ، فتسي القاضي أن يبلغ^٣ مؤذن الحرم ويدعى عبد الكريم بالامير السلطاني ، فصعد المؤذن عبد الكريم في وقت السحر الى المئذنة وشرع يتلو الايات التي تختص بالنصارى ، ثم اذن للفجر ، وفي الصباح استدعى القاضي المؤذن عبد الكريم واخبره بأمر الكامل ، وفي الليلة الاخرى لم يؤذن حسب

=== الامبراطور لها فقال " نظر الى الكتابة التي في القبة وهي :

وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين .

فقال الامبراطور متعجبا ومن هم المشركون ؟ " ثم سأل القوام

عن سر وجود الشباك على نوافذ قبة الصخرة فاخبره قائلا :

" لئلا تدخلها العصفير " فقال الامبراطور : " قد بعث الله

اليكم بالخنازير " ويقصد الصليبيين .

انظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ص ٦٥٥ - ٦٥٦ ؛

وانظر ايضا ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(١) ابن واصل : منج الكروب ج ٤ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ وانظر ايضا :

تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٥ - ٤٦ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة

الزمان ج ٨ ص ٦٥٥ - ٦٥٦ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٣١ .

الأوامر ، ثم سأل الامبراطور فردريك الثاني قاضي نابلس عن سبب عدم سماعه الاذان ، فاخبره بأمر السلطان فقال فردريك " اخطأتم يا قاضي تغيرون انتم شعاركم وشرعكم ودينكم لاجلي ، فلو كنتم عندى في بلادى هل كنت ابطل ضرب الناقوس لاجلكم الله الله لا تفعلوا أول ما تنقصون عندنا " (١) ثم قال الامبراطور فردريك الثاني لقاضي نابلس :

" والله إن أكثر غرضي في المبيت في القدس أن اسمع أذان المؤمن وتسيحهم بالليل " ثم رحل فردريك الثاني الى عكا . (٢)

دلت تصرفات الامبراطور فردريك الثاني على احتقاره للبابوية واستخفافه بها ، فقد ذكر ابن واصل ان الامبراطور سأل الأمير فخر الدين بن الشيخ بعكا قائلا " اخبرني عن الخليفة الذي لكم ما أصله ؟ " فاخبره فخر الدين أنه ينتسب الى عم النبي صلى الله عليه وسلم فقال الامبراطور " ما احسن هذا لكن هو لا القليلوا العقول - يعني الفرنج - ياخذون رجلا من المزية ليس بينه وبين المسيح نسب ولا سبب ، جاهلا فدما يجعلونه خليفة عليهم قائما مقام المسيح فيهم وانتم خليفتم ابن عم نبيكم فهو احق الناس بمرتبه " (٣) .

ولقد أثارت افعال واقوال الامبراطور فردريك ازايا البابوية والمسلمين دهشة المؤمن رخين المسلمين حتى ان سبط ابن الجوزي يقول :

" والظاهر من كلامه انه كان دهريا وإنما كان يتلاعب بالنصرانية " (٤)

-
- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٢٨ ب ؛ سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٥٦-٦٥٧ .
- (٢) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٤٥ ؛ المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٣١ .
- (٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٥١ ؛ وانظر ايضا تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٤٧ .
- (٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٥٦ .

اما المؤرخ ابن الفرات حين ترجمته للامبراطور فردريك في حوادث سنة ٦٤٨ هـ فيرجح انه كان مسلما سرا مستدلا بافعاله واقواله فيقول في ذلك " ويقال ان الامبراطور كان مسلما في الباطن وما قدمنا شرحه يدل على ذلك ، والله اعلم بحاله وما كان عليه " (١) غير انه ليس لدينا من الادلة ما يقطع بصحة أى من هذه الاقوال .

وكيفما كان الامر فان الامبراطور فردريك الثاني لم يكن يقيم اى اعتبار للبابوية ولا للمصالح الصليبية في بلاد الشام ، حتى بيت المقدس لم يكن يهدف من إستعادته إلا لحفظ مكانته في الغرب الأوربي وإبطال اية حجج تتذرع بها البابوية ضده ، ويدل على ذلك اعتذاره للأدميرال فخر الدين بن الشيخ سفير الكامل - بعد تسلّمه بيت المقدس حيث اخبره " بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئا من ذلك ، فماله من غرض في القدس ولا غيره ، وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج " (٢) اما ما عدا ذلك فلم يكن يهمه مصير بيت المقدس بعد تحقيق اهدافه وانتصاره على البابوية ، ويشير ابن الفرات الى انه بعد ان تأكدت المودة بينه وبين السلطان الكامل وتوطدت الصداقة بينهما بعد عودته الى بلاده " عرض على السلطان الكامل إعادة بيت المقدس وكل شئ " بعد تأكيد مودة وصداقة بينهما " (٣) . ولكن يبدو ان إنصراف الكامل الى المنازعات داخل الدولة الأيوبية ، ومع جيرانها كسلاجقة الروم

Selections From the Tarikh Ibn al-Furat (١)
Vol.2 p.48.

(٢) المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٣٠ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٨ .

والخوارزمية حال دون اهتمام الكامل بعرض الامبراطور حتى لا يفتح
على نفسه جبهة جديدة مع الصليبيين في بلاد الشام ومع البابوية
والغرب الأوربي .

وظلت المراسلات والاتصالات مستمرة بين السلطان الكامل وبين
الامبراطور فردريك الثاني بعد عودة الأخير الى بلاده ففي سنة ٦٢٧هـ/
١٢٣٠م وحينما كان السلطان الكامل في حران بمنطقة الجزيرة
وصل اليه رسول الامبراطور فردريك الثاني وحمل معه رسالتين الى
صديقه فخر الدين ابن الشيخ ، وقد اورد ابن نظيف الحموي وابن
الفرات نص الرسالتين ويظهر من نصهما ان ابن الشيخ - وزير السلطان
الكامل - كان قد طلب من صديقه الامبراطور موافاته باخباره على
الدوام ، فاخبره في الرسالتين بأن البابا استفل وجوده في بلاد
الشام وغدربه وزعم انه توفي وهاجم املاكه في لبارديا بايطاليا
واوضح فردريك في رسالتيه انه تمكن من الانتصار على اعدائه وأعاد
الى طاعته جميع من اغراهم البابا بالعصيان عليه اثنا غيبته ببلاد
الشام (١) .

وورد الى السلطان الكامل وهو بحران رجل يدعى احمد بن ابي
القاسم المعروف بالرمان من جزيرة صقلية وينتمي الى طائفة من المسلمين
يسكنون في جبال صقلية الوعرة ، وقد رأبوا على الخروج على الامبراطور
فردريك الثاني الذي رد على ذلك بمهاجمة معاقلم وإخراجهم

(١) تاريخ ابن الفران ج ٦ لوحة ١٠٤-١٠٨ ؛ ابن نظيف الحموي :
التاريخ المنصوري ص ١٨٩ - ١٩٤ = وانظر نص الرسالتين
في الملاحق : الملحق الخامس .

من اوطانهم الى السهول حتى لا يعودوا الى العصيان مرة اخرى ،
وطلب احمد بن ابي القاسم هذا من السلطان الكامل ان يتوسط لهم
لدى الامبراطور للسماح لهم بالعودة الى جبالهم ، والاذن لهم
بالهجرة الى مصر ، فكتب السلطان الكامل رسالة الى صديقه الامبراطور
يشفع فيهم وعاد احمد بن ابي القاسم الى بلاده (١) . غير ان ابن
نظيف الحموي وابن الفرات تركا الموضوع غامضاً ولم يذكر شيئا عن موقف
الامبراطور فردريك من شفاعته السلطان الكامل في هو " لا المسلمين ، ولم
يرد خبر هذه الحادثة عند غيرهما من المؤرخين . ولكننا نرجح أن
تلك الشفاعة لقيت أذنا صاغية من الامبراطور فردريك الثاني ، الذي كان
يعتز دائما بصداقة السلطان الكامل ولا يفتأ يردد امام اصدقائه قائلا :
" ان صديقي السلطان المسلم أثمن لدى من اي شخص اخر ما عدا ولدي
الملك كونراد " (٢) .

ويُفهم من نص رسالة يبعث بها الملك الجواد يونس بن
مودود بن العادل الى الامبراطور فردريك الثاني سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م
استمرار العلاقات الودية بين الدولة الايوبية ، والامبراطورية الغربية
المقدسة ان جاء فيها قوله : " فاما ذكره المقام العالي السلطاني
الملكي ... من انه لا فرق بين الملكتين فهذا هو المعتقد في صدق
عهده وخالص وده ولا زال ملكه عاليا وشرفه ناميا " (٣) .

(١) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ١٠٨ ؛ ابن نظيف : التاريخ المنصوري

ص ١٩٤-١٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : الامبراطورية فردريك الثاني والشرق العربي ،

بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١٢٧ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج٧ ص ١١٢-١١٨ .

وفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م بعث الامبراطور فردريك الثاني الى السلطان الكامل بهدية قيمة ضمنها دب ابيض كثيف الشعر ، اثارعجاب المؤرخين فذكروا انه كان ينزل الى البحر فيصيد السمك ويأكله ، اضافة الى طاووس ابيض جميل ^(١) ، وديك رومي ضخمة " قدر الجدى الكبير اخضر كأنه درة " ^(٢) .

وقد استمرت العلاقات الوطيدة بين الدولة الايوبية وبين الامبراطورية الغربية المقدسة حتى بعد وفاة السلطان الكامل ٦٣٥هـ / ١٢٣٨ م فسار العادل الثاني على نهج ابيه في مراسلة الامبراطور فردريك الثاني وملاطفته وتبادل الهدايا معه ^(٣) .

وحين استولى الصالح ايوب على مصر والشام ، احتفظ الجانبان بعلاقات الود والصداقة بينهما ، وفي سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١ م ارسل الامبراطور فردريك الثاني سفارة من رجلين الى الصالح ايوب ، وجرى استقبال سفيره في القاهرة بكل مظاهر التشريف والفخامة ومكثت السفيران بالقاهرة حتى اوائل فصل الربيع ^(٤) . ويبدو ان الصالح أيوب رد على تلك السفارة ، فارسل الى الامبراطور فردريك الثاني ، الشيخ العلامة سراج الدين الرمى قاضي قونية - كبرى مدن سلاجقة الروم - فأقام الشيخ سراج الدين في بلاط الامبراطور مدة مكرما ،

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٥٦ أ ؛ ابن ايبك : كنز

الدرر ج٧ ص ٣١٢ ؛ ابن تغرى بردى : التجوم الزاهرة ج٦

ص ٢٨٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٨٣ .

(٢) ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٣١٢ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٦ لوحة ٤٨ ؛ ابن واصل مفرج الكرب ج٤

ص ٢٤٦ .

(٤) رنسيان : الحروب الصليبية ج٣ ص ٣٨٢ .

وصنف له كتابا في المنطق " واحسن اليه الامبراطور احسانا كبيرا وعاد سراج الدين الى الملك الصالح مكرما " (١).

وقد التزم الامبراطور فردريك الثاني بالتعهد الذي قطعته على نفسه للسلطان الكامل في اتفاقية يافا سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م بعدم المشاركة او المساعدة في اية حملة صليبية وعرقلة اى جهد صليبي ضد اراضي الدولة الايوبية (٢). فحين قرر لويس التاسع ملك فرنسا القيام بحملته الصليبية على مصر سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م حاول فردريك الثاني اثناء لويس عن عزمه فارسل اليه ينهاه عن المضي قدما في حملته ، وحذره من مغبة الامر ولكن الملك الفرنسي لم يذعن لقوله ، وعندئذ ارسل الامبراطور أحد اعوانه الى السلطان الصالح ايوب في زي تاجر ليخبره بعزم لويس التاسع غزو مصر ويحذره منه ويشير عليه بالاستعداد له . وقد توخى الامبراطور فردريك السرية التامة في رسالته الى الصالح ايوب خوفا من الفرنج حتى لا يعلموا بـ " ملاماة الامبراطور للمسلمين عليهم " على حد قول المؤرخ ابن واصل (٣) . وقد اورد ابن ايبيك فقرة من نص الرسالة التي بعث بها فردريك الثاني الى الصالح ايوب يحذره من لويس التاسع جاء فيها قوله : " إنه قد وصل في خلق كثير

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٧ .

(٢) انظر ما سبق ، الفصل الثالث ، ص ٢٩٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٧ ؛ وانظر ايضا ابن ايبيك كنز الدرر ج٧ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ؛ المقرئ : الخطط ج١ ص ٢١٩ ؛ حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية ص ١٥١ - ١٥٢ .

وقد اجتهدت غاية الاجتهاد في رده عن مقصده ، وخوّفته فلم يرجع لقولي فكن منه على حذر " وحين وصلت رسالة الامبراطور فردريك الثاني الى الصالح ايوب " احترز وجهاز الالات برسم القتال وتحصين دمياط " (١) وعندما فشلت حملة لويص التاسع وعاد الى بلاده يجرانيل الخيبة ارسل اليه فردريك الثاني " يذكرّه نصحه له وما جرّ عليه لجأجه ومخالفته ، ويعتّفه على ذلك " (٢) .

وقد ذكر الموءرخ ابن واصل أنّه ذهب في سفارة من قبَل السلطان الظاهر بيبرس الى الملك مانفريد بن فردريك سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م وحين اجتمع به وجده متميزا محبا للعلوم مثل ابيه ، وذكر انه بالقرب من البلد الذي نزل فيه مدينة تسمى لوجاره أهلها كلهم مسلمون من اهل جزيرة صقلية وتقام فيها الجمعة وجميع الشعائر الاسلامية " وهي على هذه الصفة من عهد ابيه الامبراطور ، ووجدت اكثر اصحابه الذين يتولون اموره الخاصة به مسلمين ويعلن في معسكره بالاذان والصلاة " (٣) .

-
- (١) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٦٦ .
(٢) ابن واصل : منج الكروب ج ٤ ص ٢٤٨ .
(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٤٨ .

ظهور خطر التتار :

في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام ومصر تتعرض لهجوم الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤ - ٦١٨ هـ / ١٢١٧ - ١٢٢١ م والتي هدفت الى احتلال مصر باعتبارها مركز المقاومة الاسلامية التي يجب اخضاعها لضمان السيطرة الدائمة على بيت المقدس وبقية سواحل الشام^(١). في ذلك الوقت بالذات كانت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان^(٢) قد بدأت تدك وتدمر بقوة مروعة الجزء الشرقي من العالم الاسلامي ، وكان تلك الجحافل المغولية كانت على موعد مع الغرب الاوروبي الصليبي في الاطباق على العالم الاسلامي . وقد استشف المؤرخ الفذ ابن الاثير بفكره الناقد ونظريته الفاحصة هذه الحقيقة في معرض حديثه عن غزوات المغول فقال : " ولقد بلى الاسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها احد من الامم ، منها هو* لا* التتر أقبلوا من المشرق ، ففعلوا الافعال التي يستعظمها كل من سمع بها .. ومنها خروج الفرنج .. من المغرب الى الشام ، وقصدهم ديار مصر وملكهم شفر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها ... " ^(٣).

والحق ان غزو المغول للامم الاخرى ليس حدثا عاديا ولا هجرة طبيعية من الهجرات التي عرفها تاريخ الانسان ، بل كان اعصارا مدمرا

(١) انظر ما سبق ، الفصل الثالث ص ٢٤٩ - ٢٨٠ .

(٢) عن ظهور جنكيز خان وتوحيده للقبائل المغولية انظر ، فو* اد

الصياد : المغول في التاريخ ص ١٩ - ٥٧ ؛ الباز العريني :

المغول ص ٣٧ - ٦٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(١) ابتليت به البشرية عامة والمسلمون والحضارة الاسلامية بصورة خاصة .
ولن نشح هنا غزوات المغول على بلاد المسلمين فيما وراء
النهر وخوارزم وايران ، وانما الذى يهمنا شرح غاراتهم التي وصلت
الى مشارف بلاد الشام وموقف حكام المسلمين في مصر والشام والجزيرة
من غزوات المغول . فلقد استطاع المغول خلال عامي ٦١٦-٦١٧هـ/
١٢١٩-١٢٢٠ م الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر واقليم خوارزم وأزالوا
من الوجود معظم مدنها الكبيرة مثل بخارى وسمرقند وجرجانية وجند
ونيسابور ، وقتلوا الملايين من سكان تلك البلاد المسلمين في وحشية رهيبة
لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلا ودمروا الحضارة الاسلامية الزاهرة بتلك
المناطق والتي ظل المسلمون يشيدون بناها زهاء ستة قرون .
(٢) وفي سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢١م انطلق جيش مغولي اخر انفضه
جنكيز خان الى الاجزاء الغربية من الدولة الخوارزمية لمطاردة ملكها
محمد خوارزمشاه في محاولة جادة للقضي عليه ففر الى بحر الخزر
(قزوين) ولقد نجس عن تلك المطاردة استيلاء المغول على مدن

-
- (١) وضع المؤرخ ابن الاثير تقييما/ تاريخيا لحركة الفزو المغولي باعتبارها
حادثة فريدة قل ان نجد لها نظيرا في التاريخ الانساني .
انظر ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٥٨ - ٣٦١ .
- (٢) عن غزوات المغول لبلاد ما وراء النهر وخوارزم وتدمير المدن
الاسلامية في تلك الاقاليم ، انظر تفاصيل الموضوع في :
النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٤٧ - ٢٣١ ؛
ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٥٨ - ٣٩٨ ؛ ابن واصل :
مفرج الكروب ج٤ ص ٣٤-٦٤ ؛ الصياد : المغول في التاريخ
ص ٩٥ - ١٣٨ ؛ السيد الباز المعريني : المغول ص ١٢٢ -
١٤٤ ، حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ص ٦٧ -

هامة مثل الري وقم وهمدان واقليم اذربيجان ، وظل اولئك المغول يتوغلون في غاراتهم المدمرة فاجتاحوا بلاد الكج غرب بحرالخزر، حتى وصلوا شبه جزيرة القرم وأنزلوا الهزيمة بالروس والقفجاق وغيرهم ، ثم عاد الجيش المغولي الى منغوليا بعد ان دمر كل الاقاليم التي مر بها . واكتشف المغول خلال غاراتهم هذه انه لا يوجد بجميع البلاد التي مروا بها جيش قوى يستطيع الصمود في وجههم ^(١) . ولقد اثارت تلك الغارة التي اقتربت من حدود الخلافة العباسية الاضطراب في بغداد * وانزعج الخليفة وامر الناس بالقنوت في الصلاة وحصّن بغداد واستخدم العساكر ^(٢) .

وفي سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣ م انسحب جنكيز خان الى منغوليا حيث توفي وشغل المغول لفترة محدودة بانتخاب ابنه اوكتاي خاناً اكبر على المغول (٦٢٦ - ٦٣٩ هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤١ م) . ولقد تمكن جلال الدين منكبرتي خلال تلك الفترة من استعادة اجزاء واسعة من بلاد الدولة الخوارزمية التي سقطت بيد المغول زمن جنكيز خان ، ثم دخل جلال الدين في منازعات عميقة مع خصومه في ايران حتى انتصر عليهم جميعاً ^(٣) . وقد رأينا كيف دخل الى الجزيرة وحارب الايوبيين وانتزع من الملك الاشرف صاحب دمشق مدينة خلاط حتى هزم اخيراً امام تحالف سلاجقة الروم مع الايوبيين في بلاد الشام ^(٤) .

-
- (١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص ٣٧٢ - ٣٨٩ ؛ زنسيان : ال
الحروب الصليبية ج٣ ص ٤٢٥ - ٤٢٧ .
(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦١٩ .
(٣) فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص ١٦٨ - ١٦٩ .
(٤) انظر ما سبق ص ٣٥٧ - ٣٦٢ ، ٣٧٤ - ٣٧٥ .

والحق ان هجوم جلال الدين على بلاد الجزيرة وما نجم عن ذلك من حرب شديدة مع الايوبيين وسلاجقة الروم يعتبر خطأً كبيراً وقع فيه جلال الدين منكبرتي إذ استنزفت تلك الحرب قواه وقوى خصومه معا في وقت كان يجب فيه عليهم جميعا توحيد قواهم لدرء خطر المغول المنتظر ، فقد ارسل خان المغول الجديد اوكتاي بن جنكيز خان حملة ضخمة فسارت الى ايران سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م ولم يستطع جلال الدين مواجهة المغول في ميدان مكشوف وظل يتقهقر امامهم وهم يجدون في اثره (١) . وحاول طلب النجدة من ملوك الشام لصد خطر التتار ، فقد كان في اسره مجير الدين بن العادل اخو الملك الاشرف منذ استيلائه على خلاط ، وحمّله رسالة الى اخيه الاشرف وقال له : " نفسك لك فتعرف اخاك الاشرف بالتتر ، فما هم قليل وهم اعداء الدين " (٢) .

وظل جلال الدين يرسل الرسل تباعا الى الاشرف وغيره من ملوك الشام والجزيرة وبقية بلدان الشرق الادنى طالبا نجدة ومساعدته وشد أزره والوقوف الى جانبه ، وقد شرح في رسائله التي بعث بها مدى الخطر الداهم الكامن وراء زحف المغول في اعداد لا حصر لها ، وبين ان التجارب برهنت على أن المدن والقلاع والحصون لا تستطيع الصمود امامهم ، غير أن استغاثة جلال الدين ونداءاته

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٩٥ - ٤٩٧ ؛ ابن واصل :

مفج الكروب ج ٤ ص ٣١٤ - ٣٢٠ ؛ سبط ابن الجوزي :

مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٦٦ ؛ الصياد ؛ المغول في التاريخ

ص ١٧١ .

(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

ذهبت ادراج الرياح ، فحكام الشرق الادنى كانوا مشغولين بمنافساتهم ونزاعاتهم الشخصية وظلوا على ذلك حتى دهمهم الخطر جميعاً .^(١)

وفر جلال الدين هاربا حتى كبسه المغول قرب آمد وتفرقت عساكره فوصل الى احدى قرى ميافارقين حيث قتله أحد الاكراد في شوال ٦٢٨ هـ / اغسطس ١٢٣١ م^(٢) وموته اصبحت بلاد الشام والجزيرة والعراق واسيا الصغرى مفتوحة على مصراعيها امام المغول ، فقد كان جلال الدين سداً بين المسلمين " وبين التتار " .^(٣)

وقد ادرك الملك الاشرف بن العادل بعد فوات الاوان اهمية بقاء الدولة الخوارزمية قوية في مواجهة المغول ، فبعد مقتل جلال الدين دخل بعض اصحاب الاشرف عليه يهنئونه بهزيمته ومقتله فرد الاشرف قائلاً " تهنوني وفرحون . . . والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار الى بلاد الاسلام ، ما كان الخوارزمي الا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج " .^(٤) ولقد صدق الاشرف في قوله فمنذ مقتل جلال الدين سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م حتى قبيل معركة عين جالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م لم يجد المغول من يستطيع الصمود في وجههم ودرء خطرهم .

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٤١ ب - ٤٢ أ ؛ ابن

الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٩٨ ؛ الصياد : المغول في

التاريخ ص ١٢٢ .

(٢) النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٨٤ ؛ الذهبي :

دول الاسلام ج ٢ ص ١٣٤ ؛ الصياد : المغول في التاريخ

ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٣) الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٣٤ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٧ .

ومهما يكن من امر فقد شرعت طائفة من المغول بعد مقتل جلال الدين في نهب سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعد بديار بكر فقاوم أهلها ثم بذل لهم المغول الأمان حتى استسلموا فقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا من فر بنفسه وبلغ عدد القتلى أكثر من خمسة عشر ألف نسمة ، وظلوا يعيشون نهباً وتخريباً في ديار بكر بالجزيرة ، ثم وصلوا إلى نصيبين ونهبوا سوادها وقتلوا من عثروا عليه من سكانها وامتدت غاراتهم المدمرة إلى سنجار والموصل وغيرها ^(١) . وقد ذكر المؤرخ المعاصر ابن نظيف الحموي أن عدد المغول الذين أغاروا على الجزيرة لم يبلغوا ألف فارس ومع ذلك فما وجدوا من رد لهم شاباً " وهرب معظم سكان الجزيرة إلى الشام بينما كان الأشرف مقيماً عند أخيه العادل بمصر ^(٢) . وكل ذلك إن دل على شيء فأنما يدل على مدى الضعف والخور الذي انتاب المسلمين ، وقد أورد ابن الأثير حوادث تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك على الانهيار التام للروح المعنوية لدى المسلمين بحيث لم يعد لجماعة من المسلمين الصمود في وجه جندي مغولي واحد ^(٣) .

وذكر ابن نظيف الحموي في حوادث سنة ٤٢٨ هـ وصول رسل التتر إلى الشام " واجتمع بهم الملك المجاهد بحمص " ^(٤) غير أنه

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٩٩ - ٥٠٠ ؛ سبط ابن الجوزي

: مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٦٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٣٢٥ - ٣٢٨ .

(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ٢٣٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٥٠٠ - ٥٠١ ؛ وانظر أيضاً ابن واصل :

مفرج الكروب ج ٤ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٤) التاريخ المنصوري ص ٢٣١ .

لم يذكر فحوى الرسالة التي حملوها وماذا كان رد المجاهد عليها
كما لم يرد في المصادر الاخرى اى اشارة الى تلك السفارة الى صاحب
حصص .

ومن الواضح ان تلك الفرقة المغولية التي اجتاحت اقليم الجزيرة
سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١ م لم تكن تهدف الى الاستيلاء على البلاد وانما
كان هدفها معرفة بلاد الشام والجزيرة ومدى قدرة حكامها على الصمود
في وجه المغول ، ويدل على ذلك رسالة أوردها ابن الاثير بعث بها
تاجر من الرى الى اصحابه بالموصل جاء فيها قوله : " لا تظنوا
ان هذه الطائفة التي وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة الاخرى
التي وصلت الى اربل ودقوا كان قصدهم النهب وانما ارادوا أن يعلموا
هل في البلاد من يردهم ام لا ، فلما عادوا اخبروا ملكهم بخلو البلاد
من مانع ومدافع وأن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم وهم في
الربيع يقصدونكم " (١) .

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٥٠٣ ، لم يكن المغول يواجهون
اية مشكلات تموينية وهي التي تعاني منها الجيوش المنظمة عادة
فقد أثرت طبيعة بلادهم الجغرافية القاسية في منغوليا في تكوينهم
الجسماني وفي تكوين دوابهم وجعلت لهم قدرة عجيبة على
الصبر وقوة التحمل . وقد ادرك ابن الاثير هذه الحقيقة فقال :
" انهم لا يحتاجون الى ميرة او مدد ياتيهم فانفسهم معهم
الافنام والبقر والخيول وغير ذلك من الدواب ياكلون لحومها
لا غير ، وأما دوابهم التي يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها ،
وتاكل عروق النبات لا تعصف الشعير فاذا نزلوا منزلا لا يحتاجون
الى شئ من خارج " انظر ابن الاثير ، الكامل ج ٢ ص ١٦٠ ،
ولذلك لا نعجب لسرعة غزواتهم المدمرة ، التي امتدت الى
اواسط اوربا .

(١) وقد اتخذت تلك الطلائع المغولية السابقة من موغان

بازريجان مشتى لها لتعود بعد انقضاء فصل الشتاء للاغارة على

الجزيرة وشمال العراق ، ففي سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م عادوا للغارة من

جديد لجس نبض القوى الاسلامية بالعراق والجزيرة والشام ، وقد اهتم

ال خليفة العباسي المستنصر بالله اهتماما عظيما فبعث بالرسل تباعا

الى السلطان الكامل واخيه الملك الاشرف يحثهم على الخروج الى

الشام والمضي لقتال التتار . كما استخدم الخليفة العرب وغيرهم من

الاجناد ، وبذل الاموال بسخاء لصد التتار الذين اغاروا مرة اخرى

على الجزيرة وقتلوا وسبوا وجفل الناس من بين ايديهم ، وتقدم الكامل والاشرف

بمساكر الشام والجزيرة الى الشام وعبرا الفرات ، وحين سمع التتار بقدمهما

- وكانوا قد ضربوا الحصار حول خلاط - انسحبوا عنها وتركوا حصارها . (٢)

وسار الكامل فاستولى على آمد كما مر معنا (٣) ، ولكنه بدلا من توحيد

قواه مع سلاجقة الروم وامراء الشام والجزيرة قام بحملته المشهورة على

آسيا الصغرى بغية الاستيلاء على بلاد السلاجقة ، والتي أفضت الى

ال فشل وما ترتب على ذلك من انكسار الخلافت بينه وبين سلاجقة

الروم من ناحية ، وبين ملوك الشام الايوبيين من ناحية اخرى ، (٤)

(١) موغان : ولاية واسعة بها قرى ومروج بازريجان على يمين

القاصد من اردبيل الى تبريز وكانت منازل التركمان لسعة

رقعتها وكثرة عشبها ثم اتخذها التتر مشتاة وجلا عنها تركمانها

انظر القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ص ٥٦٤ .

(٢) ابن نطف : التاريخ المنصور ص ٢٣٢ - ٢٣٥ ؛ سبط ابن

الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٧٣ ؛ المقرئ : السلوك

ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة

ج ٦ ص ٢٧٨ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٤) انظر ما سبق ص ٣٦٢ - ٣٦٧ .

في وقت كان المسلمون في اشد الحاجة الى تجميع الصفوف وتوحيد القوى وتنقية النفوس لصد الخطر المغولي الداهم .

ومن الواضح ان المغول اتخذوا من موغان في اذربيجان قاعدة متقدمة لهم ، لوضع بلاد العراق والجزيرة والشام واسيا الصغرى تحت المراقبة الدائمة لرصد حركات القوى الاسلامية بها ومعرفة مدى قوتها واختبارها على الدوام عن طريق الفارات المتلاحقة لأن حكام المغول لم يقرروا في ذلك الحين اجتياح هذه البلاد بعد . وما يبرهن على صحة هذا الرأي ، تلك الفارات التي كان يقوم بها المغول على الجزيرة والعراق وتحاشيهم في بعض الاحيان الاصطدام بالجيش القوية ، مثلما حدث سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م عندما قطع المغول اعالي دجلة وكان السلطان الكامل قد فرغ لتوّه من استعادة الرها وحران من سلاجقة الروم ، وحين بلغ المغول نبأ وجوده بالجزيرة عادوا ادراجهم . (١) وفي سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م حاصروا اربل في شمال العراق ، فارسلت الخلافة العباسية العساكر لنجدها وأمرت بتحسين بغداد ، وعاث المغول في اربل وحاصروا قلعتها وحين بلغهم اقتراب عساكر الخليفة انسحبوا الى الشرق . (٢)

وداوم المغول الفارات على العراق سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م ففي صفر من السنة نفسها هاجموا اربل مرة اخرى وامتدت غاراتهم الى قرب بغداد ونهبوا السكان فأعلن الخليفة الجهاد ، واستطاع المسلمون

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٥١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم

الزاهرة ج ٦ ص ٢٩٣ .

(٢) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٩٨ - ٩٩ ؛ سبط ابن

الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٨٩٩ .

إنزال الهزيمة بالمفول قرب تكريت وأطلقوا سراح الأسرى المسلمين غير أنه لم يمض وقت طويل حتى عاود المفول شن الفارة على أعمال بغداد في رجب من سنة ٦٣٥هـ / مارس ١٢٣٨م وكان الخليفة في ذلك الوقت قد تلقى النجدة من بلاد الشام، ومع ذلك فقد انزل المفول الهزيمة بجيش المسلمين في الخانقين شمال شرق بغداد وقتلوا منهم أعدادا كبيرة وفر الباقون إلى بغداد (١).

وفي سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م وصل إلى ملوك الجزيرة والشام رسول تولي ابن جنكيز خان - شقيق أوكتاي خان المفول الأكبر - يأمرهم بالدخول في طاعته وهدم أسوار مدنها ويحذرهم من مغبة العصيان عليه (٢)، ورغم ذلك فقد ظل ملوك الشام والجزيرة وسلاجقة الروم منغمسين بدون وعي في منازعات لا تنتهي وكأنهم يمهدون بذلك لسقوط بلادهم بأيدي التتار (٣).

وفي سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م أقدم المفول على خطوة بالغة الخطورة عندما قرروا الاستيلاء على آسيا الصغرى، إذ أن ذلك يشير بوضوح إلى تصميمهم على الإطباق على بلاد الشام والجزيرة والعراق ومصر من جهتي الشرق والشمال. فقد زحف جيش مغولي كبير بقيادة بايجونويان إلى مدينة أرزن الروم في جنوب شرق آسيا الصغرى وحاصرها

-
- (١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ١٠٩ - ١١٣ ؛ ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٤٣٨ - ٤٣٩ ؛ الصياد : المفول في التاريخ ص ١٨١ .
- (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٥٥ - ١٥٦ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٤٢ .
- (٣) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٤٦ ؛ وانظر أيضا : ابن العديم زبدة الحلب ج ٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣١٠ .

حصارا شديدا ، ولكن واليها من قبل السلطان السلجوقي غياث الدين
كيخسرو الثاني ويدعى سنان الدين ياقوت صمد في وجوههم ودافع
عنها ببسالة فائقة حتى اقترب فصل الشتاء وأوشك المغول على الانسحاب
فاتصل بهم احد القادة الخونة داخل المدينة وكان يتولى حراسة
احد الابراج ، وبذل لهم تسليم البرج مقابل حصوله على الامان مع اهله
وامواله ، فوافق المغول على عرضه وتسلموا البرج منه واقتحموا مدينة
ارزن الروم فقتلوا الرجال والاطفال وسبوا النساء ونهبوا الاموال وجعلوا
البلد قاعا صفصفا (١) .

وشعر السلطان غياث الدين كيوخسرو الثاني بالخطر المحدق
بدولته فأرسل نائبه شمس الدين الى الجزيرة ، وسمى في الصلح بين
ملكة حلب والخورزمية والمظفر غازي بن العادل في محاولة لتوحيد
جهودهم جميعا ضد المغول ثم سار النائب شمس الدين مع عسكر حلب
الى بلاد الشام طالبا النجدة من الحلبيين ، فجردوا معه فرقة كبيرة
بقيادة احد الامراء ويدعى ابو المعالي ناصح الدين الفارسي ، وحين
وصل عسكر حلب الى اسيا الصغرى استقبله السلطان غياث الدين كيوخسرو
الثاني وخلع على افرادهم واكرمهم وضمهم الى عسكره ، وشرع في التآهب
لمواجهة المغول (٢) .

(١) المولوى : صحايف الاخبار ورقة ٥٨٢ ؛ وانظر ايضا :

The Cambridge Medieval History , Vol.IV, p.748؛

The Cambridge History of Islam p.249.

)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٧-٢٦٨ ؛ ابن واصل :

مفج الكروب ج٥ ص ٣١٤ ، ٣٢٦-٣٢٧ ؛ ابو الفدا : المختصر

ج٣ ص ١٧١ .

وسار السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني بقواته والتقى
بقائد المغول بايجونويان في مكان يسمى كوسه طاغ (اى الجبل
الاقرع) قرب توقات سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م ودارت المعركة ، فحلت
الهزيمة بالسلطان غياث الدين وقتل اكثر عسكره وامراه ، وغنم المغول
ما معهم من الاموال والاثقال . (١)

اما السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني فقد هرب عقب
المعركة الى توقات ومنها الى قونية ، ثم سار الى سيواس ولجأ الى
قاضيهما نجم الدين القيرشهرى الذى كان قد تقرب الى جنكيز
خان حين استولى على خوارزم وحصل منه على توقيع بالامان فسلم
التوقيع للقائد بايجونويان ، فقبله ووضع على رأسه اجلالا واحتراما للمؤسس
امبراطورية المغول ، واجاب القاضي ببذل الامان لاهل البلد على ارواحهم
على شرط ان ينهب المدينة ثلاثة ايام . ثم تقدم المغول الى قيساريه
فنهبوها وأبادوا سكانها اما السلطان كيخسرو الثاني فقد فر الى غرب
اسيا الصغرى ، ثم أذن عن سلاجقة الروم للمغول وقد موأ لهم الاتاوة السنوية
رمزا للخضوع والتبعية . (٢)

(١) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٨٣ أ ؛ الخطيب العمري :
الدر المكون ورقة ١٣١ أ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣
ص ٢٦٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٢٧ ؛ ابن ابيك :
كنز الدرر ج ٧ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ؛ فؤاد الصياد : المغول في
التاريخ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٨٣ ب - ٥٨٤ أ ؛ وانظر
ايضا الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٤٧ ، الباز المعري : المغول ص ١٧٨ -
١٧٩ ؛ الصياد : المغول في التاريخ ص ١٨٣ ؛
The Cambridge Medieval History Vol.IV,
pp.748-749, The Cambridge History of Islam
p. 211.

وكان لهزيمة سلاجقة الروم على أيدي المغول اثار بعيدة المدى على تاريخ بلاد الشام ، فقد عادت فلول النجدة الحلبية بقيادة ناصح الدين الفارسي الى حلب " في أسوأ حال " وثار التركمان في اطراف بلاد الشام وأسيا الصغرى يعيشون نهبا وفسادا ، كما استولت المغول " على آمد و خلاط و بلادهما " (١) كما هاجر الى بلاد الشام أعداد كبيرة من سكان اسيا الصغرى " فاضطرب الشام لذلك اضطرابا كثيرا " (٢) .

وذكر بعض المؤرخين أن أحد قادة المغول ويدعى يسارنوين غزا بلاد الشام عن طريق آسيا الصغرى سنة ١٢٤٣م / ٦٤١هـ ووصل الى حيلان قرب حلب ثم عاد منها " لحفي اصاب خيول المغول " كما نجم عن غارات المغول هذه اثار سيئة على الحياة الاقتصادية بشمال بلاد الشام واسيا الصغرى " وأتحتت البلاد بعد ترحال التتار " وانتشرت الوبئة وهلك الكثير من الخلق " وباع الناس اولادهم باقراص الخبز " (٣) .

والحق ان سيطرة المغول على اسيا الصغرى المتاخمة لحدود بلاد الشام الشمالية جعل تلك البلاد في متناول المغول متى ما اتخذوا القرار بفرضها .

واذا كانت بعض فرق المغول قد أغارت على أطراف بغداد

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٢٣ ؛ وانظر ايضا ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ٢٦٩ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٢٥ .
- (٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٤٦ ؛ وانظر ايضا ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج٣ القسم الثاني ص ٤٧٢ .

سنة ٦٤٣هـ / ١٤٢٥م^(١) وعلى بعض مناطق الجزيرة سنة ٦٥٠هـ /

١٢٥٢م^(٢) ، فانه من الواضح ان هدف تلك الفارات اختبار قدرات

القوى الاسلامية في هذه المناطق تمهيدا للفتوة الكبرى التي قادها

هولاكو . وفي سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م جهز خان المغول منكوقاآن

جيشا مغوليا ضخما واستد قيادته الى اخيه هولاكو خان وأمره بالمسير

غربا للاستيلاء على منطقة الشرق الادنى الاسلامي ، وتمكن هولاكو فني

سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م من الاستيلاء على قلاع الاسماعيلية في غرب

ايران وقضى على تلك الطائفة قضاء مبرما^(٣) .

ثم تقدم هولاكو بجحافل المغول الى بغداد وهزم جيش الخليفة

العباسي الضعيف ، وحاصر بغداد فاستسلم الخليفة المستعصم لهولاكو

واقترح المغول بغداد في المحرم ٦٥٦هـ / فبراير ١٢٥٨م وقام المغول

بارتكاب مذبحه رهيبة دامت اربعين يوما وراح ضحيتها اكثر من

ثمان مئة الف نسمة من المسلمين ، اما الخليفة فقد قتله المغول ونهبوا

بغداد نهبا شنيعا ودمروا كنوز الحضارة الاسلامية في مختلف الاداب

والفنون ، لتدخل بلاد الشرق الادنى بسقوط الخلافة العباسية حقبة

(١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ١٩٩-٢٠٠ ؛ ابن كثير:

البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٨ .

(٢) ابن حبيب : درة الاسلاك ورقة ٥٤ ؛ سبط ابن الجوزي :

مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٨٧ ؛ ابن شداد : الاطلاق الخطيرة

ج ٣ ص ٤٧٦ ؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٢٦٠-

٢٦١ ؛ الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ١٥٦ ؛ عماد الدين

خليل : الامارات الارتقية ص ٣٢٣-٣٢٤ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ، المجلد الثاني ج ١ ص ٢٣٤-

٢٥٨ ؛ المعري : المغول ص ٢٠٧-٢١٢ .

جديدة في تاريخها (١) .

اما عن موقف بلاد الشام من غزو المغول للعراق والقضاء على الخلافة العباسية وتدمير مدينة بغداد ، فقد اصبحت بلاد الشام منذ زمن بعيد نهبا للفوضى والانقسام ، وكان ملكها الناصر يوسف منغمسا في نزاع لا ينتهي مع المماليك في مصر ، ومع المقيث عمر صاحب الكرك ، ومع طائفة المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس والذين كانوا قد فروا الى الشام منذ سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م (٢) .

وقد اتضح من موقف الناصر يوسف - صاحب دمشق وحلب - ازاء المغول انه لم يكن مدركا لابعاد الخطر المغولي وطبيعة المرحلة القادمة ولذلك جاءت مواقفه متناقضة ، وقد ظهرت تناقضه هذا لهولاكو حتى قبيل غزو الاخير للعراق (٣) . وذكر المؤرخون أنه بعث ابنه العزيز محمد الى هولاكو بهدايا سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م (٤) ،

-
- (١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٣٢٣-٣٣١ ؛ ابو شامة :
ذيل الروضتين ص ١٩٨ ؛ ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٣ -
١٩٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٠-٢٠٣ ؛ ابن
تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٧ - ٥٣ ؛ الديار بكرى :
تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس ج ٢ ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ؛
الصياد : المغول في التاريخ ص ٢٤٩ - ٢٧٠ ؛ العريني :
المغول ص ٢١٣-٢٢٠ .
- (٢) انظر ما سبق الفصل الثاني ، ص ٢٠٥-٢٢١ .
- (٣) رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١
ص ٣٠٥ .
- (٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٤٥ ؛ ابن تغرى بردى :
النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٦ ابن نصر الله : شفا القلوب ص ٤١٦ .

ويضيف المقرئ أن العزيز طلب على لسان أبيه من هولاكو أن يبعث معه نجدة لينتزع مصر من أيدي المماليك^(١) . وبعد سقوط بغداد وبداية زحف المغول إلى الجزيرة قاصدين بلاد الشام ، وبعد أن تلقى الناصر يوسف رسالة هولاكو^(٢) ، بعث بالمؤرخ ابن العديم إلى المماليك في مصر طلباً للمساعدة ضد المغول^(٣) .

والحق أن تخاذل ملوك وحكام بلاد الشرق الأدنى وتفرق كلمتهم قبيل الغزو المغولي هو الذي مهد الأرض الخصبة لنجاح غزو المغول ، وقد عبر عن ذلك أحدهم عندما قال : " والله ما خرجت البلاد عن أيدينا إلا بتخاذل بعضنا عن بعض فلو كانت الكلمة مجمعة لم يجر علينا ما جرى " .^(٤)

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى وعي ركن الدين بيبرس قائد طائفة المماليك البحرية الذي كان مدركاً تمام الإدراك لابعاد الغزو المغولي ومخاطره ، يدل على ذلك موقفه حين طلب من الناصر يوسف سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م أن يقدمه على رأس أربعة آلاف فارس " أو يقدم عليهم غيره " ويمضى بهم إلى شط الفرات الغربي لحراسته ومنع المغول من إقامة الجسور والعبور إلى بلاد الشام ، ولما رفض الناصر يوسف طلبه

- (١) المقرئ : السلوك ج١ ص ٤١٠-٤١١ .
- (٢) انظر نص رسالة هولاكو إلى الناصر يوسف في ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٤٨٤ - ٤٨٥ ؛ المقرئ : السلوك ، ج١ ص ٤١٥-٤١٦ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧٥٠-٧٥٢ .
- (٣) أبو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٩٩ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ٤١٦ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٧٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢١٥ .
- (٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٣٤٤ .

عمد بيبرس الى مراسلة سيف الدين قطز . وقرر الانضمام اليه ،
وتناسي الخلافات مع زملائه ماليك مصر ، وسار اليها وانضم الى قطز
ولعب دورا حاسما وهاما كما هو معروف في صد خطر المغول في
معركة عين جالوت (١) .

وجدير بالذكر هنا ان تشير الى مشاركة النصارى من الأرمن
والكج للمغول في غزو بغداد ، كما تمتع النصارى من سكان بغداد
بعطف المغول وذلك بايعاز من دوقوزخاتون زوجة هولاكو النصرانية (٢) .
والحق انه لا يمكننا الحديث عن خطر المغول دون الاشارة
الى محاولات زعماء الصليبيين في غرب اوربا لاقامة تحالف صليبي
مغولي للقضاء نهائيا على المسلمين في بلاد الشام . فقد اشرنا الى
الدور الذي لعبه هيثوم الاول ملك أرمينية الصفري ومحاولته التحالف مع
المغول . اما الغرب الاوربي فقد أدرك منذ النصف الاول من القرن
السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي مدى قوة المغول وخطرهم
وجيروتهم حين وصلوا بجحافلهم حدود المانيا ، وهددوا اوربا بقوة ،
ورأت البابوية الافادة من حركة المغول الذين لم يعارضوا بعثات التبشير
بينهم ، فسعت البابوية جاهدة لاقامة تحالف مغولي صليبي ضد
المسلمين في بلاد الشام ومصر (٣) .

- (١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٠٠-١٠١ .
- (٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٦٧ .
- (٣) جوائيل : القديس لويس ، مقدمة المترجم ص ١٧-١٨ .

فقد اوفد البابا انوسنت الرابع (٦٤٠-٦٥٢هـ/١٢٤٢-١٢٥٤م)

سفارتين الى بلاط خان المغول يدعوهم الى اعتناق المسيحية ، غير
ان خان المغول طلب من البابا وجميع زعماء الغرب الاوربي إعلان
خضوعهم له ودخولهم في طاعته واعترافهم بسيادة المغول^(١) .

وحين كان لويس التاسع في قبرس ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وهو في طريقه

لفزو مصر تلقى سفارة من نائب خان المغول على فارس ، وعرضت تلك
السفارة استعداد المغول لعقد تحالف مع لويس التاسع وغزو الاراضي
المقدسة وانتزاع بيت المقدس من المسلمين . فبادر لويس التاسع الى إرسال
سفارة من قبله الى خان المغول وحملها بالهدايا القيمة للخان المغولي ،
وهدف منها الى اجتذاب خان المغول الى المسيحية^(٢) . ويبدو أن
تلك السفارة لم تحقق هدفها بسبب رغبة خان المغول في اخضاع جميع
الملوك المعاصرين له ما جعل لويس التاسع يتطلع الى محالفة مغول
روسيا فارسل سفارة اخرى اليهم ، ولكنهم بعثوا برسالتهم الى خان المغول
في قراقورم والذي اشترط اعتراف لويس التاسع بالتبعية للمغول^(٣) .

وهكذا فشلت جهود الغرب الاوربي في اقامة تحالف صليبي
مغولي كامل ضد المسلمين باستثناء الدور الذي لعبه هيثوم ملك أرمينية
الصفري الذي شارك في هجوم المغول على بلاد الشام ولم ينجح سوى

(١) جوانفيل : القديس لويس ، مقدمة المترجم ص ١٨ ؛ سعيد عاشور :

الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٧ ؛ رنسيان : الحروب الصليبية
ج ٣ ص ٤٤٦ .

(٢) جوانفيل : القديس لويس ص ٨٤-٨٦ ؛ حسن حبشي : الشرق

المعربي بين شقي الرحى ص ٣٦-٣٧ ؛ سعيد عاشور : الحركة
الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٨ .

(٣) سعيد عاشور ، المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٤٨-١٠٤٩ .

في اجتذاب بوهيمند السادس صاحب انطاكية ، اما بقية الصليبيين في بلاد الشام فقد تقاعسوا عن اجابة هيثوم الى طلبه^(١) . وكان ذلك من حسن حظ المسلمين اذ لو تحالف الصليبيون جميعا في بلاد الشام مع المفلول لهددوا مؤخره جيش المماليك ولما تحقق للمسلمين النصر في عين جالوت .

The Cambridge History of Islam pp.211-212

(١)

وانظر ما سبق ص ٤٠٢ - ٤٠٥ .

الفصل الحادي عشر

أحكام النذور والضمان في يهود الشام

الفصل الخامس

اهم مظاهر التطور الحضارى في بلاد الشام

- الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي :
- دور ملوك بني أيوب في ازدهار الحركة الفكرية
 - أهم المدارس في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي
 - علوم الشريعة
 - علوم العربية (النحو واللغة ، والشعر والأدب
 - الفلسفة
 - الدراسات الطبيعية (الطب والصيدلة ، والرياضيات ، والفلك)
- اهم ملامح الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي :
- (الزراعة ، الصناعة ، التجارة)
 - (اهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة)

((الحياة العلمية في بلاد الشام))

((قبيل الغزو المغولي))

على الرغم مما شهدته بلاد الشام من حوادث سياسية متشابكة تناولها البحث مفصلة في الفصول السابقة ، فإن ما يسترعي الانتباه التطور العلمي والانتاج الفكري الكبير الذي شهدته بلاد الشام خلال هذه الحقبة .

والحق أنه لا يمكن تتبع الحركة العلمية في بلاد الشام بصورة مفصلة خلال هذه الفترة ، نظرا لما شهدته بلاد الشام من مئآت المدارس في مختلف بلدان الشام ولما ظهر فيها من علماء كثيرين . كما أن الايغال في شرح هذا الموضوع يحتاج الى مجلدات الامر الذي يطفى على موضوع الرسالة الذي نقوم بدراسته وبالتالي فسوف يقتصر البحث على رصد اهم السمات العامة للحركة العلمية والتأريخ لها ولا هم مظاهرها وفي ذلك دلالة كافية على المدى الذي بلغته الحركة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي .

دور ملوك بني أيوب في ازدهار الحركة الفكرية :

من الحقائق المسلم بها في تاريخ الحضارة الاسلامية ، أنه كان للملوك والحكام والخلفاء ورجال الدولة اكبر الأثر في ازدهار الجانب الحضارى ، ولا سيما الحياة العلمية ، وذلك لما ابدوه من تشجيع دائم للعلماء وطلاب العلم ، فأنشأوا لهم المدارس وزودوها بالمكتبات وأجروا على كل ذلك الجرايات والاوقاف .

وكان لملوك بني أيوب ورجال دولتهم دور بارز في ازدهار الحياة العلمية في بلاد الشام ، فالملك الأفضل بن صلاح الدين الذي

خلف والده في حكم دمشق كان قد تلقى العلم على كثير من العلماء
بالاسكندرية وبلاد الشام ومنحه بعضهم الاجازة^(١) ، كما اشتهر
بحسن الخط وجماله ، وكان له شعر جيد ينم عن سعة علمه وكثرة
اطلاعه ، وهذا ما دفعه الى تعظيم العلماء وتقريبهم^(٢) .
وأنشأ الافضل مدرسة بالقدس هي الافضل وجعلها خاصة
بتدريس المذهب المالكي وأوقف عليها الاوقاف ، وظلت قائمة طوّل
العصرين الايوبي والملوكي^(٣) .

ولا يقل عنه اخوه الظاهر صاحب حلب في العناية بالعلم
والعلماء ، فقد تلقى هو الآخر علومه بالاسكندرية ودمشق وحصل على
الاجازة من كبار العلماء المصريين والشاميين^(٤) . وحين اصبح ملكا
على حلب جعل دولته معمورة بالعلماء ، فقرب اليه قادة الفكر ، مثل
القاضي بها الدين بن شداد وغيره من الفقهاء ، واجاز الشعراء

(١) الاجازة لغة : مصدر اجاز بمعنى أذن ، وفي الاصطلاح اذن
وتسويغ اتخذه علماء الحديث بأن يأذن الثقة منهم او المحدث
لغيره بأن يروى عنه حديثا او كتابا ونحوه ، انظر الفيروزابادي
: القاموس المحيط ج ٢ ص ١٧٠ ؛ دائرة المعارف الاسلامية ج ١

ص ٤٣٣ .

(٢) سبط ابن العجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب لوحة ٢٣ ؛
ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٣ ص ٤١٩ ؛ ابن واصل : مفرج
الكروب ج ٣ ص ٣٧-٣٨ ؛ ابن سعيد : النجوم الزاهرة في
حلي حضرة القاهرة ص ٢٠١-٢٠٢ ؛ الزبيدي : ترويح القلوب
ص ٦٩ .

(٣) مجير الدين العليمي : الاتسار الجليل ج ٢ ص ٤٦ ؛ محمد كرد
علي : خطط الشام ج ٦ ص ١٢٢ ؛ عبد الجليل حسن :
المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والملوكي ج ١
ص ٣٣٦-٣٣٩ .

(٤) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ج ٢ ص ٣٦٨ .

والأدباء بالهدايا والصلات كما ارتفعت مكانة بيوت العلم في دولته
مثل بنى القيسراني وبنى العجمي وبنى الخشاب وغيرهم من الأسر
العريقة ذات الباع الطويل في ميدان العلم والمعرفة (١).

أما المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧ هـ)
ملك حماه فقد كان عالما جليلا ، يحب العلم والعلماء وأهل الأدب والشعر،
وكان يتوق على الدوام الى أن يكون في مملكته طائفة كبيرة من العلماء
في شتى فروع الأدب ، الأمر الذي أغرى الكثير من العلماء بالقدوم عليه
والعيش في كنفه لما وجدوه عنده من تشجيع بالغ لهم وعناية فائقة
بصحبتهم . وذكر المؤرخون أنه كان يعيش في بلاطه زهاء مائتي
عالم من الفقهاء والنحاة واللغويين والفلاسفة والمهندسين وعلماء الفلك
والشعراء وغيرهم ، وقد فرض لهم جميعا الجرايات والرواتب (٢).
ومن الذين وفدوا على الملك المنصور من العلماء الشيخ الامام
سيف الدين ابوالحسن الامدي ، وحين وصوله الى حماه استقبله وبنى له

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٧٩ ؛ ابوشامة :
ذيل الروضتين ص ٩٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص
٦-٩ ؛ ابن العميد : اخبار الايوبيين ص ١٣٠ ؛ النعماني :
الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٤٢-٣٤٣ ؛ ابن تغري
بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢١٧-٢١٨ ؛ ابن العماد :
شذرات الذهب ج ٥ ص ٥٥-٥٦ .
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٧٧-٧٩ ؛ ابوشامة : ذيل
الروضتين ص ١٢٤ ؛ ابوالفدا : المختصر ج ٣ ص ١٢٦ ؛ ابن
ايبك : كنز الدرر ج ٢ ص ٢٦٣ ؛ ابن شاکر الكتبي : فوات
الوفيات ج ٤ ص ١٢ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة
ج ٤ ص ٢٥٠ .

المدرسة المنصورية وأجرى له الراتب المجزى ووظب على حضور مجلسه
والاشتغال عليه في جميع الفنون (١) .

وكان المنصور نفسه " عالما بالسير والتواريخ وعلم الكلام " (٢)
وقد انعكس ذلك على انتاجه العلمي فصنف كتابا ضخما في التاريخ
العام سماه " مضمار الحقائق وسر الخلائق " في نحو عشرين مجلداً (٣) ،
كما صنف كتابا آخر في طبقات الشعراء ، وكان المنصور شاعرا متمكنا . (٤)
وكان له ايضا عناية فائقة بالكتب فجمع في خزائنه الكثير منها في شتى
انواع العلوم " وكان يكثر مطالعة الكتب ومراجعتها واستحضار العلماء والبحث
معيهم " (٥) .

اما رجل بني ايوب في ميدان الحياة العلمية " وعالمهم بلا
مدافعة " فهو الملك المعظم عيسى بن العادل ملك دمشق (٦) . وكان
قد تلقى علومه منذ الصغر بمصر والشام على ايدي كبار العلماء والفقهاء (٧) ،
حتى اصبح عالما ضليعا في عدة علوم ، يأتي في مقدمتها الفقه على

-
- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٧٨ ؛ ابن ايبك كنز
الدرر ج٧ ص ٢٦٣ .
- (٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ٩٠ .
- (٣) كتاب المضمار مفقود اكثره ولم يبق منه الا جزء واحد نشره حسن
حبشى بالقاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- (٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٧٨-٨٦ ؛ ابن ايبك : كنز
الدرر ج٧ ص ٢٦٤ .
- (٥) ابن واصل : نفسه ج٤ ص ٨٠ .
- (٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٦٨ .
- (٧) المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ج٣ ص ٢١٢ .

مذهب الامام ابي حنيفة إذ داوم الاشتغال بمذهبه حتى أصبح
 متميزا فيه (١) . ومن الطريف انه التزم بالمذهب الحنفي في الوقت
 الذي كان فيه ملوك بني ايوب على المذهب الشافعي حتى أن والده
 السلطان المعادل سأله ذات مرة قائلا : " كيف اخترت مذهب ابي
 حنيفة وأهلك شافعية ؟ " فاجابه على سبيل المدحمة : " ياخوند أما
 ترضون ان يكون فيكم رجل واحد مسلم ؟ " (٢) وبلغ اهتمامه بمذهبه
 حدا جعله يأمر الفقهاء ان يجردوا له مذهب ابي حنيفة في كتاب واحد ،
 فجردوه له في عشر مجلدات ، فسماه التذكرة وصار " لا يفارقه سفرا ولا حضرا "
 واخذ في مطالعته ودراسته حتى استوعبه وكتب على ظهر كل مجلده "
 أنهاء حفظا عيسى بن ابي بكر بن ايوب " فقال له صديقه المؤرخ سبط
 ابن الجوزي : " ربما يؤخذ هذا عليك وانت مشغول بتدبير
 الممالك وتكتب خطك على عشر مجلدات أنك حفظتها " فقال له
 المعظم " ليس الاعتبار بالالفاظ وانما الاعتبار بالمعاني . . . فاسألوني
 عن جميع مسائلها فان قصرت كان الصحيح معكم والا فسلعوا لي
 ما قلت " (٣) .

- (١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧ ب ؛ الجنابي :
 البحر الزاخر ج ٢ ورقة ١٩ ب ؛ العليني : المعبر في انباء
 من غير ورقة ١٧٥ أ ؛ ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٧١ ؛
 اليافعي : مرآة الجنان ج ٤ ص ٥٧ - ٥٨ ؛ ابن طولون :
 القلائد الجوهريّة ص ١٤٣ - ١٤٤ .
- (٢) ابن واصل : مغز الكروب ج ٤ ص ٢١١ ؛ المقرئ : السلوك
 ج ١ ص ٢٢٤ .
- (٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٧ ؛ وانظر ايضا :
 الصفدي : تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥١ ب ؛ القرشي :
 الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج ١ ص ٤٠٢ ؛ ابن طولون :
 القلائد الجوهريّة ج ١ ص ١٤٣ .

وحينما وقف المعظم على تاريخ بغداد لمؤلفه ابي بكر احمد ابن ثابت البغدادي وجد فيه مطاعن على ابي حنيفة رواها الخطيب عن جماعة من المحدثين ، فقام المعظم بتحقيقها وبيّن بطلانها وصنف في ذلك كتابا سماه (السهم المصيب في الرد على الخطيب) وردّ فيه على جميع المطاعن التي اوردها الخطيب عن ابي حنيفة وضمن كتابه هذا مباحث قيمة في الفقه والنحو ، وتتبع سيرة الخطيب حتى روى له اشعارا جرحه بها . وقد ذكر المؤرخ ابن واصل انه رأى هذا الكتاب بالقدس ، فطالعه فوجده في " غاية الحسن " (١)

ولم يقتصر تفوق المعظم بالفقه فحسب ، بل برز ايضا في علوم النحو والادب واللغة ، وكان استاذه فيها الشيخ تاج الدين ابو اليمان ابن الجحسن الكندي عالم النحو المشهور ، وقد قرأ المعظم على يديه كتاب سيبويه ، وكتب عليه خطه في عدة مواضع يقول في بعضها : " أتمت هذا الكتاب مطالعة ومراجعة ، وانا بمدينة ارسوف " ويقول في موضع آخر : " أتمت مطالعة ومراجعة وأنا بنابلس " (٢) ما يشير الى اهتمامه الفائق بطلب العلم حتى اثناء تنقله بين بلدان مملكته وجهاده للصليبيين .

كما اهتم المعظم ايضا باللغة وأمر أن يُجمع له كتاب جامع في اللغة يتضمن كتاب " الصحاح للجوهري " ويضاف اليه ما فات الصحاح من التهذيب للأرموي والجمهرة لابن دريد على أن يُبوب الكتاب بحيث

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢١٢ ، وانظر ايضا : ابن

نصر الله : شفا القلوب ص ٢٧٦ .

(٢) ابن واصل : المصدر نفسه ج٤ ص ٢١٠-٢١١ .

يصبح كل قول وحديث في الباب الذي يقتضي معناه مثل باب الطهارة ،
وباب الغزوات ، والتفسير ، وغير ذلك ليصبح كتابا جامعا .^(١)

واعتنى المعظم بالعلوم الاخرى فدرس القراءات والا حاديث
وانكب على قراءة أمهات الكتب المختصة بهما ، كما اهتم بالعروض وكان
له ديوان شعر .^(٢)

وكان من الطبيعي لحاكم هذه ثقافته وسعة اطلاعه أن يصبح
بلاطه مرتعا خصبا للعلم والعلماء " ونفق العلم في سوقه " كما يقول
ابن الاثير ، فقصده العلماء من سائر الافاق فأكرمهم واجرى عليهم الجرايات
الوافرة وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم^(٣) . وبلغ من حرصه على
اجتذاب العلماء الى بلاطه ان كان يرأسلهم ويطلب منهم القدوم اليه ،
ومن ذلك على سبيل المثال انه ارسل في سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م رسالة
الى سالم بن واصل - والد المؤرخ المشهور - يطلب حضوره من حماء
الى دمشق ، فسافر صحبة ابنه جمال الدين محمد الى دمشق فأكرمهما
المعظم غاية الاكرام ، وشاهد المؤرخ ابن واصل من اهتمام المعظم
بالعلم ما آثار دهشته فكان " يحاضر الفقهاء والعلماء ويباحثهم
في دقائق العلوم " .^(٤)

وكان المعظم يحث طلاب العلم على الاشتغال بجد ونشاط
فخصص لهم المكافآت وأعلن أن من حفظ الجامع الكبير في الفقه الحنفي

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٧١ ؛ ابن كثير : البداية

والنهاية ج ١٣ ص ١٢١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٦٧ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٧١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٤١ .

لأبي الحسن بن عبيد الله الكرخي فله مئة دينار ومن حفظ الايضاح
في النحو لا بي علي الفارسي فله جائزة اخرى قدرها مائتا دينار ،
وقد حفظ الكتابين جماعة من طلبة العلم فاعطاهم المكافآت التي وعدهم
بها (١) .

وقد عاش في بلاط المعظم طائفة كبيرة من العلماء والادباء
وكانوا لا يفارقونه حتى في اسفاره ، ومنهم - على سبيل المثال - فخرالقضاة
نصر الله بن بركة المصري الاديب البار وصاحب النظم والرسائل . وشرف
الدين بن عنين الشاعر المشهور ، وجمال الدين بن شيث كاتب الانشاء
وكان اديبا جيد الترسل له معرفة قوية بعلم الكيمياء وغيرهم ممن
العلماء الافاضل (٢) .

كما اسهم المعظم بقسط وافر في ازدهار الحياة العلمية عن
طريق انشاء المدارس ومنها المدرسة المعظمية بعاصمته دمشق ،
والتي انشأها سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م حيث تولى التدريس
بها عدد من العلماء المشهورين (٣) . واكمل بناء مدرسة والده بدمشق
وأوقف عليها الاوقاف ودفن والده بها ونسبها اليه (٤) . وبني بالقدس

(١) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٧ ب - ١٨ أ ؛ الصفدي :

تحفة ذوى الالباب ورقة ١٥٢ أ ب ؛ سبط ابن الجوزي :

مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٤٧ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص

٢٧٦ - ٢٧٧ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهريّة : القسم الاول

ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٢١٤ - ٢١٧ .

(٣) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ٢ قسم تاريخ مدينة دمشق

ص ٢٢٠ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٥٧٩ .

(٤) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ٢ قسم دمشق ص ٢٤٠ ، التميمي :

الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٥٩ .

مدرسة الحنفية عند باب المسجد الأقصى ، وبنى على آخر صحن
الصخرة من جهة القبلة مدرسة أخرى تسمى النحوية والمعظمية ، وخصصهما
لتدريس علوم العربية واقف عليها الاوقاف الحسنة (١) .

ومن ملوك بني ايوب الذين لعبوا دورا بارزا في ازدهار الحياة
العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي الملك الأمجد بهرام شاه
صاحب بعلبك ، وكان قد نشأ في دمشق وتلقى العلم على كبار علماء
عصره ، وأفاد من العلماء الذين كانوا يدرسون في مدرسة والده المعروفة
باسم المدرسة الفروخ شاهية مثل الشيخ تاج الدين الكندي عالم
النحو الشهير (٢) . وبعد أن آلت الى الامجد ملكة بعلبك اظهر
عناية فائقة بعلوم عصره ، وصار يحب العلماء والشعراء وأهل الأدب
ويمنحهم الجوائز الكثيرة . وغدا الامجد شاعرا فحلا ، ويعتبر من اشعر
ملوك بني ايوب على الاطلاق وله ديوان شعر مطبوع ، ويتميز شعره بالجودة
والابداع ويقف على قدم المساواة مع شعراء عصره المجيدين (٣) .

وقد مدح الشعراء الملك الأمجد وقصده من بلاد الشام
لينالوا جوائزه ، ولأزمو خدمته ، ومن وفد اليه ومدحه الشاعر شرف
الدين بن عنين ومن الذين لازمو خدمته والعيش في كنفه الشيخ
الأديب شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن ،

(١) العليمي : الأنس الجليل ج١ ص ٤٠٣ ؛ العمري : مسالك

الابصار ج١ ص ٣٥٩ ؛ عبد الجليل حسن : المدارس في بيت

المقدس ج١ ص ٣٥١ .

(٢) ديوان الامجد : مقدمة المحقق ص ٢٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ؛ الكتبي :

فوات الوفيات ج١ ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

كما رافقه مذهب الدين ابواسعد النحوي الضرير وكان عالما بالعربية وله فيها مؤلفات مشهورة. (١)

كما قرب الامجد اليه كبار الاطباء ، بل واسند منصب الوزارة الى الطبيب المشهور مذهب الدين بن ابي سعيد بن خلف السامري ، وولي منصب الوزارة بعده الى امين الدولة ابي الحسن بن غزال بن ابي سعيد وكان عالما بالطب ايضا (٢) . وكل ذلك يشير بوضوح الى اهتمام الامة بالعلماء وتقديره لهم وتفضيلهم بالمناصب حتى على المحترفين في ميدان السياسة والادارة .

اما الناصر داود بن المعظم عيسى فقد كان من الطبيعيين ان يتأثر بحكم نشأته بوالده المعظم العالم القدير ، فنشأ في حياة والده ملازما للاشتغال بالعلوم في شتى فروعها " ومشاركاً في كثير منها وحصل منها طرفاً جيداً " وسمع بالشام والعراق على ايدي كبار العلماء وحصل على الاجازة العلمية من بعضهم (٣) . وقد حرص على اجتذاب كبار علماء عصره ان يذكر ابن واصل أنه ارسل في سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م رسالة الى والده بحماه يستدعيه الى الكرك ، فسافر ابن واصل مع والده ووصلا الى الكرك في اوائل سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م فاحسن الناصر داود اليهما " وشاهدنا ملكاً ذا فضل باهرو علم زاخراً " (٤) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٩١ - ٢٩٣ .

(٢) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٧٢١ - ٧٢٣ ؛ ديوان

الملك الامجد ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٢٧ ؛ وانظر ايضا ،

ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص ٢٧٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٣٣٠ .

واستدعى الناصر علماء آخرين ليعيشوا في كنفه ومنهم شمس الدين الخسرو شاهي وغيره لأنه " أحب ان يكون عنده جماعة من أهل العلم يستأنس بهم " (١) .

ولقد كان تقديره للعلماء عظيماً حتى انه كان يتردد الى شمس الدين الخسرو شاهي ليقراً عليه عيون الحكمة للشيخ ابن سينا ، وكان اذا وصل الى قرب منزل الشيخ الخسرو شاهي يأمر اتباعه ومالكيه بالوقوف مكانهم ثم يترجل بنفسه حاملاً كتابه تحت ابطه ويتقدم الى باب الشيخ ويدخل عليه ويسأل عما خطر له ثم يعود ادراجـه " ولم يمكن الشيخ من القيام له " (٢) .

وكان الناصر داود شغوفاً بالمناقشات العلمية وعقد المناظرات مثل ذلك المجلس الذي عقده بالكرك سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م عندما وفد عليه عمه السلطان الكامل ودارت المناقشات وانضم علماء الناصر داود الى الكامل لانهم شافعية مثله وبقي الناصر بمفرده وتصدى لهم جميعاً خلال النقاش لأنه ينتمي الى المذهب الحنفي الذي كان عليه والده (٣) .

ويعتبر الناصر داود شاعراً مشهوراً ، وقد وضع ابن واصل في المرتبة الثانية بعد الملك الأجد ، في ترتيبه لشعراء بني ايوب (٤) .

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٤٠ .

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٤ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٠٢ ؛ ابن واصل : مفرج

الكروب ج ٥ ص ١٤ .

(٤) ابن واصل : المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

وما ورد من نماذج لشعره يدل على انه كان شاعرا متمكنا ويتميز شعره
بجزالة اللفظ وجمال المعنى وقوة السبك وجمال الصورة (١)

ولن يتعرض البحث لدور جميع ملوك بشي ايوب الذين حكموا
بلاد الشام قبيل الفزو المفعولي ، ويكتفى بما ورد من امثلة على دورهم
في ازدهار الحياة العلمية . غير انه جدير بالذكر هنا دور بعض العلماء
الافاضل الذين خدموا الدولة الايوبية في بلاد الشام وتقلدوا مناصب
هامية وكان لهم دور بارز لا يحصى في تطور الحياة العلمية وازدهارها .
واشهر هؤلاء العلماء واعمقهم اثرا في الحياة العلمية ، القاضي
بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشهير بابن شداد ، وكان قد تلقى
علومه الاولى في مسقط رأسه الموصل ، فحفظ القرآن الكريم ، و تلقى
علوم الحديث والتفسير والقراءات والادب على ايدي كبار شيوخه ،
ثم رحل في سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م الى بغداد مركز الحضارة الاسلامية
في ذلك الحين ، وتعين معيدا بالمدرسة النظامية لمدة اربع سنوات ثم
عاد الى بلاده ، واصبح مدرسا بالمدرسة التي انشأها القاضي كمال الدين
ابو الفضل محمد بن عبدالله الشهرزوري ولازم الاشتغال معه والانتفاع
بعلمه مع غيره من العلماء (٢) .

(١) انظر نماذج من شعره في ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٠٢ -

١٠٦ ، ٣١٨ - ٣٢١ ، ٣٥٥ - ٣٥٧ ، ٣٦٤ - ٣٦٨ ؛

اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ١٤٨ - ١٧١ ؛ وانظر

مايلي ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٧ ص ٨٤ - ٨٧ ؛ السبكي :

طبقات الشافعية ج ٨ ص ٣٦٠ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية

مقدمة المحقق ص ٣ ، بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٦

وفي سنة ٨٣٥هـ / ١١٨٨م حج ابن شداد ، وفي طريق عودته قرر زيارة بيت المقدس ، وحين سمع صلاح الدين بقدومه طلب مقابلته وأكرم وفادته وسمع منه الحديث وطلب منه البقاء معه واسند اليه قضاء عسكره وقضاء بيت المقدس . وظل ملازماً لصلاح الدين حتى وفاة الأخير سنة ٨٩٥هـ / ١١٩٣م .^(١)

وقد صنف ابن شداد العديد من المؤلفات القيمة وهي :
(٢) (دلائل الحكام عند التباس الاحكام) ويتعلق بالاقضية في مجلدين .
و (دروس في الحديث) ، القاها بالقاهرة عندما قدم اليها مبعوثاً سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م . و (الموجز الباهر في الفقه)^(٣) .
وله كتاب (العصا) وهي قصة موسى عليه السلام مع فرعون^(٤) .
^(٥)

- (١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٧ ص ٨٧-٨٨ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ج٨ ص ٣٦٠ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٣-٤ .
- (٢) ابن خلكان : المصدر نفسه ج٧ ص ٩٩ ؛ السبكي : المصدر نفسه ج٨ ص ٣٦١ ؛ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية (الفهرس القديم لدار الكتب ج٣ ص ٢٩٧ - ٢٩٨) ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٨ .
- (٣) وهو مخطوط بالمكتبة البودليانية في اكسفورد ١١٧/١ ؛ بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج٦ ص ١٣ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٨ .
- (٤) ابن خلكان : المصدر السابق ج٧ ص ١٠٠ ولم يذكره بروكلمان ولا محقق النوادر السلطانية .
- (٥) مخطوط بمكتبة باتنه ٥١٦/٢ : ٢٧٧٢ ، بروكلمان ج٦ ص ١٤٠ .

و (فضائل الجهاد) وألفه خصيصا لصلاح الدين ^(١) . و (دلائل الاحكام) وافرده للاحاديث النبوية المستنبط منها الاحكام ^(٢) . و (اسماء الرجال الذين في المذهب للشيرازي) ^(٣) واخيرا (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وهو المعروف بسيرة صلاح الدين ^(٤) . غير أن دور بهاء الدين ابن شداد في ازدهار الحياة العلمية ظهر بعد موت صلاح الدين فاعتمد عليه الافضل واحترمه غاية الاحترام " وكان يشاوره في جليل الامور ودقيقها " وقد ادرك الظاهر صاحب حلب اهمية القاضي بهاء الدين فقررا اجتذابه اليه وارسل الى اخيه الافضل يطلب منه أن " يتحفه بالقاضي بهاء الدين ليكون عنده ويتبين برأيه ، فاجابه الملك الافضل الى ذلك وسيّره اليه " ^(٥) .

- (١) مخطوط بمكتبة كوبرلي بتركيا برقم ٧٦٤ بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ج٦ ص ١٤ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية مقدمة المحقق ص ٩ .
- (٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٧ ص ٩٩-١٠٠ = وتوجد نسخة منه بالمكتبة الاهلية في باريس برقم ٧٣٦ ؛ بروكلمان المرجع السابق ج٦ ص ١٣ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٨ .
- (٣) ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٩ .
- (٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٧ ص ١٠٠ وقد حققه جمال الدين الشيال وطبع بالقاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- (٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ٨ ؛ وانظر ايضا : تاريخ ابن افرات ج٦ لوحة ٢٨٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٧ ص ٩١ .

ولما وصل ابن شداد الى حلب سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م فوض اليه الظاهر قضاء ملكته وجعله اقرب الناس اليه واقطعه الاقطاعات الوافرة، وصار له مكانة عظيمة " لم يصل اليها احد من المعصمين " (١). وظل على تلك المكانة الرفيعة بعد موت الظاهر سنة ٦١٣هـ / ١٢١٢م واصبح المرجع لاهل حلب في الرأي والمشورة " ولم يكن لاحد معه في الدولة كلام " (٢) كما يقول ابن خلكان .

ولم يجعل القاضي بها الدين بن شداد تلك المكانة التي بلغها تذهب هدرا بل استثمرها الصالح الحياة العلمية، وصب جهوده على جعل حلب مركزا من مراكز الحياة الفكرية، وكانت حلب حين وصوله اليها " قليلة المدارس فاعتنى . . . بترتيب امورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في ايام المدارس الكثيرة " (٣) .

كان الظاهر قد قرر لابن شداد اقطاعا جيدا يدر عليه اكثر من مئة الف درهم في السنة، فاجتمعت لديه ثروة كبيرة وانفقها على بناء مدرسة التي خصصها لتدريس المذهب الشافعي بالقرب من باب العراق - احد ابواب حلب - وهي المعروفة بالصاحبية، وبنى الى جانبها مدرسة اخرى لتدريس الحديث، وأوقف على المدرستين اوقافا جلية لضمان استمرارهما في اداء دورهما العلمي بعد وفاته (٤) .

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٨٠ .
- (٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٧ ص ٩١ .
- (٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٨٩ .
- (٤) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٢٨٧ - ٢٨٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٨٩ - ٩١ ؛ ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ، ج ١ ص ١٠٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٧ ص ٨٩ - ٩٠ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية : مقدمة المحقق ص ٤٠ .

وبعد اكمال بناء المدرستين وقيام ابن شداد بنفسه بالتدريس
فيهما اضحت حلب قبلة لطلبة العلم ، ومقصدا للعلماء من مختلف انحاء
العالم الاسلامي ، ويقرر هذه الحقيقة المؤرخ ابن خلكان الذي كان
واحدا ممن سافروا الى حلب خصيصا للاستماع الى ابن شداد والتعلم
على يديه فيقول : " ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدتها الفقهاء
من البلاد ، وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها " (١)
ويقول عن وصوله الى حلب في موضع آخر : " ولما وصلت الى حلب لا جل
الاشتغال بالعلم الشريف وكان دخولي اليها يوم الثلاثاء مستهل ذي
القعدة سنة ست وعشرين وستمائة وهي اذن ام البلاد مشحونة بالعلماء
والمشتغلين " (٢) . كما يذكر ابن واصل انه سافر الى حلب سنة ٦٢٧هـ /
١٢٣٠م يقصد الاستفادة من ابن شداد ، فانتظم في مدرسته اكثر من
سنة للتزود بعلمه والاشتغال على يديه . (٣)
وظل ابن شداد طوال حياته " محسناً الى كل من يرد الى
حلب من الفقهاء واهل العلم " (٤) . ولم تقتصر جهوده على الاحسان
الى طلاب العلم ورعايتهم فحسب ، بل عمل جاهدا على رفع مكانتهم
لدى سلطان حلب واعيان دولته بحيث صار " للفقهاء حرمة
تامة ورعاية كبيرة وخصوصا جماعة مدرسته ، فانهم كانوا يحضرون
مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سطاظه " (٥) . وزادت

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٩ ص ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ٤٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٩١ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٧ ص ٩١ .

افضاله على طلبة العلم وأمسى مؤثلاً لطلبة العلم الذين كانوا يأتون
اليه من البلاد " لثلاث اجتمعت فيه ، العلم ، والمال ، والجاء ،
(١)
وهو لا يبخل بشيء منها " .

وهكذا ازدهرت الحياة العلمية في حلب زمن القاضي بهاء الدين
ابن شداد واصبحت تنافس اشهر مراكز الحضارة الاسلامية كبغداد والقاهرة
حتى وفد اليها العلماء من سائر الاقطار .

اما وزير حلب القاضي الاكرم جمال الدين علي بن يوسف بن
ابراهيم بن عبد الواحد القفطي ، فقد تولى وزارة حلب زمن الملك العزيز
ابن الظاهر منذ سنة ٦١٤هـ / ١٢١٨م وظل يلي منصب الوزارة حتى
عزله سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م غير ان العزيز ما لبث ان عاد واسند
اليه منصب الوزارة مرة اخرى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م وظل القفطي في
منصبه حتى وفاته سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م .
(٢)

وقد ولد علي بن يوسف القفطي بمدينة قفط احدى مدن صعيد
مصر سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م وتلقى علومه العربية والاسلامية على
اختلاف فروعها بالقاهرة على ايدي كبار العلماء ، ثم أتم دراسته
في مدينة بيت المقدس .
(٣)

-
- (١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ٣٦١-٣٦٢ .
(٢) ابن واصل : مغز الكروب ج ٤ ص ٣١٢ ؛ الادفوى : الطالع
السعيد ص ٤٣٧ ؛ الزركلي : الاعلام ج ٥ ص ٣٣ .
(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٥ ص ١١٥ ؛ احمد بدوي : الحياة
العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٧٣-٢٧٤ .
(٤) الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٣٦-٤٣٧ ؛ احمد بدوي :
الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام
ص ٢٧٤ .

ولقد أقبل علي بن يوسف على طلب العلم في نشاط جم وشفف
منقطع النظير ، فلم يتزوج أو يَكُون أسرة ، وصرف حياته كلها على اقتناء
الكتب ودراستها ومطالعتها ، وجمع من الكتب النفيسة ما لا يوصف ، حتى
طبقت شهرته الافاق ، وقُصِدَ بالكتب من كل حدب وصوب ، وكان لا يحب
من الدنيا سواها ^(١) . وشهد له معاصره ياقوت الحموي بالتفوق في
جمعها واقتنائها رغم اشتغال ياقوت نفسه بالتجارة فيها حتى قال
عنه : " لم أر مع اشتغالي على الكتب وبيعها لها وتجارتي فيها
اشد اهتماما منه بها ولا اكثر حرصا منه على اقتنائها ، وحصل له
منها ما لم يحصل لأحد " ^(٢) . وقدّر ابن شاعر قيمة كتبه بخمسين
الف دينار ، وأورد حادثة تبرهن على عشقه للكتب وتقديره للعلم
، فذكر انه حصل على نسخة جميلة من كتاب الانساب للسمعاني بخط
المؤلف نفسه ، ولكن كان ينقصها مجلد واحد من أصل خمسة ، وظل
الوزير علي بن يوسف يبحث عن المجلد الناقص ويطلبه من مظانه فلم
يتكّن من الحصول عليه ، وذات مرة كان أحد اصدقائه في السوق ، فوجد
اوراقا من المجلد المفقود لدى بعض صُناع القلانس فاحضرها الى
الوزير علي بن يوسف ، فاستدعى الاخير صانع القلانس وسأله عن مصدر
الاوراق فاخبره انه اشتراه في جملة ورق وعمله قواليب للقلانس فحزن
الوزير القفطي حزنا شديدا " حتى انه بقي اياما لا يركب الى القلعة

(١) ابن شاعر: عيون التواريخ ج٥ ١ لوحة ١٤ ؛ ياقوت الحموي :

معجم الادباء ج٥ ص ١٨٧-١٨٨ ؛ ابن العماد : شذرات

الذهب ج٥ ص ٢٣٦ .

(٢) ياقوت : معجم الادباء ج ١٥ ص ١٨٨ .

وقطع جلوسه ، وأُخْصِرَ من ندب على الكتاب كما يُندب الميت المفقود
... وحضر عنده الاعيان يسألونه كما يسأل من فقد له عزيز" (١).

ولم تذهب جهود الوزير القفطي في سبيل جمع الكتب ودراساتها
هدرا فقد أصبح عالما موسوعيا لا يشق له غبار في شتى فروع العلوم
كالنحو ، واللغة والأدب ، والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق
والرياضة والفلك والهندسة ، والتاريخ ، والجرح والتعديل وجميع فنون
العلم على الإطلاق. (٢)

ولقد أسهم الوزير علي بن يوسف القفطي في ازدهار الحياة
العلمية في بلاد الشام ان صنف الكثير من الكتب التي تدل على طول
باعه وسعة ثقافته ، وموافاته هي : كتاب (الضاد والظاء) وهو
ما اشتبه في اللفظ واختلف في الخط . وكتاب (الدر الثمين في اخبار
المتيمين) ، وكتاب (من ألوت الأيام اليه فرغته ثم التوت عليه
فوضعت) ، وكتاب (اخبار المصنفين وما صنفوه) ، وكتاب (اخبار
النحويين) ، وكتاب (تاريخ مصر) ، منذ اقدم العصور حتى زمن صلاح
الدين في ستة مجلدات ، وكتاب (تاريخ المغرب ومن تولاها من بني
تومت) ، وكتاب (تاريخ اليمن منذ اختطت الى الان) ، وكتاب
(المجلى في استيعاب وجوه كلا) ، وكتاب (الاصلاح لما وقع
من الخلل في كتاب الصحاح للجوهري) ، وكتاب (الكلام على الموطأ)
وكتاب (الكلام على الصحيح للبخاري) ، وكتاب (تاريخ محمود بن

-
- (١) ابن شاکر الکتبی : عیون التواریخ ج ٥ ١٥٠-١٤٠ لوحة ١٥-١٤٠ .
(٢) یاقوت الحموی : معجم الادباء ج ٥ ١٥٠ ص ١١٩ ؛ ابن العمار
و شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٣٦ .

ابن سبكتكين وبنيه الى حين انفصالهم عنهم) ، وكتاب (اخبار السلجوقية) ، وكتاب (الرد على النصارى وذكر مجامعهم) ، وكتاب (مشيخة زيد بن الحسن الكندي) ، وكتاب (نهضة الخاطر ونهضة الناظر في احسن ما نقل من على ظهور الكتب) ، وكتاب (اخبار العلماء باخبار الحكماء) ، وكتاب (المحدثون من الشعراء) ، وكتاب (اشعار اليزيديين) ، وكتاب (تاريخ بني بويه) ، وكتاب (الايناس في اخبار آل مرداس) (١) .

وما يؤسف له ان معظم مؤلفات وزير حلب علي بن يوسف القفطي مفقودة (٢) . والمعروف انه اوصى بمكتبته بعد موته سنة ٦٤٦هـ / للناصر يوسف صاحب حلب (٣) ، ويبدو ان تلك المكتبة القيمة بقيت

- (١) ابن شاکر الکتبی : عیون التواریخ ج ١٥ لوحة ١٥ ؛ یاقوت : معجم الادباء ج ١٥ ص ١٨٦ - ١٨٧ ؛ الادفوی : الطالع السعید ص ٤٣٧ ؛ احمد بدوی : الحیاة العقلیة فی عصر الحروب الصلیبیة بمصر والشام ص ٢٢٤ - ٢٧٥ ؛ محمد کرد علی : خطط الشام ج ٤ ص ٣٨ .
- (٢) لم یبق من کتبه سوى ثلاثة هی : کتاب (اخبار العلماء باخبار الحكماء) ویحتوی علی اربع عشرة واربعمئة ترجمة للطیبا والحکماء من اقدم العصور الی ايام المؤلف ، وهو علی جانب کبیر من الاهمیة لانه معین لا ینضب من المعلومات الخاصة بمعارف العرب عن مؤلفات الاغریق ، ویدلنا الکتاب علی اشار قیمة من کتب الاغریق المفقودة ، وهو مطبوع فی لیبنج ١٩٠٣ م اما الکتاب الثانی فهو (انباء الرواة علی انباء النحاة) ٤ اجزاء حققها محمد ابو الفضل ابراهیم وطبع فی القاهرة ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٥ ، ١٩٧٣ م والکتاب الثالث هو (المحدثون من الشعراء) تحقیق حسن معمری ومراجعة حمد الجاسر وهو من منشورات دار الیامة بالریاض ، انظر احمد بدوی : الحیاة العقلیة ص ٢٧٥ ، بروکلیمان : تاریخ الادب العربی ج ٦ ص ٤٥ وحاشیة رقم ١-٢ .
- (٣) ابن شاکر الکتبی : عیون التواریخ ج ١٥ لوحة ١٤ .

بقلعة حلب ، ومن المرجح انها دُمّرت اثناء اجتياح المغول لحلب سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م إذ ان الفترة بين وفاة الوزير القفطي سنة ٦٤٦هـ وسقوط حلب بيد المغول لم تكن تكفي ليتناقل العلماء كتبه وينسخونها وبالتالي تتوزع على بقية بلدان العالم الاسلامي مما يكفل لها البقاء ولا سيما وان بلاد الشام شهدت فترة حرجة عشية الغزو المغولي .
ومن الملاحظ على اسماء الكتب التي صنفها القفطي ، انه كتب في التاريخ اكثر من نصف مؤلفاته وبخاصة كتابه في تاريخ مصر الذي كان في ستة مجلدات ولا شك ان ضياع تلك المؤلفات التاريخية القيمة أفقدنا ذخيرة ضخمة ومعلومات لا تقدر بثمن سيما وان مكتبته لم يكن لها نظير ، وربما لو قدر لمؤلفاته التاريخية البقاء لوضعته في الدرجة الاولى بين المؤرخين العرب المسلمين امثال ابن الاثير ، وابن خلدون ، والمقرئ وغيرهم .

ولقد شهد له ياقوت الحموي - وهو الجغرافي والاديب والمؤرخ الضليع - بالتفوق فقال عنه : " وكنت ألام منزله ويحضر أهل الفضل وارباب العلم فما رأيت احدا فاتحه في فن من فنون العلم . . . الا قام به احسن قيام وانتظم في وسط عقدهم أحسن انتظام " (١) ، مع ملاحظة ان هذه الشهادة قيلت في ابن القفطي قبل وفاته باكثر من عشرين سنة از أن ياقوت توفي سنة ٦٢٦هـ بينما توفي ابن القفطي سنة ٦٤٦هـ ولا شك ان ابن القفطي حقق خلال تلك الحقبة التي لم يدركها ياقوت الكثير من المنجزات العلمية .

وهكذا اصبح مجلس ابن القفطي قبلة للادباء ومنتدى للعلماء ومن الطبيعي أن يسهم ذلك في ازدهار وتطور الحياة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي .

(١) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج ١٥ ص ١٢٩ .

اهم المدارس في بلاد الشام قبيل الفزو المڤولي :

كان المسجد كما هو معروف المدرسة الاولى للمسلمين ، اما
انشاء المدارس المتخصصة في بلاد الشام فلم تبدأ الا في اواخر القرن
الخامس الهجري ، وعندما جاء نور الدين زنكي (٥٤١ - ٥٦٩ هـ /
١١٤٨ - ١١٧٣ م) توسع في انشاء المدارس ، وسار على نهجه بعد
ذلك صلاح الدين وتوسع الحكام والامراء ورجال الدولة الايوبية في
انشاء المدارس في بلاد الشام (١) .

والحق انه لا يمكن في هذا المجال استعراض جميع المدارس
التي شهدتها بلاد الشام خلال الحقبة موضع الدراسة ويكتفى بذكر
أهمها كدليل على تطور وازدهار الحركة العلمية . غير انه جدير
بالذكر هنا ان عدد مدارس حلب التي شرحها المؤرخ المعاصر عز الدين
ابن شداد بلغ عددها ٤٦ مدرسة (٢) ، وبلغ عدد مدارس عاصمة بلاد
الشام دمشق ٩٢ مدرسة (٣) ، بينما بلغت المدارس خلال الفترة
نفسها في مدينة بيت المقدس زهاء ١٢ مدرسة (٤) ، ناهيك عن المدارس
الاخرى في بقية مدن الشام الهامة مثل حماه وحمص والخليل وغيرها . ومن
اهم المدارس في بلاد الشام :

- (١) انظر محمد كرد علي : خطط الشام ج٦ ص ٦٨-٧٠ .
- (٢) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج١ ص ٩٦-١٢١ .
- (٣) المصدر نفسه ج٢ قسم مدينة دمشق ص ٢٠٠-٢٦٦ .
- (٤) مجير الدين العليبي : الانس الجليل ج٢ ص ٣٣-٤٧ ؛ عبد
الجليل حسن : المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي
والمملوكي ج١ ص ١٨١-٣٩٩ .

المدرسة العادلية بدمشق :

تعتبر من اكبر المدارس الشافعية بدمشق وتقع داخل المدينة الى الشمال الغربي من الجامع الأموي . وقد بدأ بناءها نور الدين محمود سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ولكنه توفي بعد ان وضع محرابها فقط ولم تتم ، وظلت على حالها الى زمن السلطان العادل ، فشرع في إكمال بنائها وتوفي ايضا قبل اتمامه فتولى ابنه المعظم بناءها سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م وجعله متميزا لا نظيره في بناء المدارس ، وأوقف عليها الاوقاف ودفن والده فيها ونسبها اليه واصبحت مدرسة عظيمة . (١)

وافتح المعظم عيسى المدرسة رسميا سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م والقي قاضي القضاة بالشام جمال الدين يونس بن بدران المصري اول درس بها ، وحضراعيان الشيخ والقضاة والفقهاء ، كما حضر الملك المعظم بنفسه ، ودارت المناقشات حول الدرس مع العلماء بايوان المدرسة ، وقد رُتِبَتَ الجلسة في انتظام مهيب ، فجلس المعظم وعن يمينه شيوخ الحنفية جمال الدين الحصري ، و يليه شيخ الشافعية فخر الدين بن عساكر ، ثم القاضي محي الدين بن الشيرازي ، ثم القاضي محي الدين بن الزكي ، وجلس عن يسار المعظم مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري

(١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ ص ٢٤٠ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٣٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٦٨ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص

والى جانبه العالم والفيلسوف الكبير سيف الدين الآمدى ، ثم القاضي
شمس الدين بن سني الدولة ، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي
المسكر ، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءها متصلون ملء الديوان ، وقد
اجتمع في تلك الحلقة الافتتاحية كبار الفقهاء واعيان المدرسين مثل تقي
الدين بن الصلاح وغيره (١) .

والحق ان هذا الافتتاح المهيب يشير الى العناية الفائقة
والاهتمام الكبير الذى حظيت به المدرسة العادلية وما كان للعلم من
تقدير في هذا العصر والحرص الشديد على نشره بين عامة الشعب .
وقد ذكر ابو شامة - الذى كان طالبا بالمدرسة - أن اول مدرسيها
الفقيه جمال الدين بن بدران المصرى كان يدرس بها الفقه ، ولكنه
قبل بدء درس الفقه كان يمهّد له ببعض الايات من القرآن الكريم
ويقوم بتفسيرها ومناقشتها مع طلبته وظل يسير على ذلك المنوال حتى
فرغ بتلك الطريقة من تفسير القرآن بكامله سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م وهي
السنة التي توفي فيها (٢) . وتولى التدريس بعده في العادلية
كبار العلماء والفقهاء ، وظلت هذه المدرسة قائمة طوال العصر من
الأيوبي والملوكي (٣) .

-
- (١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٢-١٣٣ ؛ ابن كثير : البداية
والنهاية ج ٣ ص ٩٧-٩٨ ؛ النعمي : الدارس في تاريخ
المدارس ج ١ ص ٣٦١ - ٣٦٢ .
(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٤٨ .
(٣) انظر اسماء العلماء الذين تعاقبوا على التدريس في المدرسة
العادلية في ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٤٠ ؛
النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٦٣ .

ويبدو أنه الحق بالمدرسة مكتبة ضخمة كما أن بعض
الفقهاء أوقفوا كتبهم على طلبية العلم^(١) . وما يدل على قيمة المكتبة
التي الحق بها ان أباشامة صنف بها كتابه تاريخ الروضتين في
أخبار الدولتين ، وكذلك ابن خلكان صنف بها كتابه المشهور ، وفيات
الأعيان^(٢) . كما ان النعمي بعد ذلك ألف كتابه (المدارس في تاريخ
المدارس بها) ان يقول : " وفيها قدر الله سبحانه وتعالى جمع
هذا الكتاب "^(٣) . وكل ذلك يدل على أن مكتبة المدرسة العادلية
كانت تضم بين جنباتها مجموعة ضخمة من الكتب في شتى فروع المعرفة بحيث
أصبحت تكفي كمراجع لتأليف الموسوعات الكبيرة الالفة الذكر .

وقد أورد أبوشامة - وهو احد مدرسي العادلية - اشارة طريفة
لها مفزى كبير فقال في حوادث سنة ٦٥٥ هـ : " توفي الأمير بدر الدين
ابن الحسن المعزى الميروي ، وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية^(٤) .
وهذه الاشارة تدل دلالة واضحة على ان التعليم في بلاد الشام لم
يكن قاصرا على البنين بل كان يشمل البنات ايضا .

وقد سميت العادلية بالكبرة تمييزا لها عن المدرسة العادلية
الصغيرة والتي انشأتها زهرة خاتون ابنة السلطان العادل سنة ٦٥٥ هـ/
١٢٥٢ م^(٥) . وتقع العادلية للصغرى داخل باب الفرج - احد ابواب

(١) النعمي : المدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٦١-٣٦٢ .

(٢) احمد بدوى : الحياة العقلية ص ٦٥ .

(٣) النعمي : المدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٦٢ .

(٤) أبوشامة : ذيل الروضتين ص ١٩٥ .

(٥) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ ص ٢٤٣ ؛ النعمي :

المدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٦٨ .

دمشق - شرقي باب القلعة ، وقد أوقفت زهرة خاتون عددا من القرى الزراعية وأحد الحمامات الكبيرة التابعة لها للصرف على المدرسة ، وقررت لها مدرسا ومعيدا واماما وموءذنا وبوابا وخادما وقيما وعشرين فقيها ، وينفق على الجميع من الاوقاف المذكورة ، وقد تولى التدريس في هذه المدرسة عدد من العلماء (١) .

المدرسة الشامية البرانية :

وقد أنشأتها ست الشام بنت ايوب اخت صلاح الدين (٢)

- (١) النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٦٨ .
- (٢) يصف الموءرخون ست الشام بنت أيوب بانها كانت فاضلة عاقلة كثيرة البر والصلات والاحسان والصدقات ، وكان يُعمل في دارها كل سنة من المأكولات والاشربة والعقاقير بالوف الدنانير، وتفرقها على الناس والمحتاجين . وكان بابها ملجأ للقاصدين ومفرزا للمكروبين ، وقد أسست مدرستين ، وكانت الاخرى داخل دمشق وتسمى احيانا الحسامية نسبة لابنها حسام الدين لاجين ، وقد توفيت ست الشام بدمشق سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م انظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٠٦-٦٠٧ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٨٤-٨٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص ٢٠٤ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٢٧٨ .

"وهي من اكبر المدارس واعظمها واكثرها فقهاً وأكثرها اوقافاً" كما يقول ابن شداد ^(١) . وقد تولى التدريس بها جماعة من القضاة والعلماء وظلت قائمة حتى عصر الماليك ^(٢) .

المدرسة الدخوارية :

وهي من المدارس الهامة في دمشق لأنها اختصت بتدريس الطب . وقد انشأها الطبيب المشهور مذهب الدين عبد الرحيم بن حامد الطلق بالدخوار ، ونسبت اليه ، وكان أُوحد زمانه في مجال الطب ، والمدرسة هي أصلاً داره فتبرع بها سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م وجعلها خاصة بدراسة الطب وأوقف عليها عدداً من الضياع وأماكن أخرى تدر دخلاً وفيراً للصرف منه على الأطباء والطلبة وكل المشتغلين بدراسة الطب ، ويبدو أنها كانت أشبه بكلية للطب ، وقد درّس بها مذهب الدين نفسه وفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٢٩ م حضر إليها الطبيب سعد الدين إبراهيم ابن الحكيم موفق الدين بن عبد العزيز وبعض كبار القضاة والعلماء والفقهاء للاستماع إلى شرح الطبيب شرف الدين الرحبي الذي شرع يدرس بها ، واستمر على ذلك عدة سنين ، وتولى التدريس بها بعده عدد من الأطباء المشهورين ، وظلت تقوم بدورها في تدريس الطب زمناً طويلاً ^(٣) .

- (١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ ص ٢٤٩ ، وانظر أيضاً ؛ النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٢٧٧ .
- (٢) ابن شداد ، الاطلاق الخطيرة ج٢ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ؛ النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
- (٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٧٣٣ - ٧٣٤ ؛ انظر أيضاً ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ ص ٢٦٥ ؛ النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص ١٢٧ .

واشتهرت حلب ايضا بكثرة مدارسها ونبوغ العلماء الذين
عملوا بالتدريس فيها ومن المدارس المشهورة التي انشئت خلال هذه
الفترة على سبيل المثال : (١)

المدرسة الظاهرية :

وقد أنشأها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب
حلب وانتهت عمارتها في عهده سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م وفوض نظارة
المدرسة وادارتها الى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف
بابن شداد واشرك معه في امر المدرسة شرف الدين ابا طالب ابن
المعجمي ، وشرط أن يكون مشاركا للقاضي بهاء الدين بن شداد طوال
حياته ، على ان يتولاها بعد موته ثم لعقبه من بعده . وأول من
افتتح التدريس بها ضياء الدين ابو المعالي محمد بن الحسن بن أسعد
ابن عبد الرحمن المعجمي ، وعمل الظاهر دعوة عظيمة لفقهاء واعيان حلب
وحضر بنفسه اول درس بها ، وظلت المدرسة الظاهرية في رعاية العلماء
من اسرة بني المعجمي حتى سقوط حلب بيد المغول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م . (٢)

- (١) تجدر الاشارة هنا الى ان أشهر مدارس حلب وأكثرها اوقافا وعلماء
هي تلك التي أنشئت زمن نور الدين زنكي مثل المدرسة النورية ،
والمدرسة الحلاوية ، وما يهم هنا سوى الاشارة الى اهم المدارس
التي أنشئت في حلب قبيل الغزو المغولي ، وعن النورية والحلاوية
وغيرها انظر ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج١ ص ٩٦-١٠٤ ،
١١٠-١١٣ .
- (٢) سبط ابن المعجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب لوحة ١٠٥ ؛
ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج١ ص ١٠٧-١٠٨ .

المدرسة الشرقية :

انشأها الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن بن عبد الرحيم ، المعروف بابن العجمي ، وانفق على بنائها وتجهيزها اكثر من اربعمائة الف درهم ، وأوقف عليها اوقافا جليلة ، ودرس فيها ابنه محي الدين محمد ، واشتغل معه عشرة معيدون " لم يكن في عصرهم في سائر البلاد مثلهم " على حد قول ابن شداد . وظل محي الدين يدرس بها حتى قتل بأيدي المغول حينما اجتاحتها حلب سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م .^(١)

المدرسة الفردوس :

أنشأتها صاحبة ضيفة خاتون ابنة الملك العادل ، وزوجة الملك الظاهر ، والحقق بها رباطا ، وجعلت فيها مجموعة من الفقهاء والطلبة وأوقفت عليها اوقافا كثيرة شملت قرية قرب حلب تسمى كفر زنبيا وطاحونتها وغير ذلك وتعتبر هذه المدرسة من اكبر مدارس حلب من حيث البناء ، حتى أن اعمدتها من الرخام الا صفر " ومحرابها من اعاجيب الدنيا يرى الناظر اليه وجهه فيه من صفا معدنه " وقد تعاقب التدريس عليها جماعة من العلماء والفقهاء .^(٢)

المدرسة الأتابكية :

انشأ الاتابك شهاب الدين طغرل بحلب مدرستين عرفتتا باسم الاتابكية ، وانتهت عمارة الاولى سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م ، وأول من

(١) ابن شداد ، الاغلاق الخطيرة ، ج ١ ص ١٠٦ .

(٢) سبط ابن العجمي ، كنوز الذهب في تاريخ حلب ، مخطوط ،

لوحة ١٠٨ .

درس بها الشيخ جمال الدين بن خليفة بن سليمان القرشي ، الحوراني الأصل ، وظل يلي منصبه بها حتى توفي سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م وكان فقيها عالما ، ووليها بعده مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين ابن العديم فخرج حين اجتاحت المغول حلب الذين احرقوها ضمن ما دمروه من مراكز الحضارة الاسلامية (١) .

اما المدرسة الاتاكية الثانية فقد اسسها ايضا الاتابك طغرل واكمل بناؤها سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣ م ، وأول من درس بها صفي الدين بن عمر الحموي ثم خلفه نظام الدين محمد بن محمد بن عثمان البلخي الأصل البغدادي المولد والمنشأ ، وظل يدرس بها حتى توفي سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥ م ، وخلفه ابنه تقي الدين احمد الذي قتل بايدي المغول ، ومن الطريف ان هذه المدرسة نجت من التدمير زمن المغول وظلت تقوم بدورها طوال عصر المماليك (٢) .

وفي ضوء ذلك التشجيع العلمي العظيم من قبل ملوك الشام ورجال الدولة ، وقيام مئات المدارس في جميع بلاد الشام ، من الطبيعي أن تزدهر الحياة الفكرية وتتطور تطورا كبيرا في شتى ميادين العلم والمعرفة وسوف نعرض لأهم ميادين العلوم التي ازدهرت خلال هذا العصر وتطورت من خلال التاريخ لأهم العلماء الذين اسهموا بقسط وافر في ميادين الفكر ، والذين اضحت مؤلفاتهم مراجع هامة للعلماء من بعدهم ومعينا لا ينضب للدارسين ، وكان ظهورهم وبروزهم واشتغالهم

(١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج١ ص ١١٤ .

(٢) ابن شداد : المصدر نفسه ج١ ص ١٢١ ، النعماني : الدارس

في تاريخ المدارس ج١ ص ١٢٩ .

بالتدريس والتصنيف مظهرا من مظاهر ازدهار الحركة العلمية في بلاد الشام قبيل الغزو المغولي .

أولا : علوم الشريعة :

وهي العلوم التي انصبت على دراسة الشريعة الاسلامية وعلومها مثل التفسير والحديث والفقه والاصول والقراءات ونحو ذلك والتي ازدهرت في بلاد الشام خلال هذه الحقبة ، وقد ظهر الكثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين والأصوليين مما يشير الى مدى ازدهار الذى اصابته العلوم الشرعية خلال هذه الفترة . غير انه جدير بالملاحظة هنا الى ان الحضارة الاسلامية تميزت في ناحيتها الفكرية بالشمول ، اذ غالبا ما اشتهر العلماء بالعلم الموسوعي الواسع - كما سنرى - بمعنى أن يكون الفرد منهم عالما متضلعا في كل علوم الشريعة اضافة الى علوم العربية والتاريخ وادبنا بالطب والعلوم الأخرى وسوف نقوم بتقسيمهم تبعا للفرع الذى اشتهروا فيه اكثر والذى اسهموا فيه بنصيب او فروكان لهم فيه اكثر المؤلفات . ومن اشهر العلماء الذين برزوا في ميدان العلوم الشرعية :

ابن قدامة :

هو ابو محمد عبدالله بن احمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين ولد بجماعيل سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م في اسرة

(١) جماعيل : قرية على جبل نابلس من ارض فلسطين ظهر فيها عدد من العلماء الأجلاء ، مثل الحافظ عبد الفنى بن عبد الواحد المقدسي وابن قدامة وغيرهما ، انظرياقوت : معجم البلدان مادة جماعيل .

عرفت بالتقوى والصلاح ، وقَدِمَ الى دمشق مع أسرته سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م
وشرع في الاقبال على طلب العلم فحفظ القرآن وسمع الحديث وارتحل
مرتين الى العراق مع ابن عمه الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد وذلك
سنتي ٥٦١ هـ و ٥٦٧ هـ / ١١٦٦م و ١١٧٢م ودرس الفقه ببغداد
على مذهب الامام احمد بن حنبل على ايدي كبار العلماء والفقهاء
كما رحل الى مكة للفرض نفسه سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٨م وبرع في
الحديث والتفسير والأصول والقراءات وسائر علوم الشريعة^(١) .
"وأصبح إماماً من أئمة المسلمين وعلماً من اعلام الدين في العلم والعمل"^(٢) .
وتعمق ابن قدامة في علوم الفقه والأصول حتى بلغ درجة الاجتهاد ،
وهي مكانة صعبة المنال لم يبلغها احد في زمنه^(٣) .

وحين استقر بدمشق توفّر على الاشتغال بالفقه وتدريسه ، وحدث
بشيء من مسموعاته ، وعلى الرغم من كونه حنبلياً فإنه لم يكن يعرف
التعصب المذهبي بدليل تدريسه بعض مؤلفات الشافعي ، إذ يذكر
ابوشامة انه درّس على يديه مسند الامام الشافعي^(٤) .

وتولى ابن قدامة إمامة الحنابلة بجامع دمشق "وبرع وأفتى
ونظر وتبحر في فنون كثيرة"^(٥) . ولم تشهد بلاد الشام إماماً في
منزلته منذ زمن الامام الأوزاعي . وشهد له معاصروه من العلماء

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢٧-٦٢٨ ؛ ابوشامة :
ذيل الروضتين ص ١٣٩-١٤١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية
ج ١٣ ص ٩٩-١٠٠ ؛ الكتبي : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٥٨-١٥٩ ؛
ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٨٨ .
(٢) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٣٩ .
(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٨٨ .
(٤) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٣٩-١٤٠ .
(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٠٠ .

بالتفوق في شتى مجالات العلوم التي اشتغل بها فقد كان "اماما في القرآن ، اماما في التفسير ، اماما في علم الحديث ومشكلاته ، اماما في الفقه بل أُوحد زمانه فيه ، اماما في علم الخلاف ، أُوحد زمانه في الفرائض اماما في اصول الفقه ، اماما في النحو ، اماما في الحساب ، اماما في النجوم السيارة والمنازل" (١) .

ولم تقتصر جهود ابن قدامة على التدريس والفتيا بل امتدت الى التأليف فنصف كتابا في الفقه وأصوله ، وعلوم الحديث ، ولقد كان لتلك الكتب ابعاد الأثر في الحياة العلمية في عصره وفي الفكر الاسلامي بعده . ومن مؤلفاته في الفقه (المفني) شرح به مختصر الخراقي ووضعه في عشرة مجلدات ، وصرف فيه جهدا مضنيا حتى اكمله (٢) . وكتاب الكافي في اربع مجلدات ، وكتاب العمدة في مجلد صغير ، وألف كتابا في مناسك الحج وآخر في ذم الوسواس ، وصنف كتاب (المقنع) الذي شرحه ابن أخيه عبد الرحمن بن محمد ، ومن مؤلفاته في اصول الفقه (روضة الناظر) وفي اصول الدين كتاب (الاعتقاد) وكتاب (البرهان في مسألة القرآن) ، وكتاب (القدر) وفضائل الصحابة وكتاب (ذم التأويل) كما ألف في التأريخ معجما لشيوخه ، وآخر اسمه (التبيين في نسب القرشيين) وكتابا سماه (الاستبصار في نسب الأنصار) وألف في اللغة (قنعة الأريب في الفرييب)

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٨ ص ٨٩-٩٠ .

(٢) وهو مطبوع عدة طبعات ، وآخر طبعاته عن دار الكتاب العربي ،

وغير ذلك من الرسائل والفتاوى وفي شتى فروع العلوم الشرعية واللغوية (١) .

وكان ابن قدامة - مع تبحره في العلوم وحيارته قصب السبق على اقرانه وخصوصا في مذهب احمد بن حنبل - ورعا زاهدا تقيا لينًا متواضعا فيه حلم وتؤدده . قصر اوقاته للعلم والعمل ، وحين كان يناظر خصومه يسوق الحجج المفحمة والبراهين الساطعة على ارائه ولا يتحرج ولا ينزعج من هجوم خصومه عليه (٢) .

ولقد أطنب المؤرخون - ولا سيما المعاصرون - في وصف زهده وتقواه وتعبداه وشهدوا له بالكرامات الدالة على ايمانه وصلاته ، وظل يقوم بدوره في نشر علوم الشريعة ومحاربة البدعة حتى توفي بدمشق في رمضان ٦٢٠ هـ / اكتوبر ١٢٢٣ م (٣) .

فخر الدين بن عساكر :

هو شيخ الشافعية ببلاد الشام ، واسمه عبدالرحمن بن محمد ابن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين الدمشقي المعروف بابن عساكر ولا يوجد في اجداده من اسمه عساكر ويبدو انه أتى عن طريق احدى امهاتهم (٤) .

-
- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢٧-٦٢٨ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان مادة جماعيل ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٠٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٩٠-٩١ ؛ احمد بدوي : الحياة العقلية ص ١٧٦-١٧٧ .
- (٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٨٨ .
- (٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٢٧-٦٢٩ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٤٠-١٤١ .
- (٤) ابوشامة : المصدر نفسه ص ١٣٦ .

وينتمي فخر الدين الى اسرة عريقة تعتبر من اشهر الاسر التي تميزت بالعلم والفضل زمن الحروب الصليبية واسهمت بقسط وافر في ازدهار العلوم الشرعية خلال قرنين من الزمان ، فقد اشتهر منهم قبل فخر الدين هذا عماء هبة الله ، وابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله صاحب الموسوعة الضخمة في علوم الحديث والرواية والتاريخ والمعروفة باسم (تاريخ مدينة دمشق) ومن الذين اشتهروا من هذه الاسرة ايضا هم فخر الدين الحافظ ابو محمد بن ابي القاسم وابنه العماد ، اضافة الى شقيق فخر الدين تاج الامناء احمد وغيرهم من العلماء الافاضل . (١)

ولقد كان من الطبيعي أن يتأثر فخر الدين بن عساكر بحكم نشأته في بيت اشتهر بالعلم والفضل ، فاقبل منذ صغره على تلقي العلم على ايدي كبار علماء أسرته واشتغل بالفقه الشافعي على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري حتى برع في ذلك وانفرد بعلم الفتوى على مذهب الشافعي ، وصارت الفتاوى ترسل اليه من سائر الاقطار (٢) .

واشتغل فخر الدين بالتدريس مكان استاذه وحميه قطب الدين النيسابوري بالمدرسة الجاروخية (٣) بدمشق ، ثم تولى التدريس بالمدرسة

-
- (١) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٦ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٣٠ - ٦٣١ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ١٠٠-١٠٦ .
- (٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٦ .
- (٣) اسم المدرسة الجاروخية الأمير سيف الدين جاروخ التركمانسي أحد قادة الدولة الايوبية داخل مدينة دمشق قرب باب الفراديس وتولى التدريس بها عدد من العلماء ومن ضمنهم فخر الدين بن عساكر ، وظلت هذه المدرسة قائمة طوال العصرين الايوبي والملوكي . انظر ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٢٩-٢٣٠ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٢٥ .

الناصرية بالقدس التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي ، وقد جمع فخر الدين بين الوظيفتين فكان يقيم بدمشق أشهراً وبالقدس أشهراً للتدريس للطلبة بالمدرستين ^(١) . ويبدو أنه كان ينيب نائباً عنه

حينما يغيب عن إحدى المدرستين ، ثم اسند إليه السلطان العادل التدريس بالمدرسة التقوية ^(٢) ، حيث اجتمع بها حشد من الفقهاء والعلماء للاستماع إليه حتى صارت تلك المدرسة تسمى نظامية الشام تشبهاً لها بالمدرسة النظامية المشهورة في بغداد ^(٣) . كما درّس فخر الدين ابن عساكر ببعض المدارس الأخرى بدمشق ^(٤) .

وقد انتفع به كثير من طلبة العلم واعتكفوا بمجلسه لينهلوا من علمه الواسع وقد اشتهر بالتواضع والتقوى ، كما كان يقوم بعد عصر كل يوم بقراءة الحديث على مستمعيه بدار الحديث النورية حتى أن أباشامة ذكرانه سمع على يديه معظم كتاب دلائل النبوة ^(٥) .

وقد عرض عليه السلطان العادل منصب القضاء فرفض خوفاً وورعاً ، واخفق العادل في إجباره على قبول منصب القضاء رغم ضغطه الشديد عليه ^(٦) .

(١) أبوشامة : ذيل الروضتين ص ١٣٧ ؛ السبكي : طبقات الشافعية

ج ٨ ص ١٧٩ ؛ العليمي : الانس الجليل ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) المدرسة التقوية نسبة إلى واقفها الملك المظفر تقي الدين عمر بن

شاهنشاه بن أيوب ملك حماه . انظر ابن شداد : الاطلاق

الخطيرة ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) أبوشامة : ذيل الروضتين ص ١٣٧ .

(٤) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ١٧٩ .

(٥) أبوشامة : المصدر السابق ص ١٣٧ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٣٧ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٠١ ؛

السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ١٧٨ .

ولفخر الدين بن عساكر مصنفات في الفقه والحديث وغيرهما
من علوم الشريعة ، غير ان المؤرخين لم يذكروا لنا اسما تلك المؤلفات
المفقودة . وقد تفقه على يديه كثير من العلماء ياتي على رأسهم تلميذه
الفذ عز الدين بن عبد السلام . وظل فخر الدين بن عساكر يمارس دوره
العلمي في نشاط جم حتى وفاته سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م (١)

الناصح بن الحنبلي :

وهو ابو الحفج عبد الرحمن بن نجم الدين بن عبد الوهاب
ابن الشيخ ابي الفرج السعدى العبادى الشيرازى الاصل الدمشقي
المولد والمنشأ الفقيه الحنبلي ولد بدمشق سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م
وفيها تلقى علومه الاولى على أيدي كبار العلماء ثم رحل في طلب
العلم الى بغداد واصبهان والموصل وغيرها من مراكز الفكر الاسلامي ،
وبعد ان اصبح عالما متمكنا رحل الى كثير من البلاد ونصح ووعظ بها
 واصبح له حرمة ومكانة عند الملوك ، وحضر فتح بيت المقدس مع
السلطان صلاح الدين ثم استقر أخيرا بدمشق (٢)

وفي دمشق اشتغل الناصح بالتدريس في عدد من مدارسها
كما أنشأت له صاحبة ربيعة خاتون بنت ايوب مدرسة بجبل الصالحية
بدمشق عرفت باسم الصاحبية وعهدت اليه بالتدريس بها سنة

-
- (١) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ج٣ ص ٤٢٩ ؛ السبكي :
طبقات الشافعية ج٨ ص ١٧٧ ؛ الذهبي : العبر ج٥ ص
٨٠-٨١ ؛ الكتبي : فوات الوفيات ج٢ ص ٢٨٩-٢٩٠ ؛ ابن
تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٥٦ ؛ ابن العماد :
شذرات الذهب ج٥ ص ٩٣ .
- (٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٠٠ ؛ ابن العماد :
شذرات الذهب ج٥ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

١٢٣١هـ / ١٢٣١م وحضرت بنفسها من وراء الستر للاستماع الى أول درس القاه بها (١) .

وقد انتهت الى الناصح رئاسة المذهب الحنبلي في بلاد الشام حتى انه حين استقر به المقام بدمشق استقبله ابن قدامسة وقال له : " سررت بقدومك مخافة أن اموت وانت غائب فيقع وهن في المذهب وخلف بين اصحابنا " (٢) .

وقد برز الناصح الحنبلي في علوم الحديث والفقه الحنبلي ، وله عدة مؤلفات منها كتاب (اسباب الحديث) في عدة مجلدات ، وكتاب (الاستشهاد بمن لقيت من صالحى العباد في البلاد) وكتاب (الانجاد في الجهاد) وكتاب (تاريخ الوعاظ) وكتاب (المقامة الدمشقية) وكتاب (الاجماع والنص) ، و (المروق في التفسير) وكتاب (الحقائق في الوعظ والجدل) ، و (شرح أسماء الله تعالى) ، و (مختارات من المسند والبخارى ومسلم والاقيسة والخطب) وغير ذلك من المؤلفات القيمة ، وظل يقوم بمهام الوعظ والتدريس بدمشق حتى توفي سنة ١٢٣٤هـ / ١٢٣٦م (٣) .

- (١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ ص ٢٥٧ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص ٧٩ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهريّة ص ١٥٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص ١٦٥ .
- (٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص ١٦٥ .
- (٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٠٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص ١٦٦ .

تقي الدين بن الصلاح :

هو أبو بكر عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي
الشهرزوري الأصل ، الموصلي المنشأ دمشقي الدار المعروف بابن
الصلاح ، الفقيه الشافعي ومفتي بلاد الشام ومحدثها ، كان أحد
فضلاء عصره وعلما زمنه في التفسير والحديث والفقه واسماء الرجال
وكل ما يتعلق بعلوم الحديث واللغة ، وكانت له مساهمات في علوم
عديدة ، وفتاويه مشهورة صائبة (١) .

تلقى ابن الصلاح علومه الأولى بالموصل على مشاهير العلماء
ثم سافر إلى خراسان في طلب العلم وجاء إلى بلاد الشام ، وتولى
التدريس بالمدرسة الناصرية بالقدس وأقام بها فترة من الزمن
حتى شرع المعظم في هدم أسوار بيت المقدس سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م
ومن الحملة الصليبية الخامسة ، فانتقل ابن الصلاح إلى دمشق وتولى
التدريس في عدد من مدارسها مثل المدرسة الرواحية التي أنشأها الزكي
أبو القاسم هبة الله بن عبد الواحد بن رواحة الحموي ، وحين بنسى
الأشرف بن العادل دار الحديث بدمشق فوَّض إلى ابن الصلاح تدريس
علوم الحديث بها ، وتولى التدريس أيضا في مدرسة ست الشام زمرد خاتون
بنت أيوب داخل دمشق ، وظل يلي التدريس بهذه المدارس الثلاث

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٤٣ ؛ السبكي : طبقات

الشافعية ج ٨ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ؛ ابن كثير : البداية

والنهاية ج ٣ ص ١٦٨ ؛ العليمي : الانس الجليل

طوال حياته (١).

وقد صنف تقي الدين بن الصلاح عددا من المؤلفات في علوم الحديث والفقه ، منها كتاب في علوم الحديث ، وآخر في مناسك الحج وكتاب (مشكل الوسيط) في الفقه ، وكتاب في الفتاوى وهو كثير الفائدة وكتاب (ادب المفتي والمستفتي) ونكت على المذهب ، وكتاب فوائد الرحلة وهو أجزاء كثيرة مشتملة على فوائد غريبة من انواع العلوم نقلها في رحلته الى خراسان وكتاب (طبقات الفقهاء الشافعية) وله مصنفات اخرى على بعض المسائل ، وظل يمارس دوره في التدريس والتأليف حتى توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م . (٢)

عز الدين بن عبد السلام :

هو ابو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن ابي القاسم ابن حسن بن محمد بن مذهب السلمي الدمشقي ، شيخ الاسلام والمسلمين وأحد الأئمة البارزين الملقب بسلطان العلماء ، كان امام عصره بلا نزاع ،

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٥٧-٧٥٨ ؛ ابن خلكان :

وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٤٣-٢٤٤ ؛ العليمي : الانس الجليل

ج ٢ ص ١٠٤ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ٣٢٧ ؛

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٨ ؛ ابن الوردي :

تتمة المختصر ج ٢ ص ٢٥٦ ؛ الذهبي : المعبر ج ٥ ص ١٧٧-

١٧٨ ؛ ابن قنقد : الوفيات ص ٣١٦ وحاشية رقم (١) ؛

النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٢٠-٢١ ؛

عبد الجليل حسن : المدارس في بيت المقدس ج ١ ص ٢١٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٤٤ ؛ العليمي : الانس

الجليل ج ٢ ص ١٠٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣

ص ١٦٨ ؛ النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٠-٢١ .

ولم يكن يخشى في الله لومة لائم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون خوف أو وجل من سلطان أو غيره له شجاعة في الحق فريده. (١)

ولد العز بدمشق سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م وفيها تلقى علومه على أيدي كبار العلماء فدرس الفقه على يد فخر الدين بن عساكر شيخ الشافعية ببلاذ الشام في زمنه ، وعلى يد القاضي جمال الدين بن الحرستاني ، وقرأ الأصول على سيف الدين الامدي وغيره ، ودرس الحديث على كبار علماء آل عساكر ، ودرس جميع علوم الشريعة والعربية على كبار شيوخها في بلاد الشام ، وفاق أقرانه ، وبرز في التفسير والحديث والفقه ، وبلغ مرتبة الاجتهاد ، وانتهت اليه رئاسة مذهب الشافعي ، وقصده الطلبة من جميع الاقطار للتعلم على يديه ، وتخرج عليه عدد كبير من العلماء مثل شيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، وهو الذي لقبه بسلطان العلماء ، والامام علاء الدين ابو الحسن الباجي ، والحافظ ابو محمد الدمياطي والعلامة ابو محمد هبة الله القفطي وغيرهم . (٢)

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٠٢ ؛ السبكي : طبقات الشافعية ج٨ ص ٢٠٩ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ج١ ص ٢٧٣ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
- (٢) السبكي : طبقات الشافعية ج٨ ص ٢٠٩ - ٢١٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٣٥ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص ٣٠١ - ٣٠٢ = وللمزيد عن تاريخ العز ابن عبد السلام ودوره في محاربة البدع والوقوف ضد تجاوزات واخطاء الحكام وجهاد الصليبيين والمغول . انظر السبكي : المصدر نفسه ج٨ ص ٢٠٩ - ٢٥٥ فهي من اطول التراجم التي وردت للعز في المصادر .

تولى عز الدين بن عبد السلام الخطابة والامامة بالجامع
الأموي بدمشق^(١)، غير انه لم يلبث أن اصطدم بملكها اسماعيل الذي
تنازل للصليبيين عن بعض بلاد المسلمين سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م فرفض
العزالدعاء له في الخطبة، وندد بتصرفه واكثر من التشنيع عليه فعزلته
عن الامامة والخطابة، وظل العز ثابتا على موقفه ثم غادر بلاد الشام
الى مصر^(٢)، حيث استقبله الصالح ايوب بحفاوة بالغة وعينه خطيبا
لجامع عمرو بن العاص واسند اليه منصب القضاء بمصر ثم تولى تدريجاً
المدرسة الصالحة بالقاهرة، وقضى بقية حياته بمصر محارباً للبدع، ولعب
دورا حاسما في رفع الروح المعنوية لدى المسلمين زمن الحملة الصليبية
السابعة، وحث المالكي على الخروج الى بلاد الشام لصد المفلول،
وقد كان لتوجيهاته وفتاويه في الجهاد أبعد الأثر في انتصار المسلمين
في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م^(٣).

ولعز الدين بن عبد السلام مؤلفات قيمة مشهورة في التفسير
والفقه والحديث والأصول أهمها (القواعد الكبرى) وكتاب (مجاز
القرآن) وهذان الكتابان شاهدان بأهمته وعظيم منزلته في علوم
الشرعية على حد قول السبكي^(٤). وقد اختصر القواعد الكبرى في

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣٠.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٠٢-٣٠٣ ؛ السبكي :
طبقات الشافعية ج ٨ ص ٢١٠ وانظر ما سبق الفصل الثالث

ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ٢١٠-٢١٢، ٢١٥-٢١٧،

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) السبكي : المصدر السابق ج ٨ ص ٢٤٧.

قواعد صفري ، والمجاز في آخر ، وله كتاب (شجرة المعارف) وكتاب (الدلائل المتعلقة بالملائكة والنبيين عليهم السلام والخلق اجمعين) وله في التفسير كتاب مختصر ، وكتاب (الفاية في اختصار النهاية) و (مختصر صحيح مسلم) و (الامام في أدلة الاحكام) ، و (بيان احوال الناس يوم القيامة) و (بداية السؤل في تفضيل الرسول) وله أيضا كتاب (الفرق بين الايمان والاسلام) و (فوائد البلوى والمحن) وله كتابان آخرون في الفتاوى وغير ذلك من الكتب (١) .

وتوفي عز الدين بن عبد السلام بعد عشرين عاما اقامها في مصر يحيط به الاكبار والاجلال وذلك سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م وشهد السلطان الظاهر بيبرس جنازته وحضر الصلاة عليه ودفنه ، كما شيعه كبار رجال الدولة وعساكرها وطبقات الشعب (٢) .

ثانيا : علوم العربية : النحو واللغة والشعر والأدب :

النحو واللغة :

من الحقائق الثابتة المعروفة ارتباط ازدهار علوم الشريعة بعلوم النحو واللغة ، ذلك أن معرفة النحو واللغة لا غنى عنها لفهم معاني ومقاصد القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة . ولذلك لانجد خلال العصور الاسلامية عالما بالشرعية الا ويكون في الوقت نفسه متضلعا في النحو وعلوم العربية .

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ؛ احمد بدوي :

الحياة العقلية ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٠٢ ؛ احمد بدوي :

الحياة العقلية ص ١٦٤ .

وفي خلال الحقبة موضع الدراسة ازدهرت علوم العربية ولا سيما النحو واللغة وظهر الكثير من العلماء ، وسوف نعرض لأهمهم وأشهرهم للدلالة على مدى الازدهار الذي شهدته علوم اللغة في هذا العصر .

(١) الكندى : تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد

الكندى . ولد سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م وكان من أشهر علماء عصره وأوثقهم رواية ودراية . متضلعا في علوم العربية وآدابها ، وقد عاش عمرا مديدا صرفه في طلب العلم والافادة منه ، وتلقى علوم العربية على ايدي كبار العلماء ، ودرس عليهم امهات الكتب في علم النحو واللغة كما سماع الاحاديث من كبار المحدثين ، وسكن دمشق واقام بها ، وازدحم عليه شيوخ العلم وطلبته من ابناء الملوك وغيرهم ، وضحى امام العربية في بلاد الشام ، ونبغ في النحو والعروض والادب والشعر وله خبرة فائقة بالنقد والتحقيق ، وليس أدل على مكانته من العدد الكبير والمكانة المرموقة التي بلغها تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه مثل ابي الحسن السخاوي والبوني وابن معطي ، والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهم .

(١) عاش الكندى اكثر حياته قبيل الحقبة موضع الدراسة ، ونشير اليه

هنا بسبب الاثر الذي تركه في علوم العربية ببلاد الشام .

(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٧٥ ؛ ياقوت الحموي :

معجم الادباء ج ١١ ص ١٧١ - ١٧٥ ؛ ابو شامة : ذيل الروضتين

ص ٩٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ؛

القفطي : انباء الرواة على انباء النحاة ج ٢ ص ١٠ - ١١ ؛ ابن

كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٧١ - ٧٢ ؛ السيوطي : بغية

الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ج ١ ص ٥٧٠ - ٥٧٣ .

كما أن الوزير علي بن يوسف القفطي افرد أحد كتبه للحديث عن الكندي وسماه (مشيخة زيد بن الحسن الكندي) ولكنه مفقود مع الأسف .^(١)

وقد اشتغل الكندي بالتدريس أكثر من اشتغاله بتأليف الكتب ولذلك تخرج على يديه - كما مر آنفاً - كبار علماء العربية ، وموفاته لا تتناسب مع ما حازه من شهرة وبُعْدَ صيت ، فله حواشي على شرح الواو لديوان المتنبي ، وله تعليقات على خطب ابن نباتة المصري ، وكتاب آخر سماه (نواف اللحية من ابن دحية) رد فيه على ابن دحية الكلبى الذى ألف كتاباً سماه (الصارم الهندى في الرد على الكندى) بعد ان انتقده الكندى في مجلس وزير السلطان العادل ابن شكر .^(٢)

وتوفي الكندي بدمشق سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦ بعد ان ساهم في ازدهار العربية وعلومها .^(٣)

ابن الحاجب : هو ابو عمرو عثمان بن عمر بن ابي بكر ، كان والده جندياً حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي ، أحد قادة صلاح الدين ، ولذلك عرف باسم ابن الحاجب ، وهو كوردى الأصل عربى المولد والمنشأ والثقافة ، ولد باسنا من صعيد مصر سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م واخذه والده معه الى القاهرة ، فدرس القراءات على الفزنى

(١) انظر ما سبق ص ٤٥٤ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ١١ ص ١٧٥ ؛ احمد بدوى :

الحياة العقلية ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٧٧ ؛ ابوشامة :

ذيل الروضتين ص ٩٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣

ص ٧١ - ٧٢ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ج ١ ص ٥٧٣ .

والشاطبي ، وسمع الحديث من البوصيري ، وتفقه على مذهب الامام مالك على ايدي كبار الفقهاء مثل ابي منصور اليباري وابن البناء وغيرهما ، ثم سافر واستقر بدمشق سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م ولازم القاسم بن عساكر مشغلا على يديه ، وقد تميز ابن الحاجب بالذكاء الخارق والفهم العميق ، فاتقن علوم العربية غاية الاتقان ^(١) . وقد وصفه ابو شامة بانه :

" كان ركنا من اركان الدين في العلم والعمل بارعا في العلوم الاصولية وتحقيق علم العربية ، متقنا لمذهب مالك بن انس رحمه الله ، وكان من اذكي الامة قريحة ، وكان ثقة حجة متواضعا عفيفا ، كثير الحياء منصفا محبا للعلم واهله ناشرا له ، محتملا للاذى صبورا على البلوى ^(٢) .

اشتغل ابن الحاجب خلال اقامته بدمشق بالتدريس فاتخذ من زاوية المالكية بالجامع الاموي حلقة للتدريس " وأكب الخلق على الاشتغال عليه والتزم لهم الدروس وتبحر في الفنون وكان الاغلب عليه علم العربية ^(٣) .

ولابن الحاجب مؤلفات قيمة في علوم العربية والفقه واصوله وعلم العروض ، ففي علم النحو الفالكافية للناصر داود صاحب الكرك ، وهي عبارة عن ارجوزة قام بشرحها ، كما شرح الفصل في النحو

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٢٤٨-٢٤٩ ، الادبى : الطالع السعيد ص ٣٥٢-٣٥٣ ؛ ابوالفدا : المختصر ج٣ ص ١٢٨ ؛ السيوطي : بنية الوعاة ج٢ ص ١٣٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ج٢ ص ٨٦ ؛ النعمي : المدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص ٣-٤ ؛ طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج١ ص ١١٧-١١٨ .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٨٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٢٤٩ .

للمخشي ، وصنف في الصرف الشافية وقد اعتنى العلماء بالشافية والكافية وشرحوها ^(١) . وله كتاب الامالي في النوايا وغير ذلك من الموءلفات في علوم العربية وآدابها ، وبصفة عامة تميزت موءلفاته في النحو بسلامة التحقيق وجودة الراء " ومصنفاته في غاية الحسن وقد خالف النحاة في مواضع وأورد عليهم اشكالات والزامات مفحة يعسر الجواب عنها " ^(٢) وصنف في العروض (المقصد الجليل في علم الخليل) وهو عبارة عن ارجوزة في العروض ، غير أن موءلفاته لم تكن كبيرة الحجم حيث ركز على تحرير اللفظ والدقة في التحقيق ^(٣) .

وفي مجال الفقه المالكي الذي كان يتولى زعامته في بلاد الشام ألف العديد من الكتب وعلى رأسها كتاب (الجامع بين الامهات) وقد حاز هذا الكتاب على شهرة عريضة حتى ان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وهو أحد أئمة الشافعية اشد بهذا الكتاب واظن في مدحه ^(٤) . وفي اصول الفقه اختصر كتاب الاحكام للامدنى وانتشرت كتبه في سائر البلاد ولا سيما بلاد العجم ، وظل الطلبة بعده يتدارسون كتبه ويفيدون منها ^(٥) .

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٥٤ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ج ٢ ص ١٣٥ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ج ٢ ص ١٣٧٠ ؛ طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ١٤٧-١٤٨ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٨٨ ؛ احمد بدوى : الحياة العقلية ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) السيوطي : بغية الوعاة ج ٢ ص ١٣٥ .

(٣) احمد بدوى : الحياة العقلية ص ٢٠٨ .

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ٢ ص ٨٧-٨٨ .

(٥) ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٨ .

واشتهر ابن الحاجب بالحزم والقوة في الحق، فساند زعيم الشافعية بدمشق عز الدين بن عبد السلام في موقفه من الصالح اسماعيل الذي فرط في بعض بلدان المسلمين في بلاد الشام لحساب الصليبيين، مما اغضب اسماعيل على ابن الحاجب وابن عبد السلام، ففادرا بلاد الشام الى مصر سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م واشتغل ابن الحاجب بالتدريس في القاهرة ثم غادرها الى الاسكندرية وتوفي بها سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م بعد ان اسهم بقسط وافر في تطور علوم العربية بمصر والشام. (١)

علم الدين السخاوى : هو ابو الحسن على بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري السخاوى ولد سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٥م ودرس في بداية حياته الفقه على مذهب مالك ثم انتقل الى مذهب الشافعي (٢) وشرع في دراسة علوم العربية فاخذ عن الشيخ ابي محمد القاسم الشاطبي علم القراءات والنحو واللغة وعلى ابي الجود غياث بن فارس بن مكي المقرئ وسمع بالاسكندرية من السلفي وابن عوف، وبمصر من البوصيري وابن ياسين (٣)، واشتغل في مصر معلما لابناء الامير عماد الدين بن موسك احد قادة الدولة الايوبية وانتقل معه الى دمشق وفيها لازم الكندي وقرأ عليه علوم العربية والادب. (٤)

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٠٢-٣٠٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٧٦ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ج٢ ص ١٣٥ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ج٢ ص ٢٥٠ ؛ احمد بدوي : الحياة العقلية ص ٢٠٦-٢٠٧ .
- (٢) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج٥ ص ٦٥ .
- (٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٣٤٠ ؛ القفطي : انباء الرواة على انباء النحاة ج٢ ص ٣١١ .
- (٤) ياقوت الحموي : معجم الادباء ج٥ ص ٦٦ .

وبعد وفاة الكندي صار علم الدين السخاوي " فقيها يفتي الناس واماما في النحو والقراءات والتفسير ، قصده الخلق من البلاد لأخذ القراءات عنه " (١) . واتخذ حلقة بجامع دمشق للتدريس وأقبلت عليه اعداد غفيرة من طلبة العلم ليأخذوا عليه القراءات وعلوم العربية (٢) .

وله مصنفات منها ، التفسير حتى سورة الكهف في اربع مجلدات وشرح الشاطبية في مجلدين ، وشرح المفصل للزمخشري في اربع مجلدات وله كتاب اسمه سفر السعادة وسفير الافادة ، وله في القراءات كتاب ، جمال القراء وتاج الاقراء ، وغير ذلك من المؤلفات المفيدة (٣) .

وظل علم الدين السخاوي مواظبا على وظيفته وعنايته بطلبته حتى توفي بدمشق سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م. وقد وصفه تلميذه أبو شامة بقوله " وختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ وفقد الناس علما كبيرا ، ومنه استفدت علوما جمة كالقراءات والتفسير وعلوم فنون العربية " (٤) .

-
- (١) السبكي : طبقات الشافعية ج٨ ص ٢٩٧ .
- (٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٥ ص ٦٦ ؛ ابن خلكان وفيات الاعيان ج٣ ص ٣٤٠ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٥ ص ٢٢٢ .
- (٣) ياقوت الحموي : المصدر السابق ج٥ ص ٦٦ ؛ ابن خلكان المصدر السابق ج٥ ص ٣٤٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٧٠ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ج٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٥ ص ٢٢٢ .
- (٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٧ .

الشعر والأدب :

رأينا كيف ازدهرت الحياة الفكرية في هذا العصر ومن الطبيعي أن يشمل ذلك الازدهار ميدان الشعر والأدب ولا سيما وأن معظم حكام بني أيوب في هذا العصر كانوا أدباء وشعراء . قرضوا الشعر ، ول بعضهم دواوين مثل الملك الأجد ملك بعلبك صاحب الديوان الكبير الذي يضعه بين فحول الشعراء في عصر الحروب الصليبية .^(١)

وقد غزى الشعر وكثر قائلوه وتركوا حوادث العصر والظروف التي سادته بصماتها على الشعراء فلم يتركوا غرضاً من أغراض الشعر إلا وأسهموا فيه بنصيب ، فنجد في ذلك العصر شعر المدح والهجاء والفخر والفضل والرشاء وغيرها من أغراض الشعر ، وجدّ في هذا العصر اتجاه جديد في أغراض الشعر ، فتحدث الشعراء عن وصف المعارك مع الصليبيين ومدحوا الملوك والحكام الذين خاضوا تلك المعارك^(٢) .

وسنرى فيما يلي بعض الأمثلة التي توضح ازدهار الشعر ومجالسه في هذا العصر كدليل على قوته وازدهاره

(١) انظر ما سبق ص ٤٤٣ .

(٢) تناول عدد من الباحثين الأدب في عصر الحروب الصليبية في دراسات شاملة ومفصلة ، ومنهم الدكتور عبداللطيف حمزة الذي ألف كتاباً باسم أدب الحروب الصليبية وطبع بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م ، والدكتور أحمد بدوي وله دراسة قيمة بعنوان الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، وطبع بالقاهرة (بدون تاريخ) وللدكتور ناظم رشيد بحث بعنوان الأدب عند بني أيوب بمجلة المورد العراقية العدد الثالث

ففي سنة ٥٩٩هـ / ١١٠٣ م على سبيل المثال انزل الملك المنصور صاحب حماة الهزيمة بالصليبيين وأسر منهم جماعة من فرسانهم فبعث بهم الى حماة ودخلها مظفرا فمدحه بهاء الدين أسعد السنجاري بقصيدة يهنئه بهذا النصر وما جاء فيها قوله (١) :

المجد يدرك بالعسالة الذبل والمشرقية لا بالوعد والاُمَل
ما لذة العيش الا صوت معمعة ينال قيتها النوى بالبيض والاسل
وابرز الى الموت يوم الروح مدرعا قلبا اذا زالت الا فلاك لم يزل
ياأوحد العصر ياخير الملوك ومن فاق البرية من حاف ومتعل
جاهدت في الله طوعا والملوك غدوا

يستمتعون بذات الحل والحل
يداك باطنها اللجود مذخلقت وظاهرها للشم والقبـل
وانت شرفت ايوبا على شرف فيه وفقت كرام السادة الاول
أغدت بيض المواضي في الرقاب وقد

حليت عاطلها ضربا من القل
عاجلتهم بالمنايا والحتوف فلا تترك لهم اجلا يبقى الى أجل
ويتضح من هذه الابيات مدى قوة الشعر في هذا العصر
واحفاظه بكثير من مظاهر البلاغة والجزالة التي عرف بها الشعر العربي
ولا سيما زمن الشعراء الفحول امثال المتنبي والمعري وابن ابي حصينة
وابن حيوس وغيرهم .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٤٤ - ١٤٥ .

وبعد أن حقق المسلمون النصر على الصليبيين سنة ٦١٨هـ /
١٢٢١ م وفشلت الحملة الصليبية الخامسة فشلا ذريعا في تحقيق
اعدادها . أقيم احتفال بهذه المناسبة وهنّت الشعراء أبناء العادل
الثلاثة الكامل محمدا والاشرف موسى والمعظم عيسى الذين كان
لتعاونهم ووحدهم ابعد الاثر في احراز النصر على الصليبيين ومما
قاله ابن عنين مادحا المعظم :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفا
من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رايًا وعزما وهممة
(١) وديننا وان كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بانصار الصليب فأقبلت
جمع كأن الموج كان لهم سفنا
واطمعهم فينا غرور فأرقلوا
الينا سراعا بالجياد وارقلنا
فما برحت شمر الرماح تنوشهم
بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
وكيف ينام الليل من عدم الا منا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا
طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى

(١) يشير الشاعر هنا الى اختلاف السنة الصليبية لكون الحملة مكونة
من عناصر مختلفة من الهنغاريين والاطاليين والالمان والفرنسيين
وغيرهم من العناصر الأوروبية .

لقوا الموت من زرق الأُسنة حمرا قالوا بأيديهم إلينا فأحسننا
وما برح الاحسان منا سجيّة توارثها عن صيد آبائنا إلينا
يسير بنا من إل أيوب ماجد أبى عزمه أن يستقر به مفرى
سرى نحو دميّاط بكل سميذع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنّا
وقد عرفت أسياقتنا ورقابهم مواقعها فيها فان عادوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة فعاشوا باعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ولو غا ولكنّا ملكنا فأسجحنّا^(١)
كما ألقى ابن عنين قصيدة أخرى مدح بها الملك الأشرف موسى
مطلعها :

جل العتاب إلى الصدود توصلا ريم رمى فاصاب منى المقتلا^(٢)
أما الشاعر بهاء الدين بن زهير بن محمد بن علي القوسي فقد مدح
السلطان الكامل بقصيدة قوية السبك جميلة المعاني مثل قوله فيها :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر وردت على اعقابها ملة الكفر
وما فرحت مصر بهذا الفتح وحدها لقد فرحت بفداده أكثر من مصر
ولو لم يقم في الله حق قيامه لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا عزمة كامليّة لخافت رجال بالمقام وبالحجر^(٣)

-
- (١) ديوان ابن عنين ص ٣٠ - ٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٠٠-١٠١
(٢) ديوان ابن عنين ص ١١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٠١
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٠٣

وقد ابداع احد الشعراء في وصف نجدة الاخوين المعظم عيسى
والاشرف موسى لاختيهما السلطان الكامل محمد في قوله من قصيدة :

أعباد عيسى إنَّ عيسى أتاكم وموسى جميعا ينصران محمداً^(١)

وما قالته جارية الاشرف موسى ست الفخر بنت التاجر تمدح سيدها
قولها من قصيدة بديعة المعنى :

ولما طفى فرعون عكا وقومه وجاء الى مصر ليفسد في الارض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا ففرقهم في اليم بعضا على بعض^(٢)

ويتضح من هذا المجلس الذي عقد مدى تشرب بني ايوب للثقافة
العربية رغم اصولهم الكردية ، حتى ليخيل للقارى انهم عرب يعيشون
في القرون الاولى زمن ازدهار الشعر العربي ، حين كان ذلك الشعر
يمثل سلاحا إعلاميا حاسما في ميدان المقارعة والحجة .

ولم يقل شعر الرثاء في هذا العصر في قوته وجزالته وبعد اثره في
النفس عن بقية اغراض الشعر الاخرى ، ففي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩ م على سبيل
المثال توفيت ملكة خاتون ابنة السلطان العادل وزوجة المنصور صاحب
حماء ، فحزن عليها المنصور حزنا شديدا وجلس للعزاء بقلمه حماة ،
وحضر العلماء والادباء مجلس العزاء ومنهم المؤرخ ابن واصل وكان
عمره حينئذ نحو اثنتي عشرة سنة ، حضر مع والده وبعد أن قرأ القراء

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ج٢ ص ١٠٥ = والمقصود بفرعون عكا = ملك عكا حنا
دى بريين قائد الحملة الصليبية الخامسة ، والمقصود بموسى الملك
الاشرف موسى بن العادل ، وتشير الشاعرة الى غرق الصليبيين
في مياه النيل حين فجر المسلمون السدود والقناطر فاجتاحت
المياه المعسكر الصليبي .

بين يديه وتكلم الوعاظ ، جاء دور الشعر فانشدوا المراثي بعد أن اقترح عليهم المنصور أن ينظموا المراثي على وزن قصيدة ابي العلاء المعري التي مطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقدا السمر لعل بالجنع أعوانا على السهر

فعمل جماعة من الشعراء قصائد على هذا الوزن والروي ، وأجود

قصيدة قيلت نظمها الشاعر حسام الدين خستري بن تليل ، وهو أحد

الجنود الاكراد ولكنه كان شاعرا مجيدا ، وقد ابدع في قصيدته التي القاها ووصف لبعس الملك المنصور السواد وما جاء في القصيدة قوله : (١)

لو كان من مات يفدى قبلها لفدى ام المظفر الاف من البشر

وراح من دونها للطعن أسد شرى على خيول لديها نزوة النمر

صيد اذا شهروا سيافهم كتبوا بها حروفا على الهامات في سطر

وللملك المنصور قصائد رثاء رائعة قالها بعد موت زوجته تدل على

أنه كان شاعرا مطبوعا قوى الاسلوب جزل الالفاظ صادق المشاعر وما

قاله في احدى تلك القصائد البديعة :

دموع كالغيوث الهاطلات لماض من كآباتي وآتي

على من في الضريح لها انيس صلاة واصلتها بالصلات

ايا من وجهها عندي عزيز ويا من موتها أوهى حياتي

سلام الله كل صباح يــــوم على تلك العظام الباليات

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٦٥-٦٨ = وهي قصيدة جميلة

اورد منها ابن واصل ثلاثين بيتا .

أساكنة اللحد عليك مني دموع دونها ماء الفرات
وفقدك صير الأيام عندي ليعمدك كالليالي الحالكات
ولم أك للحداد أخا لباس يعين على صروف النائبات
ولكنني أذبت سواد عينني فسال مع الدموع السائلات
وها أنا منك في اصفاد حزن لغير سماع نوح لا أوتحي
وابكي كلما غنى حمام واندب في العشية والفداة
وتبكي الصالحات عليك حزنا بكاء الأمهات على البنات (١)

وللمنصور صاحب حماة ديوان شعر ولكنه مفقود - مع الاسف - وقد
اورد ابن واصل نماذج من شعره ، وتدل القصائد على انه كان شاعرا
متمكنا ويتميز شعره بالعدوابة وجزالة الالفاظ وجمال الصورة (٢) .
وما قاله في الغزل :

يا ظبية البان هل وصل يسر به لينجلي بلذيذ الوصل أشجان
لا تبعثوا في نسيم الريح نشركم فأنني من نسيم الريح غيران
كيف السلوولي قلب يخالفني وفي الهوادج أقمار وغزلان (٣)

وما قاله من قصيدة يفتخر بها هذه الأبيات :

الفخر بالفضل ليس الفخر بالنسب والناس في ذاك من درون خشب

- (١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٦٨-٦٩ .
(٢) انظر تلك النماذج في ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٨-٨٦ .
(٣) المصدر نفسه ج٤ ص ٨١-٨٢ .

انا الذى لم ينل من ذا الورى أحد ما نلته قط من عجم ومن عرب
سموت فيهم باصل لا يقاومه أصل ومن بعده بالعلم والأدب
ايوب جدى حقيقا حين ينسبني يا حسنهارتبه تعلو على الرتيب
كم قد أبدت بسيفي كل مفتخر حامي الحقيقة يوم الجحفل اللجب
وكم تركت بني الافرنج في رعب فصرت أدعى لديهم جالب الرعب

وقد ازدهر الشعر والأدب في بلاط المنصور ازدهارا كبيرا بسبب تشجيعه
وحبه للشعر واغداقه الجوائز والاموال على الشعراء ، فقد ذكر ابن واصل
ان الملك المنصور كان (" يحب العلماء والفضلاء وأهل الأدب والشعر
ويحب سماع المديح ويجيز عليه الجائزة الكثيرة ") (١)

وقد تسامى شعر الرثاء في هذا العصر بحيث نستطيع أن نقرر
أنه يتساوى في قوته واثره مع غرر شعر الرثاء العربي على مر العصور ،
وما يبرهن على هذا القول تلك القصيدة الرائعة التي رثا بها الناصر
داود صاحب الكرك الخليفة العباسي المستنصر بالله حين بلغه نبأ
وفاته سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، وقد جاء فيها قوله : (٢)

أيا رنة الناعي عبث بمسمعي فأجبت نار الحزن ما بين اضلعي
نعيت التي البأس والجود والحجى فأوقفت آمالي وأجريت ادمعي
رويدا فقد فاجأتني بفظيمة يضيق بها صدر الفضاء الموسع

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٧-٢٨ .

(٢) القصيدة مكونة من ٤٥ بيتا وقد اوردها ابن واصل انظر جده ص ٣١٨-

أبا جعفر ياباني المجد بعدما تهدم ركن المجد من كل موضع
ويا كافل الاسلام في كل موطن وراعي رعاة الدين في كل مجمع
أحقا طوتك الحادثات كما طوت قرونا مضت من عهد كسرى وتبع
ولو كان خطب الموت يقبل فدية ويدفعه سعى الكسرى المدرع
فديتك بالنفس النفيسة طائعا ودافعت بالجيش اللهم المنع
لقد كنت لي حصنا حصينا من العدى اليه التفاتي في الخطوب ومفرجي
سابكه ايام الحياة وان أمست بكته عظامي في قرارة مضجعي

وفي سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م انتزع الصالح ايوب من ابن عمه الناصر
داود معظم بلدان مملكته وضايقه بالكرك حتى قل ما بيده من الاموال
والذخائر، وحين اشتدت الضائقة بالناصر داود جادت قريحته بعمل
قصيدة رائعة السبك حسنة المعاني جزلة الالفاظ، تعتبر من قلائد
شعره، وغرر الشعر العربي في عصره، يعاتب فيها ابن عمه الصالح
ايوب ويذكره ما له من اليد عنده وما اولاه من الجميل حين قام بخدمته
والذب عنه ومواجهة اعدائه عندما قصدوه واهدروا دمه، ثم اخراجه
له من الكرك ومساعدته على امتلاك مصر، وانه لم يحسن له الثواب على
فعله هذا وقطع رحمه بمقاتلته وما جاء في القصيدة قوله : (١)

قولوا لمن قاسمته ملك اليد ونهضت فيه نهضة المستاسد
يا قاطع الرحم التي صلتني بها كتبت على الفلك الاثير عسجد

(١) القصيدة مكونة من ٤٩ بيتا، انظرها في ابن واصل : مفرج الكروب

والقصيدة باللغة الجمال تدل بما لا يدع مجالا للشك على
ازدهار الشعر في هذا العصر ، وعلى ان بني ايوب اصبحوا عرب الثقافة
واللغة والتفكير .

وقد برز في هذا العصر - بالاضافة الى ملوك بني ايوب - الكثير من
الشعراء اشهرهم جميعا الشاعر :

شرف الدين بن عنين : هو أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن
الحسين بن عنين الانصاري ، ولد بدمشق سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وفيها
تلقى علومه على أيدي كبار علمائها ، حيث اقبل على علوم عصره في همة
ونشاط فدرس التفسير والمنطق والحساب والهندسة واتقن علوم العربية
وحفظ الكثير من اشعار العرب لدرجة انه حفظ كتاب الجوهرة لابن
دريد ، وكان خاتمة شعراء العربية الفحول ، وحين اصبح شاعرا كبيرا
عمد الى انشاء قصيدة ناقدة مكونة من خمس مئة بيت سماها مقراض الاعراض
هجا فيها صلاح الدين ورجال دولته وجمعا كبيرا من اعيان دمشق ،
فنفاه صلاح الدين عن دمشق فطاف بالعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان
والهند وبلاد ما وراء النهر ، ولم يطب له المقام بتلك البلاد ، فقدم الى
اليمن ومدح ملكها طفتكين بن ايوب - اخو صلاح الدين - وأقام في
كنفه مدة وبعد ان عفى عنه السلطان العادل سافر الى مصر ثم
غادرها الى دمشق وظل بها حتى توفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م .
(١)

- (١) ابن خلكان : وفیات الاعيان ج٥ ص ١٤-١٥ ؛ ديوان ابن عنين :
مقدمة المحقق ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٤١-٤٣ ؛ سبط
ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٩٦-٦٩٨ ؛ ابن كثير : البداية
والنهاية ج١٣ ص ١٣٨ ؛ ابن الوردي : تنمة المختصر ج٢ ص ٢٤٠ ؛
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٩٣-٢٩٥ ؛ ابن العماد :
شذرات الذهب ج٥ ص ١٤٠-١٤٢ ؛ احمد بدوي : الحياة
الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٢٢ .

وقد هيأت الثقافة الواسعة التي حصلها ابن عنين اضافة الى ما لديه من استعداد فطري قوى لأن يصل الى درجة كبيرة من اتقان الشعر، وقد تميز شعره بجودة الأسلوب وقوة التعبير وجزالة النص وسلامة الجمل في الغالبية العظمى من شعره، ولا ينزل عن هذا المستوى الا قليلا في مواضع الهزل حين يروقه أن يستعمل اللحن او اللفاظ والتراكيب العامة التي تشيع بلدمشق في عصره واجدا في ذلك وسيلة للتأثير حين يتهمك ويسخر حتى يسير شعره على اللسنة كي يبلغ ما يريد ممن يتهمك ويسخر^(١). وما قاله يمدح السلطان المعادل واولاده :

ملك اذا خفت حلوم ذوى النهى في الروع زاد رزاة وتوقدا
وله البنون بكل ارض منهم ملك يقود الى الاغادى عسكرا
وما قاله يصف حنينه وغربته :

حنين الى الاوطان ليس يزول وقلب عن الاشواق ليس يحول^(٢)
وقد ظهر خلال هذا العصر شعراء آخرون لا يتسع المجال لذكرهم .
اما الكتابة والنثر في هذا العصر فقد تنوعت بين الكتابات السلطانية والرسائل الاخوانية والادب التهذيبي والنثر الوصفي وغير ذلك من فروع الكتابة^(٣).

-
- (١) احمد بدوى : الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٢٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٩ - ٢٣١ .
(٣) انظر تفصيل الكتابة والنثر في المرجع السابق ص ٣٠٢ - ٤٠٠ .

الفلسفة :

والمقصود بها العلم الذي يبحث فيما وراء الطبيعة وقد ازدهرت علوم الفلسفة قبل العصر الأيوبي زمن الفاطميين غير أن صلاح الدين كان يكره الفلسفة ولذلك لم تزدهر في عصره. (١)

ولكن المعظم بن العادل ملك دمشق اعتنى بالفلسفة وبعلمائها وكذلك فعل ابنه الناصر داود ، والملك المنصور صاحب حماة ، غير أنه بعد وفاة المعظم وتولي الأشرف حكم دمشق بعد انتزاعها من الناصر داود سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م جرى تحريم الفلسفة والمنطق وكل ما كان يعرف بعلوم الأوائل ، إذ أمر الأشرف مناديه في دمشق أن يتأذى بأن لا يشتغل أحد من العلماء بشيء من العلوم سوى علوم التفسير والحديث والفقه ، ومن اشتغل بالمنطق والفلسفة وعلوم الأوائل فسوف ينفي من البلاد ، الأمر الذي أدى إلى قلة عدد العلماء في هذا المجال بعد أن رأوا ما آلت إليه أحوال علماء الفلسفة وما أصابهم من فقر وفاقة نتيجة اشتغالهم بها. (٢)

كما انتشرت آراء محاربة الفلسفة بين الفقهاء ، فقد كان شيوخ الشافعية بدمشق تقي الدين بن الصلاح " لا يُمكنُ أحداً في دمشق من قراءة المنطق والفلسفة والملوك تطيعه في ذلك " (٣).

(١) أحمد بدوي : الحياة العقلية ص ٢٨٧ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ٣١ ب ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢٤-١٤٨ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٣٩٣ .

(٣) النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢١ .

ورغم ذلك التيار المعارض لعلم الفلسفة ، الا انها لم تختف
نهائيا ، وظلت تُفصح عن نفسها بين حين وآخر من خلال بعض كبار
العلماء الذين سنتناول اشهرهم وهو سيف الدين الامدى لكي نتبين
من خلال دراسة تاريخه وضع الفلسفة في هذا العصر والتيار الموء يد
لها والتيار المعارض .

سيف الدين الامدى : هو ابو الحسن على بن ابي على بن محمد

ابن سالم التفليبي الامدى ، ولد بآمد بعد سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥ م ،
وتلقى علومه الاولى بها ثم رحل الى بغداد وعمره خمس عشرة سنة ودرس
على يد كبار فقهاء المذهب الشافعي ، والاصول وعلم الجدل والمناظرة .^(١)
وقد ذكر الوزير القفطي أن سيف الدين الامدى أخذ علوم الاوائـل
- الفلسفة والمنطق - عن بعض علماء النصارى واليهود ببغداد مما اثار حفيظة
الفقهاء فاتهموه في عقيدته ففادى العراق الى مصر سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٧ م .^(٢)
وفي مصر اشتغل سيف الدين الامدى بالتدريس بالجامع الظافرى
بالقاهرة ولمع نجمه فأقبل عليه الطلبة واشتهر لدى عامة الناس بفضل
وعلمه ، فحسده بعض فقهاء البلاد وتعصبوا عليه واتهموه بفساد العقيدة
واتخاذ مذهب الفلاسفة والحكماء وكتبوا محضرا بذلك الاتهام حتى
يستباح دمه فاضطر الى مفارقة مصر الى بلاد الشام .^(٣)

-
- (١) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٤٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٣
ص ١٩٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٥ ؛ السبكي : طبقات
الشافعية ج ٨ ص ٣٠٦-٣٠٧ .
- (٢) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٤١ .
- (٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٩٣ ؛ السبكي : طبقات
الشافعية ج ٨ ص ٣٠٧ ، النعمي : الدارس في تاريخ المدارس
ج ١ ص ٣٩٣ ، ابن قنفذ : الوفيات ص ٣١٢-٣١٣ ، وحاشية
رقم (١) .

واستقر سيف الدين الامدى بحماه حيث استقبله ملكها المنصور وعهد اليه بالتدريس في مدرسته التي بناها بحماه . وقد وصف ابن واصل سيف الدين الامدى بأنه كان "إماما عظيما متقدما في علمي الكلام وأصول الفقه وعلم المنطق وسائر العلوم الحكيمة ، وكان علما في هذه العلوم عظم في الافاق صيته واشتهر ذكره ، وصنف التصانيف البديعة فسي جميع هذه الفنون ورد فيها على الامام فخر الدين الرازى والامام ابي حامد الغزالي وغيرهما من اكابر المتقدمين وبين سلطان أقاويلهم^(١) .

وحين عمت شهرته الافاق كتب اليه الملك المسعود صاحب آمد يطلب قدومه اليه لكي يوليه قضاء بلاده ، وحينما بلغت تلك الدعوة المنصور صاحب حماه لم يؤثر فراقه فبعث اليه بالشهود واستحلفه بالمصحف الشريف والأيمان المفلظة ان لا يفارق حماه الا بأذنه ، غير انه في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م كتب المعظم صاحب دمشق الى سيف الدين يستدعيه الى دمشق ويعدده الوعود الجميلة ، فتسلل من حماه دون علم المنصور ودخل دمشق فعهد اليه المعظم بالتدريس في المدرسة العزيزية "واحسن اليه الا انه كان يظن أن المعظم يفعل في حقه من الاحسان أضعاف ما وقع منه"^(٢) . ويذكر ابن واصل ان الشاعر شرف الدين بن عنين هو الذى حمل المعظم على التقصير في حق سيف الدين الامدى ، بسبب نقد الاخير لفخر الدين الرازى ، وكان ابن عنين من اشد المتعصبين لاراء الرازى ، ورغم ذلك فقد ظل المعظم يداوم على حضور مجالسه ويسمع مناظراته ومجادلته ، وكان بارعا في الاحتجاج والمناظرة ، ولا يقدر أحد على مجاراته او دحض حججه ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٣٧-٣٨ .

حتى ان ابن واصل طلب من صديقه الناصر داود بن المعظم أن يقارن بين سيف الدين الامدى وبين بقية علماء الفلسفة الذين يجادلونه مثل شمس الدين الخسروشاهي وغيره فقال الناصر داود : " سبحان الله ، كيف تقول هذا ؟ كل هؤلاء عند سيف الدين كالفراريح للذبح ، سيف الدين كان يرى أنه افضل من استاذهم فخر الدين فهو لا يعتد بهم " (١)

ولما توفي المعظم سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م ازادات مكانة سيف الدين لدى ابنه الناصر داود فأقبل عليه واعطاه ثمانية الاف درهم اشترى بها جوسقا (٢) وبستانا ، ولازم حضور مجلس الناصر داود مع بقية العلماء الذين كانوا يقفون ضده في المناظرات " وصف سيف الدين بدمشق للملك الناصر كتابا في العلوم العقلية سماه فرائد القلائد ، طلبه الناصر منه فصنفه حسب اقتراحه " (٣)

وبعد استيلاء الاشرف والكمال على دمشق من ابن اخيهما الناصر داود سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م بقي سيف الدين الامدى في دمشق ، وأعرض عنه الملك الاشرف ولا سيما وأن سياسته تقضي برفض الاشتغال بعلوم الفلسفة فعزله عن التدريس بالمدرسة العزيزية فأقام سيف الدين في جوسقه وبستانه مضطهدا حتى وفاته سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م (٤)

- (١) ابن واصل : منج الكروب ج٥ ص ٣٨-٣٩ .
- (٢) الجوسق : هو الحصن وقيل شبيه بالحصن ، وهو معرب واصله كوشك بالفارسية ، والجوسق يطلق ايضا على القصر ، انظر ابن منظور : لسان العرب مادة "جسق" .
- (٣) ابن واصل : منج الكروب ج٥ ص ٤٠ .
- (٤) المصدر نفسه ج٥ ص ٤٠-٤١ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص ٢٩٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٤١ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص ٣٩٣ .

وقد صنف الامدى مصنفات كثيرة منها كتاب (الباهر في علم الاوائل)
في خمس مجلدات وكتاب (أبكار الافكار في اصول الدين) في اربع
مجلدات ، وكتاب (المآخذ على فخر الدين بن خطيب الرى في شرح
الاشارات) وكتاب (دقائق الحقائق) وكتاب (رموز الكتوز) وكتاب
(غاية المرام في علم الكلام) وكتاب (كشف التموهيات في شرح التنبيهات)
ألفه للملك المنصور صاحب حماء ، وكتاب (غاية الامل في علم الجدل)
وكتاب (منتهى السالك في رتب المسالك) وكتاب (منتهى السؤل في علم
الاصول) وكتاب (الترجيحات في الخلاف) وكتاب (الموء اخذات في
الخلاف) وكتاب (المبين في معاني الفاظ الحكماء والمتكلمين) وغير
ذلك من الكتب (١) .

ومن الموء سف ان تلك الثروة الفكرية القيمة لم يصلنا منها شئ ،
وربما لو قدر لها البقاء لوضعت صاحبها الامدى جنبا الى جنب مع
الطبقة الاولى من كبار الفلاسفة المسلمين كابن سينا وابن رشد ، والرازى ،
والفغزالي ، والفارابي وغيرهم . ويبدو أن معاداة ملوك دمشق له وكثرة
معارضيه واعدائه والتيار العام المعادى للفلسفة في تلك الحقبة حالت
دون وصول موء لفاته ، ومن المرجح ان ايدى العبث امتدت اليها بعد
موته فدمرتها .

(١) ابن ابي اصيبعة ، عون الانباء ص ٦٥١ ؛ القفطي : تاريخ الحكماء
ص ٢٤١ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٩٤ ؛ السبكي
: طبقات الشافعية ج ٨ ص ٣٠٧ ؛ ابن تقيتذ : الوفيات ص
٣١٢ وحاشية رقم (١) .

على أنه جدير بالذكر هنا الى ان تلك الاتهامات التي قذف بها سيف الدين الامدى في عقيدته ليس لها اساس من الصحة ، وانما بدافع الغيرة والحسد بدليل أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ابدى اعجابه به وقال : " لو ورد على الاسلام متزندق يشكك ما تعين لمناظرته غير الامدى لاجتماع أهلية ذلك فيه " (١) ، ولولم ين ابن عبد السلام شيئا يشكك في عقيدته لما توانى عن ذكر ذلك بل والوقوف في وجهه . كما ان ابن كثير ذكر انه " كان حسن الاخلاق سليم الصدر رقيق القلب " ورجح ان تلك الاتهامات باطلة . (٢)

وخلاصة القول : انه إذا كان قد ظهر بعض الاحكام امثال المنصور صاحب حماه والناصر داود ووالده المعظم الذين شجعوا الفلسفة وما يتصل بها من علوم ، فان التيار العام في بلاد الشام ومصر والعراق في هذه الفترة كان يعارض علوم الفلسفة والمنطق والخلاف والجدل ، وبالتالي انحسرت هذه العلوم بعكس ما كان معروفا عن المسلمين حتى القرن الخامس الهجرى حين بلغت هذه العلوم شأنًا عظيمًا وتصدى فلاسفة المسلمين لعلماء اليونان والنصارى وغيرهم من اصحاب المذاهب المنحرفة ودحضوا حججهم وبنوا بطلان عقائدهم . ولذلك لا نعجب اذا ما انحسرت هذه العلوم في هذا العصر وما تلاه من عصور وتضاءل شأنها .

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٨ ص ٣٠٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٠-١٤١ .

الدراسات الطبيعية :

الطب والصيدلة : ازدهر الطب في بلاد الشام خلال هذه الفترة ازدهارا كبيرا واصبح سوقه نافعا بدليل أن الطبيب المعاصر ابن ابي اصيبعة ترجم لاكثر من خمسين طبيا شاميا زمن الحروب الصليبية واكثرهم عاصر الفترة موضع الدراسة^(١) . وما ساعد على ازدهار الدراسات الطبية معرفة طلبة العلم " بشرفها وكثرة احتياج الناس اليهم ——— وأن صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها يكون مبعلا حظيا في الدنيا وله الدرجة العليا في الآخرة"^(٢)

وما يدل على المكانة الرفيعة التي بلغها الاطباء في ذلك العصر حصول عدد منهم على منصب الوزارة لدى بعض ملوك بني ايوب في بلاد الشام^(٣) ، فضلا عما كانت تدره مهنة الطب من خير وفير على صاحبها ، فعلى سبيل المثال كان الطبيب موفق الدين بن عبد العزيز يحصل من السلطان العادل على " على الانعام الكثير والافعال الغزير والمنزلة العلية والجامكية السنية"^(٤) وكانت رواتبه النقدية من السلطان العادل تزيد على مئة دينار^(٥) .

وكان بدمشق مدرستان لتعليم الطب اشتغل بالتدريس فيهما كبار الأطباء^(٦) .

(١) انظر ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠٣ - ٧٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٦٣ ، ٧٢١ - ٧٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٦٧١ .

(٥) المصدر نفسه ص ٧٢٩ .

(٦) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، النعمي :

الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ١٢٧ ، ١٣٥٠ .

كما هياً البيمارستان النورى (١) الفرصة لطلبة الطب بدمشق للتدرب

علما على ايدى كبار الاطباء ، ومشاهدة طرق فحصهم للمرضى ومعرفة الامراض ووصف العلاج اللازم (٢) . ومن المرجح أن البيمارستانين الآخرين كانوا يقومون بتخفيف الضغط عن البيمارستان النورى (٣) .

(١) البيمارستان النورى ، انشاء نور الدين زنكي بعد ان ضم دمشق إلى مملكته سنة ٥٤٩هـ / ١١٤٤م وقد ذكر أبو شامة انه انفق على بناءه مبلغا ضخما ، وجعله عاما لجميع مرضى المسلمين ، ابو شامة : الروضتين ج١ ص ٩ = وذكر ابن ابي اصيبعة أن نور الدين زود البيمارستان بمكتبة ضخمة تحولت إلى مركز للبحث لطلبة الطب ، وعهد إلى الطبيب أبي المجد ابن ابي الحكم بالعناية بالمرضى ومعالجتهم ، وجعل تحت امرته جماعة من الخدم والمرضى ، وكان ابو المجد حين يفرغ من علاج المرضى والكشف عليهم ينصرف إلى المكتبة لتدريس الطلبة لمدة ثلاث ساعات انظر ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٢٨ = وقد ذكر ابن جبير في رحلته البيمارستان النورى ووضح انه كان كبيرا جدا وجرايته في اليوم الواحد ١٥ دينار وله مشرفين لهم سجلات باسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون اليها ، وكان الاطباء يمرون على المرضى كل يوم للاطلاع على احوالهم وتقرير ما يحتاجون اليه من الادوية والاغذية ، وكل ذلك يشير إلى مدى التقدم الطبي الذى كان عليه هذا البيمارستان زمن الحروب الصليبية ، انظر رحلة ابن جبير ص ٢٥٥ .

(٢) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٧٣١ - ٧٣٢ .

(٣) اشار ابن جبير إلى وجود بيمارستان قديم غير البيمارستان النورى

يقع قرب الجامع الأموى ، انظر رحلة ابن جبير ص ٢٥٥ ، أما البيمارستان الاخر فهو الذى انشاء الامير سيف الدين ابو الحسن يوسف بن ابي الفوارس بن موسك القيصرى المتوفى سنة ٦٥٤هـ /

١٢٥٦م وكان من اكبر الامراء في دمشق واعظمهم مكانة وهو من الاكراد القيصرية . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة

ومما هو جدير بالذكر هنا أن البيمارستان النوري شهد خلال هذه الفترة تطورا كبيرا وتوسعة عظيمة على يد الطبيب بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك مجد الدين عبد الرحيم بن ابراهيم ، فبعد ان جمع ثروة طائلة من مهنة الطب عمد سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م واشترى دورا كثيرة مجاورة للبيمارستان النوري و اضافها اليه وأنشأ بها قاعات كبيرة للمرضى ، و بناها احسن البناء واجرى الماء اليها وتولى بنفسه مهنة تدريس الطب بالبيمارستان النوري ، حتى ان الصالح ايوب كافأه على جهوده بتميينه رئيسا على سائر الاطباء سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م . (١)

كما تقدمت علوم الصيدلة وعرف الاطباء الادوية المفردة والمركبة وكان بعضهم يقوم بصناعة الادوية وعمل المراهم والمعاجين كما عرفوا الاقراص وغيرها . (٢)

والحق أن المجال لا يسمح باستعراض كل الانجازات الطبية وجهود جميع الاطباء في هذا العصر ، وسوف يعرض البحث لتاريخ شخصيتين هامتين احدهما برع في مجال الطب والاخر في ميدان الصيدلة ، وفي ذلك العرض براهين قاطعة على التقدم الذي شهدته الدراسات الطبية وعلم الصيدلة في هذه الفترة ، فمن اشهر الاطباء :

مذهب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار ، شيخ الاطباء بدمشق كان أواحد عصره . وفريد دهره وعلامة زمانه في مجال الطب (٣) ، وانتهت اليه مهنة الطب ومعرفتها على الوجه الاكمل ،

(١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٧٥١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٢٨ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٧٢ ؛

ابوشامة : ذيل الروضتين ١٥٩ ؛ النعماني : الدارس في تاريخ

المدارس ج ١ ص ١٢٧ .

وتحقيق كلياتها وجزئياتها ، لم يكن له مثيل في عصره ولم يبلغ تلك
المكانة الا بعد ان اتعب نفسه في الاشتغال وتحصيل علوم الطب حتى
فاق اطباء عصره ، وقد نشأ مهذب الدين في اسرة نبغت في صناعة
الطب ، فقد كان والده علي بن حامد طبيباً للعيون وكذلك اخوه ، فسار
على نهجهما الا انه واصل طلب العلم واخذ عن اشهر حكما عصره ،
حتى بلغ مرتبة عالية وأصبح مرجعاً للأطباء ، وألف في الطب كتباً
كثيرة ، ذكر ابن أبي أصيبعة أنه رأى منها " نحو مائة مجلد أو أكثر
في الطب وغيره " (١) .

وحين ظهرت مواهب مهذب الدين وتفوقه في المعالجة وانتشرت
شهريته في البلاد وثق به الملك الكامل بن العادل غاية الثقة وخصوصاً
عندما نجح سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م في معالجة والده السلطان العادل من
مرض شديد أصابه ، وكافأه على ذلك بمبلغ سبعة آلاف دينار ، وفي سنة
٦١٢هـ / ١٢١٥م انتشروا عظيم وهلك أكثر الناس ، ومرض بذلك الوباء
الملك الكامل وكثير من خواصه ، واستطاع مهذب الدين معالجته حتى برى
مع أصحابه ، وحصل نظير ذلك على الكثير من الخلع والهدايا بما يقدر
بأثنى عشر ألف دينار ، وعينه العادل على رئاسة أطباء بلاد الشام ومصر ،
وصار يختبر الأطباء بنفسه ويعطيهم التواقيع بمزاولة مهنة الطب (٢) .

وحين استقر الملك المعظم بن العادل في ملك دمشق سنة
٦١٥هـ / ١٢١٨م استخدم عدداً من الأطباء منهم الحكيم رشيد بن
الصوري ، والقاسم بن أبي أصيبعة - والد موفق الدين مؤلف عيون
الأنباء - أما مهذب الدين الدخوار فقد أطلق له المعظم

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٧٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢٩ - ٧٣١ .

"جامكية وجراية" وآثران يفرغه للاشراف على البيمارستان النورى وتدریس الطلبة ، وممن تلقى علوم الطب على يديه في ذلك الحين موفق الدين ابن ابى اصيبعة الذى يقول في ذلك " ولا زمته . . . في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان ، فتدریت معه في ذلك وياشرت اعمال صناعة الطب وكان في ذلك ايضا معه في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران وهو من أعيان الاطباء واكابرهم في المداواة والتصرف في انواع العلاج ، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما وما كان يجرى بينهما من الكلام في الامراض ومداواتها وما كانا يصفانه للمرضى (١) .

ولقد أشاد ابن ابى اصيبعة كثيرا ببراعة الطبيب مهذب الدين ودقته في تشخيص الامراض ووصف الادوية التي تبرى في اسرع وقت ممكن " ويحصل من تأثيرها شيء كأنه سحر " (٢) كما ابدى دهشته من قدرته على فهم حالة المريض عن طريق جس نبضه وما يدل عليه ذلك (٣) . ولمهذب الدين فضل بعيد الاثر في تطور الطب خلال حياته وبعد موته ايضا حين اسس المدرسة الدخوارية التي كانت من اعظم مدارس الطب في بلاد الشام خلال العصور الوسطى (٤) .

وكان مهذب الدين بارعا في علم الاجنة وله فيه كتاب يسمى (الجنينة في الطب) واختصر كتاب الحاوى في الطب للرازي ، وله ابحاث اخرى صغيرة تدل على تفوقه مثل المقالة التي صنفها في الاستفراغ بدمشق سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م (٥) ورغم ان موته لفاته بلفت

(١) ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء ص ٧٣١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣٢ .

(٤) انظر ما سبق ص ٤٦١ .

(٥) ابن ابى اصيبعة : المصدر السابق ص ٧٣٥ .

اكثر من مئة كتاب حسب ما ذكره ابن ابي اصيبعة الا انه من المؤسف ان تلك الثروة فَقِدَتْ ولم يصلنا منها شي * شأنها في ذلك شأن كثير من كنوز الفكر الاسلامي التي أتت عليها عوادي الزمن .

وظل مذهب الدين الدخوار يزاوِل العمل بالبيمارستان النوري والتدريس لطلبة الطب حتى توفي بدمشق سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م (١)

ابن البيطار : هو الحكيم العالم ضياء الدين ابو محمد عبدالله ابن احمد الاندلسي الاصل الشهير بابن البيطار ، شَفَّفَ بعلوم الصيدلة منذ صغره ، واجتمع بالمغرب بعدد كبير من علماء النبات وتحقيق انواعه ومنايته ، كما درس كتب علماء الاغريق في النبات وسافر من أجل ذلك إلى بلاد اليونان والروم لمشاهدة النباتات الواردة في كتب علماء تلك البلاد على الطبيعة (٢) . ثم قَدِمَ الى دمشق واستقر بها ، واجتمع به ابن ابي اصيبعة ودرس على يديه علم الصيدلة ، وقد وصفه بحسن الاخلاق وكمال المروءة ثم قال : " ولقد شاهدت معه ظاهر دمشق كثيرا من النبات في مواضعه " وقرأ عليه كتب حكماء الاغريق في الصيدلة وأشاد بمقدرته وتفوقه على من سبقه من علماء النبات بحيث استطاع ان يجمع بين ما وصل اليه علماء الاغريق وما ابدعه علماء المسلمين بعدهم (٣) .

- (١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٧٢ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣٠ ؛ النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ١٢٩ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهريّة القسم الاول ص ٢٣١-٢٣٢ .
- (٢) ابن شاذان الكتيبي : عيون التواريخ ج ١٥ لوحة ١٦ ؛ ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠١ ؛ التلمساني : نفح الطيب ج ٢ ص ١٩١ ؛ ابن شاذان الكتيبي : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٥٩-١٦٠ .
- (٣) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠١ ؛ وانظر ايضا التلمساني : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٩٢ .

وقد " انتهت اليه معرفة النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه " على
حد قول التلمساني (١).

وخدم ابن البيطار السلطان الكامل ، فجعله رئيسا على سائر
العشابين والصيدلية ، ثم خدم ابنه الصالح ايوب وحظي عنده بمكانة
رفيعة وعناية فائقة وظل يقوم بدوره المتميز حتى وفاته بدمشق سنة
(٢)
١٢٤٨هـ / ١٢٤٨م .

ولضياء الدين ابن البيطار عدد من المؤلفات القيمة أهمها
جميعا (الجامع في الادوية المفردة) حيث استقصى فيه ذكر الادوية
المفردة واسماؤها واثارها ومنافعها ، والصحيح منها وغير ذلك ، ويعتبر
هذا الكتاب من افضل كتب الادوية ، وقد صنفه للملك الصالح ايوب (٣)
ومما يدل على اهمية كتاب الادوية المفردة انه كان له تأثير بعيد المدى
على العقاقير في اوربا خلال عصور النهضة واصبح مرجعا للأوربيين
حتى القرن التاسع عشر الميلادي (٤) .

- (١) التلمساني : نفح الطيب ج٢ ص ٦٩٢ .
- (٢) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج٥ ١ لوحة ١٦ ؛ ابن ابي
اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠١-٦٠٢ ؛ التلمساني : نفح
الطيب ج٢ ص ٦٩٢ .
- (٣) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٠٢ .
- (٤) زيفريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٣٤ .

الرياضيات والفلك :

والمقصود بعلوم الرياضيات ، الحساب والجبر والهندسة وكانت من العلوم المعروفة خلال هذه الحقبة وقد ارتبط بها علم الفلك ، فلم يظهر عالم رياضي الا وقد عرف علم الفلك واشتغل به ، كما أن بعض الأطباء اشتهروا ايضا ببراعتهم وتفوقهم في الرياضيات والفلك ، فقد كان على سبيل المثال الطبيب نجم الدين بن اللبودي عالما بالرياضيات والفلك وله فيهما مؤلفات قيمة مثل اختصاره لكتاب اوقليدس وكتاب (كافية الحساب في علم الحساب) وكتاب (غاية الغايات في المحتاج اليه اوقليدس والمتوسطات) وكتاب (الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة) وله في علم الفلك كتاب (الزاهي في اختصار الزيج المقرب المبني على الرصد المجرب) (١) .

كما كان رشيد الدين ابوالحسن علي بن خليفة - عم ابن ابي اصيبعة - عالما بالفلك ، فقد اخذ علم النجوم عن ابي محمد الجعدى وكذلك بالرياضيات حتى أن ملك بعلبك الامجد بهرام شاه استدعاه الى بلاده ورأى من تفوقه في الحساب ما اثار دهشته فطلب منه أن يريه شيئا من علم الحساب فصنف له اربع مقالات (٢) . ومن أشهر علماء الرياضيات والفلك الذين اشتهروا خلال هذه الفترة :

المهندس مؤيد الدين محمد بن عبد الكريم الحارثي ، ولد ونشأ
بدمشق واشتهر بلقب المهندس لمعرفته بالهندسة ، وكان في بداية حياته نحاسا ونجارا حتى أنه عمل أكثر واجمل ابواب البيمارستان النوري ،

(١) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ص ٦٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢٧ - ٧٣٨ .



ثم حفظ مؤلفات اوتليدس في الهندسة واشتغل ايضا " بصناعة النجوم
وعمل الزيجات " وما ساعده على التفوق والابداع قدوم الشرف الطوسي
الى دمشق وكان عالما بالهندسة والرياضيات فاخذ عنه ، ولعب دورا هاما
في العناية بمنشآت دمشق فقام على سبيل المثال باصلاح ساعات الجامع
الأموي وظل يقوم على صيانتها طوال حياته " وكان له على مراعاتها
وتفقدتها جامكية مستمرة " (١)

وللمهندس محمد بن عبد الكريم بعض المؤلفات القيمة منها
رسالة في رمز التقويم ، ومقالة في رؤية الهلال (٢) .
ومن أشهر علماء الرياضيات والفلك في هذا العصر .

الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الفني بن مسافر
الاسفوني وينعت بالعلم ، ويعرف ايضا بتعاسيف ، ولد باسفون احدى قرى
صعيد مصر سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٩ م وتلقى علومه على مشاهير علماء عصره
بالديار المصرية والشامية ، وكان عالما بالرياضيات ، ثم سافر الى الموصل لتلقي
علوم الموسيقى على يد الشيخ كمال الدين بن يونس ، فقرأ عليه اكثر من
اربعين كتابا في الموسيقى خلال سنة (٣) .

ولقد برع العلم تعاسيف في علوم الحكمة والرياضيات والهندسة
والفلك ، وحين وردت اسئلة الامبراطور فردريك الثاني في هذه العلوم الى

- (١) ابن ابي اصبعة : عيون الانبا ص ٦٦٩ - ٦٧٠ .
- (٢) المصدر نفسه ص ٦٧١ .
- (٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٥ ص ٣١٥ - ٣١٦ ؛ الادنوي : الطالع
السعيد ص ٤٦٩ - ٤٧٠ ؛ ابن واصل : منج الكروب ج٤ ص ٢٤٢
وحاشية رقم (٣) ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٨٦ ؛ المقرئ :
السلوك ج١ ص ٢٨٢ .

السلطان الكامل سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م كلف الأخير علم الدين تعاسيف
بالاجابة عنها (١).

و خدم تعاسيف الملك الاشرف بن العادل وعمر له عمار عظيمـة
بديعة منها الجوسق المسمى طيحة في مدينة راس عين بالجزيرة ، وقد بناه
على شكل مشن ويازاه نهر يتصل ببلاد الخابور المتصلة بالفرات (٢).

وبعد وفاة الاشرف سافر علم الدين قيصر الى حماه فاستقبله
صاحبها المظفر تقي الدين محمود ، واحسن اليه وقربه وولاه تدرييس
المدرسة الحنفية النورية بحماه ، وشرع علم الدين في تصميم المنشآت
العمرائية بحماه للملك المظفر ، فبنى له ابراجا على سور حماه في غاية
الحسن والجمال ، كما انشأ له طاحونا في الجانب الاسفل من حماه على
نهر العاصي ، وبنى على الطاحون برجاً عظيماً للمراقبة ، وصنع له آلات رياضية
اخرى ، ثم عمل له كرة من الخشب المدهون ورسم عليها جميع الكواكب
السيارة المرصودة في السماء وقد كان ابن واصل يساعد علم الدين قيصر في
عمل تلك الكرة الفلكية وفي ذلك يقول : " وكنت اساعد الشيخ علم الدين
على تحريرها وكان السلطان الملك المظفر يحضرنا ونحن نرسمها ، ويسألنا
عن المواضع الدقيقة فيها ، فنخبره ، فيدرك ما نقول لصحة ادراكه وقوة
ذهنه " (٣) وقد توفي علم الدين قيصر في دمشق سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م (٤).

(١) المقرئى : السلوك ج١ ص ٢٣٢ ؛ الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٧٠ ؛

ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ٢٤٢ ، حاشية رقم (٣) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ؛ وانظر ايضا

الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٧٠ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣

ص ١٢٣ .

(٤) الادفوى : الطالع السعيد ص ٤٨٠ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١٨٦ .

أهم ملامح الحالة الاقتصادية لبلاد الشام قبيل الغزو المغولي :

من الصعب جدا رسم صورة واضحة للحالة الاقتصادية لبلاد الشام خلال هذه الحقبة نظرا لما شهدته من اضطرابات وتقلبات سياسية اضافة الى ان المؤرخين ركزوا في حديثهم على الأحوال السياسية والاضطرابات بين ملوك بني ايوب وجهادهم ضد الصليبيين ، وما حدث من النزاع مع القوى الاسلامية الاخرى كالخوارزمية وسلاجقة الروم وغيرهم .

غير أن ملكة حلب حظيت ببعض الاخبار الاقتصادية ، وأوردها عزالدين ابن شداد مؤلف كتاب (الاطلاق الخطيرة) وياقوت الحموي في معجم البلدان وفي ضوء ذلك يمكن اعطاء صورة واضحة عن اقتصاديات ملكة حلب الامر الذي يساعد على فهم الحالة الاقتصادية لبلاد الشام بصفة عامة .

فقد ذكر ابن شداد نقلا عن المؤرخ يحيى بن ابي طي النجار الحلبي الذي ألف كتابا عن حلب سماه (عقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر) فذكر ان موارد مدينة حلب بمفردها زمن الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين بلغ سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م - اي موارد سنة - ٥٠٠ ر ٩٨٤ ر ٦ درهم ^(١) . وهو مبلغ كبير بلا شك يشير بوضوح الى مدى الثراء الذي تمتعت به ملكة حلب ، مع العلم أن هذا المبلغ قاصر على دخل مدينة حلب فقط دون ان يدخل في ذلك حساب المبالغ الاخرى الواردة من البلاد التابعة لها .

(١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج١ قسم ١ ص ١٥٠ ؛ انظر ايضا محمد كرد علي : خطط الشام ج٥ ص ٦٣ - ٦٤ .

وحين تحدث ياقوت عن حلب في معجمه حوالي سنة ٦٢٦ هـ /
١٢٢٩ م أشار الى ما تمتعت به من خيرات زمن ملكها العزيز بن
الظاهر ، الذي كان صغيرا وكان يقوم بتدبير دولته الا تارك طغرل ، وقد
اشاد ياقوت بعدله ورأفته برعيته ، وذكر أن ملكة حلب تمتد من الشرق
الى الغرب مسيرة خمسة ايام - سيرا على الاقدام - ومن الجنوب الى الشمال
مثل ذلك ، وفيها اكثر من ثمانمائة وعشرين قرية كلها مملوكة لاهلها ، ولا
يوجد بها اراضى سلطانية الا مقاطعات يسيرة إضافة الى مائتين ونيف قرية
مشتركة بين الرعية والسلطان . وكان في هذا الوقت يتولى وزارة حلب
علي بن يوسف القفطي صديق ياقوت الحموي وكان مسئولا عن دواوينها وهو
الذي زود ياقوت بهذه المعلومات عن حلب وقراها (١) .

وقد ذكر الوزير القفطي لياقوت ان موارد حلب تقوم بنفقة وتجهيز
خمسة الاف فارس ، حسب نظام الاقطاع الحربي الا يوبي (٢) . وانه لو لم
يقع اسراف في خواص السلطان وامرائه لاصبحت تلك الموارد كافية
لارزاق وتجهيز سبعة الاف فارس ذلك ان اتباع سلطان حلب يبلغون الف
فارس ويحصل الواحد منهم في العام من عشرة الاف الى خمسة عشر الف درهم
ويمكن توفير ما يصرف على هؤلاء بما يجهز الف فارس آخر . وذكر القفطي
لياقوت ان في أعمال حلب إحدى وعشرون قلعة مشحونة بالذخائر والجنود
وتكتفي بمواردها للصرف على جنودها عن طريق ما يتبع هذه القلاع
من اراضى زراعية وفوق ذلك ، فان موارد حلب ما يزيد من فضلات الاقطاعات

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة حلب ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) عن نظام الاقطاع الحربي انظر ما سبق الفصل الاول ص ٦٦-٦٧ .

الخاصة من جميع الجبايات التي تصل الى حلب من العنب والحبوب بما يقارب عشرة الاف درهم يوميا وقد اورد الوزير ابن القفطي مثالا على ذلك فقال " وقد ارتفع اليها - اى ورد الى حلب - في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ هـ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي يجبى فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم ، وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهم ولا مهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية " (١)

وقد أشار ياقوت الى عناية سكان حلب بشئونهم الاقتصادية وحرصهم الشديد على استثمار اموالهم وتنميتها ، وأكد ان بحلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة منذ القدم " ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان " (٢) .

ولم تكن موارد مملكة حلب ثابتة على الدوام فمن المعروف انه بعد انتصار الحلبيين على الخوارزمية سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م (٣) اصبحت بعض مناطق الجزيرة تابعة لمملكة حلب مثل الرها وحران ، وقد امدنا ابن شداد بقائتين مفصلتين عن موارد حران والرها فعلى سبيل المثال اشار الى انه يتبع حران ثمانمائة قرية منها خمسمائة قرية عامرة يصرف مغلها في تجهيز الف فارس والباقي يحمل الى بيت المال (٤) . وفي سنة ٦٤٠ هـ

(١) ياقوت : معجم البلدان مادة حلب ج٢ ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) انظر ما سبق الفصل الرابع ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(٤) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج٣ ص ٦٧ .

بعث الناصر يوسف ملك حلب بالموءرخ عز الدين ابن شداد الى حران
لكشف مواردها ، فذكر الاخير ان دخلها السنوى بلغ الفى درهم
- مليونى درهم - بينما كانت زمن الملك الأشرف تدر ثلاثة ملايين درهم^(١)
ويبدو ان ارتفاع الموارد وانخفاضها يكون حسب الأحوال الاقتصادية
وما يصيبها من خصب وقحط . فضلا عن أن غارات التتار كان لها اثار
سيئة على مواردها ، فقد نجم عن غاراتهم على منطقة الجزيرة تراجع
موارد حران الى اقل من مليونى درهم وقد اورد ابن شداد تفاصيل
الميزانية العامة لمنطقة حران التابعة لمملكة حلب بعد مضايقة التتار لها
فكانت على النحو التالي :

الاسقاء	مئة وسبعون الف درهم
الضواحي	مئة وخمسون الف درهم
الباب الكبير	مئة وثلاثون الف درهم
دار الوكالة	مئة وخمسة وعشرون الف درهم
الجهات المجموعة	مئة الف درهم
الأقطان	ثلاثون الف درهم
الصيغ	ثلاثون الف درهم
العرصة	اربعون الف درهم
الجوالي	خمسة عشر الف درهم .
فائض الأوقاف	مئة الف درهم .
العداد	خمسون الف درهم
الحمامات	عشرة الاف درهم

(١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج ٣ ص ٦٥ .

الاوتار	ثمانية الاف درهم
السجون	خمسة الاف درهم
الجنايات	اربعون الف درهم
الخفارتين	مائة وستون الف درهم
المواريث	مائة وستون الف درهم
المفادنة	مائة الف درهم (١)

ويبلغ اجمالي الوردات لقضية حران مليون واربعمائة وثلاثة

وعشرون الف درهم ٤٢٣٠٠٠ ر ١ درهم .

اما الرها وهي تابعة ايضا للملكة حلب فكانت مواردنا تصرف في اعداد وتجهيز ونفقة خمس مئة فارس (٢) . وكان يتبعها عدد كبير من القرى تبلغ سبعمائة قرية تشتمل على أربعة عشر الف وستمئة فدان وكانت مواردنا على النحو التالي :

البساتين	خمسة وثلاثون الف درهم
ورق التوت	خمسة وعشرون الف درهم
عنب	ثلاثون الف درهم .
الرباع	خمسة وعشرون الف درهم .
الطواحين	اربعة الاف درهم
العشر	خمسة وعشرون الف درهم
الختم	عشرة الاف درهم
المقات	أحد عشر الف درهم

(١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ٣ ص ٦٥-٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٩٩ .

الثلج	خمسة الاف درهم
عداد الغنم	ستون الف درهم
الجنايات	ثلاثون الف درهم
المواريث	ثلاثون الف درهم
العرصة	خمسة وعشرون الف درهم
الجوالي	خمسة وعشرون الف درهم
الافراح	خمسة وثلاثون الف درهم
الدرب	خمسة وعشرون الف درهم
السجون	خمسة وعشرون الف درهم
المفا دنة	مئة وخمسة الاف درهم
الصبخ	خمسة الاف درهم .

ويبلغ مجموع بنود الميزانية بمختلف بنودها خمس مائة وستة واربعون الف درهم بدون الفلال العينية ٥٤٦.٠٠٠ درهم (١).

وقد أورد ابن شداد قائمة مفصلة لموارد ملكة حلب في اواخر زمن الناصر يوسف بعد سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م اى عشية الغزو المغولي ، فكانت موارد الميزانية كمايلي (٢) :

-
- (١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج٣ ص ٩٩-١٠٠ = اشار المحقق الى ان مجموع البنود الواردة في قائمة ابن شداد مقدارها ٥٣٥.٠٠٠ أى دون مجموعها العام بمقدار احد عشر الف درهم وربما كان ذلك بسبب سقوط بعض بنود الميزانية سهوا حين النسخ ، بما يتفق والمجموع الذى اشار اليه ابن شداد في نهاية القائمة .
- انظر: المصدر نفسه ج٣ ص ١٠٠ حاشية رقم (١) .
- (٢) ترد القائمة هنا بالفاظ ابن شداد دون تعديل .

دار الزكاة	الف الف ومائتي الف
العشر	ستمائة الف
الوكالة	مائتي الف
سوق الخيل والجمال والبقر/ثلاثمائة الف	ثمانين الفا
دار كورة الجوانية	ثلاثمائة الف وخمسين الفا
المبطينخ	مائة الف
دار كورة برانية العنب	ثمانين الفا
الخضر	خمسين الفا
المديفة	مائة الف وخمسين الفا
دكة الرقيق	مائة الف
صبغ الحرير	ثمانين الفا
سوق الفنم	اربعمائة الف وخمسين الفا
سوق التركمان للفنم	ثلاثمائة الف
عرصة الخشب	خمسين الفا
ضمان الاوتار	اربعين الفا
المسابك	خمسة الاف
البيلونة	عشرين الفا
سمسرة الخضر	عشرين الفا
البساتين	خمسين الفا
دار الضرب	مائة الف
الرباع	اربعمائة الف درهم
الحكورة	مائة الف درهم
ذخيرة الحطب والفهم	عشرين الف درهم
المصابين	عشرة الاف درهم

عداد العرب	مائة الف درهم
الملح المجلوب	ثلاثمائة وخمسين الف درهم
المسالخ	مائة الف درهم
الاجتياز بخان السلطان	مائة الف درهم
القلي	عشرين الف درهم
الساسة	مائة الف درهم
عداد التركمان بحلب	مائة الف وخمسين الف درهم
وفنم	ثلاثين الف رأس قيعتها ستمائة الف درهم
الجوالي	مائة الف درهم
الفرح واللفظ	ستمائة الف درهم
حمام السلطان	ثمانين الف درهم
السجون	ستين الف درهم
نحيرة الذمة	خمسين الف درهم
البقل	عشرين الف درهم
القباين	خمسين الف درهم
الحديد	خمسين الف درهم
القنب	خمسين الف درهم
الحرير	ثمانين الف درهم
الخراج	ثلاثين الف درهم
ضمان المزابل	عشرة الاف درهم

الموارث الحشرية تقديرا

(١)

لا تحريرا ثلاثمائة الف درهم

ويبلغ مجموع ميزانية ملكة حلب ٨٠٠٠ ر ٢٧٠ ٨ درهم ثمانية ملايين ومائتين

وسبعين الف درهم.

وفي ضوء هذه القوائم التي اوردها ابن شداد عن مملكة حلب
وبعض المناطق التابعة لها يمكن استنتاج الحقائق التالية :

أولاً : قوة اقتصاد مملكة حلب وتنوع مواردها وكثرة خراج البلاد
التابعة لها ويمكن ان نقيس على ذلك بقية ممالك الشام
الأخرى .

ثانياً : تنوع النشاط الاقتصادي في حلب وممالك الشام الاخرى ، وتمثل
ذلك النشاط في الزراعة والرعي والصناعات المختلفة والتجارة ، وتنوع
الحرف في بلاد الشام .

ثالثاً : ان كثيراً من الجهات التي ترد عن طريقها الاموال تدل على أن
العدل لم يكن سائداً في بعض الاحيان ان تدل تلك القوائم على وجود
ضرائب تعسفية غير شرعية .

وعلى أية حال فما يؤسف له ان ابن شداد وياقوت الحموي لم
يوردا ارقاماً اخرى عن بقية بلدان الشام على الرغم من أن ابن شداد خص
مدينة دمشق بجزء كبير من كتابه الاطلاق الخطيرة الا انه لم يشر لا من قريب
ولا من بعيد الى مواردها ، اما ياقوت فلم يفصل في الحديث عن الاحوال
الاقتصادية لبلاد الشام الاخرى فهو مثلاً حين تحدث عن حماة قال :
" وحماة مدينة كبيرة كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار واسعة الرقعة حافلة
الاسواق " (١) ولم يفصل في احوالها الاقتصادية ، وبالتالي فسيكون الحديث
عن اقتصاديات بلاد الشام الاخرى بصورة مجملة دون اعطاء ارقام تفصيلية
لعدم توفرها .

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة حماة ج٢ ص ٣٠٠ .

الزراعة :

تعتمد الزراعة في بلاد الشام على الامطار كثيرا ^(١) ، وذلك على الرغم من وجود بعض الانهار مثل نهر الاردن ونهر بردى ، والعاصي ، ونهر الفرات ، وذلك لأن طبيعة بلاد الشام الجبلية تحول دون الاستفادة الكاملة من تلك الانهار على عكس ما هو عليه الحال في مصر والعراق حيث تستفيد تلك البلاد من مياه النيل ودجلة والفرات ، ان ان مصر والعراق تنعم بسهولة فيضية لا تتوافر في بلاد الشام ، ومع ذلك فتشير الاثار الموجودة على تلك الانهار الشامية الى ان السكان قاموا ببناء السدود والنواعير وأنشأوا القنوات وافادوا الى حد كبير من تلك الانهار ^(٢) .

والمعروف ان مزارع الشام ومنتجاتها يضرب بها المثل في جودتها وكثرة مياهها وخصوبة ارضها ^(٣) . فكانت حلب تنتج التين والزبيب والفسق والحبة الخضراء بكميات وافرة وتصدر هذه المنتجات الى مصر والعراق ^(٤) .

وقد فصل ياقوت الحموي في المنتجات الزراعية التي تنتجها مملكة حلب في عصره معتمدة في ذلك على الامطار فقط ، فذكر انه يزرع في ارضها القطن ، والسهم ، والبطيخ ، والخيار ، والدخن ، والكروم ، والذرة ، والمشمش ، والتفاح " عذيا لا يسقى الا بما المطرويحي " مع ذلك روى ما يسقى بالمياه والسيح في جميع البلاد وهذا لم أره فيما طوفت من البلاد فـي

(١) النويري : نهاية الارب ج٨ ص ٢٥٥ .

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ج٤ ص ١٣٢-١٣٣ .

(٣) المرجع نفسه ج٤ ص ١٣٨ .

(٤) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج١ ص ١٥٣ .

غير ارضها^(١) . ولما تحدث عن غور الأردن أشار الى ان اكثر منتجاته الزراعية قصب السكر ومنها يصدر الى البلاد الاخرى^(٢) . اما ملكة دمشق فان اخصب مناطقها الفوطة وطولها مرحلتان وعرضها مرحلة وبها^(٣) ٥٣٤٥ بستانا متنوعا و ٥٥٠ بستانا اخر للكروم .

وحين زار ابن جبير بلاد الشام اشد بجودة انتاج البلاد الزراعي وكثرة خيراتها فوصف منبج بأنها محاطة بالبساتين من الشرق والغرب مختلفة الشمار ملتفة الاشجار^(٤) ، ووصف بلاد المعرة بأنها منطقة سواد لخصوبة ارضها التي تزرع كلها بشجر الزيتون والتين والفسق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقا^(٥) .

اما فلسطين فهي من المناطق الشامية الخصبة غير ان اكثر مزارعاتها تعتمد على المطر شأنها في ذلك شأن ملكة حلب ، ما عدا منطقة نابلس التي اشتهرت بكثرة مياهها الجارية ، وتوجد بمنطقة البلقاء بفلسطين بلدة تسمى حسبان لها واد اشتهر باشجاره وبساتينه وكثرة مزارعه كما كان يتبع حصن عجلون المشرف على الغور منطقة زراعية مشهورة بكثرة اشجارها وخصوبة ارضها^(٦) .

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة حلب ج٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) المصدر نفسه مادة غور ج٤ ص ٢١٧ ؛ محمد كرد علي : خطط

الشام ج٤ ص ١٤٧ .

(٣) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج٢ قسم دمشق ص ١٣ .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٢٣ .

(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ .

(٦) ابو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

وتميزت بلاد الشام جميعها بإنتاج الزيتون الوفير^(١) . وقد احصى صاحب خطط الشام اكثر من خمسين صنفا من اصناف العنب تنتجها دمشق وواحد وعشرين صنفا من المشمش تنتجها ايضا مما يدل على وفرة الانتاج وجودته^(٢) .

وكانت تقوم زراعة النخيل في المناطق التابعة للملك الاشرف والقريبة من نهر الفرات مثل الرحبة وقرقيسيا وعانة وغيرها ومنها يجلب التمرالى بقية بلدان الشام^(٣) .

وخلاصة القول : ان بلاد الشام انتجت ما يسد حاجتها من الحبوب والخضروات والفواكه ، بل وصدرت في بعض الاحيان ما يفيض عن حاجتها الى البلاد الاخرى^(٤) .

الصناعة :

لما كانت بلاد الشام تزخر قصب السكر في غور الاردن فمن الطبيعي أن يترتب على ذلك صناعة السكر^(٥) . كما عرف الشاميون صناعة الورق وعن طريق بلاد الشام انتقل الى اوربا زمن الحروب الصليبية وكان يعرف باسم الكاغد الشامي^(٦) .

- (١) محمد كرد علي : خطط الشام ج٤ ص ١٤٩-١٥٠ .
- (٢) المرجع نفسه ج٤ ص ١٥٥ .
- (٣) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥١ .
- (٤) عن شئون الزراعة وما يتصل بها في بلاد الشام خلال تاريخها كله انظر ، محمد كرد علي : خطط الشام ج٤ ص ١٣١-١٩٨ .
- (٥) احمد رمضان : المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص ١٠٨ .
- (٦) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج١ ص ٢٠٠ ؛ احمد رمضان : المرجع السابق ص ١٠٨ .

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج المموه بالمينا والخزف ،
وبلاطات القاشاني ، وكان الزجاج الشامي يضرب به المثل في الرقعة
والصفاء ، فيقال : " أرق من زجاج الشام " وكانت معامل الزجاج في حلب ،
وارمناز المجاورة لها مشهورة بصناعته وتصدره الى العراق حيث يتم
استخدامه والتباهي بجماله في قصور الخلفاء واشتهرت الخليل بصناعة
المصابيح الزجاجية الجميلة ، وتنوعت المصنوعات الشامية من الزجاج ،
فظهرت الاواني المزجاجية الزخرفية والاكواب والاباريق وغيرها ، وعن
طريق بلاد الشام انتقلت صناعة الزجاج الى اوربا زمن الحروب الصليبية .^(١)
اما صناعة الفخار الذي يحتاج لتربة ملائمة فقد تركز في بلدة
أرمناز المجاورة لحلب حيث " يعمل بها قدور وشربات جيدة حممر
طينية " .^(٢)

واشتهرت بلاد الشام بالصناعات الجلدية مثل السروج والا حذية
والاحزمة والمطاح والمقاعد وغيرها وتصدر الفائض الى البلدان الأخرى .^(٣)
وكانت صناعة الحديد والنحاس مزدهرة في بلاد الشام خلال القرنين
السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . ولا سيما
الادوات المصنوعة من النحاس الأصفر والاحمر والبرونز المكفت بالذهب والفضة
والتي زخرت بها الاسواق الشامية واقبل على شرائها الصليبيون .^(٤) ولا زال
في مستودع الجامع الأموي بدمشق بقايا مصنوعات نحاسية من هذا العصر

- (١) محمد كرد علي : خطط الشام ج٤ ص ٢١٧-٢١٨ .
- (٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان مادة ارمناز ج١ ص ١٥٨ .
- (٣) محمد كرد علي : خطط الشام ج٤ ص ٢٠٦ ؛ احمد رمضان :
المجتمع الاسلامي في بلاد الشام ص ١٢٣ .
- (٤) احمد رمضان : المرجع السابق ص ١٢٣ .

تدل على إتقان النحاسين والحدادين لصناعتهم في هذا العصر (١) .

وتفوقت صناعة السيوف الدمشقية على ما سواها فتفنن الصياقل في صنعها من أجود أنواع الحديد ، وقد عرفت بصفاء مائها واخضرار لونها وارهاف حدها وشدة لمعانها ، وكانت تكتب عليها آيات وأشعار بماء الذهب ، وكذلك على الخناجر والرماح ، وقد عرفها الصليبيون وتقلدوها وغدوا يفاخرون بلبسها واقتنائها ، كما ان صناعة تنزيل الذهب على السيوف والخناجر والمدى من اهم الصناعات الشامية (٢) .

اما صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية فتعتبر بلاد الشام من أعرق بلدان الدنيا في هذا الميدان ، فقد اشتهرت بعلبك بهذه الصناعة منذ أقدم العصور ، كما اشتهرت صفد بالشياص الصفدية واشتهرت حمص بمصنوعاتها من الشياص والفوط وغيرها ، وليس ادل على تفوق صناعة المنسوجات الشامية من أن اسم الدمقس مشتق من اسم مدينة دمشق ومنها انتشر الى سائر البلاد (٣) .

وخلاصة القول ان بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية كانت من اشهر مناطق العالم بمنتجاتها الصناعية (٤) .

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ص ١٢٣ .

(٢) المرجع نفسه ج٤ ص ٢١٣-٢١٤ .

(٣) المرجع نفسه ج٤ ص ٢٠٠-٢٠٢ .

(٤) للمزيد من التفصيل عن الصناعات الشامية انظر خطط الشام ج٤

التجارة :

من المعروف أن بلاد الشام تتمتع بموقع تجارى هام حيث تتوسط مع مصقارات العالم القديم وقد منحها ذلك الموقع مكانة فريدة منـذ أقدم العصور .

ولقد كان للأسباب الاقتصادية التجارية اكبر الأثر في تحريك القوى البحرية التجارية الإيطالية - جنوا ، بيزا ، البندقية - للإسهام في الحركة الصليبية وتقديم المساعدات للصليبيين مقابل ما حصلت عليه تلك الدول التجارية من امتيازات واسعة في موانئ الشام ومدنه التي سقطت بأيدي الصليبيين ، ولم يلبث التجار الأوروبيون أن أسسوا لأنفسهم مراكز ثابتة في عكا وصور وصيدا ، والسويديه واللاذقية وغيرها من الموانئ . وشرعوا في جلب المنسوجات القطنية والحريرية والأواني الزجاجية المصنوعة في بلاد الشام والعلاج والاختشاب والعقاقير ، والتوابل الواردة من الشرق الأقصى ، وتصديرها إلى أوروبا ، وكانت تلك المواد تأتي بواسطة القوافل عن طريق الجزيرة العربية والعراق وتصل إلى دمشق ومنها إلى موانئ الشام الساحلية حيث يتم شحنها إلى الغرب . (١)

وعلى الرغم مما دار بين المسلمين والصليبيين من عداوة وصراع طويل أكثر من قرنين من الزمان ، فإن التجارة بين الجانبين ظلت قائمة وبخاصة حين يتوقف القتال وتعقد الهدنة بين الطرفين ، وليس أدل على ذلك ما ذكره ابن جبير في رحلته حين زار بلاد الشام ورأى التبادل

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٩ - ١٢٠٠ .

التجارى القائم بين المسلمين والصليبيين فقال : ومن أعجب ما يحدث في الدنيا ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين^(١) كما اشار ابن جبير الى رحيله في قافلة الى عكا حيث نزلت القافلة بامان في مكان معد لنزول القوافل الاسلامية^(٢) . وما يبرهن ايضا على ما اصابته التجارة من حرية وامان في هذا العصور أن الصليبيين قدموا الى دمشق سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م لشراء السلاح من أسواقها لمحاربة المسلمين أنفسهم وذلك بعد أن تحالف الملك الصالح اسماعيل مع الصليبيين ضد ابن اخيه الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر ، فافتى شيخ الشافعية حينذاك عز الدين بن عبد السلام بعدم جواز بيع الاسلحة للصليبيين طالما تستخدم لقتل المسلمين^(٣) .

ولم تفقد بلاد الشام أهميتها التجارية الا بعد غزو المغول للعراق وقفلهم طريق الخليج العربي الذي كان يرتبط ببغداد ودمشق ومواني الشام ، واتخذ المغول الطريق البرى عبر امبراطوريتهم حتى البحر الأسود ثم أوروبا دون الحاجة للمرور ببلاد الشام^(٤) .

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٥ .

(٣) انظر ما سبق الفصل الثالث ص ٣٠٨ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٠

أهم المنشآت العمرانية والمرافق العامة :

من الطبيعي ان ينعكس الازدهار الاقتصادي والثراء المالي في أى بلد من البلدان على المنشآت العمرانية والمرافق العامة ، إذ أن السيولة النقدية تتيح للسلطات الحاكمة القيام بالمشروعات العامة لرفع مستوى المعيشة للسكان وتوفير اسباب الراحة لهم . ولأن بلاد الشام شهدت خلال هذه الحقبة فترات من الثراء المالي والازدهار الاقتصادي فقد ادى ذلك الى قيام الحكام بكثير من المشروعات هدفت الى رفع مستوى السكان في بلاد الشام .

وقد حظيت حلب بكثير من المنشآت العمرانية والمرافق العامة ففي سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م قام ملك حلب الظاهر غازي بن صلاح الدين بانشاء مرفق بالغ الأهمية وهو شبكة مياه لمدينة حلب ، فقد كانت تقع الى الشمال من حلب قرية تسمى حيلان بها عين فوارة كثيرة المياه تسبح الى ناحية حلب على شكل نهر ، وقد افاد الحلبيون منها في عصور سابقة (١) . ولكن الظاهر أحضر المهندسين والصناع وخرج بنفسه معهم الى منبع هذه العين وبعد أن درسوها اخبروه بأنه يمكن توزيعها على جميع احياء وشوارع حلب ودورها ومدارسها واربطتها ، وتبقى كمية اخرى من المياه تكفي البساتين والاراضي الزراعية بحلب ، فأمر بالشروع في العمل وساهم بنفسه فيه واحضر جميع امراء للاشتراك فيه ، وأمر بقياس المسافة من حيلان المحس باب مدينة حلب فكانت خمسة وثلاثين الف ذراع ، بذراع النجارين وهو ذراع ونصف ، ثم قسم تلك المسافة على الامراء واتباعهم ومعهم الصناع والعمال ،

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة حيلان ج ٢ ص ٣٣٢ ؛ ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ١ ص ١٤٣ .

وحمل اليهم الكلس والزيت والحجارة والآجر وتم اصلاح القناة وتغطيتها ، وامر بترك مواضع بدون غطاء لتنقية المياه خلالها وتفقد المجرى ، وتم اكمال المجرى الى حلب في ثمانية وخمسين يوما ثم شرع في انشاء القنوات داخل مدينة حلب (١) .

وقد افرد ابن شداد في كتابه الاطلاق الخطيرة فصلا كاملا عن هذه الشبكة المائية التي أنشأها الظاهر وقدم شرحا مستفيضا للقنوات الفرعية التي توزعت على جميع أحياء حلب ودورها ومدارسها واربطتها ومساجدها وغير ذلك ، وذكر أسماء الصهاريج والاحواض التي تتجمع فيها المياه الأخرى التي تتوزع فيها وبعد أن أفاض في الشرح قال " وهذا آخر ما جدده الملك الظاهر وأنشأه من القساطل التي تجرى فيها المياه وينتفع بها سوى ما هو سائح الى برك المساجد والمدارس والربط والحمامات والدور والبساتين وغير ذلك ، وصرف على هذه القساطل والطرق أموالا كثيرة ووقف عليها الملك الظاهر اوقافا سنية " (٢) وهكذا نعمت حلب بشبكة مائية فريدة قل أن نجد لها نظيرا في المدن خلال العصور الوسطى .

ولم تقتصر اصلاحات الظاهر ومنشأته على شبكة المياه هذه ، بل قام

(١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج١ ص ١٤٤ - ١٤٥ ؛ وانظر أيضا :

تاريخ ابن الفرات ج٥ قسم ١ ص ٧٧ - ٧٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج٣ ص ١٦٣ ؛ ابن واصل : نفح الكروب ج٣ ص

١٨٦-١٨٧ ؛ ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ١١١ .

(٢) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج١ ص ١٤٥ - ١٤٩ = والقسطل في

لغة أهل الشام هو الموضع الذي تفرق منه المياه ، انظر : ياقوت :

معجم البلدان ، مادة قسطل ج٤ ص ٣٤٧ .

باصلاحات واسعة في اسوار حلب فبنى سوراً جديداً ظاهر السور القديم وبنى به ابرجة جديدة وكبيرة كأنها القلاع ، وأنشأ بتلك الابراج أبواباً ضخمة وأمر بحفر خندق خارج السور ، وكان على الدوام يشرف بنفسه على سير العمل في هذه المنشآت . وقد انتهى العمل في هذه المشروعات سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م (١) .

وظلت التجديدات والاصلاحات قائمة في اسوار حلب وقلعتها زمن الظاهر غازي وطوال العصر الأيوبي حتى سقوط حلب بيد المغول سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م (٢) مما يشير الى توفر الأموال اللازمة لتلك المنشآت العمرانية والمرافق الواسعة .

أما في دمشق وجنوب بلاد الشام فقد شهدت هذه المنطقة منشآت ومرافق واصلاحات طوال هذه الحقبة فبالإضافة الى عشرات المدارس التي أنشئت خلال هذه الفترة ، فقد قام السلطان العادل سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م باصلاح قلعة دمشق ، فهدم ابنية قديمة بها ، وأعاد بناؤها سورها وجعل به اثني عشر برجاً كل برج منها كأنه قلعة صغيرة وحفر حولها خندقاً عميقاً واجرى الماء اليه زيادة في التحصين (٣) ، كما شرع العادل في السنة نفسها

(١) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج ١ ص ١٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٦٥ - ١٦٧ .

(٢) انظر ابن العديم : بغية الطلب مخطوط اياصوفيا لوحة ١٢٢ ؛ ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج ١ ص ١٨ - ٢١ ؛ ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ١٠٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٩٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٣ ص ١٩٦ .

(٣) ابن طولون : الشمعة المضية في اخبار القلعة الدمشقية لوحة ١ ؛ العيني : عقد الجمان ج ٣ لوحة ٣٠٩ ؛ الخطيب العمري : الدر المكنون ورقة ١١١ ب ؛ ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج ٢ ص ٣٩ ؛ ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ٥٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٨٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٤ ؛ أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٠٩ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ١٦٨ .

في بناء* فصيل^(١) دائر على سور دمشق بالحجر والجير وامر بتعميق الخندق الخارجي واجرا* الماء اليه^(٢).

وفي سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م زمن السلطان العادل بدأ العمل في مصلى كبير خاص بالعبيدين خارج دمشق وبني له منبر كبير عال^(٣). وفي السنة نفسها جددت ابواب الجامع الاموي من الجهة الغربية بالنعاس الاصفر^(٤). وامر العادل بتبليط صحن الجامع وأروقته الداخلية^(٥).

وأنشأ المعظم بن العادل الكثير من المرافق العامة والمنشآت العمرانية في جنوب بلاد الشام ، فحين سلمه والده العادل الكرك سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م زاد في عمارته وتحصيناته ونقل اليه ارباب الصناعات المختلفة حتى أصبح مدينة متكاملة مكثفة بمواردها كما قام بزراعة الحدائق والاشجار في قرى الكرك وأجرى خلالها العيون^(٦).

وفي جبال الفور الشرقية انشأ المعظم قلعة جديدة جنوب عجلون هي قلعة الصلت وقد اختار لها موقعا هاما على جبل يعرف برأس الامير وحصنها تحصينا كبيرا وادخل الماء اليها من عين مجاورة^(٧).

- (١) الفصيل : حائط دون الحصن او دون اسوار المدينة ، انظر ابن منظور : لسان العرب مادة فصيل.
- (٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٤١ ؛ تاريخ ابن الفرات ج٤ قسم ٢ ص ٢٤٩.
- (٣) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ٧٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٥٧.
- (٤) ابوشامة : ذيل الروضتين ص ٧٦.
- (٥) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ ص ٧٧ ؛ المقرئ : السلوك ج١ ص ١٨٠.
- (٦) ابن شداد : الاطلاق الخطيرة ج٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٧٣.
- (٧) المصدر نفسه ج٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين ص ٨٣-٨٤ ؛ القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ١٠٦.

اما حصن الشوبك القريب من الكرك فحين تسلمه من والده قام بتحسينه وتجميله وزراعته " ونقل اليه الاشجار من سائر الاقطار حتى صار يضاوي دمشق في روائها ، وتدفق مياهاها وطيب هوائها " (١) .

ووجه المعظم اهتمامه لتوفير سبل الراحة والطمأنينة للحجاج الوافدين من شمال الشام ودمشق واسيا الصغرى صوب الاراضي المقدسة فقام ببناء حمامين قرب مدينة معان شرقي فلسطين ، احدهما للرجال والاخر للنساء وأقام الدور والخانات لراحة الحجاج والمسافرين عبر هذه المناطق ، كما عبد الطريق ومهد الاجزاء الوعرة منه ، وغرس الاشجار على جانبي الطريق من بلاد الشام الى اطراف الحجاز لتوفير الظل للمسافرين كما أنشأ صهاريج المياه في طريق الحجاج ، وقد قرأ أن يبني في كل منزلة الى الاراضي المقدسة بالحجاز داربها جميع وسائل الراحة للحجاج والمعتريين والمسافرين ، وبني المساجد في طرق المسافرين ، كما بنى القلاع والحصون على طول الطريق لحمايتهم ، واقف على كل ذلك الاوقاف الجليلة لضمان قيام تلك المرافق بخدماتها (٢) .

أما الملك الاشرف فحين أصبح ملكا على دمشق سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م قام بعدد من الاصلاحات فبنى دار الحديث النبوي بعاصمة الشام وأوقف

(١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج ٢ قسم لبنان والاردن وفلسطين

ص ٨٠ .

(٢) اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ ب ؛ الصفدي : تحفة

ذوى الالباب ورقة ١٥٢ ب ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان

ج ٨ ص ٦٤٩ - ٦٥٠ ؛ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٥٢ ؛

ابن نصر الله : شفا القلوب ص ٢٨٤ ؛ النعماني : الدارس في

تاريخ المدارس ج ١ ص ٥٨٤ - ٥٨٥ .

- (١) عليها اوقافا كثيرة وجعلها خاصة بتدريس حديث النبي صلى الله عليه وسلم.
- وكان باحد احياء دمشق خان تباع فيه الخمور وتنتشر به المفاسد فأمر بهدمه وأنشأ مكانه جامعا تصلى فيه الصلوات الخمس والجمع وسماه جامع التوبة وجعله في غاية الحسن والجمال وأوقف عليه اوقافا حسنة (٢). كما بنى الاشرف ثلاثة مساجد اخرى بدمشق (٣). وبنى القصور الجميلة ومنها قصره بالنيرب - احدى ضواحي دمشق - الذي اضحى من اجمل القصور في بلاد الشام (٤).

- (١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٦ لوحة ٣٩٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٤٢-١٤٣ ؛ ابن طولون : القلائد الجوهريّة ج ١ ص ٩٥ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٢٢ ؛ ابن نصر الله : شفاء القلوب ص ٢٩٥.
- (٢) العلّيمي : تاريخ من ملك مصر وعكا وحلب والشام والسواحل ورقة ١١٤ أ ب ؛ الاصفهاني : البستان الجامع ورقة ٢٠٣ ب - ٢٠٤ أ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٩٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٣ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣١٣.
- (٣) ابن ايبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٢٢.
- (٤) تاريخ ابن الفرات ج ٦ لوحة ٣٩٤ - ٣٩٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ١٤٣-١٤٤.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
مُحَمَّدٌ رَسُولُهُ

الخاتمة

بحمد الله وتوفيقه انتهى موضوع البحث الذى قام بدراسة شاملة لاوضاع بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، وقد اوضحت الدراسة الكثير من الحقائق اهمها : أن الدولة الأيوبية ورثت نظم الحكم وفلسفته عن الدولة السلجوقية الأُم - شأنها في ذلك شأن الدولة الزنكية - وأسوأ ما ورثته من تلك النظم ، أنه كان ينظر الى الدولة على أنها ارث يقسم بين ابنائها السلطان بعد موته ، وقد أدت تلك النظرة الى تمزق الدولة وضعفها وكان ذلك من أهم الاسباب التي أودت بحياتها في نهاية المطاف .

وقد اظهرت الدراسة افتقار ابناء صلاح الدين الى الكثير من صفات القيادة العسكرية الفذة ، والحنكة السياسية النافذة التي اشتهر بها والدهم ، فلم يستطع أحد منهم بسط نفوذه على الدولة الأيوبية ، الأمر الذى هبأ الفرصة لعهم العادل لكي يهيمن على اجزاء الدولة الأيوبية ويوحدها من جديد تحت قيادته مستغلا ما دار من نزاع بين ابناء أخيه .

كما برهنت الدراسة على ما نجم عن الاقطاع الحربي الأيوبي من آثار سيئة على الاوضاع السياسية في بلاد الشام ، إذ تطلع الاُمراء المقطعون الى محاولة نيل استقلالهم عن ملوك بني أيوب ، وتأكيد سيطرتهم على اقطاعياتهم في بلاد الشام . كما أن ولاء أولئك الاُمراء ارتبط بمقدار ما يمنحه لهم ملوك بني أيوب من اقطاعات ، وكانوا - أى الاُمراء المقطعون - على استعداد دائم لتغيير ولائهم لمن يمنحهم اقطاعات اكبر وأكثر ايرادا ، الأمر الذى زاد من تدهور بلاد الشام ، وأوصلها الى درجات خطيرة من التفكك والاضطراب .

واتضح من الدراسة أن قيام الممالك الأيوبية الصغيرة في بلاد الشام مثل حلب وحمص وحماء وعلبك كان من عوامل القلق السياسي ، الأمر الذي تمخض عنه زيادة حدة الخلافات وتعميق الانقسامات ووصول بلاد الشام الى مرحلة من التمزق أصبحت معها محاولات الإصلاح غير مجدية . وما زاد الأمر سوءاً واضطراباً أن مقاليد الحكم داخل الممالك الصغيرة أصبح مشار خصام بين الاخوة ، فتعقدت المشكلات وتفاقت المنازعات مما عاد بأوخم العواقب على أوضاع بلاد الشام .

ومن النتائج التي توصل اليها البحث أن القبائل العربية لم تلعب دوراً مؤثراً في تاريخ بلاد الشام وجهاد الصليبيين قبيل الفزو المغولي ، بعكس ما اشتهر عن أثر القبائل العربية في تاريخ بلاد الشام خلال القرون الأولى (من القرن الأول الى الخامس الهجري) ويعود سبب ذلك الانكماش لدور القبائل العربية الى أنها فقدت نفوذها السياسي منذ زمن بعيد لحساب العناصر التركية والكردية ، ولم يبق لها من المكاسب ما تدافع عنه .

ومن الحقائق التي اثبتتها الدراسة أن السلطان العادل لم يستفد من الدرس المائل أمامه ، حين اقتسم أبناء اخيه صلاح الدين المملكة وترتب على ذلك نشوب النزاع بينهم ، فعهد السلطان العادل الى تقسيم المملكة مرة اخرى بين أولاده الأمر الذي أدى الى وقوع المنافسات بينهم - مثلما حدث بين أبناء صلاح الدين - وتطورت تلك المنازعات الى الاستعانة بقوى خارجية - اسلامية وغير اسلامية - مما عاد بأفدح الضرر على الجبهة الاسلامية ازاء الصليبيين وأدى الى تدهور الدولة الأيوبية وتبديد مواردها . ذلك أن النزاع بين أبناء السلطان العادل وصل الى نقطة بالغ الخطورة على

بلاد الشام ، فالمعظم يتحالفه مع جلال الدين الخوارزمي آثار طمع الخوارزمية في بلاد الشام والجزيرة ، ووقع الملك الكامل في عزلة سياسية كاملة بعد أن أضى عاجزا عن مساعدة أخيه الأشرف ضد الخوارزمي بسبب منع المعظم للمساعدات القادمة من مصر الى الأشرف مما حفز الكامل للاستعانة بالامبراطور فردريك الثاني الذي جاء على رأس حملة صليبية صغيرة ، وتسلم من الكامل بيت المقدس دون قتال . وهكذا أصبحت أطماع أبناء العادل في املاك بعضهم البعض مدعاة للقلق والاضطراب السياسي في وقت كان يتحتم فيه عليهم توحيد القوى البشرية الاسلامية وحشد الطاقات المادية لمواجهة عدوان الصليبيين المستمر على بلاد الشام ومصر ، اضافة الى وجوب الاستعداد وبناء جبهة اسلامية متحدة ، ولا سيما أن خطر المفلول بدأ يظهر للعيان .

كما نجم عن المنازعات بين خلفاء السلطان العادل نتائج وخيمة على الحالة الاقتصادية في بلاد الشام حينما كانت أطراف النزاع تتباعد الفارات ضد بلاد بعضها البعض الأمر الذي تمخض عنه أضرار بالغة على صغار المزارعين وعامة السكان الذين ليس لهم مصلحة في تلك المنازعات ولكنهم دفعوا ثمنها باهظا دون مبرر .

وبينت الدراسة أن اندلاع الحرب الأهلية بين الأيوبيين في بلاد الشام قضى على الكثير من القيم والمفاهيم ، فأصبح بعض ملوك بني أيوب لا يتحرجون حتى عن التحالف مع الصليبيين ضد بعضهم البعض بل وتسليم بلاد المسلمين للصليبيين ثمننا لذلك التحالف ، والسير بعساكرهم تحت أعلام الفرنج وصلبانهم الأمر الذي قضى على هيبة الدولة الأيوبية ، تلك الدولة التي قامت أساسا برفع راية الجهاد ضد الصليبيين لتحرير

الأراضي التي اغتصبوها من بلاد الشام . وبوقوع الدولة الأيوبية في أتون تلك المنازعات الداخلية المستمرة فقدت مبرر وجودها الشرعي ، فعلى سبيل المثال تعرضت دمشق عاصمة بلاد الشام منذ وفاة صلاح الدين وحتى عشية الغزو المغولي للحصار والاستيلاء من قبل الأيوبيين أكثر من عشر مرات في الوقت الذي لم تتعرض فيه المدن الرئيسية الخاضعة للصليبيين مثل عكا وصور وناطكية لحصار واحد من قبل الأيوبيين .

وتجدر الإشارة إلى أن الحروب التي اندلعت بين الأيوبيين في بلاد الشام وبينهم وبين الخوارزمية ثم دخول طائفة المماليك البحرية أخيراً في منازعات بلاد الشام ، كل تلك الحروب أهدرت الكثير من الطاقات البشرية والمادية للمسلمين ، والتي كان يمكن ادخارها لجهاد الصليبيين ودرء خطر المغول .

واتضح من البحث أن الدولة الأيوبية أفادت من شراء المماليك وتجنيدهم في تحقيق بعض المكاسب الآتية ، غير أن المماليك هم الذين قضوا على الدولة الأيوبية في نهاية المطاف .

والحق أن الدولة الأيوبية في بلاد الشام ومصر أخذت منذ سنة ٦٢٥هـ/ تعاني آلام الموت التدريجي البطيء . وإذا كانت الدولة الأيوبية بدت بعد انتصار الصالح أيوب على منافسيه وتوحيد مصر والشام (٦٤٢ - ٦٤٧هـ) وكأنها استعادت قوتها وعنفوانها ، فإن ذلك كان مجرد صحو مؤقتة وأخيرة بل هي أشبه بصحو الموت التي تسبق القدر المحتوم .

وبرهنت الدراسة على فتور تيار الجهاد ضد الصليبيين بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ، فتوقفت حركة الاسترداد المنظم للبلاد المفتتحة ، واقتصر موقف المسلمين على الدفاع وشن الغارات المضادة رداً على الحملات

والفرات الصليبية المتتالية . كما لم يدرك خلفاء صلاح الدين أبعد
الاستراتيجية العظيمة التي وضعها صلاح الدين وهي اقامة جبهة اسلامية
متحدة من النيل الى الفرات لوضع الصليبيين بين شقي الرحى ، وفرطوا - دون
وعي منهم - في تلك الوحدة مما كان له أسوأ الأثر على الموقف الاسلامي برمته
ازاء الوجود الصليبي .

وقد أوضح البحث أنّ السلطان العادل لم يوغل كثيرا في الضغط
على الصليبيين في بلاد الشام حتى لا يستثير أوروبًا والبابوية لتجريد
حملات جديدة بعد أن أدرك أن كل كارثة تحل بالصليبيين في بلاد
الشام يعقبها رد فعل عنيف لدى البابوية والغرب الأوربي فيقومون
بتجريد حملة جديدة للانتقام من المسلمين .

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة ان الصليبيين أدركوا منذ بداية
القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أن مصر تمثل مركز المقاومة
الاسلامية الرئيس لما تمتعت به من موارد ضخمة فضلا عن موقعها الفريد ،
ولذلك توجهت نحوها الحملات الصليبية بغية الاستيلاء عليها حتى يمكن
بعد ذلك ضمان السيطرة الدائمة على الاراضي المقدسة في بلاد الشام .

واتضح من الدراسة الأهمية البالغة للوحدة والتضامن بين الحكام
المسلمين ، فحين اتفق الاخوة الثلاثة أبناء السلطان العادل - الكامل والمعظم
والأشرف - تمكنوا من دحر الحملة الصليبية الخامسة رغم أنها تكونت من
عشرات الألوف من الصليبيين على اختلاف أجناسهم ، وفشلت الحملة فشلا
ذريعا في تحقيق أى هدف من أهدافها . وعندما دب النزاع بين
الاخوة الثلاثة بعد هزيمة الصليبيين ، أدى ذلك الى مجيء حملة صليبية
صغيرة - الحملة السادسة - بقيادة فردريك الثاني وكان عدد أفرادها
لا يتجاوز بضع مئات من المحاربين ، واستطاعت - بسبب الصراع بين أبناء

العادل - الحصول على بيت المقدس من السلطان الكامل دون قتال . وهذا يوضح حقيقة كبرى وهامة في تاريخ الحروب الصليبية - بل وفي كل صراع بين المسلمين وأعدائهم - وهي أنه كلما اتحدت القاهرة ودمشق تحقق النصر الحاسم على أعداء المسلمين وحينما تنقسم العاصمتان وتختلفان ينعكس ذلك على الجبهة الاسلامية فيخسر المسلمون جولات الصراع مع الأعداء .

فعندما اتحدت دمشق مع القاهرة زمن الحملة الصليبية الخامسة أدى ذلك الى فشل الحملة رغم قوتها وضخامتها ولما اختلفت العاصمتان نجحت الحملة السادسة رغم ضعفها وقلة مواردها - وبدون قتال - في انتزاع بيت المقدس من المسلمين . كما ترتب على الحرب الأهلية بين دمشق والقاهرة إعطاء الصليبيين بيت المقدس واجزاء أخرى من مدن فلسطين وسواحل الشام ، وحينما عادت الوحدة بين دمشق والقاهرة زمن الصالح أيوب أدى ذلك الى فشل حملة لويس التاسع على مصر .

وبرهنت الدراسة على خطأ سياسة هدم أسوار وتحصينات المـدـن الاسلامية خوفا من وقوعها بأيدي الفرنج ، مثل قيام الملك المعظم عيسى بن العادل بهدم اسوار وتحصينات بيت المقدس متوقعا سقوطه بيد الصليبيين زمن الحملة الصليبية الخامسة ، وبعد أن فشلت الحملة ظهر ذلك الخطأ واضحا جليا . فمن المؤكد أن بقاء بيت المقدس مدينة مفتوحة - بعد هدم اسوارها وتحصيناتها - هو الذي ساعد على قبول السلطان الكامل للتخلي عن بيت المقدس وتسليمها للإمبراطور فردريك الثاني . إن لوبقيت أسوارها وتحصيناتها على حالها ، لتمكن الكامل من ابقاء حامية بها للدفاع عنها وانصرف هو لتحقيق أهدافه في السيطرة على دمشق .

ومن الحقائق التي أثبتتها الدراسة أن الهزيمة الساحقة التي حلت

بالصليبيين في معركة غزة وقعت خلال الحرب الأهلية بين ملوك الشام وبين الصالح أيوب ، ولم تكن المعركة موجهة أساسا لجهاد الصليبيين مثل معركة حطين ، وإنما كان هدف الصالح أيوب محاربة أعدائه من ملوك الشام الذين تحالفوا مع الصليبيين بغية القضاء عليه ، واستطاعت قواته بمساعدة الخوارزمية من انزال الهزيمة بملوك الشام وحلفائهم الصليبيين . ولكن هذه المعركة الحاسمة هي التي قررت مصير الصليبيين في بلاد الشام لأنها قضت على البنية الأساسية لقواتهم ، ولم يعد لهم بعدها من الطاقة والقدرة ما يستطيعون به مواجهة المسلمين في ميدان مكشوف . وإذا كانت بقايا الصليبيين في بلاد الشام استمرت بعد معركة غزة أكثر من ربع قرن من الزمان فإن سبب ذلك هو انشغال المسلمين في بلاد الشام بالمنازعات فيما بينهم عشية الغزو المغولي ، ثم انصراف دولة المماليك الفتية لتوطيد نفوذها في مصر ثم التصدي للمغول وطردهم من بلاد الشام وابعاد خطرهم الى ما وراء الفرات .

ومن النتائج التي توصل اليها البحث أن حملة ملك فرنسا لويس التاسع على مصر والشام أوقعت اليأس والاحباط في نفوس الصليبيين في الغرب الأوربي واقتنعوا بعدم جدوى إرسال الحملات الصليبية الى الشرق . كما أن تلك الحملة لم تحقق أية مكاسب قيمة للصليبيين في بلاد الشام ولم تطل في عمر الوجود الصليبي داخل بلاد المسلمين ، وأصبح ذلك الوجود الغريب والدخيل مرتبطا بالنتائج التي ستمخض عن قيام دولة المماليك والغزو المغولي لبلاد الشام .

وأوضحت الدراسة حرص ملوك بني أيوب على الارتباط بالخلافة العباسية في بغداد لا كساب حكمهم الصيغة الشرعية نظرا لأن الخلافة

العباسية كانت تمثل - وقتذاك - رمز وحدة المسلمين ، كما أنها حاولت - قدر استطاعتها - إيجاد حلول للمنازعات التي نشبت بين ملوك الأيوبيين في بلاد الشام ومصر ثم بينهم وبين دولة المماليك بعد قيامها بفيضة توحيد صفوف المسلمين ولا سيما وأن الخلافة العباسية كانت أكثر إحساسا بخطر المغول الذي بدأ يلوح في الأفق منذ أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجري .

وتبين من البحث أن " سلاجقة الروم لم يكونوا على وعي تام بطبيعة الحركة الصليبية ، ولذلك لم يتعاونوا مع الأيوبيين على درء الخطر الصليبي ، بل سببوا خطرا شديدا للأيوبيين زمن الحملة الصليبية الخامسة حينما هاجموا شمال الشام في وقت كان يجب فيه عليهم - باعتبارهم مسلمين - تقديم العون والمساعدة للأيوبيين لمواجهة الحملة الصليبية الخامسة التي هددت بلاد الشام ومصر . كما صرف الأيوبيون وسلاجقة الروم جهودهم وامكاناتهم في معارك جانبية لا طائل من ورائها مثل الحملة الضخمة التي قادها السلطان الكامل ضد سلاجقة الروم ، والتي كان لها آثار سيئة على الدولة الأيوبية وعلى وحدة البيت الأيوبي نفسه ، فضلا عن فشلها في تحقيق أية مكاسب على حساب سلاجقة الروم . ولو وجه السلطان الكامل تلك الحملة ضد الصليبيين في بلاد الشام لحرز الكثير من الانتصارات ضدهم ولتمكن من تدعيم وحدة بني أيوب ورفع مكانتهم آنذاك في نظر عامة المسلمين .

وأثبت الدراسة أن جلال الدين الخوارزمي استنفد قواه في صراع مرير مع الأيوبيين وسلاجقة الروم ولم يحاول التضامن معهم لدرء خطر المغول وهو الأمر الذي ساعد على سقوطه سريعا أمام جحافل المغول

وانفرادهم ببقية القوى الاسلامية الواحدة تلو الاخرى .

ومن النتائج التي توصل اليها البحث ، أنه بعد كل ما أصاب بلاد الشام من تمزق سياسي وحروب أهلية طويلة جاء الخوارزمية بفاراتهم المدمرة وأضافوا المزيد من أسباب التدهور والانحيار ، ان أن الخوارزمية دأبوا على محاكاة المغول في نهب وتدمير كل المناطق التي يمرون بها ، ولم يؤثروا سلامهم في سلاطنتهم ان كانوا يرون أن لهم الحق في نهب كل مكان تصل اليه أيديهم . ولقد عانت بلاد الشام كثيرا على أيدي الخوارزمية قبيل الغزو المغولي . غير أنه من ناحية أخرى كان لدخول الخوارزمية الى بلاد الشام أثر بعيد في تعديل ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين فبعد أن تحول الموقف لصالح الصليبيين هنفذ حملة فردريك الثاني جاء الخوارزمية وتحالفوا مع الصالح أيوب وسحقوا الصليبيين في معركة غزة الحاسمة والتي كانت إيذاناً بانتهاء الوجود الصليبي لأنها مهدت السبيل فيما بعد لسلطين المماليك لاقتلاع جذور الوجود الصليبي نهائيا من بلاد الشام .

وقد اتضح من البحث مدى الروح الصليبية المتعصبة لدى ملكة أرمينية الصفري ازاء المسلمين ، فتحالف الاُرمين مع الصليبيين ومارسوا سياسة صليبية حاكمة ضد الاسلام والمسلمين ، حتى أنهم تطلعوا في نهاية المطاف الى التحالف مع المغول بهدف القضاء على المسلمين في بلاد الشام .

ومن النتائج التي أثبتتها الدراسة ، عدم وعي القوى الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصفري بمدى وأبعاد الخطر المغولي ولا سيما حين أخذ المغول منذ وقت مبكر في الاغارة على العراق والجزيرة لمراقبة

القوى الاسلامية في هذه المناطق ومعرفة امكاناتها وقدراتها على الدوام تمهيدا للغزوة الكبرى التي قادها هولاكو . كما لم يدرك حكام المسلمين في بلاد الشرق الأدنى مغزى سياسة المغول التي قامت على أساس الانفراد بكل دولة اسلامية على حدة حتى يسهل القضاء عليها جميعا ، فأخضع المغول دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة ٦٤١هـ/ وطوقوا بذلك العراق والجزيرة وبلاد الشام من الشمال والشرق ، الاًمر الذى سهل من مهمة هولاكو فيما بعد . واستمر عدم وعي الاًيوبيين بخطر المغول الى أن بدأ زحف هولاكو على العراق والجزيرة وبلاد الشام ، وليس أدل على ذلك من المواقف المتناقضة للناصر يوسف صاحب الشام ازاء المغول .

وأخيرا وبعد قيام الباحث بهذه الدراسة والتأمل في تاريخ الدول الاسلامية التي عاصرت الحروب الصليبية ، فقد خلّص الى نظرية في تفسير قيام تلك الدول الاسلامية وسقوطها وهي : أن الدول الاسلامية اكتسبت شرعية وجودها ، منذ عهد الدولة السلجوقية حين بدأ الغرب النصراني في هجومه الصليبي الحاقد ضد الاسلام والمسلمين - من اقامتها لفريضة الجهاد كما أمر بها القرآن الكريم والاُحاديث الشريفة . وما أن تتخلى تلك الدول او تتقاعص عن اقامة تلك الفريضة حتى تفقد مبرر وجودها الشرعي وتسقط لتحل محلها دولة أخرى تقيم فريضة الجهاد ، فالدولة السلجوقية اكتسبت شرعية وجودها من قيامها بجهاد البيزنطيين وحينما عجز سلاجقة الشام عن القيام بصد الحملة الصليبية الاًولى سقطوا وحلت محلهم الدولة الزنكية التي قامت باداء الجهاد خير قيام زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، وحين عجزت الدولة الزنكية عن اقامة فريضة الجهاد بعد مسوت نور الدين حلت محلها الدولة الاًيوبية بقيادة صلاح الدين

الذى أقام فريضة الجهاد في أبيه وأجل صورها ، واستمر اداء تلك الفريضة بصورة أقل في عهد أخيه المعادل . وحينما اخفق خلفاؤه من بعده في جهاد الصليبيين فقدت الدولة مبرر وجودها وشرعيته وسقطت بأيدي ممالكها (دولة المماليك) الذين اكتسبوا الشرعية لدولتهم من جهادهم وهزيمتهم للمغول واقتلاع الوجود الصليبي من جذوره في بلاد الشام ودرء الأخطار عن بلاد المسلمين .

مَدِينَةُ
الْمَدِينَةِ

الملاحق

الملحق الأول :

بداية الحرب الأهلية واستيلاء السلطان الكامل على دمشق
سنة ٦٣٥ هـ .

الملحق الثاني :

الناصر داود واستعادة بيت المقدس من الصليبيين
سنة ٦٣٧ هـ .

الملحق الثالث :

حملة كيكافوس على حلب وشمال الشام
سنة ٦١٥ هـ .

الملحق الرابع :

سياسة ملك الأرمن ازاء امارة انطاكية وموقف ملك حلب

الملحق الخامس :

نص رسالتين بعث بهما الامبراطور فردريك الثاني الى
صديقه فخر الدين بن شيخ الشيوخ وزير السلطان الكامل
سنة ٦٢٢ هـ .

الملحق السادس :

ثبت باسماء الحكام في بلاد الشام وبعض البلدان الأخرى
خلال فترة البحث .

الملحق الأول

بداية الحرب الأهلية واستيلاء السلطان الكامل على دمشق
سنة ٦٣٥ (١) - حوادث سنة ٦٣٥ هـ

ونشر في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الملك الأشرف
معتمدين في ذلك على رسالة ألفها الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين
عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي فاني لم أكن حاضرا بدمشق
يومئذ : ولما توفي السلطان الملك الأشرف تقرر في الملك بدمشق أخوه
الملك الصالح اسماعيل وتواترت الأخبار بعزم الملك الكامل . . . على التوجه
من الديار المصرية إلى الشام ، فاخذ الملك الصالح في تحصين دمشق ، وتهيئة
اسباب الحصار ، وتوجه الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص إلى بلده ،
والتزم بانفاذ الأموال والأولاد والرجال ، ونزل بدمشق ولده الملك
المنصور إبراهيم وتوجه نجم الدين خليل قاضي العسكر رسولا من الملك
الصالح إلى الروم لطلب النجدة والمساعدة ، وتوجه عز الدين أيبك المعظمي
إلى صرخد ليدبر أمورها ويعود .

وتزايدت الأخبار بوصول السلطان الملك الكامل . . . إلى أن تحقق
نزوله بغزة فجد الملك الصالح في تحصين البلد ، وقطع الأجسار وعمل
الستائر ، وكان قد وصل من حلب ستة من أمرائها نجدة للملك الصالح منهم
الناصح الفارسي .

وأما الملك المظفر صاحب حماه فإنه راسل السلطان الكامل ورجع
إلى طاعته ووردت إليه كتب السلطان بتطيب قلبه ووعدته فيها كل وعد
جميل .

ولما كان مستهل ربيع الأول تقدم الملك الصالح بأن لا يبقى احد من الاجناد بظاهر دمشق ، وتقدم بأخذ دور كل من هو من اصحاب الملك الكامل ، ودور جماعة ايتام وغيرهم ، ونودي بأن لا يبقى أحد في العقيبة ^(١) وقصر حجاج ^(١) ، وتهددوهم ، فلقي الناس من ذلك شدة ، ثم أمر الملك الصالح بأن يعمل في كل مكان سد وأمامه خندق ، واستخدم رجاله كثيرة ، وفرق السلاح ورتب الاجناد والأمرأ على الاسوار ثم وصل السلطان . . . الى دمشق ونازلها لعشريقين من ربيع الأول وعمل اليرك ^(٢) عند مسجد القدم ، وشرعت اللاوية ^(٣) في النهب والخراب . ووصل عز الدين ايبك المعظمي من صرخد ودخل البلد في تلك الايام ، وكان دخوله في يوم شديد على الناس ، قال عفيف الدين المقدم ذكره : رايته يوم دخوله من باب الفراديس وهو قايم حائر لا يستطيع العبور من الزحمة وشدة الغلبة واقمشة الناس بعضها على بعض والخيل تدوسها ولا يستطيع اصحابها منعهم من ذلك ، ودخل عز الدين وحده بعد الشدة ، ولم يقدر الجمدار ^(٤) الذي له من الدخول معه لفرط الزحمة وضاق لذلك

-
- (١) العقيبة وقصر حجاج من احياء دمشق الواقعة خارج الاسوار ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
- (٢) اليرك : لفظ فارسي معناه طلائع الجيش . انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٤٨ حاشية رقم (١) .
- (٢) لم نعث على تفسير لها في المصادر والمراجع المتداولة ويبدو أنها احدى طوائف الجيش .
- (٤) الجمدار : هو المسئول عن العناية بلباس السلطان وثيابه والكلمة مكونة من لفظين فارسيين " جام " ومعناه الثوب و " دار " ومعناه مسك ، انظر المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٣٣ حاشية رقم (١) .

صدور الناس ، وأيقنوا بالحصار الشديد ، ولزوا في دخول المدينة ، وشرعوا في خراب الخانات بظاهر البلد ، وبقي الحال على ذلك أياما ، ثم ضرب البوق وخرج العسكر والتقوا عند ميدان الحصا ، وأخذ من كل واحد من الفريقين جماعة ، وخرج من رجاله خلق . ثم بعث الملك الصالح يستدعي الملك المجاهد صاحب حمص ، فاعتذر أنه خائف على بلاده من صاحب حماه ، ولم يأت ، وسير مائتي راجل نجده ، فأخذ بعضهم في البساتين فسيروا إلى الملك الكامل فشنق منهم في يوم واحد نحوًا من خمسين رجلا ووصل بعضهم وهم مجروحون .

واستمر القتال والخراب بظاهر دمشق من الدور والخانات والجواسق واللقى ، وقطع الأشجار ، وصار كل من له غرض مع واحد وهو غائب خرج إلى داره فأخربها وربما أحرقها ، ثم ضرب البوق وخرج المفاردة (١) فالتقوا عند الميدان ثم من بعد الظهر إلى بعد صلاة الغروب ، وأخذوا ملوكًا من ممالك السلطان ، وشيخ يقال له الشخوصي وأصبح الناس يخربون وينهبون ، ثم ضرب البوق بعد أيام وخرج جميع العسكر إلى قصر حجاج والتقوا فكانت الغلبة للدمشقيين ، وأخذوا من العسكر المصري خمسة عشر فارسًا

.....

(١) المفاردة نوع من عساكر الجيش الأيوبي وأغلب الظن أنهم كانوا أحرارًا ولم يكونوا من المماليك ، وربما سموا بهذا الاسم لتبعيتهم المباشرة لديوان المفرد الذي خرج منه نفقة المماليك من جامكيات وعليق وكسوة ونحوه .

انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ حاشية رقم (٥) .

ولما كان السادس والعشرون من ربيع الآخر ضرب البوق وقت صلاة
المغرب الى ارتفاع النهار وفي ذلك اليوم ، قتل سيف الدين بن شجاع الدين
حلدك من امراء ديار مصر ، وجاءوا به الى القلعة وبه رمق يسير فكلمه
الملك الصالح فلم يقدر على رد الجواب ومات في تلك الليلة . . . وأحرقت
في ذلك اليوم مدرسة عز الدين ايبك ، والوراقة وتلك الأماكن كلها .

فلما كان مستهل جمادى الاولى ضرب البوق وزحف الملك الناصر
صاحب الكرك من العقيبة الى أن قارب باب الفراديس ، وزحف الا مير ركن
الدين الهيجاوى من جهة باب توما ، ووصلوا الى جسر الباب بحيث
كان النشاب يقع في المدينة ، وربما قتل بعض العامة في المدينة ، ولم
يشك أحد ان المدينة تهجم واستمر القتال الى الليل ، وفي وسط الليل
بعث السلطان فرحل الملك الناصر من العقيبة . ولما أصبح الصباح ، خرج
الملك الصالح بالحجارين والزرايين (١) . . . ، فحرقوا ونهبوا وخربوا ،
وردوا العقيبة وقصر حجاج والشاغور وباب توما وباب السلامة ، واضطرب
الناس في المدينة اضطرابا شديدا خوفا من اخذها بالسيف ، وكان أشد
ما على الناس بدمشق الطحين ، فان الانسان كان يشتري غرارة قمح بخمسة
وعشرين درهما ويطحنها بثلاثين درهما ، فمن الله سبحانه بالرحمة ودخل
محي الدين بن الجوزي وكلم الملك الصالح في الصلح فاجاب الى ذلك
وعرضه عن ذلك السلطان رحمه الله بعليك واعمالها مضافا الى ما كان
بيده من بصرى واعمالها . . . وتم الصلح يوم الثلاثاء لسبع مضين من جمادى
الاولى ودخل السلطان . . . الى القلعة في الساعة السادسة من يوم الاثنين
منتصف جمادى الاولى .

(١) الزرايون جمع زراق وهو رامي النفط من الزراقة ، انظر :

الملحق الثاني

الناصر داود واستعادة بيت المقدس من الصليبيين

(١)
سنة ٦٣٧ هـ

ولما صرف الناصر داود صاحب الكرك نفسه من الشواغل العارضة من جهة الممالك وتضييع الزمان في الاشتغال بما هنالك ، اقتضى رايه السعيد المبادرة الى استنقاذ بيت المقدس من أيدي النصارى ، الطائفة الفاجرة ، رجاء ثواب الدنيا والاخرة . انه جمع جمعا عظيما وأعد للهجمة على الفرنج في عود الدار على حين غفلة منهم ، وقسم جمعه الذي جمعه ، وجعله فرقا ، وعقد لكل فرقة رايه ، وأعد لكل طائفة جانبا من جوانب البلد يتداعون منه عند الهجمة برفع الأصوات بالتكبير . وانتظر الناصر بالكفرة والمشركين أعداء الدين يوم عيدهم الأكبر الذي مجتمعون فيه على الكفر وشرب الخمر ورفع الصليب على عادتهم في ايام اعيادهم ووصل الناصر بمن معه ليلة العيد ، ورتب كل فرقة في مكانها الذي اعد له ، هذا والنصارى في غيهم ولهوهم وكفرهم وشركهم ، وسكرهم ، ثم ان المسلمين أشعلوا النيران ورفعوا الأعلام والرايات وكبروا وهجموا قبيل الصبح على النصارى في مواطن كفرهم وشركهم ، فدهشوا وحاروا حين سمعوا التكبير من كل جانب من جوانب البلد ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، واستمروا يقتلون ويأسرون وينهبون . وجاء ملك الفرنج وماشاه وجعل يخاطبه في معنى ما وقع من الناصر ، فجرد سيفه وضرب عنق ملك الفرنج ، وضح المسلمون بالتكبير

(١) كمال الدين السيوطي : اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى

ورقة ١٣٤ ب - ١٣٥ أ .

والتهليل ، وكانت وقعة هائلة . وما طلع النهار الا وقد قويت شوكة
المسلمين وانصرفت همهم الى تتبع آثار النصارى من كل فج عميق ، يا لها
والله من هجمة ، اتم الله بها النعمة على الأمة ، وناداهم منها لسان
الاحسان لا يكن امركم عليكم غمة .

واعتنى الناصر باقامة الشعائر . . . وأمر بكتابة البشائر الى سائر
الممالك بهذا الفتح المبين والنصر العزيز ، فكتب وعادت الأجوبة عنها
وفي جملتها قصيدة لابن نباته المصري يمدح فيها الناصر وهي طويلة
مشتمة على ابيات كثيرة منها :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً

إذا غدا بالكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً

فناصر طهره أولاً وناصر طهره آخراً

ثم رجع الناصر بعد اتمام هذا الفتح المبين الى الكرك ، وقد

سطرت هذه النوبة في صحائف حسناته وتواردت الألسن بالدعاء له
وشكر ساعته .

الملحق الثالث

(١) حملة كيكائوس على حلب وشمال الشام

سنة ٦١٥ هـ

وفي سنة ٦١٣ هـ تزوج السلطان عز الدين كيكائوس واستمر على أطياب العيش زمانا حتى كانت سنة ٦١٤ هـ فبلغه أن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين قد مات وبقيت حلب في يد ابنه وكان صغيرا بتكفل والدته جميع امور الملك ، ولما بلغه ذلك طمع في ملك الشام فجمع الأمراء واستشارهم في ذلك فمنعوه وقالوا له : هذه سمعة قبيحة لا يليق بجناب السلطان أن يطمع في ملك يتيم كان أبوه وجده على المناصدة في المصادقة مع آباء السلطان ، بل اللايق أن يمنع السلطان القاصدين والطامعين في ملكه ، ومع قطع النظر عن ذلك أن الملك الأشرف صاحب الموصل والجزيرة خال ذلك الصبي فينجد . . . فيحصل بينه وبين السلطان وحشة يعمد المودة التي كانت ، فلم يسمع السلطان منهم ذلك واصر على غزوه ، فسار في جمع عظيم وجيش كثيف وكتب الى الأمير نصرة صاحب مرعش^(٢) بالتجهز والحق به ، فوصل السلطان الى البستان^(٣) فلحق به فيها نصرة الدين بجمع عظيم من الجيش فسا روا جميعا على قلاع مرزيان^(٤) ورعيان وتلباشر

(١) المولوى : صحائف الاخبار ورقة ٥٧٦ أ ب - ٥٧٧ أ .

(٢) مرعش : مدينة في الشفور بين الشام وبلاد الروم ، انظر ياقوت معجم البلدان .

(٣) البستان ، وتعرف ايضا باسم أبلستين وهي مدينة مشهورة ببلاد الروم (اسيا الصغرى) تقع غرب قيصرية على بعد ثمانين ميلا ، انظر

كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٤) مرزيان : لم يرد لها ذكر في المراجع الجغرافية ، ويبدوانها

من الشفور الشامية .

فأخذها بالأمان بعد محاصرة يسيرة ، فرتب فيها المستحفظين .
ولما بلغ الخبر الى الصبي وأمه استنجدت اخاها الملك الأشرف
نجاء اليها في جمع عظيم من العرب والاكراذ والاتراك ، فعسكر في مرج
حلب ، وانتظر الى قدوم السلطان وعسكره ، ولما اجتمع باخته وابنها ، تشاوروا
في قتال السلطان ، فقالت الملكة أم الصبي : ان العين قد أخبر بكثرة
جمع السلطان ، وكمال عدتهم وشوكتهم ، فالرأى أن نلقي بين السلطان وبين
امراء وحشة ويسى . ظن السلطان فيهم ، فقال لها اخوها الأشرف :
فما الطريق فيه . قالت : انني دبرته ، فأمر بشخص رومي فاحضره ، وكان
ذلك الشخص مختلطا بخواص السلطان ويعلم جميع امراء واسمائهم
وبعض سرائر احوالهم وأقوالهم التي جرت بينهم وبين السلطان . فاحسنت
اليه الملكة ووعدته باضعافه اذا حصل المقصود من رجوع السلطان خائبا
الى دياره ، وقالت له : تسير الى عسكر السلطان وتنزل بخيمة أحد
الخواص ، وتقول كنت : في عسكر الشام فاطلعت على امر غريب ، فلما
تركنتي الحمية حتى جئت مجدا بالسير لا طلع أحد الخواص على القضية
ليعرضها على السلطان حتى لا يففل ، وهي أن جماعة من الأمراء قد اتفقوا
مع الملك الأشرف على الفدر بالسلطان عند المصاف ، فأرسل اليهم الملك
الأشرف وأخته أنوالا وهدايا جلييلة ومعها المكاتيب اليهم وتلك الأشياء
في الموضع الفلاني يترصدها حاملها الفرصة ليسلمها اليهم . . . ان أردتم
أن تعلموا صدقي فارسلوا معي جماعة حتى يقبضوا على الأشياء وحاملها .
فعرض ذلك على السلطان فارسل جماعة مع الشخص المذكور ، فساروا وقبضوا
على الأشياء وحاملها ، وكانت الملكة قد أعدتها وأرسلتها في الموعد ،
فحملوها الى السلطان ، فوجد المكاتيب الى جماعة من امراء فيها بعض

الأسرار التي جرت بينه وبين هو* لا* الأ*مرا* ، فتوهم السلطان منهم ، وأحسن
الى الشخص وحفظ المكاتيب ، فجزم بصدق القول وصحة الأ*مر ، وغفل عن
مكر الأ*عداء* لشبابه وعدم تجربته . ولما استوحش منهم لم يسربثفسه
الى الزحف والقتال فأرسل امير المجلس في اربعة الاف طلائع ، ثم أرسل
ملك الأ*مرا* في عقبه باربعة الوف اخرى ، فقاتل الملك الاشرف الطلائع فانهمز
منهم ، ثم علم أن السلطان بعيد عن الطلائع فانعطف عليهم ، فهزمهم
وأسر امير المجلس مع عدة من الأ*مرا* . ولما بلغ خبر انهزام الطلائع الى
السلطان زادت وحشته ، فعاد من مكانه الى البستان ، فجاء الملك الاشرف
واخذ قلاع مرزيان ورعبان وتل باشر بالامان . ولما بلغه عود السلطان
أطلق امير المجلس وسائر الأ*مرا* ، وأكرمهم وأحسن اليهم وسيرهم الى
السلطان .

وأما السلطان فلما بلغ الى البستان أمرأولا بالامرا* الذين سلموا
الى الملك الاشرف فصلبهم ، وكان احدهم ولد نصره الدين الحاجب
بمرعش ، ثم جمع الأ*مرا* المتهمين واظهر عليهم المكاتيب ، فحلفوا بالله وبجميع
الأ*يمان* الغلاظ على أنهم براء* من تلك التهمة ، فلم يصدقهم السلطان
وسول له الشيطان قتلهم بالعذاب ، فأضربهم وحبسوا في دار وجمع
على اطراف الدار حطب كثير ، والقي فيه النار فاحترقوا جميعا بالبكاء والصيحة
والأنين ، ولم يرحمهم ولا رق عليهم . . .

الملحق الرابع

(١) العلاقات مع ملكة أرمينية الصفرى

(سياسة ملك الأرمينازامارة انطاكية الصليبية وموقف ملك حلب)

وفي سنة ستمائة هجم ابن لاون^(٢) انطاكية ، فلم يشعر صاحبها الا وهو على بابها ، فارتاع لذلك ، وقاتله في البلد ثم التجأ الى القلعة وصاح بشعار الظاهر^(٣) ، فكتب والي حارم على جناح طائر الى الملك ، فخرج بعساكره لنجدة البرنس^(٤) ، فلما وصل الى حارم بلغ ابن لاون مسيره فخرج عن انطاكية ، وترك فيها رجالا فقتلوا ، وكتب الظاهر لصاحبها بما يطيب به قلبه . حكاه ابن ابي طي ، وقال ابن العديم : سنة احدى ، وزاد ابن لاون من ولد بردس الفقاس الذى كان في زمن سيف الدولة ، ثم ذكر وقعت كانت بين ابن لاون وبين عسكر الظاهر ، وترددت الرسل بينهما على المواعدة ، وشرط عليه أن لا يعرض لانطاكية ، وقرر الصلح الى ثمان سنين وذلك سنة اثنتين وستماية .

ولما كانت سنة اثنتي عشرة وستمايه هجم ابن لاون انطاكية فملكها وسلمها لابن اخته ، وكان السبب في ذلك أن البرنس^(٥) بيمند الكبير والد الذى ملكها يومئذ قد رزق ولدين أحدهما بيمند الذى هو ملكها والآخر

(١) ابن شداد : الاغلاق الخطيرة ج١ قسم ٢ نسخة اياصوفيا لوحة

٣٣٦ - ٣٣٩ .

(٢) هوليو الثاني ملك ارمينية الصفرى .

(٣) هو الظاهر غازي بن صلاح الدين ملك حلب .

(٤) هو بوهيمند الرابع حاكم طرابلس وانطاكية .

(٥) هو بوهيمند الثالث والد بوهيمند الرابع وريموند .

اسمه ريمند وكان والده يميل اليه فخطب له اخت ابن لاون وزوجه بها ونص عليه بالملك وأشهد عليه اهل ملته ، واتفق ان ريمند أصابه الصرع فهلك في حياة ابيه وترك ولدا من أخت ابن لاون اسمه روبين ، فانفذ ابن لاون الى انطاكية وأخذ اخته وابنها وكان أخوه بيمند ملك طرابلس ، فلما هلك ابوه وتغلب بطريق نصير على انطاكية ثم مات وملكها بيمند ابن ريمند كما قدمنا . وجرت الوقعات التي قدمناها بينه وبين ابن لاون ، وفي خلالها شب ابن أخته روبين فلما انقضت الهدنة التي قررها الملك الظاهر بينه وبين بيمند ، كتب اليه أنك ظالم خارج عن شرع النصرانية لأن اباك اخرج الملك عن نفسه الى أخيك ، وان أخاك مات وخلف ولدا ، والملك له من بعده ، وكان ابن لاون قد اخذ خط بطريق انطاكية بأن الملك لابن اخته وسير اليه الخط . فلما وقف بيمند عليه قال هذا ملكي وفي يدي ، ثم أوصد البطريق الى القلعة فخنقه .

وسار ابن لاون بعد ذلك الى انطاكية وحاصرها دفعات والملك الظاهر صاحب حلب يدفعه عنها ويمنعه بعسكره منها فلما كان أول السنة التي قدمنا ذكرها بعث أهل قسطنطينية الى انطاكية بطريقا مكان الذي قتل ، فلما حصل في انطاكية أنكر على أهلها موافقتهم لبيمند على ملك انطاكية وقال : كلما يتقلبون فيه حرام فاهتاجب الاستتارية لمقاتلته ، وكتبوا ابن لاون في ارسال ابن اخته ليملكوه انطاكية ، فجعل يسير الرجال شيئا فشيئا الى انطاكية حتى حصل من أصحابه بها جماعة كثيرة ، ثم واعدهم الى ليلة الاثنين ثالث عشرين شوال ، وجاء في الليل فدخلهم هجما من باب بولص على مواعدة كانت بينه وبين من كان بها من رجال ، وملكها ، وامتنعت عليه القلعة ، ولم يكن البرنس بيمند بطرابلس فلما بلغه سار الى تحت المرقب منجدا لمن في القلعة ثم ان ابن لاون ملك

القلعة وعاد بيمنند الى طرابلس وكتب ابن لاون الى الملك الظاهر يعلمه
أنه كان في خدمته وأنه لا ينقلب الا عن أمره وأنه فتح انطاكية باسمه
وأطلق اسرى من المسلمين كانوا فيها وسيرهم الى حلب فأحسّن جوابه ،
ثم خرج منها وسلمها لابن اخته ، ولم تزل في يده الى أن قصدها
الظاهر بيبرس . . .

الملحق الخامس

العلاقات مع الامبراطورية الفريجية المقدسة

(نص رسالتين بعث بهما الامبراطور فردريك الثاني الى صديقه فخرالدين)
(١)

(ابن شيخ الشيوخ وزير السلطان الكامل سنة ٦٢٧ هـ)

((بسم الله الرحمن الرحيم . عنوانه ترجمته . قيصر المعظم امبراطور

رومية فردريك بن / الامبراطور هنريك بن الامبراطور فردريك المنصور

بالله المقتدر بقدرته ، المستعلى بعزته ، مالك المانية ولمبردية (٢) وتسقانية (٣)

وايطالية وانكبيرده (٤) وقلورية (٥) وصقلية ، ومملكة الشام القدسية ، معزامام

رومية ، الناصر للملة المسيحية بسم الله الرحمن الرحيم . شعر :

(من الطويل)

رحلنا وخلفنا القلوب مقيمة تخلت عن الأجسام والجنس والنوع

وآلت على ان لا تخل بودكم مدى الدهر وانسلت تنكب عن طوعي

لو وجدنا الى وصف ما نجده من عظيم الشوق ، ونكايده من أليم /

الاستيحاء والتوق ، الى المجلس السامي الفخري أدام الله أيامه ، وسرمد

أعوامه ، وثبت في الرياسة أقدامه ، وحرس مودته واکرامه ، وأجرى على سبيل

(١) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ١٩٠ - ١٩٤ ونقل النص

عنه ايضا ابن الفرات في تاريخه ج ٦ لوحة ١٠٤ - ١٠٧ .

(٢) لمبردية : مقاطعة ايطالية عاصمتها ميلانو .

(٣) تسقانية : مقاطعة بايطاليا عاصمتها فلورنس .

(٤) يقول ياقوت (ج ١ ص ٣٩٢) عن الانكبردة انها بلاد واسعة من

بلاد الفرنج بين القسطنطينية والاندلس .

(٥) قلورية : هي كلا بریا ، مقاطعة بجنوب ايطاليا .

النجاح مراره ، وسدد عهده ، وكلامه ، وأجزل من النعم أقسامه ، وجدد
مع الجديدين سلامه للزمن في الخطاب شططا ، وحدنا عن الصواب غلطا ،
ان منينا بروعة استيحا ، بعد سكون وايناس ، ولوعة فراق ، في اثر غبطة
واشتياق ، فرأينا السلوممتنا ، وحبل التجلد منقطعا ، ومأمول التماسك قد
عاد جزعا ، وشمل الاصطبار منصدا : (من الطويل)

وقد كنت لو خيرت بين فراقكم وبين حماي قلت يدركني نحبي
/ وتخاله ، أكرمه الله ، ملنا ، واعتاض بغيرنا ، واختار فراقنا ، وتناس
ودادنا ، فعزينا انفسنا بقول ابي الطيب ^(١) . (من البسيط)

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم
وبعد ، فعلنا انه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد
من اثارنا ، نشعره حسبا شرحناه له بصيدا أن البابا - باء بالفدر
والخديفة - أخذ احدى قلاعنا المنيرة تسمى منت مسين ^(٢) ، أسلمها له
أباطها اللعين ، وعند ذلك رام المزيد ، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا
لرجوعنا السعيد ، فاضطر الى ان زعم اننا متنا ، وحلف القردنالية ^(٣) على
ذلك وعلى ان رجوعنا مستحيل ، وراموا خداع العامة بمثل هذه الاباطيل
، وأنه ليس احد بعدنا يحسن حراسة / بلادنا وحفظها يرسم ولدنا مثل

(١) انظر بيت المتنبي في ديوانه (ط . صادر ١٩٥٨ م) ص ٣٣٣ .

(٢) في الاصل " قسين " .

(٣) في الاصل " القردمالية " .

البابا ، فلايمان هوء لاء الذين هم أئمة الدين وخلفاء الحواريين ، اتخذت جماعة من الضغام والمفسدين ، فعند وصولنا الى ميناء برنديس المصونة ، ألقينا الملك جوان واللمبرديين في الدخول في ملكنا معاندين ، وقع خبر ورودنا متشككين ، لما قرره القردنالية عندهم باليمين ، وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين . داخل أعداءنا الجزع ، وحل بهم الروع والفرع ونكصوا الى ورائهم خاسرين مسافة يومين ، وارتد أهل طاعتنا اليها طائعين ، وكذلك اللمبرديين الذين كانوا معظم عسكرهم لم يرضوا لائفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين ، وانصرفوا على ادبارهم اجمعين ، وأما الملك المذكور واصحابه / ، فأحاط بهم الحياء والخوف ، واجتمعوا الى موضع ضيق يخافون الانصراف عنه ، والخروج منه ، بل لا يقدرّون على ذلك ، لأن البلاد بأسرها قد عادت لنا والى طاعتنا . ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكرا مديدا من الألمانية الذين كانوا معنا في الشام ، والذين انصرفوا قبلهم وورثهم الريح الى بلادنا وغيرهم من أمثائننا وروءساء دولتننا ، واستعد دنا نجد السير الى بلاد أعدائنا .

وبعد فما نوثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيده أحواله ومهامه وحاجاته ، وأن يقرى سلامنا على جميع اكابر العسكـر وعظمائه ومملوكيه ودخلته ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته . وكتب ببرت المصونة بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسو^(١) للاندقتنس الثاني .

(١) ترجم أمارى كلمة أسوالى (أون) ، ويبدو أن جملة الاندقتنس الثاني تعنى نوعا من التاريخ كان يؤرخ به في ذلك الوقت . انظر أمارى ، مجلة الارشيف ص ١٢٢ .

/ وهذه (١) نسخة الكتاب الثاني . الترجمة كالآول : " فيه من الاخبار بما نشره به . أنا قد جمعنا عسكريا كثيرا ، وأنا نجد السير الى قتال من هم بانتظارنا ، ولم يهرب امام وجهتنا ، والان قد حدث من الأمر حسب حدسنا ، وذلك انهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنا ونصبوا عليها المنجنيقات وما شابهها من الديابات (٢) والآلات (٣) ، فلما أحسوا باقبالنا مع بعد المسافة بينهم وبيننا ، لم يتمهلوا الي ، بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم ، وانهمزوا هاربين أمامنا ، ونحن نجد السير في طلبهم وتفريق شملهم ، وتبديد جمعهم ، وطلب البابا ديثما وجدناه ، ورده خاسئا على قفاه ، نادما على ما نواه ، وما نجده من الأخبار فنحن نكتب المجلس ان شاء الله ."

(١) في الاصل : " وهذا " و

(٢) الديابة : آلة حربية ، انظر المقرئ ج ١ قسم ١ ص ٩٦ ،

هامش ٨٠ .

(٣) في الاصل : " وآلات " .

الملحق السادس

(ثبت بأسماء الحكام في بلاد الشام وبعض البلدان الأخرى خلال فترة البحث)

١ - ملوك بني أيوب في بلاد الشام ومصر :

(أ) الأيوبيون في دمشق :

١١٩٦-١١٩٣ هـ / ٥٨٩-٥٩٢ هـ	الأفضل نور الدين علي
١٢١٨-١١٩٦ هـ / ٥٩٢-٦١٥ هـ	العاذل الأول أبوبكر
١٢٢٧/١٢١٨ هـ / ٦١٥-٦٢٤ هـ	المعظم عيسى
١٢٢٩-١٢٢٧ هـ / ٦٢٤-٦٢٦ هـ	الناصر داود
١١٣٧-١٢٢٩ هـ / ٦٢٦-٦٣٥ هـ	الأشرف موسى
١٢٣٧ هـ / ٦٣٥ هـ	الصالح اسماعيل (المرة الأولى)
١٢٣٨ هـ / ٦٣٥ هـ	الكامل محمد
١٢٣٩-١٢٣٨ هـ / ٦٣٥-٦٣٦ هـ	العاذل الثاني بن الكامل
١٢٣٩ هـ / ٦٣٦-٦٣٧ هـ	الصالح نجم الدين ايوب (المرة الأولى)
١٢٤٥-١٢٣٩ هـ / ٦٣٧-٦٤٣ هـ	الصالح اسماعيل (المرة الثانية)
١٢٤٩-١٢٤٥ هـ / ٦٤٣-٦٤٧ هـ	الصالح نجم الدين ايوب (المرة الثانية)
١٢٥٠-١٢٤٩ هـ / ٦٤٧-٦٤٨ هـ	المعظم تورانشاه
١٢٦٠-١٢٥٠ هـ / ٦٤٨-٦٥٨ هـ	الناصر يوسف

(ب) الأيوبيون في حلب :

١٢١٦-١١٨٦ هـ / ٥٨٢-٦١٣ هـ	الظاهر غازي
١٢٣٦-١٢١٦ هـ / ٦١٣-٦٣٤ هـ	العزیز محمد
١٢٦٠-١٢٣٦ هـ / ٦٣٤-٦٥٨ هـ	الناصر يوسف

(ج) الایوبیون فی حماء :

المنصور الاول محمد	٥٨٧-٦١٧هـ / ١١٩١-١٢٢٠م
الناصر قلیج أرسلان	٦١٧-٦٢٦هـ / ١٢٢٠-١٢٢٩م
المظفر محمود	٦٢٦-٦٤٢هـ / ١٢٢٩-١٢٤٤م
المنصور الثاني	٦٤٢-٦٨٣هـ / ١٢٤٤-١٢٨٤م

(د) الایوبیون فی حمص :

المجاهد شیرکوه الثاني	٦٨٢-٦٣٨هـ / ١١٨٦-١٢٤٠م
المنصور ابراهيم	٦٣٨-٦٤٤هـ / ١٢٤٠-١٢٤٦م
الاشرف موسى الثاني	٦٤٤-٦٤٦هـ / ١٢٤٦-١٢٤٨م

(هـ) الایوبیون فی بعلبك :

الامجد بهرام شاه	٥٧٨-٦٢٧هـ / ١١٨٢-١٢٣٠م
الاشرف موسى العادل	٦٢٧-٦٣٥هـ / ١٢٣٠-١٢٣٧م
الصالح اسماعيل	٦٣٥-٦٤٣هـ / ١٢٣٧-١٢٤٥م
الصالح نجم الدين أيوب	٦٤٣-٦٤٧هـ / ١٢٤٥-١٢٤٩م
المعظم تورانشاه	٦٤٧-٦٤٨هـ / ١٢٤٩-١٢٥٠م
الناصر يوسف	٦٤٨-٦٥٨هـ / ١٢٥٠-١٢٦٠م

(و) الایوبیون فی الكرك :

العادل الاول	٥٨٤-٦١٥هـ / ١١٨٨-١٢١٨م
المعظم عيسى	٦١٥-٦٢٤هـ / ١٢١٨-١٢٢٧م
الناصر داود	٦٢٤-٦٤٧هـ / ١٢٢٧-١٢٤٩م
الصالح نجم الدين أيوب	٦٤٧هـ / ١٢٤٩م
المعظم تورانشاه	٦٤٧-٦٤٨هـ / ١٢٤٩-١٢٥٠م
المفيث عمر	٦٤٨-٦٥٨هـ / ١٢٥٠-١٢٦٠م

(ز) ^١الأيوبيون في مصر :

١١٩٨-١١٩٣/هـ ٥٨٩-٥٩٤	المعز عثمان
١١٩٩-١١٩٨/هـ ٥٩٥-٥٩٤	المنصور محمد
١٢١٨-١١٩٩/هـ ٥٩٥-٦١٥	العاقل الأول
١٢٣٨-١٢١٨/هـ ٦١٥-٦٣٥	الكاظم محمد
١٢٤٠-١٢٣٨/هـ ٦٣٧-٦٣٥	العاقل الثاني بن الكامل
١٢٤٩-١٢٣٨/هـ ٦٣٧-٦٤٧	الصالح أيوب
١٢٥٠-١٢٤٩/هـ ٦٤٧-٦٤٨	المعظم تورانشاه

(٢) سلاطين المماليك في مصر :

١٢٥٠/هـ ٦٤٨	شجر الدر
١٢٥٧-١٢٥٠/هـ ٦٤٨-٦٥٥	المعز عز الدين أيوب
١٢٥٩-١٢٥٧/هـ ٦٥٥-٦٥٧	المنصور نور الدين علي بن أيوب
١٢٥٩/هـ ٦٥٧-٦٥٨	سيف الدين قطز

(٣) حكام الصليبيين في بلاد الشام :

(أ) ^١مملكة بيت المقدس الصليبية :

١١٩٧-١١٩٢	هنري دي شامبني
١٢٠٥-١١٩٧	عموري لوزجنان ملك قبرص
١٢١٠-١٢٠٥	ماري ابنة كونراد (تحت الوصاية)
١٢٢٥-١٢١٠	حناء دي بر بين
١٢٥٠-١٢٢٥	الإمبراطور فردريك الثاني
١٢٥٤-١٢٥٠	كونراد الرابع ملك ألمانيا (ملك اسمي)
١٢٦٨-١٢٥٤	كونرادين (ملك اسمي)

(١) ظل اسم مملكة بيت المقدس قائما بعد استعادة صلاح الدين لبيت المقدس إذ بقي الاسم يطلق على عكا وما يتبعها من بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية .

(ب) امارة انطاكية الصليبية :

١١٦٣-١٢٠١ م	بوهيمند الثالث
١٢٠١-١٢١٦ م	بوهيمند الرابع
٢١٦-١٢١٩ م	ريموند رويان
١٢١٩-١٢٣٣ م	بوهيمند الرابع (مرة ثانية)
١٢٣٣-١٢٥١ م	بوهيمند الخامس
١٢٥١-١٢٦٧ م	بوهيمند السادس

(ج) أمراء طرابلس :

١١٨٧-١٢٣٣ م	بوهيمند الرابع
١٢٣٣-١٢٥١ م	بوهيمند الخامس
١٢٥١-١٢٨٧ م	بوهيمند السادس

(٤) الخلفاء العباسيون في بغداد :

٥٧٥-٦٢٢ هـ / ١١٨٠-١٢٢٥ م	الناصر لدين الله
٦٢٢-٦٢٣ هـ / ١٢٢٥-١٢٢٦ م	الظاهر بأمر الله
٦٢٣-٦٤٠ هـ / ١٢٢٦-١٢٤٢ م	المستنصر بالله
٦٤٠-٦٥٦ هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨ م	المستعصم بالله

(٥) سلاجقة الروم :

٥٨٨-٥٩٦ هـ / ١١٩٢-١٢٠٠ م	كيخسرو الأول
٥٩٦-٦٠٠ هـ / ١٢٠٠-١٢٠٣ م	سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان
٦٠٠-٦٠١ هـ / ١٢٠٣-١٢٠٤ م	قلج أرسلان الثالث
٦٠١-٦٠٧ هـ / ١٢٠٤-١٢١٠ م	كيخسرو الأول (مرة ثانية)

تابع (٥) سلاجقة الروم :

١٢٠٧-٦١٦هـ / ١٢١٠-١٢١٩م	كيكاوس الأول بن كيخسرو
٦١٦-٦٣٤هـ / ١٢١٩-١٢٣٦م	كيقبان الأول بن كيخسرو
٦٣٤-٦٤٣هـ / ١٢٣٦-١٢٤٥م	كيخسرو الثاني بن كيقبان
٦٤٣-٦٥٥هـ / ١٢٤٥-١٢٥٧م	كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني
٦٥٥-٦٦٥هـ / ١٢٥٧-١٢٦٧م	قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني

(٦) ملوك الدولة الخوارزمية :

٥٩٦-٦١٧هـ / ١١٩٩-١٢١٩م	محمد خوارزمشاه
٦١٧-٦٢٨هـ / ١٢١٩-١٢٣١م	جلال الدين منكبرتي

(٧) حكام مملكة أرمينية الصفري :

١١٨٧-١٢١٩م	ليو الثاني
١٢٢٢-١٢٢٥م	ايزابيل
١٢٢٦-١٢٦٩م	هيثوم الأول

(٨) بابوات روما :

١١٩١-١١٩٨م	سليستين الثالث
١١٩٨-١٢١٦م	أنوسنت الثالث
١٢١٦-١٢٢٧م	هونوريوس الثالث
١٢٢٧-١٢٤١م	جريجوري التاسع
١٢٤١م	سليستين الرابع
١٢٤٢-١٢٥٤م	أنوسنت الرابع
١٢٥٤-١٢٦١م	الاسكندر الرابع

(۹) خانات المغول :

۱۲۲۷-۱۲۰۶/هـ ۶۲۴-۶۰۲ م	جنگیز خان
۱۲۴۱-۱۲۲۹/هـ ۶۳۹-۶۲۶ م	اوکتای قاآن
۱۲۴۹-۱۲۴۶/هـ ۶۴۷-۶۴۴ م	کیوک خان
۱۲۵۷-۱۲۵۰/هـ ۶۵۵-۶۴۸ م	منکو قاآن
۱۲۹۴-۱۲۶۰/هـ ۶۹۳-۶۵۸ م	قوبیلای قاآن

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولا - المخطوطات :

- ابن أبي الدم (أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله الحموي ، ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) التاريخ المظفرى . صورة بمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى برقم ١١٣١ عن نسخة مكتبة خدابخش بالهند رقم ٣٨٦٩ .
- ابن أيبك الداودارى (أبو بكر عبدالله بن أيبك ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) درر التيجان و غرر تواريخ الزمان . مكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٣٨٢٨ ج .
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي ٨١٣-٨٧٤هـ / ١٤١٠-١٤٦٩م) .
المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي . دار الكتب المصرية رقم ١٣١٠ . ونسخة مكتبة عارف حكمت ج ١ رقم ٣٢
٦٣٠ / ٦٤٢
و ج ٢ رقم ٩٠٠ / ٦٣٠ .
- ابن الجزرى (محمد بن محمد بن محمد بن الجزرى) فرغ من كتابه سنة ٧٩٨هـ ، تاريخ الجزرى صورة بمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى برقم ١٣٠٢ عن نسخة المكتبة القومية بطهران رقم ٤٦٩ .
- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)
دورة الأسلاك في دولة الأتراك . مكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٣٠١١ .

- ابن خطيب الناصرية (علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي بن خطيب
الناصرية ت ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م)
الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب . المكتبة الاحمدية
بحلب رقم ١٢١٤ .
- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن دقماق ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م)
الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين . مكتبة احمد
الثالث باستامبول رقم ٢٩٠٣ .
- ابن شاکر الکتبی (محمد بن شاکر بن احمد بن عبدالرحمن الکتبی
ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) عیون التواریخ . ج ١٥ دار
الکتب المصرية رقم ١٤٩٧ .
- ابن شداد (عزالدین أبو عبدالله محمد بن علی بن ابراهیم الحلبي ،
ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) ، الاطلاق الخطيرة في ذكر امراء
الشام والجزيرة . مكتبة اياصوفيا باستامبول رقم ٣٠٨٤ ،
ومكتبة الفاتيكان برقم ٧٣٠ .
- ابن الشحنة (ابو الوليد محب الدين محمد بن محمد ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م)
تاريخ ابن الشحنة . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة
أم القرى برقم ١٢٣٤ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم
١٦٣٩٣ .
- ابن السعدي (كمال الدين عرب بن احمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)
بغية الطالب في تاريخ حلب . مكتبة اياصوفيا ٤٠٤٦ ، ومكتبة
فيض الله ١٤٠٤ ومكتبة احمد الثالث رقم ٢٩٢٥ تركيا .
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن علي ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م)
تاريخ ابن الفرات . صورة بمركز البحث العلمي واحياء التراث
الاسلامي بجامعة أم القرى برقم ٦١٢ عن نسخة الخزانة
العامة بالرباط رقم ٥٤١ ق .

- ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن ابي بكر ت ٧٧٤هـ / ١٢٧٢م)
الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، المجلد الرابع ، القسم الاول ،
صورة بمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي برقم ١٥٠١
عن مكتبة المجمع العلمي العراقي ، بدون رقم .
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)
١ - التاريخ الصالح . مكتبة فاتح باستامبول رقم ٤٢٢٤ .
٢ - تاريخ الواصلين . دار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ .
- ابو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ /
١٣٣٢م) التبر المسبوك في تواريخ الملوك . دار الكتب
المصرية رقم ٨٦ تاريخ .
- الاصفهاني (القاضي عماد الدين محمد بن محمد ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)
البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان . وذيّل عليه علم
الدين سنجر المسروري من سنة ٥٩٣ الى سنة ٦٣٥ على
المخطوطة نفسها . مكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٩ .
- الاهدل (الحسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي ، ت ٨٥٥هـ /
١٤٥١م) ، غربال الزمان . صورة بمركز البحث العلمي
بجامعة أم القرى برقم ٥٢٩ عن نسخة المكتبة الوطنية
بباريس رقم ٤٧٢٧ .
- بدر الدين الحلبي (أبو محمد الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي ، ت
٧٧٩هـ / ١٣٣٧م) ، جبهة الاخبار في تاريخ الانبياء
والخلفاء وملوك الامصار . مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ٥١٥٧ .
- بيبرس الداودار (ركن الدين بيبرس الخطائي المنصوري الداودار
مملوك السلطان قلاوون الالفي ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م)
التحفة الملوكية في الدولة التركية . صورة بمركز البحث العلمي
بجامعة أم القرى برقم ٢٠٥ عن نسخة مكتبة فينا رقم ٢٤٠٢٩ .

- الجنايسي (ابو محمد الشريف مصطفى بن حسن بن سنان بن احمد
بن السيد حسن الحسيني الهاشمي ، ت ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م)
البحر الزاخر في احوال الاوائل والاواخر . مكتبة الحرم
المكي رقم ٢٠
- الخطيب العمري (ياسين بن خير الله بن محمد بن موسى الخطيب
العمري ، ت ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م)
الدرالمكون في المآثر الماضية من القرون . صورة بمركز
البحث العلمي بجامعة ام القرى برقم ١٠٤٥ عن نسخة
المكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٩٤٩
- الديبسياوي (محمد بن محمد الديبسياوي ت ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م)
الزهر الزاهر في الدلالة على قدرة العزيز القاهر .
نسخة بمركز البحث العلمي بجامعة ام القرى برقم ٣٨٦
عن نسخة مكتبة شستربتي ، ايرلنده ، دبلن رقم ٥٣٦٨
- الديري (هبة الله محمد الديري الحنفي المقدسي ، كان حيا سنة ٨٩٥هـ)
الجدول الصفي من البحر الوفي . صورة بمركز البحث العلمي
بجامعة ام القرى برقم ١٣٨٢ عن نسخة مكتبة الاحقاف باليمن
مجموعة ال يحيى رقم ٣٨ تاريخ .
- الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن قايماز ، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)
تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام جه المكتبة الاحمدية
بحلب رقم ٦٤٧ .
ج ٢٢ صورة بمكتبة مركز البحث العلمي واحياء التراث
الاسلامي بجامعة ام القرى رقم ١٥٣
- الزبيدي (محمد مرتضى الزبيدي ، ت ١٢٠٥هـ / ١٧٨٩م)
ترويح القلوب بذكر الملوك بني ايوب . صورة بمركز البحث
العلمي بجامعة ام القرى برقم ٥٦٩ عن نسخة مكتبة جامعة
برنستون (مجموعة يهودا) رقم ٤٣٩ تراجم .

- سبط ابن العجمي (موفق الدين أبو نذر أحمد بن إبراهيم الحلبي ،
ت ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م) كنوز الذهب في تاريخ حلب .
المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٨٣٧ تاريخ .
- السيوطي (كمال الدين محمد بن محمد بن أبي شريف السيوطي ،
ت ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م) اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الاقصى .
دار الكتب المصرية رقم ١٨٢٩ تاريخ طلعت .
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن ايبك ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م)
١ - تحفة ذوي الالباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء
والملوك والنواب ، مخطوط مصور عن ميكروفيلم بمعهد
المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٥٢ تاريخ .
٢ - أعيان العصر وأعوان النصر . مكتبة جامعة استامبول
رقم ٤٣٨٢ .
- العليمي (قاضي القضاة مجير الدين بن عبد الرحمن بن محمد العليمي
الحنبلي المقدسي ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م)
١ - كتاب في تاريخ من ملك مصر وعكا والشام وحلب
والسواحل . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى
رقم ١٢٠٦ عن نسخة المتحف البريطاني رقم ١٥٤٤ .
٢ - التاريخ المعتبر في أنباء من غير . صورة بمركز البحث
العلمي بجامعة أم القرى برقم ٣٩٠ / ١ مجاميع عن
نسخة جامعة برنستون (مجموعة يهودا) رقم
٢٢٦٣ .
- العيني (بدر الدين محمود أبو محمد بن أحمد بن موسى العيني ،
ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان .
ج ١٣ مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٣٩٠ .

- المقرئ (تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادرت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
المقفى ، أو - التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر
والواردين اليها . المكتبة السليمانية باستامبول رقم ٤٩٦ .
- المولى (أحمد بن لطف الله المولى ، كان حيا سنة ١١١٦ م)
صحائف الاخبار في وقائع الاغصار . مكتبة أحمد الثالث
باستامبول رقم ١٢٥٤ / ١ .
- النويرى (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد ت ٧٣٣هـ /
١٣٣٣ م) . نهاية الارب في فنون الادب . ج ٢٧
دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .
- الناشرى (علي بن ابي بكر بن علي الناشرى ، ت ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م)
روضة الناظر للسلطان الملك الناصر . صورة بمركز البحث
العلمي بجامعة أم القرى برقم ٢٩٠ عن نسخة المكتبة
الوطنية بباريس رقم ٥٨٢٣ .
- اليافعي (حسن بن ابراهيم بن محمد اليافعي ، كان حيا سنة ٦٧٩هـ)
جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والولاطين
الاسلامية . صورة بمركز البحث العلمي بجامعة أم
القرى برقم ١١٤٢ عن نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ١٥٤٣ .

*

ثانيا - المصادر العربية المطبوعة :

- القرآن الكريم .
- ابن ابي اصيبعة (موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم ، ت ٦٦٨هـ /
١٢٦٩ م) . عيون الانباء في طبقات الأطباء . تحقيق
نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ م .

- ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الطلق بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ /

(١٢٣٢ م)

١ - الكامل في التاريخ . ط . ليدن ١٨٥١-١٨٧٦ م .

٢ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية . تحقيق عبدالقادر

طليمات القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣ م .

- ابن اياس (ابو البركات محمد بن أحمد بن أياس الحنفي ، ت ٩٣٠هـ /

١٥٢٤ م) بدائع الزهور في وقائع الدهور . الجزء الأول

تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .

- ابن ايبك الداوادي (أبوبكر عبدالله بن أيبك ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢ م)

كنز الدرر وجامع الفرر . الجزء السابع وعنوانه ، الدرالمطلوب

في اخبار ملوك بني ايوب . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور .

القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢ م .

الجزء الثامن وعنوانه ، الدر الزكية في اخبار الدولة التركية .

تحقيق ألخ هارمان ، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١ م .

- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي

الأتابكي ت ٨١٢هـ / ٨٧٤هـ)

١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ط د ، الكتب

المصرية .

٢ - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي . الجزء الأول

تحقيق احمد يوسف نجاتي . القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦ م .

- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي ،

ت ٦١٤هـ / ١٢١٧ م) . رحلة ابن جبير ، المسماة تذكرة

بالاخبار عن اتفاقات الاسفار ، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)
تاريخ ابن خلدون ، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في
تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر .
تحقيق خليل سعادة ومراجعة سهيل زكار ، بيروت
١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ، ت
٦٨١هـ / ١٢٨٢م) . وفيات الأعيان وأنبياء أئمة الزمان .
تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) .
الانتصار بواسطة عقد الأُمصار . ج ٤ - ٥ ، نشر ه
فولر زج القاهرة ١٨٩٣م .
- ابن الساعي (ابوطالب علي بن أنجب تاج الدين المعروف بابن
الساعي الخازن ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م)
الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير . الجزء
التاسع ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م .
- ابن شداد (ابو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشهير
بابن شداد ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) .
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، اوسيرة صلاح الدين ،
تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م .
- ابن شداد (هز الدين ابو عبدالله بن علي بن ابراهيم الحلبي ،
ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) .
الأُلق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ٣ أجزاء ،
الجزء الاول تحقيق دومينيك سورديل ، دمشق ١٩٥٣م .
الجزء الثاني تحقيق سامي الدهان ، قسم مدينة دمشق ط .
دمشق ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م وقسم لبنان والاردن وفلسطين
ط . دمشق ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .
الجزء الثالث تحقيق يحيى عبارة ط . دمشق ١٩٧٨م .

- ابن طولون (محمد بن طولون ، ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م) .

١ - القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية . تحقيق محمد

احمد دهمان ج١ دمشق ١٩٤٩م .

٢ - قضاة دمشق ، أو الشفر اليسام في ذكر من ولي

قضاء الشام . تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق

١٩٥٦م .

- ابن عبد الظاهر (محي الدين عبدالله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر

بن نشوان بن عبد الظاهر السعدى المصرى ، ت ٦٩٢هـ /

١٢٩٢م) . الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر .

تحقيق عبد العزيز الخويطر الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

- ابن سعيد (عبدالله بن سعيد ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) وعلي بن موسى

بن محمد بن عبد الملك ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م ووالده موسى

بن محمد ت ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م . كتب كل واحد من الثلاثة

قطعة من كتاب " النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ،

القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب .

تحقيق د . حسين نصار ، القاهرة ١٩٧٠م .

- ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري

ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) . تاريخ مختصر الدول .

ط . بيروت ١٩٥٨م ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- ابن العديم (صاحب كمال الدين ابوالقاسم عمر بن احمد بن هبة الله

بن ابي جرادة ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)

زبدة الحلب من تاريخ حلب . ج ٣ ، تحقيق سامي الدهان

بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

- ابن العماد الحنبلي (ابو الفلاح عبد الحي احمد بن محمد بن العماد
ت ١٠٨٩ هـ / ١٧٧٥ م) . شذرات الذهب في اخبار من ذهب .
بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن العميد (المكين جرجيس بن العميد ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م)
أخبار الأيوبيين . دمشق ١٩٥٨ م .
- ابن عنين (محمد بن نصر الله ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)
ديوان ابن عنين . تحقيق خليل مردم ، دمشق ١٩٤٦ م .
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي ، ت ٨٠٧ هـ /
١٤٠٤ م) . تاريخ ابن الفرات . ج ٤ قسم ٢ ، ج ٥
قسم ١ ، تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ١٣٨٩ - ١٣٩٠ هـ /
١٩٦٩ - ١٩٧٠ م .
- ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد المالكي ،
ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م) . الديباج المذهب في معرفة
أعيان علماء المذهب ، جزءان ، تحقيق محمد الاحمدى أبو
النور ، القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، ت ٧٤٩ هـ /
١٣٤٨ م) . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار .
الجزء الاول تحقيق احمد زكي باشا ، القاهرة ١٣٤٢ هـ /
١٩٢٤ م .
- ابن الفوطي (كمال الدين عبدالرزاق بن تاج الدين احمد الشيباني ،
ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م)
١ - تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب . الجزء الرابع ،
تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .
٢ - الجوائد الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة .
تصحيح وتعليق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١ هـ .

- ابن قاضي شهبة (بدر الدين محمد بن ابي بكر ، ت ٧٧٤هـ / ٣٧٢م)
الكواكب الدرية في السيرة النورية . تحقيق محمود زايد ،
بيروت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن القلانسي ، ت ٥٥٥هـ / ١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق . بيروت ١٩٠٨م .
- ابن قنفذ القسنطيني (احمد بن حسن بن علي بن حسن بن علي بن
الخطيب ، ت ٨٠٩هـ / ١٥٠٢م) . الوفيات .
تحقيق عادل نويهض ، بيروت ١٩٧١م .
- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ت ٧٧٤هـ /
٣٧٢م) . البداية والنهاية . ج ١٣ بيروت ١٩٦٦م .
- ابن منظور (ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، ت ٧١١هـ /
٣١١م) . لسان العرب ، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٩٨م .
- ابن نصر الحنبلي (أبو البركات عز الدين احمد بن ابراهيم بن نصر الله
الكناني العسقلاني ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م) .
شفا القلوب في مناقب بني ايوب . تحقيق ناظم رشيد
، بغداد ١٩٧٨م .
- ابن نظيف الحموي (أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف ، عاش في
النصف الأول من القرن السابع الهجري)
التاريخ المنصوري " تلخيص الكشف والبيان في حوادث
الزمان " تحقيق ابو العيد دودو ، دمشق ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ / ٢٩٨م)
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب . ج ٣ تحقيق جمال الدين
الشيال القاهرة ١٩٦٠م ج ٤ - ٥ تحقيق حسنين محمد
ربيع ، القاهرة ١٩٧٢م ، ١٩٧٧م .

- ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر بن ابي الفوارس ، ت ٧٤٩هـ /

١٣٤٨م) تنمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن

الوردى) تحقيق احمد رفعت البدر اوى ، بيروت

١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م .

- أبوشامة (شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي ، ت ٦٦٥هـ /

١٢٦٧م)

١ - الروضتين في أخبار الدولتين ج٢ مصر ١٢٨٨هـ .

٢ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل

على الروضتين . نشر ومراجعة السيد عزت العطار

الحسيني ، بيروت ١٩٧٤م .

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ، ت ٧٣٢هـ /

١٣٣٢م)

١ - المختصر في أخبار البشر ج٣ - ٤ ، بيروت بدون تاريخ .

٢ - تقويم البلدان . باريس ١٨٤٠م .

- الأُدْفوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الأُدْفوى الشافعي

ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) الطالع السعيد الجامع أسماء

نجباء الصعيد . تحقيق سعد محمد حسن ، القاهرة ١٩٦٦م .

- أسامة بن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ،

ت ٥٨٤هـ / ١١٩٢م) الاعتبار . تحقيق فيليب حتي ،

ط برنستون ١٩٣٠م .

- الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المشهور بالعماد

الكاتب ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م)

١ - الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق محمد محمود

صبح ، القاهرة ١٩٦٥م .

٢ - تاريخ دولة آل سلاجوق ، اختصار الفتح بن علي

ابن محمد البنداري ، بيروت ١٩٧٨م .

- الأُمجد (أبوالمظفر بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب

الطبق بالملك الأُمجد ، ت ٦٢٨هـ / (١٢٣١م)

ديوان الملك الأُمجد . تحقيق ناظم رشيد ، بغداد ١٩٨٣م .

- البنداري (قوام الدين الفتح بن علي بن محمد ، ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م)

سنا البرق الشامي . القسم الاول ، تحقيق رمضان ششن ،

بيروت ١٩٧٠م .

- بيبيرس الداودار (ركن الدين بيبيرس الخطائي المنصوري الداودار

ملوك السلطان قلاوون الأُلغي ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م)

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة . الجزء التاسع ، تحقيق

ودراسة زبيدة محمد عطا ، رسالة دكتوراه تحت اشراف سعيد

عاشور من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢م .

- حاجي خليفة (المولى مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي

الشهير بالملا كاتب الجلي ، ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م)

كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون . دار الفكر ،

١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م . بيروت .

- الحريري (احمد بن علي ، كان حيا سنة ٩٢٦هـ سنة انتهاء من تأليف

الكتاب) الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار

المسلمين . تحقيق ودراسة سهيل زكار . دمشق ١٤٠١هـ /

١٩٨١م .

- الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسين ، ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٩م)

تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس . بيروت بدون تاريخ .

- الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن قايمارت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)

١ - دول الاسلام . تحقيق محمد فهيم شلتوت ، ومحمد مصطفى

ابراهيم القاهرة ١٩٧٤م .

٢ - العبر في خبر من عبر . تحقيق صلاح الدين المنجد ،

ج ٤ - ٥ الكويت ١٩٦٣م ، ١٩٦٦م .

- رشيد الدين الهمداني (رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة ابو الخير

حفيد موفق الدين الهمداني ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م)

جامع التواريخ ، اوتاريخ المغول ، المجلد الثاني - الجزء

الأول تاريخ هولاء . ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون

القاهرة ١٩٦٠م .

سبط ابن الجوزي (شمس الدين ابوالمظفر يوسف بن قزاوغي التركي الشهير

بسبط بن الجوزي ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) .

مرآة الزمان في تاريخ الاعيان . ج٨ حيدرآباد ١٣٧٠هـ /

١٩٥١م .

- السبكي (تاج الدين ابونصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ت ٧٧١هـ /

١٣٧٠م) . طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق محمود الطناحي

وعبد الفتاح حلو ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .

- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . الجزء الثاني القاهرة

١٩٣٤ - ١٩٣٦م .

- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد ت ٩١١هـ /

١٥٠٥م)

١ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . تحقيق محمد أبو

الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

٢ - تاريخ الخلفاء . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة

١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) .

الملل والنحل . تقديم واعداد عبداللطيف محمد العبد ،

القاهرة ١٩٧٧م .

- صالح بن يحيى (صالح بن يحيى بن الحسين ت ٨٤٠هـ / ١٤٣٩م)
تاريخ بيروت . تحقيق قرنسيه هورس وآخرون ، بيروت ١٩٦٧م .
- الصفدى (صلاح الدين خليل بن ايبك ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م)
١ - الوافى بالوفيات . نشر وتحقيق جمعية المستشرقين
الالمانية فسياد ١٩٦٢ - ١٩٨٢م .
٢ - امراء دمشق في الاسلام . تحقيق صلاح الدين المنجد ،
دمشق ١٩٥٥م .
- طاش كبرى زاده (احمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ت ٩٦٢هـ /
١٥٥٥م) مفتاح السعادة ومصباح السيادة - ج ١ ،
حيدرآباد ١٣٢٩هـ .
- العصامي المكي (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي ،
ت ١١١١هـ / ١٦٦٩م) سطر النجوم العوالي في انباء
الاولاى والتوالي . ج ٤ القاهرة ١٣٨٠هـ .
- العليمى (مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمى
الحنبلى ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م) الانس الجليل بتاريخ القدس
والخليل . بيروت ١٩٧٣م .
- العينى (بدر الدين محمود بن احمد بن موسى بن احمد بن الحسين
الشهير بالبدر العينى ، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)
السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المجرى .
تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧م .
- الفيروزى (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى ت ٨١٧هـ / ١٤١٥م)
القاموس المحيط . دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- القرشى (عبد القادر بن ابي الوفاء القرشى ، ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م)
الجواهر المضى فى طبقات الحنفية . حيدرآباد ، الهند ١٣٣٢هـ .

- القرمانى (ابوالعباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي ت ١١٠٩هـ /
١٦١٠م) أخبار الدول واثار الاول في التاريخ . بغداد ١٩٨٢م .
- القفطي (الوزير جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)
١ - انباء الرواة على انباء النحاة . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،
القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
- ٢ - تاريخ الحكماء ، أو اخبار العلماء باخبار الحكماء ط . ليبج
١٩٠٣م .
- القلقشندي (أبو العباس احمد بن علي بن أحمد ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
١ - صبح الاعشى في صناعة الانشا . القاهرة ١٩١٩ - ١٩٢٢م .
- ٢ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان . تحقيق
ابراهيم الابيارى القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
- ٣ - مآثر الاناثة في معالم الخلافة . تحقيق عبد الستار احمد
فراج بيروت ١٩٨٠م .
- المقرئ التلمساني (احمد بن محمد بن احمد المكنى بابي العباس ، ت
١٠٤١هـ / ١٦٣١م) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب .
- ٢ - تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- المقرئ (تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
١ - السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة
ج١ القاهرة ١٩٥٦م .
- ٢ - خطط المقرئ المعروفة باسم " المواعظ والاعتبار بذكر
الخطط والاثار ، ط القاهرة ١٣٧٠هـ .
- ٣ - اتعاط الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء . ج٣ تحقيق
محمد حلمي محمد احمد ، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .

- المنذرى * (زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى بن عبدالله
ابن سلامة المنذرى ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) .
التكملة لوفيات النقلة ٤ أجزاء ، تحقيق بشار عواد معروف ،
بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- النسوى (نور الدين محمد بن احمد بن علي بن محمد المنشى و كان
حيًا قبل سنة ٦٣٩هـ) . سيرة جلال الدين منكبرتي ،
تحقيق حافظ حمدى القاهرة ١٩٥٣م .
- التميمي (محي الدين عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف
ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م) الدارس في تاريخ المدارس .
تحقيق جعفر الحسيني ، دمشق ١٤٦٧هـ / ١٩٤٨م .
- النويرى (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م)
نهاية الأرب في فنون الأرب . ط دار الكتب المصرية .
- اليافعي (ابو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي ،
ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان
بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .
- ياقوت الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)
١ - معجم البلدان . بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
٢ - معجم الأديباء . بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- اليونيني (قطب الدين ابو الفتح موسى بن احمد بن قطب الدين اليونيني
البعليكي الحنبلي ، ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) .
ذيل مرآة الزمان . ج ١ ط حيدرآباد ، الهند ١٣٧٤هـ /
١٩٥٤م .

ثالثا - المراجع العربية والمترجمة :

- أحمد احمد بدوى
- ١ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
القاهرة ١٩٧٢ م .
- ٢ - الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .
القاهرة ، بدون تاريخ .
- احمد رمضان احمد .
المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية .
القاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- احمد مختار العبادى .
قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام . بيروت ١٩٦٩ م .
- اسمت غنيم .
الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية .
جدة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- برنارد لويس .
الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) بيروت ١٩٧١ م .
- جرجي زيدان .
تاريخ التمدن الاسلامي . القاهرة ١٩٣٥ م .
- جوانفيل .
القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام . ترجمة وتعليق
حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨ م .
- جوزيف انسيم .
١ - العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة
وفارسكور ، الاسكندرية ١٩٨٤ م .

٢ - العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع

في الاراضي المقدسة ، الاسكندرية ١٩٨٤م .

- حافظ حمدى .

١ - الدولة الخوارزمية والمغول القاهرة ١٩٤٩م .

٢ - الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي . القاهرة ١٩٥٠م .

- حامد زيان غانم زيان .

العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية

٤٩٠ - ٦٥٩ هـ .

رسالة دكتورة من جامعة القاهرة باشراف الدكتور سعيد عاشور،

١٩٧٣م .

- حسن الباشا .

الالقب الاسلامية في التاريخ والوثائق والاشارة . القاهرة ١٩٧٨م .

- حسن حبشي .

الشرق الاسلامي بين شقي الرحى " حملة لويس التاسع على مصر

والشام " القاهرة ١٩٤٩م .

- حسنين محمد ربيع .

النظم المالية في مصر زمن الايوبيين . القاهرة ١٩٦٤م .

- خاشع المعاضدى وآخرون .

الوطن العربي والغزو الصليبي . جامعة الموصل ١٩٨١م .

- خير الدين الزركلي .

الاعلام . بيروت ١٩٨٠م .

- دائرة المعارف الاسلامية . الترجمة العربية ١٤ جزء .

- زامبارو .

معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي .

القاهرة ١٩٥١م .

- زيفريد هونكه .
شمس العرب تسطع على الغرب " اثر الحضارة العربية في أوربه "
ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي بيروت ١٩٧٩ م .
- سعاد ماهر .
البحرية في مصر الاسلامية واثارها الباقية . القاهرة ١٩٦٧ م .
- ستيفن رنسيان .
تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العريني ،
بيروت ١٩٨٢ م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور .
١ - الحركة الصليبية . القاهرة ١٩٧٨ م .
٢ - العصر المالكي في مصر والشام . القاهرة ١٩٧٦ م .
٣ - قبرص والحروب الصليبية . القاهرة ١٩٥٧ م .
٤ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمالكي . بيروت ١٩٧٢ م .
٥ - اوربا في العصور الوسطى ج ١ القاهرة ١٩٧٥ م .
٦ - بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى بيروت ١٩٧٧ م .
- السيد الباز العريني .
١ - الشرق الاوسط والحروب الصليبية . القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .
٢ - مؤرخو الحروب الصليبية . القاهرة ١٩٦٢ م .
٣ - المغول . بيروت ١٩٨١ م .
٤ - الشرق الادنى في العصور الوسطى (١) الايوبيون . بيروت
١٩٦٧ م .
- شاكر مصطفى .
التاريخ العربي والمؤرخون ، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة
رجالها في الاسلام . جزآن ، بيروت ١٩٧٩ - ١٩٨٠ م .

- صابر محمد دياب .
سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط من اوائل القرن
الثاني الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمي . القاهرة ١٩٧٣ م .
- عبدالجليل حسن عبد المهدى .
المدارس في بيت المقدس في العصرين الايوبي والملوكي ،
دورها في الحركة الفكرية . عمان ١٩٨١ م .
- عبدالرحمن زكي .
السلاح في الاسلام . القاهرة ١٩٥١ م .
- عبدالمنعم ماجد ، علي البنا
الاُطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى .
القاهرة ١٩٦٧ م .
- عبدالله سعيد الغامدى .
استرداد بيت المقدس في عصر صلاح الدين .
رسالة ماجستير من جامعة أم القرى سنة ١٤٠٣ هـ .
- علي ابراهيم حسن .
تاريخ الممالك البحرية . القاهرة ١٩٦٧ م .
- علي محمد علي عودة الغامدى .
بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي . مكة المكرمة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- عليه الجنزورى .
امارة الرها الصليبية . القاهرة ١٩٧٥ م .
- عماد الدين خليل .
الامارات الارتقية في الجزيرة والشام . بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- فايد حماد محمد عاشور .
الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في العصر الايوبي .
القاهرة ١٤٠٣ هـ .

- فؤاد عبد المعطي الصياد .
المفول في التاريخ . بيروت ١٩٧٠ م .
- فيليب حتى .
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ترجمة كمال اليازجي
بيروت ١٩٥٩ م .
- كارل بروكلمان .
تاريخ الأدب العربي . ج ٦ ترجمة عبد الحليم النجار ،
القاهرة ١٩٧٧ م .
- كامل حسين محمد مصطفى الغزى .
نهر الذهب في تاريخ حلب . ج ٣ ، حلب ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م .
- كلود كاهن .
تاريخ العرب والشعوب الاسلامية منذ ظهور الاسلام حتى بداية
الامبراطورية العثمانية . ترجمة بدر الدين القاسم ، بيروت ،
١٩٧٧ م .
- كي لسترنج .
بلدان الخلافة الشرقية . ترجمة كوركيس عواد ، وبشير فرنسيين
بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- محمد ابو زهرة .
تاريخ المذاهب الاسلامية . دار الفكر العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- محمد اديب الحصيني .
منتخبات التواريخ لدمشق . بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي .
اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . ج ٢ حلب ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .
- محمد كرد علي .
خطط الشام . بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

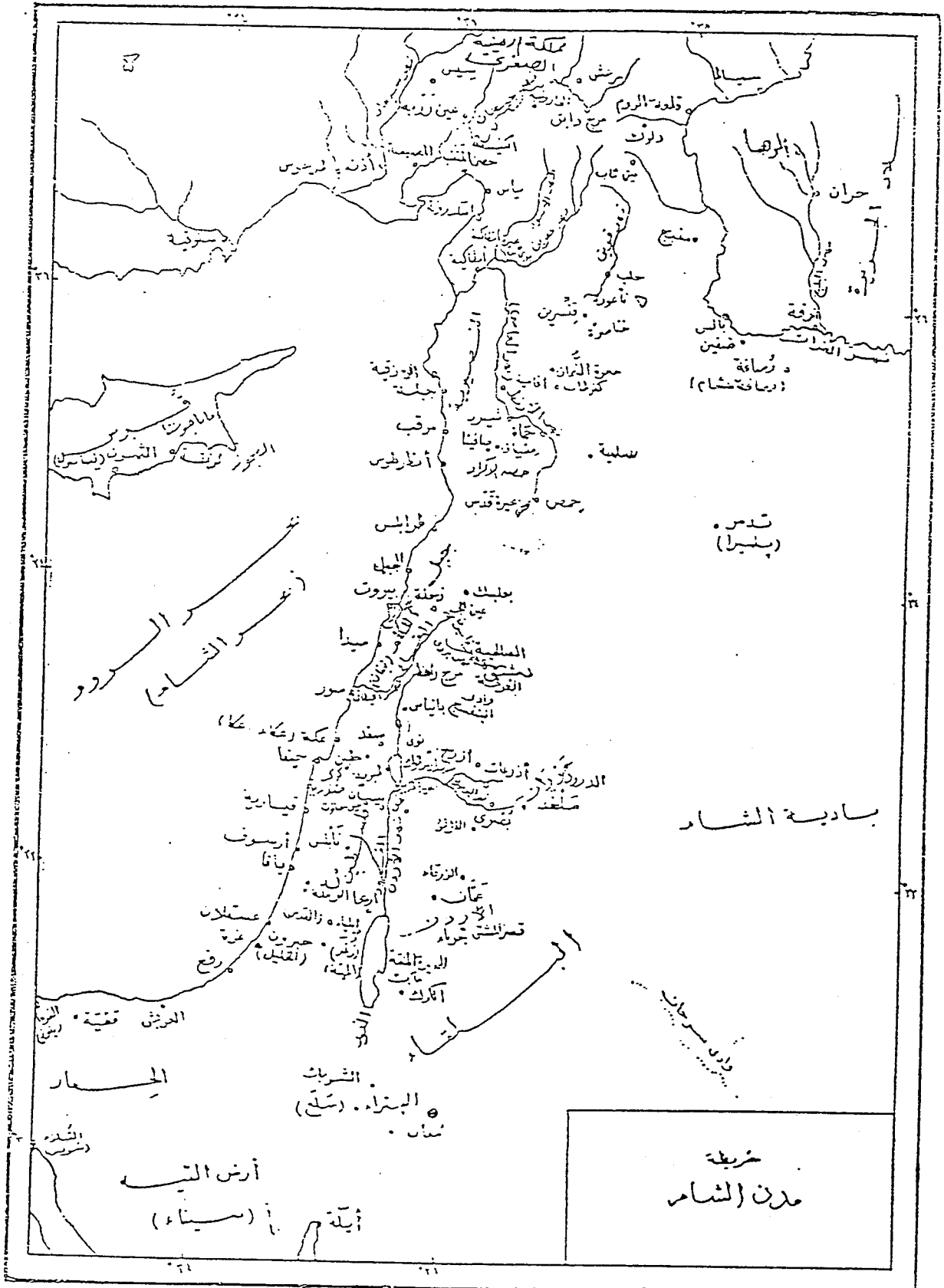
- محمد مصطفى زيادة وآخرون .
دراسات عن المقریزی . القاهرة ١٩٧١ م .
- محمد مصطفى زيادة .
حملة لویس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة .
القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
- محمود سعيد عمران .
الحملة الصليبية الخامسة " حملة جان دي بريين على مصر " .
الاسكندرية ١٩٧٨ م .
- مریزن سعيد عسیری .
الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي . رسالة دكتوراه
من جامعة أم القرى سنة ١٤٠٤ هـ / ١٤٠٥ هـ ولم تطبع .
- مسفر سالم الغامدى .
الجهاد ضد الصليبيين قبل قيام الدولة الايوبية في مصر .
جدة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- نظير حسان سعداوى .
١ - الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي . القاهرة ١٩٦١ م .
٢ - التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين .
القاهرة ١٩٥٧ م .
- هـ . ا . ل . فشر .
تاريخ اوربا في العصور الوسطى . ترجمة محمد مصطفى زيادة
القاهرة ١٩٦٩ م .
- يوسف الياس الدبعس .
تاريخ سورية . بيروت ١٩٠٠ م .

رابعاً - المراجع الأوربية .

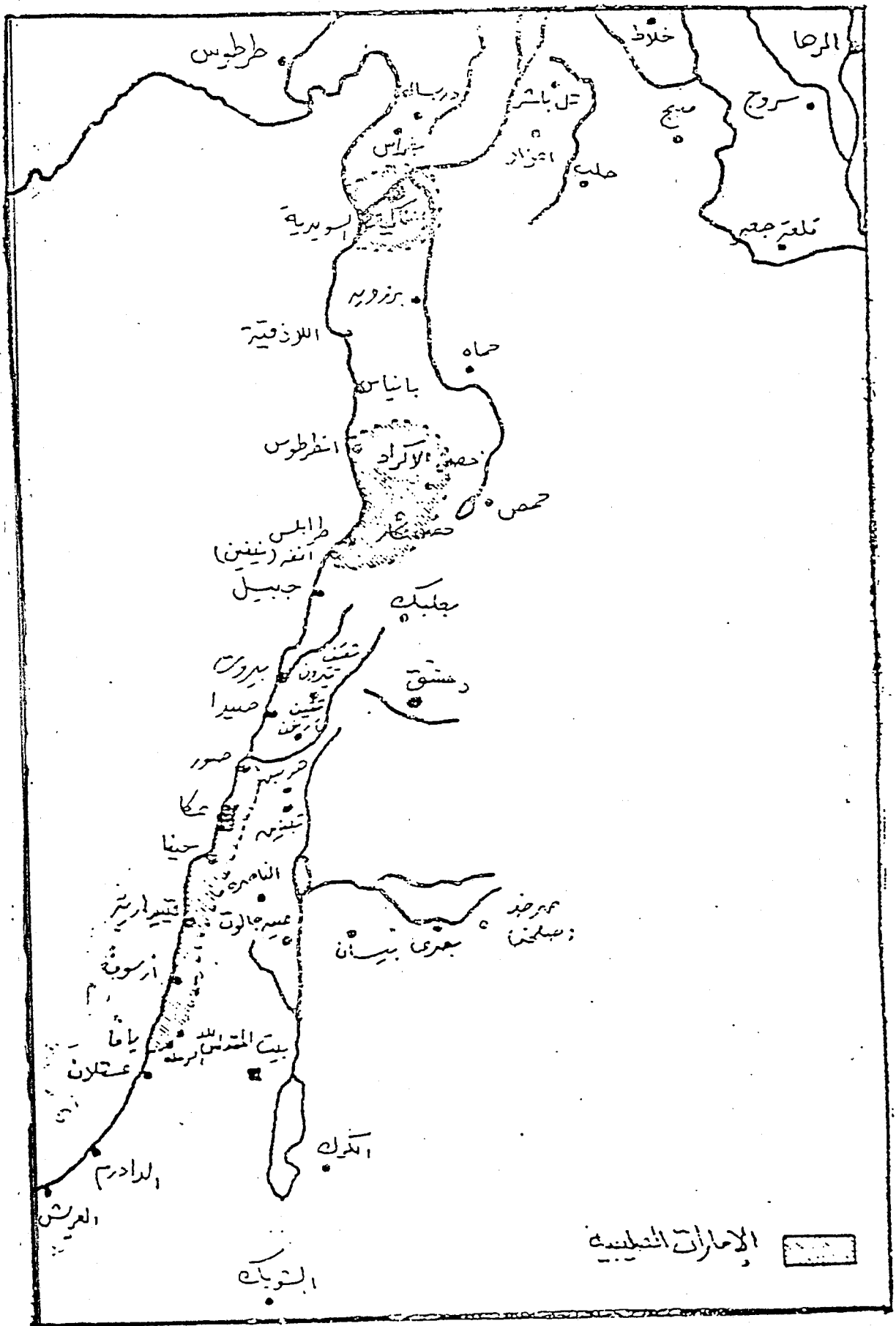
- Ayyubids , Mamlukes and Crusaders.
Selections From the Tarikh al - Duwal - Muluk,
of Ibn al-Furat in two volumes . Text and
translation by U.and M.C.Lyons . Cambridge 1971.
- Cahen, Claud,
1) La Syrie du Nord al, Epoques des Croisades ,
Paris, 1940 .
2) Article , Ayyubids in Encyclopaedia of Islam,
(New Edition) London , 1960.
- The Cambridge History of Islam, Vol. 1 A London
1970.
- The Cambridge Medieval History , Vol. IV " The
Byzantine Empire , Part I , Byzantium and its
Neighbours " London, 1964.
- Campbell " G" .
The Crusades. London , 1935.
- Cander , " C.R"
The Latin Kingdom of Jerusalem , 1099-
1291 London , 1897.
- Dozy , " R"
Supplement Aux Dictionnaires Arabes' Toms
2 , Paris 1967.
- The Encyclopaedia of Islam , (New Edition),
London 1960.
- Gibb, " H.A.R."
The Damascus Chronicle of the Crusades,
London , 1967.
- Lamb, Harold,
The Crusades The Flame of Islam . London
1931.
- Lane - Poole, Stanly,
A history of Egypt in the Middle Ages ,
London , 1936.

- Lestrangle, Gey,
Palestine under the Moslems. Beirut,
1965.
- = Painter, Sidney,
History of the Middle Ages, London ,
1975 - 1976.
- Rabie , Hassanein,
The Financial System of Egypt ,
London, 1972.
- Stevenson , W. B.,
The Crusaders in the East . Cambridge
1907.
- William of Tyre,
A History of deeds done beyond the Sea,
2 Vols , translated and annotated by
Emily Babcock and A.C. Krey, New York
1943.
- Zakkar , Suhayl,
The Emirate of Aleppo (1004-1094),
Beirut, 1971.

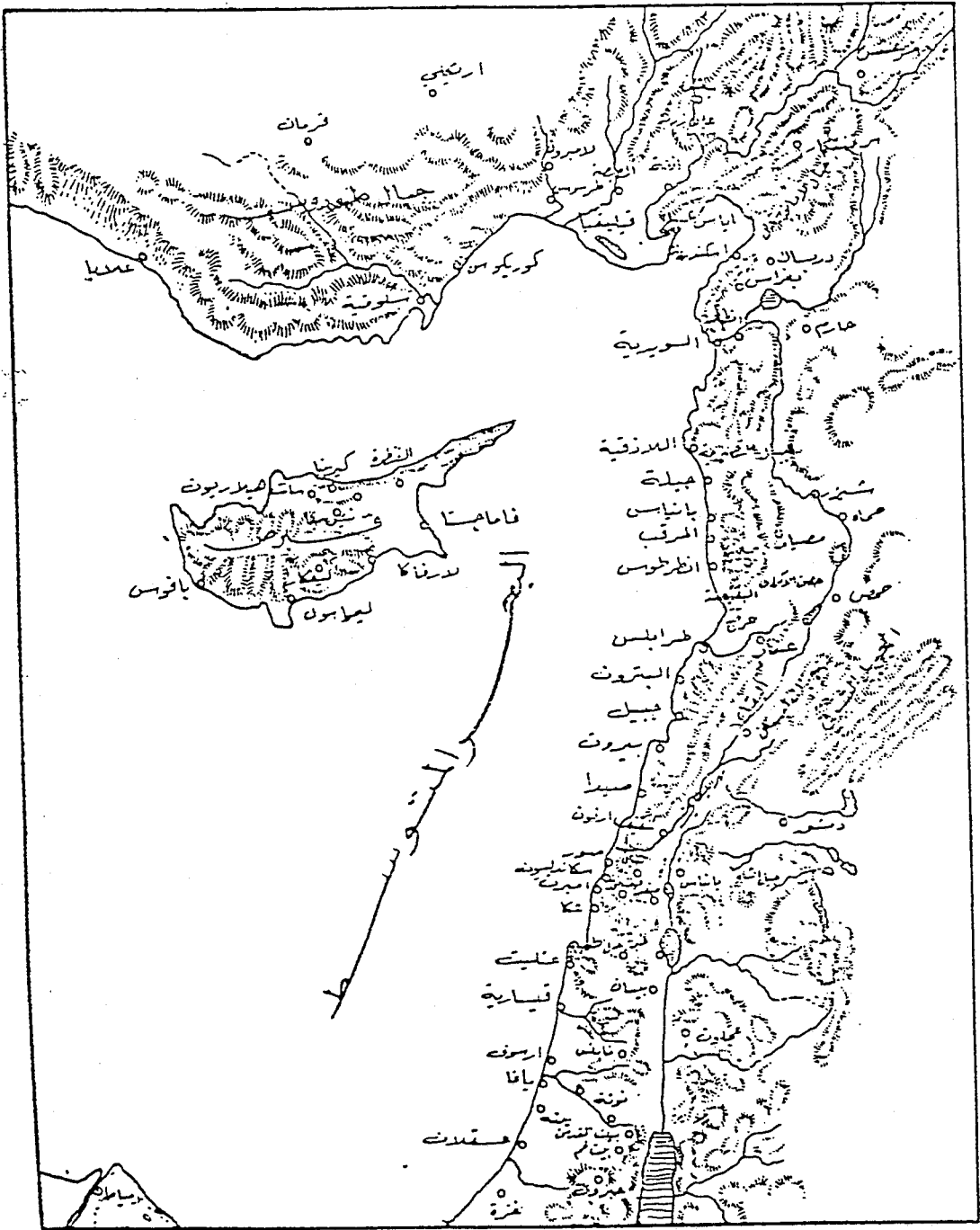
الخراط



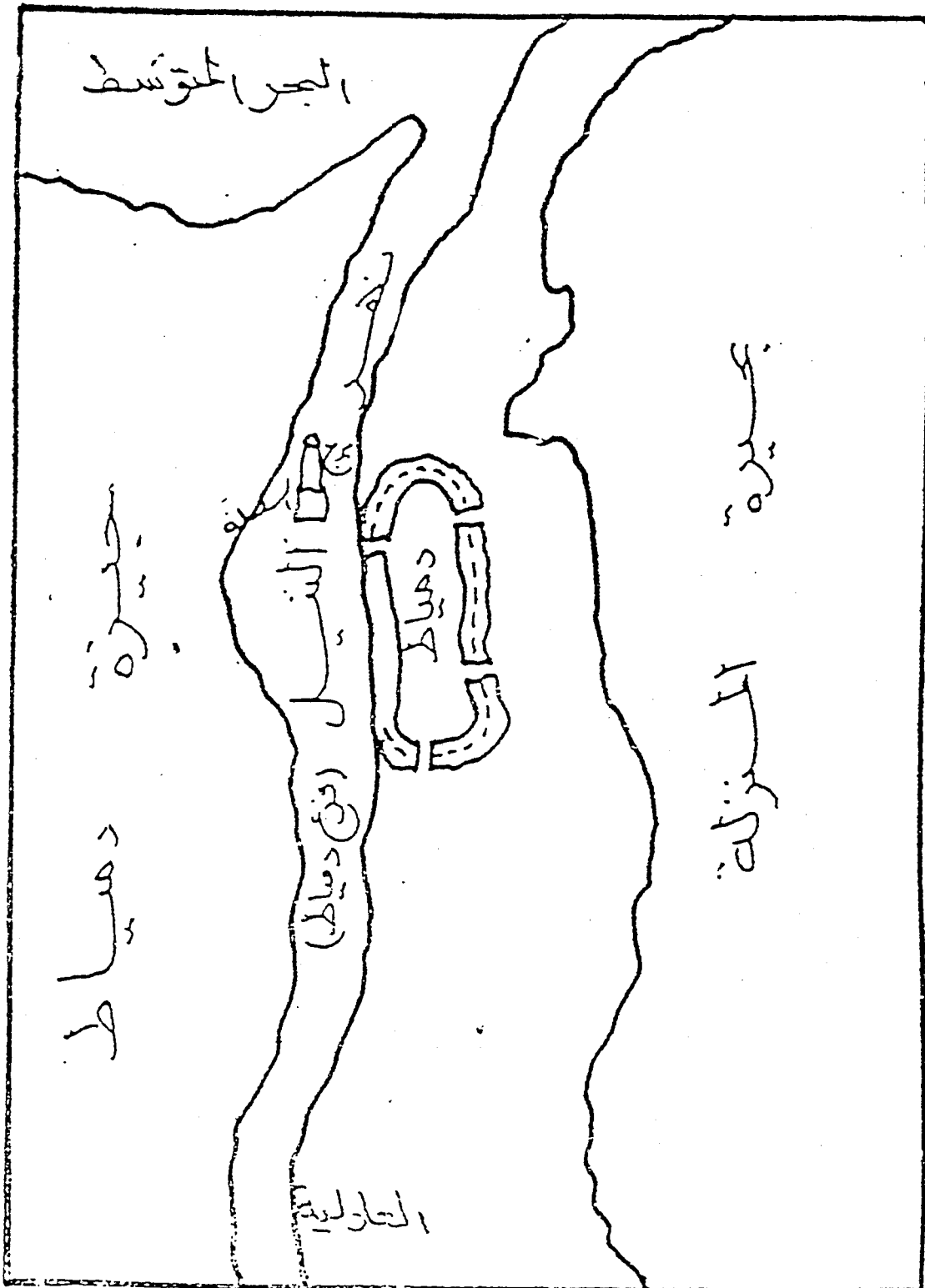
نقلا عن الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى



بلاد الشام عقب صلح الرملة ١١٩٢م / ٥٨٨ هـ - نقلا عن
محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة

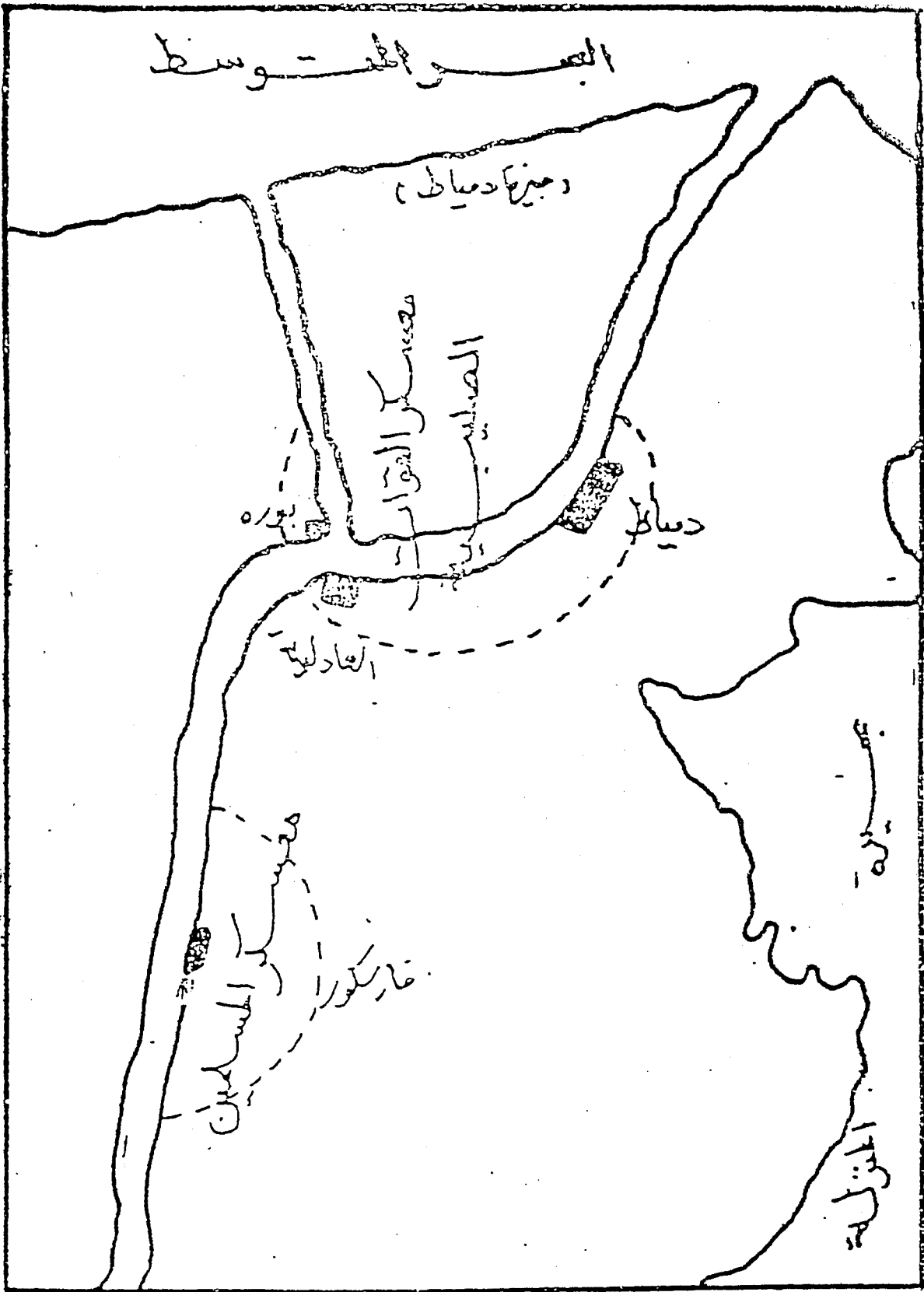


الشرق الأدنى في القرن الثالث عشر الميلادي - نقلا عن رنسيان : الحروب الصليبية .

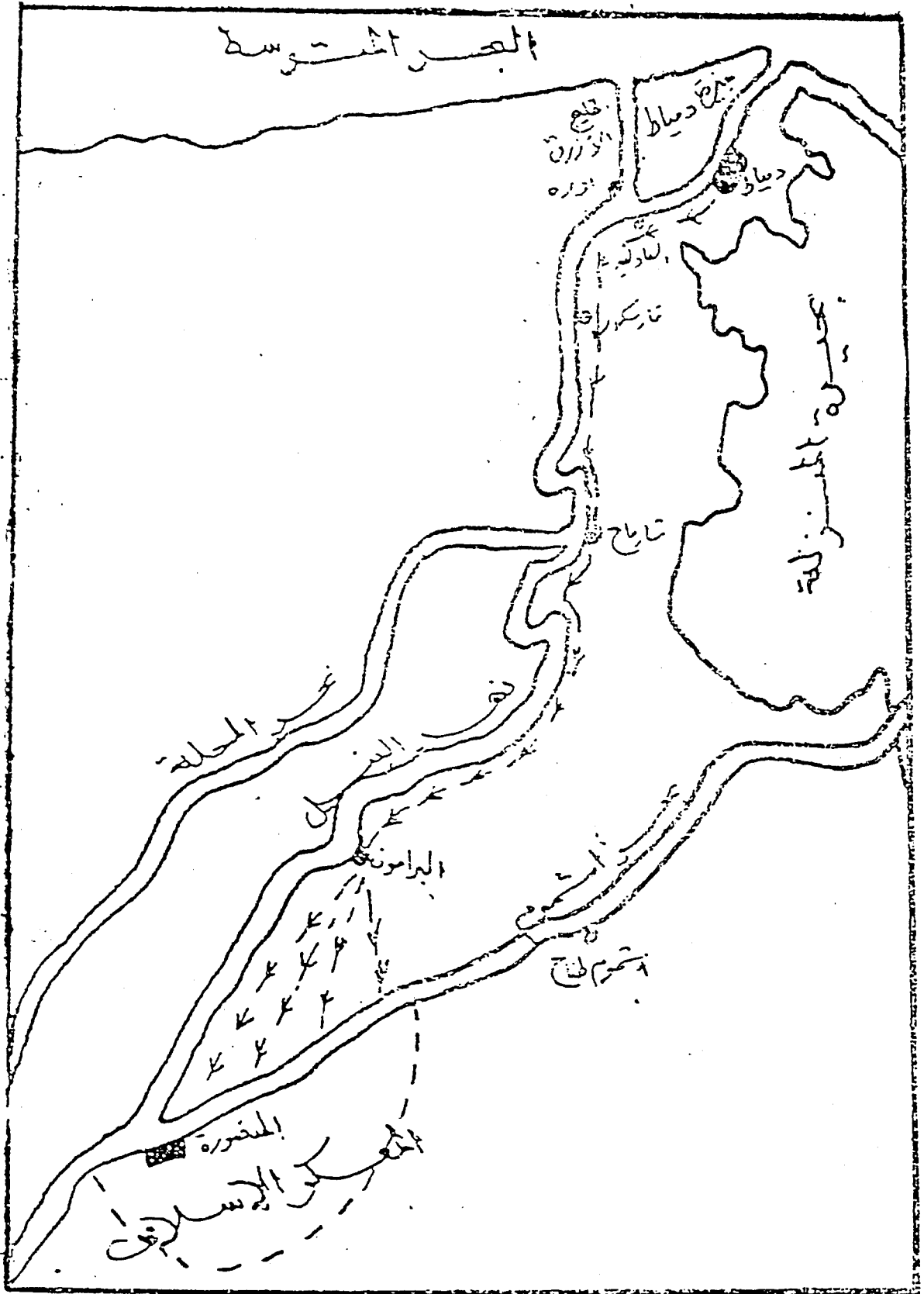


دمياط القديمة زمن الحملة الصليبية الخامسة

نقلا عن محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة .



مواقع القوات الاسلامية والصليبية بعد ٥ فبراير ١٢١٩ م /
 ١٨ ذو القعدة ٦١٥ هـ ، نقلا عن محمود عمران : الحملة
 الصليبية الخامسة .



← ← ← خط سير القوات الصليبية من دمياط الى المنصورة (ابتداءً من ١٧ يوليو ١٢٢١ م / ٢٥ جمادى الثاني ٦١٨ هـ) نقلا عن محمود عمران : الحملة الصليبية الخامسة .

